

ISSN: 2321-7928

الرقم الدولي:

مجلة الهند

مجلة فصلية محكمة

المجلد: 6 الأعداد: 4-1

يناير - ديسمبر 2017م

العدد الخاص

عن حياة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله تعالى

(الجزء الأول)

مدير التحرير

د. أورك زيب الأعظمي

المشارك في التحرير

د. هيفاء شاكري

نائب مدير التحرير

محمد عمران علي ملا

تصدر عن

مولانا آزاد آئيديل إيجوكيشنال ترست

بولفور، بنغال الغربية

المراسلات المتعلقة بالاشتراك في الطباعة والنشر توجه إلى:

عنوان البريد:

مولانا آزاد أنيديل إيجوكيشنال ترست،

بولفور، بنغال الغربية

رقم البريد: 731235

الهيئة الاستشارية

أ. د. فيضان الله الفاروقي (الهند)	أ. د. بشري زيدان (مصر)
د. صالح البلوشي (عمان)	السيد محمد دانيش الأعظمي (البحرين)

هيئة التحرير

د. أورنك زيب الأعظمي (مدير التحرير)	د. هيفاء شاكري (المشارك في التحرير)
د. محمد عمران علي ملا (نائب مدير التحرير)	د. محمد معتصم الأعظمي (عضو)

عنوان البريد الإلكتروني:

(1) aurang11zeb@yahoo.co.in

(2) azebazmi@gmail.com

موقع المجلة: www.azazmi.com

الاشتراك السنوي:

500 روبية (للطلاب) 1000 روبية (للأساتذة والمكاتب)

نشرها وطبعها محمد عمران علي ملا نائب مدير مجلة الهند، مولانا آزاد أنيديل
إيجوكيشنال ترست، بولفور، بنغال الغربية، رقم البريد-731235

في هذا العدد

الصفحة

- 7 د. أورنك زيب الأعظمي الافتتاحية
- مقالات وبحوث:
- 11 الإمام عبد الحميد الفراهي، حياته - الشيخ أمين أحسن الإصلاحي وأعماله ترجمة: محمود عاصم
- 31 المعلم عبد الحميد الفراهي - العلامة سيد سليمان الندوي
- 37 الإمام حميد الدين الفراهي - الشيخ شير محمد الإصلاحي الندوي
- 48 العلامة حميد الدين الفراهي في علي جراه - أ.د. أبو سفيان الإصلاحي ترجمة: أبو سعد الأعظمي
- 71 المعلم عبد الحميد الفراهي - د. أشفاق ظفر الإصلاحي وتلاميذه البارزون
- 82 الإمام الفراهي ودار المصنفين - أ.د. ظفر الإسلام الإصلاحي ترجمة: د. هيفاء شاكري
- 91 الإمام عبد الحميد الفراهي كما يراه العلماء الهنود والفضلاء العرب - د. عرفات ظفر الأعظمي
- 106 ملامح التجديد في تفسير القرآن الكريم (عند عبد الحميد الفراهي) - د. محمد إقبال أحمد فرحات
- 142 منهج عبد الحميد الفراهي في دراسة القرآن الكريم - د. أبو ذرمتين
- 156 نظرية الإمام الفراهي في الأصول من خلال (التكميل في أصول التأويل) - د. حسن يشو

العدد الخاص مجلة الهند

- 200 منهج الإمام الفراهي لتأويل - الشيخ محمد عمر الإصلاحي
الآيات ترجمة: د. محفوظ الرحمن
- 217 التفسير بالرأي والتفسير بالمأثور - الشيخ نسيم ظهير الإصلاحي
عند الإمام الفراهي ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي
- 227 إمام العربية والتفسير في شبه القارة - أ. د. أحمد حسن فرحات
الهندية
- 237 الإمام عبد الحميد الفراهي مفسراً وأديباً - أ. د. أبو سفيان الإصلاحي
- 265 العلامة عبد الحميد الفراهي - الشيخ آفتاب عالم الندوي
وتحقيق مفردات القرآن ترجمة: د. محمد عبد القيوم الإصلاحي
- 276 مفسر القرآن الإمام عبد الحميد - الشيخ سلطان أحمد الإصلاحي
الفراهي ونظريته عن الحديث النبوي ترجمة: محمد ياسر
- 292 بداية العهد الجديد في تاريخ النحو العربي - د. أورنك زيب الأعظمي
- 300 الآراء النقدية للعلامة الفراهي في - البروفيسور محمد راشد الندوي
ضوء كتابه جمهرة البلاغة ترجمة: عبد الكريم
- 312 جمهرة البلاغة - د. أحمد مطلوب
- 332 الإمام عبد الحميد الفراهي وكتابه - د. أورنك زيب الأعظمي
"جمهرة البلاغة"
- 360 الإمام عبد الحميد الفراهي: منهجه - د. حمدي عبد الله نافع
وأراؤه في قضايا العقيدة الإلهية
- 429 الإمام الفراهي ونظريته عن الإنجيل - البروفيسور أطفاف أحمد الأعظمي
ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي
- 452 الموقف السياسي للإمام الفراهي - أبو الأعلى سيد بن محمد عناية الله
- 466 الأستاذ عبد الحميد الفراهي - أ. د. أبو سفيان الإصلاحي
والعلوم الحديثة

العدد الخاص مجلة الهند

- 477 الجانب الاقتصادي في فكر الإمام - أ.د. عبد العظيم الإصلاحي
الفراهي
ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي
- 486 منهج القرآن الكريم في تربية - د. محي الدين غازي
العقول (قراءة في كتاب حجج
القرآن للعلامة الفراهي)
- 508 المزايا الأسلوبية لكتابات العلامة - د. عرفات ظفر الأعظمي
حميد الدين الفراهي
- 518 الإمام عبد الحميد الفراهي وخطب - د. أورنك زيب الأعظمي
رسائله وكتبه
ترجمة: د. محمد معتصم الأعظمي
- 528 العلامة عبد الحميد الفراهي - د. عرفات ظفر الأعظمي
ومساهمته في الشعر العربي
- 553 الدائرة الحميدية - د. أورنك زيب الأعظمي
قراءة في الكتب:
- 593 لمحات تعريفية عن كتاب "تعليقات - محمد شفاء الرحمن
في تفسير القرآن الكريم" للإمام عبد
الحميد الفراهي رحمه الله
- 608 إطلالة على "رسائل في علوم - د. وارث المظهري
القرآن" لحميد الدين الفراهي
ترجمة: محمد معراج الحق البغدادي
- 616 قراءة في كتاب "حكمة القرآن" - د. عظمت الله الندوي
للإمام الفراهي
- 622 الرأي الصحيح في من هو الذبيح - د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي
- 633 كتاب "في ملكوت الله" من أهم مؤلفات - البروفيسور أطفاف أحمد الأعظمي
الشيخ الفراهي رحمه الله تعالى
ترجمة: محمد شفاء الرحمن
- مقدمات الكتب:
- 670 فاتحة نظام القرآن وتأويل الفرقان - العلامة سيد سليمان الندوي
بالفرقان

العدد الخاص مجلة الهند

672	- الشيخ بدر الدين الإصلاحي	كتاب "دلائل النظام"
678	- الشيخ بدر الدين الإصلاحي	أساليب القرآن
681	- السيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي	إمعان في أقسام القرآن
685	- الشيخ بدر الدين الإصلاحي	ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي
		قصائد ومنظومات:
687	- الشيخ عبد الرحمن الكاشغري	ذكرى حميد الدين الفراهي

الافتتاحية

"ولم أر في بلاد الهند مثله في علوم الأدب العربي ----
والرجلُ فصيحٌ في التكلم لغاية، نادرٌ في علماء العرب فضلًا
عن علماء الهند".

هذه كلمات ذكرها العلامة تقي الدين الهاللي المراكشي عن شخصية نخصّ
بذكرها هذا العدد، ألا وهي شخصية الإمام عبد الحميد الفراهي (1863-1930م).

ولد الإمام الفراهي وترعرع في مدينة أعظم كره، مدينة كانت تخضع لديار تسمى
"يوروب" (الشرق)، ديار قال عنها الإمبراطور المغولي شاهجهان: "يوروب شيراز ما
است" (أي هذه الديار كمثل شيراز في إيران لكونها مركزًا للعلوم والآداب). ولد
الفراهي في هذه المدينة ونشأ في أسرة شريفة ذات علم وثقافة، ومن حسن الحظ
أنه وُفِّقَ التربية على يد علامة الشرق ومؤرخ الإسلام محمد شبلي النعماني. ربّاه
العلامة شبلي تربية جيدة يضرب لها المثل. ومن توفيق الله جلّ مجده أنه التزم
بالعلامة فيض الحسن السهارةنبوري الذي صقل مواهبه فجعل هذا الكوكب
شمسًا يستنير بها علماء الشرق والغرب على السواء فنظريته عن نظم القرآن
ومحاولته لتجديد فن البلاغة مما يفقد نظيره في خضم العلوم والفنون.

نهل هذا الإمام الجليل من كلا المنهلين القديم والجديد فأصبح في مدة قليلة للغاية
"مجمع البحرين" ولكن بحيث أن بينهما برزخًا لا يبغيان بل الواقع جعل البحر
الغربي خاضعًا للبحر الشرقي.

كان الإمام المرحوم بارعًا في العديد من اللغات؛ العربية والفارسية والعبرية
والإنجليزية بجانب تضلعه من اللغات المحلية كالسنسكريتية والهندية والأردية،

العدد الخاص مجلة الهند

ولقد تعرّف على علوم الغرب كما ملك ناصية علوم الشرق من الحديث والفقه والمنطق والحكمة والشعر، ولكن هذه كلها كانت وسائل لفهم كتاب الله الحكيم فألقى عصا ترحاله العلمي أخيراً لدى القرآن الكريم الذي كان شغف ليله ونهاره، قيامه ومنامه.

ولو أن الإمام توظّف في مختلف المعاهد والجامعات وخدم شتى الرجال والحكومات، وورد وصدر من خدمة العديد من العلوم والفنون والآداب إلا أنه لم يغفل في طور من أطوار حياته العلمية والأدبية عن كتاب الله العزيز الذي يعتبره الإمام محط أنظاره ومركز أفكاره ومهبط جلّ مجهوداته بعد أحاديث الرسول الكريم الذي نزل عليه هذا الترياق الرباني وهذا الماء الزلال، وصدق حيث قال:

"ولما كان هذه المشاغل تمنعني عن التجرد بمطالعة القرآن المجيد لا يعجبني غيره من الكتب التي مللت النظر في أباطيلها، غير متون الحديث وما يعين على فهم القرآن، فتركّت الخدمة ورجعت إلى وطني وأنا بين خمسين وستين من عمري. فيا أسفى على عمر ضيّعته في أشغال ضرّها أكبر من نفعها ---".

ولقد خدم الإمام الفراهي القرآن أكثر من خمسين سنة ففي هذه المدة الطويلة كان القرآن مركز تفكيره فتدريسه وتأليفه. وخير تعبير لهذا الواقع مقال تلميذه العلامة سيد سليمان الندوي الذي كتب بعد وفاته:

"انقطع إلى تدبر القرآن ودرسه. والنظر فيه من كل جهة، وجمع علومه من كل مكان، فقضّى فيه أكثر عمره، ومات وهو مكبّ على أخذ ما فات من العلماء، ولفّ ما نشره ولمّ ما شتّوه، وتحقيق ما لم يحقّقوه. فكان لسانه ينبع علماً بالقرآن وصدره يتدفق بحثاً عن مشكلاته، وقلمه يجري كشفاً عن معضلاته".

العدد الخاص مجلة الهند

فقد ربّى الإمام على منهجه الخاص لتدبر القرآن وتفسيره جيلاً من العلماء وعلى رأسهم الشيخ أمين أحسن الإصلاحي والشيخ أختر أحسن الإصلاحي فالأول ألف تفسيره الشهير "تدبر قرآن" كما قام الآخر بتربية جيل من العلماء واصلوا هذا المسير العلمي المبارك.

وعلاوة على هذه الكوكبة النيرة من تلاميذه البارزين في مجال الدراسات القرآنية خلف الإمام الفراهي حوالي سبعين كتاباً ورسالة من بين مطبوع وغير مطبوع، وتام وغير تام. ويبدو بنظرة خاطفة على هذه الثروة العلمية الثمينة أنّ الإمام الفراهي قد رسم خطة شاملة للدراسات القرآنية وحاول أن يجعل القرآن مصدرًا لكافة العلوم ومركزًا لأجمعها فلو وفق إتمام هذه الخطة لترك للأوساط العلمية من الأعمال ما يعجز عنه الجماعات والمجامع.

فمن أجل أعماله في الدراسات القرآنية تفسيره الجليل غير التام "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" الذي نشرت بعض أجزائه و"الرأي الصحيح في من هو الذبيح" و"إمعان في أقسام القرآن" و"جمهرة البلاغة" و"دلائل النظام" و"التكميل في أصول التأويل" و"مفردات القرآن" و"أساليب القرآن" و"في ملكوت الله" و"القائد إلى عيون العقائد" و"الرائع في أصول الشرائع" و"إحكام الأصول في أحكام الرسول" و"معرفة الناسخ والمنسوخ". ولما رأى بعض أجزاء تفسيره العلامة رشيد رضا قال:

".... وقد ألقينا على بعض هذه الرسائل لمحة من النظر فإذا طريق جديد في أسلوب جديد من التفسير... وأن للمؤلف لفهًا ثاقبًا في القرآن وأن له فيه مذاهب في البيان وطرائق في الاستطراد ----".

وللعلماء والعرب والهنود انطباعات مفيدة عن مؤلفاته ورسائله وستقرأون بعضًا منها في هذا العدد الخاص.

العدد الخاص.....مجلة الهند

ولقد ألف الإمام الفراهي جلّ ما ألف بالعربية سوى كتيبين أو ثلاثة وكانت لغته فصيحة للغاية وخالية عن الأخطاء اللغوية التي قلما نجا منها العلماء الهنود. يشهد بهذه الصفة العلامة تقي الدين الهلالي الذي كان عالماً كبيراً وشاعراً للعربية فقد قرأ العلامة الهلالي خطبة تفسير الإمام الفراهي التي سننشرها في أحد أجزاء هذا العدد الخاص إن شاء الله تعالى فيقول العلامة كما يلي:

”----وسمعت منه خطبة تفسيره للقرآن اغرورقت منها عيناى لفصاحتها وحقيتها“.

لا أريد أن أطيل على القراء فهذا أول جزء من العدد الخاص بحياة وأعمال الإمام الفراهي وهو يشمل أربعين مقالة بما فيها قراءات في كتبه ومقدمات لرسائله ألفها الآخرون.

ندعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا للمزيد من خدمة القرآن وصاحبه ومن قام بخدمته.

د. أورك زيب الأعظمي

الإمام عبد الحميد الفراهي، حياته وأعماله

- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي¹

ترجمة: محمود عاصم²

ولادته وأسرته: ولد الإمام عبد الحميد الفراهي في قرية "فريها" التي تقع في مديرية أعظم جره من ولاية أترابرديش في عام 1280 من الهجرة. تمتاز أسرته من حيث العلم والعز من بين الأسر الكريمة في منطقته. والفراهي ابن خال العلامة شبلي النعماني.

وكان يعرف بكلا الاسمين، عبد الحميد وحميد الدين ولكنه كان يفضل ويكتب اسمه على كتبه عبد الحميد لأن حميد الدين هو لقب حسب قواعد اللغة العربية وفيه نوع من الرياء.

تعليمه الابتدائي وتبحره في الفارسية: تلقى تعليمه الابتدائي في بيته. حفظ القرآن أولاً ثم تعلم اللغة الفارسية. وأصبح ماهراً فيها حتى بدأ يقرض الشعر. وقد وجد الذوق الشعري في فطرته ولذا نراه يقرض الأبيات مثل الأساتذة المهرة في هذا المجال. عرض العلامة شبلي النعماني قصيدة قرضها الإمام الفراهي في تلك الفترة على أستاذه الشيخ فاروق التشرياكوتي وسأله عن قائل هذه الأبيات. كان الشيخ فاروق من أشهر علماء الزمان وناقداً للشعر. تدبر الشيخ تلك الأبيات وقال: لا أعرف من القائل ولكنها تبدو من أبيات القدماء من حيث الأسلوب واللغة.

تعلّمه العربية: تعلّم معظم علوم اللغة العربية من العلامة شبلي النعماني. وكان النعماني يكبره ست سنوات ولكنه كان يتقن العلوم العربية بسبب تعلمه على كبار العلماء. وكان العلامة شبلي يحبه حباً جماً بسبب قرابته معه وخصائصه

¹ تلميذ الإمام الفراهي وترجمان نظرياته التفسيرية

² باحث، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي

الشخصية وقام بتعليم الإمام الفراهي بعناية كبيرة مثل الأخ الشفيق. تعلّم الإمام الفراهي علم النحو والصرف والمنطق والفلسفة منه أيضًا وأصبح ماهرًا في هذه العلوم بسبب مواهبه الفريدة.

ومن المناسب أن نذكر هنا ما حدث في يوم من الأيام أثناء التدريس لبيان طريقة تدريس العلامة شبلي وفطنة الإمام الفراهي. ذكر الأستاذ الفراهي أنه كان يدرس كتاب "مقامات الحريري" في ذلك الوقت، وكان العلامة شبلي يحدد يوميًا جزءًا منه لكي يأتي التلميذ به بعد تحليل تراكيبه وحلّ معانيه. وإذا أخطأ التلميذ فينبهه الأستاذ، وكان الكتاب قيد الدرس خاليًا من التشكيل والحاشية. وكان الفراهي يبذل جهوده لحلّ الكتاب وقليلًا ما تسنح الفرصة للتنبيه. ومرة كان هناك إشكال في تحليل العبارة التي كانت تقرأ، ونبه العلامة شبلي، فكرر الإمام الفراهي نفس الكلمة فنبهه العلامة شبلي مرة أخرى، ولكنه استمر في نفس القراءة، فغضب العلامة شبلي ولطمه عدة مرات، ولكنه سرعان ما شعر بخطئه وقدم اعتذاره إلى تلميذه. ومنذ ذلك الوقت أصبح العلامة يعتمد على الفراهي اعتمادًا كاملاً ونادرًا ما كان ينبهه.

رحلته العلمية إلى لکناؤولاهور: بعد إرواء غليله من منبع العلامة شبلي، توجه الإمام الفراهي للاستفادة من الأساتذة الكبار في عصره. وكان صيت الشيخ أبو الحسنات عبد الحي اللکناوي الفرنجي محلي قد بلغ أوجه في ذلك الزمن ولذا شارك في درسه لتعلم الفقه ولكنه لم يمكث هنا طويلاً بسبب ميله إلى البحث والتحقيق الذي ضَعَفَ في مصاحبة العلامة شبلي.

وبعد لکناؤ، رحل إلى لاهور للاستفادة من الأديب الشهير فيض الحسن السهارنيوري الذي كان أستاذًا في كليتها الشرقية ولا يوجد له نظير في تعليم الأدب العربي في البلد كله في تلك الفترة. وكان أيضًا أستاذ العلامة شبلي في الأدب. استفاد الإمام الفراهي منه استفادة كبيرة وأكمل دراسة العلوم الأدبية في ظل أستاذه ولطفه. ويذكر الإمام الفراهي دومًا قدرات أستاذه وحنانه عليه. وعلاقة

العدد الخاص مجلة الهند

التلميذ مع الأستاذ كانت وثيقة إلى حد أنه طبع ديوانه بعد وفاته على نفقته وقرض عند وفاة أستاذه مريثة عربية ينبي كل شعر منها بألم وحب وتقدير له.

كذلك كان الأمر من ناحية الأستاذ. كان الأستاذ يكرم تلميذه إكرامًا بالغًا. وهب تلميذه مسودة شرح "المعلقات السبع" المكتوبة بخطه للذكرى وكتب عليها كلمات الثناء لتلميذه الذي افتخر بها دائمًا. وكان الإمام الفراهي يقدر تلك الهدية الثمينة من أستاذه تقديرًا بالغًا. وأشار إليها مرة بفخر وقال: إن الأعمال مثلها من صنع اليد اليسرى لأستاذي، وفي ذلك تلميح لطيف يفهمه من كان يعرف أن الشيخ السهارنبوري كان يكتب بيده اليسرى.

تعلّم اللغة الإنجليزية: بعد تفرغه من دراسة العلوم العربية والإسلامية، اتجه الإمام الفراهي إلى تعلّم اللغة الإنجليزية في كلية علي جره وكان يبلغ من عمره عشرين سنة في ذلك الوقت. وقد أجاد الإمام الفراهي العلوم العربية والفارسية إلى درجة أن السير سيد أحمد خان، مؤسس الكلية كتب في رسالة التوصية إلى مديرها الإنجليزي:

إنني أرسل إليك طالبًا يقدر على العلوم العربية والفارسية ليس أكثر من طلاب كليتك فحسب بل من أساتذتها أيضًا. وكان العلامة شبلي النعماني يقوم بتدريس اللغة العربية في ذلك الوقت في تلك الكلية. عندما قرأ المدير هذه الرسالة فلم يعجبه الأسلوب فذهب بها إلى العلامة شبلي وسأله عما كتب سيد أحمد خان عن طالب؟ ألا يوجد أحد هنا أقدر من هذا الطالب؟ أليست هذه إهانة للأساتذة مثلك هنا. وكان المدير يريد أن يلجئه إلى الغضب، ولكنه أجاب برفق ولطف أنه يمكن أن يكون هذا الشيء بمثابة إهانة لكم ولكن هذا فخر لي لأنني أنا من درّس العلوم العربية والفارسية لهذا الطالب الذي يمدحه السيد أحمد خان هكذا.

وفي نفس الفترة طلب منه السيد أحمد خان ترجمة بعض أجزاء السيرة النبوية من "طبقات ابن سعد" إلى الفارسية ووجد مستوى اللغة عاليًا وأمر بإدخال هذه الترجمة في المقررات الدراسية. وفي فترة طلب علمه في علي جره أراد السيد أحمد

خان طبع رسالة قلمية من رسائل الإمام الغزالي وقد أضرت بها دودة الكتب في بعض أجزاء منها. وكان السيد أحمد خان يجلس مع العلامة شبلي وألطف حسين حالي على الأغلب ويقومون بتصحيح الجمل والعبارات المقطعة، ولكن هذا العمل كان يتطلب جهدًا شاقًا. وذات يوم اقترح شبلي بتسليمه إلى عبد الحميد، فتحير السيد أحمد خان على هذا الرأي حيث أن العمل يحتاج إلى جهد كبير من الأساتذة مثل شبلي وحالي، فكيف يمكن لطالب أن يقوم به.

ولكنه طلب الإمام الفراهي ذات يوم وسلّمه نسخة من الكتاب وأخبره أنه وضع الخطوط حول الكلمات المقطعة وطلب منه كتابة الكلمات المناسبة. وحينما أعطى الفراهي النسخة المصححة للسيد أحمد خان، قام بمقارنتها بنسخها الأخرى، وتحير أن الإمام الفراهي كتب نفس الكلمات أو الكلمات الأقرب الموجودة في النسخ الأخرى، فتأثر السيد أحمد خان بقدرات الإمام الفراهي. وسأله ما الذي ساعده في وضع الكلمات المناسبة وما الذي أرشده في هذا العمل الشاق؟ فأجاب الإمام الفراهي أنه أخذ المساعدة من سياق الكلام ولغة الإمام الغزالي في هذا التعيين وأرجو أن يكون صحيحًا في معظم الأماكن.

وفي علي جره تعلّم الإمام الفراهي اللغة الإنجليزية والعلوم الأخرى بالإضافة إلى علم الفلسفة الجديدة بوجه خاص. وكان أستاذ الفلسفة في ذلك الوقت في علي جره المستشرق الشهير الدكتور آرنلد. درس الإمام الفراهي منه الفلسفة، ولكنه لم يكن يحبّ دروسها، بل يعتبر تدريس الفلسفة جزءًا من مؤامرة الإنجليز في علي جره. وكان الناس في علي جره يمدحون كتاب البروفيسر آرنلد Preaching of Islam (نشر الإسلام)، ولكن الفراهي كان ينتقد الكتاب بشدة، وكان يقول إن هذا الكتاب قد ألّف لاستئصال روح الجهاد من بين المسلمين.

حصل الفراهي على شهادة البكالوريوس من جامعة إله آباد، وجهز نفسه للماجستير ولكنه لم يجلس في الامتحان، لأنه سلك طريق التحقيق والبحث ومجرد الحصول على الشهادة لأجل اسم الشهادة كان مخالفًا لطبعه.

العدد الخاص مجلة الهند

الوظيفة: كان الإمام الفراهي ينتمي إلى أسرة ثرية ولم يكن في حاجة إلى وظيفة من أجل لقمة العيش ولكنه - ولأسباب لا يناسب ذكرها هنا - قرّر أن يحصل على وظيفة بعد الدراسة. ولذا في البداية أصبح أستاذ اللغة العربية في مدرسة الإسلام في كراتشي وقضى عدة سنوات هناك. وفي نفس الفترة تقريباً من عام 1900 م أراد حاكم الهند الإنجليزي اللورد كرز أن يقوم بزيارة منطقة السواحل العربية وخليج فارس لتكوين العلاقات السياسية مع الزعماء العرب. وكان في حاجة إلى شخص يعرف اللغتين - العربية والإنجليزية معاً. تم اختيار الإمام الفراهي لهذه المهمة، ولم يكن راضياً لينضم لهذا الوفد لكنه اضطر بسبب الضغط من العلامة شبلي. وهذه كانت فرصة سانحة لأي شخص أن ينتفع بها المنافع الدنيوية ويفتخر بها. ولكن الإمام الفراهي لم يرغب في شيء من الحكومة الإنجليزية ولم يعتبر قط هذا الحدث سبباً للعز والافتخار. ولكنه - كما أظن - كان يعتبر ذلك خطأ سياسياً ولم يكن يحب أن يقوم أي شخص أمامه بذكر هذا الحدث.

مكوته في علي جره: بعد عودته من هذه الرحلة تم تعيينه كأستاذ اللغة العربية في علي جره. وكان المستشرق الألماني الشهير يوسف هارويز أستاذ اللغة العربية في تلك الفترة. فأكمل يوسف هارويز تعلم اللغة العربية من الإمام الفراهي، ودرس منه الفراهي اللغة العبرية، وأصبح ماهراً فيها حيث جعل يستفيد من الكتب العبرية بشكل مباشر. وخاصة في بحوثه القرآنية فيما بعد.

وفي نفس الفترة تقريباً رغب السيد أحمد خان في ترجمة تفسيره إلى العربية واختير الأستاذ الفراهي لهذا العمل ولكن عندما تم تقديم هذا الاقتراح للإمام الفراهي أجاب: "أنا لا أريد أن أساهم في نشر المعصية". وبعد هذا الجواب لم يجرؤ أحد أن يقترح هذا أمامه مرة أخرى. بل تم التخلي عن فكرة الترجمة لهذا التفسير إلى العربية.

إقامته في حيدر آباد: وبعد إقامته في علي جره لسنوات عيّن الإمام الفراهي أستاذ العربية في جامعة إله آباد ومن هنا اختير على منصب مدير دار العلوم

بحيدر آباد. وفي ذلك الوقت كانت دار العلوم أكبر مدرسة رسمية تصنع رجالاً مهرة في المجالات المختلفة للحكومة.

وخلال فترة إقامته في حيدرآباد تخيل الفراهي جامعة تدرس فيها جميع العلوم الدينية والعصرية باللغة الأردية. ولو أنه لم توجد الفرص المتواجدة في تلك الفترة لتكون الأردو لغة التدريس ولكن الإمام الفراهي أعد خطة كاملة للجامعة وقدمها أمام السلطات المسؤولة فوافقت عليها وبرز هذا التخیل في صورة جامعة تعرف اليوم بالجامعة العثمانية الشهيرة الواقعة في حيدرآباد.

وإبان قيامه لم يشغل باله إلا بالمشاغل العلمية ولم يهتم بقاء نظام (ملك) حيدرآباد بالرغم من رغبة النظام. ولم يرتبط بأي علاقات مع الأمراء والأثرياء الآخرين في حيدرآباد إلا ببضعة علماء. وحينما أصر عليه عدة أشخاص بقاء النظام رضي دون رغبة منه. ولكنه حينما التقى به أخبره أنه لن يمكث في حيدرآباد. وكان النظام يريد أن يبقى في حيدرآباد ولكن الإمام الفراهي لم يرض بذلك.

ويدرك من يعرف حيدرآباد والنظام أهمية لقاء مثله، ولكنه لم يكن مهماً عند الإمام الفراهي حيث سألته أكبر حيدري عما دار بينهما في اللقاء فأجاب: مثل ما يكون بيني وبينك، فرد عليه الحيدري أنه عرف سرّ عدم خوفه وخضوعه لأحد. فمن لم يطمع لا يخاف أحداً.

مدرسة الإصلاح ودار المصنفين: رجع الإمام الفراهي إلى موطنه بعدما قدّم الاستقالة من وظيفته في حيدر آباد ووجد الفرصة السانحة لكي يتجه إلى الشؤون العلمية والإدارية في مدرسة الإصلاح ودار المصنفين والتي كانت لها علاقة مباشرة به، ولكنه لم يكن يجد فرصة الاعتناء بها بسبب عمله في حيدر آباد.

مدرسة الإصلاح هي مدرسة دينية تقع في بلدة سرائ مير بمديرية أعظم جره في ولاية أترابرايش وقد تم تأسيسها على أفكار الإمام الفراهي والعلامة شبلي، ويتركز التعليم فيها على تدريس الأدب العربي والقرآن الكريم والبحث في هذه العلوم وتبذل جهودها في نفس المسار منذ نصف قرن تقريباً.

وكان الفراهي مديراً لهذه المدرسة منذ تأسيسها ولكنه لم يتمكن من المساهمة في تطويرها وترقيتها بشكل مباشر بسبب وظيفته في حيدرآباد. وبعد ترك الوظيفة تفرغ بشكل تام بشؤون هذه المدرسة. وخلال فترة عام 1925-1930م (وفاته) بذل جهوداً كبيرة للمدرسة، كان يقيم فيها ثلاثة أيام في الأسبوع. ويدرس الأساتذة وطلاب الصفوف النهائية القرآن الكريم، ويفيد المسؤولين بأفكاره التعليمية والإصلاحية ويزيل الشكوك بهذا الصدد. وقد اختار نخبة من الرجال ورباهم أحسن تربيتهم لكي يسيروا على مساره بعد وفاته في استمرار مهمته العلمية والإصلاحية.

وفاته: كانت صحته العامة جيدة، وكان يلتزم دائماً بالرياضة البدنية، ولكنه كان يعاني من مرضين أولهما الصداع الشديد، فإذا بدأ لم يستطع أن يفعل أي شيء. والثاني هو احتباس البول، وقد واجه هذه المشكلة عدة مرات، واضطر إلى إجراء عملية جراحية لم تنجح. وكان قد سافر لإجراء العملية من أعظم جره إلى مدينة ماثورا عند طبيب من موطنه، وتوفي هناك في 19 جمادى الثانية 1349هـ الموافق 11 نوفمبر 1930م، ودُفن هناك في مقبرة الفقراء.

تدبر القرآن: ولو أن الإمام الفراهي كان فلسفياً ومتكلماً وأديباً وشاعراً للغة العربية والفارسية، إلا أن كل هذه الخصائص لم تغلب على انشغاله بالقرآن. وكان القرآن يسيطر على قلبه وكان شغله الشاغل، وقد تدبر كل آية من القرآن بل كل كلمة من القرآن ما يستحقه كلام منزل من عند الله.

ولم يعط حق القرآن في تدبره فحسب بل طالع كل ما وجد من قديم وجديد وكل ما يساعد في تفهيم القرآن بدراسة نقدية. وكان على علم بكل بيت للشعراء القدماء من العرب ما يساند في فهم القرآن. وكان يعرف كل خطبة للعرب أيام الجاهلية والتي يمكن أن تساعد في فهم القرآن بأي طريقة، وكان على معرفة تامة بمواد التوراة والإنجيل وكان يستفيد منهما بشكل مباشر بسبب علمه باللغة العبرية. وقد طالع أجزاء علم الجغرافيا والتاريخ التي لها أي علاقة مع القرآن، ودرس الأحاديث والفقه

على أساس القرآن. وطالع فروع علم الفلسفة الجديد الذي قد تساعد في فهم ومقارنة أصول القرآن الاجتماعية والسياسية وما فوق الفطرية.

وقد بدأ تدبر القرآن كما ذكر في مقدمة تفسير "نظام القرآن" حينما كان يدرس في علي جره. وهي نفس الفترة التي كان يقوم فيها السيد أحمد خان بتأويل آيات القرآن حسب رغبته بسبب تأثره الشديد بالأفكار الغربية. وكان المسلمون الذين تأثروا كذلك بالأفكار التي جاء بها الإنجليز يقبلون هذه التأويلات. وقد اعتبر الفراهي هذه الفتنة نتيجة طبيعية لسيطرة الإنجليز، وفي نفس الوقت وجد أن المنهج السائد عند المسلمين لفهم القرآن هو منهج قديم غير سليم. وهو الذي أدى إلى ضعف المثقفين المسلمين فكريًا حيث يتأثرون بكل فتنة بكل بساطة. وقد أرشده الله إلى حلّ هذه الأوضاع حيث اختار منهجًا مستقيمًا لتدبر القرآن والذي يساعدهم على مواجهة العقلية الغربية الفاسدة.

ومن ثم غض الفراهي النظر عن منهج فهم القرآن السائد عن طريق التفاسير وركّز على منهج فهم القرآن بشكل مباشر. وأرشده الله إلى أصول وقواعد فهم القرآن التي ذكرها الإمام في مقدمة تفسير "نظام القرآن"، وحاولت توضيحها في تفسيري المعروف بـ"تدبر قرآن". وهذه هي نفس الأصول التي راعاها الإمام الفراهي في تفسيره.

بدأ الإمام الفراهي تدبر القرآن كما ذكر سابقًا حينما كان طالبًا. ومنذ ذلك الوقت استمر في هذا العمل إلى وفاته. كان يملك ذهنيًا فطنتًا وكان لا يضيع أي لحظة في أي عمل تافه غير متعلق بالقرآن. ومن هنا يبرز سؤال: ما هي جوانب القرآن الكريم التي ركّز عليها الإمام الفراهي؟ وترشدنا كتب الفراهي إلى الإجابة، والتي سوف نذكرها في الصفحات القادمة. ويمكن تخيل نطاق البحث والتحقيق والتدبر الذي بدأه الإمام الفراهي حيث لا يكفي عمر احد بل عدة أعمار لإكمال العمل.

الإمام الفراهي وعلم الحديث: لا بد أن نشير إلى فتنة بهذا الصدد حيث يعتبر بعض من أنكر الحديث أن الفراهي- العياض بالله- أيضًا معهم. بدأت هذه الفتنة من

العدد الخاص مجلة الهند

مقالة للشيخ عبيد الله السندهي الذي كتب فيها عن الإمام الفراهي أشياء تستند إلى سوء الفهم وتسيء الفهم عنه. وبدأ منكرها الحديث يقولون إنهم ليسوا بمفردهم في هذا المجال بل يشاركونهم الأفكار باحث ومفسر ومحقق مثل الإمام الفراهي. وقد كتبت مقالة في رد ما كتبه الشيخ عبيد الله السندهي طبعته في مجلة "معارف" الصادرة من أعظم جره، وقمت بمناقشة جميع الجوانب التي أدت إلى إساءة الفهم. وبعد مقالتي زال سوء الفهم عند الشيخ عبيد الله والأشخاص المتفهمين مثله. والدليل على ذلك أنني التقيت بالشيخ عبيد الله في مدينة لاهور في عام 1941م فجاء ذكر مقالتي. وأتذكر أن الشيخ عبيد الله عبّر عن أسفه بأن مقالته سببت سوء الفهم عن صديق حبيب له أي الإمام الفراهي. ولعله اعتبر مقالتي تلك كافية لإزالة سوء الفهم ولم يشعر بحاجة للكتابة عن هذا الموضوع بنفسه.

أنا أعرف الإمام الفراهي أكثر بكثير من الشيخ عبيد الله السندهي والأشخاص الآخرين. قضيت ست سنوات كاملة في صحبته. وفي هذه الفترة لم تفت فرصة حيث لم أناقش معه الشؤون الأدبية والدينية والسياسية والعلمية تقريباً كل يوم، وكنت أناقش هذه الشؤون بكل صراحة وأسأله عن آرائه وأزيل شكوكي بشأن هذه الأمور. وأصرح بكل وثوق ودقة أنني لم أظن قط أن آراء الإمام الفراهي عن الحديث مختلفة عن الباحثين المسلمين الآخرين. فقد طالع الإمام الفراهي جميع كتب الأحاديث المستندة بكل دقة وإمعان وتحقيق وكان يعتبر معظم الأحاديث مستنبطة من القرآن وكان يذكر تحقيقاته أمامنا. وتوجد مسودة ناقصة من بين مؤلفاته تناقش هذا الموضوع.

وكان يتبع السنن بشدة وكنت أشعر أنه ينظر إلى "زاد المعاد" لابن القيم في اتباع سنن الرسول ﷺ وكان منهج تفكيره قائماً على الحكمة. ولذا كنت أظن قبل مصاحبته أنه لا يخوض في الأمور الفرعية. ولكنه كان يحاسب تلامذته وأصدقائه على أشياء بسيطة في اتباع السنن، حتى أنه في بعض الأحيان كانت تحدث بينه وبين المثقفين مشادات ومناقشات في مثل هذه الشؤون.

اعترض عليّ مرة حيث كانت أطراف سروالي تحت الكعبين وكنت أظن أن الاعتراض على مثل هذه الأمور أشياء تافهة يكبرها حملة لواء الدين، ولذا استغربت من اعتراضه. فبدأنا نناقش ووصلنا إلى الأحاديث التي وردت في هذا الباب فقدّمت آرائي عن تلك الأحاديث ولكن الإمام الفراهي أجاب عليّ بحكمة وقعت في قلبي، فأخبرته بأنني سأكون سعيداً إن قصّ هو بيده ما تحت الكعبين من سروالي، فضحك الإمام وطلب المقص وفي الحقيقة قصّ من سروالي ما زاد على حدود الشرع.

وهكذا بدأنا نناقش مرة عن اللحية وكان الإمام الفراهي يوضح أهميتها في الدين، وكنت أحاول أن أثبت أن اللحية ليست لها تلك الأهمية التي أعطيت لها. فحاول الإمام الفراهي أن يقنعني بالأحاديث الواردة بهذا الصدد ولكنه حينما رأى أنني لن أقبل بأهميتها تلك قال: نفترض أن اللحية ليست لها أهمية كبيرة ولكن هل ينكر أحدٌ أن هذا الشيء الصغير يرشدنا إلى أشياء كبيرة، فقلت وكيف ذلك؟ فأجاب مثلاً نستطيع تعيين اتجاه شيء عظيم كالرياح بنثر بعض الرماد البسيط، فبنفس الطريقة يدل وجود اللحية على وجه شخص أو عدمه على ميله إلى الإسلام أو غيره. فسكتت بعد هذه الإجابة وشعرت أنه من الممكن أن لا تكون للحية أهمية كبيرة في الدين، ولكنها بمثابة مقياس الضغط الجوي (البارومتر) لميل القلب عند المسلم، وإن كانت هذه هي الحقيقة فلا شك أن للحية أهمية كبيرة ويجب أن تكون كذلك.

هذا هو الإمام الفراهي الذي يتبع السنة بدقة وشدة، فكيف يمكن اتهامه بإنكار الأحاديث؟ ولا يمكن هذا إلا لمن لا يخاف الحساب في الآخرة. وقد طبعت له عدة مؤلفات والترجمة الأردية لبعض أجزاء من تفسيره "نظام القرآن". ويمكن للمطلع عليها أن يقرر إن كان الإمام الفراهي يؤمن بالأحاديث أو ينكرها. يستدل الفراهي في مؤلفاته كلها بالأحاديث مثلاً يستدل بها العلماء المحققون الآخرون في الإسلام. وإذا انتقد حديثاً فيسير على نفس الأصول والضوابط التي يسير عليها ناقدو الأحاديث، ولا يسمح لرغبته ورأيه الشخصي أن يتدخل في هذا الشأن.

وما فهمته عن منهجه تجاه الحديث في فترة مصاحبته لست سنوات هو أن الإمام الفراهي يعتبر الحديث المصدر الثاني للشريعة بعد القرآن مثل ما يعتبره كل مسلم ذو عقيدة سليمة. ولكنه يتجه اتجاه الحيطة والحذر في قبول كل الأحاديث مثل ما يفعل العلماء المحققون، خاصة عن الروايات الواردة في التفسير. وكان لا يقبل الأحاديث التي تعارض القرآن. ويعتبر كلمات القرآن وسياقه ونظمه أساساً للتفسير. ثم يأخذ بالأحاديث والروايات في هذا المجال. ولم أعرف أنه قام بتأويل أية تناقض أي حديث صحيح. وإذا اضطر إلى نقد أي حديث صحيح فإلى أصول نقد الأحاديث وأتى بالأدلة إن اختلف رأيه.

وفيما يتعلق بمصطلحات القرآن مثل الصلوة والزكاة والحج والأضحية وما إلى ذلك فيفسرها مئة بالمئة حسب السنن المتواترة ولا ينحرف عنها ولو بقليل. ويتبع منهج الحيطة في الفقه ويأخذ بالأحاديث على مذهب الأحناف والمالكية. فلا يعطي مذهب الأحناف أهمية أكثر للأحاديث في شؤون الحاجة العامة والمالكية بالمقارنة مع العمل العام للصحابة، فذلك لا يعطي الإمام الفراهي أهمية أكثر للأخبار الأحاديث في الشؤون المذكورة أعلاه. وعلى هذا القياس يعتبر الإمام الفراهي أهمية الأدلة على أساس أهمية الشؤون. فعلى سبيل المثال كان يعتقد أن العقائد لا تعتمد على الروايات فقط. فيمكن أن نستنتج من كل ما ذكرنا أن الإمام الفراهي لم يكن شافعياً أو حنبلياً في قبول الروايات، ولكن القول بأنه كان منكرًا للأحاديث، فطنة لا توجد إلا عند منكري الأحاديث.

الإمام الفراهي والسياسة: لم ينضم الفراهي إلى أي جماعة سياسية طوال حياته ولم يفكر في تأسيس حزب سياسي قط، ولكنه كان ماهراً في العلوم والنظريات السياسية. ومن فروع الفلسفة الجديدة التي كان الإمام يقرأها بشكل خاص تشمل الفلسفة السياسية أيضاً. وقام بتدريسي أغلب أجزاء كتاب "نظرية الحكومة" Theory of State للفيلسوف الألماني الشهير بلنشي، وشرح لي الأصول الأساسية للحكومة الإسلامية في هذا السياق.

وكننت أتعجب من بعده عن السياسة عمليًا بالرغم من ولعه بالسياسة نظرًا، خاصة عندما كنت أرى أنه يعتبر جميع الاتجاهات السياسية السائدة غير صحيحة. فكنت أتساءل: لماذا لا يفعل الإمام الفراهي شيئًا بهذا الصدد بنفسه؟ أليست هناك أهمية لنا فيما يتعلق بالشؤون الوطنية؟ وألا تؤثر الحركات السياسية في بلدنا على آلاف المسلمين مع المواطنين الهنود؟ وهل يجوز لشخص مثل الإمام الفراهي أن يتجنب من هذه الأوضاع ويترك المسلمين يسبغون في مسار غير صحيح؟ كانت هذه الأسئلة تأتي في ذهني وكننت أحاول أن أحصل منه على الأجوبة بالسؤال عنها، وفي بعض الأحيان كننت أتحمس لذلك، ولكنني أعترف بكل صدق أنني لم أستطع الحصول على جواب مقنع منه على هذه الأسئلة.

وذات يوم نوقشت مثل هذه الأمور فانتقد الفراهي الاتجاهات السياسية السائدة في تلك الفترة، وأرشد إلى خطة سليمة يمكن أن يتبعها المسلمون. وفي هذا السياق ذكر زعيمين من زعماء المسلمين يحبهما، ولكنه قال إنهما يأخذان بالأمة إلى مسار غير سليم. وإن يحاولا يمكن لهما أن يجعلوا المسلمين يسلكون الطريق الصحيح. فسأله شخص في ذلك المجلس: لماذا لا تحاول أنت إقناعهم؟ فأجاب بعد لحظة: سوف التقى بهما وأحاول إقناعهما. ولكنه قال بعد ذلك: إنهما الآن لا يسمعان كلامي. وكان الإمام الفراهي قد التقى بأحدهما قبل فترة وناقش معه بالتفصيل هذه الشؤون السياسية، وربما لم يكن يتوقع منهما الكثير.

هكذا في يوم في الأيام شرح أهمية النظام الشرعي بالأدلة القاطعة فتأثر بحديثه الجميع. وقال صديق عزيز لي من ولاية البنجاب إنه إن كانت للنظام الشرعي هذه الأهمية الكبيرة، فهات يدك أنا أبايعك. فتجاهل الإمام الفراهي الأمر في ذلك الوقت، ولكنه قال فيما بعد إنه لم يخلق لمثل هذه الأمور.

ولعل الخدمة التي أستطيع القيام بها بطريقة أفضل هي فتح الطريق لفهم القرآن، وإذا نجحت في ذلك فسيفتح الله الطرق للعمل في اتجاه النظام الشرعي الصحيح.

ولم يقل الإمام الفراهي هذا بشكل مؤقت، بل كان يعتبره منهج إصلاح المسلمين في نفس المسار. وعبر عن هذا الرأي في بعض كتبه أيضًا، وكتب مقالة مستقلة حول

العدد الخاص.....مجلة الهند

هذا السؤال وترجمت هذا المقال وطبعته في مجلة "الإصلاح". ولم اعتبر قط أنّ آراء الإمام الفراهي حول هذا الموضوع تعتمد على كلمات فارغة لأنه - كما أرى - لم يكن متصفاً بمثل هذه الخصائص. ولكن في نفس الوقت اعترف أن الأسباب المذكورة أعلاه لعدم مشاركته الفعالة في مجال السياسة لم تقنعي قط وكنت أعبر عن رأيي هذا أمامه بين حين وآخر بطرق مختلفة.

وذات يوم سألته عن السبب وراء كتابته جميع المؤلفات باللغة العربية، وقلت إن اللغة الأردية هي لغة عامة الشعب، ولا يمكن لهم أن يستفيدوا من مؤلفاتك. فأجاب أنّ علماءنا قد انحرفوا عن الصراط السوي فكرياً وعملياً، ولذا أرغب في إصلاحهم أولاً وعن طريق إصلاحهم أريد إصلاح الشعب. ولأنّ هدي في مخاطبة علماء العالم الإسلامي كله، لذا اخترت اللغة العربية لأن هذه هي اللغة المشتركة بين العلماء. وأدركت من الإجابة أنه لم يكن محققاً على طراز الأكاديميين، بل كان يحمل عاطفة قوية لإصلاح المسلمين. وكان يرغب في الإصلاح الفكري قبل الإصلاح العملي. وجعل القرآن الكريم محور وأساس هذا الإصلاح. فمن جهة، كان يريد أن يبعد جميع الأفكار الفاسدة التي دخلت في نفوس المسلمين في ضوء القرآن ومن جهة أخرى، كان يريد أن للمسلمين أن يستنبروا بنور القرآن في جميع أمور الحياة. ونستطيع أن نقدر مدى نجاحه في هذا الأمر في حياته بالاطلاع على قائمة مؤلفاته التي سنذكرها في الصفحات القادمة.

خلقه وعاداته: إن كل من يعرف الإمام الفراهي يناقش دائماً إن كان علمه أكثر أم تقواه؟ والحقيقة أنه من الصعب التحديد. كانت اتجاهاته سليمة منذ البداية والذين عرفوه منذ الطفولة شهدوا على أنه كان صالحاً وسليماً ومطيعاً لوالديه. ولمعرفة ميوله سألته مرة عن أول كتاب تأثر به، فأجاب أنه "قصص الأنبياء". وكان يقرؤه على عمته التي تحبه كانت كثيراً. وذكر أنها كانت تتأثر كثيراً بتلك القصص، وقد أدّى ذلك إلى التأثير عليه أيضاً، وعلم أن الإنسان يجب أن يكون محباً للخلق وتقياً مثل الأنبياء.

العدد الخاص مجلة الهند

وكان الإمام الفراهي شديد الصدق والصبر منذ البداية. ولم يتوان عن قول الصدق حتى في زمن لم يبلغ فيه إلى مستوى عال من النضوج الفكري والعلمي. وكان يقول إنه يحاول أن يقول الصدق حتى في المواقف التي لا يجد فيها الناس حرجًا من الكذب. وأنه يؤمن بأن الصادق لا يخسر أبدًا. وقصّ لنا قصة ممتعة فقال إنه حينما أراد السفر إلى لاهور لتعلم الأدب العربي من الشيخ فيض الحسن السهارنبوري خرج بعد أن ودع والدته، فسأله والده، يا ابني كم أعطتك أمك من روبيات؟ فتردد في الإجابة، واعتقد بأنه إذا أخبره بالعدد الصحيح فيمكن أن يقلل الوالد من روبياته التي سيعطيها، لكنه لم يكن يريد أن يكذب، فأجاب بأنه لن يخبره. ففرح والده بهذه الإجابة وقال إن عبد الحميد لا يمكن أن يكذب، ومنحه من الروبيات أكثر مما كان يتوقع.

وكان الإمام الفراهي بمؤمن من الإلحاد والتشكيك بالرغم من كونه محبًا للنظريات العقلية والفلسفية. ولم ينقطع ارتباطه قط بالله تعالى في أي مرحلة من حياته. وسألته مرة إن كانت قد مرّت عليه فترة من الشك والإلحاد، فأجاب لا، وقال إنه في زمن دراسته في علي جره جاء السؤال عن وجود الله في ذهنه، وفكر فيه ساعتين تقريبًا ثم قام بعد ما اقتنع بوجود الله، ولم يزعه هذا السؤال مرة أخرى في حياته.

وكان الإمام الفراهي شديد النزاهة في المعاملات، ويحرص أن لا تبقى روبية واحدة لأحد عليه. وحتى معارضوه كانوا يثقون به في أمورهم.

كانت هناك قضية أملاك في المحكمة ضد والده، وقد قبل الفريق المعارض لوالده أن يكون الفراهي حكمًا بينهما. فقاضى ضد والده مما أدى إلى نقل جزء كبير من الأملاك (والتي كانت ستؤول إليه في النهاية في شكل الإرث) إلى الفريق المعارض.

وبالرغم من انتمائه إلى أسرة ثرية وحصوله على رواتب عالية، كان يعيش عيشة بسيطة ويلبس لباسًا عاديًا، وكان لا يتكلف في الطعام. وكان ينفق معظم راتبه

العدد الخاص مجلة الهند

على شراء الكتب أو مساعدة الفقراء وخاصة أهل العلم أو المتعفين عن السؤال، وكان يتوسع كثيرًا في المجال الأخير.

وقد صاحبت الإمام الفراهي في السنوات الخمس أو الست الأخيرة من حياته. وفي هذه الفترة جعل مستوى معيشه مثل مستوى الأساتذة والطلاب الفقراء في مدرسة الإصلاح. فكان يأكل معنا كل ما يتيسر من طعام ويلبس مثل لباسنا البسيط ولا يميزه عنا ويبين عظمته بيننا إلا وجهه المنير وجبينه الواسع. ولم يمكن لأحد أن يتخيل بعد رؤيته أنه مجمع البحرين من العلوم الشرقية والغربية الذي استفاد منه عالم ومحقق مثل العلامة شبلي النعماني، وأُسست على أفكاره التعليمية جامعة عظيمة مثل الجامعة العثمانية في حيدرآباد.

وكان الإمام الفراهي يحب الانفراد بنفسه، ولا يلتقي بالناس إلا قليلًا، ويحب أن يجلس بين طلابه والعلماء فحسب. ويقلل الكلام ويركزه على العلم. ولا يمكن أن يغتاب أو يهجو أو يطعن أحدًا في مجلسه. وإذا تجاوز الكلام حدود العلم فيغير اتجاهه إلى العلم والدين بأسلوب حسن.

وكان الفراهي يستيقظ عند الساعة الثانية والنصف أو الثالثة صباحًا. هذه كانت عادته منذ الطفولة واستمر بها إلى آخر أيامه. ويرتب سريرته بنفسه حتى لا يزعج طالبًا أو خادماً لذلك. ثم يصلي التهجد وإذا شعر بالطمأنينة جلس للتأليف والتصنيف. وكان قليلًا ما يقوم بتأليف وتصنيف الكتب في النهار، لأنه كان يقضي النهار في مطالعة الكتب ومع طلابه والعلماء.

ولو أنه كانت تتم مناقشة جميع الموضوعات العلمية في مجلسه، إلا أن الموضوع الرئيسي كان القرآن الكريم. وكان دائمًا يختار الكتب الممتازة للمطالعة، وكان يطالعها بدقة تامة. وكان يكتب ملاحظاته على الكتب التي كان يقرأها باللغة العربية، سواء كان الكتاب بالعربية أو الإنجليزية، ولذا كان كل كتاب يقرأه يصبح مفيدًا ومرجعًا للعلماء بسبب ملاحظاته. ولم أره أبدًا يطالع أي شيء من الدرجة الثانية وهكذا كان ينصح طلابه دائمًا.

والشيء الأكثر أهمية والذي شعرت به هو الأثر الذي كان يتركه على كل من يحضر في مجلسه. فكان الرجل ينسى كل مشاغل الدنيا عندما يجلس معه، وكان يشعر أن أكبر المشاكل التي كان ينوء بها ظهره قبل قليل، ليست لها أي أهمية، ويمتلئ القلب في صحبته بمحبة الله والعزم على ترك المعصية. وقد عرف عن العلامة شبلي قوله بأنه من يجلس مع عبد الحميد يرغب عن الدنيا. وكل من جلس وصاحب الإمام الفراهي يعترف بقول العلامة شبلي. وبعد وفاته كلما ذهبت لزيارة شيخ من أصحابه قال: "تعال نؤمن ساعة" ويقصد به أن نتحدث عن الإمام الفراهي لكي نزيد من شعورنا بالإيمان.

كتبه ومؤلفاته: لم يكن الأستاذ الفراهي مؤلفاً بالمفهوم العام للتأليف، لأنه لم يكن يكتب بهدف الكتابة فقط. وكان يبدأ بالكتابة عندما تكون أمامه فكرة أو تحقيق جديد. ومن المناسب أن نسميه فلسفياً أو مفكراً بدلاً من مؤلف أو كاتب. فكان يكثر من التفكير ويقلل من الكتابة ويخوض في التفكير في عدة شؤون في آن واحد. عندما كانت تخطر له فكرة كان يسجلها على الفور على ورقة، وكان دائماً يكتب بقلم الرصاص، وكان خطه جميلاً، ولم يكن يصعب على أحد قراءته. وكان يكتب الملاحظات مشيراً إلى الكتاب المراد تأليفه، وتصبح هذه الملاحظات بمثابة فصول للكتاب. وعندما تكتمل الفصول يقوم بترتيب الكتاب. وبسبب هذا المنهج الفريد في الكتابة بل في التفكير الفراهي يكتب في عدة كتب في آن واحد، يكتمل بعضها والبعض الآخر يستمر، والبعض لا يتجاوز فصلاً أو نصف فصل.

نذكر هنا فقط مؤلفاته المطبوعة أو الكتب التي لم تطبع ولكنها كاملة وموجودة بمعظم أجزاءها أو توجد كمية كبيرة من الملاحظات والتي إن طبعت بعد ترتيبها المناسب تكون ذخيرة علمية ثمينة للبحث والتحقيق لأهل العلم.

أولاً: كتبه المطبوعة:

1- تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: طبع بعض أجزاء تفسيره باللغة العربية التي كتب فيها. وطبعت ترجمته باللغة الأردنية أيضاً. بالإضافة إلى ذلك،

- توجد أجزاء من تفسير سورة البقرة وآل عمران في شكل مخطوط، وكذلك توجد ملاحظاته حول نظام القرآن وبعض المواضع المشككة الخاصة لبقية السور.
- 2- فاتحة نظام القرآن: هذه مقدمة لتفسيره، ذكر فيها أصوله في التفسير. وفيها تفسير البسملة وسورة الفاتحة.
- 3- مفردات القرآن: دَوّن في هذا الكتيب بحثه وتحقيقه عن مفردات القرآن الصعبة التي يختلف رأيه وبحثه فيها عن المفسرين وأهل اللغة عامة. وأتى بالأدلة من كلام العرب في تأييد رأيه.
- 4- إمعان في أقسام القرآن: كتب أولاً عن حقيقة الأقسام (الحلف) ثم ناقش الأنواع المختلفة منه أصولياً. ثم فصل الكلام عما حلف الله به في القرآن الكريم. وقد طبعت ترجمة هذا الكتاب باللغة الأردية أيضاً.
- 5- الرأي الصحيح في من هو الذبيح: ناقش أولاً في هذا الكتاب حقيقة الأضاحي وأهميتها في الإسلام ثم أتى بالأدلة ليثبت أن إبراهيم عليه السلام قدّم ابنه إسماعيل عليه السلام للتضحية وليس ابنه إسحاق عليه السلام كما يدّعي اليهود. وما كتبه العلامة شبلي في كتابه الشهير "سيرة النبي" من تحقيق كبير عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام مأخوذ كله من هذا الكتاب للفراهي.
- 6- جمهرة البلاغة: أثبت الإمام الفراهي في هذا الكتاب أنّ علم البلاغة الرائج الموجود في كتب السكاكي والجرجاني مأخوذ من اليونانيين، وبين أنها لا يمكن أن تكون مقياساً لفصاحة القرآن وبلاغته. وعين أصولاً بلاغية في ضوء كلام فصحاء العرب والتي تساعد على معرفة بلاغة القرآن.
- 7- أسباق النحو (الجزء الأول والثاني) ذكر الإمام الفراهي في هذا الكتاب أصول النحو والصرف الابتدائية بطريقة علمية وسهلة. وقد أثبتت التجربة أنّ الكتابين مفيدان جدّاً في تدريس علم النحو والصرف في المرحلة الابتدائية.
- 8- ديوان حميد: مجموعة أبياته باللغة الفارسية.
- 9- خرد نامه: الترجمة الفارسية المنظومة لأمثال سليمان عليه السلام.

العدد الخاص مجلة الهند

10- رسالة في رد الشفاعة والكفارة باللغة الإنجليزية: كتب الإمام الفراهي هذه الرسالة في رد عقيدة النصارى في الشفاعة والكفارة باللغة الإنجليزية.

وثانيًا: وقائمة كتبه غير المطبوعة: وهي أيضًا طويلة جدًا. وهنا نذكر بعض الكتب ولو أنها غير كاملة، إلا أنها لو طبعت تكون مفيدة جدًا لأهل العلم:

1- تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: توجد أجزاء من تفسير سورة البقرة وآل عمران وملاحظاته حول نظام القرآن والمواضع المشككة الخاصة لأغلب السور الباقية.

2- دلائل النظام: وقد أتى فيه بالبراهين القاطعة حول قوله بوجود النظام في القرآن. يبين بالأمثلة أصولًا لحل المشكل من النظم في القرآن.

3- أساليب القرآن: هناك عدة أساليب خاصة بالقرآن واللغة العربية. وأوضحها الإمام الفراهي بأمثلة من القرآن وكلام العرب، لكي لا تبقى مشاكل التأويل والفهم للقرآن في مثل هذه المواضع.

4- أصول التأويل: يبين في هذا الكتاب الأصول والقواعد التي يجب أن تراعى عند تأويل القرآن، وقد اهتم بها في تفسيره أيضًا.

5- القائد إلى عيون العقائد: يبين في هذا الكتاب المباحث الأساسية للدين مثل التوحيد والرسالة والمعاد بالأدلة القرآنية. وأرشد إلى أصول ترتيب علم الكلام الحديث.

6- حجج القرآن: ناقش في هذا الكتاب نقائص المنطق والفلسفة القديمة والجديدة، ثم يبين أصول الفلسفة القرآنية وأهميتها العقلية.

7- كتاب الحكمة: أوضح فيه حكمة القرآن وطرق استنباطها.

8- ملكوت الله: ذكر فيه أولًا قانون عروج الأمم وزوالها، وعلو الحق وهزيمة الباطل في ضوء القرآن الكريم. ثم يبين في سياق ذلك القانون والنظام السياسي للإسلام.

9- كتاب الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ: ذكر في هذا الكتاب آراءه وأفكاره عن الناسخ والمنسوخ.

العدد الخاص مجلة الهند

10- ديوان أبي أحمد الأنصاري: هذه مجموعته الشعرية باللغة العربية. توجد فيها قصيدته الشهيرة التي نظمها عن الحوادث المؤلمة في طرابلس. وحينما سمعها الشيخ السنوسي دمعت عيناه. وبسبب أشياء مثلها كان تحت مراقبة وكالات الاستخبارات الإنجليزية لفترة من الوقت.

وثالثاً: بعض الفصول أو الملاحظات: والآن نذكر قائمة كتبه التي لم يكتب فيها إلا بعض الفصول والملاحظات. ولكنها ذات قيمة بالغة ويمكن بمساعدتها الإسهام في مجال البحث والتحقيق:

- 1- الرائع في أصول الشرائع
- 2- إحكام الأصول بأحكام الرسول: بيّن فيه أن تعاليم الرسول ﷺ كلها مستنبطة من القرآن الكريم.
- 3- كتاب العقل وما فوق العقل.
- 4- الإكليل في شرح الإنجيل: شرح فيه كلمات الإنجيل وعباراته التي قام النصاري بتحريفها.
- 5- أسباب النزول: أوضح فيه آراءه حول أسباب نزول آيات القرآن الكريم.
- 6- تاريخ القرآن: يبدو أنه كان يريد أن يبيّن فيه آراءه حول جمع القرآن وتدوينه بالأدلة من القرآن.
- 7- أوصاف القرآن
- 8- فقه القرآن: كان يريد فيه أن يجمع استنباطاته حول الأمور الفقهية.
- 9- رسالة في إصلاح الناس: أوضح فيه أفكاره حول إصلاح المسلمين.
- 10- الأزمان والأديان: ذكر فيه الأسرار والرموز وراء الأشهر والأيام الخاصة والأزمان والتواريخ المهمة في الإسلام.
- 11- فلسفة البلاغة: طبعت المواضيع في كتاب "جمهرة البلاغة".
- 12- سليقة العروض: كان الإمام الفراهي يريد أن يرتب علم العروض بصورة علمية وسهلة مثل النحو والصرف لكي يتيسر فهمه على الطلاب.

العدد الخاص مجلة الهند

13- النحو الجديد: هذه كانت خطوته الثانية بعد كتاب "أسباق النحو" في مجال النحو والصرف. ولو أكمل هذا الكتاب لاستغنى الطلاب من الكتب الأخرى في هذا الموضوع.

وعند إلقاء النظر على قائمة كتبه المذكورة نعرف أن الإمام الفراهي كان يريد أن يدوّن جميع العلوم الإسلامية ويكون الأساس هو القرآن الكريم لكي تفتح كل الأبواب على القرآن، ويسلك المسلمون مسلك القرآن. وقد بذل الإمام الفراهي كلّ هذه الجهود ليأتي بثورة فكرية وخاصة بين العلماء حتى تؤدي هذه الثورة إلى ثورة عملية وسياسية.

المعلم عبد الحميد الفراهي

- العلامة سيد سليمان الندوي¹

الدنيا دار العجائب، ومن أعجب عجائبها وقوع ما كنت تحذر منه، وحدث ما لم يخطر ببالك.

بعثنا هذه الرسالة² للطبع، وصاحبها حي يرزق فلم يمض شهر حتى فوجئنا بموته، وفجعنا بانخرام حياته، وكان رحمه الله آية من آيات الله في حدة الذهن، وكثرة الفضل، وسعة العلم، ودمائة الخلق، وسداد الرأي والزهد في الدنيا، والرغبة في طلب مرضاة الله.

هو حميد الدين أبو أحمد عبد الحميد الأنصاري الفراهي، ولد رحمه الله سنة 1280هـ في قرية فريها من قرى مديرية أعظم كره في الولايات المتحدة بالهند. وكان ابن خال علامة الشرق ومؤرخ الإسلام الشيخ شبلي النعماني، تغمّده الله برحمته. واشتغل بعدما ترعرع في طلب العلم، فحفظ القرآن، وقرأ كدأب أبناء العائلات الشريفة في الهند اللغة الفارسية، وبرع فيها، فندج قصيدة فارسية صعبة الرديف بارى فيها شاعر الفارسية الطائر الصيت خاقاني الشرواني، فأثى فيها بما أعجب الشعراء.

واشتغل بعد ذلك بطلب العربية، فاستظل بعطف أخيه الشيخ شبلي النعماني، وهو كان أكبر منه بست سنين، فأخذ منه العلوم العربية كلها من صرفها ونحوها، ولغتها وأدبها، ومنطقها وفلسفتها. ثم سافر إلى لکنؤ مدينة علم الولايات المتحدة، وجلس في حلقة الفقيه المحدث الإمام الشيخ أبي الحسنات عبد العي اللكنوي صاحب التعاليق المشهورة، ثم ارتحل إلى لاهور وأخذ الأدب العربي من إمام اللغة

¹ كاتب هندي كبير للدراسات الإسلامية

² يعني "إمعان في أقسام القرآن" فكتبت هذه الترجمة في نهاية هذه الرسالة.

العدد الخاص.....مجلة الهند

العربية وشاعر ها المفلق في ذلك العصر الشيخ الأديب فيض الحسن السهارنفوري شارح الحماسة وأستاذ اللغة العربية في كلية العلوم الشرقية بلاهور، فبرع في الآداب العربية وفاق أقرانه في الشعر والإنشاء. قرأ دواوين الجاهلية كلها وحلّ عقد معضلاتها، وقنص شواردها فكان يقرض القصائد على منوال الجاهليين ويكتب الرسائل على سبك بلغاء العرب وفصحائهم.

ثم عرج اللغة على اللغة الإنكليزية، وهو ابن عشرين سنة، ودخل في كلية علي كره الإسلامية ونال بعد سنين شهادة ب- أ¹ من جامعة الله آباد وامتاز في الفلسفة الحديثة، أخذها من الأستاذ الدكتور توما أرنلد الإنكليزي الأستاذ بكلية علي غره الإسلامية يومئذ، فصار مجمع البحرين وبينهما برزخ لا يبغيان. كان عالمًا بالعلوم العربية والدينية وفاضلًا في العلوم العصرية والإنكليزية، فاجتمعت فيه خصال الجنس المتقين من العلماء الراسخين، والمتنورين من الفضلاء الكاملين.

وبعدما قضى وطره من طلب العلم، واستقى من حياضه، ورتع من رياضه. نصب معلمًا للعلوم العربية بمدرسة الإسلام بکراشي عاصمة السند. فدرّس فيها سنين، وكتب وألف، وقرض وأنشد.

ثم انقطع إلى تدبر القرآن ودرسه. والنظر فيه من كل جهة، وجمع علومه من كل مكان، ففضى فيه أكثر عمره، ومات وهو مكبّ على أخذ ما فات من العلماء، ولفّ ما نشره ولمّ ما شتّوه، وتحقيق ما لم يحقّقه. فكان لسانه ينبع علمًا بالقرآن وصدره يتدفق بحثًا عن مشكلاته، وقلمه يجري كشفًا عن معضلاته. وهو كان يعتقد أن القرآن مرتّب بياناً ومنسّقة النظام آياته. وكل ما تقدّم وتأخّر من سوره وآيه بني على الحكمة والبلاغة ورعاية مقتضى الكلام. فلو قدّم ما آخر وأخّر ما قدّم لبطل النظام، وفسدت بلاغة الكلام. وكان يرى أن القرآن يفسّر بعضه بعضًا فأعرض عن القصص وما أتى به المفسرون من الزخارف والعجائب.

¹ B.A أي الليسانس

هذا كان دأبه في تفسيره الذي سمّاه "نظام الفرقان"¹ وتفسير القرآن بالقرآن"، وكان حسن النظر في كتب اليهود والنصارى، فاستمتع بها في مباحثه.

ولما سافر الحاكم العام في الهند اللورد كرزن في رحلته السياحية سنة 190م² إلى الشواطئ الغربية والخليج الفارسي ليجتمع بشيوخ العرب وأمراءهم عين الشيخ حميد الدين ترجماناً فرافقه في السفر، وانتخب بعدما قفل من رحلته معلماً للغة العربية بكلية علي غره الإسلامية، وكان يومئذ أستاذ اللغة العربية بها المستشرق الألماني الشهير يوسف هارويز فالمستشرق استكمل منه العربية، وهو قرأ عليه العبرانية. وبعد سنين نصب أستاذاً للغة العربية بجامعة الله آباد، وبقي هناك أعواماً حتى انتقل منها إلى حيدر آباد الدكن رئيساً لمدرسة دار العلوم العربية الأميرية النظامية التي كانت تخرج قضاة البلاد وولاتها.

وهو الذي ارتأى تأسيس جامعة أردوية تدرّس العلوم الدينية بالعربية والعلوم العصرية بالأردوية، وبذل جهده في تحقيق هذا الأمل وإنجاز هذا العمل حتى نال القبول من مالكي أزمنة الأمور والجمهور وصادف عليه دولة الأمير الأعظم النواب نظام الملك آصف جاه الثامن³ عثمان علي خان خلد الله ملكه ودولته وسمّيت بالجامعة العثمانية، وهي يومئذ من أحدث جامعات العالم سنّاً ولكن أعجيباً نظاماً.

ثم استقال من خدمته ولزم بيته، وانقطع إلى العلم. وكان قد أسّس في قرب من قريته مدرسة عربية دينية سمّيت "مدرسة الإصلاح" فكان ينظر في شؤونها ويجريها على أمثل طريق اخترعه وأحسن أسلوب أبدعه. ومن جلّ مقاصدها تحسين طريقة تعليم العربية، وإيجاز قائمة دروسها المتعبة العقيمة، وإلغاء العلوم البالية القديمة، والعكوف على طلب علوم القرآن، والبحث عن معانيه ونظمه، وأحكامه وحكمه.

¹ عنوانه الصحيح "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان".

² سنة 1903م

³ هذا سهو والصواب "السابع" وهو آخر أمراء دولة حيدرآباد المرحومة

العدد الخاص.....مجلة الهند

وكان رئيسًا للجنة المديرين "لدار المصنفين" التي أسست تذكيرًا لأخيه الشيخ شبلي النعماني فكان هو أحد مؤسسيها. وكان يبذل أوقات فراغه في التأليف والتدوين والنظر في القرآن ومعانيه وإلقاء دروسه على تلامذته الملتفين حوله. فسمح خاطره المتدفق بما بخل به القدماء من علومه، وفرق على العفاة ما لم يجمعه الأوائل في صحفهم.

كان رحمه الله منقطعًا إلى هذا البر من العمل، حتى أتاه الأجل في التاسع عشر من جمادى الثانية سنة 1349هـ (الحادي عشر من نوفمبر سنة 1930م)، مات غريبًا في مدينة متهورا كعبة الوثنيين في الهند. كان رحل إليها عليًا يستشير طبيبًا نطاسيًا من أبناء بلده موظفًا فيها فلم ينجحه الدواء، ولم يرزق الشفاء، وأنهكت العلة التي سدكت به، وخابت العملية التي قام بها الطبيب وهو محتسب صبرًا. ومطمئن شكرًا. يجود بنفسه وهو يتلو القرآن، ويشكر الرحمن، حتى أسكت الحمام. ناظم الكلام، إلى يوم القيام. وكل من علمها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام. صدق قول القائل: عاش حميدًا ومات شهيدًا.

خلف من آثار خاطره ذخيرة لا تفتى، وعلومًا لا تبلى. وأكثرها بالعربية.

فمما طبع من كتبه:

1. أسباق النحو جزآن بالأردوية.
2. وديوانه الفارسي.
3. وخرّد نامہ کتاب نظم فيه حکمة سيدنا سليمان بالفارسية القحة لا تشوبها كلمة عربية.
4. مقالة في الشفاعة والكفارة بالإنكليزية ردّها على بعض علماء النصارى. والبقية الآتية كلها بالعربية.
5. الرأي الصحيح في من هو الذبيح.
6. وتفسير سور من القرآن، وهو جزء من أجزاء تفسيره "نظام الفرقان".
7. وإمعان في أقسام القرآن.

ومما لم يطبع من كتبه:

1. بقية تفسير سور القرآن (ولم يكمله، وذلك ما خسرت به الأمة المحمدية).
2. جمهرة البلاغة (أصل فيها أصولها ليهدي الناس إلى فهم إعجاز القرآن، وردّ فيها على أصول ريطوريقا لأرسطو الذي أضل المتأخرين من مصنفي كتب البلاغة، حتى الشيخ عبد القاهر الجرجاني رحمه الله).
3. فلسفة البلاغة.
4. سليقة العروض.
5. دلائل إلى النحو الجديد والمعاني والعروض والبلاغة.
6. ملكوت الله¹ (وهو تحقيق نواميس الله وسننه في خلقه وتدييره ومجازاته).
7. الرائع في أصول الشرائع.
8. أساليب القرآن.
9. إحكام الأصول بأحكام الرسول (وهو تتبع طرق الاجتهاد النبوي).
10. القائد إلى عيون العقائد (وهو تحقيق ما جاء به القرآن من الدين لا يشوبه بدعة المبتدعين وفتنة المتكلمين).
11. كتاب العقل وما فوق العقل (تحقيق العلوم التي تدركها العقول والتي فوق إدراكها)
12. الإنجيل في شرح الإنجيل (تصحيح ما نطق به الرسول المسيح، وتفسير ما أوله المبطلون من أهل الصليب).
13. أسباب النزول (نزول القرآن).
14. تاريخ القرآن (تاريخ جمعه وتأليفه. وهو كان يعتقد بالأدلة القرآنية الصحيحة أن القرآن كان مؤلفاً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم).
15. أوصاف القرآن (شرح ما وصف به القرآن نفسه من الحكمة والذكر والنور والإبانة وغيرها من النعوت).

¹ عنوانه الصحيح "في ملكوت الله"

16. فقه القرآن.
 17. حجج القرآن.
 18. كتاب الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ.
 19. رسالة في إصلاح الناس.
 20. كتاب أصول التأويل.
 21. مفردات القرآن (تحقيق معاني كلمات القرآن بالقرآن).
 22. دلائل النظام (هو إيضاح ما أراد به من نظام القرآن واستدل بالآثار على صحة ما أراد، وأقام عليه الحجج).
 23. الأزمان والأديان (إن الدين لا يتقلب بتقلب الأزمان، والدين كله واحد).
 24. كتاب الحكمة (شرح معنى الحكمة التي في القرآن، والتي أوتي النبيون، وما كانوا يعلمون الناس منها).
 25. القسطاس (رسالة في علم جديد وهو منطق العمل وميزان الإرادات وأساس الحكمة العملية).
 26. ديوانه العربي ونعته بديوان أبي أحمد الأنصاري.
- من يقرأ أسماء هذه الكتب، يقضي منها العجب ويؤمن بما أوتي صاحبها من سعة العلم، وصحة النظر، وكثرة الفضل، وسلامة الذوق، وتوقد الذهن، والتأمل في القرآن، وفهم أصوله ومعانيه. وتناول أفاصيه وأدانيه.
- رحمه الله وأكرمه، ونفعنا بعلومه وكتبه ويسّر لنا طبعها ونشرها وعمّم المستفيدين خيرها وبرها.¹

¹ نشرت في نهاية "إمعان في أقسام القرآن" (طبعة الكويت) وفي بداية غيره من كتب الإمام الفراهي

الإمام حميد الدين الفراهي

- الشيخ شير محمد الإصلاحى الندوي¹

قد أظهرت في العدد الرابع للسنة الأولى من "الضياء" الغراء في ترجمة المجاهد الكبير والبطل الأعظم السلطان تيبو، رغبتى في أن أنشر لقراء "الضياء"، أحوال بعض المشاهير من أهل الهند ومن الذين جاهدوا في الله حقَّ جهاده وأودعوا أعمالهم الكبيرة، بطون الأسفار والتاريخ ولكن لم يتيسر لي حتى الآن أن أقوم بهذا الأمر حتى استدار الزمان وأتى الشهر الذي توفي فيه الأستاذ الإمام وهو جمادى الثانية فانبعثت في قلبي دواعي الأسى وامتألى روعي حزناً بتذكاري ما أصاب العالم الإسلامي خصوصاً مسلمي الهند قبل ثلاث سنين في هذا الشهر من موت أكبر عالم، فيما أعلم، على وجه الأرض وهو الإمام العلامة حميد الدين الفراهي الذي كان آية من آيات الله في معرفة التفسير وحلّ مشكلات الكتاب المبين فأردت أن أكتب نبذة من سيرة هذا الإمام الحكيم على سبيل التذكرة بقدر الاستطاعة وأقدمها إلى قراء هذه المجلة فإن من مقاصدها أن تبرز لقراءها حسب سعة نطاقها، أحوال أكابر العلم والحكمة وأبطال النهضة الفكرية في بلاد الهند.

والشيخ العلامة حميد الدين الفراهي، من الذين قلما يوجد بمثله الزمان إلا بعد السنين الطوال، ولد 1864هـ في شهر جمادى الثانية في "فريها" وهي قرية من قرى "أعظم كره" ونشأ في حضان أبوين كريمين من أسرة عريقة في المجد وقرأ القرآن وحفظ. وهو ابن عشر سنين أو نحوها واشتغل بعد ذلك كدأب أبناء العائلات الشريفة في الهند باللغة الفارسية وقرأها على رجل من أهل قرية "جتارا" من القرى المتصلة بقريته، واسمه مهدي حسن وكان يجيد الفارسية وهو وإن لم

¹ وهو الشيخ أبو الليث الإصلاحى الندوي أمير الجماعة الإسلامية في الهند الأسبق وصاحب رسائل علمية عديدة.

يشتغل بها إلا مدة ستة أشهر كما هو معروف عندنا ولكنه مع ذلك تحصلت له فيها ملكة باهرة وبلغ بقريحته الوقادة درجة أخذ بعد مدة يسيرة يقرض الأبيات وبياري فيها شعراء الفارسية المشهورين فإنه تتبع، وهو ابن ست عشرة سنة، قصيدة صعبة الرديف لأكبر شاعر فارسي وهو الخاقاني وأجاد فيها حتى أعجب بها العارفون باللغة الفارسية لبلاغتها المدهشة وأسلوبها البديع الآخذ بالقلوب. ويقال أن هذه القصيدة المشار إليها لما سمعها العلامة شبلي النعماني، تغمده الله برحمته، فرح بها واستحسنها كثيرًا وذهب بها إلى الأديب الشهير في اللغتين الفارسية والعربية الشيخ محمد فاروق الجرياكوتي وأنشدها له من غير أن يبين قائلها وسأله: هل لك علم بقائل هذه الأبيات؟ فأجاب: ليس لي به معرفة ولكن أظن أنها لأحد الشعراء المتقدمين. وله ديوان شعر في الفارسية قد اعتنى بجمعه وطبعه أخوه الحاج الشيخ رشيد الدين الفراهي ناظر مدرسة الإصلاح. وبعدهما تضرع من اللغة الفارسية شرع في تعلم اللغة العربية وهو إذ ذاك في الرابع عشر من عمره. وقرأ المتوسطات من كتب الدرس النظامي على ابن عمته العلامة شبلي النعماني وهو أكبر منه بست سنين، ثم ارتحل إلى لکنؤ وأقام مدة عند الفقيه الشهير الشيخ أبي الحسنات عبد الحي، يأخذ منه العلم ثم قاده الشوق وهواه إلى الأديب الطائر الصيت، فيض الحسن السهار نفوري، الذي طار صيت فضله في الآداب إلى الأقطار البعيدة وكان إذ ذاك مجمع الطلاب من كل قطر، ومحط رحالهم يأتون إليه من كل حذب وصوب. فأقام عنده في لاهور مدة يستقي من بحر علمه ويروي غليل صدره حتى برع في الآداب وبلغ في العلم رتبة قلما بلغها أحد من رجال الهند. وما كنت مبالغًا إن قلت إنه فاق في العلوم على جميع أساتذته حتى صرح العلامة شبلي النعماني في مجلة "الندوة"، عند تقرير كتاب ألفه المترجم في البلاغة: إنه فقيده المثل وعديم النظير في الأدب. وبعدهما بلغ في العلوم العربية منزلة ترنو إليها الأبصار وتطمع فيها القلوب، لم يقنع بها وأخذ يتعلم اللغة الإنكليزية وإن كان تعلمها مبغوضًا عند المسلمين إذ ذاك وشرع فيها وهو في العشرين من عمره وبقي بها مشغولًا سنين حتى فاز بشهادة البكالوريا (B.A.) سنة

1892هـ بكلية إله آباد. وتعلّم العلوم الجديدة بعد العربية وإن لم يكن الآن في الهند بدعًا ولا من خوارق العادة، فكثير من الناس يجرون هذا المجرى ويختارون هذا السبيل ولكن هذا فرق كبير بينه وبينهم. فإن أكثر هؤلاء يجعلون ما قرأوه من العلوم نسيًا منسيًا، عند اشتغالهم بالإنكليزية، ويمحون كلّ أثر لها في أذهانهم. أما العلامة حميد الدين الفراهي فليس حاله كهؤلاء فإنه بقي أخذًا عليها بالنواجذ، وشرح أسبابها يطول، وهذه العلوم الحديثة ما ذهبت به مسلك كثير من المتفرنجين من هذه البلاد وما أهدتهم إلى ديدنهم من استحقار الحضارة الإسلامية وعلومها واستقذار أسلافهم واستكراه زمهم وملابسهم وعاداتهم بل عكس ذلك زادته صلابة في الدين وتشددًا في الأمور التي نرى التشدد فيها خيرًا من وجهي الدين والعقل فكان جامعًا للورع والزهد، والعلم والفضل والأخلاق الفاضلة التي كان السلف مختصين بها، ومثالًا للحرية في العقائد وسعة الاطلاع على العلوم العصرية والمعرفة التامة بالأحوال الحاضرة ووقوف حقيقي على مقتضيات الزمان وغيرها من الخصال التي هي مفخرة لفضلاء المتنورين لهذا الزمان. فصار بما استكنز الخصال الحسنة لأهل الفريقين وبما أوعى العلوم العصرية والإنكليزية والعلوم العربية والدينية، مجمع البحرين يلتقيان وبينهما برزخ لا يبغيان، ومطلع البدرين، يطلعان في أفق واحد ويضيئان أهل الدنيا جميعًا.

بعض أعماله العلمية في زمن التعليم

ولما ذهب إلى جامعة عليكره، بعد فراغه من العلوم العربية ليكتسب اللغة الإنكليزية والعلوم الحديثة، استكفى له السر سيد أحمد خان، ما قرأه في العربية والفارسية ورفع عنه مؤنة حضوره في درس هاتين اللغتين وكان تعلّمها واجبًا إذ ذاك على كل طالب، وكتب إلى ناظر الجامعة أنّ الشيخ حميد الدين في هاتين اللغتين كأحد ممن يعلمهما وليس معرفته بهما بأقل منهم، وكان السر سيد أحمد خان معترفًا بطول باعه في اللغتين ومقرًا بتبحره فيهما فإنه أمره وهو مقيم معه في عليكره أن يترجم لطلبة الجامعة "تاريخ بدء الإسلام" للعلامة شبلي النعماني، من

العربية إلى الفارسية وكذا أمره أن يترجم إليها جزءًا من "طبقات ابن سعد" الذي عثر عليه السر سيد أحمد خان قبل طبع هذا الكتاب، وهذان الكتابان قد طبعا وأدخلها في دروس الجامعة وكفى بهما دليلاً على إتقانه في هاتين اللغتين.

وظائفه

وبعدما قضى وطره من العلوم، تقلّب في وظائف عديدة فتولّى سنة 1897هـ، منصب التدريس في مدرسة الإسلام بكراشي وبقي عليه إلى سنة 1906هـ، مشغلاً بالدرس والتدريس وتأليف الكتب، وثم نصب معلماً للعربية في كلية عليكره وظل بها مثابراً على العمل المفوض إليه وبالتصنيف إلى 1908م. ثم انتخب أستاذاً في كلية إله آباد وأقام بها حتى انتقل من هناك سنة 1914م إلى حيدر آباد، متولياً على رئاسة مدرسة دار العلوم العربية الأميرية ولبث بها إلى سنة 1919م، قائماً بشؤون المدرسة وإصلاحها وبالتدريس فيها وتأليف أجزاء تفسيره. ثم لما رأى أنّ الاشتغال بأمور المدرسة وتوليته على أمورها يمنعه عن الانقطاع إلى مطالعة القرآن ويلهيه عن التجرد بالعكوف على علمه، تركه وانقطع عن غير القرآن إليه، وأراد أهل الحل والعقد من أعيان الدولة وأمرائها والذين عرفوه كما كان، أن يمنعوه عما أراد من ترك خدمته ولكنه لم يرض بذلك وأبى الاشتغال بأمور يرى الاشتغال بها خيراً من غيرها والآن قد اقتربت ساعة تنفيذ الخطة الشريفة التي كان يصبو إليها العلامة شبلي منذ كان الأستاذ متولياً على الوظائف وهو توليته على دار المصنفين وعلى مدسة الإصلاح وأخذ زمامها بيده، فإنه كتب إليه وهو معلم في كلية إله آباد يدعوه إلى الاجتماع به في مدرسة الإصلاح لأيام لينظما أمورهما على نظام أبدعاه بعد تجاربهما العلمية الكثيرة.¹ وكتب إليه في آخر حياته وهو في حيدر آباد كتاباً ينبئ عن يأسه عن الحياة لأمراض كثيرة استولت عليه وختم هذا الكتاب بقوله "إن تأسست دار المصنفين فمن غيرك يقوم بشأنها؟" فلما رجع الأستاذ إلى وطنه صرف وجهه من كل شيء إلى دار المصنفين وكان رئيساً لمجلسها الإداري وأحد مؤسسيها وانقطع إلى

¹ مكاتيب شبلي، 33/2

التأليف والتدوين والنظر في القرآن ومعانيه وتدريس القرآن وإلقاء الدروس على من اجتمع حوله من التلامذة، فأنتجت هذه الأعمال التي قام بها إلى آخر حياته، نتائج حسنة يعرف قدرها ذوو الأبصار. وقبل أن أشرح أعمالها الخالدة يحسن بي أن أصف لكم أخلاقه وصفاته.

صفته وأخلاقه

وأما وصفه فكما قال الأستاذ العلامة تقي الدين الهلالي "أسمر اللون حسن الملامح طويل القامة، وكانت لحيته مستديرة بيضاء ناصعة"، وأما أخلاقه فزهدي غريب وعلو نفس عن الدنيا وبعد عن الرياء وتواضع مع كل إنسان، كان مثلاً للورع والتقوى ومثالاً في سائر الصفات الكاملة متحلياً بالعادات الحسنة ومتصفاً بالأخلاق الفاضلة التي قلما يجتمع في أحد في آن واحد. طويل السكوت، فكاهة الحديث إذا تكلم، عابداً لله، زاهداً في الدنيا، بعيداً عن لذاتها، كان يقوم الليل والناس نيام وأحياناً يتجافى جنبه عن المضجع، يتهجد في الليل، ويتلو القرآن والدمع يجري من عينيه. إذا صلى صلى كأنه يرى الله، تمثلت فيه أخلاق العلماء المتقدمين وظهر فيه جلياً ما يصفون به أولياء الله حتى نقدر به فضلهم ونشم فيه رائحتهم. وهو وإن أخذ من الإنكليزية والعلوم الحديثة ما أخذ ولكنها لم تؤثر في شيء منه غير تأثير قوي في توقد الذهن وتنويره في حد تام. كان يباشر أكثر أعماله بنفسه لا يكلف أحداً لأمره إلا إذا اضطر إلى ذلك. وكان يمنع إذا أراد أحداً أن يقوم بحاجة له صغيرة كانت أو كبيرة. بالطريق الحسن، وكانت له جاذبية غريبة قلما وجدت في غيره. كان ساذجاً في زيهِ وملابسه ومطعمه مع سعته ويسره. لم يمسه الأود ولا العجب ولا الخيلاء مع كل ما أعطاه الله من كنز العلم ومفتاح أبواب العرفان، كأنه لم يكن يعرف ما فضل الله به عليه. فكان يعيش عيشة الزهاد والمتقين، ليس عليه آثار الغناء ولا علائم أمامته في العلوم حتى لم يكد من لا عهد له به من قبل أن يعرفه برؤيته كما هو. أو يعلم أنه رجل عالم وقد اتفق لي هكذا. فإني متى شرعت في تعلم اللغة العربية ودخلت الصف الأول من مدرسة الإصلاح،

العدد الخاص مجلة الهند

ورأيته هناك مع جمع من الأساتذة وكان يأتي إليها ويقيم هناك في كل أسبوع ثلاثة أيام، فلم أميز بينهم وزعمت أنه كأحد منهم حتى انكشف لي بعد مدة حقيقة أمره فعلمت منزلته من بينهم. كان زاهداً في الدنيا، قانعاً بما أعطاه الله غير مستشرف لدولة ولا رام بطرفيه إلى إغارة، فطر على الاستغناء عن كل شيء. وقد قدم إليه الدهر وسائل لبلوغه أقصى مراتب العز والشهرة، وانقاد له ما تصعب وسهل له ما توعر منها وصار له الحظ قريب المتناول وسهل المرام ولكن لم يصل به بارقة طمع، فإنه عيّن ترجماناً عندما سافر اللورد الحاكم العام في الهند إلى الشواطئ العربية والخليج الفارسي لحسم الخلاف الواقع بين الحكومة البريطانية وبين شيوخ العرب، فرافقه إليها، والخطبة التي ألقى عليهم بالعربية من الحاكم العام، إنما كان هو أبا عذرها. ولو أراد شهرة أو منصباً جليلاً من مناصب الدولة لنالها بكل سهولة بواسطة الحاكم العام ولكنه لم يطمع في شيء منها ولم يطمح ببصره إليها بل عكس ذلك نرى موقفه حينئذ، مقام قناعة ونزاهة نفس فإنه قرض في سفره مع اللورد كرز، أبياتاً نشرها بعد موته الأستاذ العلامة السيد سليمان الندوي في عدد من مجلة "معارف" الغراء. وهذه الأبيات تدل على بُعد همته وعلى كونه في هذا الموقف، بمعزل عن ابتغاء المال والشهرة وهي:

نادان در جستجوی کام افتاده است دانا در جستجوی نام افتاده است
بگریز فراهیا! ازین هردو که زود ببینی که گلوئی شان بدام افتاده است
الترجمة: إنما الأحق في طلب الرزق، والعاقل في طلب الشهوة، وحسن الصيت،
أما أنت أيها الفراهي! فلا تطلب قرب واحد منهما فإنك ترى قريباً أعناقهم معقودة
في شباك:

گویند که گمنام بدن از خامی است آوازه و نام جو که خوش فرجامی است
در پیش فراهی ای نکو اندیشان این جستن نام بدترین بدنامی است

العدد الخاص مجلة الهند

الترجمة: يقولون إن خمود الذكر من عدم نضوج عقل المرء. فاطلب الشهرة والذكر فإنها من حسن حظ المرء ولكن أيها المتفكرون البارعون! إن طلب الشهرة عندي والسعي في نيل طيب الذكر لما هو شين وعار على المرء عظيم:

خاك ہے گر جہان میں کچھ ہے وہم ہے گر گمان میں کچھ ہے
تجھ پر کیا اعتبار اے ہستی آن میں کچھ ہے آن میں کچھ ہے
الترجمة: كل ما في الأرض كالتراب، ووهم كل ما في الذهن فكيف اعتبر بك أيها الكون! وأنت تتغير في كل آن.

فإن هذه الأبيات لشاهدة على نفوره من طلب الشهرة والبلوغ إلى مرتبة عالية، في حين سهل له تناولها. وليس لي حاجة أن أبين لكم الشواهد على ذلك فإنها كثيرة لا تحصى. وأي شاهد أكبر مما ذكرت ومن أنه ترك شهيرة قدرها ألف روبية وترك منصبه الجليل الذي يتمناه الرجال العظام، بدون سبب سوى نفوره عن الشهرة وقناعته بقليل من المال وابتغائه الانعزال والتجنب عن الناس وهو وإن كان يخفي نفسه عن عيون الناس ولكن من المحال أن تحجب الشمس في رابعة النهار. فقد اتفق رجال العلم من أهل الهند، من الذين طالعوا كتبه ودرسوا أجزاء تفسيره للقرآن أو حظوا بلقائه أنّ الشيخ حميد الدين قد فاق على جميع أقرانه في العلوم خصوصاً علوم القرآن حتى لا يُشَقُّ فيها غباره، وهكذا بلغت شهرته في العلم والفضل إلى الآفاق البعيدة والبلاد الشاسعة كمصر والشام والحجاز وغيرها من البلاد الإسلامية. فقد كتب الأستاذ الحجة السيد رشيد رضا منشئ "المنار" الغراء، تقریظاً على كتبه، أبدى فيه إعجابه وأثنى على مؤلفها ثناء جميلاً. وقد زاره في قريته الشيخ العلامة محمد تقي الدين الهلالي رئيس أساتذة آداب اللغة العربية في دار العلوم لندوة العلماء عند رحلته الأولى إلى الهند 1342هـ، كما زار غيره من أساطين العلم والأدب من أهل الشام ومصر والحجاز وغيرها. فمرة كنت أقلب أوراق محفظة أستاذنا العلامة عن أحوال سفره إلى الهند وكنت أجيل نظري فيه فإذا رأيت في

العدد الخاص مجلة الهند

موضع منه تحريرًا بيد العلامة حميد الدين، فعرفته سريعًا عندما وقع نظري عليه لعهدي بخطه من قبل، ذكر فيه الإمام باختصار تام تاريخ ولادته وشروعه في التعاليم وتوليته على الوظائف العديدة، أنقله للقراء في ختام هذه المقالة بنصه. ووجدت على طرف آخر من مذكرات العلامة تقي الدين الهلالي، عن صفات الإمام ما أنقله ههنا بنصه:

"وللشيخ المذكور (حميد الدين) ديوان شعر سمعته منه، بليغ مؤثر في استنهاض همم المسلمين وبث الحياة في قلوبهم وذكر عداء الأفرنج لهم وذكر حرب طرابلس والحرب الكبرى. والرجل فصيح في التكلم لغاية، نادر في علماء العرب فضلًا عن علماء الهند وسنّه تخمينًا 70، وقد أسّس مدرسة سمّاها مدرسة الإصلاح لا يدرس فيها إلا القرآن الذي هو ضالته المنشودة وسمعت منه خطبة تفسيره للقرآن اغرورقت منها عيناى لفصاحتها وحقيقتها وهو عارف بمسئلة الخلافة، محقق لها، لا يلتبس عليه شيء من أمرها خلافاً لأهل الهند مجتهد في العقائد والعمليات لا ينتهي لمذهب لكنه يتعبد على مذهب الحنفية لأنه نشأ عليه ويعتقد أن الأمر في مثل ذلك سهل. أسمر اللون. حسن الملامح، طويل القامة، لحيته مستديرة بيضاء ناصعة ماهر في الإنكليزية والعربية والفارسية والأردوية، قد تقلب في وظائف عديدة منها أنه كان مدرسًا عاليًا في عليكره وبالجملة فهو أعلم من لقيته قبل هذا الجين وهو 17 رمضان 1342هـ".

أعماله الخالدة

أما أعماله فكثيرة لا يحيط بها بيان ويحتاج ذكرها إلى دفتر طويل ومن الجدير بالذكر هنا، تفسيره للقرآن على طراز جديد وأسلوب بديع لم يعهده الزمان. وكيف وقد أفنى فيه عمره وعكف على مطالعة القرآن نحو ثلاثين سنة فأتى بعد ذلك بعجائب ودبجت يراعتة ما هو مفخرة للهند وللمسلمين عامة. كان يعتقد أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضًا وأن آياته متسقة النظام ومتصلة بعضها ببعض خلافاً لما قال أكثر المفسرين، فمن قدّم سورة أو آية منه أو أخرها فقد أفسد نظم

القرآن وذهب بروعة الكلام وأفنى ما فيه من البلاغة والحكمة. وقد أتى على ذلك ببراہین واضحة وأقام عليه حججاً قاطعة وقد أفرد لها كتاباً سماه "نظام القرآن" وهو لم يطبع حتى الآن. ومن دلائله على ذلك أنه لو لم يكن للآيات والسور نظام واتساق لما كان أمر النبي ﷺ عند نزول القرآن بوضع بعض الآيات في سورة والأخرى في سورة أخرى معنى، وقد ثبت من الروايات الصحيحة أن النبي ﷺ كان تنزل عليه السورة ذات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا. قصارى الكلام أن الأستاذ الإمام كان آية من آيات الله في معرفة القرآن وحلّ معضلاته، وطبعت أجزاء من تفسيره المسعّى بـ "نظام القرآن" وبقيت ذخيرة منها لم تطبع حتى الآن. ومن تصانيفه "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" وهي رسالة استشهد فيها بآيات من التوراة والقرآن على كون سيدنا إسماعيل عليه السلام ذبيحاً بأمر الله. وأزال فيه الستار عن تحريف اليهود في التوراة.

وقد حقّق الأستاذ هذه المسئلة للعلامة شبلي عند اشتغاله بتصنيف كتابه الشهير في سيرة النبي ﷺ وبعدما قضى شبلي النعماني وطره منها، طبعه الأستاذ بعد الاستقصاء التام وزيادة بعض الأشياء.

ومنها "إمعان في أقسام القرآن"، بحث فيه عن كلمة القسم في القرآن وبيّن فيه ما يزيل الوهم ويحسم جرائيم الشكوك التي يعارض الأذهان عند تلاوة آيات الأقسام وهو وإن سبق في بيان هذه المسئلة فقد أراد الرازي في تفسيره الكشف عن وجوهه، وقد أفرد لها ابن القيم كتاباً سماه "التبيان في أقسام القرآن"، ولكن الحق أن من طالع "الإمعان" وعرف ما كتب هذان الإمامان ذوا الإقتان في علوم القرآن والشريعة، يشهد أنهما وقعا في الغمّة التي لم تنجل عنهما والمضيق الذي لم يخرجاه منه فكشف الإمام عن وجه هذه المسئلة حتى أسفرت وصارت واضحة. ومَنْ شكّ فيما أقول فعليه أن يراجع هذا الكتاب.

ومن أهم تصانيفه، كتابه الشهير بـ "جمهرة البلاغة" في بلاغة القرآن ونظم آياته والرد على أرسطو، وقرّظه العلامة شبلي النعماني في مجلة "الندوة" لشهر

العدد الخاص مجلة الهند

ديسمبر 1905م وأثنى عليه ثناء حسناً جميلاً وجعله للمسلمين بمثابة الماء الزلال للعطشان. ومن أعماله مدرسة الإصلاح وهذه مدرسة عربية دينية ولها من المزايا ما لا توجد في غيرها من المدارس المنبثة في الهند. وكان ناظرًا لها إلى آخر حياته وكان يأتي إليها ويقيم فيها ثلاثة أيام وليالها، يلقي فيها دروس القرآن على الأساتذة وعلى كبار الطلبة. وكان ينظر في شؤون التعليم العربي ويفكر دائماً في قائمة الدروس الجارية في المدارس العربية فيراها بالية عقيمة، فحسّنها وأوجزها وأصلحها وألغى العلوم الغير المنتجة، فجاءت قائمة دروس هذه المدرسة بديعة. كان من إرادتي أن أنقلها وأزفّ إلى القراء بنات أفكاره التي أبداه في هذه القائمة وأن أبين بعض خصائص هذه المدرسة ومعلّمها، وهم أساتذتي. ولكن قد ضاق نطاق المجلة وسنفصلها¹ فيما بعد إن شاء الله تعالى. ونختم هذه المقالة بنقل تحريره المشار إليه من قبل. قال عبد الحميد الفراهي: "إني ولدت في قرية "فريه" من قرى أعظم كره في 1280هـ في شهر جمادى الثانية وحفظت القرآن المجيد وأنا ابن عشر سنين أو بقرب منها، وتعلمت اللغة الفارسية في مدة تسعة أشهر ولكن لم اشتغل بها إلا بعد عامين لتتابع الأسقام وشرعت في تعلّم اللغة العربية وأنا ابن أربع عشرة سنة وقرأت أكثر كتب الدرس النظامي على ابن عمّتنا العلامة شبلي النعماني ثم تلمذت على بعض مشاهير علماء الهند مثل مولانا عبد الحي الفرنجي محلي في لکنو والأديب الشهير مولانا فيض الحسن السهارنفوري في بلدة لاهور ثم كابدت الأمراض ولم اشتغل بتحصيل علم مدة سنة ثم شرعت في تعلم اللغة الإنكليزية وفنونها المتداولة وبعد ذلك بقيت سنتين، أحصل علم القوانين الجارية مع كراهيتي الاشتغال به فنبذته وتولّيت خدمة التعليم في مدارس عديدة فكنت المعلّم (بروفيسر) في كلية عليكره وكلية إله آباد والصدر (پرنسپل) في كلية حيدر آباد دکن.

¹ قد صحت عزائمنا على أن ننشر سلسلة من المقالات عن المراكز العلمية الأدبية مثل دار المصنفين، وندوة العلماء، والجامعة المليّة بدھلي ومدرسة الإصلاح بسرائ مير ومعهد ديوبند. وأيضاً النية معقودة على نشر سلسلة أخرى عن مشاهير علماء الهند وعظماءها الذين يرجح إلهم الفضل في النهضة الفكرية الحديثة. (مجلة الضياء)

العدد الخاص مجلة الهند

ولما كان هذه المشاغل تمنعني عن التجرد بمطالعة القرآن المجيد لا يعجبني غيره من الكتب التي مللت النظر في أباطيلها، غير متون الحديث وما يعين على فهم القرآن، فتركت الخدمة ورجعت إلى وطني وأنا بين خمسين وستين من عمري. فيا أسفى على عمر ضيَّعته في أشغال ضرِّها أكبر من نفعها ونسأل الله الخاتمة على الإيمان".¹

¹ نشرت في مجلة "الضياء" الصادرة عن ندوة العلماء، لكتناؤ، رجب 1352هـ

العلامة حميد الدين الفراهي في علي جراه

- أ.د. أبو سفيان الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: أبو سعد الأعظمي²

إن المؤسسة التي أقامها السير سيد أحمد خان (1817-18198م) لها إسهامات قيمة وخدمات جليلة في مجالات مختلفة من العلوم والفنون، وقد أنجبت المؤسسة أفذاً في العلوم الدينية وأعلاماً في الفنون الجديدة ونبغ منها الزعماء السياسيون وخدام الناس وانتشروا في أنحاء العالم لكي يفيدوا الناس بما أودع الله فيهم من مؤهلات علمية واجتماعية. ومما يتميز به السير سيد أحمد خان أنه فتح باب مؤسسته على مصراعيه لكل من أتاه من المؤيدين أو المخالفين واستقبلهم بشوق وحفاوة. وإذا كانت طائفة من العلماء العظام تخالف أفكاره الدينية وتعارضها فقد كان هناك عدد كبير من العلماء الأجلاء من أمثال النواب محسن الملك ووقار الملك ودبتي نذير أحمد والعلامة شبلي النعماني ومولانا أَلطاف حسين حالي والأستاذ حميد الدين الفراهي وغيرهم الذين أزروه في مواقفه وأشادوا بأرائه المبتكرة واعترفوا بخدماته الجليلة رغم أنهم كانوا يختلفون معه في أفكاره الدينية.³

شخصية الأستاذ الفراهي:

إننا لا نحتاج إلى تعريف شخصية الأستاذ الفراهي (1883-1930م) بما كان له من خدمات جليلة وإسهامات بارزة في مجال علوم القرآن وقد تفرد بنظريته لنظام

¹ بروفيسور، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره، الهند

² باحث، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره، الهند

³ راجع للمزيد عن زملاء السير سيد: سر سيد أحمد خان اور ان كي رفقاء للسيد عبدالله، نيو ليتيمو آرت بريس، دهلي، بدون تاريخ، ص 85-400 وانظر أيضاً: مجله فكر ونظر (جامعة علي كره الإسلامية) عدد خاص، ناموران علي كره كا بهلا، دوسرا اور تيسرا كاروان، وكذلك انظر: أعداداً خاصة لمجلة تهذيب الأخلاق "مشاهير علي كره"

العدد الخاص مجلة الهند

القرآن. ومما لا شك فيه أنه كان موهوبًا بجودة الفهم وحدة الذكاء منذ طفولته إلا أن هذه المؤسسة التي تم تأسيسها في علي جراه كان لها دور بارز في إبراز شخصيته وفي رفعه إلى قمة العلوم والفنون التي وصل إليها. فإنه وجد مجالًا واسعًا للبحث والتحقيق بعد قدومه إليها وتشرف بلقاء الباحثين من الهند وخارجها كما أتاحت له الفرصة للاستفادة من الدخائر العلمية للكتب واعترف أعلام العلم والأدب فيما بعد بمؤهلاته العلمية بكل صراحة. فكتب إليه العلامة شبلي النعماني عندما تفكر عن إعداد خطة دار المصنفين: "جعلتك من المديرين ولو تم تأسيس دار المصنفين فهل هناك أحد سواك يصلح لإدارتها"¹ وكتب السيد سليمان الندوي في افتتاحية مجلة "معارف" بعد وفاته: "ارتحل ابن تيمية هذا العصر في 11 نوفمبر 1930م"² ويرى الأستاذ المودودي: "إنه قضى حياته في تحقيق المعارف القرآنية"³ وأضاف فيه...ويمكن لنا أن نقول بكل وثوق وصراحة إنه أحاط بجميع الأشعار العربية الجاهلية وقلما أن يغيب عن ذهنه أي شعر جيد"⁴ وعبر الشيخ تقي الدين الهلالي عن شخصيته فقال: "كان له إلمام ودرك في اللغة الإنجليزية والعربية والفارسية والأردية وبالجملة فقد وجدته من أرفع الشخصيات ممن لقيتهم هنا علمًا وفضلًا"⁵ وألقى الشيخ عبد الحي اللكنوي الضوء على شخصيته قائلًا: "راسخ في العلوم العربية والبلاغة، متعمق فيها، متضلع من أشعار الجاهليين، وأساليب بيانهم، واسع الاطلاع على الصحف السماوية، حسن النظر في كتب اليهود والنصارى، عاكف على التدبر في القرآن والغوص في معانيه وأساليبه"⁶ واعترف العلامة مناظر

¹ مكاتيب شبلي، مطبعة معارف أعظم كره، ط2، 1927م، 54/2

² مولانا حميد الدين للسيد سليمان ندوي، معارف، نوفمبر 5/26، 1930م، ص322

³ دو عمده مضمون لمرتبها بدر الدين الإصلاحي، (فتنه تكفير، أبو الاعلى المودودي، مطبعة اصلاح سرائي مير، أعظم كره، بدون تاريخ، ص12

⁴ أدبيات مودودي لخورشيد أحمد، ط1، مركزي مكتبة اسلامي، دهلي، 1980م، ص352

⁵ مجلة الضياء، رجب 1352هـ، نقلًا عن حميد الدين الفراهي لمحمد عنايت الله السبحاني

الإصلاحي، ط1، مكتبة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، نوفمبر 1978م، ص44

⁶ نزهة الخواطر للشيخ عبد الحي، ط1، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد الدكن، 1970م، 230/8

أحسن الغيلاني بما كان له من خدمات جليلة فقال: "إنه حاول للبحث عن الربط بين الآيات القرآنية مما لا يوجد له نظير دون سواه، وربما يكون هذا الربط بين الآيات القرآنية دليلاً على أنه منزل من الله تبارك وتعالى دون سواه"¹ وأشاد عبد الماجد الدريأبادي بخدماته بهذه الكلمات: "إنه فاز بأصول جديدة للتفسير في تاريخ الأمة وأكبر فكرته فيها هو نظم القرآن"². ويرى الأستاذ شاه معين الدين الندوي: "إن تفسير سور القرآن القصيرة التي يمر بها المفسرون عامة وقف عليها الأستاذ وقدم فيها آراء دقيقة ومباحث لطيفة"³. وصدق مولانا عبد الحق حين قال: "إنه أمعن في القرآن ونظر فيه من كل جانب وأرى أنه لم يكن هناك أية نكتة لم تقع عينه عليها"⁴. واعترفت جريدة الجمعية بخدماته مشيرة: "إنه كان عالماً عديم المثال في اللغة العربية وآدابها وعلومها"⁵. وأشاد مولانا أبو الكلام آزاد بما كان الفراهي يتمتع به من العلم والتقوى والورع فقال: "إن الأستاذ الفراهي الذي أثرت ضجة كبيرة على عبارته كان من العلماء الأجلة الذين لم ينفردوا بما كان لهم من مؤهلات علمية بل يتصفوا بالعمل أيضاً. ولا يخفى على أهل النظر ندرة الجنس الثاني"⁶.

ولا تتجاوز جريدة "فاران" الحق إذ تقول: "مما لا شك فيه أن له براعة تامة في الدراسات القرآنية ولا مثيل له فيها في العصر الراهن"⁷. وكتب تلميذه الرشيد الشيخ أمين أحسن الإصلاحي في مقدمة تفسيره "تدبر قرآن": "وبجانب جهودي الممتدة على

¹ هندستان مين مسلمانوں کا نظام تعلیم و تربیت لمناظر أحسن الغيلاني، مطبعة انتظامي حيدرآباد الدكن، بدون تاريخ، 279/2

² صدق، 11 فبراير 1936م، نقلاً عن حميد الدين الفراهي لمحمد عنايت الله السبحاني الإصلاحي

³ تفسير سورة الكافرون، (استعراض) للشاه معين الدين الندوي، معارف، أبريل، 1938م، 4/41، ص315

⁴ نقلاً عن الجريدة الشهرية "الإصلاح"، اردو اورنغ آباد الدكن، يوليو، 1936م، 63/16، ص505، مكتبة الإصلاح بأعظم كره، ص47

⁵ الجمعية، 14 يوليو 1936م، نقلاً عن العلامة حميد الدين فراهي ايك عظيم مفسر، ايك مايه ناز محقق، ايك بلند بايه مجدد، ص48

⁶ المصدر السابق، ص18

⁷ المصدر السابق، ص49

العدد الخاص مجلة الهند

أربعين سنة ينضم إليها نتائج محاولات أستاذي المشتملة على أكثر من ستين سنة، وكنت أشعر بالفخر العالي لو كنت أدعي بأن كلما يحويه هذا الكتاب مما استفدت من أستاذي وهذا هو الواقع، ولكن أحذر هذه الدعوى أن يعزي خطأً إليه وقد ارتكبته"¹ كما إن رشيد رضا المصري² وفيصل شكري أشادا بخدماته الجليلة.³

وقد أسهبت في ذكر آراء أهل العلم عن الأستاذ الفراهي وذلك لكي يتضح أن مدينة علي جراه لها دور بارز في تمكين الأستاذ الفراهي من احتلال هذا المنصب الجليل من العلم. والآن نسلط الضوء بالتفصيل على جوانب عديدة عندما كان الفراهي طالباً ومدرساً في علي جراه لأن لذلك أهمية بالغة في فهم شخصيته وإن كان قبل هذا يوجد بعض الأمثلة التي تدل على ذكاء الأستاذ الفراهي ولكن نشأ فيه الحب للبحث وتوقد ذهنه المبتكر بعد قدومه إلى علي جراه كما بدأ يمعن النظر في جوانب عديدة من القرآن الكريم ويتوسع فيها.⁴

أيام تعليمه:

التحق الأستاذ الفراهي بكلية محمدن انجلو الشرقية سنة 1891م للحصول على البراعة في اللغة الإنجليزية والمهارة التامة في العلوم الجديدة فأتم البكالوريوس في سنة 1895م ويجدر بنا أن نقس لكم ما وقع بشأن التحاقه بهذه الكلية. إن الأستاذ الفراهي كان قد قضى من عمره عشرين سنة عندما التحق بالبكالوريوس وفي ذلك الوقت كان له مهارة تامة في اللغتين الفارسية والعربية وكتب السير سيد أحمد خان إلى المدير الإنجليزي آنذاك رسالة في صدد التحاق عبد الحميد الفراهي فكتب فيها: "إني أرسل إليك طالباً هو أجود في اللغة العربية والفارسية من الأساتذة الموجودين في كليتك واستيأس بها المدير والأساتذة الأخرى وكان العلامة

¹ مقدمه تدبر قرآن لأمين أحسن الإصلاحي، تاج كمبني، دهلي، 1989م، ص 41

² مجله المنار (مصر) 22 مارس، 1909م، ص 135-136، نقلاً عن كتابيات فراهي لظفر الإسلام

الإصلاحي، إداره علوم القرآن، ط 1، علي كره، 1991م، ص 66

³ مجمع اللغة العربية دمشق، أكتوبر 1974م، ص 908-915، نقلاً عن كتابيات فراهي، ص 66

⁴ تفسير نظام القرآن (مقدمة) ص 30

العدد الخاص مجلة الهند

شبلي النعماني أيضًا من هؤلاء الأساتذة فعبّر المدير عن رده وقدم هذه الرسالة إلى العلامة شبلي النعماني، فأجاب العلامة: يمكن أن تكون هذه المسئلة قد أغضبتمكم ولكن أنا أفخر به لأن من أشاد به السير سيد هو في الواقع تلميذي وتعلّم عليّ اللغتين العربية والفارسية".¹

السير سيد والأستاذ الفراهي:

قد سبق أن الأستاذ الفراهي قد تضرع في اللغة العربية والفارسية وعرف دقائقهما قبل الالتحاق بعلي جراه، فلذلك التمس منه السير سيد أن يترجم بعض الأبحاث المتعلقة بالسيرة النبوية من طبقات ابن سعد إلى اللغة الفارسية. ولا يفوتنا أن الأستاذ كان في ذلك الوقت طالبًا في البكالوريوس وقد أعجب السير سيد بترجمة الفراهي وأشاد بها حيث إنه أدخل هذه الترجمة في المقررات الدراسية للكلية.²

وفي ذلك الوقت كان السير سيد يحاول تحقيق مخطوطة بالية للإمام الغزالي قد أكلتها الديدان وشاركه في ترتيبها وتهذيبها العلامة شبلي النعماني وألطف حسين حالي ولكن بما أنهم لاقوا في تصحيحها صعوبات ومشاكل، لم يتيسر لهم إتمام المشروع وأشار العلامة شبلي النعماني بعد أن ضاق به ذرعه أن يفوض هذا العمل إلى حميد الدين ففوض العمل إليه وحينما ردها الفراهي بعد الإتمام في أيام معدودة، قابلها السير سيد مع النسخ الأخرى فوجد أنها توافقت تمامًا أو تكاد تكون قريبة منه. تحرير السير سيد ودهش بعد أن رأى مؤهلاته العلمية إلى هذه الغاية وسأله عما ركزه في صدد هذا العمل؟ فأجاب الفراهي: بذلت عنايتي وجهدي في سياق الكلام وفي ضوء أسلوب الإمام الغزالي".³

¹ مولانا فراهي لأمين أحسن الإصلاح (حيات حميد لعبد الرحمن ناصر الإصلاح)، ط1، مطبعة معارف، أعظم كره، 1973م، ص22-23

² المصدر السابق، ص32

³ المصدر السابق، ص33-34

والسير سيد أحمد خان كان يريد أن يترجم تفسيره إلى اللغة العربية ولتحقيق هذه الأمنية التمس من العلامة شبلي النعماني أن يترجم تفسيره إلى العربية لكنه عندما اعتذر عن ذلك، قدم السير سيد أمنيته أمام طالب في كلية محمدين أورينتال الشرقية وهو عبد الحميد لكنه رفض بصراحة وعندما أُلح عليه السير سيد وسأل عن سبب هذا الرفض قال الفراهي إني لا أريد أن أساهم في إذاعة هذه المعصية".¹

العلامة شبلي والأستاذ الفراهي:

قد قدر الله تبارك وتعالى للأستاذ الفراهي الاستفادة من العلامة شبلي النعماني ووفر له فرصة الانتفاع به منذ نعومة أظفاره وكان العلامة شبلي النعماني نفسه يريد أن يبلغ الأستاذ الفراهي في مختلف العلوم والفنون إلى أوجها وكمالها، ولذلك كان يلفت انتباهه ويوليه عناية خاصة في علي جراه أيضًا. يقول عندما كتب رسالة إلى السير سيد، ".....وإن تلق الضوء على الأوضاع الراهنة هناك يكون سببًا لاطمئنانني فإني تركت الأطفال في رعايتك وأرجو منك أن تنبه عبد الحميد بإشرافهم".² وأضاف قائلاً في رسالة أخرى إلى السير سيد: "من فضلك أخبر عبد الحميد أن يرسل إلي رسالة طويلة مع نتائج الامتحانات للأطفال".³ وكان الأستاذ الفراهي يريد أن يلتحق بالماجيستر بعد نهاية البكالوريوس ولكن لم يتيسر له ذلك بسبب بعض الصعوبات. أرسل الفراهي رسالة إلى العلامة شبلي النعماني بعد أن غادرها إلى كراتشي وذكر فيها مشكلة إخراج شهادته⁴ وأجاب العلامة على هذه الرسالة قائلاً: "قد استلمت رسالتك وأرجو منك أن تكتب شخصيًا إلى السير سيد

¹ تفسير نظام القرآن للعلامة حميد الدين الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي

مير، أعظم كره، 1411هـ/1990م، ص13

² مكاتيب شبلي، مطبعة معارف أعظم كره، ط2، 1928م، ½

³ مكاتيب شبلي، مطبعة معارف أعظم كره، ط2، 1928م، 5/1

⁴ المصدر السابق، 1/1

العدد الخاص مجلة الهند

لشهادة واذكر ترجمة طبقات ابن سعد وبدء الإسلام¹. ويتضح من مضمون هذه الرسالة أن السير سيد كان على علم تام بما يتمتع به الأستاذ الفراهي من مؤهلات وجدارات وذكاء وفطنة. وقد نهج العلامة شبلي النعماني لتدريس اللغة العربية والفارسية في كلية محمدن اينجلو الشرقية منهجاً مثاليًا، فنبت منها عدد من الطلاب من أشهرهم الأستاذ حميد الدين²، وبما أن العلامة أولاه عناية خاصة ورعاية تامة، وصل الفراهي إلى منصب البروفيسور في العربية³.

وقد عقدت حفلة وداعية في تكريم آرنولد عندما كان يغادر من علي جراه واتفق على أن يقدر شخصيته ويشيد بخدماته في لغات مختلفة واختير اسم العلامة شبلي لتشييد خدماته باللغة الفارسية فاستعان العلامة شبلي بالأستاذ الفراهي في إعداد هذه الكلمة وكتب إليه رسالة قال فيها: "أرسل إلي رسالة التقدير والإشادة باللغة الفارسية لأنني لا أجيد الكتابة بالفارسية"⁴. كما عقدت حفلة التكريم والحفاوة للأستاذ شبلي من قبل لجنة إخوان الصفا ولجنة الأدب في 19 يناير سنة 1894م عندما تلقب العلامة بـشمس العلماء وألقى فيها الخطب عدد من العلماء الأجلاء الذين حضروا هذه الحفلة التكريمية ومنهم المستر بيلك وألطف حسين حالي ومزمل الله خان الشرواني وغيرهم. وقدم فيها حميد الدين الذي كان طالبًا في ذلك الوقت⁵ قصيدة عربية رائعة في تكريم العلامة شبلي، أشاد واحد من الصحفيين بهذه القصيدة قائلاً، "أنشد فيها حميد الدين عضو إخوان الصفا ولجنة الأدب قصيدة عربية رائعة، يشيد بها الأدباء الأجلاء للغة العربية ويجدر بنا أن نذكر هناك بعض الأشعار من تلك القصيدة:

يا خير من يسمو إلى العلياء كالشمس بازغة بوسط سماء

¹ المصدر السابق، 212

² حيات شبلي، ص 148

³ حيات شبلي للعلامة السيد سليمان الندوي، دار المصنفين شبلي أكاديمي، أعظم كره، ص 781

⁴ مكاتيب شبلي، 71/1

⁵ حيات شبلي، ص 248-256

العدد الخاص مجلة الهند

قد كنت قدماً للمعالي سامياً أورثته عن شيمة الآباء
فلئن سموت إلى المكارم والعلا فلقد نشأت بعزة قعساء
لا غرو نصل السيف إن يك صارماً أو يستهل البرق باللألاء
فلأنت بالعزمات سيف صارم ولأنت برق لامع بذكاء¹

المستشرقون والأستاذ الفراهي:

لئن كان الأستاذ الفراهي قد تشرف بمرافقة أصحاب العلم وأعلام الفن الهنود في علي جراه فإنه حظي بلقاء عدد من المستشرقين المشهورين أيضاً. ومن أبرزهم آرنولد وجوزف هارويز، يحتل آرنولد مكانة مرموقة في مجال العلوم والفنون وله صلة وطيدة مع كثير من أرباب العلم والفضل من العلماء الهنود ومن بينهم العلامة شبلي ومحمد إقبال. كتب العلامة شبلي إلى الأستاذ الفراهي لتحقيق عمل آرنولد بما كان له صلة وطيدة به فيقول: "هناك كتاب وجيز في القواعد العربية يريد آرنولد أن يترجمه إلى الإنجليزية ولذلك قدّم اسمك وبما أن الكتاب وجيز جداً ومصطلحاته معروفة فلذلك اقبل مشروع ترجمته"². يتبين من نص هذه الرسالة أن آرنولد كان يعترف بعبقرية الفراهي كما يتجلى منها أن الفراهي كان يستطيع أن يقوم بهذا العمل على أحسن وجه وذلك بما كانت له معرفة تامة باللغتين العربية والإنجليزية.

ومن أهم الغايات التي ارتحل لها الأستاذ الفراهي إلى علي كره أنه كان يريد أن يكون على بصيرة كاملة من نظريات الفلسفة الجديدة واستفاد في هذا الصدد من البروفيسور آرنولد الذي كان عالماً شهيراً في الفلسفة. أخذ الفراهي منه شيئاً كثيراً إلا أنه لم يرض به وأشار الشيخ أمين أحسن الإصلاحي إلى سبب ذلك قائلاً: "إن الأستاذ الفراهي كان يعتبر آرنولد وسيلة لحصول تلك الأهداف التي نشرها الإنجليز في علي جراه وأعجب

¹ علي كره انستي تيوت كزت، 6 فبراير 1894م، ص 140-145/ ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي (جمع: بدر الدين الإصلاحي)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، الهند، ص 9

² مكاتيب شبلي، 17/1

أصحاب علي كره وفضلاؤها بكتابه "Preaching of Islam" إعجاباً شديداً ولكن الفراهي كان يعارض هذا الكتاب بشدة ويقول إنما أُلّف هذا الكتاب ليسلب روح الجهاد من قلوب المسلمين".¹

كما إنه استفاد من مستشرق آخر اسمه جوزف هارويز والذي تم تعيينه كأستاذ في سنة 1906م² واعترض المسلمون الهنود على تعيينه وتساءلوا عما إذا كانت الهند لا توجد فيها من الأساتذة من يستطيع تدريس اللغة العربية فرد عليهم أن الغاية ليست تدريس اللغة العربية فقط بل أرسل إليها ليفيد طلابنا بتاريخ اللغة العربية والتاريخ الإسلامي والثقافة الإسلامية وتعبير الإنشاء وطرق التصنيف والتأليف الجديدة وتم تعيين أربعة أساتذة مساعدين لجوزف هارويز ومنهم الأستاذ حميد الدين الفراهي.³

تعلم الفراهي من هارويز اللغة العبرانية وتمهر فيها حيث تمكن من الاستفادة بالعلوم والفنون الموجودة في اللغة العبرانية مباشرة ونجد نماذج استفادته من هذه اللغة في عديد من كتبه من أمثال "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" و"الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" و"مفردات القرآن" وغيرها. وفي مقابل تعلمه للغة العبرانية من هارويز، قام الفراهي بتعليم هارويز اللغة العربية حتى أتقنها.⁴ وفي هذه الأيام تحمل الأستاذ الفراهي مسؤولية تحقيق المخطوطات العربية لطبقات ابن سعد التي أعدها المستشرقون الأوروبيون والذين تحملوا مسؤولية البروفات لهذه النسخ منهم هارويز أيضاً لكن بما أنه لا يستطيع بذلك، كان الفراهي يراجعها ويقوم بتصحيحها ثم يرسلها إلى هارويز.⁵

¹ حيات حميد، ص34

² هستري آف دي ايم. اي. او كالج لهتناكر، ايشيا بيلشنك هاؤس ممبئي، 1969م، ص222

³ علي كره انستي تيوت كزت، 15 مايو 1977م، ص4

⁴ حيات حميد، ص7-8

⁵ تهذيب الأخلاق، إقبال أحمد خان سهيل، نوفمبر 1987م، 11/6، ص9-10

لجنة المترجمين:

وقد تم إنشاء لجنة للمترجمين في كلية محمدين اينجلو الشرقية في علي جراه وذلك لكي يترجم الكتب الإنجليزية إلى الأردية ولكن قرر فيما بعد أن الكتب المفيدة بصرف النظر عن لغتها ستترجم إلى اللغة الأردية. وكان يلزم لمن كان يريد عضويتها أن يكون حامل شهادة البكالوريوس. وقد ذكر في علي كره انستيتوت كزت اثنا عشر عضوًا وعين الأستاذ الفراهي وسيد وحيد الدين مديرين لهذه اللجنة. ومن مسؤولياتهما أن يصحّحا التراجم ويقوم بمراجعتها، كما كان عليهما أن يعدّا قاموسًا يكون فيه شرح المصطلحات العلمية الإنجليزية في اللغة الأردية وأن يقترحا المصطلحات العلمية الأردية إزاء هذه المصطلحات العلمية الإنجليزية.¹ ويظهر مما سبق أن الأستاذ الفراهي كان معروفًا بين الأوساط العلمية في هذه الكلية. ويجدر بنا أن نذكر التفاصيل الواردة عن المترجمين في انستيتوت كزت. انعقدت جلسة لجنة المترجمين في 2 فبراير 1908م وتم فيها إصدار القرارات التالية:

1. لا تقتصر وظيفة هذه اللجنة على ترجمة الكتب الإنجليزية إلى الأردية بل تشمل ترجمة أي كتاب مفيد إلى الأردية من أية لغة.
2. يلزم للمترجم أن يكون حامل شهادة البكالوريوس من أي جامعة ولكن الآن رفع هذا الشرط ويسمح لكل من يعرف اللغة الأجنبية أن يقوم بالترجمة.
3. يمكن أن يكون عضو هذه اللجنة من خارج علي كره.
4. إذا أراد عضو من أعضاء اللجنة أن يترجم أي كتاب فعليه أن يخبر اللجنة عن هذا الكتاب.
5. يسمح للمترجمين أن ينشروا الكتاب ذاتيًا وإن لم يستطيعوا ذلك فتساعدهم اللجنة في هذا الصدد.
6. إن نشرت اللجنة أي كتاب فلا يسمح للمترجم أن يعيد نشره حتى تنفذ طبعته الأولى.

¹ علي كره انستي تيوت كزت، 4 ديسمبر 1907م، ص 2

العدد الخاص مجلة الهند

وأضاف أن "من كان عنده استفسار أو اقتراح، فعليه أن يعرضه على الفراهي الأستاذ المساعد في كلية محمدين اينجلو الشرقية وأن يرسل إليه رقم التعاون والعضوية"¹. ويتبادر من جلسة لجنة المترجمين المنعقدة في 27 مارس 1908م أن الأستاذ الفراهي قد بدأ ترجمة كتاب الفيلسوف ريد المسى "انكوائري آف هيومن اندراستيندنك"² ولكن لم نعثر على تفاصيل هذا المشروع، فلا ندري أتمت هذه الترجمة أم بقيت غير تامة. ومما يؤسفنا أن الأستاذ الفراهي لم يدم ارتباطه بهذه اللجنة وإلا لاستفادت حركة الترجمة في علي كره من مهاراته أكثر بكثير.

حبيب الرحمن خان الشرواني والأستاذ الفراهي:

كان العلامة شبلي النعماني يريد في كل أن أن تسود شخصية الأستاذ الفراهي العلمية في عيون الأعلام والباحثين الكبار وبذل كل ما كان في وسعه لتحقيق أمنيته. وبذلك كان الأستاذ الفراهي يعرف الشخصيات العظيمة في كلية محمدين اينجلو الشرقية وبقي له صلة وطيدة بحبيب الرحمن خان الشرواني في علي جراه وفي معظم الأحيان تشرف بلقائه وعندما توفي الأستاذ الفراهي كتب حبيب الرحمن إلى سيد سليمان الندوي يعزیه بهذه الكلمات: "كنت أعرف الأستاذ من مدة غير قليلة وتشرفت بلقائه في البداية بواسطة العلامة شبلي النعماني ثم لقيتُه عندما أصبح أستاذًا في علي جراه ثم في حيدرآباد وهو يستمر في شغفه بالتدبر في القرآن الكريم وكان يقضى أوقاته فيه من الساعة الثالثة من آخر الليل إلى الساعة التاسعة صباحًا، ويفيدنا بنتائج بحثه عندما تشرفنا بزيارته وفي ذلك الوقت كان يداوم مطالعة الصحف السماوية وكان يودّ حل المشاكل في ضوءها، وفي هذه الحالة غادر علي جراه"³.

¹ علي كره انستي تيوت كزت، 5 فبراير 1908م، ص 7

² علي كره انستي تيوت كزت، 1 أبريل 1908م، ص 5

³ حیات حمید، ص 8

إقبال سهيل والأستاذ الفراهي:

إن إقبال سهيل الشاعر الشهير كان يذكر العلامة شبلي النعماني في صدد الشعر والأستاذ الفراهي في الدراسات القرآنية بكل تقدير واحترام.¹ وقبل الالتحاق في كلية محمدن اينجلو الشرقية كان يسكن مع الأستاذ الفراهي في بني سرائيلان حي علي جراه القديم الشهير وكان بيت عبد السلام صاحب مطبعة فيض عام علي جراه بجواره. وللأستاذ الفراهي علاقة عميقة فلذلك طبع عددًا من كتبه بهذا المطبع، كما أن "شعر العجم" الذي ألفه شبلي النعماني طبع في هذا المطبع. وفي ذلك الوقت كان يجتمع الشيخ رشيد الأنصاري مدير علي كره انستيتوت كزت والشيخ وحيد الدين سليم على مائدة الأستاذ الفراهي لشرب الشاي.

وقد نقل إقبال سهيل قصصًا عديدة عن الأستاذ الفراهي وهي ذات دروس وعبر لأولي الأبصار. يقول عندما رجع الفراهي إلى علي كره بعد أن ترك وظيفة مدرسة الإسلام بكراتشي في سنة 1908م حصل له ألف ومأتان روبية إضافية من هناك وقدمها الأستاذ الفراهي إلى أهل بيته ولكنهم عندما رفضوا القبول أمر إقبال سهيل أن ينتخب الكتب التي تبلغ ثمنها إلى ألف روبية وأشار إقبال سهيل أن تجمع هذه النقود للأطفال فاحمر وجهه غضبًا لأنه يظن معصية أن تجمع هذه النقود ومخافة أن يخطر بباله أن هذه النقود المحفوظة ستصبح نافعة في ضرورة اتفاقية وهكذا نتوكل على هذه النقود لقضاء الحاجات دون الله تبارك وتعالى.

وقصة أخرى تبدو منها توكل الأستاذ الفراهي على الله تبارك وتعالى وخشيته له أنه كان في علي كره رجل داهي في شكل ناسك يداوم التساؤل بإفلاسه وبرث حاله وربما ينجح في غايته بطلاقة لسانه وسحر بيانه وفي بعض الأحيان سأل الأستاذ الفراهي أيضًا ومرة أعطاني رسالة إلى الأستاذ الفراهي لأرسلها إليه، فأدخلت هذه الرسالة في جيب ولم أبلغها إلى الفراهي وذلك بما أيقنت أنه قد اختلق قصة جديدة للتساؤل. وعندما

¹ أشفته بياني ميري لرشيد أحمد الصديقي، مطبعة سرفراز، لکنؤ، ط2، 1958م، ص76

العدد الخاص مجلة الهند

خرج الأستاذ الفراهي للذهاب إلى الكلية سألته عن هذه الرسالة فطلب الفراهي هذه الرسالة مني وقال بعد قراءتها: أنت أكلت حرامًا طيل هذا الوقت لأن الغذاء يكون حرامًا على الجار المستطيع عندما يبني جاره جائعًا. وعندما حاولت أن أقول شيئًا، منعني الأستاذ الفراهي وقال إن كذب أي رجل عشر مرات فليس بوسعنا أن نقول بكل جزم ويقين إنه يكذب اليوم أيضًا. إن كان صادقًا فيما كتب فيها فقد ارتكبنا معصية كبيرة، فرد عليه إقبال سهيل قائلاً: كيف تكون هذه معصية وأنت ما حصلت هذه الرسالة حتى هذا الوقت وما استطعت بذلك لأنك تمتلك روبية واحدة فقط. فقال الأستاذ الفراهي إن كنت لا أستطيع فأنت تستطيع، قال إقبال سهيل: عندي روبية واحدة فقط لشرب الشاي، قال الأستاذ الفراهي أنا أقدر أن أمشي إلى الكلية راجلاً ثم أعطي الروبية الواحدة التي حفظها لأداء الكراء وقال اذهب وأعد الطعام لأطفالك. وبينما هو في الطريق إذ فاجأه صاحب البريد بتسليمه سبعين روبية كانت له، رفض الأستاذ قبوله أولاً وقال هذا لآخر ولكن عندما ألحَّ صاحب البريد أن حامل هذا الاسم ليس غيرك وإن لم ترد فاكذب الرضا عن هذا ثم أرجع بها فقبل الفراهي هذه النقود بعد أن أعاد النظر فيها واكتشف فيما بعد أنها عبارة عن قرض استقرضه منه رجل وأراد أن يعيده إليه بعد سنوات.

كما ذكر إقبال قصة سجادة إيرانية، أن ابن شريف جاء إلى الأستاذ الفراهي وقد وضع سجاداته على رأس رجل عامل وألحَّ على الفراهي أن يشتريها. قال الأستاذ الفراهي إن هناك عددًا من الأشراف، اذهب إليهم، فسيعطونك قيمة مناسبة، فرد عليه قائلاً إنهم سيزعجونني كل الازعاج وبذلك تضعف أجرة العامل بدون سبب. سأل الفراهي إقبال سهيل هل لديه من الروبيات عندما رأى إلحاحه وعندما استجاب له، أخذ منه ستًا وعشرين روبية فسلم إليه خمسًا وعشرين روبية ووضع روبية في جيبه لأداء الكراء إلى الكلية.

ويتجلى من هذه القصص أن الأستاذ الفراهي كان من المؤمنين المخلصين الصادقين الذين يتوكلون على الله حقًا وتحفل حياة الأستاذ الفراهي بمثل هذه القصص.

مؤلفات الأستاذ الفراهي:

كان الفراهي قد اعتنى بأسرار القرآن الكريم ومعانيه اعتناءً شديداً وبدأ التفكير والتدبر في آيات القرآن الكريم منذ أن كان طالباً في كلية علي كره. وهذا هو العصر الذي يؤول فيه السير سيد وأمثاله ممن تأثروا بأراء الإنجليز وأفكارهم الآيات القرآنية كما يشاؤون. ويرى الأستاذ الفراهي أن المناهج التي تسود بين الأمة المسلمة لفهم القرآن قد حادت عن سواء السبيل فأراد أن يروج مبادئ تدبر القرآن الصحيحة وذلك لكي يقابل العصبية الفاسدة للغرب بالعقلية الصالحة للقرآن الكريم¹ وقد أشار إلى هذه المبادئ لتدبر القرآن الكريم في كتابه "مقدمة نظام القرآن"². وعندما تشرف الأستاذ الفراهي مرة ثانية بقدمه إلى علي كره سنة 1907م كأستاذ مساعد، مكث هناك لسنة 1908م ولكن لم يصدر له كتاب في هذه الفترة.³ ولكن رسالة أقسام القرآن، كما صرح السيد سليمان الندوي، ألقت في هذه الفترة⁴ كما ألف أسباق النحو والصرف أيضاً خلال قيامه بعلي كره.⁵ ونجد بعد أن نتصفح أوراق كتابيات الفراهي (ألفه البروفيسور ظفر الإسلام الإصلاحي) أن عدداً من تأليفاته نشرت خلال مكوته الثاني في علي كره. ويجدر بنا أن نذكر هنا قائمة مؤلفات الأستاذ الفراهي التي ألقت في علي كره أو نشرت من هناك ونبدأ بذكر أجزائه التفسيرية التي طبعت من مطبعة فيض عام علي كره.

تفسير سورة التحريم: قد ذكر الأستاذ الفراهي في تفسير هذه السورة نظم السورة وربط الآيات مع الإشارة إلى عمودها وألقى الضوء على أن الإسلام هو دين

¹ حيات حميد، ص40

² مقدمة تفسير نظام القرآن، ص30

³ كتابيات فراهي لظفر الاسلام الإصلاحي، ص12

⁴ ياد رفتكان للسيد سليمان الندوي، دار المصنفين، أعظم كره، 1986م، ص119

⁵ ترجمان القرآن مولانا حميد الدين الفراهي للدكتور شرف الدين الإصلاحي، معارف فبراير 1991م، 2/147، ص95-96

الفطرة وبينَ الفسق والرهبانية كما قدّم تحقيقًا لغويًا لعبارة "صغت قلوبكما" في صدد البحث عن أسباب نزول هذه السورة وبينَ جوانب عديدة غير ذلك.¹

تفسير سورة الشمس: قد فسرّها الأستاذ الفراهي في ضوء الآيات الكريمة مع تعيين عمودها وبيان نظمها وربطها بما قبلها وما بعدها من السور وأشار إلى سنة الله التي تجري في تعذيب الأقوام المكذبة وألقى الضوء على ناقة الله وختم بتفسير الآية "ولا يخاف عقباها" مع إعادة النظر في ربط السورة.²

تفسير سورة العصر: قد فسّر الأستاذ سورة العصر من ناحيتين، أولاهما عامة وثانيتهما خاصة ثم قدّم مفهومًا إجمالياً لهذه السورة وربطها بما قبلها وما بعدها من السور ثم قدّم تحقيق كلمة "عصر" في ضوء الأشعار العربية قبل بداية التفسير وفصل القول بأسلوب علمي على السبب الذي من أجله أقسم الله تعالى بالعصر ثم قدّم شرحًا للكلمات الواردة في هذه السورة مثل "تواصوا" و"الحق" و"الصبر" وبينَ فيها حقيقة العمل الصالح والإيمان وختم بذكر ربط السورة بما قبلها وبما بعدها مع الإشارة إلى مباحث مختلفة من غيرها وينفرد هذا التفسير من بين التفاسير بمباحثه العلمية القيمة.³

تفسير سورة الكافرون: بدأ الفراهي تفسيره لهذه السورة حسب عاداته ببيان ربط السورة بما قبلها وبما بعدها ثم ذكر أن الله تعالى علّم المسلمين في هذه السورة أن يظهروا البراءة من كفار مكة ولفت عناية الناس إلى أن مراحل البعثة ثلاثة وهي البراءة والهجرة ثم السيطرة والتمكين ويظهر نصر الله بعد الهجرة وأخيرًا بين ربط السورة بما بعدها وسلط الضوء على مفهوم البراءة من المنظار القرآني.⁴

¹ راجع للتفصيل: تفسير سورة التحريم للشيخ حميد الدين الفراهي، (ترجمة: الشيخ أمين أحسن الإصلاحي)، ط2، كوه نور برنتنك بريس، دهلي، بدون تاريخ، ص5-27.
² تفسير سورة الشمس للشيخ حميد الدين الفراهي، (ترجمة: الشيخ أمين أحسن الإصلاحي)، ط2، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، بدون تاريخ، ص4-52.
³ تفسير سورة العصر للشيخ حميد الدين الفراهي، (ترجمة: الشيخ أمين أحسن الإصلاحي)، ط2، كوه نور برنتنك بريس، دهلي، بدون تاريخ، ص5-64.
⁴ تفسير سورة الكافرون للشيخ حميد الدين الفراهي، (ترجمة: الشيخ أمين أحسن الإصلاحي)، ط2، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، 1990م، ص463-482.

تفسير سورة اللمب: بدأ الأستاذ الفراهي تفسير هذه السورة كعادته مع إلقاء الضوء على ربط السورة بما قبلها وقال: هذا ليس للدعاء على أبي لمب بل بشر بذلك فتح مكة. وبما أن في هذه السورة ذكرًا لأبي لمب خاصة، ذكر الأستاذ الفراهي أدلة عديدة تؤيد ما ذهب إليه من أن هذه السورة ليست للدعاء عليه بل هي بشارة لفتح مكة. ثم أوضح لماذا جاء فيه ذكر امرأة أبي لمب وشرح كلمة "حمالة الحطب" وذكر أسباب النزول لهذه السورة وردّ الأستاذ الفراهي بهذه السورة على عقائد الأشاعرة الذين يستدلون بها على جواز تكليف المكلف ما لا يطاق.¹

تفسير سورة القيامة: قبل بداية التفسير ذكر الأستاذ الفراهي عمود هذه السورة وربطها بما قبلها ثم أوضح أن فيها تهديدًا وتوبيخًا للذين يفرحون بالحياة الدنيا دون الالتفات إلى شدائد القيامة. وذكر أن القرآن استعمل فيها أسلوب التهديد والاستفهام مرة بعد أخرى وذلك لكي يوقنوا إيقانًا تامًا باليوم الذي لا بد منه ثم أقسم الله تعالى بالقيامة وبالنفس اللوامة فبين الأستاذ الفراهي الفرق بين القيامة والنفس اللوامة وأثار الأستاذ مسألة أخرى أيضًا وهي: أن ما هو المذهب الصحيح بين تصوير أحوال القيامة وتأويل المتشابهات وذكر نكات هامة في صدد تفسير قوله تعالى "لا تحرك به لسانك". وفي ضوء هذه الآية "كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه" قرّر الأستاذ الفراهي أن تدوين القرآن الكريم قد تم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بأمر الله تعالى ولا يمكن أي نقص منه أو يضاف إليه في المستقبل لأن هذا ينافي ما تكفل الله به من حفظ القرآن الكريم وصيانته عن التحريف. واتفق المسلمون على أن القرآن الكريم محفوظ من أوله إلى آخره وما وقع فيه أي نقص أو إضافة واستدلوا على ذلك بقوله تعالى في سورة الحجر "إنا نحن نزلنا القرآن وإنا له لحافظون". وما ينسب إلى الإمامية أنهم يقولون أن بعض أجزاء القرآن قد غابت. هذا ليس بصحيح لأن علماءهم الأجلة

¹ تفسير سورة لمب للشيخ حميد الدين الفراهي، (ترجمة: الشيخ أمين أحسن الإصلاحي)، ط2، كوه نور برنتنك بريس، دهلي، بدون تاريخ، ص5-76

العدد الخاص مجلة الهند

من أمثال سيد مرتضى وشيخ الطائفة محمد بن حسن الطوسي وأبو علي الطبرسي ومحمد بن علي بن بابويه وغيرهم قد أنكروا ذلك وردوا على هذا الزعم الباطل بصراحة ثم ألقى الضوء على أهمية الصلاة في صدد تفسير الآيات الكريمة وختم تفسير هذه السورة ببيان ربطها بما بعدها.¹

تفسير سورة الحشر: نجد في "معجم المطبوعات العربية والمعرية" أن تفسير سورة الحشر للأستاذ الفراهي قد طبع أول مرة من مطبعة فيض عام بعلي كره سنة 1908م ولكن لم نعثر على ذكر هذا التفسير² في غير هذا المعجم فلا نستطيع أن نعلق على هذا الجزء من تفسيره.³

أقسام القرآن: ألّف الأستاذ الفراهي هذه الرسالة خلال قيامه في علي كره وهي تعين القراء في فهم الأسرار والأهداف وراء أقسام القرآن. وطبعت من هناك سنة 1911م.⁴ وأشار السيد سليمان الندوي إلى ما كان لهذا الكتاب من أهمية بهذه الكلمات: "ألّف أقسام القرآن خلال قيامه في علي كره وقدّم فيه جواباً عن سؤال لماذا أقسم الله تعالى في القرآن الكريم. وكتب الإمام الرازي بعض الفقرات في تفسيره في جواب هذا السؤال ثم ألّف ابن قيم رحمه الله تعالى "التبيان في أقسام القرآن" ولكن الأستاذ الفراهي تميز عنهما بما قدّم من تحقیقات جديدة في ضوء الاستشهاد بكلام العرب وفي الحقيقة قدم على هذا الموضوع نموذجاً للبحث والتحقيق لا يوجد له نظير في كتب التراث. ولأهميتها قام العلامة شبلي النعماني بنشر خلاصتها في

¹ تفسير سورة القيامة للشيخ حميد الدين الفراهي، (ترجمة: الشيخ أمين أحسن الإصلاح)، ط2، كوه نور برنتنك بريس، دهلي، بدون تاريخ، ص5-66.

² معجم المطبوعات العربية والمعرية (ترتيب) يوسف الياس سرکيس، مطبعة سرکيس، مصر، 1928م، 1438/2.

³ راجع للتفصيل، كتابيات فراهي، رقم الحاشية: 5، ص34.

⁴ اختلف الدكتور شرف الدين الإصلاح عن رأي السيد سليمان الندوي أن رسالة أقسام القرآن قد ألّف في علي كره. راجع للتفصيل: ترجمان القرآن مولانا حميد الدين الفراهي، معارف، فبراير، 1991م، 2/127، ص95.

العدد الخاص مجلة الهند

رسالة الندوة (إبريل 1906م) وطُبعت الرسالة باسم "أقسام القرآن" على انفراد ثم أضاف فيها بعض البحوث الجديدة ونشرها باسم "الإمعان في أقسام القرآن" في علي كره. وما كتب الباحثون في أقسام القرآن من ذلك الوقت إلى الآن فقد استفادوا فيه من الأستاذ الفراهي.¹ وقد أجاب الأستاذ الفراهي في هذا الكتاب على ثلاثة شبهات تثور في الذهن حول أقسام القرآن الكريم ونقد منهج الإمام الرازي وأشاد بما كتب ابن قيم حول أقسام القرآن الكريم ثم ألقى الضوء على احتياج القسم وتاريخه وطرقه ومعناه الأصلي الابتدائي وأكد على أن هذه الأقسام هي في الواقع للاستدلال والاستشهاد في صدد البحث عن جوانب عديدة للقسم كما إنه يبين بلاغة أقسام القرآن وذكر أشياء كثيرة غيرها مما تتعلق بهذا الموضوع.²

ترجمه فارسي از بدء الإسلام: طُبعت هذه الرسالة بالمطبعة التجارية بعلي كره وفي الحقيقة أَلَف العلامة شبلي النعماني هذا الكتاب باللغة العربية ثم نقله الأستاذ الفراهي إلى الفارسية. ذكرت فيه أحداث بداية الإسلام وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الأردية أيضًا.³ تتكون هذه الرسالة من 36 صفحة وتشتمل على ما يلي:

ابتداء الدعوة وإسلام عمر رضي الله عنه وأمر الصحيفة ونقض الصحيفة وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنهما خروج النبي إلى الطائف عرضه على القبائل وبيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية والهجرة إلى المدينة ووفاة النبي صلى الله عليه وسلم ونبذ من شمائله⁴ وغيرها ورتبت جميع هذه الموضوعات من رؤية المقررات الدراسية.

¹ حيات حميد، ص 9-10

² راجع للتفصيل: الامعان في أقسام القرآن للشيخ المعلم عبد الحميد الفراهي، دار القرآن الكريم، الكويت، 1980، ص 1-75

³ آغاز اسلام ترجمه بدء الإسلام، ترجمة: ميمونه سلطان شاه بانو، ط 2، مشين بريس آغره، بدون تاريخ، ص 112

⁴ راجع للتفصيل: رساله بدء الإسلام، ترجمة: مولوي عبد الحميد، مطبع مفيد عام، آغره، بدون تاريخ، ص 36

العدد الخاص مجلة الهند

وبمناسبة مرور مائة عام على تاريخ وفاة العلامة شبلي النعماني رحمه الله اهتمت دار المصنفين بإعادة طبعها ورتب الدكتور أجمل أيوب الإصلاحي كل هذا في مجلد واحد بعد أن حققها وعلق عليها وأشار إلى ما عمل فيه قائلاً: "أما عملنا في هذه الترجمة، فلا يختلف عنه في الأصل العربي، والترجمة الفارسية، غير أننا أبقينا نصها كما في المطبوع، دون تقسيمه إلى فقرات جديدة، ثم زدنا أرقام الآيات في المتن بين قوسين. وكانت في المتن أخطاء مطبعية كثيرة، ومنها ما قد وقع من قبل في مطبوعة المتن العربي والترجمة الفارسية، فأصلحناها في المتن، ولم ننبه عليها في الحاشية إلا قليلاً. أما الأخطاء الواقعة في ترجمة المتن أو في حواشي الترجمة، فنبهنا عليها في تعليقاتنا المختومة بلفظ (مرتب) بين القوسين".¹

ترجمة طبقات محمد بن سعد: طبعت هذه الرسالة أولاً من مطبعة مفيد عام بأغرة سنة 1891م وقد ذكر فيها السفراء الذين أرسلهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك كما ذكر فيها الوفود الذين حضروا عند النبي صلى الله عليه وسلم وقد ترجم الأستاذ الفراهي هاتين الرسالتين أي بدء الإسلام وطبقات محمد بن سعد عندما كان طالباً في علي جراه. وقد قام بإنجاز هذا المشروع تلبية لطلب السير سيد أحمد خان وتم إدخال هاتين الرسالتين في مقررات مدرسة العلوم الدينية.²

أسباق النحو الجزء الأول والثاني: طبع أسباق النحو (الأول والثاني) أول مرة بمطبعة علي كره مسلم يونيورستي في سنة 1923م وأعيدت طباعته بنفس المطبعة سنة 1938م. قد قسم الأستاذ الفراهي أسباق النحو إلى ثلاثة أجزاء، الأول في بيان الاسم والثاني في بيان الفعل والثالث بعنوان تحفة الإعراب وهو في صورة أرجوزة قام بشرحها الأستاذ احتشام الدين الإصلاحي وهو جامع لمباحث الجزأين. ويحمل هذا الكتاب أهمية بالغة في مجال النحو والصرف حيث أن

¹ تاريخ بدء الإسلام للعلامة شبلي النعماني، ترتيب: الدكتور أجمل أيوب الإصلاحي، دارالمصنفين شبلي أكاديمي، أعظم كره، 2016م، ص28

² مقالات شبلي ترتيب: سيد سليمان الندوي، ط5، مطبعة معارف، أعظم كره، 1961م، 13/2

العدد الخاص مجلة الهند

الطالب بعد قراءة هذا الكتاب يستطيع أن يتجنب اللحن والخطأ أثناء الكتابة والمحادثة ويحفظ قواعد النحو والصرف ومبادئهما بكل سهولة. وقد بذل الأستاذ الفراهي جهداً كبيراً في تقديم النماذج في هذا الكتاب وحاد فيه عن الطريق المروج القديم وأشار الأستاذ نفسه إلى أهمية هذا الكتاب في المدرسة.¹

وقد ذكر الدكتور شرف الدين الإصلاحي عن أسباق النحو (الجزء الأول والثاني) أن الأستاذ الفراهي ألف هذا الكتاب أصلاً لأطفاله كما رواه أهل بيته، وبعد طباعته نال الرواج والقبول في عالم النحو والصرف.²

وقد ذكر الأستاذ الفراهي في مقدمة أسباق النحو (الجزء الأول) عن هذا أنه مأخوذ من كتابه "النحو الجديد" ويظهر من عنوان الكتاب أن الفراهي يريد أن يرتب النحو على طرق جديدة كما اعترف في المقدمة. ونذكر مع الأسف أن هذا الكتاب كأكثر كتب الفراهي لم يتم نشره وتحقيقه بعد، فلا يزال يوجد في صورة مخطوطة. ويجدر بنا أن ننقل هنا ملاحظات الأستاذ أجمل أيوب الإصلاحي حول مخطوطة "النحو الجديد":

"كان الأستاذ الفراهي قد اقترح الاسم التاريخي لتحقيقاته التي مرّ ذكرها "الدر النضيد في النحو الجديد" ويوجد له مبيضتان، إحداهما تشتمل على أربعة أوراق والثانية بعنوان "النحو الجديد" وتشتمل على خمسة أوراق متفرقة. وهناك مبيضة أخرى فيها خمس وثلاثون ورقة في الحجم الصغير وتشتمل على مواد متفرقة للكتاب. وكتب في بداية هذا الكتاب "نبذ شتى لكتاب جوهر نضيد في النحو الجديد" ودرج تحت الاسم 15 هجرية أعني هذا اسم تاريخي وبدأ عمله في 1315هـ ثم درج تحته الاسم الثاني "الدر النضيد في النحو الجديد" ويبدو أن الأستاذ الفراهي كان يريد أن يجعل اسمه تاريخياً كغيره من الكتب. والاسم الذي وجده مناسباً من هذه الجهة هو "جوهر النضيد في النحو الجديد" ولكن الحسن والطلاوة التي توجد في "الدر النضيد" تخلو منه "جوهر النضيد" فلذلك اختار

¹ أسباق النحو للشيخ حميد الدين الفراهي، حميديه بريس، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، بدون تاريخ، 5/2

² ترجمان القرآن مولانا حميد الدين الفراهي، معارف، فبراير، 1991م، 2/127، ص 95-96

العدد الخاص مجلة الهند

الأستاذ الفراهي "الدر النضيد" وعندما أمعن فيه من حيث التاريخ وجد فيه جانباً من التاريخ أيضاً. والمبيضة الثانية تتكون من ثماني عشرة ورقة".¹

وهذا المقتبس يفيدنا بمعلومات هامة عن هذا الكتاب وسنطلع على تفاصيله عندما تخرج هذه المخطوطة إلى النور، ندعو الله تبارك تعالی أن يسهل ذلك.

وقد مرَّ أن الأستاذ الفراهي له جهتان في علي كره. أولاًهما: عندما كان طالباً فيه والثانية: في عهد التدريس ثم غادرها إلى ميور كالج في اله آباد بعد أن أصبح أستاذاً في اللغة العربية وقد نشرت جريدة "كزت" خبر تعيينه أستاذاً وإعلان وظيفة شاغرة ثم نبأ اتصاله بكلية اله آباد هكذا:

"قد شغل منصب الأستاذ المساعد في اللغة العربية في مدرسة العلوم بعد أن أصبح الفراهي أستاذاً في اللغة العربية بكلية اله آباد. يرجى للراغبين أن يرسلوا شهاداتهم وتفاصيلهم إلى الدكتور هارويز البروفيسور في مدرسة العلوم علي كره قبل 31 مايو".²

نبأ حصوله على درجة الأستاذ:

تم تعيين الأستاذ المساعد مولوي حميد الدين بي-اي أستاذاً في العربية في كلية ميور اله آباد عن مكان شمس العلماء مولوي أمجد علي الموقر ايم-اي منذ 15 إبريل.³

نبأ قدومه إلى كلية ميور اله آباد:

غادر الأستاذ المساعد المولوي حميد الدين من علي كره إلى اله آباد في 31 مايو حيث انخرط في سلك تدريس العربية في كلية ميور اله آباد بصفته أستاذاً منذ 1 يونيو. وإنه قد طلب إجازة لستة أشهر من كلية علي كره.⁴ وهكذا خلد الأستاذ الفراهي اسمه في أبناء علي كره للأبد.

¹ تصانيف فراهي كا غير مطبوعه سرمايه للدكتور محمد أجمل الإصلاحي (علامة حميد الدين فراهي-

حيات وافكار، انجمن طلبه قديم مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، 1992م، ص78-79

² علي كره انستي تيوت كزت، 22 أبريل 1908م، ص1

³ علي كره انستي تيوت كزت، 13 مايو 1908م، ص1

⁴ علي كره انستي تيوت كزت، 3 يونيو 1908م، ص1

فهرس المصادر والمراجع

1. أدبيات مودودي لخورشيد أحمد (ترتيب)، ط1، مركزي مكتبة اسلامي، دهلي، 1980م
2. أسباق النحو لحميد الدين الفراهي، حميديه بريس، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، بدون تاريخ
3. أشفته بياني ميري لرشيد أحمد الصديقي، سرفراز بريس، لكتاؤ، ط2، 1958م
4. آغاز اسلام، مترجم بدء الإسلام، مترجم: ميمونه سلطان شاه بانو، ط2، مشين بريس آغره، بدون تاريخ
5. الإمعان في أقسام القرآن للشيخ المعلم عبد الحميد الفراهي، دار القرآن الكريم، الكويت، 1980م
6. تاريخ بدء الإسلام للعلامة شبلي النعماني، دار المصنفين شبلي أكيدمي، أعظم كره، 2016م
7. تدبر قرآن، للشيخ أمين احسن الإصلاحي، تاج كمبني، دهلي، 1989م
8. ترجمان القرآن، مولانا حميد الدين الفراهي، داکتر شرف الدين الاصلاحی، معارف فروري 1991م، 2/147، ص95-96
9. تفسير نظام القرآن للعلامة حميد الدين الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، 1411هـ/1990م
10. حميد الدين الفراهي لمحمد عنايت الله السبحاني الإصلاحي، ط1، مكتبة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، نوفمبر 1978م
11. حیات حميد لعبد الرحمن ناصر الإصلاحي (ترتيب)، ط1، مطبعة معارف، أعظم كره، 1973م
12. حیات شبلي للعلامة السيد سليمان الندوي، دار المصنفين شبلي أكيدمي، أعظم كره، د.ت.

العدد الخاص.....مجلة الهند

13. دو عمدہ مضمون لبدر الدين الإصلاحى (ترتيب)، (فتنه تكفير، أبو الأعلى المودودي، مطبعة إصلاح، سرائي مير، أعظم كره، بدون تاريخ
14. رساله بدء الإسلام، مترجم: مولوي عبد الحميد، مطبع مفيد عام، آگرہ، بدون تاريخ
15. سر سيد أحمد خان اور ان كي رفقاء للسيد عبد الله، نيو ليتھو آرٹ پريس، دھلي، بدون تاريخ
16. كتابيات فراہي لظفر الإسلام الإصلاحى، إداره علوم القرآن، ط1، علي كره، 1991م
17. معجم المطبوعات العربية المعربة ليوسف الياس سرکيس (ترتيب)، مطبعة سرکيس، مصر، 1928م
18. مقالات شبلي للسيد سليمان الندوي (ترتيب)، ط5، مطبعة معارف، أعظم كره، 1961م
19. مكاتيب شبلي للعلامة شبلي النعماني، مطبعة معارف، أعظم كره، ط2، 1927م
20. نزہة الخواطر للشيخ عبد الحى، ط1، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد الدكن، 1970م
21. هستري آف دي ايم. اي. او كالج ليهتناكر، ايشيا ببلشنك هاؤس، ممبئي، 1969م
22. هندستان مين مسلمانون كا نظام تعليم وتربيت لمناظر أحسن الغيلاني، مطبعة انتظامي حيدرآباد الدكن، بدون تاريخ
23. ياد رفتگان سيللد سليمان الندوي، دار المصنفين، أعظم كره، 1986م

المعلم عبد الحميد الفراهي وتلاميذه البارزون

- د. أشفاق ظفر الإصلاحي¹

إن المعلم عبد الحميد الفراهي من العباقرة الذين أنجبهم الهند في مختلف الأزمان للتدبير في القرآن الكريم والتفكير في الحديث الشريف وتوسيع نطاق الدعوة الإسلامية. وبلغت هذه الشخصيات ذروة الفضل والكمال حتى ذاع صيتها في جميع أنحاء المعمورة. ولد المعلم عبد الحميد الفراهي في قرية " فريها " من مديرية أعظم كره بولاية أوترا براديش. وتلقى الدروس الابتدائية في بيته. ثم توجه إلى تعلم اللغة الفارسية وآدابها، وأما اللغة العربية وعلومها من النحو والصرف والأدب والفلسفة فقد تلقاها على ابن خاله العلامة شبلي النعماني رحمه الله. ثم سافر إلى مدينة لکناؤ التي كانت حينذاك أحد مراكز العلوم العربية والإسلامية في الهند. واستفاد من فضيلة الفقيه المحدث الشيخ عبد الحيّ الفرنغي محلي. ثم ارتحل المعلم الفراهي إلى لاهور حيث تعلم الأدب العربي من شاعر العربية المفلح وأديبها الكبير العلامة فيض الحسن السهارنپوري وهو شارح ديوان الحماسة والمعلقات السبع. وبعد ذلك التحق المعلم الفراهي بكلية علي كره المحمّدي (جامعة علي كره الإسلامية حالياً) لتلقي الدروس في اللغة الإنجليزية والعلوم العصرية الأخرى. وحصل على شهادة البكالوريوس من جامعة إله آباد. وهكذا برع المعلم الفراهي في اللغة والأدب وأصبح نابغة عصره في العلوم العربية والدينية والعصرية.²

وكما عمل المعلم الفراهي مدرساً ومحققاً ومسؤولاً في مدينة كراتشي وعلي كره وإله آباد وحيدرآباد. وأخيراً، تنحى عن هذه الأشغال وتركز على البحث والتحقيق في العلوم القرآنية. وهو صاحب تفسير "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" وله عدة كتب أخرى بما فيها: "جمهرة البلاغة" و"الرأي الصحيح في من هو الذبيح"

¹ كاتب هذه المقالة متخرج من المدرسة التي أقام فكرتها المعلم عبد الحميد الفراهي

² المعلم عبد الحميد الفراهي، مفردات القرآن، ص 5-6.

العدد الخاص مجلة الهند

"والتكميل في أصول التأويل" و"دلائل النظام" و"مفردات القرآن" و"إمعان في أقسام القرآن" و"في ملكوت الله" وغيرها.

ولقد استفاد من المعلم عبد الحميد الفراهي عدد من الشخصيات البارزة رسميًا أو غير رسمي في التفسير والأدب. ويمكن لنا أن نقسم هؤلاء الرجال إلى فئتين:

(1) فئة تلمذت على المعلم الفراهي وحضرت دروسه أثناء إقامته في المدرسة أمثال الشيخ أمين أحسن الإصلاحي والشيخ أختر أحسن الإصلاحي والشيخ نجم الدين الإصلاحي.

(2) وفئة لم تحضر دروسه المدرسة ولكنها استفادت منه في التفسير والعلوم القرآنية الأخرى بطرق غير رسمية. ومنهم: العلامة سيد سليمان الندوي، والشيخ مناظر أحسن الغيلاني، والشيخ (مولانا) أبو الكلام آزاد، والشيخ سيد أبو الأعلى المودودي مؤسس الجماعة الإسلامية، والشيخ إقبال أحمد خان سهيل، والشيخ عبد الماجد الدرابادي، والشيخ حفظ الرحمان السيوهاروي، والشيخ حسرت موهاني، وصاحب السمو الملكي ولي عهد دولة نيبال يوبراج بهادر رانا وغيرهم كثير. وفيما يلي أقدم بالإيجاز عن هذه الشخصيات وكيفية استفادتهم من المعلم عبد الحميد الفراهي¹.

الشيخ أمين أحسن الإصلاحي: لا شك في أن الشيخ أمين أحسن الإصلاحي من أبرز أبناء مدرسة الإصلاح وكبار علماء شبه القارة الهندية-الباكستانية وأمين الفكر الفراهي الذي ينتج عن التدبر في القرآن الكريم والتفقه في الحديث النبوي الشريف والإمعان في الأمور الفقهية.

التحق الشيخ بمدرسة الإصلاح في عام 1922م، وتلمذ على عدد من الأساتذة فيها. وشارك في دروس العلامة عبد الحميد الفراهي الذي ألقى في قلبه محبة للتفسير والعلوم القرآنية، وأعدّه للبحث والتحقيق في هذا المجال، والارتكاز على النظم في القرآن لأن النظم هو أحد أدلة كون القرآن الكريم منزلًا من الله العظيم.

¹ الدكتور شرف الدين الإصلاحي، ذكر فراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، 2001م، ص 445.

العدد الخاص مجلة الهند

بدأ الشيخ الكتابة في المجلات والصحف منذ دراسته في المدرسة. وعمل في إدارة مجلة "مدينة" بعد إكمال دراسته من مدرسة الإصلاح عام 1922م. وكذا عمل الشيخ الإصلاحي في الجريدة الأسبوعية "سج" التي كانت تصدر تحت إدارة الشيخ عبد الماجد الدرابادي.

وتم تعيين الشيخ الإصلاحي كمدرس في مدرسة الإصلاح عام 1925م. ودرّس فيها التفسير والأدب العربي والفلسفة والتاريخ. وقام بإنشاء مجمع علمي باسم "الدائرة الحميدية" في مدرسة الإصلاح بعد وفاة أستاذه عبد الحميد الفراهي عام 1930م من أجل التحقيق في مخطوطات المعلّم الفراهي وطباعتها. وكذلك، قام الشيخ بنشر كتب المعلّم الفراهي وترجمتها إلى الأردية.

وعندما أسست الجماعة الإسلامية في عام 1941م على يد الشيخ أبي الأعلى المودودي، أصبح الشيخ الإصلاحي عضواً لها وبذل كل جهوده لتكامل هذه الجماعة لتوسيع أفكارها وتوضيح أهدافها. واختلف الشيخ الإصلاحي من قادة الجماعة حول القضايا السياسية التي كانت تسيطر آنذاك على الأحوال السياسية. وعندما فرغ الشيخ عن الجماعة بدأ بتأليف تفسير كتاب الله الذي سمّاه "تدبر قرآن" ونشر بعض أجزائه في مجلة "المنبر" التي كان يصدرها الشيخ عبد الرحيم أشرف من لائل فور، فيصل آباد. واستمر الشيخ مشغولاً في تأليف تفسيره حتى فرغ منه في شهر رمضان عام 1980م/1400هـ.

وقام الشيخ بتأسيس "مجمع تدبر قرآن وحديث" بعد انتهاء مهمته لكتابة التفسير عام 1980م/1400هـ. وكان الشيخ يلقي المحاضرة الأسبوعية على تفسير القرآن الكريم ومحاضرة في الأسبوع حول موضوع الحديث. وهكذا درّس الموطأ للإمام مالك كاملاً وجزءاً من صحيح البخاري. وله عدة مؤلفات بما فيها تفسيره "تدبر قرآن" و"تزكية نفس" و"حقيقة شرك" وغيرها.¹

¹ عدد خاص لمجلة "تدبر" عن الشيخ أمين أحسن الإصلاحي، لاهور، العدد: 60، ص 18-41، عام 1998م

الشيخ أختَر أحسن الإصلاحي: إن الشيخ أختَر أحسن الإصلاحي من أبرز أبناء مدرسة الإصلاح الذين لهم دور يذكر في تدريس القرآن وتفسيره والتحقيق في العلوم القرآنية. نشأ الشيخ وترعرع في قرية سيدها سلطانفور في مديرية أعظم كره بولاية أوترا براديش والتي كانت مسكنًا للشيخ محمد شفيع الذي كان قد أسس جمعية إصلاح المسلمين. ونشأت هذه الجمعية واتسعت حتى أصبحت مدرسة سميت بمدرسة الإصلاح. درس الشيخ في هذه المدرسة وأكمل جميع دراساته فيها. وكان يعرف الشيخ بصفة كونه طالبًا ذكيًا وجادًا بين الطلاب الآخرين. وقد اعترف به زميله في الدرس الشيخ أمين أحسن الإصلاحي صاحب تفسير "تدبر قرآن" فقال:

"بعد استقالته من منصبه في ولاية حيدرآباد، كان يقيم المعلم عبد الحميد الفراهي في المدرسة لبضعة أيام في الأسبوع ويدرس الأساتذة والطلاب الكبار القرآن الكريم وتفسيره على منهجه الخاص. لم يقبل المعلم الفراهي لأية نوع من الخدمات من الأساتذة منهم أو الطلاب بسبب طبيعته الخاصة ولم يكن أحد أن يقرب من المعلم بعد الدرس. ولكن الشيخ أختَر أحسن الإصلاحي كان له إذن عام أن يزور الأستاذ أثناء إقامته في المدرسة بعد انتهاء الدرس. وكان هذا القرب بسبب كون شخصية الشيخ قليل الكلام وذكي الحس".¹

وقد اعترف الشيخ جليل أحسن الندوي عن جودة علمه وعمق شخصيته ووسعة فكره ومكانة بحثه وتحقيقه في التفسير والعلوم القرآنية الأخرى فقال:

"قد تلمذت على الأساتذة البارزين وأعرف كبار الأساتذة في المدارس، ولكن لم أجد رجلًا له يد طولى على الشيخ أختَر أحسن الإصلاحي في فهم أسرار القرآن ورموزه، وإتقان كلام الشعراء والخطباء العرب. إنه ما كان خطيبًا أو أديبًا ولكن كان قادرًا على إدراك وسعة الكلام وتأثيره وكيفية معاني الكلمة بتحول سياق الكلام".²

¹ عدد خاص لمجلة طلبة مدرسة الإصلاح السنوية، مدرسة الإصلاح، العدد: 9، ص 24-25

² الشيخ جليل أحسن الندوي، نقوش وتأثرات، المكتبة المركزية الإسلامية، ص 8، عام 1990م

وقام الشيخ بتدريس القرآن الكريم والأدب العربي في المدرسة. وكان الطلاب يشعرون بأنفسهم أثناء محاضراته في الأدب العربي في بيئة قرآنية خاصة كما أن الأستاذ لا يدرس أشعار الغزل والرثاء والفخر والحكمة وأقوال الخطباء والحكماء، ولكنه كان يلقي محاضرة على طرق تحقيق المفردات القرآنية وأساليب الاستدلال من كلام العرب.¹ يقول الشيخ أحمد محمود الإصلاحي عن عبقريته:

"حينما كان يقوم الشيخ جليل أحسن الندوي بالتدريس في مدرسة الإصلاح وكنت أقيم مع الشيخ الندوي في غرفة من دار الضيوف، كان يزور الشيخ اختر أحسن الإصلاحي هذه الغرفة بعد صلاة الفجر. وكان الشيخان يناقشان المفردات القرآنية ضمن تأويل الآيات الكريمة. وكان الشيخ الندوي يشارك في المناقشة كطالب وكان الشيخ ينشر لآلئ العلوم القرآنية وكان يرشد إلى طرق البحوث الأنيقة".² ويضيف الشيخ أحمد محمود الإصلاحي قائلاً:

"أذكر جيداً أن الشيخين ناقشا يومين متتاليين على الكلمتين "سقاية" و "صواع" من سورة يوسف. وأخيراً اقتنع الشيخ الندوي بالتوضيحات والتأويلات التي قدمها الشيخ الإصلاحي بهذا الصدد. وأضاف الشيخ الإصلاحي قائلاً إن التركيز على الكلام واجب، وإذا تبعد عن الكلام فتحجب المعاني".³

وكما نعلم أن الإمام الفراهي كان يقوم بالبحث والتحقيق في مختلف العلوم القرآنية معاً التي كان يعتبرها الإمام مفيدة لفهم إعجاز القرآن وأسراره وضرورية كالتمهيد للقيام بكتابة التفسير على منهجه الخاص. ولكن توفي الإمام دون تحقيق مهامه العلمية. وتم تأسيس معهد باسم "دائرة حميدة" لاستكمال مهام الفراهي العلمية والتحقيق في مخطوطاتها، ثم طباعتها لإفادة عامة الناس. وجاءت هذه المسؤولية على كواتف الشيخ اختر أحسن الإصلاحي.⁴

¹ الدكتور عناية الله أسد السبحاني، شيدائي قرآن"، ص 37

² عدد خاص لمجلة طلبة مدرسة الإصلاح السنوية، مدرسة الإصلاح، العدد: 9، ص 27

³ المصدر نفسه، ص 27

⁴ ذكر فراهي، المصدر السابق، ص 497

العدد الخاص مجلة الهند

وأعرب الشيخ أمين أحسن الإصلاحي بمناسبة طباعة إحدى المخطوطات للأستاذ الفراهي قائلاً:

"قد قام الأخ أختَر أحسن الإصلاحي بتهديب مخطوطة للأستاذ وترتيبها وسوف نقوم بطباعتها. وسوف يعرّف الأخ هذه المخطوطة عن طريق كتابة مقالة عنها في العدد القادم للمجلة".¹

وكما تولّى الشيخ منصب رئاسة المدرسة وشهدت المدرسة تطوراً بارزاً في جميع نواحي العلم والأخلاق والإدارة. يقول الشيخ جليل أحسن الندوي بهذا الصدد:

"حينما أصبحت مدرساً في المدرسة فوجدت الطلاب في زمن رئاسة الشيخ الإصلاحي أكثر تحمساً للعلم والتحقيق".²

وكما كان الشيخ عضواً نشيطاً للجماعة الإسلامية في الهند. وكان يشارك في اجتماعاتها ولقاءاتها ويعرب عن آرائها القيمة على القضايا الهامة. وبعد اعتراضات من بعض الجهات على استخدام الكلمة "حكومت الهيبه كا قيام" توضيحاً لأهداف الجماعة، تبنت الجماعة رأي الشيخ الإصلاحي لاستبدال كلمة "إقامت دين" مكان الكلمة "حكومت الهيبه كا قيام".³

وهي أهم مزايا شخصية الشيخ أختَر أحسن الإصلاحي بالإيجاز.

الشيخ نجم الدين الإصلاحي: يعدّ الشيخ نجم الدين الإصلاحي من الشخصيات التي تشرفت بحضور دروس المعلّم عبد الحميد الفراهي وتلمّدت عليه. استفاد الشيخ أثناء دراسته في مدرسة الإصلاح من كبار أساتذة المدرسة مثل الشيخ شبلي متكلم الندوي والشيخ عبد الصمد الندوي والشيخ عبد الرحمان النغرامي والشيخ سعيد أحمد الندوي وخاصة من المعلّم عبد

¹ المصدر نفسه، ص 497

² نقوش وتأثرات، المصدر السابق، ص 13

³ عدد خاص لمجلة طلبة مدرسة الإصلاح السنوية، المصدر السابق، ص 28

الحميد الفراهي. وحضر الشيخ دروس المعلّم الفراهي ومحاضراته على العلوم القرآنية مع رفقائه الآخرين كالشيخ أمين أحسن الإصلاحي والشيخ أختر أحسن الإصلاحي. والجدير بالذكر هنا أن المعلّم الفراهي كان يبدأ دروسه من قراءة الشيخ نجم الدين الإصلاحي.¹

وتم تعيين الشيخ كأستاذ في المدرسة بعد أن أكمل دراسته. وهكذا قدّم خدماته للمدرسة كأستاذ حتى استقال منها بعد وفاة معلّمه العلامة عبد الحميد الفراهي. وكان الشيخ يشجّع الطلاب ويساعدهم بطرق مختلفة. وإن الشيخ أبو الليث الإصلاحي والندوي والشيخ صدر الدين الإصلاحي والشيخ حكيم مختار أحمد الإصلاحي رحمهم الله من أبرز تلاميذ الشيخ نجم الدين الإصلاحي.

وقدّم الشيخ الإصلاحي إسهامات قيمة في مجال الكتابة والتأليف والصحافة. ومن أهم تأليفاته "دلائل السنن والآثار" و"ترجمة التبيان في آداب جملة القرآن" و"مكتوبات شيخ الإسلام" و"إمحاء البدع وإحياء السنن" و"دلائل القرآن" و"دلائل السلوك" وأحسن العقائد" وغيرها.²

العلامة سيد سليمان الندوي: زار المعلّم عبد الحميد الفراهي دار العلوم بندوق العلماء في مدينة لکناؤ مرارًا على دعوة العلامة شبلي النعماني لإلقاء الدروس والمحاضرات الخاصة بالعلوم القرآنية. وقد ذكر العلامة سيد سليمان الندوي عن زيارة المعلّم الفراهي ندوة العلماء ومحاضراته فيها وكذا حضوره فيها كما يلي: "وكننت طالبًا في ندوة العلماء حينذاك واستفدت من دروس الأستاذ الفراهي".³

ولم تكن هذه الدروس والمحاضرات جزءًا من المقررات الدراسية للندوة وكانت المشاركة فيها اختياريًا. واستفاد العلامة الندوي أكثر من الآخرين بسبب كونه مقرّبًا من العلامة شبلي النعماني. وجرت هذه الاستفادة طول مدة إقامته في دار المصنّفين بأعظم كره لتكميل أعمال أستاذه العلامة شبلي النعماني.

¹ المصدر نفسه، ص 45

² نقش، المجلة السنوية لجمعية الطلبة الأقدمين، دلهي، 17/11/13

³ ذكر فراهي، المصدر السابق، ص 526

العدد الخاص مجلة الهند

الشيخ مناظر أحسن الغيلاني: ويمكن لنا أن نضع الشيخ الغيلاني في قائمة الشخصيات التي استفادت من المعلم الفراهي عن طرق غير رسمية. كما يذكر الشيخ عن استفادته من المعلم الفراهي قائلاً:

"كنت سمعت عن عبقرية الفراهي في مجال العلوم القرآنية. ويسّر الله لي مرافقة المعلم الفراهي. وهكذا انكشفت النواحي الجديدة لفهم القرآن الكريم".¹

وقد ذكر الشيخ عن المعلم الفراهي في إحدى رسالته قائلاً:

"ثم وصلت إلى دار العلوم بديوبند حيث شاركت في دروس الحديث النبوي الشريف. وكما قرأت الجامع الصحيح للبخاري من شيخ الهند الشيخ محمود الحسن والجامع الصحيح للمسلم من الشيخ أنظر شاه الكشميري، ثم يسّر الله لي الاستفادة من المعلم الفراهي في مدينة حيدر آباد حول تفسير القرآن الكريم".²

الشيخ أبو الكلام آزاد: اجتمع الشيخ أبو الكلام آزاد بالمعلم الفراهي أثناء إقامته عند العلامة شبلي النعماني في مدينة لکناؤ حيث كان يقيم المعلم المرحوم ضمن محاضراته على العلوم القرآنية وهناك إشارات أن الشيخ أبو الكلام آزاد حضر دروسه بالندوة واستفاد منه. وإلى جانبه، كان يريد المعلم الفراهي أن يدرس الشيخ أبا الكلام آزاد العلوم القرآنية على وجه الحصر بسبب ذكائه وبالغ فكره. وعلى جانب آخر، كان يريد الشيخ أبو الكلام آزاد أن يصاحبه ويستفيد منه. ولكن هذا لم يتحقق بسبب الظروف المحلية. وكما يقول العلامة سيد سليمان الندوي بهذا السياق:

"وفي ذلك الزمن، كان يقيم الشيخ أبو الكلام آزاد عند العلامة شبلي النعماني في ندوة العلماء وكان مديراً مساعداً لمجلة "الندوة". ولا يزال يستفيد من المعلم الفراهي ويكشف عن منافذ جديدة لفهم القرآن والتحقيق فيه".³

¹ المصدر نفسه، ص 527

² المصدر نفسه، 523

³ المصدر نفسه، ص 529

العدد الخاص مجلة الهند

وكذلك اجتمع المعلّم المرحوم بالشيخ أبي الكلام آزاد في مدينة كولكاتا أثناء سفره إلى رنغون. فقال له الشيخ أبو الكلام آزاد: أريد أن اتنحى عن مكاريه الدنيا لبعض الزمن وأستفيد منكم. ولما رجع المعلّم الفراهي من سفره إلى رنغون نظف غرفة في منزله لإقامة الشيخ أبي الكلام آزاد فيها. ولكن حالت الظروف ولم يستطع الشيخ أبو الكلام آزاد الوصول إلى بيت الفراهي.¹

الشيخ سيد أبو الأعلى المودودي: هناك روايات عن كون الشيخ المودودي تلميذًا للإمام الفراهي بشكل رسمي. حينما كان المعلّم رئيسًا لكلية دار العلوم بحيدرآباد، التحق الشيخ المودودي بالكلية لبضعة أشهر. وقد صادق الشيخ المودودي على هذه الرواية بنفسه في رسالته إلى الشيخ أحمد محمود الإصلاحي قائلاً: "هذه رواية صحيحة أنني تلميذ للمعلّم الفراهي. حينما كنت طالبًا في كلية دار العلوم بحيدر آباد كان الأستاذ رئيسًا للكلية، يعلّم بعض الدروس عند الضرورة وحسب الظروف".²

وفي رسالة إلى حفيد المعلّم الفراهي الشيخ حمد الله، قد أوضح الشيخ المودودي قائلاً: "حينما كنت طالبًا في كلية دار العلوم بحيدر آباد كان جدك رئيسًا للكلية، وكان يدرّس الطلبة الكبار وكنت في الصف الأول ولم انتهر الفرصة للاستفادة منه مباشرة".³ الشيخ إقبال أحمد خان سهيل: كان من أبرز العلماء الأفاضل الذين أنجبهم أرض الهند في القرن العشرين في مجال العلوم الشرقية. كان الشيخ ماهراً للعلوم المختلفة مع كونه محامياً ذكياً. وقد كتب افتخار الأعظمي عن استفادته من المعلّم الفراهي قائلاً: "كان يدرس من المعلّم الفراهي أمهات كتب الأدب العربي. وكان قد قرأ عليه المعلقات السبع أثناء إقامته في مدينة علي كره. وكان المعلّم يعترف بعقريّة تلميذه في الأدب العربي".⁴

¹ المصدر نفسه، ص 527

² المصدر نفسه، ص 545

³ المصدر نفسه، ص 547

⁴ المصدر نفسه، ص 551

العدد الخاص مجلة الهند

وقد قال العلامة سيد سليمان الندوي: "إن الشيخ سهيل كان تلميذ الفراهي رسميًا وكان يحفظ ما كان يسمع منه عن رموز القرآن".

الشيخ عبد الماجد الدرابادي: لم يستفد الشيخ عبد الماجد الدرابادي رسميًا من المعلم الفراهي. وليس هناك رواية تدل على استفادته من الفراهي مباشرة إلا أن هناك إشارة تبين أن الشيخ الدرابادي كان متأثرًا من عبقرية المعلم الفراهي في العلوم القرآنية. وكذلك أثر الفكر الفراهي على منهج الشيخ الدرابادي للتحقيق في مجال العلوم القرآنية. كما يقول بهذا السياق:

"وبعد هاتين الشخصيتين، لا تزال تؤثر شخصية الشيخ حميد الدين الفراهي ولو بقليل".¹

واجتمع الشيخان بمناسبات في دار المصنفين وأثناء إقامتهما في حيدر آباد وقد ذكر عنه الشيخ الدرابادي في سياق المشاكل التي واجهها أثناء قيامه بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية. فيقول:

"قد ذكرت الشخصيتين كثيرًا أثناء هذا العمل - عبد الحميد الفراهي الذي كان يحلّ مشاكل اللغة والثاني هو الشيخ محمد علي جوهر الذي كان يصقل لغة الترجمة".²

الشيخ حفظ الرحمن السيوهاروي: قد شارك الشيخ حفظ الرحمن السيوهاروي في دروس المعلم الفراهي أثناء إقامته في الحجاز لأداء فريضة الحج. وقد شاهد عليه الشيخ السيوهاروي بنفسه قائلاً:

"كنت أحضر دروس الشيخ عبيد الله السندي أثناء سفري إلى الحجاز. ولما زار المعلم الفراهي الحجاز لأداء مناسك الحج، سلّم الشيخ السندي مسنده إلى المعلم الفراهي لتدريس القرآن الكريم. وجرت دروسه حتى إقامته في الحجاز وكنت أحضرها واستفيد منها، وهكذا أصبحت تلميذًا له".³

¹ المصدر نفسه، ص 557

² المصدر نفسه، ص 558

³ المصدر نفسه، ص 559

العدد الخاص مجلة الهند

الشيخ حسرت موهاني: هو الشيخ فضل الحسن حسرت موهاني. وكان من أصدقاء الشيخ إقبال أحمد خان سهيل ويقيم قرب منزل المعلّم الفراهي في مدينة علي كره. وهو في قائمة الذين استفادوا من المعلّم الفراهي مباشرة في علي كره. والآخرين في هذه القائمة هم الشيخ وحيد الدين سليم الباني بتي والشيخ رشيد أحمد الأنصاري (الذي كان معروفاً لبراعته في الترجمة من العربية إلى الأردية)، والشيخ حبيب الرحمان خان الشيرواني والسيد سجاد حيدر وغيرهم.¹

الأمير (يوبراج) جنغ بهادر رانا ولي عهد نيبال: قد استفاد الأمير جنغ بهادر رانا ولي عهد نيبال من المعلّم الفراهي بطريقة مختلفة عن الآخرين. كان يلتبس الأمير من الإمام الفراهي الإصلاحات في أشعاره الفارسية.

وقد ذكر الشيخ أمين أحسن الإصلاحي علاقة المعلّم الفراهي بالأمير النيبالي قائلاً: "كان أحد أفراد الأسرة الملكية النيبالية في منفاه في الهند وكان يقيم في مدينة إله آباد ويهتم اهتماماً بالغاً بالشعر في اللغة الفارسية، ويختار اسمه الأدبي "شادي". وهذا الاهتمام بالشعر أصبح جسراً بين المعلّم الفراهي والأمير النيبالي".²

وفي رسالة (قد تمت طباعة هذه الرسالة في مجلة "فكر ونظر"، إسلام آباد) إلى المعلّم الفراهي، قد ذكر الأمير نفسه كتلميذ للمعلّم الفراهي وأرسل إليه قصيدته للإصلاح.³

وهذا قليل من كثير عن تلامذة المعلّم عبد الحميد الفراهي الذين استفادوا منه في مجال العلوم القرآنية والأدب العربي علماً بأنّ هناك عدداً من الرجال الآخرين الذين استفادوا منه ولكن لم أذكرهم مخافة التطويل فالإملال.

¹ المصدر نفسه، ص 560

² المصدر نفسه، ص 564

³ المصدر نفسه، ص 530 إلى 564

الإمام الفراهي ودار المصنفين

- البروفيسور ظفر الإسلام الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: د. هيفاء شاكري²

يعتبر العلامة عبد الحميد الفراهي رحمه الله (1863-1930م) من علماء ومفكري الهند الحديثة، والذين كان لهم باع طويل في العلوم القديمة والجديدة معاً، وقد ظهرت براعتهم في ميادين مختلفة. فكان الفراهي ماهراً في الترجمة والتفسير، والعربية والفارسية، واللغة الإنجليزية وآدابها، وعلوم البلاغة، والفلسفة وعلم الكلام والتاريخ والجغرافيا وغيرها من العلوم.³

وقد ظهرت مهارته في التدريس والتأليف وتنظيم الأمور وجوانب الحياة المختلفة. وأهم ما يميز انشغاله المتنوع هو ظهور جلي لأثر ارتباطه الوثيق بالقرآن الكريم وعلومه. (والذي كان المحور الأساسي لانشغاله). وقد ارتبط الفراهي خلال التدريس بالتأليف والتنظيم في عدد من المراكز والمؤسسات العلمية وترك فيها آثار علمه وفضائله وفيوضه مما يعد من العلامات العلمية التي لا يمكن تجاهلها. من ضمن هذه المراكز نذكر كلية AMO علي جره، كلية ميور إله آباد، دار العلوم حيدرآباد، دار المصنفين أعظم جره، ومدرسة الإصلاح سرائ مير أعظم جره.⁴ ونقدم في هذه المقالة أحوال ارتباطه بدار المصنفين والآثار التي ترتبت على ذلك.

¹ بروفيسور، قسم الدراسات الإسلامية، جامعة علي جره الإسلامية، علي جره.

² أستاذة مساعدة، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي

³ للمزيد من التفصيل راجع مقالة الكاتب بعنوان "مولانا حميد الدين الفراهي" ومجموعة "علامة حميد الدين فراهي: حيات وأفكار" (المقالات المقدمة في مؤتمر الفراهي)، اتحاد الطلاب القدامى لمدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم جره، 1992م، ص- 37-54.

⁴ للمزيد من التفصيل عن علاقة الفراهي بهذه المؤسسات راجع مختصر حيات حميد، (المرتب: عبد الرحمن ناصر الإصلاحي) الدائرة الحميدية، سرائ مير، 1973م، ص- 31-38، والدكتور شرف الدين الإصلاحي، ترجمان القرآن مولانا حميد الدين فراهي، معارف، فبراير 1991م، ص- 91-105

العدد الخاص مجلة الهند

ويجب أن نوضح أن فكرة إنشاء مؤسسة باسم دار المصنفين تولدت لدى الفراهي حينما تم إنشاء مكتبة في دار العلوم ندوة العلماء أثناء عمادته عام 1910م. كان يرغب في إنشاء قسم للتأليف والتصنيف ملحق بالمكتبة ليتم تدريب الخريجين من الندوة في هذا الميدان، وكذلك تمنح التسهيلات للآخرين للمطالعة والتحقيق في هذا القسم. وقد قدم اقتراح بشأن المكتبة وقسم التأليف في الجلسة الثالثة عشرة لندوة العلماء والتي عقدت في دلهي في مارس 1910م، وألقى السيد سليمان الندوي فيها خطاباً يؤيد فيه هذا الاقتراح، وأوضح ضرورة إنشاء مكتبة ضخمة مع دار للمصنفين.¹ وقد سعى العلامة شبلي لهذا النوع من المؤسسة منذ ذلك الوقت، وحاول أن يجذب انتباه أهل العلم والخير إلى ذلك بشكل مستمر.² ولكنه لم يتمكن من تحقيق حلمه أثناء مكوثه في ندوة العلماء. وقد استطاع أن يجتهد من أجل هذه الفكرة بعد استقالته من منصب عميد التعليم من ندوة العلماء وعودته إلى موطنه أعظم جره للاستقرار فيه عام 1913م. وعندما رأى أن الفكرة يمكن تنفيذها بطريقة عملية، اختار لإنشاء المؤسسة موطنه أعظم جره وبدأ يتصل بأشخاص متعددين لمساعدته في ذلك.³ وكبداية أوقف لهذا الغرض فيلته الموروثة والحديقة والأراضي الملحقة بها بعد استشارة أفراد عائلته.⁴ ومن هذه المرحلة ظهرت الأهمية التي كان يوليها العلامة شبلي للإمام الفراهي بشأن إنشاء دار المصنفين والأعمال المستقبلية المرتبطة بذلك، نرى هذه الأهمية تظهر من خلال الرسالة التي بعث بها شبلي إلى الفراهي حيث كتبها أثناء مرضه عام 1914م. لاحظ فقرة من هذه الرسالة: "كان هناك نزاع في الختم على أوراق الوقف، لذا تقدمت بطلب للمسؤول، فإذا أقر يكتمل العمل، وقد وضعت اسمك ضمن المتولين، إذا أنشئت دار المصنفين فمن يكون لها غيرك".⁵

¹ السيد سليمان الندوي، حيات شبلي، مطبعة معارف، دار المصنفين، أعظم جره، 1970م، ص-688-690

² مكاتيب شبلي، مطبعة معارف، أعظم جره، 1927م، 248/2، حيات شبلي، ص-690-691.

³ المصدر نفسه، 210-208/10، 248/2، 248، حيات شبلي، ص-694-695.

⁴ المصدر نفسه، 210-209/1، 54-53/2، 117-116، حيات شبلي، ص-697.

⁵ المصدر نفسه، 54/2، الإشارة هنا إلى قضية أوراق الوقف الخاصة بوقف عائلة شبلي من البيوت والأماكن

العدد الخاص مجلة الهند

وكان شبلي يسعى من وراء ذلك إلى إقامة مؤسسة علمية تحقيقية، والتي تقدم فيها التسهيلات للمطالعة والتحقيق خاصة في مجال العلوم والفنون الإسلامية، ويستمر عمل التأليف والتصنيف على قدم وساق. والحقيقة أنه كان ينوي إقامة مركز عظيم للتعليم والتربية (جامعة) بالجمع بين مدرسة الإصلاح ودار المصنفين. وكان يعتقد أن الأول يعتبر مرحلة ابتدائية، والثاني مرحلة تكميلية له، كما يظهر من كلماته في الرسالة التي بعث بها إلى العلامة مسعود علي الندوي: "إن دار المصنفين في مرحلته التكميلية وسرّاء مير بمرحلته الابتدائية تعتبران من مكونات جامعة إسلامية".¹ وضمن المرحلة التكميلية في دار المصنفين كان هدفه الأول توفير التسهيلات للمطالعة والتحقيق وإعداد الماهرين في مجال السيرة. وقد قرر إعطاء منحة لمن يقوم بالتحقيق في هذا المجال.² وقام بتأسيس صندوق للمنح حينما لم يكن هناك مصدر دائم لهذه المنح في الفترة البدائية. ومن أوائل الشخصيات التي لبّت نداءه للتبرع نجد اسم الإمام الفراهي حيث تبرع بمبلغ 30 روبية شهرياً لهذا الغرض. يكتب شبلي في إحدى رسائله: "قد تبرع حميد بـ 30 روبية شهرياً لهذا الغرض، وسأ تبرع كذلك بـ 30 روبية".³

كان العمل جارياً على قدم وساق لإنشاء دار المصنفين، ولكن توفي العلامة شبلي في 18 نوفمبر 1914م، ولم يتحقق حلمه إلا بعد وفاته. وقصته الموجزة أنه تم إنشاء فريق باسم الجماعة النعمانية أو إخوان الصفا، وكان يشتمل على الطلاب الذين تلقوا التعليم على يد شبلي، وكان الفراهي على رأس أعضاء المجاس التأسيسي الخمسة، وهو المجلس الذي حوّل فكرة إنشاء دار المصنفين إلى واقع عملي، وتم انتخاب 11 عضواً أساسياً لدار المصنفين، وكان الإمام الفراهي يترأسهم كرئيس، وانتخب السيد سليمان الندوي ناظماً للدار. وقد ترأس الفراهي الدار طوال حياته.

¹ المصدر نفسه، 135/2، وانظر أيضاً حيات شبلي، ص- 687-688.

² حيات شبلي، ص- 693-694، مكاتيب شبلي، 1/288.

³ مكاتيب شبلي، 131/2، 140، حيات شبلي، 1/288.

العدد الخاص مجلة الهند

وقام المجلس كذلك بوضع القواعد والضوابط لدار المصنفين. وتم افتتاح هذه المؤسسة العلمية والتحقيقية المهمة في مايو 1915م بشكل رسمي.¹

إن أول عمل كان من مسؤوليات دار المصنفين هو تكميل "سيرة النبي"، ولو أن السيد سليمان الندوي قد أخذ على عاتقه القيام بهذه المهمة، إلا أن الفراهي لم يتأخر عن تقديم يد العون والمساعدة سواء مادياً أو كتابة. وقد سبقت بعض الأمثلة لذلك. ومن المناسب أن نضيف أن الفراهي والسيد سليمان الندوي سافرا إلى بهوبال بدعوة من الحاكمة سلطان جهان بيغم الهوبالية في 29 من نوفمبر 1914م، وذلك بعد وفاة العلامة شبلي. ومن ضمن القضايا التي نوقشت كانت قضية تكميل مشروع السيرة المهم. وقد أقرت الحاكمة وطمأنتهما باستمرار في التعاون المادي من قبلها، وحولت تبرعها السابق باسم السيدين الزائرين. يكتب السيد سليمان الندوي في هذا الشأن: "بعد ذلك ذهبت معه إلى بهوبال بدعوة من الحاكمة سلطان جهان بيغم التي طمأنتنا وأمرت بإعطاء التبرع لتأليف السيرة بأسمائنا، وهذا التبرع كان بمثابة أول سحابة غيث لدار المصنفين".² وقد حول الفراهي بعد ذلك عند إقامته في حيدرآباد تبرع الحاكمة المقرر 300 روبية شهرية باسم دار المصنفين. وعلى حسب قول السيد سليمان الندوي: "كان هذا أفضل ضمان للإبقاء على دار المصنفين".³

من المعروف أن "سيرة النبي" كان يحتل أهم مكانة من ضمن خطط النشر لدار المصنفين، وهو الكتاب الذي حاز على التميز من مطبوعات الدار. وكان للفراهي دور كبير في تأليف وتكميل هذا الكتاب كما يظهر من استفسارات العلامة شبلي

¹ حيات شبلي، ص- 689، مختصر حيات حميد، ص- 16-17، شاه معين الدين الندوي، حيات سليمان، مطبعة معارف، 1973م، ص- 96-101.

² السيد سليمان الندوي، ياد رفتگان، دار المصنفين، أعظم جره، 1986م، ص- 124-125، محمد أمين زبيري مارهروي، حيات سلطاني، مطبعة عزيزي، آكره، 1939م، ص- 141، حيات سليمان، ص- 97.

³ حيات سلطاني، مطبعة عزيزي، آكره، 1939م، ص- 141، حيات سليمان، ص- 97.

في مباحثه المختلفة. وكلمات السيد سليمان الندوي التالية تثبت هذا: "كان يشاور أخاه السيد حميد الدين في الأمور التي تتعلق بصحف بني إسرائيل والقرآن الكريم، حيث كان حميد الدين قد بحث فيها وتدبرها. ونجد الإشارة إلى ذلك في رسائل شبلي في مواضع مختلفة"¹ ولم يتمكن الحصول على الرسائل التي أرسلها الفراهي في الرد على استفسارات شبلي، ولذلك لا يمكن تحديد مدى كمية مساهمات الفراهي في "سيرة النبي"، ولكننا يمكن أن نوضح الأمور التي استفاد منها أو طلب المساعدة من تحقيقاته من خلال رسائله إلى الفراهي. ومنها:

1. الدلائل من التوراة على كون إسماعيل عليه السلام الذبيح.
2. المعلومات من الكتب السماوية عن إسحاق وإبراهيم عليهما السلام.²
3. الدليل من الشعر الجاهلي على الحنيفية.³
4. تفسير بعض الآيات عن أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن.⁴
5. زمن وسبب نزول سورة التوبة.⁵
6. التحقيق عن وادي مكة/ بكة، تعمير الكعبة، الحج إلى الكعبة، مسكن إبراهيم، مقام إبراهيم، موضع الأضحية وغير ذلك من المعلومات خاصة من المتون الأصلية للكتب المقدسة (التوراة، الإنجيل، الزبور).⁶
7. بعض المعلومات الجغرافية عن العرب قبل الإسلام من بعض الكتب الإنجليزية ودائرة المعارف (إنساكلوبيديا).⁷

¹ مختصر حيات حميد (مقالة سيد سليمان الندوي)، ص- 16، شاه معين الدين الندوي، حيات سليمان، ص- 97.// كان الفراهي هو ابن خال العلامة شبلي.

² حيات شبلي، ص- 720.

³ مكاتيب شبلي، 2/39-38، 41-42، 43، 45، 48-49.

⁴ المصدر نفسه، 2/43-42.

⁵ المصدر نفسه، 2/37، 38، 45-46، 47.

⁶ المصدر نفسه، 2/52-51..

⁷ المصدر نفسه، 2/31، 40، 41، 43، 49-50.

العدد الخاص مجلة الهند

ومن الممكن أن نلاحظ نوعية الإجابات وأهميتها على استفسارات شبلي من رسالة للفراهي طبعت في مجلة إشراق الشهرية الصادرة من لاهور في عددها الخاص برسائل الفراهي (رتها د. شرف الدين الإصلاحي).¹ فقد طلب العلامة شبلي توضيحاً لبعض الأحكام الشرعية المتعلقة بأمهات المؤمنين رضوان الله عليهم في سياق سورة الأحزاب،² وقد رد الفراهي برسالة تمتد إلى 6 صفحات باللغة العربية. والرسالة تحقيق مهم جداً ثابت بالدلائل العقلية والنقلية في هذا الموضوع، وقد ناقش كذلك في البداية بعض الحكم من الأحكام الشرعية الخاصة بواجبات الزوجين.³ إضافة إلى ذلك إذا نظرنا إلى مؤلفات الفراهي وخاصة الأجزاء التي تتعلق بالتفسير، فيمكننا تحديد إفاداته في "سيرة النبي" في ضوء استفسارات شبلي.⁴ مثلاً إذا قارنا بين كون سيدنا إسماعيل ذبيحاً وحقيقة الأضحية ومفهومها في "سيرة النبي" وتأليف الفراهي "الرأي الصحيح في من هو الذبيح"⁵ لظهر جلياً أن مناقشة شبلي لهذه المواضيع المذكورة تعتمد بشكل كامل على ما تحقيقات الفراهي. كذلك يظهر أثر تفسير سورة التحريم للفراهي⁶ في "سيرة النبي" في مباحث الإيلاء والتخيير والاعتزال.

تم تأليف جزئين فقط من "سيرة النبي" وتوفي العلامة شبلي، وقد تم تكميل الأجزاء الباقية على يد السيد سليمان الندوي. وقد استمر الفراهي في تعاونه في هذه المرحلة

¹ المطبوعة في مايو 1992م، (المجلد-4، العدد-5).

² مكاتيب شبلي، 38-37/2.

³ مجلة إشراق الشهرية، مايو، 1992م، ص- 22-55 (العدد-22).

⁴ للمزيد من التفصيل انظر "سيرة النبي شبلي مين فكر فراهي" للدكتور محمد ياسين مظهر الصديقي "علامة حميد الدين فراهي: حيات وأفكار" (المقالات المقدمة في مؤتمر الفراهي)، ص- 416-441.

⁵ المطبوعة مطبعة معارف، أعظم جره، 1919م، الترجمة في اللغة الأردية "ذبيح كون هي" (للشيخ أمين أحسن الإصلاحي) الدائرة حميدية، سرائ مير، أعظم جره، (بدون تاريخ)..

⁶ المطبوعة بمطبعة فيض عام، علي جره، 1908م، الترجمة في اللغة الأردية (للشيخ أمين أحسن الإصلاحي) مجموعة تفسير نظام القرآن، الدائرة الحميدية، سرائ مير، أعظم جره، 1990م

أيضاً. وجدير بالذكر أنه عندما عرض على شبلي أمر مشروع السيرة العظيم في أواخر أيام حياته، وخيف من عدم إكماله له، قدم شبلي لهذه المهمة اسم كل من الفراهي والسيد سليمان الندوي. وتدل على ذلك زيارة شبلي لسلطان جهان بيغم في بهوبال، ونوقشت المصارف الإضافية لتكميل سيرة النبي أثناء لقاءهما،طمأنته الحاكمة ووعدت بتحمل كافة التكاليف لذلك، ولكنها سألته عن كيفية تكميل المشروع لو وافته المنية وذلك بالنظر إلى صحته المتدنية، فرد عليها: "يجب أن يكتمل الكتاب، لقد جهزت شخصين لهذه المهمة، حميد الدين والسيد سليمان الندوي، وسيكملانه".¹ ولمزيد من الإثبات نجد أن العلامة شبلي قبل وفاته قد طلب بشدة من الشخصين أن يكملا "سيرة النبي" ويقمدا هذا العمل على أي عمل آخر. وكما يذكر السيد سليمان الندوي: "حضر العلامة حميد الدين كذلك يوم 16 (نوفمبر 1914م)، وكان العلامة (شبلي) في انتظاره منذ البداية، وطلبنا صباح 17، وقال ثلاث مرات بلسانه: السيرة، السيرة، السيرة. وأشار بأصبعه بالكتابة، وقال: بترك كل الأعمال"،² ثم ندب السيد سليمان الندوي بتكميل السيرة بعد تأسيس دار المصنفين، وقد أدّى مهمته على أكمل وجه.

والجدير بالذكر هنا أن سلسلة تعاون الفراهي امتدت إلى المرحلة التكميلية لـ"سيرة النبي"، وقد اعترف السيد سليمان بذلك في مواضع عدة، فيكتب في مقدمة الجزء الثالث من سيرة النبي الطبعة الأولى معترفاً بالمحسنين: "نشكر المحسنين الذين ساهموا معنا في التأليف، وقد استفدنا في حل المشكلات والغوامض من العلامة حميد الدين ومشورته".³

يتضح من هذه التفاصيل أن العلامة شبلي بجانب تحمله مسؤوليات رئيس دار المصنفين، لم يأل جهداً في التعاون المادي والمعنوي في أعمال الدار الأخرى.

¹ حيات سلطاني، ص-141.

² حيات شبلي، ص-725

³ سيرة النبي، (للسيد سليمان الندوي) مطبعة معارف، أعظم جره، 1974م، 1/3

العدد الخاص مجلة الهند

ومما يدل على ارتباط الفراهي القوي بدار المصنفين أنه قد تبرع بعدد كبير من كتبه الخاصة للدار، والتي أضيفت إلى مكتبتها بعد وفاته. وهي كتب قيمة باعتبار أن كثيرًا منها والتي كان يطالعها تحمل ملاحظات تأييدية ونقدية بخط يده. وكان الفراهي يضع الملاحظات والحواشي عند قراءته للكتب. وهذه الحواشي بمثابة الشرح الذي يساعد على فهم العبارة إضافة إلى معرفة رأي الفراهي وأفكاره في الموضوعات المختلفة. وفي ضوءها يمكن كتابة العديد من المقالات عن التحقيقات والخدمات العلمية التي قدمها الفراهي، والعمل جارٍ على ذلك. فقد قدم ناظم دار المصنفين العلامة ضياء الدين الإصلاحي مقالة قيمة موضوعها "حواشي العلامة فراهي على رسائل ابن تيمية" في الندوة الخاصة بالفراهي التي عقدت في أكتوبر عام 1991م في مدرسة الإصلاح سرائ مير، أعظم كرة. وهذه المقالة تعتمد على حواشي العلامة الفراهي على مجموعتين من رسائل العلامة ابن تيمية المطبوعة من المطبعة الحسينية، مصر عام 1323هـ¹ وكذلك طبعت بعض المقالات من هذا النوع في مجلة "علوم القرآن" النصف سنوية الصادرة من علي، ولو أن هذه المقالات اعتمدت على كتب موجودة في مراكز علمية أخرى غير دار المصنفين، وهي أيضًا من ضمن الكتب التي كان الفراهي يطلع عليها.²

وضمن ارتباط الفراهي بدار المصنفين لا يفوتنا ذكر أمر مهم وهو أن العديد من كتبه طبعت من مطبعة معارف، أعظم جرة باهتمام من دار المصنفين أو المسؤولين فيها. ومنها تفاسير كل من السور التالية: الذاريات، المرسلات، عبس، التين، الفيل، الكوثر، اللهب، والإخلاص. إضافة إلى الطباعات الأولى لأسباق النحو (دروس

¹ للاطلاع على هذه المقالة راجع "علامة حميد الدين فراهي: حيات وأفكار" (المقالات المقدمة في مؤتمر الفراهي)، ص-186-222

² انظر "مولانا فراهي كي غير مطبوعه قرآني حواشي" للسيد سلطان أحمد الإصلاحي، علوم القرآن، 1/5. يناير- يونيو 1990م، ص-50-69، و"مولانا فراهي كي قلبي حواشي الإتيقان في علوم القرآن بر" للدكتور أجمل الإصلاحي، 1/1، يوليو - ديسمبر 1985م، ص-79-124

العدد الخاص مجلة الهند

النحو)، والرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، وجمهرة البلاغة. كما أن دار المصنفين قامت بطباعة كتابه الشهير: "إمعان في أقسام القرآن" من المطبعة السلفية في القاهرة عام 1930م، وذلك على نفقة الدار. قدم للكتاب السيد سليمان الندوي وذكر معلومات مفيدة جدًا عن حياة الفراهي وخدماته. والجدير بالذكر أن هذا الكتاب هو الأول من بين مطبوعات الفراهي والذي طبع في دولة عربية كذلك.

وفي النهاية نحب أن نوضح أن المعلومات المهمة عن شخصية الفراهي وخدماته التي نحصل عليها من كتبه المتعددة المطبوعة من دار المصنفين، لا توجد في مكان آخر. ومن هذه الكتب: مكاتيب شبلي (الجزء الأول والثاني)، حيات شبلي (تأليف السيد سليمان الندوي)، حيات سليمان (تأليف شاه معين الدين الندوي).¹ ولا يمكن تجاهل الدور الذي لعبته مجلة الدار الشهرية، مجلة معارف، في التعريف بأفكاره ومؤلفاته. وتعتبر الخدمات التي قدمها مدير المجلة الحالي السيد ضياء الدين الإصلاحي في التعريف بمؤلفاته وتراجمها الأردية مهمة جدًا في هذا السياق.

¹ انظر تفاصيل هذه الكتب في "كتايبات فراهي"، (إداره علوم القرآن، علي جره، 1991م، ص-37-32)

الإمام عبد الحميد الفراهي

كما يراه العلماء الهنود والفضلاء العرب

- د. عرفات ظفر الأعظمي¹

نشأ وترعرع الإمام عبد الحميد الفراهي (1863-1930م) في بيئة إسلامية وتلقى تربية دينية من أبويه الكريمين فلم يتقاعس عن أداء واجباته الدينية منذ نعومة أظفاره. وفي هذا الجو الديني أخذ نصيبه من العلوم والمعارف وأصبح رجلاً صالحاً و عالماً تقيّاً، فكان يقول عنه العلامة سيد سليمان الندوي: إنه كان آية من آيات الله² وذلك لكثرة فضله وسعة علمه وشدة ورعه وحسن عبادته وغنى نفسه وزيادة رغبته في طلب مرضاة الله. فبلغ من العلم والفضل والخلق والكرم واتباع السنة وإحياء الشريعة شأواً لا يصل إليه العلماء والأولياء إلا نادراً.

ولما أقبل الفراهي على دراسة القرآن الكريم والتدبر في حكمه وحقائقه، انقطع إليه عن جميع الأشغال، والوظائف وتفانى في تحقيق نظام القرآن ومعانيه وغاص في قعر بحاره، فتنور قلبه من أنوار القرآن وتفتح ذهنه من لمعانه وانعكست هذه الأنوار القرآنية على شخصيته وأعماله وعاداته وطرق عباداته وآرائه وأفكاره، فأصابه الحق الذي قال عنه إنه كان تصويراً صادقاً للحديث النبوي "كان خلقه القرآن" وكل من التقى معه، تأثر بشخصيته المتواضعة وسحر بمآثره العلمية والأدبية وغلب بتمسكه بالقرآن والسنة في حياته العملية، حتى استخدم له بعض معارفه وأصدقائه ومعتقديه وتلاميذه في رسائلهم الموجهة إليه ألقاباً تنم عن أن هؤلاء الأشخاص كانوا يعتبرونه عالماً فقيراً وشيخاً زاهداً ووليّاً مرشداً³. وكانت حلقاته ومجالسه تعج بالمناقشات العلمية والدينية وذكر فناء الدنيا وبقاء الآخرة

¹ أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة لكنّاو، لکنّاو، الهند

² إمعان في أقسام القرآن للإمام عبد الحميد الفراهي، دار القلم، دمشق، 1415هـ، ص 15

³ ذكر فراهي للدكتور شرف الدين الإصلاح، الدائرة الحميدية، أعظم كره، 2001م، ص 783

وتأكيد الصلاة، وكل من كان يصاحبه ويشارك في مجالسه ومحاضراته يتلذذ بحرارة إيمانه ويتأثر به إلى حد أنه يستولي عليه فكرة الآخرة وذكرى يوم الحساب والتوكل على الله ويعتبر الدنيا ونعمها وترفها من أتفه الأشياء وأسرعها زوالاً، ويتحرر لبرهة من مشاكل الحياة وهمومها. وشهد عليه العلامة شبلي النعماني قائلاً: "من جلس إلى حميد انصرف قلبه عن الدنيا وما فيها". وكذلك يقول الشيخ أمين أحسن الإصلاحي: كلما زرت عالماً كبيراً (وهو الشيخ عبد الرحمن المباركفوري صاحب تحفة الأحوذى) بعد وفاة العلامة الفراهي يقول لي: "تعال نؤمن ساعة"¹ وأنه يريد بذلك أن نتحدث عن الفراهي ونذكر ظروفه وأخلاقه لكي نزداد إيماناً واحتساباً.

وكذلك كل من عرفه ورآه عن كثب اعترف بقيامه في الليل واهتمامه بالصلاة وانقطاعه إلى القرآن الكريم، فيقول أحد الطلبة الأقدمين لمدرسة الإصلاح: "إن حضرة الشيخ الفراهي كان صوفيًا مستندًا وعالمًا ورعًا ووليًا منقطع النظير، شاهدته أثناء دراستي في مدرسة الإصلاح أنه كان يستيقظ بعد منتصف الليل ويستحم ويتوضأ، ثم يؤدي صلاة التهجد ويقوم للنوافل، وبعد ذلك ينهك في مطالعة القرآن حتى صلاة الفجر".² ويذكر العلامة سيد سليمان الندوي خشوعه في العبادة واهتمامه بالصلاة قائلاً: "ما نستغفر له إذ أنه كان يقضي أنفاسه المتبركة في ذكر الله تعالى وطلب رضاه وفي الصبر والشكر والطاعة، وتكون صلواته وعباداته عبارة عن الغرق والتفاني فيها وبمجرد رؤيته كنا نتذكر سبحانه عز وجل".³ وكذلك يبدي الشيخ عبد الماجد الدرايابادي أيضاً رأيه في هذا المضممار، فيقول: "كانت عبادة الفراهي وتدينه قابلة للمشاهدة، أنه كان يهتم بالصلاة في أول وقتها وما رأيت مثل هذا الاهتمام في أية شخصية أخرى ما عدا شخصية الشيخ الأكبر الله آبادي، فلم يكن الشيخ الفراهي نفسه مصلياً نشيطاً فحسب، بل كان يصبح الآخرون أيضاً مصلين بتأثير صحبته، وطالما يقيم الفراهي في حرم

¹ مختصر حيات حميد للأستاذ عبد الرحمن ناصر الإصلاحي، الدائرة الحميدية، 1973م، ص 56

² علامة حميد الدين فراهي حياة وأفكار (مجموعة مقالات)، الدائرة الحميدية، 1992م، ص 35

³ ياد رفتكان للعلامة سيد سليمان الندوي، دار المصنفين، أعظم كره، 1976م، ص 125-126

دار المصنفين تكون الصلاة موضع البحث والنقاش فيها".¹

لم يكن الفراهي فاضلاً في العلوم العربية والدينية فحسب بل نال قسطاً وافراً من الثقافة الغربية الجديدة أيضاً، وبناءً على هذا إنه حصل على العديد من المناصب الحكومية العالية، وبفضل أعماله الجليلة وكتاباتهِ القيمة دَوَّت سمعته في جميع أنحاء البلاد. ولكن لم تغير هذه السمعة مجرى حياته سواء كان هو في مدينة كراتشي أو علي كره أو حيدرآباد وظل يعيش عيشة بسيطة مثل عامة الناس. ومن هنا يقول الشيخ أمين أحسن الإصلاحية عنه: "إن مستوى حياته في مدرسة الإصلاح كان عادياً، يجلس مع طلبة هذه المدرسة وأساتذتها في مطعم المدرسة ويأكل ما يأكل الطلبة والأساتذة الفقراء ... ولذلك لم يخطر ببال أحد يراه أولاً أنه مجمع البحرين وعالم بالعلوم الشرقية والغربية ويرجع إليه العالم والمؤرخ الشهير شبلي النعماني للاستفادة منه".²

على كل حال، فإن جميع هذه الصفات والميزات التي كانت تتسم بها شخصية الفراهي كانت تتفجر عيونها من الكتاب والسنة، وقد أسلفنا الذكر أن مجاله الخاص الذي نذر له الفراهي حياته كلها هو فهم القرآن وإفهامه والبحث عن علومه ومعارفه وكشف القناع عن نظامه وحكمه، فإنه قد شَمَّر عن ساق الجد لإحياء دراسة القرآن ونشر علومه. ولتحقيق هذا الهدف المنشود أنه أَلَف كتباً قيمة بالعربية وأضاف بها ثروة علمية رائعة إلى المكتبات العربية والإسلامية المنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي. فقدّر العلماء والأدباء جهوده في العلوم العربية والإسلامية واعترفوا بعلمه وفضله وعلو كعبه في العلوم القرآنية. فلما زار العلامة الأديب الشيخ تقي الدين الهلالي المراكشي ربوع الهند، توقف قليلاً عند الفراهي في قريته،³ فسأله الشيخ عبد المجيد الحريري بمدينة بنارس: "كيف وجدت مولانا

¹ معاصر بن للشيخ عبد الماجد الدرايآبادي إداره إنشاء ماجدي، كلكتا، 1979م، ص 122

² مختصر حيات حميد، ص 54

³ ذكر فراهي، ص 787

الفراهي ...؟ فأجابه الشيخ الهلالي: "هو بحر زاخر لا ساحل له".¹ وهكذا لما سمع العلامة سيد سليمان الندوي نبأ وفاته، نعاها بهذه الكلمات: "إن ابن تيمية هذا العصر قد لبى نداء ربه".² وتقديرًا لتبحره في العلوم العقلية والنقلية وخدماته الجليلة في العلوم العربية والإسلامية كانت أسماء العلماء المتقدمين الكبار تضاف إلى اسمه، فيقول الشيخ مناظر أحسن الغيلاني عنه: "إن الفراهي كان الرازي والغزالي لهذا العصر".³ وقد اعترف السير سيد أحمد خان بمهارة الفراهي في اللغتين العربية والفارسية وتضلعه من العلوم الشرقية في حين كان يدرس الفراهي في علي كره، وعندما قام الشيخ محمد أسلم الجيراجفوري باستعراض جزء من تفسير الفراهي "نظام القرآن" بادر قائلاً: "وفي هذا العهد الأخير تنتهي عليه الإمامة في علوم القرآن".⁴ وتجدر الإشارة هنا إلى أن آراء أصدقاء الفراهي ومعاصريه وتلاميذه قد تضاربت فيما إذا كان الفراهي أكثر علمًا أم ورعًا. والواقع أنه من الصعب للغاية أن يكون أي هذين الجانبين أرجح أو أفضل على الآخر.⁵ ولا شك في أن العلماء الهنود ونظرائهم من العرب قد اعترفوا بمآثر الفراهي العلمية وأفكاره السامية ومكارمه الخلقية، وفيما يلي ندرج آراء وانطباعات نخبة من العلماء الهنود والباحثين العرب عن شخصية العلامة الفراهي وإنجازاته الرائعة.

الفراهي في نظر العلماء الهنود

في بادئ ذي بدء ننقل آراء وأقوال العلماء والأدباء الهنود الذين عاصروا الفراهي وشاهدوا جلاله العلمي وجماله الروحي من قريب وألقوا الضوء على جوانب حياته المختلفة وأبرزوا ملامح شخصيته المتنوعة، وشهدوا مع رحابة صدورهم

¹ المصدر السابق، ص 738

² ياد رفتكان، ص 110

³ ذكر فراهي، ص 783

⁴ مجلة الإصلاح، أبريل، 1937م ص 200

⁵ مختصر حیات حمید، ص 51

العدد الخاص مجلة الهند

على طهارة نفسه وسلامة قلبه وإصابة فكره وورعه وإخلاصه وسعة نظره في علوم القرآن واهتمامه بالصلاة والبعد عن الشهرة والفخفة.

العلامة شبلي النعماني:

قد اعترف العلامة شبلي النعماني بعبقريته الفراهي في مواضع عديدة، فتدلّ كلماته الآتية على عظمة شخصية الفراهي وابتعاده عن الشهرة، يقول العلامة شبلي:

"ومن الحقائق المقررة أن الإنسان إذا بلغ ذروة المجد والكمال من العلم والمعرفة نال الشهرة والسمعة في عصره، ويشهد التاريخ والتجربة على هذه الحقيقة. ولكن قد يستغنى منه بعض الناس ومنهم حميد الدين الفراهي الذي بلغ القمة في العلم والمعرفة ولكنه أثر الخمول على السمعة والاعتزال على الشهرة ... وتفسيره "نظام القرآن" مفيد وضروري لجماعة المسلمين في هذا العصر كما يحتاج العطشان الشديد إلى الماء الزلال".¹

العلامة سيد سليمان الندوي:

ولقد قضى العلامة سيد سليمان الندوي فترة طويلة مع العلامة الفراهي فأعجب بشخصية الفراهي وحياته العلمية وخدماته القرآنية، فنقل بعض انطباعاته في السطور الآتية:

"إن العلامة حميد الدين الفراهي رحمه الله تعالى لم يكن وحيد عصره في العلم والفضل فحسب، بل إنه كان بصحة اعتقاده وزهده وورعه من خواص الأمة".²

وبعد وفاة الفراهي رثاه العلامة الندوي بهذه الكلمات:

"الصلوة على ترجمان القرآن، نداء سمع من مصر والشام إلى حدود الصين للصلوة على الإمام ابن تيمية رحمه الله قبل ستة قرون والآن قد حان الوقت أن

¹ مقالات شبلي للعلامة شبلي النعماني، دار المصنفين، أعظم كره، 1964م، 13-14/2

² مجلة الإصلاح، 54/10/1

العدد الخاص.....مجلة الهند

تتردد هذه الأصدا مرة أخرى من ربوع الهند إلى بلاد الشام ومصر على الأقل، بأن ابن تيمية هذا العصر قد لبى نداء ربه... هذا العالم الجليل الذي كانت شخصيته لجامعة بين العلوم الشرقية والغربية، ومعجزة من معجزات الدهر، ولا يبدو أن الدهر سيجود لنا بمثله في العلم والفضل من أبناء العالم الإسلامي".¹

إمام الهند أبو الكلام آزاد:

إن العالم الكبير أبا الكلام آزاد رحمه الله، الذي قد سنحت له الفرصة للاستفادة من العلامة الفراهي يعترف بعلمه وفضله وطهارة قلبه كما يلي:

"كان الشيخ الراحل حميد الدين الفراهي من أولئك العلماء الحق الذين لا يمتازون بالعلم فحسب، بل تتحلى شخصيتهم بالأعمال الصالحة أيضًا، ولا يخفى على أهل العلم قلة تواجد هذا الشيء الأخير، وكلما لقيته تأثرت بنقاء عمله أكثر من غزارة علمه، ولا شك في أنه كان رجلًا تقيًا وإنسانًا صادقًا في معناه الكامل، وكنا نغتبط بصفاء قلبه وطهارة نفسه".²

الشيخ أبو الأعلى المودودي:

وقد ألقى الداعية الإسلامي الشيخ أبو الأعلى المودودي رحمه الله الضوء على تضلع العلامة الفراهي من علوم القرآن وسموّ قدره بين المفسرين العظام وأهم ميزات تفسيره قائلاً:

"ومن المعروف أنه قلما وصل من العلماء المتأخرين إلى مكانة يحتلها العلامة الفراهي في مجال فهم القرآن والتدبر في آياته، إنه قضى أكثر عمره في مطالعة القرآن وفهم معانيه وألف تفسيرًا محققًا باللغة العربية لا يوجد له مثيل في تفاسير القدماء ومؤلفاتهم. إنه خدم القرآن الكريم إلى أربعين عامًا على التوالي وببض سواد شعره في

¹ ياد رفتكان، ص 110

² مجلة الإصلاح، 54/10/1

تحقيق معارف القرآن، وخلق تفسيره ذوقاً واهتماماً بمطالعة القرآن في نفوس آلاف من المسلمين في بلاد العرب والعجم. ويدل كل كلمة من كتاباته على أنه كان عاشقاً للقرآن وكان يفدي نفسه على كل لفظ من هذا الكتاب المقدس".¹

الشيخ عبد الماجد الدرايا آبادي:

اعترف الشيخ الدرايا آبادي بعلم الفراهي وفضله وخدمته في علوم القرآن بالكلمات التالية:

"كان العلامة حميد الدين الفراهي إماماً للعلوم القرآنية في هذا العصر، وكان يحتل مكانة مرموقة في مجال تفسير القرآن بين العلماء المعاصرين والمتأخرين، وينبغي أن نعترف بأنه اكتشف أصولاً جديدة لتفسير القرآن في تاريخ الأمة ومن أهمها وأكبرها فلسفته لنظم القرآن..... ونجد كثيرًا من الناس يدعون بخدمة القرآن ولكن الفراهي يمتاز من هؤلاء جميعًا بدقة بصره وعمق فكره وسعة نظره وعلمه وفضله وتبحره الأدبي وورعه وطهارته".²

ويقول الشيخ الدرايا آبادي في موضع آخر عن ولوع العلامة الفراهي باللغة العربية وأدائها:

"وبسبب كثرة مطالعة الآداب العربية وخاصة الأدب الجاهلي أنست طبيعته من هذا اللغة إلى حد أنه كان يكتب بالعربية مهما كان يكتب، ولعله كان يتفكر أيضًا في العربية،... إنه كان ماهرًا في اللغة العربية وحافظًا للشعر الجاهلي وإمام لغة القرآن، وكان يخشى من الله ويتوكل عليه إلى حد قلما ترى هذه الصفات في أي شخص آخر".³

الشيخ مناظر أحسن الغيلاني:

ذكر الشيخ الكيلاني بالإسهاب عن استفادته من المفسر الفراهي وأبرز ملامح

¹ علامه حميد الدين فراهي - ايك عظيم مفسر، ص 43

² المصدر السابق، ص 47

³ ذكر فراهي، ص 794-95

تفسيره الرئيسية قائلاً:

"قد سمعت عن الشهرة التي قد نالها الفراهي في علوم القرآن وفهم معانيه، حتى وصل بي القدر إلى مدينة حيدر آباد بمحض الصدفة وقدر الله لي هذه السعادة أن استفيد من صحبته، فتفتح عليّ بعض جوانب القرآن الجديدة بفضل رفقته".¹

ويقول في موضع آخر:

"وهكذا أنتجت الهند أعمالاً جديدة قيّمة في مجال تفسير القرآن، لا نجد مثلها في سائر البلاد الإسلامية ... والإشارة هنا إلى تفسير "نظام القرآن" لحضرة الأستاذ الشيخ حميد الدين الفراهي والميزة النيرة لهذا التفسير إلى جانب ميزاته الأخرى هي أنه أثبت فيه الربط والمناسبة بين الآيات القرآنية كلها، وفي بعض الأحيان تدل هذه الروابط المتواجدة فيما بين الآيات على أن هذا الكتاب منزل من الله، لا غير".²

الشيخ عبد الحي الحسني:

ألقى الشيخ عبد الحي الحسني الضوء على حياة الفراهي وتبحره في العلوم العربية والإسلامية في كتابه الشهير "نزهة الخواطر" بالكلمات التالية:

"وهو من كبار العلماء، له خبرة تامة بالعلوم الأدبية، وقدرة كاملة في الإنشاء والترسل وتودّد إلى معارفه واصحابه مع جودة فهم ووفور ذكاء وزهد وعفة وشهامة نفس وانجماع، لا سيما عن بني الدنيا وعدم اشتغال بما لا يعنيه، راسخ في العلوم العربية والبلاغة، متعمق فيها، متضلع من أشعار الجاهليين وأساليب بيانهم، واسع الاطلاع على الصحف السابقة، حسن النظر في كتب اليهود والنصارى، عاكف على التدبر في القرآن والغوص في معانيه وأساليبه، يعتقد أن

¹ مشاهير أهل علم كي محسن كتابين للأستاذ محمد عمران خان الندوي، دار المصنفين، أعظم كره، 1946م، ص 50

² هندوستان مين مسلمانون كا نظام تعليم وتربيت للشيخ مناظر أحسن الغيلاني ندوة المصنفين، دلهي، 1944م، 279-80/2

القرآن مرتب البيان ومنسق النظام ويذهب إلى ربط الآيات بعضها ببعض، وقد بنى على ذلك تفسيره "نظام القرآن".¹

الدكتور عبد الحق المعروف بـ"بابائ أردو":

يقول الشيخ عبد الحق عن شغف الفراهي بالقرآن وتعمقه في علومه:

"لم يكن الفراهي عاشقًا للقرآن وشغوفًا به فحسب بل كان يفهم نكاته ومعانيه بعمق، لعله لم يفهمها أحد غيره كذلك، لأنه كان يملك قدرة كاملة على اللغة العربية وآدابها. وفي أواخر حياته ركز جل عنايته على إيضاح الربط في الآيات والنظام في القرآن، إنه تدبر في كل جانب من جوانب القرآن ولم تبق أية جهة من جهاته من نظره، وقام بتحقيق مفردات القرآن ونحوه وأساليبه وحكمه تحقيقًا رائعًا".²

الشيخ مسعود عالم الندوي:

اعترف الشيخ الندوي بنبوغه في الأدب العربي وتخصصه في تفسير القرآن فيقول: "كان للشيخ الفراهي رحمه الله أسلوب خاص في تفسير القرآن مما لا يخفى على أهل العلم، إنه كان يتدبر في القرآن متحررًا من الروايات التفسيرية والإسرائيليات ويؤكد على ربط الآيات ونظم القرآن بوجه خاص، وكان يعتقد بأنه لا يمكن أن يكون كلام الله خاليًا عن النظم والترتيب ويعتمد في تحقيق المفردات وتأويل الآيات على القرآن نفسه وبعد ذلك على الأدب العربي وخاصة على الأدب الجاهلي، فنحن نتحير على دقة فهمه وسعة نظره في الأدب الجاهلي ونستطيع أن ندعي بكل إيقان بأنه قلما يمكن أن يكون أي شعر جيد في العربية ولم يكن في ذاكرته ونظره".³

¹ نزهة الخواطر للسيد عبدالحق الحسني، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، 1970م، 249/8

² ذكر فراهي، ص 795

³ المصدر السابق، ص 797

السيد غلام أحمد برويز:

وفي الأخير ندرج شهادة العالم القادياني السيد غلام أحمد برويز التي تدل كل كلمة منها على شغف الفراهي بالقرآن الكريم وخشيته من الله عز وجل، وفي نفس الوقت إنها تنم عن مدى تأثره بالفراهي وتبحره العلمي وكان شديد التشوف إلى زيارته، يا حبذا لو كان موفقًا للالتقاء به والارتواء من هذا المنهل الصافي العذب، فهو يعبر عن انطباعاته تجاه شخصية الفراهي قائلاً:

"سأستشعر بالقلق البالغ طول عمري على أنني لماذا حرمت نفسي عن زيارة حضرة الشيخ الفراهي وحينما أعرف من تفسيره عن ولوعه بالقرآن وخشيته من الله تعالى، ثم أسمع عن حياته العملية الطيبة إلى جانب تبحره في العلوم الإسلامية، فتيقنوا أنني أتحسّر كثيرًا على هذا الحرمان وأحزن عليه حزنًا بالغًا، لأن مجرد رؤية مثل هذه الشخصية يصبح لي مدعاة لآلاف من السعادة".¹

الفراهي عند العلماء والفضلاء العرب

ومن الأهمية بالمكان أن نعترف بأنه لم يتم تعريف شخصية العلامة الفراهي إلى العالم العربي والإسلامي كما ينبغي وكذلك لم يتم نشر أفكاره الغالية ونظرياته السامية بجانب أعماله اللغوية والأدبية المبتكرة إلى البلدان العربية فلم يذهب صدى كتاباته ومؤلفاته إلى خارج حدود البلاد إلا قليلًا، والسبب وراء ذلك، كما يقول الشيخ أبو الحسن علي الندوي رحمه الله، هو قصور المتوارثين لهذه الثروة العلمية وكسالة المنتسبين إلى المدرسة الفراهية، وتبقى هذه المسؤولية على عواتقهم حتى الآن، ولا يوجد أي نقص في مؤلفات الفراهي، لا في قدرة بيانه ولا في آرائه وأفكاره.² على أية حال، كل من وصلت إليه مؤلفاته وأجزاء تفسيره في العالم العربي نوه بأعماله وخدماته في مجال علوم القرآن واعترف بعلمه وفضله وبحوثه

¹ مجلة الإصلاح، 64/2/2

² علامة حميد الدين فراهي - حيات وأفكار، ص22

الرائعة في اللغة والأدب والبلاغة.

وبالرغم من أنه نشأ وترعرع في ربوع الهند وكانت طينته عجينة بالعناصر الهندية ولكنه فاق كثيرًا من المولودين في بلاد اللغة العربية بفضل نبوغه في اللغة والأدب العربي واختار لكتابته أسلوبًا لا يحط من أسلوبهم بأيّ مقياس من المقاييس، حتى اعترف العرب أنفسهم بإحرازه قصب السبق في هذا المجال وكان يساورهم الإعجاب لدى الاستماع إلى كلامه أو قراءة كتابه، وفيما يلي نقدٌ بعض الآراء للباحثين العرب وانطباعاتهم عن الفراهي وأثاره العلمية والأدبية.

الشيخ العلامة رشيد رضا المصري:

ومن الجدير بالذكر أن علاقة طيبة كانت قائمة بين الفراهي والعلامة رشيد رضا المصري فذات مرة أرسل إليه الفراهي بعض الأجزاء من تفسيره، وكتب العلامة تقريرًا جيدًا على هذه الأجزاء في مجلته "المنار" وفي هذا التقرير يقول:

"أهدانا المعلم عبد الحميد الفراهي (من العلماء في الهند) بضع رسائل في تفسير سور متفرقة من القرآن العزيز،... وقد ألقينا على بعض هذه الرسائل لمحة من النظر فإذا طريق جديد في أسلوب جديد من التفسير، يشترك مع طريقنا في القصد إلى المعاني من حيث هي هداية إلهية، دون المباحث الفنية العربية،... وأن للمؤلف لفهمًا ثاقبًا في القرآن وأن له فيه مذاهب في البيان وطرائق في الاستطراد ومنها القريب والبعيد. وأنه لكثير الرجوع باللغة إلى مواردها والصدور عنها ريان من شواهداها. فقد كتب في تفسير كلمة (صغت) من قوله تعالى "إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما" أكثر من صفحة، على أنه قد صَنَّفَ كتابًا في مفردات القرآن كما فعل الراغب الأصفهاني. وإن أدري أفسر القرآن كله على هذا النمط أم هو يشغل بذلك الآن،... وقد رأيت فيما قرأت ذكر كتب أخرى له في القرآن والدين كالمفردات وتاريخ القرآن والأمثال الإلهية وأصول الشرائع، فعسى يتفضل بإخبارنا عنها، أهي تامة أم لا، أ طبع منها شيء أم لا".¹

¹ ذكر فراهي، ص 84-783

الدكتور شكري فيصل:

وقد قام الدكتور شكري فيصل باستعراض كتاب "دلائل النظام" للعلامة الفراهي وفي هذا الاستعراض أبدى رأيه عن علم المؤلف وفضله ومكانته قائلاً:

"العالم المعلم الجليل عبد الحميد الفراهي رحمه الله من أبرز وجوه الحركة العلمية والإصلاحية في شبه القارة الهندية، علم من أعلام المسلمين هناك. والذين لا يعرفون معرفة دقيقة في شرقنا العربي الإسلامي يعرفون على الأقل كتابه المشهور "إمعان في أقسام القرآن" الذي ألقى فيه أضواء جديدة حقاً على ظاهرة القسم في القرآن الكريم".

والآن ننقل بعض الجمل والفقرات من هذا الاستعراض للدكتور فيصل فيقول:

"وكذلك نرى أن الفراهي أراد أن يجاوز في موضوع النظام في القرآن كل ما كان قبله في هذا الاتجاه، ... لقد قطع عليه الموت ما كان يريد أن يصل إليه أو ما كان يريد أن يوضحه ... وعندني كذلك أن الكتاب، في هذا، كتاب إثارة... أنه قادر على أن يلفت القارئ وأن يستوقفه ... بل هو قادر على أن يوحى إليه وأن يلهمه... أنه يطرح عليه كثيراً من الملاحظ والآراء منها ما هو مثير ومنها ما هو منير، ومنها على تجديد النظر أو تحديده أو الدلالة على زاوية من زواياه... الشيء المؤكد الذي يبقى في قلب القارئ وفي عقله أن ينتهي عن مطالعة الكتاب إنما هو إيمان الفراهي بما كان يدعو إليه.... فما من شك في اقتناعه به وما من شك في دفاعه عنه وما من شك كذلك في أنه نوع الطرق في إيضاحه وفرع الأساليب في اللغة والإقناع به".¹

العلامة تقي الدين الهلالي المراكشي:

كان الشيخ الهلالي رحمه الله عالماً بارزاً وأديباً بارعاً، ووصفه الشيخ مسعود عالم الندوي بإمام اللغة والأدب.² ويكفي شهادة على براعته في علوم اللغة بأنه يكون

¹ المصدر السابق، ص 786-787

² ديار عرب مين جند ماه للشيخ مسعود عالم الندوي، ص 42

العدد الخاص مجلة الهند

حكماً في حين يختلف العلامة رشيد رضا والأمير شكيب أرسلان في مسائل النحو واللغة.¹ والمعلوم أن الشيخ الهلالي كان يتمتع بأواصر الصداقة والمودة مع الفراهي وكان ينظر إليه بعين التقدير والاحترام، وله كتابات رائعة وآراء قيمة عن شخصية الفراهي وأعماله العلمية والأدبية وشهادات صريحة على نبوغ الفراهي وقدرته على اللغة العربية وآدابها، فنقدّم فيما يلي فقرتين من كتاباته المتعلقة بالفراهي فيقول:

"فسأذكر هنا ما أعرفه من سيرة العالم الكبير الأديب الشهير الأستاذ الشيخ عبد الحميد الفراهي رحمه الله عليه،... لقيته سنة 1342 هـ وضيّفتني وأكرمني ودعاني إلى التدريس في مدرسته فسألته أن يمهلني حتى أتم جولتي في ربوع الهند، ولم يقدر لي لقاءه بعد ذلك، وأهدى إليّ تفسير سور من المفصل كتبها بطريقته الخاصة وهي مراعاة المناسبة بين كل جملة وجملة حتى تكون السورة كلها متناسبة في المعنى. وهذا قد كلفه تفكيراً طويلاً يحتاج إلى زمان طويل ولكن همته العالية تستسهل الصعاب في بلوغ الأرب، ولم أر في بلاد الهند من بومباي إلى كلكتا مثله في علوم الأدب العربي فرحمه الله رحمة واسعة".²

ويقول الشيخ في موضع آخر:

"وللشيخ المذكور (حميد الدين) ديوان شعر سمعته منه، بليغ مؤثر في استنهاض همم المسلمين وبثّ الحياة في قلوبهم وذكر عداء الأفرنج لهم وذكر حرب طرابلس والحرب الكبرى. والرجل فصيح في التكلم لغاية، نادر في علماء العرب فضلاً عن علماء الهند،... وقد أسّس مدرسة سمّاها مدرسة الإصلاح، لا يدرس فيها إلا القرآن الذي هو ضالته المنشودة وسمعت منه خطبة تفسيره للقرآن اغرورقت منها عينايا لفصاحتها وحقيقتها، وهو عارف بمسألة الخلافة محقق لها، لا يلتبس عليه شيء من أمرها خلافاً لأهل الهند، مجتهد في العقائد والعمليات... أسمر اللون، حسن الملامح، طويل القامة، لحيته مستديرة، بيضاء ناصعة. ماهر في الإنكليزية والعربية

¹ كاروان زندكي، للسيد أبي الحسن علي الندوي، ص 115-116

² ذكر فراهي، ص 787

والأردية... وبالجمله فهو أعلم من لقيته قبل هذا الحين وهو 17 رمضان 1342هـ¹.

الأستاذ الدكتور أحمد حسن فرحات:

وفي الأخير ننقل بياناً للدكتور أحمد حسن فرحات عبّر فيه الدكتور المذكور عن انطباعه تجاه شخصية الفراهي وهو أحسن تقدير لقريحته العلمية وموهبته اللغوية والأدبية من قلم أي أبناء الضاد. وجاء هذا البيان ردّاً على رسالة الدكتور محمد أجمل الإصلاحي فكلمات هذا البيان كما يلي:

"أخي الكريم، لقد كانت فرحتي كبيرة برسالتك الأدبية الرشيقة وأسلوبك الشيق الممتع وبيانك العربي الخالص. وليس هذا بمستغرب على تلامذة الإمام الفراهي رحمه الله، الذي استطاع أن يغوص بحر العربية ويستخرج لؤلؤها ومرجانها، وأن يتذوق بيانها وآدابها وأن يتعمق في درك أسرار شعرها ونثرها، بل أنه ذهب أبعد من ذلك بكثير، فلقد استطاع أن يستدرك على أئمة اللغة ونقادها بما حباه الله من عقل نافذ وتأمّل عميق وصبر طويل على البحث ودأب متواصل على المطالعة والدرس وساعده على ذلك كله إحاطته بثقافة الشرق والغرب ومعرفته بعدد من اللغات السامية والأوربية مما أتاح له أن يأخذ العلوم من مصادرها وأن ينهل المعرفة من ينابيعها بلا واسطة تعكر صفوها. فكان أقدر من غيره على التحقيق، واستطاع أن يصل إلى ما لم يصل إليه غيره، فجزاه الله خيراً عن المسلمين"².

فهذه بعض الآراء والانطباعات التي أدلى بها كبار العلماء الهنود والعرب عن شخصية الفراهي وإنجازته في العلوم العربية والإسلامية، وإن دلّت هذه كلها على شيء فإنها تدلّ على أصالة آثار الفراهي العلمية والأدبية وبراعته في اللغة والبلاغة وانقطاعه إلى العبادة والمطالعة وتقدمه في العلم والفضل وإجادته في التصنيف والتأليف وتوجهه على ما يهم الأمة الإسلامية.

¹ المصدر السابق، ص 33-34

² المصدر السابق، ص 788

المصادر والمراجع

1. إمعان في أقسام القرآن للإمام عبد الحميد الفراهي، دار القلم، دمشق، 1415هـ.
2. ذكر فراهي للدكتور شرف الدين الإصلاحي، الدائرة الحميدية، أعظم كره، 2001م.
3. علامة حميد الدين الفراهي إيك عظيم مفسر للأستاذ محمد عنایت الله السبحاني، مكتبة الإصلاح، أعظم كره، 1978م.
4. علامة حميد الدين فراهي حياة وأفكار (مجموعة مقالات)، الدائرة الحميدية، 1992م.
5. مختصر حیات حمید للأستاذ عبد الرحمن ناصر الإصلاحي، الدائرة الحميدية، 1973م.
6. مشاهير أهل علم كي محسن كتابين للأستاذ محمد عمران خان الندوي، دار المصنفين، أعظم كره، 1946م.
7. معاصر ين للشيخ عبد الماجد الدراآبادي إداره إنشاء ماجدي، كلكتا، 1979م.
8. مقالات شبلي للعلامة شبلي النعماني، دار المصنفين، أعظم كره، 1964م.
9. نزهة الخواطر للسيد عبدالحی الحسني، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، 1970م.
10. هندوستان مين مسلمانون كا نظام تعليم وتربيت للشيخ مناظر أحسن الغيلاني ندوة المصنفين، دلهي، 1944م.
11. ياد رفتكان للعلامة سيد سليمان الندوي، دار المصنفين، أعظم كره، 1976م.
12. مجلة "الإصلاح" الصادرة عن الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، الهند.

ملامح التجديد في تفسير القرآن الكريم

(عند عبد الحميد الفراهي)

- د . محمد إقبال أحمد فرحات¹

إن الحمد لله؛ نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله، فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا] [الأحزاب: 70-71]

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد فإن إقامة مؤتمر عالمي عن الإمام عبد الحميد الفراهي، أمر يستحق الإشادة والتقدير؛ لأهمية مثل هذا العالم في عصرنا الذي تجرأ فيه الكثير من أدعياء العلم على العربية والقرآن وصاروا يفسرون القرآن دون الرجوع إلى الطرائق والأصول التي مشى عليها العلماء الفحول من علماء الإسلام الذين وضعوا مناهج لتفسير القرآن الكريم إما بالنص عليها وتوضيحها في مقدمة تفاسيرهم أو يعرفها من اشتغل

¹ أستاذ مشارك، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر.

بالتفسير وطالع تفاسيرهم.

ومن العلماء الأقطاب الذين كان لهم منهجاً مميزاً في تفسير القرآن الكريم العلامة عبد الحميد الفراهي الهندي (1280-1349هـ) الذي أنفق عمره كله في فهم معاني القرآن، وأماط اللثام عن الترابط المعنوي بين آيات القرآن وسوره "نظام القرآن" ولكن لم يسعفه الزمن ليكمل المشوار الذي بدأه.

لقد شعر الفراهي بحزن شديد عندما رأى المفسرين يفسرون القرآن حسب منازعهم ومتطلبات عصرهم ومجتمعاتهم، ويبينون معاني عديدة لآية واحدة وليس الأمر كذلك، فلا بد أن يكون للآية معنى واحد قطعي، ووجد أن الطريق الوحيد للوصول إلى المعنى الواحد القطعي هو ملاحظة واكتشاف الترابط الفكري في القرآن.

وقد أفصح الفراهي في مقدمة "تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" عن الباعث الذي دفعه إلى تفسير القرآن، هو أنه تصفح كتب التفسير وسبرها سبراً بعد عصر الصحابة والتابعين، فوجدها كسراب بقيعة، فلم يجد من حمل من حكمة القرآن ومعجز بيانه إلا النزر القليل، ووجد أن أغلب التفاسير غلب عليها العناية بتفاسير الصحابة والتابعين لبعض الكلمات، وشحن العلماء التفاسير بالإسرائيليات وسفاف الأمور، فصارت حجاباً دون تدبر القرآن.

وفريق من المفسرين اعتمد على الرأي وخاصة أقوال الفلاسفة والمناطق الذين جعلوا القرآن عضيبي.

وكان بداية أمره مع التفسير أنه بينما كان يتفكر بالآيات إذ لاح له "النظام" فأنكشف له من كنوز القرآن ما لم ينكشف لأحد قبله ممن اشتغل بتفسير كتاب الله تعالى.¹

وشرع الفراهي في وقت مبكر بوضع خطة محكمة لتوحيد وضبط الفهم والتفسير والتأويل وهذا المشروع هو خلاصة مطالعته، وعصارة أفكاره، وصبها في اثني عشر كتاباً وستناول منهج الفراهي على شكل مطالب على النحو التالي:

المطلب الأول: نبذة موجزة عن الإمام الفراهي

المطلب الثاني: عنايته بمفردات القرآن.

المطلب الثالث: اهتمامه بأساليب القرآن.

المطلب الرابع: نظراته بشأن أسباب النزول.

المطلب الخامس: اهتمامه بأصول التأويل.

المطلب السادس: موقفه من تفسير القرآن بالمأثور.

المطلب السابع: ولعه بالنظام.

الخاتمة: تلخيص البحث وبيان أهم النتائج.

المطلب الأول: نبذة موجزة عن الإمام الفراهي

أولاً: اسمه ومولده ونشأته:

هو الإمام العلامة عبد الحميد الفراهي، الذي ملأ علوم القرآن والتفسير بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهز الألباب القوارح عن غرائب نكت يلفظ مسلكها، ومستودعات أسرار يدق مسلكها. ولد سنة 1280هـ، في قرية فريها- قرية من قرى الهند- وتوفي في التاسع عشر من جمادى الآخرة سنة 1349هـ. برز على الأقران في التفسير وعلوم القرآن، وتعب في التنقيح عنهما أزمنة، كثير المطالعات لكتب اليهود والنصارى، طویل المراجعات للشعر الجاهلي، فارساً في دقائق المفردات العربية، مقدماً في العلوم العقلية والنقلية، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعلاً القريحة وقادها، يقظان، وكانت له لفتات بارعة في الأدب العربي القديم، علك اللغات العبرانية والفارسية والإنكليزية والعربية بقوة لحييه، وله اطلاع واسع وإلمام باللغة العبرانية القديمة، واستطاع من خلال حصيلته اللغوية أن ينفذ إلى أعماق التوراة والإنجيل، ويميط اللثام عن التحريفات والتصحيفات، التي طرأت على الكتب المقدسة القديمة.

وتوفي في عام 1349هـ في مدينة (مثورا) في الهند ودفن بها.

ثانيًا: من آثاره المطبوعة:

1. أسباق النحو : وهو كتاب في اللغة الأردية. نشر سنة 1135 هـ.
2. أساليب القرآن : نشرته الدائرة الحميدية سنة 1389 هـ.
3. أمثال آصف الحكيم: مجموعة حكايات آصف، نقلها الفراهي من الإنجليزية إلى العربية في زمن طلبه. ونشر الكتاب بعد وفاته، وصدرت منه عدة طبعات، وهو مقرر في بعض مدارس الهند الدينية.
4. إمعان في أقسام القرآن: صدرت طبعة منه باعتناء الدكتور محمد أجمل أيوب.
5. تحفة الإعراب: طبعت في حياة المؤلف وصدرت منها عدة طبعات.
6. ترجمه فارسي باره از طبقات ابن سعد: ترجمة جزء من طبقات ابن سعد بالفارسية.
7. ترجمه فارسي رساله بدء الإسلام: من تأليف العلامة شبلي النعماني بالعربية. طبعت بمطبعة مفيد عام بمدينة آغره سنة 1891 م.
8. التكميل في أصول التأويل: رسالة قيمة في أصول التفسير لم يقدر للمؤلف إكمالها، نشرتها الدائرة الحميدية، سنة 1388 هـ.
9. جمهرة البلاغة: اسم الكتاب تاريخي يشير إلى سنة 1322 هـ نشرته الدائرة الحميدية بعد وفاة المؤلف سنة 1360 هـ.
10. خرد نامه: ترجمة منظومة لأمثال سليمان عليه السلام بالفارسية الدرّية، نشره المؤلف في حيدر آباد سنة 1916 م.
11. دلائل النظام: ألّف هذا الكتاب لإقامة الحجة على وجود النظام (أي الوحدة الموضوعية) في كل سورة من سور القرآن الكريم، وبيان الطرق التي تهدي إلى نظام السورة، نشرته الدائرة الحميدية سنة 1388 هـ.
12. ديوانه العربي: نشره الشيخ بدر الدين الإصلاحي من الدائرة الحميدية سنة 1387 هـ.
13. الرأي الصحيح في من هو الذبيح : صدر باعتناء الدكتور محمد أجمل أيوب.
14. رسالة في عقيدة الشفاعة والكفارة: بالإنجليزية، رد بها على بعض علماء

العدد الخاص مجلة الهند

- النصارى، وقد ذكر هذه الرسالة العلامة السيد سليمان الندوي في ترجمة الفراهي، ولم نقف عليها.
15. فاتحة نظام القرآن: مقدمة تفسيره (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان) نشرها الدائرة الحميدية سنة 1357 هـ بعد وفاة المؤلف، وتقديم الكتاب بقلم العلامة السيد سليمان الندوي.
16. في ملكوت الله: قصص فيه ذكر السنن الإلهية في رقي الأمم وانحطاطها، وعلو الحق وهزيمة الباطل، وأصول النظام السياسي للإسلام. نشرته الدائرة الحميدية سنة 1391 هـ.
17. القائد إلى عيون العقائد: نشرته الدائرة الحميدية، سنة 1395 هـ.
18. مفردات القرآن: طبع أخيراً في دار الغرب الإسلامي، سنة 2002 م بتحقيق الدكتور محمد أجمل أيوب.
19. نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: وهو تفسيره الكبير، الذي صدرت منه الأجزاء التالية:
- أ. تفسير سورة الفاتحة والبسملة: نشر مع فاتحة نظام القرآن سنة 1357 هـ.
- ب. تفسير سورة الذاريات: مطبعة معارف بأعظم كره، دون تاريخ.
- ت. تفسير سورة التحريم: مطبعة فيض عام، عليكره، سنة 1326 هـ.
- ث. تفسير سورة القيامة: صدرت طبعته الأولى من مطبعة فيض عام بمدينة عليكره، دون تاريخ. والطبعة الثانية صدرت من الدائرة الحميدية سنة 1403 هـ.
- ج. تفسير سورة المرسلات: طبعة معارف، دون تاريخ.
- ح. تفسير سورة عبس: مطبعة معارف، دون تاريخ.
- خ. تفسير سورة الشمس: مطبعة فيض عام، سنة 1326 هـ.
- د. تفسير سورة التين: مطبعة معارف، دون تاريخ.
- ذ. تفسير سورة العصر: مطبعة فيض عام، سنة 1326 هـ.

- ر. تفسير سورة الفيل: مطبعة معارف، سنة 1354هـ.
ز. تفسير سورة الكوثر: مطبعة معارف، دون تاريخ.
س. تفسير سورة الكافرون: مطبعة فيض عام، سنة 1326هـ.
ش. تفسير سورة اللهب: مطبعة معارف، دون تاريخ.
ص. تفسير سورة الإخلاص: هذا الجزء وحده بالأردية، ولعل المؤلف ألفه لأحد معارفه بناء على طلبه، زمن إقامته بكراتشي. نشرته الدائرة الحميدية سنة 1378هـ.

المطلب الثاني: عنايته بمفردات القرآن

لا يخفى أن المعرفة بالألفاظ المفردة هي الخطوة الأولى في فهم الكلام وبعض الجهل بالجزء يفضي إلى زيادة جهل بالمجموع، وإنما يسلم المرء عن الخطأ إذا سد جميع أبوابه. فمن لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن أغلق عليه باب التدبر وأشكل عليه فهم الجملة، وخفي عنه نظم الآيات والسورة، ولو كان الضرر عدم الفهم لكان يسيرًا، ولكنه أكثر وأفظع. وذلك بأن المرء قلما يقف على جهله، بل يتجاوز موقفه، فيتوهم من اللفظ ضد ما أريد، فيذهب إلى خلاف الجهة المقصودة، ثم سوء فهم الكلمة ليس بأمر هين، فإنه يتجاوز إلى إساءة فهم الكلام وكل ما يدل عليه من العلوم والحكم. فإن أجزاء الكلام يبين بعضها بعضًا للزوم التوافق بينها.¹

وكتاب مفردات القرآن من أهم كتب الفراهي، وقد ظهر أخيرًا بطبعة متميزة، وخدمة راقية على يد الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي. ويحتل كتاب المفردات مكانة مرموقة بين معاجم المفردات القرآنية، وإذا كان كتاب الراغب الأصفهاني مفردات القرآن قد حاز الشهرة في هذا الفن فإن كتاب الفراهي- على قلة مفرداته، وعدم اكتمال تأليفه- قد نال مرتبة رفيعة ولا أدل على ذلك من الدراسة التي قام بها الدكتور أحمد حسن فرحات "معاجم مفردات القرآن

¹ مفردات القرآن، عبد الحميد الفراهي، تحقيق: د. محمد أجمل أيوب الندوي الإصلاحي، ص 95.

موازنات ومقترحات" وهي مقارنة بين أشهر خمسة معاجم وهي:

1. مفردات الراغب الأصفهاني (ت502هـ)
2. عمدة الحفاظ للسمين الحلبي (ت756هـ).
3. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي (ت817هـ).
4. معجم ألفاظ القرآن الكريم طبع مجمع اللغة العربية عام 1390هـ.
5. مفردات القرآن للفراهي (ت1349هـ)

وخلصت الدراسة إلى وجوب الاستفادة من منهج الفراهي في دراسة الكلمة القرآنية وإلى وجوب الاستفادة منه في معالجة الكلمات التي يشك في معناها، وذلك بالرجوع إلى الشعر الجاهلي، واللغات السامية التي تشارك العربية في جذورها الأصلية، ووصل من خلال منهجه إلى حل للكثير من المفردات المشككة، انظر على سبيل المثال المفردات التالية: (ابن الله، والرب والأب، النصارى، درس، القربان، التفت الساق بالساق، هادوا، إسرائيل، طور سنين، الزيتون، السلوى، الإنجيل)

في مقدمة كتابه القيم ثلاث مقدمات مهمة- وإن كانت غير شاملة- تتعلق بلغة القرآن، تحدث فيها عن المنهج الصحيح الذي يجب أن يتبع في الفهم الدقيق للمفردة القرآنية باعتبارها أصغر وحدة في النظم القرآني، حتى لا يقع المفسر للقرآن في الخطأ والوهم فجاءت المقدمة الأولى في مقصد الكتاب ومدى حاجتنا إليه وذكر فيها: "أن المعرفة بالألفاظ المفردة، هي الخطوة الأولى في فهم الكلام وضرب مثلاً: كلمة "الزعر" في سورة القصص تبين معنى الشهيد هناك، فسوء فهمها، صرف عن معنى غيرها.

وهكذا "الآلاء" و"الطوفان". وربما ترى أن الخطأ في معنى كلمة واحدة، يصرف عن تأويل السورة بأسرها، فيتوجه المرء إلى سَمَت¹ كلما مر فيه بعد عن الفهم، مثل لفظ "القسم وأدواته" فلو علموا معناه، تبين لهم تأويل أكثر السور التي فيها

¹ أي نحو ومذهب.

القسم، فمن لم يتبين له معنى الكلمة وحدودها، لم يتمثل له شكله، ولا اتضح مفهومه، مثلاً كلمة "موارد" في بيت طرفة:

كَأَنَّ عُلُوبَ النَّسْعِ فِي دَأْيَاتِهَا مَوَارِدُ مِنْ خُلُقَاءَ فِي ظَهْرِ قَرْزِدِ
وانظر كيف اختلفت الأئمة في معنى البيت.

وهكذا ترى الخطأ في حد كلمة واحدة، أنشأ مذهباً باطلاً، وأضل به قومًا عظيمًا، وجعل الملة الواحدة بدداً.

وكتب اللغة والغريب، لا تعطيك حدود الكلمات حدًا تامًا. وكتب السير والتفسير، لا تبين لك بالتمام والصحة أموراً جاء ذكرها في القرآن. وكتب العلوم الأخر، من العقلية والأخلاق، لا تعطيك ما تضمن عليه القرآن من الحكم والأسرار. فاحتجنا إلى ثلاثة علوم: اللغة، والتاريخ، والحكمة.

ومن أراد التأمل الصحيح، والتدبر التام، وجب عليه أن لا يغفل عن النقد فيما يأخذه من هذه العلوم كلها.

ومن يتمسك بالقرآن وينور الله عقله به، يطلع على أغلاط كثيرة في كتب القوم. والضرر يكون بقدر الاعتماد عليها والغفلة عن النقد. ومضرة كتب الفلاسفة، أضل وأوغل، فإن معظم القرآن الحكمة، وهي الأصل. ولا سبيل إلى فهمها من القرآن، دون الاطلاع على معاني كلماتها¹ المفردة. ودون العلم بصحيح علوم اللسان من البيان.

وأما المقدمة الثانية فقسّم فيها الكلمة إلى أربعة أقسام وتحت كل قسم تقسيمان فيكون المجموع ثمانية أقسام على النحو التالي: (المشكلة والمعروفة. المشتركة والمنفردة. الجامعة والخاصة. المرادفة والمبائنة).

¹ مفردات القرآن للفراهي، ص 95-99.

أما المقدمة الثالثة فقد دُلَّ فيها الفراهي على أن القرآن الكريم قد أخلص عن الوحشي والغريب كما أخلص عن التعقيد في التركيب، وذكر الأسباب التي حملت الناس على اعتقاد وجود الغريب وفندها مثل رده للروايات التي نقلت في جهل بعض علماء الصحابة ببعض الألفاظ القرآنية.

مثال من المفردات:

1. قوله تعالى: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ [القيامة: 29]: معنى "والتفت الساق بالساق" المعنى ألا يقدر المرء على المشي، ويكون هذا من شدة الضعف، فإذا مات الإنسان تبين أن قد التفت ساقاه بعد أن كان جوالاً، كما قال دريد بن الصمة:
وَإِنْ يَكُ عَبْدُ اللَّهِ خَلَّى مَكَانَهُ فَمَا كَانَ وَقَافاً وَلَا طَائِشَ أَيْدٍ
كَمِيشِ الْإِزَارِ خَارِجُ نِصْفِ سَاقِهِ صَبُورٌ عَلَى الضَّرَاءِ طَلَعُ أَنْجِدٍ
وتصوير الضعف، بالتفاف الساق أمر ظاهر، وجاء في كتب الأنبياء.

فمعنى الآية: أنه بعدما يتس منه الطبيب، وودعه القريب، وخانه أطوع أعضائه، فكيف يكون ماله وهو مسوق إلى ربه، قليل الأزر، كثير الوزر.؟!

وأما "الساق" - بمعنى شدة الأمر -: فقول من لا يعرف من علم اللسان غير اسمه، فلا يميز بين دلالة المجموع، ودلالة الأجزاء. الكشف عن الساق: إنما يدل بمجموعه على الجد والتشمير، والكشف هو الكشف والساق هي الساق.

وَوَهِمَ الرواة فيما رَوَوْا عن ابن عباس أن آخر يوم من الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة. فإنه لو صح فهو بيان الواقعة، وليس بتفسير للساق.

كشف عن ساقه: شَمَّرَ وأسرع. قال ذو الرِّمة:¹

¹ اسمه: غيلان بن عقبة أحد فحول الشعراء وعشاق العرب. مات بأصبهان سنة 117هـ من قصيدة له في ديوانه: 1250، والبيت وحده في الأساس (صعد، ذلل) نهاضي إلى صعدائه، يعني فرساً طويل العنق. في الأساس: فلان يتبع صعداءه: يرفع رأسه ولا يطأطئه كبراً. لذا ذلل القميص: ما يلي الأرض من أسافله، جمع الذلل. انظر: مفردات الفراهي، ص 234.

قَطَعْتُ بِهَاضِي إِلَى صُعْدَاتِهِ إِذَا شَمَرْتُ عَنْ سَاقِي خُمُسٍ ذَلَالُهُ

2. قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: 42] له تأويلان:

الأول: يوم يسرعون إلى الموقف، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: 43].

وأيضاً: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: 51].

وأيضاً: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ﴾ خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: 6-8].

وأيضاً: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴿[إبراهيم: 42-43].

والثاني: أن لفح السعير تأكل لحم سوقهم، فيكشف عن عظمها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا لَطَنٌ ﴿نَزَاعَةٌ لِّلشَّوَى﴾ [المعارج: 15-16]، فهذا ذكرهم قبل أن يدخلوا النار فإنها تدعوهم.

و"الشوى": لحم الساق- على الصحيح-. والتأويل الأول يؤيده كثرة نظائره، وظهور معنى "كشف الساق". والتأويل الثاني يؤيده ما في السياق، وهو قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: 42]. وبعده قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ [القلم: 43]

المطلب الثالث: اهتمامه بأساليب القرآن

لا يخفى أن الأساليب لها عناية بكل لسان لدورها في تأدية الكلام وفهم المراد منه وهي ألصق بعلم المعاني التي يبحث فيها عن تراكيب الكلام. وكتاب "أساليب القرآن" للفراحي عبارة عن إشارات متفرقة قام بجمعها الأستاذ بدر الدين

العدد الخاص مجلة الهند

الإصلاحي- مدير الدائرة الحميدية- وقدم للكتاب بمقدمة طيبة، ذكر فيها الدافع لنشره لهذا الكتاب، ثم ذكر أهمية الأساليب في اللغات، وأن الغرض من الأساليب هو الإحاطة بما يدل عليه الكلام من المعاني، وأن الكلام لا يكون إلا حاملاً لعواطف المتكلم من الرضى والسخط، والفرح والألم، والرحمة والغضب، والرجاء والحسرة، واللين والشدة، ... ولا يدل على هذه الأمور إلا تراكيب الكلام وتأليفاته بأساليبها الخاصة.

ثم ذكر بعد ذلك أن علماء "المعاني" لم يراعوا أساليب العرب، بل مالوا إلى ما مهد لهم المولدون المبعدون المتكلفون، فجعلوا مدار الفن على الصور النحوية، واستعملات الحروف الخاصة حسب المواقع، كما صرح به إمامهم عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز"، فقصرنا النظر على صورة الكلام حسب القواعد النحوية، وزعموا أن إعجاز القرآن ليس إلا من هذه الجهة.

وكان الأجدر بعلماء البيان أن يستقصوا كلام العرب، ويقتفوا آثارهم ثم ينظروا بعد ذلك في أساليب القرآن، فالقرآن كثيراً ما خالف قواعدهم النحوية، ولذلك اختلفت أساليبهم عن أساليب القرآن المعهودة في الخطاب والالتفات، والإيجاز والإطناب، والوصل والفصل، والاعتراض والحذف، والتقديم والتأخير، والفصل بين المتصلين، والاستفهام والتخليص، والتعميم والتخصيص، والمقابلة والتفصيل، والإيهام ثم الإيضاح، وتضمن القول دليله، وذكر الأثر لما يخفى، وغير ذلك من الأساليب الكثيرة الوقوع.

وإذا كان علم البلاغة والخطابة يبين مواقع العواطف فإن علم المعاني يبين الأساليب الدالة على تلك العواطف.

وإن كان عبد القاهر الجرجاني يعتبر من الذين مهّدوا سبيل هذا الفن في كتابه "دلائل الإعجاز"، واعتبر أن إعجاز القرآن ليس إلا من هذه الجهة إلا أنه كان مصيباً في تفخيم وتعظيم أمر هذا الفن، ولعدم نضوج هذا العلم عند علماء البلاغة احتاج

الأصوليون إلى تعيين دلالات بعض الكلمات والأساليب فأوردوا نبذًا من مسائل الفن في علم أصول الفقه، ولو كان فن المعاني مستقلاً برأسه لكفوا مؤنته.

موضع الكتاب في العلم: "الكتاب ليس ككتاب المفردات مختصاً بالقرآن، ولكنه متضمناً لفن برأسه، يجري حكمه في عموم أساليب كلام العرب، غير ما اختص بالقرآن لكونه منزلاً على رسول. وهذا الفن صنو اللغة، والفرق أن اللغة علم مادي خاص، وهذا علم صوري عام، وموقعه بعد النحو فإنه إتمام له، وهو بالحقيقة ما سمّوه بفن المعاني، ولكن القوم فاتهم هذا التصميم واختلط عليهم الأمر، فجعلوه جزءاً من فن البلاغة، فكان دخيلاً غير موفى له الحق، فلو وجدت فن المعاني على سداد أمره واستقصاء مسائله، كفيت هذا التجشم".

وغاية كتاب أساليب القرآن الإحاطة بدلالة الكلم ووجوه ودلالة الصور والأساليب، ومواقع استعمالها، فإن محض العلم بأسلوب خاص من دون تخصيص مواقعه، يفتح باباً عظيماً لسوء التأويل. مثلاً قالوا: إن كلمة "لا" ربما تأتي زائدة، فإهمال هذا القول أقرب إلى الضرر منه إلى النفع، فإنه يجعل النفي إثباتاً. فلا بد أن نعلم مواقع الأساليب، فنستدل على معانيها ولا نحولها عن مواضعها الخاصة.

ومن هذه الجهة اشتدت الحاجة إلى إقامة الحجة على هذه الدلالات، فإن ذلك جزء من معاني الكلام، والجاهل به كالجاهل ببعض المعاني لكلمة مشتركة، فلا يأولها إلا إلى ما علم من معانيه وربما يكون المراد غيره.

وأما جواز أساليب القرآن، فلا حاجة فيه للسند، فإن القرآن نفسه أوثق ما يستند به على أساليب كلام العرب، فإنه متواتر نقلاً ولا يساويه شيء من كلامهم حتى القصائد المشهورة، فإنها قلما نجت من شوب الانتحال.

وقسم الكتاب إلى أساليب شارك فيها القرآن أساليب العرب، وهذا النوع لا يستقصيه وإنما يذكر ما يجب ذكره مما تركه الناس أو أخطأوا فيه، والعلم به نافع في فهم القرآن.

ومنه ما هو مختص بالقرآن من حيث أنه كلام جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه وإلى الناس، وفهمه مبني على صحة الفطرة، فهو بين عند المتقين ومستور على الكافرين. وهذا الذي لم يطلع عليه في كتب القوم، والحاجة إلى العلم به شديدة، والأصل في هذا الباب:- معرفة صفات الله- ومعرفة صفات النبي صلى الله عليه وسلم- ونسبة النبي إلى ربه وأمته- ومعرفة تدبيره في الخطاب ودعوة الناس. ودليله في هذا النوع: العقل الصريح، ونظم القرآن، والصحف الأولى

ثم تحدث الفراهي على اختلاف الأساليب وذكر أنه كما أن الكلمة لها معنى حقيقي وضعت له، ومعنى مجازي ربما يكثر، فكذلك الأساليب منها حقيقي، ومنها مجازي تكثر الدلالات به، فلا بد لكلام جم الدلالة من استعمال الأساليب المختلفة.

مثلاً قوله تعالى ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 98]

دل على أن عداوة الملائكة من عداوة الله، وعلى أن عداوة الملائكة كفر، وعلى أن جبريل وميكال من الملائكة والرسل، وعلى أن جبريل وميكال من كبار الملائكة والرسل، وعلى أن الرسل من نوع الملائكة، وعلى أن اليهود كانوا أعداء لجبريل وميكال، وعلى أنهم عدو لله. وكل ذلك مفهوم من نظم الكلام.

ثم ذكر من أساليب القرآن: القران والوصل، ومن تنوع الخطاب الالتفات، الحذف، العود على البدء، التفصيل بعد الإجمال، الاقتصار على بعض الشيء، وذكر الأثر لما يخفى، وجوه الوصل والفصل، اختلاف الأساليب في العطف وغيره، الاعتراض، استعمال أسلوب عوض أسلوب، الزيادة، الاستفهام، الشرط، الفصل بين المتصلين، استعمال الحال، الإثبات، النفي، التكرار، البدل، الوصف، التنكير والتعريف، العطف بالواو، الترديد، التقديم والتأخير، التخليص، التعميم والتخصيص، اختلاف الصلة والفعل، المقابلة والتفصيل، اختلاف الوضاحة على التقابل، الإيهام ثم الإيضاح، وتضمن القول دليله وذكر الأثر لما لا يخفى، وغير ذلك من الأساليب.

والكتاب مستنبط من أساليب كلام العرب الخلف القرآن وفائدته بأنه الموصل لتذوق جمال الإعجاز البياني.¹

المطلب الرابع: نظراته بشأن أسباب النزول

يرى الفراهي أن ليس شأن النزول كما قيل تسامحاً سبباً لنزول آية أو سورة بل هو شأن الناس وأمرهم الذي كان محلاً للكلام، فما من سورة إلا ولها أمر أو أمور جعلتها نصب العين وذلك تحت عمود السورة، فلك أن تلتبس شأن النزول من نفس السورة فإن الكلام لا بد أن يكون مطابقاً لموضعه كما أن الطبيب مثلاً يتوسم من نسخة الدواء داء من كتبت له تلك النسخة، فإذا كان سوق الكلام لموضوع تناسب هذا الكلام والموضوع كتناسب اللباس والجسم بل كتناسب الجلود والأبدان والكلام له مناسبة بين أجزائه بعضها ببعض، وما جاء في الآثار أن كذا وكذا من الآيات نزلت في كذا وكذا من الأمور فمعناه أن كذا وكذا من الأمور كان موجوداً حين نزول السورة لكي يعلم أن الآيات كان لها دواعي ومواقع. قال السيوطي قال الزركشي في البرهان: قد عرفت من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب في نزولها فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل لما وقع. قلت: والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه "انتهى قول السيوطي وبهذا ينحل ما أشكل على الإمام الرازي في سورة الأنعام في تفسير آية "وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا" حيث قال: ولي ها هنا إشكال وهو أن الناس اتفقوا على أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يقال في كل واحدة من آيات السورة أن سبب نزولها هو الأمر الفلاني بعينه فإن الأمر عندي كما علمت أن الله تعالى حين أنزل سورة ما كان إلا ليبين الأمور التي اقتضت التبيان بكلام لم يلتبس نظامه كما يفعل الخطيب الحكيم فإنه ينزل كلامه ويسوقه على حسب دواعي خاصته بين يديه

¹ انظر: أساليب القرآن، العلامة عبد الحميد الفراهي، 145-206.

فكثيراً ما لا يذكر أمراً خاصاً ولكن يجري كلامه إلى ما يحوي أمثاله من الصور والحالات وقليلاً ما يسمي أمراً خاصاً أو شخصاً خاصاً فيأتي بكلام على سابع كغيث مطبق وكان نزول القرآن هكذا كما قال الله تعالى "وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم" فكان القرآن يأتي بجوابهم حين نزوله جاريًا على على رسله ومنهجه، فإذا بلغت سورة حد الكلام وقضت شأنها وأوفت لدواعي الكلام ببيانها سكنت وألقت جرائها فما جاوزت ولا قصرت ولكن ربما كانت الحاجة باقية فأنزل الله سورة أخرى ولكن بدل الأسلوب الأول لكي لا يملوا وشأن النزول لم يتبدل ولذلك ترى في أول النبوة سورًا كثيرة في ذكر البعث والتوحيد وتصديق الرسول وما يلتئم بها ولكن بتبديل الأسلوب وتصريف القول، وكذلك ربما وقعت حاجة لتوضيح أمر فنزل بعض الكلام ووضع حيث كانت حاجته إنجازًا لما وعد ثم قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: 19] فلم يراع زمان النزول بل نظام القول.

ثم ربما نبه أن هذا بيان بعض الآيات فإنك ترى بعد أكثر آيات ألحقت بأخواتها للبيان مثل قوله تعالى: "كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون" كما مرّ في الديباجة فإن أردت الحق الصريح واليقين المريح فلا يبعدك طلب شأن النزول عن أصل نظم القرآن فيهم عليك الأمر ويغادرك في متفرق السبل لا تدري أيهما تسلك بل تجسس شأن النزول من القرآن ثم خذ من الأحاديث ما يؤيد القرآن لا ما يبدد نظامه، ثم العبرة بشأن النزول الذي تبين من النظم أول أمر تراعيه فإن الحكم العام الذي نزل في أمر وحالة خاصة جعل لهذه الحالة شأنًا يهدي إلى حكمة الحكم ووجهته كما ترى في تعدد الأزواج ووحدتها فالأول للقسط باليتامى والآخر للقسط بالزوج فالقسط بالضعفاء هو المطلوب والفضيلة للحق السابق وكذلك ترى في أمر الرهن فإن رهن مال المسلم أمر وفي للضرورة وأمر برده عند عدم الضرورة وبسط الكلام تحت آية 283 من البقرة.¹

¹ انظر: فاتحة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 8-10.

المطلب الخامس: اهتمامه بأصول التأويل

لقد اهتم الفراهي بالدلائل المأخوذة من القرآن وصرح العقل للبحث في ما يتعلق بفهم معنى الكلام وتأويله، وذلك من خلال تقعيد أصول يستنبط منها المسائل، ومن هنا جاء كتاب "التكميل في أصول التأويل" للفراهي. وهذا الكتاب كما قال جامعه أفرد مؤلفه لذكر أصول راسخة لتأويل القرآن إلى صحيح معناه، فموضوعه: الكلمة والكلام من حيث دلالته على المعنى المراد. وغايته فهم الكلام وتأويله إلى المعنى المراد المخصوص، بحيث ينجلى عنه الاحتمالات، هذا من جهة العموم، فإن قواعد التأويل تجري في كل كلام، ونفعها عام يتعلق بفهم معنى الكلام من أي لسان كان، ولكن النفع الأعظم منه فهم كتاب الله ومعرفة محاسنه للاعتصام به.

وكان باعته على تأليفه أنه لما رأى أن العلماء قد اختلفوا في فهم معنى القرآن اختلافاً كثيراً وذهبوا في تأويله مذاهب شتى، حتى جعلوه كتاباً مشتملاً، ملتبساً، لاح له إن لم يكن ذلك إلا لعدم تأسيس أصول التأويل العامة التي يعتمد عليها في كل ما يستنبط من القرآن. ولو كانت عندهم أصول عامة للتأويل لم يختلفوا فيه ولم يقولوا ما قالوا.

فأحس بشدة الحاجة إلى تأسيس هذا الفن، واجتهد فيه وبتوقيفه تعالى أسسه على أصول راسخة، بنيت على قواعد اللسان وأساليب القرآن، تهدي إلى سواء السبيل، وتعين على فهم المعنى المراد وتعصم من الزيغ في التأويل وتحفظ عن التفسير بالرأي، وتكون كالمعيار والميزان لكل ما يؤخذ من القرآن.

ثم تابع بأن طرقاً من علم التأويل كان مستعملاً في فروع الشرائع كعلم جزئي، ولكن لم يستعملوه في فهم معاني القرآن كميزان يرجع إليه ويعتمد عليه.

وختم الجامع مقدمته بأن الأصول التي استنبطها الفراهي قد سدت أبواب الاختلافات في فهمه ونفت الاحتمالات عن تأويله وتبينت أن القرآن قطعي في دلالته وليس لعبارة إلا مدلول واحد.

ولكن الأسف أن الفراهي لم يتيسر له أن يتم هذا الفن ويكفيه فخراً أنه أول من وضع هذا العلم على الطريق الصحيح.

ثم تحدث عن أصول التأويل وأولى بأن يجعل فناً مستقلاً ويوضع في علم التفسير، وأن السبب في عدم استقلالية هذا الفن هو جعله جزءاً لأصول الفقه، ولكونه مستعملاً للفروع، لم يعط من التيقظ والاحتياط ما يعطى لفن مستقل. ولو جعل هذا الفن من علم التفسير لعظم محله في الدين، وذكر الفراهي أن غاية هذا العلم هو المنع عن التفسير بالرأي، وعقد بحثاً للحديث عن غاية الكتاب وأنها معرفة الأصول، وقسم الأصول إلى قسمين:

القسم الأول: ما يعصم عن الزيغ في التأويل. والثاني: ما يهدي إلى الحكم التي يتضمنها كتاب الله. والأمر الجامع لهذين هو التفكير في نظم القرآن.

فالنظم هو الحبل المتين الذي يعصم من يعتصم به عن الزيغ وهو السراج المنير الذي يدل على الحكم فإن الآيات إنما تنتظم بما تتضمن من الحكمة فإنها هي الجامعة. ثم تحدث بعد ذلك عن التأويل والفرق بينه وبين التحريف والتفصيل، والمتشابه وتأويله، ثم الأصول التي تهدي إلى معنى واحد، ثم ختم بطريق الفهم للمعنى المراد.

الأصول الخيرية للتفسير عند الفراهي نوعان:

أولاً: ما هو أصل وإمام وهو القرآن:

يعتبر الفراهي أن أصول التأويل ثلاثة:

1. أصول أولية: وهو ما يتمسك به حيث لا احتمال لمعان شتى.
 2. أصول مرجحة: وهي احتمال الكلام معاني مختلفة؛ فإذا أعملنا الأصول المرجحة أخذنا ما هو الراجح وتركنا المرجوح.
 3. وأصول كاذبة: اعتمدوا عليها وليس بشيء وإنما تذكر ليتم اجتنابها.
- ويعتبر الفراهي أن الأصول الأولية تقوم على أربعة أصول:

الأصل الأول: التمسك بنظم الكلام وسياقه، وهذه هي النظرية التي يقررها الفراهي والتي من أجلها أُلّف تفسيره نظام القرآن في تأويل الفرقان بالفرقان.

ووضع الفراهي كتاب "دلائل النظام" ليدلل على أن للنظام حظاً وافراً في كل كتاب ولاسيما في الكتاب البليغ. وذكر في كتابه أن القرآن الكريم كلام منظم ومرتب من أوله إلى آخره على غاية حسن النظم والترتيب، وليس فيه شيء من الاقتضاب لا في آياته ولا في سوره، بل آياته مرتبة في كل سورة كالفصوص في الخواتم، وسوره منتظمة في سلك واحد كالدرر في القلائد، فلو قدم ما آخر، أو آخر ما قدم لبطل النظام وفسدت بلاغة الكلام بل ربما يعود إلى قريب من الهذيان.

ويعتبر الفراهي أن الوسيلة الموصلة لمعرفة النظام هي:

التدبر في القرآن، لأن الله- تعالى- قد جعله محلاً للتدبر والتفكير كما قال تعالى:

﴿كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبَرَكًا لِّتَذَبَّرَ وَأَنْتَ عَلَيهِمْ وَلِيْتَ دَعْوَاهُمْ وَلِيْتَ دَعْوَاهُمْ﴾ [ص: 29].

وكما قال في موضع آخر: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24].

فمن نظر في مطالب الآيات على جدتها، ولم يتأمل في مناسبة أجزاء السورة، فقد عميت عليه الحكمة وحسن نظامها، لأن أكثر الحكم مخبوءة تحت دلالات النظام. ويرى الفراهي أن معاني القرآن لا تنكشف إلا للمتقين الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون.

فالتدبر مع الإيمان الصادق بالآخرة هو أول مفاتيح كنوز القرآن كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۝ وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَى أَنْ يُدَبِّرَهُمْ نُفُورًا ۝﴾ [الإسراء: 45-46]

أما الكيفية التي بها يستنبط النظام ومقصوده بالنظام "الوحدة الموضوعية"، فكل سورة لها موضوع معين يسميه الفراهي عمود السورة تدور عليه بأجزائها

المتراصة فيما بينها ترابطاً معنوياً محكماً.

ويختلف النظام عن التناسب بين الآيات والسور الذي اعتنى به بعض العلماء، كأبي جعفر بن الزبير شيخ أبي حيان في كتاب سماء البرهان في مناسبة سور القرآن، وبرهان الدين البقاعي صاحب كتاب "نظم الدرر في تناسب الآي والسور".

فالتناسب عند الفراهي هو جزء من النظام؛ لأنه يرى أنه حتى يكون النظام صحيحاً يجب أن يكون الكلام حسن الترتيب، حسن التناسب، وقوي الوجدانية. والنظام عند الفراهي ليس أمراً مقصوداً لذاته، وإنما هو المنهج الصحيح لتدبر القرآن، وهو الحكم عند تضارب الأقوال، وهو المرجح عند تعدد الاحتمالات، وهو الإقليد الذي تفتح به كنوز حكمة القرآن.

ويعتمد الفراهي في الكشف عن نظام القرآن على القرآن نفسه لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وهو أوثق تعويلاً وأحسن تأويلاً، بما يأتيك به من نظائر، فتكثر الشواهد على رباط أمر ما، وبذلك يحثك على التأمل في جامع وصلة بينهما، ثم يأتي عليه بأمثلة كثيرة بعضها أوضح من بعض، ثم يتدرج بك على ما كان أدق وأغمض.¹

الأصل الثاني: عدم الالتفات للمعنى الشاذ:

مثاله تأويل قوله تعالى في سورة التحريم: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: 4]، حيث سعى المبطلون إلى تحويل معنى "الصغو" إلى الزيف، ووضعوا لتأويلهم الباطل قراءة باطلة لم تثبت فضلاً عن أن تكون متواترة.²

¹ انظر: مقدمة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 5، وما بعدها بتصرف كبير.
² حدثنا بن حميد قال ثنا يحيى بن واضح قال ثنا محمد بن طلحة عن زبيد عن مجاهد قال كنا نرى أن قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ شيء هين حتى سمعت قراءة ابن مسعود: "إن تتوبا إلى الله فقد زاعت قلوبكما". حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي مالت قلوبكما. حدثنا بن عبد الأعلى قال ثنا بن ثور عن قتادة: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ مالت قلوبكما، حدثت عن الحسين قال: سمعت أبا معاذ يقول ثنا عبيد قال: سمعت الضحاك يقول في قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ يقول: زاعت حدثنا بن حميد قال

الأصل الثالث: فهم الكلام بعضه من بعض بالمقابلة وحمل النظر على النظر وذلك هو التأويل بالقرآن:

قال العلماء قديمًا¹ إن القرآن يفسر بعضه بعضًا، فالقرآن يذكر الأمور بعبارات مختلفة مرة إجمالاً ومرة تفصيلاً فما ترك في موضع ذكره في موضع آخر.

وقد صرح القرآن بهذه الصفة التي فيه في غير موضع،² فهذا أصل راسخ، ولكن قل استعمال هذا الأصل وذلك بأن طرق الدلالة على المعاني غير محصورة فربما تدل آية على معنى يكون دليلاً على معنى آية أخرى³

ومراد الفراهي بأن القرآن يفسر بعضه بعضًا ما يسمّيه بتفسير النظائر، لأن النظائر تفسر بعضها بعضًا وخاصة إذا كان الكلام محتملاً لتأويلات مختلفة، فالمصير إلى ماله نظير في القرآن أحوط، لأن ما هو ليس في القرآن قد يكون رأيًا محضًا وضلالة، وأما ما كان له نظير في الحديث فلا بد من صحته رواية ودراية، ثم المصير إلى النظر الذي في القرآن أوثق. ومثال ذلك الشذوذ في الحديث، فالتأويل إلى معنى شاذ مع إمكان غيره ومع دلالة أصول آخر بعيد عن الصواب.

فالقرآن كثيرًا ما يترك مجملًا ما فصله في مقام آخر، والمعنى يفهم من غير أن نحتاج إلى تفصيله من نفس الكلام، مثاله: ما جاء في آخر سورة الأنفال:

ثنا مهران عن سفيان: ﴿صَعَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ قال: زاغت قلوبكما. حدثني يونس قال أخبرنا بن وهب قال بن زيد قال الله عز وجل: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ قال سرهما أن يجتنب رسول الله صلى الله عليه وسلم جاريته وذلك لهما موافق صغت قلوبكما إلى أن سرهما ما كره رسول الله صلى الله عليه وسلم. انظر: تفسير الطبري، 161/28

¹ انظر: مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، ص 32، ومجموع الفتاوى لابن تيمية: 363/13، وقال السيوطي في الإتقان (467/2) قال العلماء: من أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولاً من القرآن، فما أجمل منه في مكان فقد فسّر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر.

² وقد ألف ابن الجوزي كتابًا فيما أجمل في القرآن في موضع وفسّر في موضع آخر منه وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: 19]. وقوله تعالى: ﴿كَتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [فصلت: 1]. وغيرها كثير.

³ انظر: التكميل في أصول التأويل للفراهي، ص 242 بتصرف.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا
وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلِيَّتِهِم
مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: 72]

وبعيد ذلك جاء: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا
أَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: 74]، فلم يذكر
"بأموالهم وأنفسهم" وهو مفهوم. ثم جاء بعيد ذلك: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ
وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي
كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 75]، فلم يذكر "في سبيل الله ولا
بأموالهم وأنفسهم" ولكن ذلك مفهوم، وقد دلّ عليه "معكم".¹

ثانياً: ما هو كالتبع والفرع وهو الحديث:

المطلب السادس: موقفه من تفسير القرآن بالمأثور

تميز الفراهي بمنهج خاص في تفسير القرآن بالحديث بينه في فاتحة نظام القرآن قائلاً:
ولعمري أحب التفسير عندي ما جاء من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي
الله عنهم، وإني مع اليقين بأن الصحاح لا تخالف القرآن، لا آتي بها إلا كالتبع بعد ما
فسرت الآيات بأمثالها، لكيلا يفتح باب المعارضة للمارقين الذين نبذوا القرآن وراء
ظهورهم، والملحدون الذين يلزموننا ما ليس له في القرآن أصل، ولكي يكون هذا
الكتاب حجة بين فرق المسلمين وقبلة سواء بيننا، فإني ما أردت أن أجمع كل ما
يتعلق بالقرآن فإنه كنز لا ينفد على كثرة المجتهدين، والكتب في التفسير كثيرة، فمن
يسرح فيها نظر التحقيق يؤت من العلم ما شاء الله، ولكني أردت ما يكون كالأساس
والأم والوسط والحكم، ولهذا اقتصر على ما في القرآن غير جاحد لما تركته، كما

¹ المصدر السابق.

جمع الإمام البخاري رحمه الله في كتابه كل ما ثبت عنده من الحديث متفقاً عليه مع ما ترك كثيراً من الصحاح.

فالسنة هي ما فهمه الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن:

يرى الفراهي أن السنة النبوية هي فهم الرسول للقرآن، بل يرى أن قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه".¹

يعني الفهم والبصيرة والنور الذي أشرق به قلب النبي صلى الله عليه وسلم مع نزول الوحي كما قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ [الشورى: 52].

ويؤيده ما قاله الشافعي: كلما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو مما

¹ أخرجه أبو داود في سننه: 200/4، حديث 4604، وأحمد في مسنده: 130/4، وابن عبد البر في التمهيد: 150/1، 156/2، 221/4. تنبيه: قد اتفق من يعتد به من أهل العلم على أن السنة المطهرة مستقلة بتشريع الأحكام وأنها كالقرآن في تحليل الحلال وتحريم الحرام وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه"، أي: من السنن التي لم ينطق بها القرآن، وذلك: كتحریم لحوم الحمر الأهلية، وتحريم كل ذي ناب من السباع ومغلب من الطير، وغير ذلك مما لم يأت عليه الحصر. وما ورد من طريق ثوبان بعرض الأحاديث على القرآن فقال يحيى بن معين إنه موضوع وضعته الزنادقة. وقال عبد الرحمن بن مهدي الخوارج وضعوا حديث: "ما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله إلى آخره". وقد عارض حديث العرض قوم فقالوا عرضنا هذا الحديث على كتاب الله فخالفه لأنا وجدنا فيه ﴿وَمَا آتَيْنَاكَمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7]. قال الأوزاعي: الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب. قال ابن عبد البر يريد أنها تقضي عليه وتبين المراد منه. وقال يحيى ابن أبي كثير السنة قاضية على الكتاب انتهى. وكل من له إلمام بالعلم يعلم أن ثبوت حجية السنة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورية دينية ولا يخالف في ذلك إلا من لا حظ له في دين الإسلام. انظر: المدخل لابن بدران الدمشقي، 200/1.

فهمه من القرآن قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89]، وقال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38].

وقال صلى الله عليه وسلم: "ستكون فتن قبل: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله، فيه بأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم".¹

قال ابن مسعود: من أراد العلم فعليه بالقرآن فإن فيه خير الأولين والآخرين.²

قال البيهقي: أراد به أصول العلم.³

وقال الحسن البصري: أنزل الله مائة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة: التوراة، والإنجيل والزبور، والفرقان، ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان، ثم أودع علوم القرآن المفصل، ثم أودع علوم المفصل فاتحة الكتاب، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير الكتب المنزلة.⁴

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة وجميع شرح السنة شرح للقرآن.⁵

وقال بعض السلف: ما سمعت حديثاً إلا التمسث له آية من كتاب الله.⁶

وقال سعيد بن جبير ما بلغني حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله.⁷

¹ الحديث أخرجه الدارمي: 526/2، حديث 3331، وابن أبي شيبة في مصنفه: 125/6، 30007، والطبراني في الكبير: 84/20، حديث 160، أورده الزيلعي في: تخريج الأحاديث والآثار، 211/1.

² أخرجه سعيد بن منصور في سننه، 7/1.

³ انظر: الإتيان، 330/2، وأضواء البيان، 427/2.

⁴ فتاوى ابن تيمية، 15/17.

⁵ مرقاة المفاتيح للقاري، 37/1، وقواعد التحديث للفاصي، 59/1، والإتيان للسيوطي، 330/2.

⁶ أضواء البيان، 428/2.

⁷ أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، 411/4، والطبري في تفسيره، 19/12.

وقال ابن مسعود إذا حدثتكم بحديث أنبأتكم بتصديقه من كتاب الله.¹

وقال ابن مسعود أيضًا أنزل في القرآن كل علم وبين لنا فيه كل شيء ولكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن²

وأخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله لو أغفل شيئًا لأغفل الذرة والخرذلة والبعوضة.³ ويؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم: إني لا أحلّ إلا ما أحلّ الله في كتابه ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه.⁴

أولاً: الإسرائيليات:

لا يختلف رأي الفراهي عن غيره من علماء التفسير فيما يخص الإسرائيليات إلا أنه بحكم دراسته للديانات ومعرفته باللغة العبرانية فإنه يقوم بنقدها من خلال كشف العوار الذي تحويه هذه الروايات.

ومن المعلوم أن ما يروى عن بني إسرائيل من الأخبار المعروفة بالإسرائيليات له ثلاث حالات في واحدة منها يجب تصديقه وهي ما إذا دل الكتاب أو السنة الثابتة على صدقه، وفي واحدة يجب تكذيبه وهي ما إذا دل القرآن أو السنة أيضًا على كذبه، وفي الثالثة لا يجوز التكذيب ولا التصديق.⁵

¹ انظر: مرقاة المفاتيح للقاري، 37/1، وقواعد التحديث للقمي، 59/1، والإتقان للسيوطي، 330/2.

² انظر: أضواء البيان، 428/2، وروح المعاني، 190/6.

³ أورده الديلمي في الفردوس، 274/5.

⁴ الحديث أخرجه: الترمذي في جامعه، 220/4، حديث 7726، وابن ماجه في سننه، 1117/2، حديث 3367، والحاكم في المستدرک، 129/4، حديث 7115، والبيهقي في السنن الكبرى، 75/7، حديث 13217 والطبراني في الأوسط، 230/6، والكبير، 250/6.

⁵ انظر: فتاوى ابن تيمية، 687/10، مناهل العرفان، 22/2، حجة الله البالغة، 361/1.

العدد الخاص مجلة الهند

وأما الإسرائيلية المنقولة في كتب التفسير فلا يعول عليها، وعلى الأخص التي لا إسناد لها، ولم تؤثر عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا عن أحد من أصحابه، والتي لم يعرف أنها حق أو باطل لم يصدق بها ولم يكذب، ومثل هذه لا يعتمد عليها في الدين بحال، بل يرجع إلى الصحف الموجودة بأيدي اليهود والنصارى- وقد درسها دراسة نقدية مع معرفته باللغة العبرانية واطلاعه على الدراسات التي قامت حولها في الغرب- فإن من نظر في الكتب السابقة استبان له فضل تعليم القرآن عليها، وإعادة بعض ما نسوه من كتبهم، وكشف ما بدلوه، لتقوم الحجة عليهم من كتبهم.¹

ثانيًا: الروايات الضعيفة:

ويرى الفراهي أن التفسير بالحديث الضعيف ليس أحق بالاتباع من الرأي:

يقول في كتاب التكميل في أصول التأويل: من الناس من يزعم أن التفسير إما أن يكون منقولاً عن السلف الصالحين، أو يكون خلافه وهو الرأي، والأول هو المعتمد، والثاني هو المنهي عنه.

ثم استنتجوا من هذا أن المنقول وإن كان ضعيفاً أحق بالاتباع. وعلى هذا الأصل كتب كثير من التفاسير مثل تفسير محمد بن جرير الطبري، الذي قيل فيه: إنه لم يصنف مثله، ولا شك أنه كذلك في بابيه، ومثل تفسير البغوي، وابن كثير، والسيوطي وغيرهم من المحدثين. ويعلق الفراهي على هذا الزعم قائلاً: وهذا الذي زعموا قول عليه طلاوة الحق وفي طيه أباطيل مضلة، ثم يسوق مثلاً على ذلك وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 114]. ذكر الطبري في تفسيرها ثلاثة أقوال:

الأول: أن الظالم قوم نصارى، والمسجد بيت المقدس، وروي هذا عن ابن عباس.

¹ انظر: مقدمة تفسيره، ص 6، 7.

والثاني: أن الظالم بختنصر ومن أعانته من النصارى، وقال أولئك أعداء الله النصارى، حملهم بغضهم اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس، وروي هذا القول عن قتادة والسدي.

والثالث: قول ابن زيد قال: هؤلاء المشركون حالوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وبين أن يدخل مكة. ثم بعد نقل هذه الأقوال بين ما هو أولى فقال: وأولى التأويلات التي ذكرتها بتأويل الآية قول من قال عني الله عز وجل بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾: النصارى، وذلك لأنهم هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس وأعانوا بختنصر على ذلك ومنعوا مؤمني بني إسرائيل من الصلاة فيه بعد منصرف بختنصر عنهم إلى بلاده، والدليل على صحة ما قلنا في ذلك قيام الحجة بأن لا قول في معنى الآية إلا أحد الأقوال الثلاثة التي ذكرناها وأن لا مسجد عني الله عز وجل بقوله: وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا إِلَّا أَحَدَ الْمَسْجِدَيْنِ: إما مسجد بيت المقدس وإما المسجد الحرام، وإذا كان ذلك كذلك، وكان معلوماً أن مشركي قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام، وإن كان في بعض الأوقات قد منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الصلاة فيه، صح وثبت أن الذين وصفهم الله عز وجل بالسعي في خراب مساجده غير الذين وصفهم الله بعمارتهما إذ كان مشركو قريش بنوا المسجد الحرام في الجاهلية وبعمارته كان افتخارهم، وإن كان بعض أفعالهم فيه كان منهم على غير الوجه الذي يرضاه الله منهم. وأخرى أن الآية التي قبل قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾، مضت بالخبر عن اليهود وذم أفعالهم، والتي بعدها نهت بدم النصارى، والخبر عن افتراءهم على ربهم، ولم يجر لقريش ولا لمشركي العرب ذكر ولا للمسجد الحرام قبلها، فيوجه الخبر بقول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾

إخوان ذهب بهم الشغف بالحديث إلى أن قالوا بأن الحديث داخل تحت أية: ﴿إِنَّا

نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ [الحجر: 9]¹

و"الذكر": القرآن في قول جميع المفسرين، وفي هاء "له" قولان:

أحدهما: أنها ترجع إلى "الذكر" قاله: الأكثرون. قال قتادة: أنزله الله ثم حفظه فلا يستطيع إبليس أن يزيد فيه باطلاً، ولا ينقص منه حقاً.

والثاني: أنها ترجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فالمعنى: وإنا له لحافظون من الشياطين والأعداء، لقولهم: "إنك لمجنون". هذا قول ابن السائب ومقاتل.²

وهذا الرأي الذي ذهب إليه الفراهي يوافقه فيه صاحب أضواء البيان عند تفسيره لقوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9] بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي نزل القرآن العظيم وأنه حافظ له من أن يزداد فيه أو ينقص أو يتغير منه شيء أو يبدل وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42]، وقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَفُرْقَانَهُ] ﴿وَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ] [القيامة: 16-19]

وهذا هو الصحيح في معنى هذه الآية: أن الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ راجع إلى الذكر الذي هو القرآن. وقيل الضمير راجع إلى النبي، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: 67].

والأول هو الحق كما يتبادر من ظاهر السياق.³

¹ مقدمة تفسيره نظام القرآن، ص 32.

² زاد المسير لابن الجوزي، 384/4.

³ قال ابن الجوزي: لما لم يمكن أحد أن يزيد في القرآن، أخذ أقوام يزيدون في حديث رسول الله، ويضعون عليه ما لم يقل، فأنشأ الله علماء يذبون عن النقل، ويوضحون الصحيح

2. رأي الفراهي في قوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 3-4]:

يستدل علماء الحديث على أن السنة كلها وحي كالقرآن بالآية السالفة مع أن السياق في سورة النجم يتحدث عن القرآن.

ويمكن الاستدلال على أن السنة وحي وعلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم معصوم من غير هذه الآية. قال الفراهي في تفسيره لهذه الآية في مذكراته: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 3-4] وما ينطق خاص هنا بأمر القرآن كما قال: "إن هو (أي المنطوق) إلا وحي يوحى، فأما سائر كلامه فلا ذكر له في هذه الآية، وأما في نفس الأمر فما ينطق الرسول عن هوى النفس أبداً، ولكنه ربما يخطئ فالله يصلحه فإن الله يقول: ﴿فَاتَّخَذَ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: 27] فلا بد أن ينبه إن سها أو نسي أو أفرط لفرط

ويفضحون القبيح، وما يخلى الله منهم عصراً من الأعصار غير أنهم قلو في هذا الزمان فصاروا أعز من عنقاء مغرب:

وقد كانوا إذا عدوا قليلاً فقد صاروا أقل من القليل

قال سفيان الثوري: الملائكة حراس السماء وأصحاب الحديث حراس الأرض. وقال يزيد بن زريع: لكل دين فرسان، وفرسان هذا الدين أصحاب الأسانيد. وروينا عن ابن المبارك أنه قيل له: هذه الأحاديث الموضوعة فقال: تعيش لها الجهابذة. قلت: وذكر الحافظ الذهبي في طبقات الحفاظ: أن الرشيد أخذ زنديقا ليقتله، فقال: أين أنت من ألف حديث وضعها! فقال: أين أنت يا عدو الله من أبي إسحق الفزاري وابن المبارك يتخللانها فيخرجانها حرقاً حرقاً. وقال ابن قتيبة في كتابه اختلاف الحديث يمدح أهل الحديث: التمسوا الحق من وجهته، وتتبعوه من مظانه، وتقربوا إلى الله باتباعهم سنن رسول الله وطلبهم لأخباره براءً وبحراً وشرقاً وغرباً، ولم يزلوا في التنقيب عنها، والبحث لها، حتى عرفوا صحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، وعرفوا من خالفها إلى الرأي فنهوا على ذلك حتى نجم الحق بعد أن كان عافياً، وبسق بعد أن كان دارساً، واجتمع بعد أن كان متفرقاً، وانقاد للسنة من كان عنها معرضاً، وتنبه عليها من كان غافلاً، وقد يعيهم الطاعنون بحملهم الضعيف، وطلبهم الغريب، وفي الغرائب الداء، ولم يحملوا الضعيف والغريب لأنهم رأوها حقاً، بل جمعوا الغث والسمين، والصحيح والسقيم، ليميزوا بينهما، ويدلوا عليهما انظر: تنزيه الشريعة لابن عراق، 16/1.

3. معنى الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113]:

ذهب علماء السنة وبعض المفسرين إلى أن المراد بالحكمة: السنة² وأشهر من عرف عنه أن المراد بالحكمة: السنة هو الإمام الشافعي في كتابه الأم.³

ويرى الفراهي أن "الحكمة" هي اسم للقوة التي منها ينشأ القضاء بالحق قال تعالى في نعت داود: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكُهُ، وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلْنَا الْخِطَابَ﴾ [ص: 20] فذكر الأثر بعد القوة التي هي مصدر ذلك الأثر.

وكما أن القول الفصل من آثار الحكمة، فكذلك طهارة الخلق وحسن الأدب من آثارها. ولذلك كانت العرب تطلق اسم الحكمة على قوة جامعة لرزانة العقل والرأي وشرافة الخلق الناشئة منهما، فسموا الرجل العاقل المهذب حكيماً.

¹ انظر على سبيل المثال: عمدة القاري: "بابُ ذِكْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرِوَايَتِهِ عَنْ رَبِّهِ وَقَالَ صاحب التوضيح معنى هذا الباب أنه روى عن ربه السنة كما روى عنه القرآن وهذا مبين في كتاب الله وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عمدة القاري، 188/25، 189. وكشف المشكل، 136/1.

"ولا يجوز أن يظن برسول الله ما هو منزله عنه من الشطح والزلل في القول مع شهادة الحق عز وجل له بالعصمة في كلامه بقوله تعالى وما ينطق عن الهوى. وقواعد التحديث، 65/1 "واختلف في بقية السنة هل هو كله يوحى أو لا وآية: "وما ينطق عن الهوى" تؤيد الأول. وتوضيح الأفكار، 80/2 "وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى" وإن كان قد يناقش في الاستدلال بأن الآية 3 في وحي خاص هو القرآن كما يشعر به "علمه شديد القوى" إلى قوله تعالى: "فأوحى إلى عبده ما أوحى". والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، 111/1.

² كما حدث في أسارى بدر. انظر: مذكرات الفراهي (المخطوطة)، ص 502.

³ الكتاب هو ما يتلى عن الله تعالى، والحكمة هي ما جاءت به الرسالة عن الله مما بينت سنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال الله عز وجل لأزواجه صلى الله عليه وسلم: "واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة". كتاب الأم، 127/5.

العدد الخاص مجلة الهند

وكذلك يطلقون اسم الحكمة على فصل الخطاب. وهو القول الحق الواضح عند العقل والقلب.

وكل هذه الوجوه من معاني الحكمة في كلام العرب. فاستعملها القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم بما عرفوه: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن من الشعر لحكمة"¹ أي: ليس كل شعر غواية بل منه ما يتضمن الحق والحث على الخير.

- هذا ثم استعملها الله في أكمل أفرادها فسمى الوحي حكمة كما سماه نورًا وبرهانًا وذكرًا ورحمة، ومن هذه الجهة سمي القرآن حكيماً، أي: ذا حكمة، كما سمي نفسه حكيماً وعليماً.

فإذا سمي القرآن كتاباً وحكمة معاً فذلك من جهتين:

- سمي كتاباً من كونه مشتملاً على الأحكام المكتوبة، وحكمة من جهة اشتماله على حكمة الشرائع من العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة.

واستدللنا على هذا الفرق من تتبع استعمال الكلمتين معاً. وتسامح بعض أهل العلم في هذا المقام، وتبعهم الإمام الشافعي رحمه الله وتبعه أكثر المحدثين فظنوا أن الحكمة أريد بها الحديث، فإن الكتاب كتاب الله فلا بد أن يراد بالحكمة غيره، ومثار الخطأ أنهم أخطؤا معنى الكتاب حيث جاء مع الحكمة والدليل على ما قلنا آيات منها:

﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: 113] ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يُثْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 34] وكلمة "يثلى" و"أنزل" لم يستعملهما القرآن للحديث. نعم إن الحديث ربما يتضمن الحكمة ولا شك أن الحديث ربما يبين ما في القرآن من الحكمة. ولعل مراد الذين تبعهم الإمام رحمه الله كان هذا. ولكن الحديث يشتمل على الأحكام كما أنه يشتمل على الحكمة فلا وجه لتخصيصه باسم الحكمة.

¹ أخرجه: ابن ماجه في سننه، 1235/2، حديث 3755، والبيهقي في السنن الصغرى، 206/9، حديث 4346، وابن عبد البر في الاستذكار، 368/2

وجاء أوضح من ذلك حيث قال تعالى في صفة عيسى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: 110]

وترتيب مضامين سورة البقرة يطابق قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129]. فأتى أولاً بالآيات والدلائل، ثم ألقى عليهم الكتب- أي: الأحكام- ثم علمهم طريق الحكمة، وزكاهم بالحث على الزكاة. فنزولها يطابق ما دعا به إبراهيم، ويرى الفراهي أن في هذه الآية تحقق دعاء إبراهيم ببعثة نبي يزكهم ويعلمهم الكتاب والحكمة¹ وأن أكثر كلمة الحكمة مع مكارم الأخلاق ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 151]. وهذا من إتمام النعمة أن الله جعل أمة محمد أمة وسطاً وارثة لإبراهيم، وهي هدى الله وصراطه المستقيم وفطرته التي فطر الناس عليها، وأورثها قبله إبراهيم، واستجاب فيهم دعاءه، فأرسل فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. يتلو: [الكتاب] ظاهر الحكم [الحكمة] الأخلاق.

فتلاوة الآيات تمهيد وخطوة أولى للتزكية، والعمل بالأحكام خطوة ثانية لها. والحكمة هي الخطوة الثالثة- وهي روح الأحكام.²

¹ مذكرات عبد الحميد الفراهي، ص 10.

² مذكرات عبد الحميد الفراهي، ص 12.

المطلب السابع: ولعه بالنظام

مقصود الفراهي بالنظام هو أن تكون السورة وحدة متكاملة. ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة أو بالتي قبلها أو بعدها على بعدما كما قدمنا في نظم الآيات بعضها مع بعض، فكما أن الآيات ربما تكون كالجمل المعترضة، فكذلك السور قد تكون كالجمل المعترضة، وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلامًا واحدًا ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر.

وإذا ظهر النظام في القرآن، فلا بد أن تظهر لكل سورة صورة مشخّصة، فإن معاني الكلام إذا ارتبط بعضها ببعض وجرت إلى عمود واحد، وكان الكلام ذا وحدانية فحينئذٍ لا يكون إلا وله صورة مشخّصة. فإذا نظرت إلى الكلام من هذه الجهة رأيت ما فيه من الجمال والإتقان والوضوح.¹

إن كتاب "دلائل النظام" للعلامة الفراهي يعتبر من المعالم البارزة في الدراسات القرآنية، ولا نبالغ إذا قلنا بأن هذا الكتاب لم يصنف مثله في باب، ويرى الفراهي أن جلَّ اختلاف الآراء في التأويل من عدم التزام رباط الآيات، فإنه لو ظهر النظام واستبان لنا عمود الكلام لجمعنا تحت راية واحدة وكلمة سواء "كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء".

ويرى الفراهي أن من حرم فهم النظام فقد حرم حظًا وافرًا من معنى الكلام، ويوشك أن يشبه حاله حال من قبله من أهل الكتاب كما أخبر الله تعالى عنهم "فنسوا حظًا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة" وأخاف أن تكون هذه العداوة والبغضاء التي تراها في المسلمين من هذا النسيان، فلا تهدأ عداوتهم ولا يرجعون عن اختلافهم. وسبب ذلك ما ذكرنا في الأمر الأول، لأننا إذا اختلفنا في معاني كلامه اختلفت أهواؤنا وصرنا مثل أهل الكتاب. غير أن رجاءهم كان معقودًا بهذا النبي، وهذا القرآن الذي يرفع اختلافهم، وأما نحن

¹ انظر: دلائل النظام للفراهي، ص75، وإمعان النظر في نظام الآي والسور للدكتور محمد عناية الله أسد سبحاني، ص24.

فليس لنا إلا هذا الكتاب المحفوظ".¹

ولتتبع النظام مزايا عديدة منها:

1. التأمل في النظام يرشد إلى فحوى الكلام وملابساته، والذي يغفل عنه يتعذر عليه العثور على ما ترمي إليه تلك الآيات.
2. النظام هو الدليل إلى صحيح التأويل، إذا اشتبهت الوجوه وكثرت الاحتمالات.
3. النظام مفتاح لكثير من كنوز القرآن وحكمه، كما أنه سر من أسرار إعجازه، فإنه هو الذي جعل القرآن بحرًا لا يسير غوره ولا ينفد كنزه.
4. النظام يجلي الأمور في أكمل صورها ويكشف عن قدرها وأهميتها، وإذا لم ننتبه لنظام الآيات فكثير من الأمور لا ندركها، ونظل غافلين عن قدرها وأهميتها.
5. النظام يشخص معاني الآيات المكررة، ويحدد مراميها، لكن الذي يغفل عنه يتعثر ولا يكاد يفرق بين موطن وآخر.
6. النظام يفتح العيون على وجوه البلاغة في القرآن، لكن الذي لا يهتم به يتعذر عليه أن يتذوق بلاغة القرآن، أو يدرك ميزته التي أعجزت فرسان الكلام.
7. رعاية النظام تفتح على الدارس ما تقرّ به عينه ويستنير به قلبه، وتورثه برد اليقين، الذي لا يتزلزل ولا يتزعزع.
8. رعاية النظام تمكن من فهم أسباب النزول، والذي يغفل عنه يتحير في فهمها، ويضعها في غير موضعها، ثم يتحير في تفسير الآيات وتأويلها.
9. رعاية النظام والبحث عن رباط الآيات هي المحك الناجح لنقد الروايات التفسيرية فيها تتميز الضعاف من الصحاح ويتميز السقيم من الصحيح.
10. رعاية النظام في دراسة القرآن تساعد على الوصول إلى أصول الصحاح في القرآن، فإن الأحاديث الصحاح مأخوذة منه كما نص عليه فريق من جلة العلماء.
11. الوقوف على نظام الآيات يسمو بالدارس إلى ذروة الشوق والمحبة واللذة التي لا يصل إليها أبدًا من لا يهتم بنظامها، فإن هذه المشاعر وتلك الأحاسيس

¹ انظر: فاتحة تفسير نظام الفرقان للفراحي، ص: 3-4. انظر: الكتاب النافع المانع الذي ألفه الدكتور محمد عناية الله سبحانه والذي سماه "إمعان النظر في نظام الآي والسور"، طبعة دار عمار، الأردن.

تزداد بزيادة المعرفة بمحاسن الكلام وحسن النظام وقوة البرهان.¹

خلاصة البحث:

جاء هذا البحث لتعريفنا بمنهج المعلم عبد الحميد الفراهي الهندي (1349هـ) في التفسير والذي يعتبر بحق من أهم علماء التفسير على مر العصور، وذلك باستعراض نبذة موجزة عن حياته وأثاره، ثم ذكرنا المنهج الذي سلكه في تفسير القرآن والضوابط التي وضعها بواسطة تأليفه. وذلك من خلال عنايته بمفردات القرآن، ثم عنايته بأساليب القرآن، ثم بأسباب النزول ثم اهتمامه بأصول التأويل، ثم ذكرنا موقفه من التفسير بالمأثور، وذلك من خلال استعراض الآراء الجديدة التي يكاد يكون قد انفرد بها الفراهي في موقفه من السنة النبوية وتفسير القرآن بالحديث ورأيه بالإسرائيليات، ثم ذكرنا رأيه في عود الضمير إلى النبي في كلمة "له" في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]. وأيضاً يذكر الفراهي خطأ العلماء في استدلالهم على حفظ السنة بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 3-4] ويدلل على أن سياق الآية في الحديث عن حفظ القرآن وليس عن عصمة النبي صلى الله عليه وسلم كما ذهب إلى ذلك جمع غفير من كبار العلماء، وأنه يمكن الاستدلال على عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم من غير هذه الآية. ثم ذكرنا تحديد الفراهي للمراد بالحكمة في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113] خلافاً لما ذهب إليه الجماهير من العلماء من أن المراد بها السنة النبوية.

ثم ذكرنا عناية الفراهي بفكرة النظام والتي تعتبر بحق من أهم مكتشفات الإمام الفراهي رحمه الله ونقلنا رأي الدكتور محمد عناية الله بمزايا القول بالنظام في القرآن الكريم.

¹ انظر: إمعان النظر في نظام الآي والسور للدكتور محمد عناية الله أسد سبحاني، ص 106.

مراجع البحث

1. أحمد البهقي، السنن الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر، مكتبة دار الباز ، مكة، 1994م.
2. أحمد بن حنبل، مسند أحمد، مؤسسة قرطبة، مصر ، د.ت
3. أحمد عبد الحليم، فتاوى ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مكتبة ابن تيمية، ط2
4. برهان الدين بن مفلح، المقصد الأرشد، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1990م.
5. جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار الفكر، لبنان، ط1، 1996، 1416هـ
6. جمال الدين الزيلعي، تخرىج الأحاديث والآثار، دار ابن خزيمة، الرياض، ط1، 1415هـ.
7. سعيد الخراساني، سنن سعيد بن منصور، تحقيق حبيب الرحمن، الدار السلفي، الهند، 1982م
8. سليمان الأزدى، سنن أبي داود، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.
9. سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، تحقيق طارق بن عوض الله، دار الحرمين، القاهرة، 1415هـ
10. سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، تحقيق عبد المجيد السلفي، مكتبة الزهراء، الموصل، ط2، 1983م.
11. شهاب الدين الألوسي، روح المعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
12. شيرويه الهمداني، الفردوس بمأثور الخطاب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1986م
13. عبد الحميد الفراهي ، مقدمة تفسير نظام القرآن ، صلاح مير محمد، الهند، 1352هـ
14. عبد الحميد الفراهي، التكميل في أصول التأويل، الدائرة الحميدية، الهند، ط2، 1991م
15. عبد الحي الحنبلي، شذرات الذهب، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن

العدد الخاص مجلة الهند

- كثير، دمشق، ط1، 1406هـ)
16. عبد الرحمن الجوزي، زاد المسير، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1404هـ
17. عبد الرحمن الرازي، تفسير بن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا، د.ت.
18. عبد القادر الدمشقي، المدخل، تحقيق عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1401هـ
19. عبد الله الدارمي، سنن الدارمي، تحقيق فواز زملي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1407هـ
20. عبد الله بن محمد، مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق كمال الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1409هـ
21. علي القاري، مرقاة المفاتيح، تحقيق جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002م
22. محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت، 1995م.
23. محمد الترمذي، جامع الترمذي، تحقيق أحمد شاكِر، دار إحياء التراث العربي، بيروت
24. محمد الحاكم، المستدرک، تحقيق مصطفى عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، بيروت، ط1، 1990م.
25. محمد القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، د.ت.
26. محمد بن جرير الطبري، جامع البيان، دار الفكر، بيروت، 1405هـ
27. محمد جمال القاسمي، قواعد التحديث، دار الكتب العلمية، بيروت، ، ط1، 1399هـ
28. محمد عناية الله أسد سبحاني، إمعان النظر، دار عمار، عمان، ط1، 2003م
29. يوسف النمري، التمهيد، تحقيق مصطفى بن أحمد، وزارة الأوقاف المغربية، المغرب، 1387هـ
30. يوسف بن حسن، معجم الكتب، مكتبة ابن سينا، مصر، 1989م

منهج عبد الحميد الفراهي في دراسة القرآن الكريم

- د. أبو ذرمتين¹

إن أهم ما يتميز به منهج الإمام الفراهي في التفسير هو التركيز الشديد على نظم القرآن والترابط الفكري فيه، وإنه قطب تدور حوله أعماله العلمية وآماله الفكرية أجمع فلا بدّ من وقفة متأنية على موضوع النظم لمن أراد أن يتعرف على منهج الإمام الفراهي في تفسير القرآن الكريم.

إن قضية وجود النظم المعنوي والترابط الفكري بين السور والآيات القرآنية من القضايا التي بقيت موضع اختلاف بين العلماء إلى يومنا هذا، وأثارت هذه القضية فرقتين بينهم، الأولى يذهب أصحابها إلى نفي وقوع النظم في القرآن الكريم، وأما الفرقة الثانية فيذهب أصحابها إلى وجوده فيه.

وبعد الإمام عز الدين عبد السلام (1181-1262م) على رأس أصحاب الفرقة الأولى، فقد نفى وقوع النظم في القرآن، وقد وافقه على رأيه كثير من العلماء الأجلاء، ومنهم الشاه ولي الله المحدث الدهلوي.

وأما أصحاب الفرقة الثانية فعددها كثير، وإن أقطاب علم التفسير ذهبوا هذا المذهب وإنهم لم يكتفوا بالإقرار بوجود النظم والتناسب في الكتاب العزيز فحسب، بل كرّسوا جهودهم في إبراز النظم والترابط فيه، ومنهم الإمام الطبري (839-923م) في تفسيره "جامع البيان في تأويل القرآن"، وفخر الدين الرازي (1150-1210م) في تفسيره "مفاتيح الغيب" والزمخشري (1075-1145م) في "الكشاف عن حقائق التنزيل" والشيخ أبو حيان (1256-1377م) في كتابه "البرهان في مناسبة القرآن" والشيخ المهائبي الهندي (1374-1432م) في تفسيره "المسعى بتبصير الرحمان وتيسير المنان" والعلامة بدر الدين الزركشي (1344-1392م) في كتابه

¹ مدرّس ضيف، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره، الهند

"البرهان في علوم القرآن"، والعلامة جلال الدين السيوطي (1445-1505م) في "تناسق الدرر في تناسب السور" وأبو جعفر أحمد بن إبراهيم الزبير الأندلسي (1230-1308م) في "البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن" وما إلى ذلك.

وأما برهان الدين البقاعي (1406-1480م) فيمثل القمة في الوقوف على الموضوع والاهتمام به، ولقد عالج المهائمي موضوع النظم المعنوي والتناسب في القرآن الكريم على وجه الخصوص حتى سقى تفسيره "نظم الدرر في تناسب الآي والسور"، وإن عنوانه يدل في حد ذاته على مدى اهتمامه بالنظم والترابط الفكري في تفسيره.

وعلى الرغم من أن معظم المفسرين أقرّوا بالنظم في القرآن الكريم نظريًا، وحاولوا إيجاد الترابط الفكري بين السور والآيات عمليًا من خلال تفسيرهم لكتاب الله، ولم يألوا جهدًا في إبراز النظم والتناسب، ولكنه ظلت محاولاتهم غير ناجحة ولم يستطع أحد من هؤلاء المفسرين أن ينجح في بيان النظم في جميع القرآن وإبراز الترابط والتناسب في جميع السور والآيات، وأن يكشف عن التناسب الذي جعل الكلام ينتظم بعضه البعض من أوله إلى آخره حتى يصبح كلام الله شيئًا واحدًا، بينما اكتفى معظمهم بإبراز المناسبة بين الآيات المتلاصقة في بعض الأماكن، وهكذا نجد أن هذه الممارسات كانت ناقصة وغير تامة وذلك لصعوبة المنال ووعورة الطريقة وعدم استكمال العدة للسير فيه وهكذا بقي هذا العلم، أعني علم النظام في القرآن، في طوره غامض المعالم وناقص الأطراف إلى أن جاء الإمام عبد الحميد الفراهي (1863-1930م) فقوّى بنيانه ورفع عماده وجعله قصرًا شامخًا من قصور العلم وفنًا شاملاً أصوله راسخة وفروعه جامعة وأطرافه متكاملة، لا يكاد يوجد له مثل بين المفسرين في تاريخ إثبات الترابط الفكري والمعنوي بين آيات القرآن وسوره، ولا عجب في هذا فإنه يغطس كثير من الغواصين في البحار طمعًا في اللآلئ ولكن لا يظفر بها إلا القليل، وكذلك يبذل كثير من العلماء الجهود المضنية المتواصلة للاكتشاف والابتكار والإبداع ولكن القليل بل الأقل منهم من يصادفه النجاح.

ولا شك في أن الذين أنكروا وجود النظام في كلام الله تعالى حملهم على ذلك ما يحتوى عليه هذا الموضوع من دقة وصعوبة. يقول الفراهي:

"ما أنكر بوجود النظم في القرآن من أنكر به إلا خلاف رضاه ولولا أكره عليه لتحاشى عنه، فإنه لا يرضى عاقل أن يترك بين الناس كلاماً له، وهو يعلم أنه مختل النظم بل لو لاح له بعد زمان شيء من الاختلال، راجع فيه النظر ومهذبه بغاية ما يمكنه---، فلا شك أن الذين ذهبوا إلى نفي النظام لم يذهبوا إليه إلا لأسباب اضطررتهم إليه".¹

ثم بين الإمام بعض الأسباب الرئيسية التي دفعت أهل العلم إلى القول بنفي وجود النظام في القرآن الكريم، ونقدر على أن نرتب هذه الأسباب في نقطتين تاليتين:

1. الدقة والصعوبة:

لما لم ينجح العلماء في إبراز النظم في بعض السور والآيات فظنوا سهلاً في هذه القضية أن يتخذوا سبيل الرفض والإنكار في جميع القرآن، لأن عدم وجود النظم ولو في آية، يعارض دعوى وجود النظام في القرآن كله، ومما زاد الطين بلة هو فشل الإمام الرازي في إثبات النظم في جميع القرآن، فإن كان الرازي- مع ادعائه بوجود النظم- لم يوفق له النجاح فلا مطمع لأحد بعده فيه.

2. كثرة وجوه التأويل:

إن كثرة وجوه التأويل واختلاف الأقوال وتشعبها في تفسير كل آية يعدّ أحد الأسباب القوية التي أدّت إلى عدم فهم النظام، لأن النظام يجري على الوحدة وكثرة التأويل تنافي وجود النظام، وإن تفرق الأمة إلى شيع وأحزاب جعل هذه الظاهرة تتقوى، لأن كل حزب اختار من هذه الوجوه ما يؤيد مذهبه وفكره وجعلت هذه الظاهرة بدوره استنباط النظام متعذراً.²

¹ راجع: رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، عبد الحميد الفراهي، الطبعة الثانية، الدائرة الحميدية، سراي مير، أعظم كره، الهند، 1991م، ص 33-34

² راجع: المصدر السابق، ص 36-38

وقد تناول الفراهي تلك الدلائل التي لجأ إليها أولئك العلماء الذين رفضوا وجود النظم في القرآن الكريم ومنها:

1. إن القرآن نزل منجماً حسب ما اقتضته حاجة أو ضرورة فلا ينبغي أن يبحث فيه عن نظام، لأن الكلام الذي نزل اقتضاباً لا يمكن أن يتصور فيه التناسب والنظام، فكلام الله تنجيماً مختلفة نزلت في حوادث ووقائع مختلفة لا يربط بعضها بعضاً.

2. إن سياق الكلام المنظم لم يكن من عادة العرب، فلو كان القرآن نزل على خلاف عادتهم ثقل عليهم فهمه.

3. إن الكشف عن النظام ليس من مهمات الدين وإنما هو من قبيل الطرف العلمي مثل استنباط النكات البلاغية وما على شاكلها.

فكشف الإمام الفراهي عن ضحالة هذه الأدلة وخطأ من تشبث بها، فإن كان القرآن قد نزل منجماً ولكن جمعه في المصاحف كان على خلاف تنجيمة، ولا يخفى على أحد أن جمع القرآن كان من الوحي، وإن النظم يتعلق بالقرآن الذي بين أيدينا، ولا بنزوله منجماً، وكذلك القول بأن سياق الكلام المنظم لم يكن من عادة العرب زعم باطل وقول لا مبرر له. يقول الفراهي ردّاً عليه:

"فإن العرب كانوا يتلهون بالشعر ولا يعدونه من المعالي وإنما كانوا يعظمون الحكماء ويحبون الخطب الحكيمة".¹

وقد فرق الفراهي بين شعر العرب وبيانهم وأكد على أن خطبهم وبيانهم لم يكن اقتضاباً خلافاً لشعرهم الذي كانوا يستعملونه للهو والهزل فلا ينبغي أن يجعل من شعرهم دليلاً على أنهم لم يكونوا يعرفون النظام في الكلام.

ويبدو أن الذين وقعوا في هذا الخطأ اعتمدوا على الشعر الجاهلي، فلا شك أن معظمه يخلو من النظام والمناسبة ولكن النثر الجاهلي لم يكن على هذا النمط ولعل مبعث هذا الخطأ، هو ظنهم أن العرب لم يستعملوا في العهد الجاهلي النثر الأدبي إلا

¹ راجع: المصدر السابق، ص 32

قليلاً، وجلّ أدبهم في شعرهم فإن كان شعرهم يخلو من النظام فهذا يعني أنهم ما عرفوا. وهذا خطأ وقع فيه كثير من الأدباء والباحثين، وإن قلة وجود الكلام المنشور ليس دليلاً على قلة قولهم فيه، وإنما السبب فيه- كما تقرّر في الأدب العربي الآن- هو أنه ما ضاع من كلامهم المنظوم إلا قليل، وما بقي من كلامهم المنشور إلا قليل، وهذا يؤيد ما ذهب إليه الفراهي.

وأما قولهم إن الاهتمام بنظام القرآن من الأمور التافهة وليس من أمهات الدين فقد ردّ عليه الإمام الفراهي قائلاً:

"لا شك أنّ هذا القائل لم يتصور ما نحن بصددّه. لطائف البلاغة ووجوه الإعجاز ليست مقصودة لذواتها ولا هي غاية ما تفوز به، بل ليست معرفة نظام الكلام وروابط معاني الآيات ما هي طلبتنا ... إنما المقصود هو التدبر في معنى القرآن الذي سيق إليه بيانه، ومعرفة النظم إنما هي الوسيلة إليه".¹

ولا شك أن التدبر في معاني القرآن وفهمها من أعظم الأمور وأشرفها وأهم مهمات الدين بل غايته ولبّه ما دام فهم القرآن متوقفاً على معرفة النظم، فمعرفة النظم واجبة وجوب فهم القرآن، لأن ما يؤدي إلى الواجب واجب.

يتضح مما سبق أهمية نظام القرآن ودوره في فهم كتاب الله. قد انتبه الإمام الفراهي إلى أهميته فأراد أن يجعل من نظام القرآن علماً مستقلاً من علوم القرآن فبذل حياته دارساً وباحثاً في كتاب الله مكبّاً عليه مستخرجاً منه أصول النظم وقواعده ومتدبراً معانيه وحكمه حتى فاز بوضع علم النظم الذي توجد إليه إشارات في كتب الأوائل، فكشف عن معالمه وبيّن حدوده وموضوعه ومنهجه وغايته، ولم يكتف على هذا الحد، بل قدّم نماذج للتفسير المبني على أصول هذا العلم لتكون نبراساً يستنير به العلماء ومنازاً يهتدى به من يأتون بعده وليكمل أحدهم ما تركه ناقصاً إلى الشوط الأخير.

¹ راجع: المصدر السابق، ص 25

إن أهمية النظام في كلام هو أمر لا يختلف فيه اثنان ولا ينتطح فيه عرتان، وإن النظام أصل كل تركيب سواء كان في الكلام أو في الكون، فالكون عبارة عن مركبات في نظام خاص، وإذا اختلف هذا النظام أو فك التركيب ضاع انتفاع هذه المركبات والتمتع بها، والكلام شأنه شأن المركبات والموضوعات، فاللفظ لا يصير ذا معنى إلا إذا وضعت حروفه في تركيب خاص، وكذلك الجملة لا تصير ذات معنى إلا إذا ركبت كلماتها في ترتيب خاص، وهذا الأمر في تأليف الجمل، فحسن الكلام وقبحه تعتمد على هذه التركيبات، ومع أن كل كلام يركب من نفس الحروف والكلمات، ولكن يختلف بعضه بعضًا بحسن تركيبه وجودة نظامه، فيرتفع بعض الكلام إلى القمة من الحسن والجمال وقوة التأثير بينما ينحط الآخر إلى أقصى حد من الضعف والركاكة، فثبت أن الكلام إنما هو بنظامه، يقول الفراهي:

"فالنظم هو الحبل المتين الذي يعصم من يعتصم به عن الزيغ وهو السراج المنير الذي يدل على الحكم فإن الآيات إنما تنتظم بما تتضمن من الحكمة فإنها هي الجامعة"¹

وهذا يعني أن النظم عند الفراهي ليس الكشف عن الربط والمناسبة بين جملتين ومهما كان هذا الربط ضعيفًا، وإنما النظم هو ذلك الربط الذي يفتح أبواب الحكم ويكشف عن أسرار الحقائق الكامنة في الكلام، فالنظم ليس مطلوبًا في حد ذاته ما لم يهد إلى حكم الكلام، يقول الفراهي:

"لا يستحق كل نظام أن يختار وإنما يعتبر ذلك النظام الذي يوجد فيه جمال التأويل وحسنه، فإن النظام القائم على التأويلات الضعيفة والركيكة، ولكن هذا النوع من التأويل يؤدي إلى الأخطاء والأمور التي لا أساس لها من الصحة ويغلق باب النظام الذي يليق بشأن كلام الله تعالى"²

وإن النظام السديد يكون دائمًا مفتاحًا للحكم كما يقول الفراهي:

¹ راجع: المصدر السابق، ص 223

² راجع: المصدر السابق، ص 38

"إن الإيمان في المناسبات التي توجد بين الأحكام المختلفة يُعرّفك بنظم الكلام ويفتح عليك كثيرًا من أبواب الحكمة، لأن النظام لا يخلو عن الحكمة ولا ينفصل عنه"¹

وإن معرفة عمود السورة لا تقل أهمية من الحكمة في تصور الإمام الفراهي لنظام القرآن، وهذا العمود عنده عبارة عن فكرة رئيسية في السورة يرتبط بها جميع الأفكار الجزئية الواردة في السورة فما لم يظهر عمود السورة لا يمكن أن يتضح النظام بين آيات تلك السورة. يقول الإمام الفراهي:

"اعلم أنّ تعيين عمود السورة هو إقليد لمعرفة نظامها ولكنه أصعب المعارف ويحتاج إلى شدة التأمل والتمحيص وترداد النظر في مطالب السورة المتماثلة والمتجاورة، حتى يلوح العمود كفلق الصبح، فيضيء به السورة كلها ويتبين نظامها، وتأخذ كل آية محلها الخاص، ويتعين من التأويلات المحتملة أرجحها"².

وكان الإمام الفراهي- بعد دراسة عميقة في القرآن ومعانيه- قد وصل إلى أن القرآن كله قطعي الدلالة وإن ظاهر القرآن يؤيده كما قال الله عز وجل: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا) (سورة النساء: 174)

ويقول تبارك وتعالى: (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ) (سورة المائدة: 15)

وإنطلاقًا من هذا المبدأ صرح الإمام الفراهي بأن القرآن كله قطعي الدلالة وإن احتمال المعاني الكثيرة يرجع إلى قلة العلم والإيمان فيه، ويرى أنه لا يجوز لعالم أن يبين لآية تأويلات كثيرة أو الكلمة معاني عديدة من غير ترجيح كما فعل الإمام الرازي في بيان معاني كلمة "فتنة" فقد ذكر لها خمسة معاني، ومما لا شك فيه أن هذه المعاني كلها ليست صحيحة، وما دام القرآن كله في رؤيته قطعيًا فلا تدل كلمة من كلماته إلا على معنى واحد، ولا تدل آية من آياته إلا على مفهوم واحد، وعلى هذا يعتمد منهجه في التفسير، فلا يذكر الفراهي في

¹ راجع: المصدر السابق، ص 41

² راجع: المصدر السابق، ص 89

تفسيره تلك الاحتمالات المتضاربة التي توجد في عامة التفسير، ويكتفي على ما هو الراجح عنده، بل اعتبر الفراهي هذه الظاهرة أي تقسيم القرآن إلى المحكم والمتشابه كما فعلت فرق مختلفة، وإيراد معانٍ كثيرة في تفسير آية واحدة مرض مستعص وداء عضال. يقول الفراهي في "التكميل في أصول التأويل":

"وما عملت دواء لهذا الداء العضال إلا التمسك بالقرآن ورد الروايات والآراء إلى كتاب الله، وهذا لا يكون إلا أن نؤمن بأن القرآن لا يحتمل إلا تأويلًا واحدًا، وقد قدّمت القول في أنّ القرآن قطعي الدلالة وليس لعبارة إلا مدلول واحد¹

ويرى أنّ هذه الظاهرة مما أضّرّ بقداسة القرآن الكريم فتح للأعداء بابًا للهجوم على كتاب الله واعتبرها شرّ فتنة شهدتها الأمة الإسلامية.

"وهذا شر فتنة وقعت فيها الأمة فتشبهت كل فرقة بآيات، وأولوا القرآن إلى آراء مختلفة حتى إلى الكفر والزندقة، فالمحيص عن هذه الورطة أن تجعل ما في القرآن مرتفعًا مما ألحقوا به من الروايات والآيات وتجعله قطعياً وما دونه ظنيًا، متحملاً للاختلاف²."

وقد تناول الفراهي في كتبه مثل "التكميل في أصول التأويل"، و"دلائل النظام"، و"أساليب القرآن"، و"مقدمة نظام القرآن" وغيرها من الكتب المطبوعة والمخطوطة هذه الموضوعات بالتفصيل، وبين فيها أصولاً وقواعد أخرى اعتمد عليها في تفسير كتاب الله ومن أهمها:

1. تفسير القرآن بالقرآن: إن أحسن التفسير أن يفسّر القرآن بنظائره، فإن القرآن يذكر حكمًا واحدًا في مكان بالإجمال وفي مكان آخر يذكره بالتفصيل، يقيده تارة ويطلقه تارة أخرى، فيجب على المفسر أن يلاحظ جميع الآيات الواردة في موضوع واحد، لكي يستطيع أن يفهم آيات الإجمال في ضوء آيات التفصيل والآيات المطلقة بالآيات المقيدة، وهذا أصل من أصول التفسير

¹ راجع: المصدر السابق، ص 230

² راجع: المصدر السابق، ص 232

معروف ومتداول بين العلماء كما ذكر الحافظ ابن كثير (1302-1373م) في مقدمة تفسيره والحافظ السيوطي في الإتقان، واهتم الفراهي اهتمامًا كبيرًا بهذا الأصل فيقول:

"فعلمت من هذا أن أول شيء يفسر القرآن هو القرآن نفسه، ثم بعد ذلك فهم النبي ﷺ، والذين معه ولعمري أحب التفسير عندي ما جاء من النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وقد أسس تفسيره بعض العلماء على الأحاديث كابن جرير الطبري الذي حكموا على تفسيره أنه لم يصنف مثله ولكن الأحاديث فيها أكثرها ضعاف والمرفوع فيها قليل وإنما جمع فيها أقوال أهل التأويل مع كثرة الاختلاف فيما بينها. إني مع اليقين بأن الصحاح لا تخالف القرآن ولا آتي بها إلا كالتبع بعد ما فسرت الآيات بأمثالها".¹

فالإمام الفراهي لا يخالف التفسير بالحديث الصحيح ولكنه يرى أن الأحاديث الصحيحة قليلة جدًا، ولا يمكن أن نقرر تأويلًا معينًا لآية بحديث لأن الروايات تحتل تأويلات مختلفة فسميت الأحاديث بالظني بمعنى أن كونها ظنية أو قطعية باعتبار دلالتها على معنى معين لا اعتبار صحتها وعدم صحتها، فذهب الإمام الفراهي إلى هذا الأصل:

"تفسير القرآن بالقرآن الذي استحسنه العلماء والبلغاء، وبعد ذلك نرجع إلى الأحاديث، فإن كان حديث يعارض معنى القرآن فلنأول ذلك تأويلًا يوافق القرآن، ولا نأول القرآن نفسه، ومن الممكن أن يلبس الحق بالباطل للاعتماد كليًا على الحديث لأن في الأحاديث ما هو صحيح وما هو سقيم، ولا يمكن أن نميز بينهما، فقال في كتابه "التكميل في أصول التأويل":

"ولكن مهنا مزلة وخطر، وذلك أنك قبل أن تفهم القرآن تنهافت على الحديث وفيه صحيح وسقيم فيعلق بقلبك من الآراء ما ليس له في القرآن أصل، وربما

¹ فاتحة نظام القرآن، الإمام عبد الحميد الفراهي، مكتبة الإصلاح، سراي مير، أعظم كره، الهند، 1357هـ، ص 7

يخالف مدى القرآن فنأخذ في تأويل القرآن إلى الحديث ويلبس عليك الحق بالباطل، فالسبيل السوي أن تعلم الهدى من القرآن وتبني عليه دينك ثم بعد ذلك تنظر في الأحاديث فإن وجدت ما كان شاردًا عن القرآن حسب بادئ النظر أولته إلى كلام الله فإن أعيانك فتوقف في الحديث واعمل بالقرآن".¹

فقد حثَّ الإمام الفراهي على تفسير القرآن بالقرآن، وكان سعيه أن يعين المعنى المقصود في ضوء العمود وسياق الآيات وسباقها ونظائرها ولا يصرف النظر عن ذخائر الحديث كما ظن بعض العلماء أن الإمام الفراهي يصرف النظر عن ذخائر الحديث، ولكنه وهم محض، بل إنه يحيل إلى الحديث في تفسيره مثل المفسرين الآخرين، غير أنه يأتي به كالتبع،² وإن خالف حديثًا صحيحًا فانتقده في ضوء أصول الانتقاد التي اختارها نقاد الحديث.

وقال أيضًا في مقدمة نظام القرآن:

"وجب على من يحاول فهم القرآن أن لا يأخذ من الروايات ما يهدم الأصل أو يقلعه فإنني رأيت بعض الروايات تعلق الآيات وتقطع نظمها إلا أن تأول... فينبغي لنا أن لا نأخذ منها إلا ما يكون مؤيدًا للقرآن وتصديقًا لما فيه كما أن الآثار المنقولة من ابن عباس رضي الله عنه أقرب الأقوال من نظم القرآن".³

وصرح أيضًا وجهة نظره عما تسرب في كتب التفسير والحديث مما روي عن أهل الكتاب فقال:

"وكذلك تاريخ أهل الكتاب أقرب من الأخبار المنقولة عندنا فإن المفسرين أخذوها من أفواه العامة والذين قلَّ علمهم بالكتب التاريخية في قصص

¹ رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، ص 275-276

² فاتحة نظام القرآن، ص 7

³ المصدر السابق، ص 10

الأنبياء وبني إسرائيل فالصواب أن نأخذ من كتبهم المعتبرة كالتبع، فحيث يختلف عن القرآن نتركه فإنهم كتموا الشهادة"¹.

وقد نجم الإمام الفراهي بتطبيق هذا الأصل في تفسيره خلافاً للذين أقروا بهذا الأصل واستحسنوه، ولكنهم فشلوا في الالتزام به، فإذا نظرنا- على سبيل المثال- في تفسير ابن كثير وجدناه مليئاً بالروايات الضعيفة، ولا نبعد عن الصواب إذا قلنا إن الفراهي هو المفسر الوحيد الذي حظي بالنجاح في تطبيق هذا الأصل والقاعدة، وقد سمى تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان".

قد جعل الإمام الفراهي القرآن الكريم أصلاً في تفسيره، واعتبر المصادر الأخبارية الأخرى فرعية وتبعية لا يستعملها إلا لتأييد ما ثبت بالقرآن وقد عدّ الإمام الفراهي في هذه المصادر الثانوية ما يلي:

أ. الأحاديث النبوية.

ب. الأحوال الموثوق بها والمتفق عليها للأئم الماضية.

ت. الكتب السماوية الأخرى.

وإضافة إلى هذه المصادر الأخبارية تناول الإمام الفراهي مجموعة من المصادر اللغوية كما بين مراتبها من حيث القوة والضعف وكيفية استعمالها ومحله والشروط الواجب توافرها لاستعمال هذه المصادر في تفسير كتاب الله، منها كتب اللغة وأشعار العرب وعلوم البلاغة وعلم الأصول والمنطق والقافية وغيرها.

وقد أوضح الإمام الفراهي جملة من الأصول والقواعد لتفسير القرآن الكريم وهذه الأصول هي المبادئ الأساسية في منهجه للتفسير، وإن هذه الأصول تنقسم إلى ثلاثة أقسام تالية:

1. أولية

¹ المصدر السابق، ص 10

2. مرجحة

3. باطلة

فالأصول الأولية التي يتمسك بها عند ما يحتمل الكلام لمعانٍ مختلفة، ومن هذه الأصول:

1. التمسك بنظم القرآن وسياقه: فإن الكلام لا يحتمل معنى يخالف نظمه، وقدّم الفراهي مثلاً لهذا الأصل آية التطهير وقال إن نظم هذه الآية وسياقها يدلان دلالة واضحة على أنها نزلت في أمهات المؤمنين ولا يشاركنهن غيرهم، وما فعله المفسرون الآخرون في تفسير الآية اعتماداً منهم على الروايات الضعيفة ولا يتمشى مع نظامها وسياقها فيجب رفضه وعدم الاعتناء به.

2. عدم الالتفات إلى معنى شاذ: يجب على المفسر أن لا يلتفت إلى معاني شاذة لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين فلا داعي للالتفات إلى المعنى الشاذ والغريب والمنكر وترك المعنى الثابت والمسلم به.

3. حمل النظر على النظر: فإن النظائر تفسّر بعضها بعضاً، واعتبر الإمام الفراهي هذا الأصل من الأصول الراسخة والمهمة وقدم بعض أمثله.¹ وأما الأصول المرجحة التي يتمسك بها عندما يحتمل الكلام لمعانٍ كثيرة ومنها:

1. اعتبار ما كان أنسب بالمقام وعمود الكلام.

2. أخذ ما كان له نظير في سائر القرآن.

3. اختيار أحسن الوجوه وما كان ألصق بمكارم الأخلاق وأقربها.

4. الأخذ بما هو أثبت الوجود في اللغة العربية.

¹ رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، ص 262-264

وأما الأصول الباطلة التي تمسك بها الناس واعتمد عليها كثير من المفسرين فهي ليست بشيء من أصول التفسير وإنما ذكرها الإمام الفراهي إتماماً للموضوع ويجتنب عنها، كما نصّ الفراهي قائلاً: إنما نذكرها للاجتناب عنها¹ ومن أهمها تأويل القرآن إلى الحديث وتفسيره بالأحاديث والروايات التاريخية.

قد اهتم الإمام الفراهي بالأساليب اللغوية اهتماماً كبيراً، ولا شك في أن للأساليب دوراً أخطر في فهم لغة من اللغات من مفرداتها لأن اللغة ليست عبارة عن الألفاظ والمفردات فحسب، بل هي تشتمل على أساليب الكلام وتزداد دراسة الأساليب أهمية في تفسير كتاب مثل القرآن الكريم الذي يعتبر أروع نموذج للغة العربية والذي تحدّى به الله سبحانه بلغاء الأمة العربية وفصحاء الناطقين بها.

وينفرد الإمام الفراهي عمن سواه من المفسرين في التركيز على دراسة الأسلوب العربي دراسة شاملة في تفسير القرآن، فقد صنّف في هذا الموضوع رسالة سمّاها "أساليب القرآن" وهذا مما يمكن اعتباره أحد المعالم البارزة في منهجه للتفسير، ولكن دراسته للأساليب تختلف عن دراسات علماء المعاني، لأنه وضع هذه القواعد في ضوء الأساليب القرآنية، فهذه القواعد أنفع في فهم القرآن من قواعد علم المعاني التي اشتملت على كثير من الجوانب الشاذة من الأساليب العربية، ومن أهم هذه القواعد تعيين الخطاب، فإن معرفته من مهمات الأمور في علم التفسير، وقد ركّز الإمام الفراهي في هذا الموضوع تركيزاً شديداً وفصّل فيه تفصيلاً وبَيّن أنواع الخطاب وأغراض الالتفات وفوائدها بالتمثيل، وتناول سائر أساليب القرآن مثل القران والوصل والحذف ومواقعه والعود على البدء، والتفصيل بعد الإجمال، والاقتصار على بعض الشيء، ووجوه الوصل والفصل، واختلاف الأساليب في العطف والاعتراض، واستعمال أسلوب عوض أسلوب، والزيادة والاستفهام والشرط، والفصل بين المتصلين واستعمال الحال والإثبات والنفي والتكرار والبدل والوصف والتنكير والتعريف والعطف بالواو والترديد والتقديم والتأخير،

¹ المصدر السابق، ص 262

والتخليص والتعميم والتخصيص واختلاف الصلة والفعل والمقابلة والتفصيل، واختلاف الوضاحة على التقابل، والإبهام ثم الإيضاح، وتضمن القول دليله وغيرها، واستدل الفراهي على هذه الأساليب من كلام العرب وأشعارهم.

فالمنهج الصحيح عند الإمام الفراهي لدراسة القرآن هو أن يفكر في القرآن مباشرة، ويتدبر فيه في ضوء سياق الآيات وسباقها والآيات المماثلة لها ومع ملاحظة أساليب كلام العرب واستعمالاتهم، فينبغي للدارس أن يعين بتدبره ودراسته معنى الآية ومقصودها، وبعد ذلك يرجع إلى الأحاديث والروايات والتفاسير لكي يطمئن قلبه وينشرح صدره، أما إذا اطمأن قلبه بتأويل فليحمد الله وإلا فليطل التدبر والتفكير فيه معترفًا بقلته علمه وضالته فهمه، وليدع الله أن يوسع عليه سبيل فهم القرآن، ولا يقطع هذا الدعاء ما دام الاطمئنان لم يحصل فقال الإمام الفراهي وهو يوضح منهجه في دراسة القرآن:

" ما أخذت معنى الآيات من كتب التفسير ولكن تأملت في رباط الكلام وآيات مماثلة فإذا تقرر عندي معنى جملة من الآيات نظرت في تفسير الرازي والطبري- رحمهما الله تعالى- فربما وافقني واحد من أقوال السلف وربما كنت قريبًا من بعضهم وربما فهمت معنى ثم رجعت فيه وربما أشكل علي شيء فوفقت ومع كل هذه الأمور نحول الإشكال والإبهام إلى قلة علمنا وقصور فهمنا وتقليدنا لما قد أخذنا من الآراء التي أخطأنا فيها".¹

وإن تأملت في تفسيره تجد أنه يسير من أوله إلى آخره على هذا المنهج العدل، إذ أن المتأخرين من العلماء اعتمدوا كثيرًا على الأحاديث والروايات وهي صحيحة وسقيمة معًا، فأولوا آية بتأويلات متناقضة وبعبدة عن الفهم، ومستدلهم الوحيد في ذلك أن الآية تحتمل احتمالات مختلفة ووجوهًا عديدة، أما الأحاديث والروايات فهي أوضح من القرآن الكريم في ذلك مع أن القرآن هو أصل وجدير بالاعتماد والاستناد عليه.

¹ فاتحة نظام القرآن، ص 10

نظرية الإمام الفراهي في الأصول

من خلال (التكميل في أصول التأويل)

- د. حسن يشو¹

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

ويأتي بحثي هذا عناية بالشيخ الإمام الفراهي؛ إذ حرام "أن يظل هذا العلم مجهولاً في الأوساط العلمية والثقافية في العالمين العربي والإسلامي على الرغم من كثرة كتبه ومؤلفاته، التي تدل على عبقرية فذة، وعقلية مبدعة، والتي لا بد أن يكون لها أثر بارز في حاضر العلوم العربية والإسلامية ومستقبلها".²

فقد ألّفت كتاباً عن "الإمام الفراهي وجهوده في خدمة القرآن وعلومه"،³ فكانت أوردت فيه ملحظي اللطيف بخصوص الجانب الأصولي لدى إمامنا الجليل، حيث إنه لم يكتب فيه كتابة تقليدية، ولكنه تقحّم بابه على جدارة واستحقاق يتغيى الإضافة والابتكار، وأفردته في رسالة بديعة بعنوان "التكميل في أصول التأويل" وعقدت العزم على بيان نظريته في التجديد الأصولي لعلها تمثل معلم الإضافة في الكتابات الحديثة المقترحة لمعالم التجديد الأصولي، وناسب جداً أن أهتم بالموضوع اهتماماً زائداً حين وجهت إليّ دعوة كريمة من وريثي التراث العلمي والفكري للإمام الفراهي، في مدينة أعظم جره، بكلية شبلي النعماني الوطنية، بولاية أترابرديش بالهند، في مؤتمر دولي كان شعاره "التراث العلمي والفكري للعلامة عبد الحميد الفراهي". هذا، وأنا لم أعتز على رسالة مفردة في الإمام الفراهي من حيث عطاؤه الأصولي، وكل ما اطلعت عليه انصب عليّ إضافاته في علوم القرآن عامة وفي

¹ أستاذ مساعد، قسم الفقه والأصول بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر

² مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية (الكويت)، كلمة العدد: 9.

³ تحت الطبع لدى دار الكلمة من ثلاث سنوات ولم يعرف النور بعد، وهو الآن في الطباعة يخرج قريباً.

العدد الخاص مجلة الهند

التفسير خاصة، ولا سيما من خلال كتبه كنظام القرآن، ومفردات القرآن، ودلائل النظام، وأساليب القرآن وهلم جرا. من هنا تأتي أهمية بحثي هذا على أنه يطرق مجاًلاً خصباً، ويتناول موضوعاً بكثرًا، فله الحمد والمنة.

أهمية الموضوع: يمكن التأكيد بلا تردد على أن الإمام الفراهي أول من التفت إلى هذا المعلم التجديدي لمادة الأصول وقد سبقت إشارات ومعالم موفقة وأخرى غير موفقة في التجديد الأصولي الحديث، لكن إمامنا الجليل خاض في صلب الموضوع فأصاب كبد الحق فيه وحرى بالأصول المجددة ألا تنفك عن نظريته التجديدية هذه؛ فله دره!

حدود البحث: إن البحث يتناول شخصية الإمام عبد الحميد الفراهي، ونظراته التجديدية في مادة علم الأصول ومدى اتساع رسالته ووظيفته من غير اقتصار على إعمالها في الفروع فقط!

المنهج المتبع: لقد اعتمدت الدراسة الوصفية التحليلية النقدية؛ والمنهج الاستقرائي في تصفح جزئيات الموضوع عبر مختلف رسائل الإمام العلمية الوازنة، وهي تطبيقية لأصوله على النصوص، ومقارنة بغيره من الأعلام.

الدراسات السابقة:

- بحث أصول التفسير عند العلامة الفراهي (عرض ونقد) لزميلي العزيز الدكتور محمد إقبال فرحات.¹ وتختلف أصول التفسير عن أصول الفقه وهو ما جعل وجهة بحثي مغايرة تمامًا.
- بحث الإمام الفراهي ومنهجه في تفسير "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"، للدكتور محمد يوسف الشريجي.² انصبت دراسته على تفسير

¹ نشرته مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية، المجلد الثالث، العدد (2)، جمادى الأولى، 1427هـ، يونيو 2006م، عجمان، الإمارات العربية المتحدة.

² الإمام عبد الحميد الفراهي ومنهجه في تفسير "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" للدكتور محمد يوسف الشريجي، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد 20، العدد الثاني، 2004م.

الفراهي المتاح في كتابه "دلائل النظام" ولم يقترب من المادة الأصولية البتة التي جاء بحثنا منصّباً عليها.

- وله أيضاً: بحث أصول التأويل بين الراغب الأصبهاني وعبد الحميد الفراهي. وهي عبارة عن مقارنة بين منهجين مختلفين في التفسير.
 - حميد الدين الفراهي: حياته ومنهجه في تفسير القرآن وأثر ذلك في الهند للباحث سيد سعيد أحسن العابدي.¹ وهي لا تعدو أن تكون ترجمة لإمامنا المجل!
 - ورسالة ماجستير لسالم العلوي بعنوان "الفراهي وجهوده في تفسير القرآن الكريم".² وغايتنا عن جهوده في أصول الفقه على ندرتها كانت تحمل إضافة.
 - الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن للباحث محمد فريد راوي.³ ولم يخرج عما انتهجه من سبقوه في الوجهة البحثية.
- وعليه؛ فمعظم هذه الدراسات انصبت على جهوده في التفسير ومنهجه فيه؛ فزادني حماساً على أن يكون من أولوياتي في هذه المرحلة الإسهام في إحياء تراث هذا الإمام، وبيان أصوله في التأويل ومناحي التجديد فيه.

الخطّة التفصيلية: قسمت بحثي إلى خمسة فصول:

الفصل الأول: ترجمة الإمام عبد الحميد الفراهي

الفصل الثاني: إسهامات الفراهي في العلوم الإسلامية

الفصل الثالث: الإمام الفراهي وخدمته للأصول

الفصل الرابع: معالم التجديد في الأصول

¹ وأصلها رسالة دكتوراه قدمها الباحث إلى جامعة الأزهر عام 1971م.

² كانت تحت إشراف أ. د. عيادة الكبسي، ونوقشت بتاريخ: 24-11-2009م، في جامعة الشارقة، وكان د. محمد إقبال عضواً في اللجنة العلمية لمناقشتها.

³ ط. دار الشاكر، ماليزيا، ط1، 1436هـ، 2015م. وأصل البحث رسالة جامعية تقدم بها الباحث إلى كلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية بعمان لنيل درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن. وقد اطلعت عليها بعد أن اكتملت حلقات بحثي وألفيته يتقاطع معي في كثير من المباحث، مع اختلاف في المادة العلمية، والمنهج، والأسلوب، ولكل وجهة هو مولها!

الفصل الخامس: قواعد حاكمية في النظر الأصولي

وخاتمة أفرغت فيها نتائج البحث وبعض التوصيات التي رأيتها مناسبة.

وفي الختام أسأل الله تبارك وتعالى أن ينفع بهذا العمل في هذه الحياة، ويدخر لي فضله بعد الممات؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه؛ تيمُّناً بقوله ﷺ: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ذكر منها أو علم ينتفع به".¹

وصلَّى الله وسلَّم على سيدنا محمد الصادق الأمين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الأول: ترجمة الإمام عبد الحميد الفراهي

نتعرض في هذا الفصل إلى ترجمة الإمام عبد الحميد الفراهي محل هذه الدراسة ونطلع على جوانب النبوغ في حياته المبكرة وشيوخه وتنوع العلوم التي تبحر فيها، واختلاف المهارات التي تمكن منها، ورسخ فيها بجدارة واقتدار بما فيها اللغات وعلوم القرآن والفلسفة؛ وهو ما نبينه خلال المباحث الآتية:

نسبه وأصله ومولده:

- هو عبد الحميد² بن عبد الكريم بن قربان قنبر بن تاج علي، حميد الدين، أبو أحمد،³ الأنصاري،⁴ الفراهي.⁵ وكنى نفسه بأبي أحمد تيمُّناً باسم

¹ أخرجه مسلم في كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، برقم (1631).

² وقيل حميد الدين هو اسمه الحقيقي غير أن الإمام الفراهي سَمَّى نفسه في أول مصنفاته "عبد الحميد" عام 1381هـ. انظر حيات حميد للندوي، ص 2. وكذا ظهرت كتبه تبعاً باسم عبد الحميد الفراهي؛ وهو ما حملني على اعتماده.

³ كان رحمه الله يكني نفسه أبا أحمد؛ كما ظهر في أول ديوانه العربي الذي سَمَّاه: "ديوان أبي أحمد الأنصاري".

⁴ نص على هذا النسب العلامة عبد الحي الحسني، غير أن الإمام الفراهي لم يكن يتداولها في كتبه؛ وربما ورعا من الافتخار بالأنساب والله أعلم!

⁵ كل مؤلفاته كان يحب أن ينسب فيها إلى قرينته (فريها)؛ وهي من قرى أعظم كره، من الإقليم الشمالي في الهند، رحمه الله تعالى.

العدد الخاص مجلة الهند

المصطفى ﷺ المبارك؛ حيث لم يكن من أبنائه من اسمه أحمد! إن أسرته هاجرت من المدينة المنورة إلى أفغانستان، وأقاموا زمناً في "فراه"، فلما نزحوا إلى الهند ونزلوا في هذه القرية سمّوها باسم موطهم، وتحرفت على ألسنة الناس إلى "فريها"¹.

• ولد صباح يوم الأربعاء، 6 جمادى الآخرة، سنة 1280هـ، الموافق لـ 1862م، في قرية "فريها" من قرى مديرية "أعظمكره" في الإقليم الشمالي من شبه القارة الهندية من ولاية "أترابراديش".

• حفظ القرآن وهو ابن عشر سنين، وتعلم اللغات كالفارسية وأتقنها ونظم الشعر فيها وهو ابن ست عشر سنة.

صفاته ومناقبه:

- أما صفته الخلقية فقد كان أسمر اللون المائل إلى البياض، ونحيل الجسم، ومتوسط القامة، وكامل اللحية، قليل الكلام، كثير الفكر، محباً للعزلة، ومهيّباً وقوراً، رشيداً وزيناً.²
- وأما بخصوص صفاته الخلقية فقد كان معروفاً بفرط الذكاء، ونفاذ البصيرة، وسرعة الإدراك، ودقة الاستنباط؛ وكان ورعاً زاهداً في الدنيا، قاصداً في العيش، عازفاً عن السمعة والشهرة، حسن العباداة، مع جود وغنى نفس وتواضع، بل كان موضع إجماع لدى معاصريه؛ حتى قال فيه الشيخ شبلي النعماني: "من جلس إلى عبد الحميد³ انصرف قلبه عن الدنيا".⁴
- وقد سئل عن الفراهي العلامة المغربي تقي الدين الهلالي فقال: "هو بحر زاخر لا ساحل له". وقال أيضاً فيه: "والرجل فصيح في التكلم لغاية، نادر في علماء

¹ مجلة معارف، عدد: رجب، 1411هـ، ص 88، مقال: "ترجمان القرآن مولانا حميد الدين الفراهي" للدكتور شرف الدين الإصلاحي.

² انظر ذكر فراهي لشرف الدين الإصلاحي، ص 67.

³ أي عبد الحميد الفراهي.

⁴ حیات حمید، ص 55.

العدد الخاص مجلة الهند

العرب فضلاً عن علماء الهند.. سمعت منه خطبة تفسيره للقرآن أغرقت
منها عيناى لفصاحتها وحقيتها، وهو عارف بمسألة الخلافة محقق لها، لا
يلتبس عليه شيء من أمرها خلافاً لأهل الهند".

طلبه للعلم:

- اشتغل بطلب العربية وعلومها وهو ابن أربع عشرة سنة على يد ابن عمته
العلامة المؤرخ الأديب شبلى النعماني¹ (ت 1332هـ)، وكان أكبر منه بست سنين.
- كما تلقى العلم في حلقة الفقيه الحنفي المحدث العلامة الشيخ "أبي
الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي"² (ت 1304هـ) وتلقى أيضاً عن غيره من
علماء عصره.
- ودرس على الشيخ فيض الحسن السهارنفوري³ (ت 1304هـ)، الأدب العربي
وبعض العلوم العقلية إلى درجة أنّ الشيخ كان يخص الفراهي بمحبة خاصة
جداً؛ لفرط ذكائه، وحسن خلقه، وسمته الحسن، وهيبته، ما حمله على
إهدائه بعض كتبه، كما أنّ الفراهي لفرط حبّ شيخه طبع ديوانه بالعربية
على نفقته الخاصة.⁴

¹ كان من أبرز أساتذته وكان مؤرخاً، أديباً ناقدًا، غزير العلم، واسع الاطلاع على العلم النقلية
والعقلية، خلف من بعده تركة علمية دسمة تاريخية وأدبية منها: "سيرة النبي ﷺ" في ثمانية
مجلدات، و"الفاروق" في سيرة الخليف الراشد عمر بن الخطاب ﷺ، و"النعمان" في سيرة أبي
حنيفة النعمان، و"المأمون".. وهلم جرا.

² هو علامة الهند، وإمام المحدثين والفقهاء فيها، وكانت له رحلة علمية استفاد على إثرها من
علماء الحرمين واستجاز منهم، وكان متبحراً في العلوم النقلية والعقلية على دراية عميقة
بعلوم الحديث وترك مؤلفات كثيرة اعتنى بها الشيخ عبد الفتاح أبو غدة.

³ هو أحد أعلام العربية والأدب العربي في العصر الحديث في شبه القارة الهندية، وقد درسه في
الكلية الشرقية بـلاهور في قسم اللغة العربية، ولم يزل يعمل بها حتى توفاه الله تعالى، ولم
يكن فيه أعلم منه في النحو واللغة والشعر وأيام العرب. له مصنفات جلييلة منها: حاشية على
تفسير البيضاوي، وأخرى على تفسير الجلالين، وثالثة على مشكاة المصابيح، وله شرح
مبسط على ديوان الحماسة، وآخر مبسط على المعلقات السبع، وله ديوان شعر يشتمل على
غزر القصائد. توفي في 12، جمادى الأولى 1304هـ. انظر نزهة الخواطر، 8/ 1328.

⁴ انظر تقديم المفردات للفراهي، ص 17.

- ودرس العلوم العقلية على الشيخ فضل الله اللكنوي¹ (ت 1312هـ).
- واستفاد من شيخه فضل الله بن نعمة الله الأنصاري².
- ثم عَرَّج بعد ذلك على اللغة الإنجليزية وهو ابن عشرين سنة.
- والتحق بكلية "عليكره" الإسلامية، وحصل على "الليسانس" في الفلسفة الحديثة من جامعة "الله آباد".
- وفي أثناء دراسته في كلية عليكره، طلب إليه ترجمة تفسير سيد أحمد³ إلى اللغة العربية، فرفضها قائلاً: "لن أشارك في نشر هذا الإثم".
- وقد درس سنتين كاملتين علم القوانين الجارية (الحقوق)، ولكنه كان يكره الاشتغال به، فنبذه ولم يكمل تحصيله⁴.
- لقد درس الإمام الفراهي اللغة العبرانية، والذي دعاه إلى ذلك انتشار جمعيات التنصير في عهده في الهند، والرد عليهم من كتبهم يقتضي الاطلاع المباشر على كتب اليهود والنصارى، فاستفاد الفراهي بمعرفته للغة العبرانية، ووقوفه على الدراسات المتعلقة بصحف أهل الكتاب في اللغة الإنجليزية، في كشف كثير من تحريفاتهم بنصوص كتبهم.
- لقد أجاد اللغة الإنجليزية وأتقن دراستها وألَّفَ فيها وحاضرَ، وقد اطلع بواسطتها على كتابات المستشرقين عن القرآن وتاريخ العرب، وعلى الأدب الإنجليزي شعراً ونثراً وبلاغاً، وعلى كتب الفلسفة الحديثة وما تُرجم إليها من كتب الفلسفة والآداب اليونانية. ومن مؤلفاته بالإنجليزية رسالة في عقيدة الشفاعة والكفارة، ردَّ بها على بعض علماء النصارى⁵.

¹ هو فضل الله بن نعمة الله الأنصاري اللكنوي قرأ على مشاهير لکنؤ، وكان عديم المثل في العلوم العقلية وله مؤلفات في المنطق وعلم الكلام. انظر نزهة الخواطر، 8/ 1325.

² هو الشيخ فضل الله بن المفتي نعمة الله الأنصاري اللكنوي، ولد ونشأ بلكنهؤ واجتهد والده في تعليمه كل الاجتهاد، ولما برز في الفنون الحكيمة ولي التدريس في المدرسة الملكية "كينج كولج" بلكنهؤ، فدرس وأفاد بها مدة عمره، وتوفي عام 1312هـ. انظر نزهة الخواطر، 8/ 1327-1328.

³ مؤسس الكلية.

⁴ مجلة الضياء: 2/ 7، ص: 260.

⁵ ذكرها السيد سليمان الندوي في ترجمة الفراهي الملحقه بكتابه (إمعان في أقسام القرآن). انظر طبعة دار القلم من كتاب الإمعان، ص 19.

العدد الخاص مجلة الهند

- قال الأستاذ عبد الماجد الدرايبادي: "إن الفراهي قد درس الفلسفة دراسة واسعة وعميقة جدًا، وكان يقرأ أحدث ما يصدر في الغرب من كتب الفلسفة والمنطق، ولم يكن يكتفي بالاطلاع عليها، بل يقرأها قراءة بحث ونقد ومقارنة".¹
- المناصب التي اضطلع بها: وبعدما قضى وطره من طلب العلم، واستقى من حياضه، تسّم بعض الوظائف والمناصب وفق الآتي:
- عُيّن معلمًا للعلوم العربية بمدرسة "الإسلام" بكراتشي (عاصمة السند آنذاك)، عام 1314هـ، فدرس فيها سنين عددًا، وقيل: قرابة تسع سنوات، وكتب وألف وقرض وأنشد.
- عُيّن أستاذًا مساعدًا للعربية بكلية "عليكره"² عام 1324هـ، برفقة المستشرق اليهودي الألماني "جوزف هوروفيتس"،³ وبقي بها سنتين.
- ثم عُيّن أستاذًا للعربية بجامعة "الله آباد" وقضى هناك ست سنوات.⁴
- كان عضوًا للجنة العربية للعلوم الشرقية.
- كان عميدًا لدار العلوم ويدرس الصفوف العليا بها (دراسات عليا).
- كان من مؤسسي الجامعة العثمانية بحيدر آباد.⁵ وإليه يرجع الفضل في جعل اللغة الأردية لتدريس العلوم العصرية في هذه الجامعة.

¹ انظر مقالاته في صحيفة الداعي، عدد (3)، ديسمبر، 1976 م، ومفردات الفراهي، ص 25.

² وفي أثناء إقامته في عليجره ألف الفراهي كتابه (إمعان في أقسام القرآن)، ونشر تفسير سورتي القيامة واللّهب.

³ وهو ناشر الجزءين الأولين من "طبقات ابن سعد"، وصاحب كتاب "المغازي الأولى ومؤلفوها".

⁴ وقضى هناك نحو ست سنوات، أصدر خلالها تفسير سورة التحريم. واختير عضوًا في اللجنة العربية للعلوم الشرقية. ولما اقترح سنة 1331هـ تأسيس جامعة عالمية في المدينة المنورة، كان هو والعلامة شبلي النعماني من بين العلماء الذين اقترحت أسماؤهم للتدريس فيها.

⁵ وفي أثناء إقامته بحيدر آباد ألف كتابه (الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح)، ومقدمات من تفسيره (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان). وكانت له حلقة أسبوعية لتفسير القرآن الكريم يحضرها العلماء والباحثون وطلبة علم القرآن، ويعرضون عليه أسئلتهم فيجيب عنها.

العدد الخاص مجلة الهند

- تولى إدارة مدرسة إصلاح المسلمين التي أنشأتها جمعية إصلاح المسلمين في بلدة "سراي مير"؛ حيث تعهد بها الفراهي بوضع مقرراتها الدراسية متميزة وقد ألقى على أساتذتها دروسًا في تفسير القرآن الكريم.
 - بعد وفاة شبلي النعماني في 1332هـ، أنشؤوا مؤسسة "دار المصنفين" في مدينة أعظمكره، واختاروا الفراهي رئيسًا لها والعلامة سليمان الندوي مديرًا لها.
 - وقد لزم بيته وأسس مدرسة "الإصلاح" التي تستهدف تحسين طرق تعليم العربية، وكان غاية في التواضع مع طلابها ومدرسيها يجلس للجميع ويشاركونهم أطعمتهم في المطعم وهلم جرا.
 - ثم انقطع بعد ذلك إلى تدبر القرآن ودرسه، وجمع علومه، ففقد في أكثر عمره حتى توفي رحمة الله في 19-6-1349هـ، الموافق: 11-11-1930م، في مدينة "متهورا" حيث كان يتطبيب من مرض ألم به.
- تلامذته: يمكن ذكر بعض التلاميذ الذين حضروا مجلسه واستفادوا منه أو درسوا على يديه في القائمة الآتية:

1- العلامة أبو الكلام آزاد (ت 1377هـ)

¹ وكان ذلك بعد عودته من حيدر آباد إذ تولى إمامنا الفراهي إدارة مدرسة إصلاح المسلمين التي أنشأتها جمعية إصلاح المسلمين في بلدة (سراي مير)، وقد قامت هذه الجمعية في منطقة (أعظمكره) لإصلاح عقائد المسلمين وإزالة البدع المنتشرة، وفض المنازعات والخصومات بين المسلمين، ثم أسست الجمعية مدرسة إصلاح المسلمين - التي سميت فيما بعد بمدرسة الإصلاح اختصارًا - لتخرج علماء ودعاة يحملون رسالتها، فاستمر عمل الدعوة والإصلاح. وقد أسند الإشراف على المدرسة إلى الفراهي، وهو في حيدر آباد، فلما رجع إلى وطنه باشر إدارة المدرسة، ووضع فكرتها التعليمية، ورسم لها منهاجًا دراسيًا فريدًا يختلف عن مناهج المدارس الدينية الأخرى في نظامها، ومقرراتها الدراسية، وطريقة التدريس فيها. وفي السنوات الخمس الأخيرة من عمره قد وقف جزءًا كبيرًا من وقته وجهده على خدمة هذه المدرسة، فكان يقيم ثلاثة أيام من كل أسبوع في المدرسة، ويُلقى دروسًا لتفسير القرآن الكريم على أساتذتها وطلابها الكبار. انظر حيات حميد، ص 38.

2- الشيخ سليمان الندوي¹ (ت 1373هـ).

3- الشيخ مناظر أحسن الكيلاني² (ت 1375هـ).

4- الأستاذ عبد الله العمادي³ (ت 1366هـ).

5- الأستاذ عبد الماجد الدرابادي⁴ (ت 1397هـ).

6- الشيخ اختر أحسن الإصلاحي⁵ (ت 1378هـ).

7- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي⁶ (ت 1418هـ).

8- أبو الأعلى المودودي (ت 1399هـ)... إلخ.

¹ كان العلامة سليمان الندوي مؤرخاً كبيراً، ومؤلفاً شهيراً في شبه القارة الهندية، درس في دار العلوم ندوة العلماء، على كبار علماءها وعلى رأسهم شبلي النعماني، هاجر إلى الباكستان عام 1369هـ وشارك في وضع دستورها، وله مؤلفات كثيرة منها "سيرة النبي ﷺ" لشيخه شبلي النعماني وكان من أساتذة المفكر الكبير والداعية النحرير أبي الحسن الندوي. انظر نزهة الخواطر، 8/ 1235.

² كان من علماء الهند المرموقين درس في دار العلوم بديوبند ودرس بها، وكان أستاذاً في قسم الدراسات الإسلامية بالجامعة العثمانية، وترك خلفه مؤلفات من أشهرها "تدوين الحديث" الذي طبع باللغة العربية تحت مراجعة الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف.

³ وهو من مشاهير علماء الهند قاطبة كان متضلعا من اللغة العربية والحديث النبوي الشريف، أخذ عن والده الفقه وأصوله، ثم على جده العلوم النقلية والعقلية، تولى تحرير مجلة البيان العربية، وأنشأ جريدة "الوكيل" وكان مترجماً في دار الترجمة بحيدرآباد، وقد كان متأثراً بشخصية الإمام الفراهي تأثراً منقطع النظير حتى اقتفى أثره فأصبح متفنناً في العلوم والأدب. انظر نزهة الخواطر، 8/ 1297-1298.

⁴ هو أديب معروف سواء في الأردنية أو الإنجليزية، عكف على تفسير القرآن الكريم: ما جعل الإمام الفراهي يؤثر عليه ويترك فيه بصماته.

⁵ لقد درس في مدرسة الإصلاح ونُسب إليها، وقد لازم الإمام الفراهي ملازمة طويلة، وقد وقف حياة في خدمة مدرسة الإصلاح، وقد حفظ بعض مسودات الشيخ الفراهي، وأعدّها للنشر.

⁶ من كبار علماء الهند دري في مدرسة الإصلاح ونُسب إليها، وكان من جملة من لازم الفراهي ملازمة خاصة وتعلم منه علوم القرآن والتفسير له مؤلفات منها "تدبر القرآن" بالأردنية في أربعة أجزاء ضخام واستغرق فيه تسعة وعشرين عاماً سار فيه على منهج شيخه الإمام الفراهي، وقد ترجم كتب شيخه الفراهي إلى الأردية بلغة سهلة سلسلة جعل المادة في متناول الجميع توفي في لاهور عام 1418هـ.

من مؤلفات الفراهي:

- 1- نظام القرآن وتفسير الفرقان بالفرقان.¹
- 2- في ملكوت الله.²
- 3- مفردات القرآن.³
- 4- إمعان في أقسام القرآن.⁴
- 5- التكميل في أصول التأويل.⁵
- 6- حجج القرآن.⁶
- 7- دلائل النظام.⁷
- 8- إحكام الأصول بأحكام الرسول ﷺ.⁸
- 9- الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ.⁹

-
- ¹ طبعته الدائرة الحميدية، ط1، 2008م، أعظم كره، يو- بي، الهند.
- ² نشرته الدائرة الحميدية سنة 1395هـ.
- ³ مفردات القرآن في 475 صفحة، بتحقيق د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2002م.
- ⁴ إمعان في أقسام القرآن في 147 صفحة، دار القلم بدمشق، ط1، 1415 هـ، 1994م. وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات في مصر وفي الهند وفي الكويت، وكانت آخر طبعة له في دار القلم بدمشق عام 1415هـ كما أسلفنا؛ وهي أجود الطبعات لهذا الكتاب. وقد قام بضبطه وتحقيقه الدكتور عبيد الله الفراهي. وقدم له بتعريف بديع العلامة أبو الحسن علي الحسيني الندوي رحمه الله، وترجم له ترجمة حافلة السيد سليمان الندوي رحمه الله.
- ⁵ التكميل في أصول التأويل في 69 صفحة، نشر الدائرة الحميدية بالهند، ط1، 1388هـ.
- ⁶ ذكر في "تفسير سورة الفاتحة" أنه طبع للمرة الأولى سنة 2003م.
- ⁷ دلائل النظام في 127 صفحة، نشر الدائرة الحميدية بالهند، ط1، 1388هـ.
- ⁸ طبعته الدائرة الحميدية، إعداد د. عبيد الله الفراهي، والشيخ محمد أمانة الله الإصلاحي، الطبعة الأولى، 1432هـ، 2011م، ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن المجموعة الثانية، سرائر مير، أعظم كره، يو- بي، الهند.
- ⁹ طبعته الدائرة الحميدية، إعداد د. عبيد الله الفراهي، والشيخ محمد أمانة الله الإصلاحي، الطبعة الأولى، 1432هـ، 2011م، ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن المجموعة الثانية، سرائر مير، أعظم كره، يو- بي، الهند.

- 10- الرائع في أصول الشرائع.¹
- 11- أسباب النزول.²
- 12- كتاب الحكمة.
- 13- ديوان حميد.³
- 14- القائد إلى عيون العقائد.⁴
- 15- أسباق النحو.⁵
- 16- أسباق الصرف.
- 17- فقه البلاغة.
- 18- جمهرة البلاغة.⁶
- 19- تحفة الإعراب.⁷
- 20- أمثال آصف الحكيم.⁸
- 21- الدر النضيد في النحو الجديد.

- ¹ طبعته الدائرة الحميدية، إعداد د. عبيد الله الفراهي، والشيخ محمد أمانة الله الإصلاحي، الطبعة الأولى، 1432هـ، 2011م، ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن المجموعة الثانية، سرائر مير، أعظم كره، يو- بي، الهند.
- ² طبعته الدائرة الحميدية، إعداد د. عبيد الله الفراهي، والشيخ محمد أمانة الله الإصلاحي، الطبعة الأولى، 1432هـ، 2011م، ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن المجموعة الثانية، سرائر مير، أعظم كره، يو- بي، الهند.
- ³ نشره الشيخ بدر الدين الإصلاحي من الدائرة الحميدية عام 1378هـ.
- ⁴ جمع فيه من العقائد ما دل عليه القرآن بالتصريح ويضمن إليه القول الصحيح، نشرته الدائرة الحميدية سنة 1391هـ.
- ⁵ صدرت طبعته الأولى في حياة المؤلف وله طبعات أخرى.
- ⁶ طبع هذا الكتاب في الدائرة الحميدية سنة 1360هـ ثم هو تحت الطبع بتحقيق أ. د. أحمد حسن فرحات وابنه د. محمد إقبال فرحات.
- ⁷ وهي قصيدة رائية في النحو بالأردية من 128 بيتاً مقررة في بعض المدارس الدينية.
- ⁸ وهي مجموعة حكايات آصف نقلها الفراهي من الإنجليزية إلى العربية في زمن الطلب، وظهر الكتاب بعد وفاته.

22- أساليب القرآن.¹

23- الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح.²

24- رسالة في عقيدة الشفاعة والكفارة.³ إلخ.

وقد انتقل إلى الدار الآخرة وخلف تراثاً مخطوطاً ليس بالقليل ومنها:

1- الأزمان والأديان.

2- الإشراق في الحكمة الأولى من حقائق الأمور ومكارم الأخلاق.

3- أصل الفنون.

4- الإكليل في شرح الإنجيل.

5- أوصاف القرآن.

6- تاريخ القرآن.

7- تزكية الروح.

8- تعليقات في التفسير.

9- حجج القرآن.

10- حكمة القرآن.

11- دلائل إلى النحو الجديد والمعاني والعروض والبلاغة.

¹ وهو كتاب يبحث في وجوه الأساليب في القرآن ومفاهيمها ومواقع استعمالها، ودلالة تراكيبها التي تعين على فهم المعنى المراد، وقد طبع في الهند عام 1389هـ في الدائرة الحميدية، وأعدت نشره سنة 1411هـ، ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن.

² صدر الكتاب في حياة المؤلف عام 1338هـ، وطبع في مطبعة معارف بأعظم كره، وفي الدائرة الحميدية سنة 1414هـ، ثم طبعة في دار القلم بدمشق سنة 1420هـ.

³ بالإنجليزية رد فيها على النصارى.

العدد الخاص مجلة الهند

- 12- الدمدمة والشمقمة.
 - 13- رسالة في معرفة إصلاح الناس.
 - 14- الطارق والبارق.
 - 15- العقل وما فوق العقل.
 - 16- فقه القرآن.
 - 17- فلسفة البلاغة.
 - 18- القسطاس (في علم التجويد).
 - 19- قيد الأوابد.
 - 20- لوامع الأفكار.
 - 21- مسائل النحو.
 - 22- المنطق الجديد.
 - 23- النظام في الديانة الإسلامية.
 - 24- النظر الفكري حسب الطريق الفطري.
 - 25- سليقة العروض.. إلخ.
- وفاته: شاء الله تعالى بإرادته وقدرته أن يشيب صاحبنا عبد الحميد الفراهي على ما شبَّ عليه، ويختتم له على ما عاش عليه، ويموت على ما حيَّ عليه، فقد توفي وهو يتلو القرآن الكريم في 19 جمادى الآخرة، عام 1349هـ، الموافق: 11، نوفمبر، 1930م، على إثر عملية جراحية في مدينة (مثورا) وقد دفن بها. صدق القائل في حقه: "عاش حميداً، ومات شهيداً".

الفصل الثاني: إسهامات الفراهي في العلوم الإسلامية

تمهيد: لا شك أننا بين يدي شخصية وازنة وعظيمة من عظماء الهند في العصر الحديث؛ كان له أثر بالغ في إثراء المعارف، وإضافة نوعية في إغناء مجالات التدبر والتفسير، وكذا اللغة العربية على الرغم من كونه أعجمياً من شبه القارة الهندية، ما جعله يدعو للتجديد في الأصولين: أصول التفسير وأصول الفقه بالربط بينهما ربطاً علمياً حميمياً، ترى ما هي أهم تلكم العلوم التي نبغ فيها؟ وما عوامل هذا النبوغ؟

العلوم التي تبهر فيها: إن العلوم الشرعية تشهد بطول باعه فيها، لكن العلم الذي استحوذ على عقله وقلبه، فأقبل عليه إقبالاً منقطع النظير هو علم القرآن. وكل ما درسه من علوم المنقول والمعقول وآداب الأمم وفلسفتها سخره لخدمة القرآن الكريم والمنافحة عنه. وقد شرع في تدبر القرآن الكريم أيام طلبه في كلية عليكره، كما ذكر في فاتحة نظام القرآن، وكان كتاب الله أحب الكتب إليه، والنظر فيه ألد من كل ما في الدنيا.¹

أقول فيه ما قاله ابن العماد في حق ابن تيمية: "وبرع في تفسير القرآن، وغاص في دقيق معانيه، بطبع سيال، وخاطر وقاد، إلى مواضع الإشكال ميال، واستنبط منه أشياء لم يسبق إليها".² بل أقول فيه ما قاله الإمام الذهبي في ابن تيمية: "تقدم في علمي التفسير والأصول، وجميع علوم الإسلام: أصولها، وفروعها، ودقها وجلها".³

فرط ذكائه: ولله دره فقد فرط ذكاؤه ونبوغه المبكر وصقل بالقرآن واللسان العربي المبين؛ قال السيد سليمان الندوي في تحليلته بما هو أهله: "كان آية من

¹ فاتحة نظام القرآن، ص 2.

² شذرات الذهب لابن العماد، 6/ 81.

³ العقود الدرية لابن عبد الهادي، ص 40.

آيات الله في حدة الذهن، وكثرة الفضل، وسعة العلم، ودمائة الخلق، وسداد الرأي، والزهد في الدنيا، والرغبة في مرضاة الله¹. كذا وصفه الشيخ عبد الحي الحسني صاحب "نزهة الخواطر" فقال في عد صفاته العلمية وعوامل النبوغ: "جودة فهم، ووفور ذكاء، وشهامة نفس، وانجماع لا سيما عن بني الدنيا، وعدم اشتغال بما لا يعنيه"².

وهذه الموهبة أهلت له باع من علوم الشريعة عامة وعلوم القرآن خاصة، فانطلى ذكاؤه أثناء إطلالته على مادة الأصول باقتراح جاد وجدير بالاعتماد ههنا.

استقلال النظر: إن الإمام الفراهي لم يكن مقلداً، بل تفرد بدلائل النظام؛ قال رحمه الله: "وكنيت في هذا على بصيرة من ربي، غير متبع لأحد"³. وهو الأمر نفسه الماضي في نظرية التجديد عنده كما نبينه تباعاً.

لقد عرف الإمام الفراهي بمذهبه الحنفي في الأمور التعبدية، غير أنه كان مجتهداً غير مقلد في آرائه الفقهية عامة؛ وذلك يتناغم مع توجهه العام، وينسجم مع الطريقة التي اختطها لنفسه؛ وهي طريقة مثلى حافلة بحرية الرأي دون التقيد بمذهب معين أو بكتاب معين أو بما كتبه السابقون الأولون إن كان الحق الذي يتبين له خلافه. وقد صرح بذلك العلامة المغربي تقي الدين الهلالي في قوله: "... لا ينتهي لمذهب، لكنه يتعبد على مذهب الحنفية؛ لأنه نشأ عليه، ويعتقد أن الأمر في ذلك سهل"⁴.

¹ انظر ترجمة الفراهي في أول من كتاب إمعان في أقسام القرآن للفراهي، ص 15.

² نزهة الخواطر، 8/ 1267.

³ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 15. ويقول بدر الدين الإصلاحي: "فأحس بشدة الحاجة إلى تأسيس هذا الفن، واجتهد فيه وبتوقيفه تعالى، قد أسسه على أصول راسخة، بنيت على قواعد اللسان وأساليب القرآن، تهدي إلى سواء السبيل، وتعين على فهم المعنى المراد، وتعصم من الزيغ في التأويل وتحفظ عن التفسير بالرأي، وتكون كالمعيار والميزان لكل ما يؤخذ من القرآن" انظر دلائل النظام، ص 15، من تقديم بدر الدين الإصلاحي.

⁴ انظر مفردات الفراهي، ص 41.

تفرغه للتدبر وانقطاعه عن الشعر: لقد روى لنا تلميذه البار بشيخه وناقل إرثه بدر الدين الإصلاحي انقطاع المعلم عبد الحميد الفراهي للقرآن والدراسات القرآنية وتركه للشعر؛ فقال: "إن أستاذنا عبد الحميد الفراهي كان أديباً بليغاً وشاعراً حكيمًا، كما يدل عليه هذا المجموع،¹ ولكنه مع ذلك لم يقرض إلا قليلاً؛ وذلك لأنه قد انقطع بحول الله وتوفيقه من بدء شبابه إلى النظر في القرآن والتدبر فيه حتى وجد منه ما تهده به العواطف وتطمئن به القلوب وتسكن إليه الأرواح، فيه سكنت فيه عوامل الشعر وهدأت".²

ولما عاد إلى وطنه وقد اعتبر عمله الإداري واشتغاله بقراءة مؤلفات في غير القرآن الكريم وتدبره مضیعة لحياته فقال في ترجمته الذاتية: "ولما كانت هذه المشاغل تمنعني عن التجرد لمطالعة القرآن المجيد، ولا يعجبني غيره من الكتب التي مللت النظر في أباطيلها، غير متون الحديث وما يعين على فهم القرآن، تركت الخدمة ورجعت إلى وطني، وأنا بين خمسين وستين من عمري، فيا أسفًا على عمر ضيَّعته في أشغال ضررها أكبر من نفعها! ونسأل الله الخاتمة على الإيمان".³

تذوق الفراهي اللغة العربية وعلومها: إن اللغة العربية من مصادر التفسير قولاً واحداً؛ وقد كان الإمام الفراهي ذا ثقافة واسعة، ومتنوعة، وقد بدأ أقرانه في العربية وعلوم القرآن، وقرض الشعر وله ديوان لطيف بالعربية طبع عام 1387هـ، وكان إماماً في العربية وأسرارها، وكان أستاذاً في العربية في أكثر من جامعة وكلية؛ وكانت له استدراقات على أئمة في اللغة، وتحقيقات عظيمة، والمدخل للتدبر تذوق أساليب العرب، وامتلاك ناصية البيان؛ بدليل كتابه "جمهرة البلاغة" الذي نقض فيه الأساس الذي يقوم عليه فن البلاغة عند أرسطاطاليس وهو نظرية المحاكاة التي تأثر بها فن البلاغة، وانتقد عبد القاهر الجرجاني مع اعترافه بجلالته، واقترح تأسيس فن البلاغة على قواعد جديدة في ضوء القرآن الكريم، وكلام العرب الأقياح.

¹ يقصد ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي (بالعربية). المصدر نفسه: ص: (ب).

² المصدر نفسه، ص: (أ).

³ انظر مجلة الضياء: 7/2، ص: 260.

قال الإمام الفراهي: "بمثل الأخذ بأحسن الوجوه، يكون الأخذ بأثبتها في اللغة. فإن المعنى الذي كثر في كلام العرب لا ينبغي تركه إلا لصارف قوي. فإذا تساوى الوجوه الآخر؛ وهو النظم، والموافقة بباقي القرآن، وصرح العقائد، لا بد أن نأخذ المعنى الشائع ومثاله معنى "الشوى"، فإنه لحم الساق عمومًا في كلام العرب".¹

جمعه بين علوم ولغات شتى: قال العلامة أبو الحسن الندوي: "إنه جمع بين التدبر في القرآن والاشتغال به، والتذوق الصحيح لفن البلاغة والمعاني والبيان في اللغة العربية، وبين التشبع من دراسة بعض اللغات الأجنبية والصحف السماوية القديمة، وسلامة الفكر، ورجاحة العقل والتعمق.. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء".²

الفصل الثالث: الإمام الفراهي وخدمته للأصول

تمهيد: لم يكتف الفراهي بالتبحر في علوم القرآن بل خاض في عمق العربية وشد أزره بعلوم الأصول؛ وأقصد بها أصول التفسير وأصول الفقه؛ وما هي خدمته لهذه العلوم؟

جهوده في الأصول: أفرد إمامنا الفراهي أصوله بالتأليف في مصنف لطيف يحمل إضافة علمية لما فيه من جدة وابتكار، وتجديد لعلم أصول الفقه ووصله بأصول التفسير، وكأن هذا العلم بات خداجًا غير تمام؛ فانبرى فضيلته لتكميل مباحثه، وجبر كسوره فسماه "التكميل في أصول التأويل".³ علاوة على كتابه "الرائع في أصول الشرائع"⁴ وكانت أصوله تنتهي إلى أن "الحكمة الظاهرة في كل أمر ونهي هي الطاعة والعبودية والإخلاص لله؛ وهذا القدر ضروري وهو ابتداء لتزكية النفس وأما البصيرة في مصالحها..".⁵

¹ انظر التكميل.

² انظر مقدمة إمعان في أقسام القرآن، ص 13.

³ وهي رسالة لطيفة مضمنة في رسائل الإمام الفراهي؛ وهي موضع دراسي إن شاء الله.

⁴ من رسائل الإمام الفراهي، المجموعة الثانية.

⁵ الرائع في أصول الشرائع، ص 17.

ملايسات كتاب "التكميل": إن الإمام الفراهي رحمه الله أورد أصولاً راسخة لتأويل القرآن إلى صحيح معناه تفادياً للتأويل المستبعد والمنحرف عن مقاصد القرآن الكريم.

موضوع الكتاب: هو الكلمة والكلام من حيث دلالتة على المعنى المراد.

وغايته: فهم الكلام وتأويله إلى المعنى المراد المخصوص؛ بحيث تنجلي عنه الاحتمالات.

الباعث عليه: وكان الباعث على تأليفه ما رآه الإمام من اختلاف العلماء في فهم القرآن اختلافاً كثيراً، وذهبوا في تأويله مذاهب شتى، حتى جعلوه كتاباً مشتبهاً، ملتبساً، فلاح له أن ذلك ما كان ليكون لولا عدم تأسيس أصول التأويل العامة التي يعتمد عليها في كل ما يستنبط من القرآن، فاجتهد في تأسيس هذا الفن على أصول راسخة، بنيت على قواعد اللسان وأساليب القرآن، غير أن الإمام لم يتيسر له إتمامه، ومع ذلك فقد أحاط سماحته بأكثر ما يقتضيه هذا الفن.

مشكلة التأويل: المشكلة في أصول التأويل أن ثمة من لا يرهاها حق رعايتها فيقع في انحرافات فاحشة؛ يقول ابن تيمية: "قوم اعتقدوا معاني، ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها".¹ وهو ما ذكره تماماً ابن قتيبة حين قال: "وفسروا القرآن بأعجب تفسير يريدون أن يردوه إلى مذاهبهم، ويحملوا التأويل على نحلهم".² وهو ما قصده الإمام الشاطبي من تحذيره في الموافقات: "وأهل الوجه الثاني يحكمون أهواءهم على الأدلة حتى تكون الأدلة في أخذهم لها تبعاً".³ وقد قرّر أبو المعالي الجويني رفض هذا النوع من التعسف في التأويل الباطل فقال: "إذا حمل حامل آية من كتاب الله أو لفظاً من

¹ مجموع الفتاوى، 355/13.

² تأويل مختلف الحديث، ص 80.

³ الموافقات، 3/ 291. يقول سيد قطب: "إن هناك قاعدة مأمونة في مواجهة النصوص القرآنية بمقررات عقلية سابقة، لا مقررات عامة، ولا مقررات في الموضوع الذي تعالجه النصوص، بل ينبغي أن نواجه هذه النصوص لتتلقى منها مقرراتنا، فمنها نتلقى مقرراتنا الإيمانية، ومنها نكون قواعد منطقنا وتصوراتنا جميعاً، فإذا قررت لنا أمراً فهو المقرر كما قررتة" في ظلال القرآن، 3979/6.

ألفاظ رسول الله ﷺ على أمثال هذه المحامل-يعني الباطلة- وأزال الظاهر الممكن إجراؤه لمذهب اعتقده، فهذا لا يقبل".¹

التفسير وأصول الفقه: إن المعلوم أن التفسير هو علم يتولى بيان معاني القرآن بلا خلاف؛ غير أن هذه المعاني تخضع لأصول العربية وقواعد الفقه والأصول، ودلالات الألفاظ وهي مباحث أصولية كما لا يخفى. يرى الإمام القنوجي أن علم التفسير "هو علم باحث عن نظم نصوص القرآن، وآيات سور الفرقان بحسب الطاقة البشرية، وبوفق ما تقتضيه القواعد العربية".² وهذا قاسم مشترك مع أصول الفقه؛ لأن الآلية واحدة حيث إن التفسير يسعى لإظهار أحكام القرآن وحكمه؛ وهو أصول الأحكام المسمى أصول الفقه.

أصول التفسير وعلاقته بأصول الفقه: وبناء على تعريف التفسير يكون معنى أصول التفسير أصول فهم معاني القرآن؛ وهو عند تحليل التعريف "الأسس العلمية التي يرجع إليها المفسر حال بيانه لمعاني القرآن، وتحريره للاختلاف في التفسير".³ وقريباً منه هو: "القواعد والأسس التي يقوم عليها علم التفسير. أو العلم الذي يتوصل به إلى الفهم الصحيح للقرآن، ويكشف الطرق المنحرفة أو الضالة في التفسير".⁴

وقيل: هو العلم بالقواعد التي يتوصل بها إلى فهم القرآن وتفسيره، وتبنى عليها جزئيات التفسير، وتعرف بها مناهج المفسرين.⁵ وعليه؛ فالملاحظ اللطيف ههنا

¹ البرهان في أصول الفقه للجويني، 1/356، تحقيق عبد العظيم الديب، ط3، 1412هـ، دار الوفاء.

² فتح البيان في مقاصد القرآن، 1/11.

³ المرجع نفسه، ص 17.

⁴ انظر بحوث في أصول التفسير ومناهجه، د. فهد الرومي، ص 11، ط8، 1428هـ. وقريباً منها ما عرف به الدكتور عبد الرحمن الحاج فقال: "العلم بالقواعد الكلية المتعلقة بالكشف عن أحوال كتاب الله تعالى من حيث دلالاته على المعنى" ثم أرفده قائلاً: "وبذلك تنحصر موضوعات علم أصول التفسير بالكليات من القواعد، كما تتجدد مهمته بالكشف عن الدلالة" انظر التفسير وصلته بمنظور البحث الأصولي، مجلة إسلامية المعرفة، عدد (37-38).

⁵ انظر طريق الوصول للسعدي، ص 9.

العدد الخاص مجلة الهند

هو أن نسبة علم أصول التفسير إلى علم التفسير هي نسبة الآلة والوسيلة إلى الغاية والهدف.

ومعنى ذلك أن أصول التفسير تستخدم في حالتين:¹

الأولى: في حالة بيان المعاني ابتداءً، فمعرفة أصول التفسير تمنعه من أن يأتي بمعنى ضعيف أو فاسد.

الثانية: في حال الاختيار أو الترجيح بين الأقوال المختلفة؛ إذ الاختيار أو الترجيح لا يكون إلا عن علم بالقواعد العلمية وقرائن الترجيح، وإلا لم يكن مقبولاً، وكان من القول على الله بغير علم.

المصطلحات ذات العلاقة؟ ذكرني باصطلاح "قانون التأويل" فقد استعمله قطبان أحدهما مشرقى وهو أبو حامد الغزالي (ت 505هـ) والآخر مغربي وهو ابن العربي المعافري (ت 543هـ).

وأما "قواعد علم التفسير"² فقد استعمله الكافيجي (ت 879هـ) في كتابه "التيسير في قواعد علم التفسير"، والدكتور خالد بن عثمان السبت في كتابه "قواعد التفسير"³ كما تداولها شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله: "فقد سألت بعض الإخوان أن أكتب له مقدمة تتضمن قواعد كلية تعين على فهم القرآن، ومعرفة

¹ انظر التحرير في أصول التفسير، ص 17.

² وقد استعمله بعض المؤلفين منهم:

- قواعد التفسير لمحمد بن إبراهيم الوزير ابن المرتضى اليماني.
- قواعد التفسير لعثمان بن علي المودودي (ت 1211هـ).
- المنهج القويم في قواعد تتعلق بالقرآن الكريم، لشمس الدين بن الصائغ محمد بن عبد الرحمن الحنفي كما أورده حاجي خليفة في كشف الظنون، 2/ 1883.
- ³ يقول الدكتور خالد السبت: "قواعد التفسير هي الأحكام الكلية التي يتوصل بها إلى استنباط معاني القرآن ومعرفة كيفية الاستفادة منها" انظر قواعد التفسير، 1/ 29، دار ابن عفان، السعودية، ط1، 1997م.

تفسيره ومعانيه".¹ وكذا جمال الدين القاسمي إذ وضع فصلاً سماه: "تمهيد خطير في قواعد التفسير" من كتابه "رسائل في أصول التفسير وأصول الفقه". و"مبادئ التفسير" وهو عنوان كتاب الشيخ محمد الخضري الدميّاطي (ت 1287هـ).

وأما "أصول التأويل" فهو اصطلاح خاص بالإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله في كتابه النفيس "التكميل في أصول التأويل".

الغرض من علم التفسير: يختزل هذا المقصد الأسنى العلامة المقاصدي محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله في قوله: "المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد؛ لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير".²

لماذا اختار الفراهي التأويل بدل التفسير؟

التأويل في اللغة: يرجع إلى معنيين: أولهما: مأخوذ من الأول: من آل إليه أولاً ومالاً؛ وهو العاقبة والمصير.

والثاني: مأخوذ من الإيالة؛ وهي السياسة؛ لأن المفسر يسوس الكلام كما يسوس الراعي رعيته، فيلتمس المؤول للكلام أصلح المعاني كما يلتمس السياسي أصلح الأحوال لرعيته؛ والقاعدة في السياسة الشرعية: "تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة".

قال الراغب الأصفهاني: "هو ردُّ الشيء إلى الغاية المرادة منه علمًا كان أو فعلاً".³ أو هو كما قال البغوي والكواشي: "صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها، وما بعدها، تحتمله الآية غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط".⁴ وهو ما برع فيه

¹ مقدمة في أصول التفسير.

² التحرير والتنوير، 1/ 18.

³ مفردات الراغب الأصفهاني، ص 27.

⁴ انظر الكليات، 2/ 16.

إمامنا المبجل! فكان يميل إلى الدراية في التأويل أكثر من الرواية في التفسير رحمه الله، لكن وفقاً لقواعد النظم والسياق والدلالات.

أهمية أصول التأويل:¹

- إن التفسير وأصوله كان أول العلوم تدويناً؛ لعظم قدره، وعلو منزلته، "إذ هو الأصل في فهم القرآن وتدبره، وعليه يتوقف استنباط الأحكام، ومعرفة الحلال من الحرام".²
- إن المشتغل بأصول التأويل يحصل الملكة الراسخة في علم التفسير الوازن، وينمي القدرة على استخراج أحكام القرآن وحكمه على الوجه الصحيح والرصين.
- وعليه؛ فهو وسيلة مثلى لفهم معاني النظم القرآني وتفسيرها وفق القواعد الصحيحة في هذا العلم النافع.
- امتلاك ناصية القواعد الرصينة وإعمالها برؤية متوازنة تدرأ الغلو فيه والجفاء عنه كما في الحديث الشريف.³
- وهو المعيار الصحيح الذي تقاس به الأقوال ويضبطها، ويعرف الصحيح للاحتجاج به مما هو دونه لتركه.
- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "لا بد أن يكون مع الإنسان أصول كلية ترد إليها الجزئيات ليتكلم بعلم وعدل ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت، وإلا فيبقى في كذب وجهل في الجزئيات، وجهل وظلم في الكلليات، فيتولد فساد عظيم".⁴
- إنه يعين على تنمية ملكة الاستنباط من الآيات، ويساعد على الترجيح بين أقوال المفسرين؛ فهو كما قيل: "بمنزلة أصول الفقه بالنسبة لعلم الفقه".⁵

¹ منقول من كتابنا: "الإمام الفراهي وجهوده في خدمة القرآن وعلومه". (تحت الطبع).

² المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبه، ص 20.

³ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "... وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه..". أخرجه أبو داود في سننه.

⁴ مجموع الفتاوى، 19/203.

⁵ انظر بحوث في أصول التفسير لمحمد لطفي الصباغ، ص 11، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1408هـ.

• وبه تنتظم الأمور المنتشرة على تنوعها عبر قواعد حاكمة تؤمن نتائج البحث العلمي في الدراسات القرآنية تمامًا كما قال الزركشي: "فإن ضبط الأمور المنتشرة المتعددة في القوانين المتحدة هو أوعى لحفظها، وأدعى لضبطها".¹

لماذا أصول التأويل؟ وقد أبدع في محاولته "التكميل في أصول التأويل"؛ وكان لبنة مهمة في صرح أصول التفسير بلا منازع!

وقد جعله رحمه الله مقدمة لتفسيره الجليل الموسوم "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" فيقول: "وإنما أردت أولاً بيان النظام فاضطرني إلى التأويل، ثم وجدت خيراً كثيراً، فإن به يكشف عن معنى القرآن ويبطل الأضاليل".² وقد وقع اختياره بعناية مركزة على مصطلح أصول التأويل؛ وهو الكشف عن القرآن بما يزيل عنه الشبه، ويكون ذلك طبعاً بطريق التدبر والنظر العميق، وقد لا يكفي فيه مجرد التفسير؛ وهي "الأصول التي تعين على فهم القرآن الحكيم حسب إلهام البشر".³ وهذه الأصول كما سيأتي على قسمين:

الأول: ما يعصم عن الزيغ في التأويل، ويسد أبواب الاحتمالات الباطلة المتناقضة.

والثاني: ما يهدي إلى الحكم التي يتضمنها كتاب الله.

والجامع بين الأصلين أمر واحد هو التفكير في نظم القرآن.⁴

أغراض التأليف في أصول التأويل: قال الفراهي: "التأويل لا يمكن فصله من النظام، فإنهما مخلوطان. وإنما أردت أولاً بيان النظام فاضطرني إلى التأويل، ثم وجدت فيه خيراً كثيراً، فإن به يكشف عن معنى القرآن ويبطل الأضاليل، فساقني الجدول إلى عباب البحر".⁵

¹ المنشور في القواعد، 1/ 65.

² التكميل، ص 209.

³ المصدر نفسه، ص 223.

⁴ انظر المصدر نفسه، ص 223-224.

⁵ انظر التكميل في أصول التأويل، ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، ص 209، المجموعة الأولى، ط 2، 1411هـ، 1991م، مكتبة الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح- سراي مير أعظم كره، الهند.

يرى الإمام الفراهي أن التأويل فنّ عام، وإن قواعد التأويل أصالة تجري في كل كلام، "ولكن النفع الأعظم منه فهم كتاب الله ومعرفة محاسنه للاعتصام بما هدى الله النفوس به إلى غاية كمالها".¹ وعليه؛ فيمكن اختصار وظيفة التأويل وأصوله وفق ما يراه الإمام الفراهي في الأغراض الآتية:²

- 1- للحاجة الشديدة إلى تأسيس أصول التأويل، وإرساء قواعده، وتشديد مبانيه.
- 2- معرفة الأصول التي تعين على فهم القرآن الحكيم حسب أفهام البشر.
- 3- فهم كتاب الله، ومعرفة مقاصده، وأسراره.
- 4- التفكير في نظم القرآن والتدبر في آيه؛ وهذا بحر لا تنقضي عجائبه.
- 5- بعث التأويل الصحيح الواضح الخفي؛ لأنه قد لا يدركه كثير من الناس لعلّة من العلل!³
- 6- ما يعصم عن الزيغ في التأويل.
- 7- ما يهدي إلى الحكّم التي يتضمنها كتاب الله.
- 8- معرفة محاسن القرآن.
- 9- كي يطمئن القلب به.
- 10- سد أبواب الاحتمالات الباطلة المتناقضة.
- 11- الاعتصام بما هدى الله النفوس به إلى غاية كمالها.
- 12- للمفسرين أقوال ضعيفة لا يحتملها الكلام فلا بد من بيان ضعفها، فبأصول التأويل يدفعها المفسرون، فإن تركوها لم يحسموا جرائيم الباطل.

¹ التكميل، ص 211، المقدمة.

² استقرأت بعضها من كلام الفراهي في أكثر من موضع.

³ تمامًا كما قال الفراهي: "إما لتمكن خطأ فهم أو لعدم علمهم ببعض ما يتوقف عليه التأويل، وهذا أيضا كثير" التكميل، ص 225.

موقع التكميل من أغراض التأليف: يرى الإمام الفراهي أن رسالته "التكميل في أصول التأويل" تخضع لأغراض التأليف كما قيدها العلامة ابن خلدون؛ وهي سبعة:¹

- 1- اختراع علم.
- 2- تكميل نقص.
- 3- جمع متفرق.
- 4- ترتيب متناثر.
- 5- تصحيح خطأ.
- 6- بيان مهم.
- 7- اختصار مطول.

والإمام الفراهي على كل حال لا يدعي أن هذا الفن قد أرسى هو قواعده؛ ليتبوأ مكانه بين سائر العلوم، بل إنه موجود قبله، إذ أن بعضه منثور في مباحث علم أصول الفقه، لكنه خداج غير تمام؛ فانبرى هو شخصيًا مشكورًا؛ لأجل تكميل ما لم يكمل، فقال: "ولم نحتج إلى تأسيس هذا الفن لترك العلماء إياه بالكلية، فإنك تجد طرقًا منه في أصول الفقه ولكنه غير تمام".²

وقد استغرب فضيلته أن يكون مجرد جزء ليس إلا من أجزاء أصول الفقه، وما كان كذلك، فلا يمكن أن يكون مستقلًا أو قائمًا بنفسه بالمرة، حتى يعطى قدره المستحق، ويحاط بالدراسة الوافية ويرتقي إلى حجم هذا العلم الذي يشرب إليه من جراء أن يستوي على سوقه. ولعل مما أضعفه وأرهقه أن بقي أصول التأويل

¹ انظر مقدمة ابن خلدون، 3/ 1237-1240، وكشف الظنون، 1/ 35-36، ازهار الرياض للمقري، 3/ 34-35، التقريب لحد المنطق ضمن رسائل ابن حزم، 4/ 103، قواعد التحديث، ص 38، منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفًا وتحقيقًا لفاروق حمادة، ص 17-19، نظرية الاستصلاح بين التعقيد الأصولي والتطبيق الفقهي المعاصر د. حسن يشو، 1/ 46 (أطروحة مكونة)، جزء في التصحيح والضبط، د. حسن يشو، ص 15-16.

² انظر التكميل، ص 211.

لحد الآن متعلقًا بفروع الشرائع لا أصولها! علاوة على أن الاختلاف في الفروع أمور هيينة انتقلت عدواها إلى رحاب علم الأصول؛ فهان، وبات هيئًا، والأصل أن يكون قويًا على غرار أصول الدين!

وقد عقد العزم رحمه الله على تهذيب مادة أصول الفقه؛ لما دخلها مما ليس منها، على الرغم من أنه علم أصيل لم يتأثر بالفلسفات والعلوم الأخرى لدى الأمم والحضارات الأخرى، كما هو حال بعض العلوم على غرار المنطق والفلسفة المتأثرين باليونان أو الهند فقال رحمه الله: "وأما الأصول فإننا لا نجحد فضل من أسس هذا الفن، فإنهم لم يأخذوه من اليونان ولا الهند ولا غيرهما، بل دعت الحاجة إلى وضع أصول لاستنباط الأحكام من الكتاب والسنة، فهم قدوة في هذا الفن الشريف. ولكن الخلف لم يهتدوا لتهذيبه وإصلاحه فبقي واهي القوى، ضئيل الأركان، ولما يبلغ مبلغًا به يستحق اسم الفن. فترى فيه اختلافًا كثيرًا ينجر إلى اختلاف الأحكام، وليس الأمر كذلك في النحو، والمنطق، وغيرهما من الفنون ونتكلم فيه بقدر الحاجة الشديدة. ولعل الله يوفقي أن أهذب هذا الفن، والأمر بيده".¹

وإن أصول التأويل لما جعل تابعًا لأصول الفقه وطرفًا في مسائله الفرعية، كل ذلك حط من علم التأويل من ثلاثة مراتب؛ هي:

- 1- إنه كان حريًا بالبحث المستقل، فصار له شركاء فصار مغمورًا فيها.
- 2- إنه كان معظم علم التفسير لكونه أصولًا لفهم القرآن، وإذ جعل من علم الفروع لم يبالغ في تنقيحه حتى يصير لعلم التأويل كالمعيار والميزان، مثل علم النحو والعروض. فما بلغ مبلغ الفن المنقح، بل كان قصاره، أن يكون أصولًا شخصية مثل قوانين الأمم المختلفة، فيقال إن أبا حنيفة- رحمه الله- جرى على هذه الأصول، والشافعي- رحمه الله- على تلك.

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 34.

3- إن القرآن ليس مقصوراً على الفروع، بل معظمه يتعلق بالعقائد وبواطن الأخلاق. وإذ جعل من أصول الفقه صار مقصوراً عليه، ومن هذه الجهة خاصة وقع خلل فاحش في بناء العلم الذي يهدي إلى فهم القرآن.¹

إن القرآن الكريم ينطوي على العقائد، والشرائع، والأخلاق. وثلاثها قد أشبعت بالمعالجة القرآنية والتأصيل العلمي الرصين، وإرساء قواعدها، غير أن الفقه أي مسائل الفروع وضعت له أصول، ولم توضع للأخلاق والعقائد على الرغم من أن النص القرآني تكفل بها جميعها؛ وهذا الأمر العجيب ههنا!

وهذا ما حدا بأرباب السلوك والفلاسفة للتأليف في الأخلاق على مناهج تفتقر إلى الأصول؛ نظراً لأنه جرّدت عنها، فنظّروا للأخلاق تبعاً للفلسفة القديمة والحديثة، أو نسجاً على تخبط الباطنية والمتصوفة الغلاة وشطحاتهم، أو بناء على الروايات الضعيفة والموضوعة، أو على مطلق التجارب الذاتية والموضوعية.

ولقد كان الأمر طبيعياً لو شُدَّت الأخلاق بأصول التأويل، وبالتالي لما تلكأ الداخلون هذه الحمى عن سواء السبيل! وعبر تأويلات متخبطة ومستبعدة فضلاً عن كونها غاية في الركاقة!

والأمر نفسه في العقائد التي باتت محل مناقشة ومساءلة بين الباطنية الذين خرجوا عن أصول العربية إلى ادعاءات وهمية في فهم النصوص من غير زمام ولا خطام! كما دخل على الخط علماء الكلام بمطارحاتهم الفلسفية اليونانية لكنها مكتوبة بأحرف عربية فعكرت صفوها وكدرت نقاءها؛ بحيث لو حكمت بأصول التأويل لما أمكنها أن تصول وتجول بغير دليل وبرهان! فترك بعضهم ظاهر القرآن جملة وتفصيلاً، وتركوا حقيقة الآيات وأن الأصل فيها المجاز، ولبس بعضهم على أن كل الآيات متشابهات وهلم جرّاً.

إن الشيخ الفراهي كان ينزع إلى وضع أصول التأويل بمعنى أصول الدين الإسلامي بحيث إن هذا العلم بقواعده ينتظم العقائد والأخلاق علاوة على الأحكام

¹ انظر التكميل، ص 213.

الفرعية، أما أن يختزل في الأحكام الفرعية فهذا المثلث الظاهر، والعيب البارز، والخطر الجسيم.

فأصول التأويل ينتظم كل ما يتعلق بالقرآن ويتفرع عنه ويؤخذ منه؛ فقال رحمه الله: "فإن جعلت القرآن أصلاً لتمام علم الدين كما هو في الحقيقة، صار من الواجب أن يؤسس أصول للتأويل، بحيث تكون علماً عاماً لكل ما يؤخذ من القرآن".¹

ما الفرق بين أصول التأويل وإحكام الأصول؟ إن الإمام الفراهي ألف رسالتين علميتين وازنتين تحملان الإضافة العلمية، وتنضحان بالجدة والابتكار؛ فالأولى هي ما نحن بصدد قراءتها وهي "التكميل في أصول التأويل" والثانية هي "إحكام الأصول بأحكام الرسول"، وقد بين فضيلته الفرق بينهما فقال: "إن هذا² مختص بالدلائل المأخوذة من القرآن وصريح العقل، ولا يبحث إلا عن ما يتعلق بفهم معنى الكلام وتأويله. وذلك³ يبحث عن أصول استنباط المسائل، ودلائله جليها مأخوذة من الحديث. ومع ذلك يؤخذ المؤيدات بعضها من بعض".⁴

علاقة إحكام الأصول بأصول التأويل؟ وإن اختلفت الخصائص المفردة لكل نوع منهما؛ غير أن الوجهة واحدة، وهي ما تضيفي ضرراً من التجديد على "مدرسة أصول التأويل". فضلاً عما ذكرناه آنفاً من فوائد وثمرات أصول التأويل؛ وهو يضم لجنابه أصول الفقه، فكذلك إحكام الأصول بأحكام الرسول ﷺ؛ فالغرض من هذه العلوم تقليل الخلاف؛ والتمكين من الفوائد العظيمة لهذا العلم وهي:⁵

¹ انظر التكميل، ص 214.

² يقصد التكميل في أصول التأويل.

³ أي "إحكام الأصول بأحكام الرسول ﷺ". طبعته الدائرة الحميدية، إعداد: د. عبيد الله الفراهي، والشيخ محمد أمانة الله الإصلاحي، الطبعة الأولى، 1432هـ، 2011م، ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن المجموعة الثانية، سرائر مير، أعظم كره، يو- بي، الهند. وموضوعاته ثلاثة هي: فتاوى النبي ﷺ من القرآن، ثم أصل راسخ، ثم رسالة عمر بن الخطاب ﷺ إلى أبي موسى الأشعري ﷺ.

⁴ رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، ص 210.

⁵ انظر إحكام الأصول، ص 112، ضمن المجموعة الثانية من رسائل الفراهي.

- 1- إن فيه تأسيسًا لعلم أصول الفقه الذي يعم الشرائع والعقائد، وهو المعنى الأعلى للفقه، وبه يتم التأسّي بالرسول ﷺ فيما علمنا من الكتاب والحكمة.
- 2- وإن فيه اعتصامًا بعروة وثيقة في تأويل الكتاب بنفس الكتاب.
- 3- وإن فيه كشف قناع عن رفيع منزلة الرسول ﷺ، وعلو محل كتاب الله الحكيم العلام.
- 4- وإن فيه رفع نزاع من بين العلماء في تطبيق السنة بالكتاب.
- 5- وإن فيه إطاعة لما أمرنا الله به من الرجوع إلى الله والرسول عند التنازع.
- 6- وإن فيه خروجًا من اختلاف ربما يفضي إلى خلاف، أعاذنا الله منه، وهو الغاية التي يجري إليها أكثر من صنف الفراهي.

التمييز بين التأويل والتحريف والتفصيل: يرى الإمام الفراهي أن التأويل هو "حمل الكلام على ما يحتمله نقلًا أو عقلاً"، وأما التحريف فهو حمله على ما لا يحتمل"، ويبقى أن التفصيل هو "ذكر أجزاء لم تذكر لجامع يحتملها". وإن الفرق بين هذه الثلاثة من أشد الأمور وجوبًا لفهم القرآن والتمسك به.

ثم إن عملية الخلط بين الثلاثة مصطلحات يفضي إلى مفاصد جمة، لاسيما بين التحريف والمصطلحين الباقيين، وقد يهون إلى حد ما بين التأويل والتفصيل، فوجب التنبيه على ذلك؛ فقال الإمام الفراهي: "والضرر من تخليط التأويل بالتفصيل أهون من ضرر تخليط التحريف بهما. فإنه باطل محض، وافتراء على الله، وهدم لدينه، وإقامة لدين آخر. ألا ترى كيف ضلّت النصراني واليهود بتحريف الكلم عن مواضعه؟ وكيف لعن الله اليهود خصوصًا؟ لأن الذي بدّل النصرانية كان يهوديًا عدوًا للنصارى. وما أشد غضب الله على من تعمد إضلال عباده؟ وما أشد ضلالة من اتبع عدوه؟ وقد كادت اليهود هذا الكيد بالمسلمين حسب عادتهم ولكن حفظنا الله".¹

¹ التكميل، ص 227-228.

الفصل الرابع: معالم التجديد في الأصول

تمهيد: إن الإمام الفراهي برع في التأويل الصحيح، القائمة على الحجة العقلية، وتنسج له اللغة العربية، بعد إمعان التدبر، وفهم السياقات، والدراسة العميقة للمصطلحات كما هي خدمته الجليلة في تفسير نظام القرآن وكذا في المفردات، ولم ينفك عن ذلك في الأصول كما سيأتي؛ وهذه جملة من الدلالات على التجديد لدى الإمام الفراهي وفق المباحث الآتية.

دلالات أن أصول الفقه قطعية؟ إن الإمام الشاطبي يعتبر أصول الفقه من صلب العلم ومتمينه لا من ملحه، بل من أعلى أقسام العلم؛ بسبب أن خواص هذا العلم أن يكون ثابتاً بالقطع أو راجعاً إلى أصول مقطوع بها كما بينه في المقدمة الأولى. وهذا له قدر كبير من الأهمية في عملية الاستنباط وقراءة النص واستلزام الأحكام والوصول إلى المعاني الصحيحة. وذلك بناء على أن الأصول هي أصول الأدلة والقواعد الكلية التي يستعان بها في استنباط الأحكام الفقهية، واستلزام الحكم واللوائح العلمية، والأسرار البيانية. وهذا المراد فإن مادة الأصول المكتوبة فيها من الظنيات الشيء الكثير، بدليل وجود الخلاف حولها حسب المذاهب، والخلاف نفسه دال على أنها غير قطعية، ولو استرسلنا مع الإمام الشاطبي لصفيها كتب الأصول ومباحثه مما دخله من ظنيات مدرجة؛ لذلك افتتح كتابه بالمقدمة الأولى المصروفة بما لا يدع مجالاً للتأويل على أن أصول الفقه قطعية لا ظنية. "والدليل على ذلك: أنها راجعة إلى كليات الشريعة، وما كان كذلك فهو قطعي".¹

قال الطاهر بن عاشور: "لأننا لم نرهم دؤنوا في أصول الفقه أصولاً قواطع يمكن توقيف المخالف عند جريه على خلاف مقتضاها، كما فعلوا في أصول الدين، بل لم نجد القواطع إلا نادرة مثل ذكر الكليات الضرورية: حفظ الدين والنفس والعقل والنسب والمال والعرض. وما عدا ذلك فمعظم أصول الفقه مظنوننة".²

¹ الموافقات: المقدمة الأولى.

² مقاصد الشريعة الإسلامية للطاهر ابن عاشور، ص 168، تحقيق د. محمد الطاهر الميساوي.

وموقع الإمام الفراهي من كلام الشاطبي أنه يعنى بالكليات في محكم التنزيل، ولا يقبل أن تكون أخبار الأحاد ناسخة له، فهو علم الأصول الناظر في النص الشرعي ولا سيما في كتاب الله والهادي إلى البيان الصحيح! ويمكن أن يضاف إلى ما أورده ابن عاشور من الأمور الكلية الضرورية التي تنم عن أصول قطعية ما أولاه الفراهي من عناية للنص الذي ينبغي أن يكون حاكمًا، وأن نهيب جانبه، بأصول قاطعة لا ظنية، فمن هنا تأتي دعوته إلى امتزاجه بأصول الدين وأصول الأخلاق وأصول التفسير؛ كلها تجعله يكتسي الطابع القطعي الذي لا تزحزحه الفروع عن مواضعه.

الفقه بمفهومه الواسع: عرف الإمام العظم أبو حنيفة الفقه على أنه "معرفة النفس ما لها وما عليها" فأدخل في موضوعه مباحث علم الكلام والتوحيد، وكان لذلك قاصدًا؛ ما جعله يقسم الفقه بحسب موضوعه إلى قسمين:

1. الفقه الأكبر: وهو التوحيد للخالق.
2. الفقه الأصغر: وهو الفروع المتعلقة بالمخلوق والمكلفين.

والملاحظ أن الإمام الجويني حين عرف الفقه قال: "هو معرفة الأحكام الشرعية التي طريقها الاجتهاد" ولم يدرج على ما درج عليه عامة الشافعية والجمهور بإثبات قيد "العملية" ولعل مراده أن يوسع من دائرة الفقه الإسلام على نحو ما قام به أبو حنيفة؛ فتندرج مسائل الاعتقاد أو بعضها وكذا الأخلاق ضمن مباحث الفقه الإسلامي؛ وتأصيله واضح في مسمى الأحكام الشرعية التكليفية بقولنا: إن الإيمان واجب، والصدق واجب، والتقوى واجب، أو إن الخيانة حرام، والكذب حرام، والحسد حرام واليأس من رحمة الله حرام، وكذا في تعامل العبد مع مولاه ﷺ، في وجوب إثبات الصفات التي أثبتها لنفسه، وحرمة وصفه بصفة من غير دليل الوحي أو السنة الصحيحة، وحرمة المعتقدات الفاسدة من الشركيات والقبوريات.

من هنا فإن الإمام الفراهي لم يجعل علم أصول الفقه مرتبطًا بالفقه والأحكام العملية الجزئية التفصيلية، فهو بإضافته للفروع يضعف الأصول، فينبغي أن

يبقى العلم- الأصول- شامحاً كبيراً، غير مقتصر على الفروع البتة: حتى يمتد للأصول الدين والأخلاق والتفسير فتأمل!

ضرورة التلازم بين أصولي التفسير والفقه: بناء على ما سبق فإن أصول الفقه طريق لفهم النص القرآني يحط بنا في شاطئ الأمان: فبات أصول الفقه والتفسير أمرين متلازمين؛ قال السكاكي: "ولله درّ شأن التنزيل لا يتأمل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لا تسع الحصر. ولا تظنن الآية مقصورة على ما ذكرت، فلعل ما تركت أكثر مما ذكرت؛ لأن المقصود لم يكن إلا مجرد الإرشاد لكيفية اجتناء ثمرات علي المعاني والبيان، وأن لا علم في باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ منهما على المرء لمراد الله تعالى من كلامه".¹ وعليه فقد أكد هذه الأهمية والحاجة لأصول الفقه العلامة ابن جزي الغرناطي فقال: "وأما أصول الفقه فإنها من أدوات تفسير القرآن، على أن كثيراً من المفسرين لم يشتغلوا بها، وإنما لنعم العون على فهم المعاني وترجيح الأقوال. وما أحوج المفسر إلى معرفة النص، والظاهر، والمجمل، والمبين، والعام، والخاص، والمطلق، والمقيد، وفحوى الخطاب، ولحن الخطاب، ودليل الخطاب، وشروط النسخ، ووجوه التعارض، وأسباب الخلاف، وغير ذلك من علم الأصول".² وبناء عليه، فقد كانت صياغته لعلم التفسير تقطر بماء المصطلح الأصولي حيث قال: "ومعنى التفسير: شرح القرآن، وبيان معناه، والإفصاح بما يقتضيه بنصه، أو إشارته، أو فحواه".³

وكان العلامة الفراهي ممن نبّه على أهمية الأصول في مجال التفسير فأجاد وأفاد وحقّق المراد في كل ما كتب حول القرآن وعلومه. حتى قال رحمه الله: "فهذا كتاب من مقدمة نظام القرآن، أفردناه لتمهيد أصول راسخة لتأويل القرآن إلى صحيح معناه... فإنك تجد طرفاً منه في أصول الفقه ولكنه غير تمام".⁴

¹ مفتاح العلوم، ص 183.

² التسهيل لعلم التنزيل لابن جزي الغرناطي، 1/ 18، تحقيق عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، 1416هـ.

³ التسهيل لعلم التنزيل، 1/ 15.

⁴ انظر التكميل، ص 9.

بل قال الفراهي أيضاً: "وإذا كان المقصود تكميل هذا الفن حتى يكون هو المعتمد في فهم كتاب الله وكل كلام حكيم، سمّيناه التكميل في أصول التأويل".¹

ذلك لأن "الخلاف - حسب ابن تيمية- بين السلف في التفسير قليل، وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير".² ثم قال: "ومع هذا فلا بد من اختلاف محقق بينهم، كما يوجد مثل ذلك في الأحكام".³ وهذا يدخل في مبحث أصيل في أصول الفقه وهو دلالات الألفاظ؛⁴ وقد عدّها أبو حامد الغزالي عمدة أصول الفقه فقال: "اعلم أن هذا القطب هو عمدة علم الأصول؛ لأن ميدان سعي المجتهدين في اقتباس الأحكام من أصولها، واجتنائها من أغصانها".⁵

ما الغاية من أصول التأويل؟ قال الفراهي: "غاية هذا العلم هو المنع عن التفسير بالرأي".⁶ وكان هذا عنواناً بارزاً في رسالته اللطيفة عن أصول التأويل؛ غير أنه يقصد به الرأي المنحرف والاختلاف المذموم الناشئ عن اختلال أصول التأويل عند القوم، ثم إن القرآن نفسه "قد تضمن من الحكمة والمعارف ما لا يحيط به إلا الله تعالى، وقد حث على التفكير والتدبر فيه وقد تبين لأصحاب العقول معارف غامضة قد تضمنها الآيات ولم يجدوها فيما روي عن السلف فذكروها في تفاسيرهم"⁷ ومن بينها تفسير ابن جرير الطبري⁸ وابن كثير¹ وفخر الدين الرازي² والزمخشري³ وفيها جميعها الغث والسمين على الرغم من تلقي الأمة لها بالقبول.

¹ المصدر نفسه، ص 9.

² مقدمة في أصول التفسير، ص 11. طبعة دار مكتبة الحياة، بيروت، 1490هـ، 1980م.

³ المصدر نفسه، ص 20.

⁴ وقد أفردها بالتأليف الشيخ محمد أديب صالح بعنوان: "تفسير النصوص" في جزئين، والشيخ يعقوب الباحسين في "دلالات الألفاظ" في جزئين أيضاً.

⁵ المستصفى، 2/3، تحقيق د. حمزة بن زهير حافظ، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

⁶ انظر التكميل، ص 215.

⁷ انظر التكميل، ص 215.

⁸ يقول الفراهي عن تفسير الطبري: "فاعلم أن تفسير ابن جرير -رحمه الله- هو الجامع لكل ما جاء من طريق النقل من غير نقد في الرواية، ولكنه بعد نقل الوجوه المنقولة يبين ما هو الصواب عنده. وإذا أمكنه يجعل المفهوم جامعاً للوجوه، ويبحث عن اللغة والإعراب وكثيراً ما يستند

وقدوتنا ههنا الصحابة الكرام الذين وإن اختلفوا كان اختلافهم يصدر بناء على أصول ينبغي اعتمادها في مشروع أصول التأويل؛ سواء كان ذلك في مصادر المعرفة أو ابتعادهم عن تأويل النصوص بالرأي المذموم قطعاً؛ أو امتلاك ناصية اللغة العربية لسان الشريعة الغراء؛ فقال: "ولكنهم أخذوها عن علمهم باللسان، واقتصرهم على علمهم بنظائر الآيات، وعلمهم بالسنة وعن بصيرة يعطها الله عباده، ولذلك ترى أنهم يتقاربون في المأل. وبالجمله فإنهم لم يؤولوا القرآن بالرأي المذموم الذي لا مستند له في الكتاب والسنة ولسان العرب".⁴

وفي كتاب "التكميل أصول التأويل" يبين عما يؤخذ من المعاني المختلفة، وما لا يؤخذ، وما يمكن بينهما الجمع. ثم بعد ذلك يستوي السبيل إلى فهم ربط معاني القرآن من نفس القرآن؛ يقول الفراهي: "وهو أحب إليّ من أن يؤخذ من كتابنا "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"، فإن العلم من طريق الاستنباط والفكر بصيرة وبينة. ولكن من ولي بالمستنبط المتفكر المفرغ جهده في أخذ المعارف من عيونها النضاجة إلا ما شاء الله وفوق كل ذي علم عليم".⁵

بكلام العرب ومن أجل محاسن هذا التفسير كونه جامعاً لروايات السلف مع التعرض باللغة والنحو وترجيح الأولى بالصواب عنده. ولهذه الوجوه أقبلت العلماء عليه. وأما النظر في الروايات من جهة القرآن والمعقول والتاريخ، فليس من شأنه حتى إنه جمع من المناكير الكبر من غير تنبيه على نكارتها. وإنما ترك ذلك لأهل النظر فإنه لو أراد له لعله يتييسر له إتمام هذا الجامع الكبير "رسائل الإمام الفراهي، ص 216.

¹ وأما تفسير ابن كثير فهو خلاصة تفسير ابن جرير مع نقد الروايات على أصول المحدثين ونقد التأويل، وأما النظر من جهات آخر مما قدمنا فلا يطلب في تفاسير المحدثين. رسائل الإمام الفراهي، ص 216.

² يقول الفراهي: "وأما تفسير الرازي فهو جامع لأقوال المتكلمين فهو كابن جرير في جمع الأقوال وربما يرجح الصواب وينتصر لمذهب الأشاعرة وأجل محاسنه كونه جامعاً. فيجد فيه الناظر المتأمل محلاً للاختيار وأعمال النظر ومع ذلك لا ينظر بالإمعان والتأمل، ولو فعل لعله لم يتييسر له هذا الإكثار في القول. فإن ذلك ليس من شأنه ولذلك جمع من المناكير الكبر فهو كابن جرير في خلط الغث بالسمين". رسائل الإمام الفراهي، ص 216.

³ وأما الزمخشري فينظر في نفس عبارة القرآن ولا يبعد عنها ويبحث عن اللغة والإعراب وربط الكلام، وينتصر لمذهب المعتزلة من غير تطويل الكلام ويورد قليلاً من الروايات وجل محاسنه أنه وجيز وقليل السقطات في اللغة والإعراب فهو أنفع للطلاب. رسائل الإمام الفراهي، ص 216.

⁴ انظر التكميل، ص 215-216.

⁵ انظر مفردات الفراهي، ص 12.

تكميل ثلاثة علوم: لقد بين سماحته رحمه الله الخلل في قصر التأويل في علم الفقه والشرائع فقط، إذ لا يخفى أن الدين معظمه ترقية النفوس وتربية العقول وإصلاح الأعمال الظاهرة أي الأخلاق والعقائد والشرائع، والقرآن قد تكفل كل ذلك بأحسن ما يكون، وكل ذلك متصل ببعضها ببعض، وبجميعها تحصل التزكية وهي الغاية والمطلوب، ولهذه الثلاث نشأت ثلاثة علوم:

1- علم الأخلاق والمواظ.

2- علم الكلام.

3- وعلم الفقه.

وإذ جعل علم التأويل مقصوراً على الفقه، بقي علماً الأخلاق والكلام فارغين عنه، فلا نجده مستعملاً فيهما، ولم يعتمد أهلها على أصول راسخة.

فإن جعلنا القرآن أصلاً لكل هذه العلوم، صار من الواجب تأسيس أصول التأويل؛ بحيث تكون علماً عاماً لكل ما يؤخذ من القرآن.

أصول التأويل حماية للتشريع والتفسير من التلاعب: إن أصول التفسير موضوعه بيان ما يعصم عمل المفسر من الوقوع في الرأي المذموم¹ وعليه؛ فإن باستقراءنا القراءة المعاصرة للقرآن الكريم² على تنوع مدارسها؛ فإنها تستهدف

¹ انظر بحث أصول تفسير القرآن الكريم العقلية: الواقع والمقترح، د. إدريس نفش الجابري، ضمن الأبحاث المنشورة في المؤتمر العالمي الثالث للباحثين في القرآن الكريم وعلومه، في موضوع بناء علم أصول التفسير: الواقع والأفاق، 2/ 1035، مطبعة أنفو- برانت، فاس، المغرب، 1436هـ- 2015م.

² من أظهر هؤلاء نصر أبو زيد الذي قال إن القرآن مرتبط بأسباب النزول التي تصل إلى نسبة خيالية؛ من أجل قطع صلة الوحي بالسماء، وشده إلى الأرض وأسباب النزول، متجاهلاً ما درج عليه علماء القرآن من أن معظم القرآن نزل ابتداءً. علاوة على تجاوزه المعنى الذي دل عليه اللفظ القرآني في عصر التنزيل، والبحث عن المغزى، حيث يرى أن المعنى القرآني قد أعطى الأنثى نصيباً محدداً من الميراث بعد المنع المطلق، وعليه، فيجب ألا نقف عند هذا المعنى الذي حدده القرآن، بل علينا أن نتجاوزه إلى المغزى؛ وهو الإنصاف بعد الظلم، لنسير على درب الإنصاف إلى نهايته. انظر نقد الخطاب الديني لنصر حامد أبو زيد، ص 193، والأساس في أصول التفسير، ص 25.

إفراغ القرآن الكريم من مضمونه الاعتقادي والتشريعي والأخلاقي، وتعمل على تحويله إلى وعاء فارغ مهياً لكل ما يمكن أن يلصق به من المعاني والأفكار والأيدولوجيات، وهي بالنهاية ترفع القداسة عن النص القرآني، وإن ألبست لبوس المعاصرة والحداثة؛ لكنها أخلت بأصول التفسير، وقواعد التأويل؛ وتحريف الكلم عن مواضعه، وهو ما حذر منه الإمام الفراهي في كل ما كتب.

قال الفراهي: "فهكذا الأمر في القرآن، فإنك كلما زدت علماً رفع لك ستر عن معانيه. وليس لأحد أن يؤول القرآن بما لم يثبت من الحق، وبقي عليه جلاباب الشك. فإنه سينقشع عما هو ليس بحق؛ ولذلك ترى حماقات من أوله إلى هواجس نفسه، وأحلام رأسه. ووجب التمسك بآياته البينات المحكمات وما ثبت من الأخبار المستفيضة، وكذلك وجب التمسك بكل حق انكشف حق الانكشاف من أي علم كان، لا بما يمدونه لتمشية سعيهم ظناً وادلاً لا به، فهو ليس إلا الرأي والتخمين ولا ينبئك مثل خبير".¹

يقول الفراهي: "الحاجة الشديدة إلى تأسيس أصول التأويل وتشبيد مبانيه. إن كل فرقة من المسلمين يتمسك بالقرآن ويؤول آياته إلى رأيه حتى اضطر المؤمنون إلى التمسك بالسنة ظناً منهم بأن القرآن ذو وجوه والسنة بنية، والظاهر أن القرآن هو المعتصم والتمسك المعتمد. والمبطلون إنما حرفوه. فلو أوضحت أصول التأويل لم يمكنهم التحريف".²

الفصل الخامس: قواعد حاكمة في النظر الأصولي

تمهيد: لقد كان الإمام الفراهي يضع يده على بعض الجراح، ويعالجها بعناية فائقة، وشجاعة أدبية منقطعة النظير، وحاولت استجلاء بعض القواعد الحاكمة لعمله في النظر الأصولي؛ القائم على أصول التأويل وفق الآتي:

قاعدة: لا يؤخذ من الروايات ما يهدم الأصل أو يقلعه: لقد أكد الإمام الفراهي قضيته هذه بناء على أصول مقررة لها فقال: "فوجب على من يحاول

¹ دلائل النظام، ص 58-59.

² انظر التكميل في أصول التأويل، ص 225.

فهم القرآن أن لا يأخذ من الروايات ما يهدم الأصل أو يقلعه فإني رأيت بعض الروايات تقلع الآيات وتقطع نظمها إلا أن تؤول، ولكن التعجب ممن يؤول الآية ولا يؤول الرواية، وربما لا يؤول الآية بل يرضى بقطع نظامها، والفرع أولى بالقطع¹. وعليه رفض أن ينسخ القرآن بالسنة ويقدم لأجل أفكاره التجديدية روحه فقال رحمه الله: "ولم يتفكروا نتائج هذا القول فحان لي أن أرفع راية الصدق ولا أبالي، ولو قطعوا رأسي لديه وأوصالي"². وما أشجعه؛ في وقت نجد فيه من أغرق في الناسخ والمنسوخ حتى عدّ نصوصاً كثيرة منسوخة بنصوص مبينة وليست ناسخة!

قاعدة: التنقيد: يستعمل الإمام الفراهي مصطلح التنقيد بدل النقد على غرار التطبيق والتعصيد وغيرهما، لاسيما في التراث والمرويات، وكتب الحديث وأسباب النزول، والإسرائيليات، وكتب الفلسفة وغيرها؛ فقال الفراهي رحمه الله: "ومن أراد التأمل الصحيح والتدبر التام وجب عليه ألا يغفل عن التنقيد فيما يأخذه من هذه العلوم كلها. ومن يتمسك بالقرآن، وينور الله عقله به، يطلع على أغلاط كثيرة في كتب القوم. والضرر يكون بقدر الاعتماد عليها والغفلة من التنقيد. ومضرة كتب الفلسفة أضل وأوغل؛ فإن معظم القرآن الحكمة، وهي الأصل، ولا سبيل إلى فهمها من القرآن دون الاطلاع على معاني كلماتها المفردة، ودون العلم بصحيح علوم اللسان من البيان الحافل لدلائل"³.

قاعدة: الأصل في كتاب الله المحكمات وتأويل المتشابهات أول الواجبات: يرى الفراهي أن القرآن "هو القطعي في دلالاته والفاصل في حكمه، وأما حديث المتشابهات فالكشف عنه أول ما يجب علينا؛ فإن الغلط في تفسيره ذهب بنا عن المهيح"⁴.

¹ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 28.

² تفسير القرآن المقدمة (17)، ص 70.

³ مفردات الفراهي، ص 99.

⁴ التكميل، ص 234.

قاعدة: لا تفسر ألفاظ القرآن بغير ما تعرفه العرب من كلامها: وذلك بناء على قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة يوسف: 2]؛ لأن هذا القرآن يفهم معناه في ضوء كلام العرب، وأساليبهم، وبلاغتهم، لا على المصطلحات الغريبة التي تقحم بالتعسف لتخدم معنى غريباً لا يسمح به السياق، فكان الإمام الفراهي يرفض أن يؤول القرآن في ضوء اختلاف الروايات، وموقفه صارم في تأويل الروايات في ضوء القرآن الكريم، فما بالك بالكلام الغريب الذي يرسل هنا وهناك من غير زمام ولا خطام!

ثم إن الإمام الفراهي يرجع إلى كلام العرب القديم، ويميز بين العربي القح والمولد، وحتى القديم فإنه ينخله نخلًا، وينقده نقدًا، بتميز شاذه عن قحه، ومنحوله عن صحيحه؛ فقال: "فأما في سائر الألفاظ حقيقتها ومجازها فالأخذ فيه كلام العرب القديم والقرآن نفسه".¹ واسترسل فقال: "وكذلك يجب أن نترك المعنى الشاذ من اللغة كما قيل في معنى التمني أنه هو التلاوة".²

تقسيمات الفراهي لأصول التأويل: ولقد قسم الإمام الفراهي أصول التأويل إلى ثلاثة أقسام:

1- الأصول الأولية.

2- الأصول المرجحة.

3- الأصول الكاذبة.

أولاً: الأصول الأولية: وهي ما يتمسك به حيث لا احتمال لمعان شتى؛ ومنها:

1- التمسك بنظم الكلام وسياقه، فالكلام لا يحتمل معنى يخالف نظمه ورباط معانيه.

¹ تفسير نظام القرآن، ص 32.

² المرجع نفسه، ص 32.

- 2- عدم الالتفات إلى المعنى الشاذ.¹
- 3- فهم الكلام بعضه من بعض بالمقابلة وحمل النظر على النظر؛ وذلك هو التأويل بالقرآن.
- 4- لا بد من النظر في المخاطب، ومن هنا يتبين وجه الكلام ولهجته من التسلية، والرأفة، والغضب، والوعد، والوعيد. وغيرها.
- ثانيًا: الأصول المرجحة: وهي ما يتمسك بها إذا احتمل الكلام معان مختلفة ونأخذ الراجح ونترك المرجوح. ومنها ما يأتي:
- 1- عند اختلاف الوجوه والاعتبار يؤخذ ما كان أوفق بالمقام وعمود الكلام.
- 2- إذا كان الكلام ذا احتمالات تؤخذ منها ما كان لها نظير في باقي القرآن فما لم يوافقه قرآن يترك.
- 3- إذا كان المعنى مقتضيًا لعبارة غير ما في الكلام فذلك المعنى مرجوح.
- 4- الأخذ بأحسن الوجوه؛ والمراد به ما كان أولى بمعالي الأمور ومكارم الأخلاق وأوضح إلى القلوب وأوفق بمحكمات القرآن وأحسن ظنًا بالله ورسوله وأظهر بيانًا جهة العربية.
- 5- الأخذ بأثبت الوجوه لغة؛ فإن المعنى الذي كثر في كلام العرب لا ينبغي تركه إلا لصارف قوي؛ ومثال "الشوى" في قوله تعالى: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾ [سورة المعارج: 16]؛ فإنه لحم الساق عمومًا في كلام العرب.²

¹ قال الفراهي: "وإنما لم نجعله من المرجحات فإن اللفظ الحسن المصون، ربما يستعمل عوض الظاهر العامي، ولكن اللفظ إذا استعمل، لا بد أن يدل على مفهومه المعلوم الثابت، فإن أريد به مفهوم ينكره الناس، ويدعيه مدع ولا سبيل إلى إثباته، فهذا تعمية، والقرآن أنزله الله عربيًا مبينًا، فلا شيء يترك الإفصاح؟ وأما المطالب العالية فليست من هذا الباب، فإن الكلام فيها واضح في مفهومه، والمطالب العالية إنما هي منطوية تحت المفهوم غير المضاد ولا المناقض للمفهوم" انظر التكميل، ص 262-263.

² انظر تفصيل ذلك في مفردات الإمام الفراهي، ص 200-204.

ثالثاً: الأصول الكاذبة: ليست بشيء وإنما تذكر لاجتنابها. فقال رحمه الله: "فالسبيل السوي أن تعلم الهدى من القرآن وتبني عليه دينك، ثم بعد ذلك تنظر في الأحاديث، فإن وجدت ما كان شاردًا عن القرآن حسب بادئ الرأي، أولته إلى كلام الله فإن تطابقا فقرت عينك، وإن أعياك فتوقف في أمر الحديث، واعمل بالقرآن، وقد أمرنا أولاً بإطاعة الله ثم بإطاعة رسوله ﷺ، ولا شك أن الأمرين واحد، فإن لم يرد الله أن نقدم كلامه على ما روي عن الرسول ﷺ فماذا أراد بهذا الحكم؟"¹

خاتمة

لقد وصلنا إلى نهاية البحث: ونحط ههنا رحالنا، بسررد أهم النتائج والتوصيات:

أ. نتائج البحث:

- لقد كان الإمام الفراهي علماً شامخاً من أعلام شبه القارة الهندية.
- تميز بعلمه الرصين، وتنوع مشربه، لكنه برز في علوم القرآن والتفسير، وكانت له تأملات وإضافات بخصوص نظام القرآن وعمود السورة، ومفردات القرآن.
- كان ضليعاً في العربية وعلومها وكان شاعراً مفلحاً، وصحح مفاهيم في علوم البلاغة، وكتب عن أساليب القرآن ودلائل النظام.
- والكشف عن عوامل النبوغ في أصول التأويل بناء على استقلال نظره، وعدم تقليده، وتضلعه من علوم العربية، وتفرغه للتدبر، وتعلقه بأساليب القرآن ودلائل نظامه.
- أسهم في باب الأصول من خلال كتاب "التكميل في أصول التأويل"، وبيان ملابساته.
- بيان الأصول المعتمدة في "التكميل" بين الأصول الأولية، والأصول المرجحة، والأصول الكاذبة.
- دعوته لضرورة التلازم بين أصولي التفسير والفقه؛ لأن الأصول تضعف حين تتعلق بالفروع فقط دون ارتباطها وتعلقها بالأصول كالعقائد والأخلاق والأحكام.

¹ التكميل في أصول التأويل، ص 275-276.

العدد الخاص مجلة الهند

- بين مقاصد أصول التأويل في حمايتها للتشريع والتفسير من التلاعب والتحريف.
- وجود قواعد حاكمة في التأويل وتمييزه بين التأويل والتحريف والتفصيل.
- اعتمد قاعدة: "التنقيد" وبين مساوئ الغفلة عنها.
- لا يؤخذ من الروايات ما يهدم الأصل أو يقلعه.
- الأصل في كتاب الله المحكمات وتأويل المتشابهات أول الواجبات ولا دونه خبط القتا!
- لا تفسر ألفاظ القرآن بغير ما تعرفه العرب من كلامها.

ب. التوصيات:

بناء على اكتشافنا لهذا الهرم الشامخ؛ نوصي بما يلي:

- الاهتمام بأعلام شبه القارة الهندية لما لهم من صدق في علومهم وأعمالهم وإخلاص في تعليمهم ومؤلفاتهم وهم من الوفرة بمكان.
- الاهتمام بالإمام الفراهي حكيماً ومفسراً ومجدداً في رؤيته العظيمة واستخراج كنوزها وإعادة طبعها طبعات فاخرة.
- إصدار المجموعة الكاملة للإمام عبد الحميد الفراهي في حلة قشبية ويوزع العمل على أعلام مختصين مع جودة التحقيق والتدقيق والتعليق.
- الوفاء للإمام بتسمية كليات باسمه، وقاعات كبرى للمحاضرات، ومشاريع عملاقة علمية.

فهرس المصادر والمراجع

- 1- إحكام الأصول بأحكام الرسول ﷺ، طبعته الدائرة الحميدية، إعداد: د. عبيد الله الفراهي، والشيخ محمد أمانة الله الإصلاحي، الطبعة الأولى، 1432هـ/2011م، ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، المجموعة الثانية، سرائير، أعظم كره، يو-بي، الهند.
- 2- الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن، للباحث محمد فريد راوي ط. دار الشاكر، ماليزيا، ط1، 1436هـ، 2015م. وأصل البحث رسالة جامعية تقدم بها الباحث إلى كلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية بعمان لنيل درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن.
- 3- الإمام عبد الحميد الفراهي ومنهجه في تفسير "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"، للدكتور محمد يوسف الشريجي، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد 20، العدد الثاني، 2004م.
- 4- إمعان في أقسام القرآن للمعلم عبد الحميد الفراهي، دار القلم بدمشق، ط1، 1415 هـ، 1994م.
- 5- إمعان في أقسام القرآن، للمعلم عبد الحميد الفراهي، دار القلم.
- 6- بحث أصول تفسير القرآن الكريم العقلية: الواقع والمقترح، د. إدريس نغش الجابري، ضمن الأبحاث المنشورة في المؤتمر العالمي الثالث للباحثين في القرآن الكريم وعلومه، في موضوع بناء علم أصول التفسير: الواقع والآفاق، مطبعة أنفو- برانت، فاس، المغرب، 1436هـ-2015م.
- 7- بحوث في أصول التفسير لمحمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1408هـ.
- 8- بحوث في أصول التفسير ومنهجه، للدكتور فهد الرومي، ط8، 1428هـ.
- 9- البرهان في أصول الفقه للجويني، تحقيق: عبد العظيم الديب، ط3، 1412هـ، دار الوفاء.
- 10- تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة.
- 11- التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور.

العدد الخاص مجلة الهند

- 12- التسهيل لعلم التنزيل لابن جزي الغرناطي، تحقيق عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، 1416هـ.
- 13- تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، للفراهي.
- 14- التفسير وصلته بمنظور البحث الأصولي، مجلة إسلامية المعرفة، عدد (37-38).
- 15- التكميل في أصول التأويل، ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، المجموعة الأولى، ط2، 1411هـ، 1991م، مكتبة الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح- سراي مير أعظم كره، الهند.
- 16- جمع فيه من العقائد ما دل عليه القرآن بالتصريح ويطمئن إليه القول الصحيح، نشرته الدائرة الحميدية سنة 1391هـ.
- 17- دلائل النظام للفراهي، الدائرة الحميدية بالهند، ط1، 1388هـ.
- 18- صحيفة الداعي، عدد (3)، ديسمبر، 1976م.
- 19- الفراهي وجهوده في تفسير القرآن الكريم لسالم العلوي، أصلها رسالة دكتوراه قدّمها الباحث إلى جامعة الأزهر عام 1971م. كانت تحت إشراف أ. د. عيادة الكبيسي، ونوقشت بتاريخ: 24-11-2009م، في جامعة الشارقة.
- 20- قواعد التفسير لخالد السبت، دار ابن عفان، السعودية، ط1، 1997م.
- 21- مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية (الكويت).
- 22- مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية، المجلد الثالث، العدد (2)، جمادى الأولى، 1427هـ، يونيو 2006م، عجمان، الإمارات العربية المتحدة.
- 23- مجلة معارف، عدد: رجب، 1411هـ، مقال: "ترجمان القرآن مولانا حميد الدين الفراهي" للدكتور شرف الدين الإصلاحي.
- 24- المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبه.
- 25- المستصفى للغزالي، تحقيق د. حمزة بن زهير حافظ، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.
- 26- مفردات القرآن للفراهي، بتحقيق د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2002م.
- 27- مقاصد الشريعة الإسلامية للطاهر ابن عاشور، تحقيق د. محمد الطاهر الميساوي.
- 28- مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، طبعة دار مكتبة الحياة، بيروت، 1490هـ، 1980م.

منهج الإمام الفراهي لتأويل الآيات

- الشيخ محمد عمر الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: د. محفوظ الرحمن²

أصول التأويل علم مستقل يحتل أهمية كبرى في تفسير القرآن الكريم وذلك لأن الوصول إلى المعنى المراد لا يمكن إلا بدونه. ولكن بالرغم من تلك الأهمية لا نجد كتاباً منفرداً بهذا الفن أُلّفه عالم من علماء التفسير قبل الإمام عبد الحميد الفراهي، فما أُلّف في هذا الموضوع فهو خلال البحث عن علم أصول الفقه ولكنه ضمني، فلم يقدم صورة له واضحة جامعة وكجزء لازم لعلم التفسير إلا الإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله تعالى. وهذا هو السبب في اختلاف كبير بين العلماء الأقدمين في فهم معنى من معانيه، وبناءً على هذا الاختلاف وُجدَ العديد من المذاهب التفسيرية، ومن يدرس آراء هذه المذاهب واختلافاتها المتنوعة فلا يكاد يؤمن بأن القرآن كتاب مبين بل الأليق أن يقول بأن القرآن كتاب معقد ولعل هذا هو السبب في حدوث الانطباع بأن دراسة القرآن ومحاولة فهم معانيه ليس سوى عمل العلماء، وأما الآخرون فليتلوا القرآن ولا يحاولوا التفكير فيه فلا ينبغي لهم أن يستفيدوا من القرآن الكريم مباشرة بل أن يتكلموا على ما يدلي هؤلاء العلماء من الآراء والفتاوى وليعتبروا ما تلفظوه كأنه هو المراد من كتاب الله العزيز ولا يحتاجون إلى تدبره واستخدام عقولهم فيه بل التفكير في آياته لا يسمح لهم لأن الدين قائم على النقل لا العقل والحال كما أن العقل بدون قيد النقل فرس لا عنان له فكذلك النقل بدون العقل كمثّل سياراً واضحاً الغشاوة على العين على مجرد إشارة الدليل، ولا حاجة إلى توضيح عاقبة كل منهما، فلا يستطيع العقل أن يهتدي بدون العقل كما لا يمكن للنقل أن ينتفع بدون العقل.

¹ شيخ التفسير في مدرسة الإصلاح بسرائر مير، أعظم كره (الهند)

² أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي

الأصول التي وضعها الإمام الفراهي رحمه الله لا تبني على فلسفته الذاتية بل إنها مأخوذة من قواعد اللغة الموثوق بها ومستنبطة من أساليب القرآن المعترف بها. والاعتناء بهذه الأصول يبعد المرء عن الضلال ويصده عن المشي على الطريقة الملعونة للتفسير بالرأي المحض ويوقر مستوى أعلى لفهم القرآن الكريم.

القرآن كتاب قطعي الدلالة عند الإمام الفراهي، فلا يكون مدلول أي جملة منه أكثر من واحد ولكل آية سياقها وسباقها مما يعين مفهوم الآية.

بدأ العلامة الفراهي كتابة تفسيره "نظام القرآن" في ضوء هذه الأصول. وكتب تفسير السور القصار أولاً ثم بدأ يفسر سورة البقرة، ولكن لم تسنح له حياته المزيد من الفرصة فلم يتم هذا العمل الجليل إلا أنما خلفه من التراث التفسيرية يكفي هادياً في هذا المجال.

للتفسير طريقان معروفان أحدهما التفسير بالرأي والآخر هو التفسير بالمأثور. فالتفسير الذي يؤخذ مما روي عن النبي الكريم وصحابته وأتباعهم ومن تبعهم يسمى "التفسير بالمأثور"، ويمثل هذا الطريق من التفسير "تفسير ابن جرير" وأما التفسير الذي لا يبني على ما يروى من السلف بل يبني على التفكير المباشر في القرآن فهو التفسير بالرأي. ومن التفاسير التي تمثل هذا الطريق أبرزها تفسير الإمام الرازي. وكلا التفسيرين يتداولهما الناس مع أن العلماء متفقون على أن كليهما لا يخلو من الغث والسمين من الآراء والأقوال، وأما تفسير الإمام الفراهي فينتقده الناس كثيراً بل ينقصون من درجته معتبرين إياه أحد تفاسير النوع الثاني والحال أن أصول التأويل التي ذكرها الإمام الفراهي في كتابه "التكميل في أصول التأويل" تهدف إلى ردّ التفسير بالرأي فقال: "غاية هذا العلم هو المنع عن التفسير بالرأي".¹ وكذلك أوضح أن التفسير بالرأي ينقسم إلى قسمين: الأول التفسير بالرأي المذموم، والثاني التفسير بالرأي المحمود.

¹ الإمام حميد الدين الفراهي، رسائل الإمام الفراهي (رسالة التكميل في أصول التأويل) الباب رقم 4، الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم جراه، الطبعة الثانية، 1411هـ، ص215.

فالتفسير بالرأي المذموم: هو التفسير الذي ينتجه التفكير الحر تمامًا.

وأما التفسير بالرأي المحمود فهو التفسير الذي يشتمل على قواعد اللغة وآيات القرآن الكريم والسنة والعقل الذي وهبه الله تبارك وتعالى. وتعد تفاسير الصحابة من هذا النوع من التفسير، ولذلك تتحد النتائج عندهم على الرغم من اختلافهم في التأويل، ولا يمكن أن نعد تفاسير الصحابة والتابعين وتأويلاتهم تفسيرًا بالمأثور وإلا فلن يحدث الاختلاف فيما بينهم. يقول الإمام الفراهي:

"فاعلم أن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين قد اختلفوا كثيرًا في التأويل مع تقارب خطاهم فلو أخذوا تأويلاتهم عن النبي ﷺ لما اختلفوا لكنهم أخذوها عن علمهم باللسان واقتصرهم على علمهم بنظائر الآيات وعلمهم بالسنة وعن بصيرة يعطيها الله عباده ولذلك ترى أنهم يتقاربون في المأل".¹

وهذا أيضًا رأي الإمام ابن تيمية رحمه الله في التفسير بالرأي فيقول ابن تيمية:

"فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام..... ولهذا تحرج جماعة من السلف عن تفسير لا علم لهم به".²

ويضيف قائلاً: "فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعًا فلا حرج عليه".³

ففي البداية كان المسلمون يأولون الآيات على هذه الطريقة بأنهم كانوا يتدبرون كلام الله تبارك وتعالى. ويتتبعون كلام العرب لتحديد معاني الكلمات. وكانوا يبحثون عن أمثالها في القرآن الكريم فكانوا يعينون معاني الكلمات والآيات في

¹ نفس المصدر، ص 215-216.

² شيخ الإسلام ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام، دار العربية، بيروت، 1398هـ، 371-370/13.

³ نفس المصدر، ص 374.

ضوء سياق الكلام، ولكن بعد ذلك حينما بدأ أهل البدعة يأولون الآيات حسب رغباتهم، فنهى أهل السنة عنها، وأفتوا بإجبارية التفسير بالمأثور. ولا شك أنّ محاولة أهل السنة هذه كانت لسدّ أبواب الفتنة، وكانت محمودة بدون شك فإنهم لم يكونوا يرون طريقة أخرى لسدّ أبواب الفتنة ولكن من الواقع أن هذا لم يكن طريقاً قوياً للمنع عن التفسير بالرأي المحض، فجاءت مصيبة أخرى بأنهم وضعوا تفاسير وتأويلات باسم التفسير بالرأي كانت مشتملة على الأحاديث الضعيفة والموضوعة، فكأنّ محاولة سدّ باب قد سبّبت فتح باب آخر للفتنة وحدث هذا كله لأنهم لم يضعوا أصولاً للتأويل قد اعتنى بها السلف عادة فقد كان الصحابة والتابعون يتدبرون القرآن مباشرة وكانوا يبدون ما قد ظهر لهم.¹

التدبر في القرآن الكريم ضروري: يرى الإمام الفراهي أن التدبر في القرآن مما لا بد منه ولقد استدلل عليه الإمام بالعديد من الأمثلة وهي كالآتي:

- 1- أمر الله تبارك وتعالى التدبر في القرآن واضحاً في أماكن كثيرة.²
- 2- ولو أوضح الله تبارك وتعالى مواقع التدبر والتبصر والتفكير في القرآن الكريم ولكنه لم يوضح نتائجه. وهذا يعني أن لكل شخص حقاً للتدبر في القرآن ولاستنباط المعاني والحقائق.
- 3- قد بعث النبي ﷺ معلماً للحكمة كما بعث معلماً للشرعية. ولا يمكن تعليم الحكمة إلا بإعمال العقل وإجراء التدبر والتفكير. ولقد علّم النبي ﷺ الحكمة ورغب فيها كما أرشد إلى الطرق والأساليب للحصول عليها. كان النبي ﷺ يقدم قضية في بعض الأحيان ثم يسأل آراء أصحابه فيها، وكما جاء في رواية لصحيح البخاري:

¹ رسائل الإمام الفراهي، بحث فرض التدبر في كتاب الله، ص 218.
² لاحظوا هذه الآيات: "أفلا يتدبرون القرآن" (النساء: 82)، و"أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها" (محمد: 24) و"أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت أبائهم الأولين" (المؤمنون: 68) و"كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب" (ص: 29)

"عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال إنّ من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وأنها مثل المسلم، حدثوني ما هي؟ قال فوقع الناس في شجر البوادي. قال عبد الله فوقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت ثم قالوا حدثنا يا رسول الله ما هي؟ قال هي النخلة".¹

وكذلك نهى النبي ﷺ عن كثرة السؤال. وكانت من ورائها حكمة مع الفوائد الأخرى وهي أن تنشأ في الناس رغبة في التدبر والتبصر، وكما جاء في رواية لصحيح البخاري:

"عن ثابت بن أنس رضي الله عنه قال: مهينا في القرآن أن نسأل النبي ﷺ فكان يعجبنا أن يجي الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمعه- إلى آخر الحديث.² يقول الإمام الفراهي إن هذا النهي لعله يشير إلى الآية التالية: "يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء". (المائدة: 101)

وكان الصحابة يسألون معاني الآيات القرآنية إخوانهم كما كانوا يتدبرون أنفسهم فيها. سأل الناس عمر رضي الله عنه عن الأمر الذي أشير إليه في سورة النصر؟ فسكت الجميع غير عبد الله بن عباس، وصوب عمر رضي الله عنه قوله.³

اعترض الرد عليه: يعتقد بعض الناس أن الاشتغال بالعلوم الحديثة من البيان والنظر والاستدلال بدعة، وذلك لأن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لم يكونوا راغبين فيها وهم أعلم الناس بالدين.

يردّ عليه الإمام الفراهي قائلاً: إن ما تمتع به الصحابة من البصيرة والتبحر في علوم القرآن، لم يدعهم محتاجين إلى أصول علم البيان وفروعه. فسلامة ذوقهم وقوة بصارتهم قد أغناهم عن تلك العلوم. ولكن المتأخرين

¹ محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب العلم، باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم، مكتبة مصطفى، ديوبند.

² نفس المصدر، باب القراءة والعرض على المحدث.

³ الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تفسير ابن جرير، ضبط وتعليق: محمد شاکر، صحيح: علي عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الجزء العشرون، تفسير سورة النصر.

يحرّمون هذه الخصوصية وعلى هذا يجب الاعتناء بالأصول وإلا بأنهم إما يستخدمون عقولهم بالحرية أو يفسّرون القرآن حسب أهوائهم. أو يفرض الحظر على استخدام التفكير كلياً فيُغلق باب التفكير والتبصر الذي فتحه الله تبارك وتعالى لعبادهم.¹

أصول التّأويل: الأصول التي تعين في فهم معاني القرآن تسمّى بـ"أصول التّأويل". وهي تنقسم إلى قسمين، إحداهما هي الأصول التي تمنع المرء عن الزّيف في شأن التّأويل والثانية هي التي تهدي إلى الحكم التي يحويها كلام الله جلّ وعلا. وكلا النوعين من الأصول لا يكشف عنها إلا التدبر في نظم القرآن لأن النظم هو الحبل المتين الذي من اعتصم به صين من الزّيف، وهذا هو السراج المنير يستضيء منه كافة نواحي الحكم التي يضمنها ترتيب الآيات.²

الفرق بين التّأويل والتحريف: حمل الكلام على المعنى الذي يجوز إما بالنقل أو بالعقل يسمّى بالتّأويل وضده التحريف فالتحريف حمل الكلام على المعنى الذي لا يدل عليه النقل ولا العقل. والتّأويل ممدوح ومقصود، بينما التحريف ممنوع ومبغوض، ويمكن لنا أن نفهم معنى التّأويل من الآية التالية:

"ورفع أبويه على العرش وخزّوا له سجّداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً" (يوسف: 100).

وأما معنى التحريف فلننتل الآية التالية لفهم معناه:

"من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه". (النساء: 46)

السبب الأساسي في خطأ التّأويل: وما شك في أن من أسّس عقيدة استدل على عقيدته بما وجده من الدليل بدون أي تردد ثم نظر في القرآن، فإن وجده لا يوافق على عقيدته وأفكاره أوّله وفق عقيدته، وهكذا فقد تسلّلت تأويلات كثيرة

¹ رسائل الإمام الفراهي، ص 220-221.

² نفس المصدر، ص 223.

في التفاسير مما لا يجوز. وهذا خطأ كبير يشيع في أمر التأويل، ومهد لهذا الخطأ التفكير في القرآن بدون رعاية أي أصل وقاعدة.¹

التأويل الواحد لآية: كان للقرآن تأويل واحد عند الصحابة بسبب تقواهم وعلمهم باللغة وبشأن النزول، ولذلك قلّ عنهم السؤال عن معنى القرآن ومدلوله، وأما التابعون رحمهم الله فبأن معرفتهم لشأن النزول لم تكن مباشرة كمثّل الصحابة فبنوا تأويلاتهم على نظائر الآيات وآثار الصحابة. ثم حينما ظهرت الفلسفة ووقع الاختلاف في العقائد، فأصبح الناس عرضة لحرية التفكير وهذا أسفر عن وجود العديد من الفرق واعتصمت كل فرقة بالروايات الإسرائيلية والضعيفة طبقاً لأهوائها وهكذا كثرت وجوه التأويل وانتهى الأمر إلى أن الحقيقة الواضحة قد طرأها الشك واعتكرت سبل التأويل وانغلق باب فهم القرآن.²

والإمام الفراهي يرى أن للقرآن تأويلاً واحداً لا غير ولكنه يرى من الواجب الالتزام بطرق وجوانب عديدة للوصول إلى هذا التأويل الواحد، مثلاً تأويل القرآن بالقرآن، ورعاية نظام القرآن، وتحديد المعاني وفق السياق والسباق، والتفكير في الكلمات ومعانيها المختلفة، وفهم الحكم في الطرق المختلفة لترتيب محتويات السور، والنظر في الصور المختلفة للكلمات والمعاني والنفي والإثبات، وكذلك يجب أن يُفهم الفرق بين إطلاق الكلمة في الاسم والصفة والفعل، وعلم حكم أمر الصفات دون الأشخاص، والنظر إلى المطلق ومتعلقات جوامع الكلم، والفرق بين الحقيقة المطلقة والحقيقة المصطلحة، ومحاولة فهم أشكال الكلام وتأويله، وفهم البيان والإيهام، والنظر في المحذوفات. وقد يستنتج المعنى ضد الكلام الظاهر والمحسوس، وكذلك تكون الإضافة على أمر تدل على تكميله. يجب أن تراعي هذه الأمور والتفكير في أسباب النظام ومواضع التدبر. وإن هذه مستلزمات تأويل الآيات. ألقى الإمام الفراهي الضوء على كل نواحي تأويل القرآن.³ ومن يريد

¹ نفس المصدر، ص 228.

² نفس المصدر، ص 229.

³ نفس المصدر، ص 239-261.

العدد الخاص مجلة الهند

التفصيل فليراجع كتابه "التكميل في أصول التأويل". وقد قسم الإمام الفراهي أصول التأويل إلى ثلاثة أقسام أساسية كما يلي:

1. الأصول الأساسية، 2- والأصول الراجعة، 3- والأصول الباطلة
- الأصول الأساسية هي الأساس ولا يمكن التأويل الصحيح للآيات بدونه، وهذه مجموعة أربعة أصول.

1- رعاية سياق الكلام ونظامه.

2- الاجتناب عن المعاني الشاذة.

3- تفسير القرآن بالقرآن.

4- تحديد الخطاب والمخاطب.

رعاية نظام الكلام: نظام الكلام بمثابة حكم في فهم القرآن، فالكلام يشترك فيه الألفاظ والحذف والمقدر والتعريض. وتشترك الأساليب المختلفة التي تستخدم طبقاً للدلالات المتعددة كدلالات الأمر والاستفهام والعطف التي تبدو مختلفة ولكنها تشترك على نقطة ما فمن عرف دلالات الكلمات وأساليب الكلام هذه سهل له فهم المراد الصحيح في موضع محدد.

وكذلك يشتمل الكلام على الأجزاء التي تحتمل معاني مختلفة، وهذه حقيقة أن كل هذه المعاني لا تكون صحيحة في آن واحد وهذه المناسبة لا بد أن يُنظر إلى سياق الكلام ويؤخذ المعنى الذي يشير إليه سياق الكلام. وكما يقول الإمام الفراهي "أني رأيت جلّ اختلاف الآراء في التأويل من عدم التزام رباط الآيات، فإنه لو ظهر النظام واستبان لنا عمود الكلام لجمعنا تحت راية واحدة"¹ "ويحرف طريق الكلام عن متنه وبالنظام يتبين سمت الكلام فينفي عن آيات الله أهواء المبتدعين، وانتحال المبطلين، وزيف المحرفين"².

¹ العلامة حميد الدين الفراهي رحمه الله، تفسير نظام القرآن، ترجمة: الشيخ أمين أحسن الإصلاحي، الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح، ص 31.

² نفس المصدر، ص 31.

الاجتناب عن المعاني الشاذة: نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وإنه نموذج أعلى لفصاحة اللغة وبلاغتها، وكذلك يوجد في معانيه علو كبير، فالكلام الذي يحمل هذه الصفات لماذا يستخدم الكلمات المنكرة والشاذة ويترك الكلمات الفصيحة والمشهورة الواضحة؟. ولذلك لا يختار من المعاني لكلمات لقرآن الكريم إلا ما يعم ويثبت، وبسبب عدم النظر إلى هذا الأصل الهام كتب علماء التفاسير لبعض الكلمات معاني لا تخالف الحقائق بل تشق على الذوق السليم، وتأبى الطبائع أن تقبلها. مثلاً جاء في القرآن: "إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما" (التحريم: 4). ترجم علماء التفاسير على وجه العموم: "إن تتوبا إلى الله فهذا جيد لكما لأن قلوبكما انثنت عن الصراط المستقيم".¹ يقول الإمام الفراهي رحمه الله إن المفسرين أخطأوا هنا في فهم كلمة "صغو" وأخذوا من معاني هذه الكلمة ما لا يوجد له مثال في كلام العرب، وكأنهم تناولوا المعنى المجهول وتركوا المعنى المعروف. يقول الإمام الفراهي:

"في جميع الألسنة، ولاسيما في لغة العرب ألفاظ خاصة لأفراد خاصة تحت معنى كلي والذهول عن هذه الخصوصيات مبعد عن فهم اللسان. مثلاً الميل معنى كلي ثم تحته: الزغ، الجور، والإرعواء والحيادة والتحي والانحراف. كلها للميل عن الشيء. والفيء والتوبة والالتفات والصغو كلها للميل إلى الشيء فمن خبط بينهما ضل وأضل ---- فلا يخفى على العالم بلسان العرب أن قوله تعالى صغت قلوبكما (التحريم: 4) معناه: أنابت قلوبكما ومالت إلى الله ورسوله فإن الصغو هو الميل إلى الشيء لا عن الشيء".²

¹ الشيخ أبو الأعلى المودودي، ترجم الشاه ولي الله الدهلوي "هر كج شده است دل شما" ترجم شاه رفيع الدين هذه الآية "انحرف قلوبكما" وترجم شيخ الهند الشيخ محمود الحسن "إن تتوبا أنتما فمعنى ذلك أن قلبي كما قد خضعاً" وفسرها الشيخ شبير العثماني مثل العلماء المفسرين الآخرين، وترجم الشيخ محمد جونا كرهى "إن تتوبا أمام الله تبارك وتعالى فهذا جيد، وإن قلبي كما وشرح الشيخ أيضاً مثل العلماء الآخرين.

² تفسير نظام القرآن، سورة التحريم، ص 176

وعلاوة على ذلك ينفي أسلوب الآية هذا المعنى. فيقول الإمام الفراهي متحدثاً عن أسلوب هذه الآية:

"فاعلم أن العرب عاداتهم حذف ما يستغنى عنه، لولوعهم بهتذيب كلامهم عن الفضول، وهذا باب عظيم من البلاغة، فنقتصر ههنا على ما يكون بين "إن" للشرط و"قد" للتحقيق".¹

أولاً نورد بعض الأمثلة ليظهر لك ما نشير إليه من المحذوف. جاء في القرآن الحكيم: "إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح" (الأنفال: 19)

وجاء في موضع آخر: "وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك" (فاطر: 4)

وكذا ذكر في موضع آخر: "إلا تنصروه فقد نصره الله" (التوبة: 40)

قدّم الإمام الفراهي أمثلة أخرى غير هذه، ثم نقل كلام شاعر جاهلي، بعد ذلك يكتب: "فإن تأملت في هذه الأمثلة علمت أن الجملة بعد "قد" تذكر أمراً يسهل به ما ذكر بعد "إن" كأن تقدير الكلام أنه إن يكن كذا وكذا فلا بأس أو لا إشكال أو الأمر هين، فإنه قد وقع كذا وكذا.

فالتأويل الواضح للآية أنه: إن تتوبا إلى الله بابتغاء مرضاة النبي كما هو يستغني مرضاتكم فهذا هو المرجو منكم، فإن قلوبكما راغبة عليه".²

تفسير القرآن بالقرآن: ولفهم المعنى الحقيقي هناك أصل كبير للتفسير ألا وهو "تفسير القرآن بالقرآن" ولقد قبل هذا الأصل كافة المفسرين، ولكن لم يعمله إلا القليل منهم والحال أنه لا يخفى على أحد أنّ القرآن يبين أمراً واحداً في مختلف المواضع بأساليب مختلفة طبق المحل، ففي موضع يذكر جانباً بينما الجانب الآخر يذكره في موضع آخر وكذا يفصل أمراً في موضع يقوم بإجماله في موضع

¹ نفس المصدر، سورة التحريم، ص 177.

² نفس المصدر، سورة التحريم، ص 178-179.

آخر. لنفهم هذه الحقيقة ببعض الأمثلة: قال الله تعالى: "وسبح بالعشي والإبكار" (آل عمران: 41) يجب على القاريء لفهم سعة جهات التسبيح بالعشي والإبكار أن يرى كل آيات هذا الموضوع فيقول الله تبارك وتعالى في موضع آخر: "وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى" (طه: 130)، وجاء في موضع آخر: "وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم" (الطور: 48-49) وفي موضع آخر يقول الله تبارك وتعالى: "فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون" (الروم: 17-18) وكذلك جاء في مكان آخر: "وأقم الصلوة طرقي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات" (هود: 114)، ويقول الله في موضع آخر: "أقم الصلوة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ومن الليل فتعبد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً" (الإسراء: 78-79). فإن وضعنا أمامنا هذه الآيات كلها فلا يصعب علينا فهم مختلف جوانب "التسبيح بالعشي والإبكار".

تحديد الخطاب والمخاطب: في الواقع أنّ القرآن خطاب رباني لجميع العالم البشري ففي موضع يخاطب المؤمنين وفي آخر يلتفت إلى الكافرين والمشركين، وفي ثالث يتوجه إلى المنافقين، وقد يخاطب المؤمنين والمنافقين معاً وكذا في بعض المواضع يخاطب المؤمنين والمنافقين والمشركين على السواء. وإذا راعينا الخطاب والمخاطب له خلال دراسة القرآن فيسهل لنا تعيين جهة الخطاب كما نعرف مواضع العزاء والتثبيت من مواضع الزجر والتوبيخ فنعرف أي جزء من الكلام يحتوي الرأفة وأياً منه يشتمل على الغضب، وأين أريد الوعد وأين أريد الوعيد وهلمّ جراً، مثلاً: كتب المفسرون الكثيرون في تفسير بداية سورة عبس أن الله زجر النبي ﷺ حينما رأى النبي ﷺ الصحابي الأعشى ابن أم مكتوم رضي الله عنه فأعرض عنه، ولكن الأمر الصحيح هو أن النبي ﷺ لم يخطئ شيئاً فيعاتبه الله بل لم يراع النبي ﷺ علو منصب النبوة ولذلك نهى الله تبارك وتعالى عليه، وما شك في أنّ أحداً ذا

عقل يتدبر في هذا التنبيه فيجد رحمة الله على النبي ﷺ وغضبه على سادة القريش في صورة واضحة. ويقوم الإمام الفراهي رحمه الله بتوضيح هذه النكتة قائلاً:

"وبالجملة إذا نظرت في نفس هذه الآيات وما قبلها وما بعدها تبين لك أن الكلام ليس إلا لتعليم النبي ﷺ الاستغناء والترفع حسبما يليق بعزته وعزة دعوته. وأسلوب العتاب ههنا أبلغ ما يكون في منعه عن الإفراط في أداء فريضة الدعوة، وفي تطييب نفسه ونفوس الضعفاء من المؤمنين، وفي زجر الأغنياء من المنكرين، كما سيتضح كل الاتضاح من النظر فيما يتلو من باقي السورة."¹

ويقول الشيخ أمين أحسن الإصلاحي في هذا الصدد: "وإن يخاطب الله في هذه الآية النبي ﷺ في صورة ظاهرة ولكن إشارة العتاب كله إلى فراعنة القريش في صورة واضحة."²

الأصول الراجعة: الأصول الراجعة، عند الإمام الفراهي، هي الأصول التي تساعد في فهم المعنى المراد لدى تعدد الاحتمالات، وتشتمل هذه الأصول على خمسة كما يلي:

1- عند إمكان الوجوه المختلفة يؤخذ بعين الاعتبار ما كان أوفق بالمقام وعمود الكلام. ولكل كلمة أطراف وجهات وهي كالمعاني لها. وكذا لكل أمر وقصة أطراف وجهات، ولا نستطيع أن نفهم القصة الأصلية بدون فهم هذه الأشياء. مثلاً صفة الأحدى الكاملة مختصة بالله تبارك وتعالى، ومع ذلك نرى ذكره تعالى بأسماء مختلفة وعلى ترتيب متغاير مثلاً "العزیز" إحدى صفات الله وهي جاءت في سورة البقرة في أماكن متعددة وفي كل مكان جاءت معه صفة "الحكيم"³ (22) ولكن في مواضع أخرى من القرآن رافقته صفة "ذو انتقام"⁴ كما جاءت صفة "العليم" في مكان⁵ وجاءت صفة "العزیز" في هذه

¹ نفس المصدر، سورة عبس، ص 262.

² الشيخ أمين أحسن الإصلاحي، تفسير تدبر قرآن، المجلد: 9، تفسير سورة عبس ص 191.

³ انظر في سورة البقرة، الآيات: 129، 209، 220، 228، 240، 260.

⁴ انظر في سورة آل عمران: 4، وسورة المائدة: 95.

⁵ انظر في سورة الأنعام: 96.

الأماكن قبل الصفات الأخرى. ولكن انظر في سورة الحشر، جاءت هذه الصفة في الوسط وجاءت صفة "المهيمن" قبلها وصفة "الجبار" بعدها.¹ وكذلك جاءت هذه الصفة في الوسط في سورة الجمعة، وجاءت صفة "القدوس" قبلها وصفة "الحكيم" بعدها.² ولا شك في أن هناك حكمًا في ترتيب الكلمات يجب علينا الاعتناء بها، ولا يمكن الاعتناء بها إلا بالتفكير في كلام الله، ولذلك من لا يتدبر القرآن الكريم فهو لا يتمكن من أن يفهم محل هذه الكلمات وجهاتها، فيخفى عليه العديد من جوانب الكلام.

2- إذا كان الكلام ذا احتمالات عديدة، فيؤخذ منها ما يوجد له نظير في القرآن الكريم. فالاحتمال الذي لا يوجد له نظير في القرآن يجب تركه وهكذا إذا احتمل أمران ولكل منهما نظير في القرآن فلا يرجح إلا ما يوافق النظم فمثلاً قال تعالى: "واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون" (الأنفال: 24) لهذه الآية تأويلان:

الأول: إن الله تبارك وتعالى يعرف ما في قلوبكم من الأسرار.

الثاني: يمنع الله تبارك وتعالى الإنسان عن إرادته.

فللتأويل الأول نظير في القرآن الكريم ويؤيده نظم الكلام أيضًا، ولأن تصور كلمة "تحشرون" يثير التقوى في القلب ولذلك جاءت هذه الكلمة مع كلمة "التقوى" في أماكن متعددة مثلاً:

"واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون" (البقرة: 203)

"أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون" (الأنعام: 6)

"واتقوا الله الذي إليه تحشرون" (المجادلة: 9)

¹ "الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار". سورة الحشر: 23.

² انظر في سورة الجمعة: 1. "الملك القدوس العزيز الحكيم".

ويتولد التقوى بتصور علم الله تبارك وتعالى، فكأنه قيل: اتقوا الله فإنه أعلم بسرائركم وأنكم تحشرون إليه، فهذا من جهة تشابه المعنى والنظم. وأما التأويل الثاني فنظيره موجود في القرآن الكريم وكما يقول الله تبارك وتعالى:

"وحيل بينهم وبين ما يشتهون" (سبأ: 54) ولكن سياق الكلام لا يؤيد هذا المعنى.

3- إذا كان المعنى متطلبًا لجملة لا يتوجد في الكلام، فذلك المعنى مرجوح، ولم يقدم الإمام الفراهي رحمه الله مثلاً له، وأشار إلى أن عائشة رضى الله عنها والإمام الشافعي رحمه الله استدلا في بيان معنى التغي بالقرآن.

4- ويكون دائماً أخذ أحسن الوجوه راجحاً في الكلام. والمراد من أحسن الوجوه ما كان أولى بمعالى الأمور، ومكارم الأخلاق، وأوضح إلى قلوب، وأوفق بمحكمات القرآن، وأحسن ظناً بالله ورسوله، وأظهر بياناً من جهة اللغة العربية. وقدّم الإمام الفراهي رحمه الله قول ابن جرير رحمه الله قائلاً: "إن الإمام ابن جرير مع اعتنائه بالروايات يأخذ بما يراه أحسن تأويلاً" ثم قدّم مثلاً من قوله تعالى "لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب" من سورة يوسف فقال ابن جرير:

"لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب" (يوسف: 111). قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: لقد كان في قصص يوسف وإخوته عبرة لأهل الحجى والعقول يعتبرون بها، وموعظة يتعظون بها. وذلك أن الله جل ثناؤه بعد أن ألقى يوسف في الجب لهلك، ثم بيع بيع العبيد بالخييس من الثمن، وبعد الإسر والجبس الطويل، ملكه مصر، ومكّن له في الأرض، وأعلاه على من بغاه سواءً من إخوته، وجمع بينه وبين والديه وإخوته بقدرته، بعد المدة الطويلة، وجاء بهم إليه من الشقة النائية البعيدة، فقال جل ثناؤه للمشركين من قريش من قوم نبيه محمد ﷺ: لقد كان لكم، أيها القوم، في قصصهم عبرة لو اعتبرتم به، أن الذي فعل ذلك بيوسف وإخوته، لا يتعذر عليه فعل مثله بمحمد ﷺ، فيخرجه من بين أظهركم، ثم يظهره عليكم، أيها القوم، في قصصهم عبرة لو اعتبرتم به، ويمكن له في البلاد،

ويؤيده بالجند والرجال من الأتباع والأصحاب، وإن مرّت به شدائد، وأنت دونه الأيام والليالي، والدهور والأزمان.¹

ثم ذكر الإمام ابن جرير الرواية التي أخذت من مجاهد رحمه الله وهي كما يلي:
"عن محمد بن عمرو قال ثنا أبو عاصم قال عيسى عن أبي نجیح عن مجاهد في قوله "لقد كان في قصصهم عبرة" ليوسف وإخوته"²

ثم قال: "وهذا القول الذي قاله مجاهد وأن كان له وجه يحتمل التأويل، فإن الذي قلنا في ذلك أولى به لأن ذلك عقيب الخبر عن نبينا ﷺ وعن قومه من المشركين وعقيب تهديدهم ووعيدهم على الكفر بالله وبرسوله محمد ﷺ". ثم قال: "لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب".³

فأول الإمام ابن جرير الطبري، الذي يعتبر ممثلاً للتفسير بالمأثور، الآية في ضوء النظم، ولم يستدل بالرواية بعد نقلها لكونها غير مطابقة مع الآية.

5- ويُفضل أخذ معنى الآية الذي هو أثبت في اللغة، فإن ترك المعنى الذي أستخدم كثيراً في كلام العرب لا يصحّ إلا إذا كان ذلك المعنى مخالفاً لنظم الكلام، واستخدامات القرآن والعقائد الصحيحة. وقدّم الإمام الفراهي رحمه الله كلمة "الشوى" كمثال وقال: أخطأ الشيخ عبد القادر رحمه الله في تحديد معنى "الشوى" وسار كثير من المفسرين الآخرين على طريقه. فقد ذكر العلامة الدهلوي معنى الشوى "الكبد" يعني "أنها تجذب الكبد" ولكن تستخدم هذه الكلمة في كلام العرب عامة في معنى "لحم الساق" وهذا الموقع يذكر قريب العذاب لا دخول الكافرين في النار. فهذا بيان الموقع ذلك اليوم الذي فيه تزلف الجنة للمتقين وتبرز الجحيم للغاوين فليس لهم صديق حميم، وذلك الوقت تدعو الجحيم الكافرين وتخرج لظاها فتذهب بلحم سوقهم.⁴

¹ تفسير الطبري، سورة يوسف.

² نفس المصدر.

³ نفس المصدر.

⁴ انظر في سورة المعارج: 1-18.

العدد الخاص مجلة الهند

وأما أنها تخرج أكبادهم فليس هذا مما جاء في شيء من القرآن والحديث حتى أنهم حين يدخلونها لا تخرج أكبادهم ولا قلوبهم.

ويقول العلامة الفراهي رحمه الله: كذلك أخطأ من أخذ معنى "الشوى" بمعنى جلد الرأس، ولأن هذه الكلمة في معنى "لحم الساق" مشهورة في كلام العرب، وجاءت كلمة الشوى بمعنى جلد الرأس نادراً مع احتمال المعنى الآخر. ثم لا يُذكر في القرآن ولا في الحديث أن المشركين والكافرين يدخلون في جهنم من فوق، وتنزع جلدة رؤوسهم، فلو تساوى معنيا الشوى شهرة لكان الأخذ بما هو أوفق بالنظم ويؤيده المواضع الأخرى للقرآن، وليس الأمر هكذا.¹

الأصول الباطلة: يعتبر الإمام الفراهي كافة الأصول التي تخالف روح القرآن والسنة. ففي هذا الصدد كما يبطل استخدام العقل والرأي مقابل النصوص الشرعية، فكذلك لا يسلم جعل الرواية والآثار أصلاً ثم جعل القرآن تابعاً لها في تأويل آياته.

ويقول العلامة الفراهي رحمه الله: كم من آيات للقرآن تؤيدها الأحاديث وفي هذه الحالة تقدّم الأحاديث لتأييد الآيات، ومع هذا يجب علينا أن نرسخ في أذهاننا أن الحديث شرح للقرآن الكريم، ليس بشيء زائد عليه، ولذلك لا يصح تقديم الحديث على القرآن، وأحسن مثال لتفسير القرآن بالحديث قوله تعالى: "أباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله" (النساء: 11) معنى ذلك أنكم لا تعرفون عن آبائكم وأبنائكم من هم أنفع لكم؟ وهذه فريضة عند الله تبارك وتعالى.

وأمر الله تبارك وتعالى في هذه الآية لسورة النساء أمراً واضحاً بشأن الوصية، ونبه أن هذا التقسيم مبني على علم الله وحكمته، ولذلك عدّ الله هذا الأمر في وصيته.

وشرحه الشيخ أمين أحسن الإصلاحي شرحاً جيداً، كما يقول:

¹ رسائل الإمام الفراهي، رسالة التكميل في أصول التأويل، ص 272-273.

"فمعنى ذلك أنّ من يجعله وارثاً لمورثه فيوصيه، فإن هذه الوصية تخالف الله وتعارض التقوى. وتجلى من هذا القول أن الرخصة التي أعطيت المورثين لا تتعلق بالوارثين الذين قدّم الله فيهم الوصية، بل هذا الأمر مختص بغير الوارثين، وكما يقول النبي ﷺ على هذا الأساس: "لا وصية لوارث".¹

ونقل الإمام الفراهي والشيخ أمين أحسن الاصلاح رحمة الله حديقاً في تأييد أمر القرآن، ويعتقد الإمام الفراهي رحمه الله أن الاستدلال بالحديث مستحسن، ولكن المنهج الصحيح هو أن تتعلم الصراط المستقيم من القرآن وتؤسس دينكم عليه، ثم تراجع كتب الأحاديث، وإذا كان الاختلاف بين نص القرآن والحديث فيجب تأويله بالقرآن، فإن تطابقا فقررت عينك، وإن أعياك فتوقف في أمر الحديث، واعمل بالقرآن.²

ويقول الإمام الفراهي رحمه الله: قد اتفق العلماء كلهم على أن "القرآن يفسر بعضه بعضاً" فلا بد أن نفضله على كافة الأصول، والمعروف أن الناس، في حين تعارض الحديثين، يأخذون الحديث الذي هو أقوى في السند، فليؤخذ هذا الأصل في صورة تعارض القرآن للحديث، علماً بأن القرآن أثبت من الحديث.³

¹ تفسير تدبر قرآن، المجلد: 2، تفسير سورة النساء: 11 ص 261.

² رسائل الإمام الفراهي، ص 275-276.

³ نفس المصدر، ص 278.

التفسير بالرأي والتفسير بالمأثور

عند الإمام الفراهي

- الشيخ نسيم ظهير الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي²

فكر الإنسان وعقله في تطور مستمر منذ وجوده في هذا الكون، ففي عصر الصحابة، رضي الله عنهم، بعد النبي، صلى الله عليه وسلم، نجد فرقاً في منهج التفكير بين شخص آخر، حتى ظهرت الخلافات بينهم في بعض المسائل باختلاف الطبائع وتفاوت المواهب. واتسع نطاقها في عهد التابعين. فلما أخذت تحدث تغيرات علمية وسياسية واجتماعية واقتصادية لاختلاطهم أقواماً غيرهم ولمخالطتهم أمماً أخرى تغيرت مناهج الفكر وتحولت طرق النظر، فلم تعد المسائل الفرعية والجزئية والفرعية فحسب موضع نقاشهم بل تناولوا بعض المسائل الأصولية والأساسية كذلك بالنقاش، وبحثوا في العقائد، وجعلوا القرآن مجالاً للمباحث الكلامية والفلسفية، فظهرت مدارس للفكر وتعددت فرق مختلفة، وأخذ يفسر القرآن علماء كل فرقة وأصحاب كل مدرسة فكر، وفقاً لميولهم واتجاهاتهم، وطلق أنصار كل مدرسة يثبتون مذهبهم بالقرآن ويردون على غيرهم مستدلين بالقرآن كذلك.

المنع عن التفسير بالرأي:

عند نقطة التطور، الازدهار والتغيير، انبعث السؤال في ذهن العلماء المتورعين، عن حدود التفسير ما هي؟... وعن مدى سعة نطاق الفكر والتدبر فيه، ومجال استنباط المسائل واستخراج المعاني؟ وانقسم العلماء في الرد على هذا السؤال بين فئتين.

¹ أستاذ التفسير والحديث في مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، الهند

² مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة المليية الإسلامية (نيو دلهي)

ففتنة تقول: إن تفسير القرآن ليس إلا بما روي وثبت عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه الكرام دون أن نستعين بالرأي والاجتهاد فيه، لأنهما يفتحان أبواب المباحث غير الضرورية فمنعوا بالكلية عن الاجتهاد وعن الرأي في تفسير القرآن وشرحه وبيانه.

وفئة أخرى ذهبت في تفسيره إلى الاستعانة فيه بالاجتهاد والرأي بشرط عدم مخالفتها الكتاب والسنة وأصول اللغة العامة.

الإمام الفراهي ووجهة نظره:

وأما الإمام حميد الدين الفراهي فهو يؤيد الذين أجازوا الاجتهاد والرأي في تفسير القرآن بل يوجب التدبر¹ فيه، فقسم الرأي إلى قسمين: مذموم لا يجوز، وصحيح يجوز، فالرأي الذي ليس له مستند ولا صراحة في الكتاب والسنة وأيضاً لا يوافق أصول اللغة المسلمة ويقوم على الرأي المحض وهوى النفس فقط فهو مذموم وحرام، وأما الذي لا يعارض الكتاب والسنة ولا يمنعه لسان العرب وقواعد لغتهم فهو جائز ومحمود. يوضح مذهبه في هذا الموضوع قوله:

"فاعلم أن الصحابة والتابعين، رضي الله عنهم أجمعين، قد اختلفوا كثيراً في التأويل مع تقارب خطاهم فلو أخذوا تأويلاتهم عن النبي، صلى الله عليه وسلم، لما اختلفوا ولكنهم أخذوا عن علمهم باللسان واقتصارهم على علمهم بنظائر الآيات وعلمهم بالألسنة وعن بصيرة يعطيها الله عباده ولذلك ترى أنهم يتقاربون في المآل، وبالجملة فإنهم لم يألو القرآن بالرأي المذموم الذي لا مستند له في الكتاب والسنة ولسان العرب..."²

يعني بذلك أن ما أثر عن الصحابة الكرام من معاني القرآن ومطالبه ليس كلها مأخوذة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، ولا سمعت عنه، فمنها ما ذكره عن النبي،

¹ الإمام حميد الدين الفراهي : التكميل في أصول التأويل : ص/8. الدائرة الحميدية بسرازمير (الهند) الطبعة الأولى 1288 هـ

² نفس المصدر : ص/5-6

صلى الله عليه وسلم، ومنها ما استنبطوه بفهمهم وبصيرتهم وباجتهادهم ورأيهم، ولو كان الاجتهاد والرأي في تفسير القرآن ممنوعاً وحراماً لما فعلوه، وهل يصح أن نقول: إنهم ارتكبوا حراماً؟ فلما استخدم الصحابة عقولهم وفهمهم في تفسير القرآن وتأويله وقد حث القرآن هو نفسه على التدبر والتفكير فيه فلا يصح أن نحرم على الإطلاق التدبر والتفكير في تأويل كتاب الله وتفسيره بما يوافق أصول العلم والنظر، وليس ذلك مصداقاً للحديث الذي يمنع عن التفسير بالرأي. يقول الإمام الفراهي:

"وقد حذر العلماء قديماً عن التفسير بالرأي ولكنهم لم يبينوا كل البيان ما هو المراد من التفسير بالرأي؟ وإذا كان المروي في ذلك عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قليلاً جداً ولم يكثر فيه أيضاً ما روي عن الصحابة، فأضافوا به ما روي عن التابعين أو تبعهم مع اختلاف الأقاويل بينهم، وعلى هذا صنف ابن جرير، رحمه الله تعالى، تفسيره وهو أحسن التفاسير حتى قيل أنه لم يصنف مثله.

والقرآن قد تضمن من الحكمة والمعارف ما لا يحيط به إلا الله تعالى، قد حث القرآن نفسه على التفكير والتدبر فيه وقد تبين لأصحاب العقول معارف غامضة قد تضمنتها الآيات ولم يجدوها فيما روي عن السلف فذكروها في تفاسيرهم".¹

وكان الإمام الفراهي يجب عنده لفهم القرآن استخدام العقل والفكر بجانب المرويات والمأثورات وشاهد اللغة ودلائلها، ذلك لكي يتيسر استخراج ما في القرآن من معان بعيدة وعميقة خفية.

إيضاح أقوال السلف:

لا بد لفهم القرآن من التدبر والتفكير واستخدام العقل والفهم، وقد برهن عليه الإمام الفراهي بدلائل ساطعة وبراهين قاطعة ولكن نضرب عنه صفحاً ونرى من الواجب أن نوضح، كيف نوجه وبماذا نأول قول العلماء الذين ذموا التفسير بالرأي وحرموا التدبر والتفكير في القرآن، فقال الإمام الفراهي وهو يوضح ذمه:

¹ نفس المصدر: ص/5

"إن السلف اختلفوا في تأويل القرآن كثيرًا لكونه جامعًا لوجوه كثيرة ولكونهم متفاوتين في مدارج العقول وهذا كما اختلفوا في الفتاوى ولكنهم مع ذلك اعتمدوا على أصول راسخة للتأويل كما سيأتيك في هذا الكتاب (التكميل في أصول التأويل) فلم يعتمدوا على الرأي المحض وهوى النفس".

ومن قال: إن التفسير لم يكن منقولًا عن السلف فهو التفسير بالرأي، فمحمول على أن من ترك المنقول أوشك أن يقع في أوهامه فيرى الباطل معقولًا كما قالوا: فيمن لم يتقلد السلف في الفتاوى وركب رأسه فلا يؤمن ابتعاده عن جادة الشريعة كل البعد، وكذلك محمول على أخذ ما يحتاج إليه في علم أسباب النزول ومواقعه، فلا بد أن يؤخذ من النقل مع التنقيذ والاختيار بما صح وثبت، ولا يحمل ذلك على ترك النظر في دلالة القرآن وحمل الآية على نظائرها والجمود على المنقول المحض، وعدم الفرق بين صحيحه وسقيمه وتسويته في الاعتماد، فإن المنقول جله الأحاديث الضعاف والمتناقض بعضها، بل المتناقض لظاهر القرآن، فهل يعتمد عليها؟ أو يترك القرآن لا يتدبر فيه ولا يفهم معانيه؟ نعم، ينظر فيما نقل من السلف للتأييد عند الموافقة ورجع النظر عند المحافظة حتى يطمئن القلب مما يفهم من الكلام فإنه أوثق وأبعد عن الخطأ، ولذلك قال علماء التفسير: إن أحسن التفسير ما كان بالقرآن...

لما رأى أهل السنة أن أهل البدعة والباطل جعلوا يأولون القرآن بالهوى ويحملون النصوص على غير مرادها، حرموا الاشتغال بالأقاويل في التفسير إلا ما روي عن الصحابة والتابعين ولا شك أنهم لم يريدوا بذلك إلا سدًا لأبواب الفتنة وكان ذلك هو الفرق، فإن التأويل إذا لم يؤسس على قواعده التي تكون فارقة بين الحق والباطل، لم يمنع عن القول بالرأي المحض".¹

فقد علمنا من هذا التفصيل أن المنع عن التفسير بالرأي له معنى خاص وخلفية خاصة ليس القصد منه المنع عن التدبر في القرآن بل غرضه أن يكون المكر فيه

¹ نفس المصدر: ص/807.

ماهرًا واعيًا ناقدًا وحذرًا سليمًا عن الوقوع في الخرافات والأوهام وهوى النفس منعًا له عن مخالفة القرآن وسدًا لأبواب الفتنة.

التفسير بالمأثور:

يولي الإمام الفراهي حديث الرسول وآثار الصحابة من الأهمية ما أولاه الأئمة والمفسرون، فيقول:

"فعلمت من هذا أن أول شيء يفسر القرآن هو القرآن نفسه ثم بعد ذلك فهم النبي صلى الله عليه وسلم والذين معه ولعمري أحب التفسير عندي ما جاء من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم".¹

ويمضي قائلاً:

"إني مع اليقين بأن الصحاح لا تخالف القرآن ولا أتى إلا كالتبع بعدما فسرت الآيات لأمثالها لكيلا يفتح باب المعارضة للمارقين الذين نبذوا القرآن وراء ظهورهم".²

فالإمام الفراهي لا يخالف التفسير بالحديث الصحيح ولكنه يرى أن الأحاديث الصحيحة قليلة جدًا ولا يمكن أن نقرر تأويلًا معينًا لآية بحديث لأن الروايات تحتل تأويلات مختلفة فسميت الأحاديث بالظني بمعنى أن كونها ظنية أو قطعية باعتبار دلالتها على معنى معين لا باعتبار صحتها وعدم صحتها. فذهب الإمام الفراهي إلى هذا الأصل: "تفسير القرآن بالقرآن" الذي استحسسه العلماء والبلغاء، وبعد ذلك نرجع إلى الأحاديث، فإن كان هناك حديث يعارض معنى القرآن فلنأول ذلك تأويلًا يوافق القرآن، ولا نأول القرآن نفسه، ومن الممكن أن يلبس الحق بالباطل للاعتماد كليًا على الحديث، لأن في الأحاديث ما هو صحيح وما هو سقيم، ولا يمكن أن نميز بينهما، فقال في كتابه: "التكميل في أصول التأويل":

¹ الإمام الفراهي: فاتحة نظام القرآن: ص/7. مكتبة الإصلاح بسرانمير 1257 هـ

² الإمام الفراهي: فاتحة نظام القرآن: ص/7. مكتبة الإصلاح بسرانمير 1257 هـ

"ولكن ههنا مزلة وخطر، وذلك أنك قبل أن تفهم القرآن تهافت على الحديث وفيه صحيح وسقيم فيعلق بقلبك من الآراء ما ليس له في القرآن أصل وربما يخالف هدى القرآن فتأخذ في تأويل القرآن إلى الحديث ويلبس عليك الحق بالباطل.

فالسبيل السوي أن تعلم الهدى من القرآن وتبني عليه دينك ثم بعد ذلك تنظر في الأحاديث فإن وجدت ما كان شاردًا عن القرآن حسب بادئ النظر أولته إلى كلام الله فإن أعيالك فتوقف في الحديث وأعمل بالقرآن".¹

وفضلاً عن ذلك، فقال: إن التفسير بالحديث يناسب المقام والنظام مأمون إذا لم يقرر عقيدة ومذهباً، ولكنه ظني مع إمكان معنى آخر، يقول:

"والتفسير بحديث يناسب المقام إذا لم يقرر عقيدة ومذهباً مأمون ولكن مع ذلك ظني فأخذ به مع إمكان غيره".²

وقد حث الإمام الفراهي على التفسير القرآن بالقرآن وكان سعيه أن يعين المعنى المقصود في ضوء العمود وسياق الآيات وسباقها ونظائرها فظن بعض العلماء أن الإمام الفراهي يصرف النظر عن ذخائر الحديث ولكنه وهم محض فإنه يحيل إلى الحديث في تفسيره مثل المفسرين، غير أنه يأتي به كالتبع³ وإن خالف حديثاً صحيحاً فانتقده في ضوء أصول الانتقاد التي اختارها نقاد الحديث.

المنقولات في التفسير:

قد اختار الإمام الفراهي في المنقولات في التفسير مع إعطاء الحديث والروايات عن الصحابة مكاناً صحيحاً في تفسير القرآن مثل ما اختاره عامة المفسرين والمحدثين من وجهة نظرهم، فقال العلامة ابن تيمية وهو أكبر من ترجم السلف:

¹ الإمام الفراهي: التكميل في أصول التأويل: ص/65-66.

² الإمام الفراهي: رسائل الإمام الفراهي: ص/279. الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح سرائير، أعظم جراه. الطبعة الثانية ٤١١ هـ - 1991 م.

³ الإمام الفراهي: فاتحة نظام القرآن: ص/7.

"فإن الكتب المصنفة في التفسير مشحونة بالغث والسمين والباطل الواضح والحق المبين، والعلم إما نقل مصدق عن معصوم وإما قول عليه دليل معلوم، وما سوى ذلك، فإما فريق مردود وإما موقف لا يعلم أنه بهرج ولا منقود، وحاجة الأئمة ماسة إلى فهم القرآن".¹

وقال الإمام أحمد بن حنبل:

"ثلاثة أمور ليس لها إسناد: التفسير والملاحم والمغازي".²

وأوضح الإمام الفراهي وجهة نظره عن تفسير ابن جرير فقال:

"وقد أسس تفسيره بعض العلماء على الأحاديث كابن جرير الطبري الذي حكموا على تفسيره أنه لم يصنف مثله ولكن الأحاديث فيها أكثرها ضعاف والمرفوع فيه قليل وإنما جمع فيه أقوال أهل التأويل مع كثرة الاختلاف فيما بينها".³

وقال في كتابه: "التكميل في أصول التأويل":

"وإذ كان المروي في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم قليلاً جداً ولم يكثر فيه أيضاً ما روي عن الصحابة فأضافوا به ما روي عن التابعين أو تبعهم مع اختلاف الأفاويل بينهم، وعلى هذا صنف ابن جرير رحمه الله تعالى تفسيره وهو أحسن التفاسير حتى قيل أنه لم يصنف مثله".

"والقرآن قد تضمن من الحكمة والمعارف ما لا يحيط به إلا الله تعالى وقد حث القرآن نفسه على الفكر والتدبر فيه وقد تبين لأصحاب العقول معارف غامضة قد تضمنها الآيات ولم يجدوها فيما روي عن السلف فذكروها في

¹ الدكتور عناية الله الإصلاحي : الإمام حميد الدين الفراهي : ص/64 . طبعه بمطبعة إسرار كربي . الطبعة الأولى 1978 م

² العلامة ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير : ص/16 . الطبعة الثالثة بالمطبعة السلفية بالقاهرة 1397هـ

³ الإمام الفراهي : فاتحة نظام القرآن : ص/7 .

العدد الخاص مجلة الهند

تفاسيرهم، وأكبر التفاسير المتداولة التي كتبت على هذا الطريق ما ألفه الإمام الرازي رحمه الله تعالى".

"وكلاهما متلقى بالمعقول بين المسلمين عامة، مع اتفاق العلماء على أن كليهما يحتوي على الغث والسمين ولا بد للناظر فيهما من النقد والإمعان".¹

وقال أيضًا في مقدمة نظام القرآن:

"وجب على من يحاول فهم القرآن أن لا يأخذ الروايات ما يهدم الأصل أو يقلعه فإنني رأيت بعض الروايات تقلع الآيات وتقطع نظمها إلا أن تأول.. فينبغي لنا أن نأخذ منها إلا ما يكون مؤيداً للقرآن وتصديقاً لما فيه كما أن الآثار المنقولة من ابن عباس رضي الله عنه أقرب الأقوال من نظم القرآن".²

الإسرا ئيليات:

وصرح أيضًا الإمام الفراهي وجهة نظره عما تسرب في كتب التفسير والحديث مما روي عن أهل الكتاب، فقال:

"وكذلك تاريخ أهل الكتاب أقرب من الأخبار المنقولة عندنا فإن المفسرين أخذوها من أفواه العامة والذين قل علمهم بالكتب التاريخية في قصص الأنبياء وبني إسرائيل فالصواب أن نأخذ من كتبهم المعتمدة كالتبع فحيث يختلف عن القرآن نتركه كتموا الشهادة".³

منهجه في دراسة القرآن الكريم:

بعد ما أوضحنا موقف الإمام الفراهي عن كل من التفسير بالرأي والتفسير بالمأثور وفي المنقولات في التفسير يليق بنا نوضح قليلاً منهج دراسة القرآن له.

¹ الإمام الفراهي : رسائله : ص/217 .

² الإمام الفراهي : فاتحة نظام القرآن : ص/10

³ الإمام الفراهي : فاتحة نظام القرآن : ص/10

فالمنهج الصحيح عند الإمام الفراهي لدراسة القرآن هو أن يفكر في القرآن مباشرة ويتدبر فيه في ضوء سياق الآيات وسباقها والآيات المماثلة لها ومع ملاحظة أساليب كلام العرب واستعمالاتهم فينبغي للدارس أن يعين بتدبره ودراسته معنى الآية ومقصودها، وبعد ذلك يرجع إلى الأحاديث والروايات والتفاسير لكي يطمئن قلبه وينشرح صدره، أما إذا اطمئن قلبه بتأويل فليحمد الله وإلا فليطل التدبر والتفكر فيه معترفاً بقله علمه وضآلة فهمه، وليدع الله أن يوسع عليه سبيل فهم القرآن، ولا يقطع هذا الدعاء ما دام الاطمئنان لم يحصل، فقال الإمام الفراهي وهو يوضح منهجه في دراسة القرآن:

"ما أخذت معنى الآيات من كتب التفسير ولكن تأملت في رباط الكلام وآيات مماثلة فإذا تقرر عندي معنى جملة من الآيات نظرت في تفسير الرازي والطبري، رحمهما الله تعالى، فربما وافقني واحد من أقوال السلف وربما كنت قريباً من بعضهم وربما فهمت معنى ثم رجعت فيه وربما أشكل عليّ شيء فوقفْتُ ومع كل هذه الأمور نحول الأشكال والإبهام إلى قلة علمنا وقصور فهمنا وتقليدنا لما أخذنا من الآراء التي أخطأنا فيه".¹

فما تبين من وجهة نظر الإمام الفراهي في التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي هو بعيد عن كل إفراط وتفريط، وفي غاية من الحذر، وباعتدال مناسب، تمسك بها الفراهي وعض عليها بالنواجذ، وإن تأملت تفسيره تجد أنه يسير من أوله إلى آخره على هذا المنهج العدل، إذ أن المتأخرين من العلماء اعتمدوا كثيراً على الأحاديث والروايات وهي صحيحة وسقيمة معاً، فأولوا آية بتأويلات متناقضة وبعيدة عن الفهم، ومستدلهم الوحيد في ذلك أن الآية تحتل احتمالات مختلفة ووجوهاً عديدة، أما الأحاديث والروايات فهي أوضح من القرآن في ذلك مع أن القرآن هو أصل وجدير بالاعتماد والاستناد عليه.

¹ نفس المصدر: ص/17 .

المصادر والمراجع

1. الإمام حميد الدين الفراهي: التكميل في أصول التأويل، الدائرة الحميدية، سرائيمير، أعظم كره، الهند، ط1، 1288هـ
2. الإمام الفراهي: فاتحة نظام القرآن، مكتبة الإصلاح، سرائيمير، 1257هـ
3. الإمام الفراهي: رسائل الإمام الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائيمير، أعظم جراه، ط2، 1411هـ/1991م
4. الدكتور عناية الله الإصلاحي: الإمام حميد الدين الفراهي، مطبعة إسرار كريبي، ط1، 1978م
5. العلامة ابن تيمية: مقدمة في أصول التفسير، ط3، المطبعة السلفية، القاهرة، 1397هـ

إمام العربية والتفسير في شبه القارة الهندية

- أ.د. أحمد حسن فرحات¹

يعتبر العلامة عبد الحميد الفراهي الهندي أحد مخضرمي القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، حيث ولد رحمه الله سنة 1280هـ في قرية "فريها" - من قرى مديرية أعظم كره بالهند - وكان ابن خال علامة الشرق ومؤرخ الإسلام الشيخ شبلي النعماني- تغمده الله برحمته- . وتوفي سنة 1349هـ الموافق 1930م.

ومن المؤسف أن يكون مثل هذا العلم العظيم مجهولاً إلى حد كبير في الأوساط العلمية والثقافية في العالمين العربي والإسلامي، على الرغم من كتبه ومؤلفاته التي تدل على عبقرية فذة، وعقلية مبدعة والتي لا بد أن يكون لها أثر بارز في حاضر ومستقبل العلوم العربية والإسلامية.

اشتغل الفراهي منذ يفاعته بطلب العلم، فحفظ القرآن، وقرأ - كدأب أبناء العائلات الشريفة في الهند- اللغة الفارسية وبرع فيها، ثم انصرف إلى طلب العربية، فاستظل بعطف أخيه الشيخ شبلي النعماني- وكان أكبر منه بست سنين- فأخذ منه العلوم العربية كلها من صرفها ونحوها، ولغتها وأدبها، ومنطقها وفلسفتها، ثم سافر إلى لكنؤ- مدينة العلم في الهند- وجلس في حلقة الفقيه المحدث الإمام الشيخ أبي الحسن² السهارنفوري- شارح الحماسة وأستاذ اللغة العربية في كلية العلوم الشرقية بـلاهور- فبرع في الآداب العربية، وفاق أقرانه في الشعر والإنشاء. قرأ دواوين الجاهلية كلها، وحلّ عقد معضلاتها، وقنص شواردها فكان يقرض القصائد على منوال الجاهليين، ويكتب الرسائل على سبك بلغاء العرب وفصائحهم.

¹ أستاذ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر

² وهم الدكتور فالعلامة الذي تلمذ له الفراهي كان عبد الحي اللناوي، وأما السهارنفوري فهو العلامة فيض الحسن الذي تلمذ له الفراهي في لاهور (إدارة التحرير).

ثم عرج على اللغة الانجليزية- وهو ابن عشرين سنة- ودخل في كلية علي كره الإسلامية، ونال بعد سنين شهادة B A من جامعة الله آباد، وامتاز في الفلسفة الحديثة، أخذها من الأستاذ بكلية علي كره الإسلامية يومئذ- ... كان الفراهي عالمًا بالعلوم العربية والدينية، وفاضلاً في العلوم العصرية والإنكليزية، ثم عيّن معلماً للعلوم العربية بمدرسة الإسلام بكراتشي عاصمة السند، فدرس فيها سنين، وكتب وألف وقرض وأنشد، ثم انقطع إلى تدبر القرآن ودرسه، والنظر فيه من كل جهة، وجمع علومه من كل مكان، ففضى فيه أكثر عمره، ومات وهو مكبّ على أخذ ما فات العلماء، ولفّ ما نشره، ولمّ ما شتته، وتحقيق ما لم يحققه، فكان لسانه ينبع علمًا بالقرآن، وصدره يتدفق بحثًا عن مشكلاته، وقلمه يجري كشفاً عن معضلاته.

أما المناصب التي شغلها: فقد عيّن أستاذًا للغة العربية بكلية عليكره الإسلامية، وكان بها يومئذ أستاذ اللغة العربية المستشرق الألماني الشهير يوسف هارويز، الذي استكمل العربية من الفراهي، وقرأ عليه الفراهي العربية، ثم عيّن أستاذًا بجامعة الله آباد، وبقي فيها أعوامًا حتى انتقل منها إلى حيدر آباد الدكن رئيسًا لمدرسة دار العلوم النظامية، التي كانت تخرج قضاة البلاد وولاتها. وهو الذي عمل على تأسيس الجامعة العثمانية، والتي كانت من أحدث جامعات العالم سنًا، وأعجبها نظامًا. ثم استقال ولزم بيته، وانقطع إلى العلم، وكان قد أسس قرب قريبته مدرسة عربية دينية، سمّيت "مدرسة الإصلاح" فكان ينظر في شؤونها، وكان من أعظم مقاصدها وأهدافها تحسين طريق تعليم العربية وإيجاز قائمة دروسها المتعبة العقيمة، وإلغاء العلوم البالية القديمة، والعكوف على طلب علوم القرآن والبحث عن معانيه ونظمه، وأحكامه وحكمه. كما كان رئيسًا للجنة المديرين "لدار المصنفين" التي كان أحد مؤسسيها...¹

هذه لمحة خاطفة عن حياة الفراهي. وأما كتبه ومؤلفاته فكثيرة متعددة، ومعظمها باللغة العربية التي شغف بها المؤلف، وأثرها على لغته الأصلية، وحينما سئل عن

¹ عن الترجمة الملحقه بكتاب "إمعان في أقسام القرآن" للمؤلف - بتصرف واختصار.

العدد الخاص مجلة الهند

سبب كتابته بالعربية مع حاجة قومه إلى الكتابة بالأردية قال: "أردت لكتبي الخلود" وسنتكلم عن كتبه وما أضافته من جديد إلى عالم المعرفة في بعض الأعداد القادمة، ونورد في هذا العدد بعض ما قاله في العرب ولغتهم، حيث رافقهم في شعرهم الجاهلي، وعاش حياتهم، وتنقل في بواديهم وحواضرهم، وعرف أخلاقهم ومثلهم، وقال فيهم ما لم يحسنوا أن يقولوا مثله في أنفسهم، يقول الفراهي في العرب وفي صفة كلامهم:

"وكانت العرب على غاية قصوى في تأثرهم بالكلام، وهذا لقوة قلوبهم، وشدة تأثير أقوالهم، فكأن كلامهم يحمل روحًا منهم، وكأن السامع يتأثر له من وجهين: من قوة المتكلم، ومن اعتيادهم التأثر، وقد قيل: القول إذا خرج من القلب وقع في القلب. وسذاجتهم وصدقهم، نفت عنهم الخواطر وتشتت البال. وصرف القول عن نهجه الصادق، فكان قولهم وسمعهم من القوة والإصابة كضربة سيف مرهف، ولولا أن كلامهم جماع همته ما ارتجلوا قصائد طويلة دامغة، وكانوا أصدق الناس وأنطقهم".

ويقول أيضًا في أخلاق العرب التي رشحتهم لحمل رسالة الإسلام:

"زعموا أن الله تعالى أعطى العرب كتابه، وأرسل إليهم الرسول لما بلغ كفرهم وسوء أعمالهم منتهاه، هذا حق. ولكن لا بد فيه من زيادة: إن الله تعالى بعث رسولًا منهم، واصطفاهم لصدقهم، وأمانتهم ومكارم أخلاقهم، وكانوا أرغب في خلال الخير (وهذا بحث طويل، ودلائله في تاريخهم و "الحديث").

ويقول أيضًا: "خلتان فضلت بهما العرب على سائر الناس: الصدق. والجود.

فالصدق بناء العبادات. والجود بناء المعاملات. ويعبر عن الأصلين بالصلاة والزكاة. ألا ترى كيف كانوا يمدحون بهاتين الصفتين؟

قال صخر أخو الخنساء يرثي أخاه له:

وطيب نفسي أني لم أقل له كذبت ولم أبخل عليه بماليا

وبلغ من حبِّ الفراهي للعرب ما جعله يعتبر سيئاتهم إنما نبعت من الحسنات. وفي ذلك يقول:

"وإنما كان القرآن معجزًا للعرب لما أنهم تأثروا له، فإن العرب على علاقتها كانت على سذاجة الفطرة، وحبِّ المعالي: من الجود، وصلة الرحم، والغيرة، والشكر، لا سيما شرفائهم وخيارهم، حتى إن سيئاتهم نبعت من الخيرات، فمعاقرتهم الخمر، ومقامرتهم الميسر جاءت من الجود، وحروبهم من أداء حق المقتول، والغضب للقسط، وظلمهم من إباء النفس عن الدنية، ولذلك رحموا الضعفاء، والأرامل ولم يقتلوا في الحرب الإماء ولا الأطفال، ولم يرهقوا المهزمين. وإنما بقوا على الفقر وسوء العيش، لإبائهم عن الطاعة لملك يجمع أمرهم، إلا من لا يتكبر عليهم، ويعدل بينهم، ويكون كأحدهم = كما كان الشيخان وذوو أمرهم في الجاهلية -. فأملكهم وأقوالهم أعدلهم - كما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه - فلم يرد إلا أنه يقهرهم بكمال عدله ...

ويرى الفراهي أن سبب تأثر العرب بالقرآن، يرجع أولاً وقبل كل شيء لدعوته إلى مكارم الأخلاق التي كانوا يجدون صداها في نفوسهم، والتي كانوا يشعرون بها بفطرتهم. وفي ذلك يقول:

"والقرآن دعاهم أولاً إلى هذه المكارم التي قد عرفوها، فتأثر له ذوو النهى منهم، لصدقه في الدعوته إلى المعالي، حتى إذا دانت له جماجمهم، بين لهم أن هذا الكلام لا يكون إلا صدقاً وهو كونه قدسيًا، وهديً ونورًا، فلا يقدر عليه كاذب، بل يكون إحياءً من جانب القدس، ولذلك لم يجيء التحدي به في أول الدعوة حتى علموا أثره. وكونه أهدي، هو أثره الذي أحيا أمة تشنت أركانها، وتهدم بنيانها، وبعدت عن المدينة لشدة إبائها وحميتها، وصعوبة قيادها، كأن القرآن أخرج أمة متمدنة من الأسود الضواري، قال تعالى: "لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم".¹

¹ سورة الأنفال: 63

والعرب قد جربوا ذلك، وعرفوه في أنفسهم. وأثمتهم وذوو العقول والتدبير، وأولوا الأمر والنهى منهم أعلمهم بعجزهم عن تحويل العرب إلى التمدن. وقد أعجزوا الأمراء إلا الشيخين، وعادوا بعد مدة قصيرة إلى بغيهم، وتطاول بعضهم على بعض، وهم إلى الآن على حالهم قانعين بفقرهم وبؤسهم، مفتخرين بحريتهم القديمة، إلا الذين شربوا من التمدن الحديث الذي هو هلاك بني آدم...¹

ويرى الفراهي في فضيلة الصبر التي كان يتحلى بها العرب مرشحاً قوياً لهم لحمل رسالة الإسلام، ذلك أن بناء الإسلام إنما قام على الصبر، وفي ذلك يقول الفراهي: "لعل اختيار أمة العرب، هو الصبر المحض، وهو جماع الفضائل، وهو أحسن وراثته إبراهيم عليه السلام. وأرض العرب أصلح لتربية هذه الفضيلة حتى ترى حيواناتها وأشجارها أصبر من بني نوعها في سائر الأرض.

ولما كان بناء الإسلام على الصبر، كان الإسلام أصلح لفطرة العرب، ولما كانت أرض العرب صالحة لطبائع أهلها، فإذا خرجوا منها أسرع الفساد إلى طبائعهم. فكان الترف هلاكهم، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ما معناه: "إنه يخاف عليهم كثرة المال".²

ويقول أيضاً في صفة كلام العرب وتفضيله على كل كلام آخر: "اعلم أن كلام العرب كله نمط أعلى من كلام الأمم التي اعتادت عليه، لأن العرب مولعون برزانة القول وتهذيبه عن السخف، فهم يجردون كلامهم من كل رابطة، ولو ذكروا الروابط لكان عاراً على السامع الذي يفهم الروابط بذكائه، فلذلك كثر في كلامهم الحذف. ألا ترى قولهم: "أنا ذاهب" كلمتان. وفي أكثر اللغات ثلاث كلمات، فخفف عليهم بهذا الإيجاز إعمال المنطق، كأن كلامهم قد وضع حسب اقتداء الفكر والفهم. فترى كلامهم مربوطاً براية عقلية، وعليك أن تميز بين الروابط من كل

¹ القائد إلى عيون العقائد، ص 181-183 بشيء من التصرف

² دلائل النظام، ص 37

العدد الخاص مجلة الهند

قسم، فإنهم لا يصرحون بها ... ثم إن الحذف في كلامهم يجعل كلامهم شبيهاً بالوثبات، والقرآن كمطر السحاب من وجوه مختلفة – وهذه الوثبة من بعض وجوه المطر. قال امرؤ القيس في صفة السحاب ومطره:

لها وثبات كوثب الظباء فواد خطاء وواد مطر

فالكلام الذي لا حذف فيه، لا محل فيه للعقل والنظر، وهو كدبيب النمل، والعرب لا تستجده، ولا تتأثر به، لذكائهم وسرعة فهمهم، وتنفرهم عن الفضول. وإن كان ضرورياً عند غيرهم ...¹

ويتحدث الفراهي عن ميزة الحذف هذه في كلام العرب في مكان آخر فيقول: ومن أساليب الحذف. وهو إسقاط الفضول عن القول، والفضول ما يفهم الكلام بدونه ويتأثر منه السامع. فإن الغرض من الحديث ليس إلا الإفهام والتأثير. فكلما زاد على هذين أذهل وأبعد وأثقل. ولما كان المستمعون على مراتب متفاوتة من الذكاء والتأثر. فقد اختلفت الألسنة في مقدار الحذف فيها:

أما العرب: فلذكائهم، وتوقد أذهانهم، فقد كان أنجح الأقوال عندهم ما قلّ وكفى، فإن الكلام إذا لم يهذب عما لا فائدة فيه ولا يغني شيئاً سقط عندهم، ومجته أسمعهم. وذلك لاعتقادهم أن المسهب في الكلام إما أنه أحمق أو يحرق المستمع، وعلى هذا كان أمر الحذف في كلامهم من بعض سجاياهم، وكانهم طبعوا عليه، فلذلك تراهم يخالفون السنة الأمور بأمور:

- لم يشكّلوا كلامهم إلا لأجل العجم – وكذلك العبرانيون إخوانهم.
- جردوا الكلام عن الروابط: كالإضافة، والخبر، والتمييز، والظرفية، وغيرها. وهذه درجة عالية من ارتقاء اللسان – والبحث المشبع عليه في باب على حدة.
- وأخلصوا الكلام عما دلّت عليه القرينة من الفعل والجواب للشرط، والقسم. واستقصاء ذلك في النحو.

¹ دلائل النظام، ص 65-68 بقليل من التصريف

- أسقطوا من القصة والحجة أجزاء وقضايا لا يكاد يحذفها غيرهم. فلذلك صعب على العجم درك حديثهم، كما لا يدرك حسير القوم شأو حثيثهم- والبحث عنه في باب الإيجاز وفيه فوائد جمة...

- أسقطوا في كلامهم المركب من هيآت الحروف أكثرها، فسبقوا كل أمة بخطهم البديع والتركيب"¹.

ويشرح الفراهي بعض ما أوجزه هنا في مكان آخر من كتابه "أساليب القرآن" حيث يتحدث عن خصائص لسان العرب وخطهم فيقول:

"خصائص لسان العرب وخطهم:

(1) منها كثرة الحذف. اعتمادًا على فهم السامع. فإنهم لذكائهم كانوا يعدون الإطناب عيًّا. حتى إن لسان العرب قد بني على الإيجاز خلاف سائر اللغات. فأنواع الكلم مصوغة من المواد. وليست مركبة من السوابق واللواحق، مثلًا كلمة فاعل ليس مثل "كارنده" (الفارسي) وميكـر Maker (الإنكليزي).

وما في العرب من الحروف الزائدة في مثل يفعل، ومفعّل، وفاعلة، وفاعلون. فليس في شيء من السوابق واللواحق. إنما هو من أنحاء أوضاع الزوائد؛ فإنها توضع في أمكنة مختلفة.

وكذلك هدّب كلامهم عن فضول الروابط. فلا تجد فيه رابط النسبة الخبرية ولا الإضافة: وكذلك عن روابط الخيال: فترى في كلامهم لتعودك بالعجي انقطاعًا ورتقًا، ولكن العربي يراه متصلًا، وهذا من أقوى الدلائل على حدة فكر المتكلم والكاتب، وأرى ذلك في كلام حكماء الهند، وأشكل على علماء أوروبا فهمه لتعودهم على الإطناب.

(2) قد علمنا أن اللسان حمولة الخيال، وكذلك الخط حمولة اللسان، وقد علمنا ما في الخيال من السرعة، ثم ما في اللسان. فمهما كان اللسان أبطأ كان

¹ أساليب القرآن، ص 25-26 بقليل من التصرف

قيداً وثقلاً على الخيال، وهكذا الخط إذا كان بطيئاً كان قيدياً على الكلام النفسي، فيتبدل الخيال، فلذلك كلما كان اللسان والخط أوجز كان أحسن وأعون، ولذلك في هذا الزمان احتاجوا إلى الخط السريع، لضبط الخطب. والعرب بسرعة فكرهم لم يرضوا بالخط البطيء الذي لم يترك منه قوم إلى الآن. والمتعود بالخط العربي يحقر سائر الخطوط، ويحسبه خط الجهلاء الحمقاء، لا أثر عليه من الصنعة والعقل، فالفكر الذي وضع لهم لساناً مهذباً عن الفضول أعطاهم خطأ على غاية من الصنعة وجودة التركيب. وكما أن خطهم يساعد الكاتب فيلقى خياله بسرعة التخيل والكلام النفسي، كذلك هذا الخط يساعد المتعلم، وذلك لأن الألفاظ فيه صورة واحدة، ترتسم بلحظة واحدة في الخيال، وتبقى كصور الأشخاص، وأنت تعلم أن البصر لشدة تمرنه يقدر على حفظ الصور أكثر من سائر الحواس. (فإنك لا تزال ترى حتى في النوم ولا تسمع ولا تشم ولا تطعم ولا تمس إلا بعض الأوقات)، فإذا رأيت ألفاظاً مثلاً: شمس؛ قمر، نجم؛ أسد، نخل، رجل، فكأنما رأيت صور أشخاص. وأما سائر الخطوط من خطوط النصراري والهنود. ففيها كل حرف صورة على حدتها، وفي كل كلمة تحتاج إلى حفظ الصور المختلفة الطويلة العريضة، وزاد على ذلك رسم الحركات. ثم في الخط الأوروبي الحركات ربما تربو على الحروف، مثل: فائض فإنه عندهم: ف - ي - ج - ص - ط، أعني Fight، فالخط الذي وضعته العرب أسهل لتعلم الألسنة. ولذلك ترى الفرس والترك والأفغان وأكثر الأمم المسلمة مع حفظهم ألسنتهم تركت خطوطها

ويتحدث في مكان آخر عن عدم تغير اللسان العربي وثباته واستمراره فيقول: إنا نرى اللسان يتغير بالزمان إذا لم يكن له وازع عن التغير ولكنك ترى اللسان يسلم عن التغير إذا شاع التعليم، واتخذوا كتباً خاصة، فكل صبي ينشأ ويتربى على لسان واحد، كما نرى الفارسية والعربية في الهند لم تتغير، فإن القرآن صار

العدد الخاص مجلة الهند

المركز لكل ما تعلموا في العربية، وكتاب السعدي والحافظ وأمثالهما، حفظوا اللسان في فارس والهند.

والسبب القوي للتغير هو تبدل الحكم من قوم إلى قوم مختلفين في لغاتهم بخلاف لسان فارس والهند، والآن نرى أثر لسان الإنكليز في الهند، وهذان أمران ظاهران. فإذا توجهنا إلى حال لسان العرب قبل الإسلام: علمنا أنهم حفظوا لسانهم لأجل الرواية، وجمعهم في مواسمهم وأسواقهم، وتخالطهم لكثرة الترحال، فكانت أشعارهم أسفارهم، ومواسمهم مدارسهم، فلا نرى في قديم كلامهم وجديده تفاوتًا، فإذا جاء القرآن ودوّنت لغتهم استقر لسانهم، ولكن العامة نبذوا العلم فتغير لسانهم، ومع ذلك إذا رجعوا إلى التعليم رجع لسانهم إلى أصله كما ترى اليوم المصريين والشاميين راجعين إلى العربي الصحيح ¹

هذه بعض أقوال الفراهي في العرب والعربية، وهي إن دلت على شيء فإنما تدلّ على عظمة الإسلام الذي جعل رجلًا مثل الفراهي يعيش في أقصى الهند بعيدًا عن العرب والعروبة، ويتقن لغتهم، ويتعمق في دراستها، ويخوض لأجل ذلك مفاوز الشعر الجاهلي، ويستنبط منه أخلاق العرب وأحوالهم، ويتحدث عن خصالهم ومحاسنهم حديث المحب العاشق.

لقد فعل الفراهي كل ذلك بسبب عقيدته الإسلامية، ومن أجل فهم القرآن الكريم الذي نزل بلغة العرب، وقد أدرك الفراهي أنه لا يمكنه تذوق القرآن، واستكشاف كنوزه إلا من خلال العربية، فانطلق يتعلمها بحماس منقطع النظير، وتعمق قل أن يوجد مثله في أهل العربية، بل لقد سجّل الفراهي على علماء العربية بعض الأخطاء والهفوات، وتكلم على بعض خصائص العربية التي لم يذكرها أحدٌ غيره، وكانت له ملاحظات واستدراكات في علوم النحو والبلاغة وغيرها، كما كانت له نظرات صائبة في ما ينبغي أن تكون عليه علوم اللغة والشريعة.

¹ أساليب القرآن، ص 4-5

العدد الخاص.....مجلة الهند

هكذا فعل القرآن بالفراهي، وهكذا يفعل بكل مسلم غيور، فأين موقف الفراهي هذا من مواقف كثير من العرب المعاصرين الذين ينتسبون إلى العروبة اسمًا، ولكن يولون وجوههم شطر الغرب، فيستقبلون قبلته، ويدورون في فلكه، بعد أن أداروا ظهورهم للعربية والقرآن، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، ألم يقرأوا قول الله تعالى في قرآنهم العربي: "لقد أنزلنا إليكم كتابًا فيه ذكركم أفلا تعقلون"¹. وقوله تعالى: "وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون"²!!

¹ سورة الأنبياء: 10

² سورة الزخرف: 44

الإمام عبد الحميد الفراهي مفسراً وأديباً

- أ.د. أبو سفيان الإصلاحي¹

إن الإمام عبد الحميد الفراهي² (1863-1930م) اشتهر بين الأوساط العلمية بخدماته القرآنية والأدبية، وناول قبولاً عاماً بين العلماء العرب والهنود والمستشرقين بتفرداته وعجائبه في ميادين التفسير والبلاغة وشرح المفردات القرآنية والاستشهاد بكلام العرب، وقد داوم البحث والتحقيق لنيل النتائج النهائية العلمية. وما اختار الإمام الفراهي الطرق التقليدية والعادية التي سارها العلماء الآخرون، وبهذا الوجه أجاد المباحث العلمية وناول الابتكارات في مختلف المجالات خاصة في الاستشهاد بكلام العرب. وقدّم الاتجاه الجديد لنظم القرآن الذي كان موجوداً عند المفسرين المتقدمين ولو في نطاق ضيق فقدّم الأستاذ الفراهي نظام القرآن والتناسب بين الآيات الكريمة في نطاق واسع بالأدلة القوية في العديد من كتبه من مثل "دلائل النظام" و"نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" و"تعليقات في تفسير القرآن الكريم" و"التكميل في أصول التأويل". وادعى فيها أن القرآن مرتب ومدون بالهدايات الربانية كما هو منزل من الله جلّ جلاله فإن بدّلت آية من الآيات

¹ بروفييسور، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره

² راجع لحياة الأستاذ الفراهي وأثاره إلى المصادر التالية:

(1) ذكر فراهي للدكتور شرف الدين الإصلاحي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح سرائ

مير، أعظم كره، 2001م

(2) علامة حميد الدين فراهي: حيات وأفكار، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح بسرائ مير،

أعظم كره، 1996م

(3) علامة حميد الدين فراهي: ايك عظيم مفسر، ايك مايه ناز محقق، ايك بلند بايه مجدد

لمحمد عنايت الله السبحاني الإصلاحي، مكتبة الإصلاح بسرائ مير، أعظم كره، يوبي (الهند)،

نوفمبر 1978م

(4) مولانا حميد الدين فراهي: مفسر ومحقق للدكتور أبو سفيان الإصلاحي، قرآنك ريسرج

سنتر، كبير كالوني، علي كره، يوبي

القرآنية من مكانها، فيقع الخلل والفساد في الربط بين الآيات القرآنية وتناسبها. ولا مرو في أن القرآن الكريم مربوط ومنظم في سوره وآياته وألفاظه، ولكل سورة موضوع مركزي تدور حوله وتتنظم بها أشد الانتظاما. وأودّ أن أبرز هذا الجانب من من جوانب الاقرآن الذي قدّمه الأستاذ الجليل. فكان الفراهي قد علق حبّا بهذا العلم لمرافقته لأستاذه العلامة فيض الحسن السهارنفوري (1816-1887م) الذي كان يركز على الفصاحة والبلاغة القرآنية أمام تلاميذه وقد أهدانا التاريخ إلى هذا الجانب أن الشخصيات المبرزين من مثل السير سيد أحمد خان وشبلي النعماني والأستاذ أشرف علي التهانوي ومحمد إقبال قد استفادوا من دراسته الواسعة العميقة.¹ والأستاذ الفراهي كان يحبه حبّا جمّا وكان يكثر ذكره من خلال أحاديثه وكتاباتاته وهو الذي نشر ديوانه على نفقته الخاصة.

ولد الإمام الفراهي في قرية "بهرپها" بمديرية أعظم جراه، أترابرديش ونسبة "الفراهي" ترجع إلى هذه القرية وقد كتب الدكتور شرف الدين الإصلاحي مقالة قيّمة حول هذه النسبة في المجلة الفصلية الأردية "علوم القرآن"² كما تحدّث عنها في كتابه الجليل "ذكر فراهي"³ الذي طبع أولاً في الهند في سنة 2001م من "الدائرة الحميدية" بمدرسة الإصلاح (سرائي مير، أعظم جراه)، ثم من "دار التذكير" بـلاهور في باكستان في سنة 2002م.⁴ وأحاط فيه شرف الدين الإصلاحي بجميع أخبار حياته واستفاد من الكثير من مصادره الأولية. وكان يود الدكتور الإصلاحي أن يرتب كتاباً شاملاً جامعاً لتبيين مراحل حياته والفكر الفراهي ولكن سبقت المنية إتمام هذه الفكرة فتوفي الدكتور الإصلاحي في شهر أغسطس 2011م تاركاً وراءه

¹ راجع للتفصيل: ذكر فراهي

² مولانا فراهي اور ان كي نسبت فراهي، شرف الدين الإصلاحي، مجلة علوم القرآن، يوليو-ديسمبر 1985، ص 136-145

³ كتبت مقالة لإبراز النقاط المهمة لـ "ذكر فراهي" فراجع للتفصيل: خدا بخش لائبريري جرنل، بتنه، عدد: 122، ص 227-242

⁴ فهذا الكتاب طبع أيضاً من لاهور بعد نشره من الهند بسنة مع الإضافة اليسيرة

العدد الخاص مجلة الهند

مواد كثيرة عن الفكر الفراهي وتاريخ مدرسة الإصلاح، ينبغي للمسؤولين لها أن يتفكروا في حفظها من أيدي حوادث الزمان ويقوموا بنشرها. ذلك لأنها قيّمة للغاية ولقد رأيتها في مقرّها بإسلام آباد ولقد طاف الأستاذ الدكتور في مختلف الولايات الهندية والباكستانية ولاقي عديداً من الشخصيات التي لها خبرات ومعلومات عن الأستاذ الفراهي والمصادر والمراجع التي تتعلق بحياته وأفكاره. وذكر الإصلاحي قصة أليمة لترتيب "ذكر فراهي" في تقديم الكتاب وذكر فيه أنه واجه مشاكل كثيرة من قبل الحساد¹ وذكرها حين إلقاء محاضرة في "اداره علوم القرآن" بعلي جراه، الهند.

وقبل أن أتحدث عن الجوانب الفكرية للإمام الفراهي يجدر بي أن ألقى الضوء على اسم الأستاذ الفراهي وهو "عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان قنبر بن تاج علي، حميد الدين، أبو أحمد، الأنصاري الفراهي" وقد ذهب العلامة السيد سليمان الندوي في ترجمته إلى أن اسمه الحقيقي "حميد الدين". ولكن بسبب كون هذا الاسم لقباً بالعربية شعر فيه الأستاذ بالتعاضم فسوّى نفسه في أول مصنفاته العربية "عبد الحميد" والحق أن عبد الحميد هو الاسم الذي سوّى به بعد ميلاده وظل معروفاً به حسب الشواهد التي بين أيدينا إلى سنة 1306هـ، إذ كان عمره 26 سنة ومن تلك الشواهد ما يلي:

1. عنوان قطعتين في تاريخ ميلاده لشيخه محمد مهدي الذي درس عليه اللغة الفارسية في صغره ونصه: "تاريخ عبد الحميد خلف حاجي صاحب ممدوح وتلميذ راقم".

والقطعة الأولى منها كما يلي:

بأشرف بخت شد عبد الحميد	رونق ميلاد بفضل ودود
فكر جو كردم جي تاريخ سال	كفت خرد نو بر باغ وجو

¹ راجع للتفصيل: تقديم "ذكر فراهي" الذي طبع من لاهور (ديباجة المؤلف، دار التذكير، ط2002، م، ص 5-32)

العدد الخاص مجلة الهند

سَمِّيَ أخاه كذلك "عبد الرشيد" في قطعة أخرى في تاريخ ميلاده وهو أيضاً
اشتهر فيما بعد بـ "رشيد الدين".

2. وللشيخ المذكور أيضاً قصيدة بالفارسية بمناسبة زواج الفراهي في 17 رجب
سنة 1299هـ، وعنوانها "عبد الحميد".

3. في رسالة بعث بها الفراهي إلى والده من لاهور حينما كان يدرس على العلامة
فيض الحسن السهارنفوري عام 1300هـ أو قبله، كتب اسمه "عبد الحميد"
واسم أخيه "عبد الرشيد".

4. بهذا الاسم سماه ابن عمته العلامة شبلي النعماني في رسالة مؤرخة 27
مارس 1884م (الموافق 1301هـ).

5. في خزانة كتب الفراهي نسخة خطية من مثنوي جلال الدين الرومي (الدفتر
الأول) ذكر الفراهي في آخرها بالفارسية أنه اشتراها سنة 1306هـ ثم كتب
مركباً هكذا "محمد عبد الحميد الأنصاري بسر عبد الكريم انصاري"¹

ولقد وجب علينا التوضيح لاسم الفراهي لأن الدارسين يجدون الاشتباه فيه لأجل
ثلاثة أسمائه على كتاباته فبعد هذه الصراحة نشير إلى عبقريته، قد طار صيت
الأستاذ الفراهي خلال دراسته بين الأوساط العلمية، والعلماء كانوا يشيرون إلى
ذكائه وعلو منزلته العلمية وشغفه بالعلوم القرآنية فلما قصد الأستاذ قصد
للالتحاق بمحمدن اينكلو أورينتال كالج قدّم هذه المسئلة ابن عمته شبلي
النعماني فهو يقول: لماذا تضطرب إذا يعرفك السير سيد أحمد خان جيداً فذهب
الفراهي إلى السير سيد أحمد خان للالتحاق بهذه الكلية فكتب رسالة إلى عميد
الكلية بك (Theadare back) وذكر فيها أيضاً أن هذا التلميذ قد فاق جميع
الأساتذة الكرام لهذه الكلية في إتقان اللغتين العربية والفارسية² وعلى هذا طلب

¹ راجع للتفصيل: مفردات القرآن للإمام عبيد الحميد الفراهي، (تحقيق وشرح: الدكتور محمد
أجمل أيوب الإصلاحي) دار الغرب الإسلامي، ط1، 2002م، ص 13-14

² مكاتيب شبلي (ترتيب: سيد سليمان الندوي)، مطبعة معارف، أعظم كره، 1981م، 17/2

منه السير سيد أحمد خان أن ينقل تفسيره الأردني للقرآن الكريم إلى اللغة العربية لكي يدرسه العرب وكذلك نقل جزءًا من طبقات سعد إلى اللغة الفارسية للمقررات الدراسية لهذه الكلية وكذلك هو ترجم رسالة فارسية للأستاذ العلامة شبلي النعماني إلى اللغة العربية. ولا مرأى في أن الأستاذ الفراهي قد أثبت قدرته على اللغتين، حين أسست "لجنة الأدب" في الكلية لتطوير اللغة العربية فالأستاذ كان يساهم فيها بقصائده وكتاباتهِ وقدم القصيدة التي كتبها بمناسبة لقب "شمس العلماء" الذي منحتهُ الحكومة لشبلي النعماني وحينما كان يغادر الهند الأستاذ آرنولد بك فاهتم المسؤولون بالحفلة الوداعية للأستاذ، فالأستاذ كانوا يريدون إلقاء الخطب في عدة لغات لتكريمه، والعلامة شبلي النعماني حاول إلقاء الخطبة باللغة الفارسية بهذه المناسبة فأرسل رسالة إلى تلميذه الحبيب الفراهي لكي يكتب له خطبة بالفارسية لهذه المناسبة لأن التلميذ كان يعرفها أحسن من أستاذه كما ذكر الأستاذ هذا الجانب المهم لتلميذه.¹ وكذلك إذا طبع ديوان الفراهي "ديوان بهلوي" باللغة الفارسية فأرسله العلامة شبلي النعماني إلى صديقه حبيب الرحمان خان الشرواني وقال: إليك ديوان حميد. هذه هي الفارسية الحقة" فحياه الأستاذ الفقيه مليئة بمثل هذه الإجازات العلمية العديدة ويترشح منها أن الأستاذ الفراهي كانت له مهارة تامة في هاتين اللغتين.²

أما الإنجليزية فقد أتقنها الأستاذ الفراهي وتوجد عدة شواهد على إتقانه لها في رسائل العلامة شبلي النعماني. فمثلاً حينما قام العلامة شبلي النعماني بوضع لجنة الترجمة للقرآن الكريم باللغة الإنجليزية، قدم العلامة اسم تلميذه لهذه الخدمة المباركة.³ وكذلك حينما سافر لارد كردن (lard Curzon) خليج فارس وسواحل العرب فقدم العلامة اسم تلميذه كمترجم لأنه كان يعرف اللغتين العربية والإنجليزية جيداً وكان بارعاً في الترجمة منها وإليها وكان يقدر على تقديم

¹ مكاتيب شبلي، المصدر نفسه، ط4، مطبعة معارف، أعظم كره، 1981م، 1/124

² مكاتيب شبلي، 34-33/2

³ راجع للتفصيل: ذكر فراهي، ص 183-207

العدد الخاص مجلة الهند

أحاسيسه وإلقاء أفكاره فيهما بطريقة رائعة واتضح بمصنفاته أن الأستاذ الفراهي استفاد من المراجع الإنجليزية ورتب مقالة في عقيدة الشفاعة والكفارة كما برز نعلم من المقتبس التالي:

"أما الإنجليزية فقد أتقنها الفراهي وألف فيها وحاضر وقد اطلع من خلالها على كتابات المستشرقين عن القرآن وتاريخ الأدب وعلى الأدب الإنجليزي شعراً ونثراً وكتب البلاغة الحديثة وما ترجم إليها من كتب الفلسفة والآداب اليونانية. من آثاره بالإنجليزية مقالة في عقيدة الشفاعة والكفارة، رد بها على بعض علماء النصارى".¹

كما كان الأستاذ ملك ناصية اللغات العربية والفارسية والإنجليزية، فذلك بلغ قمة اللغتين العبرانية والأردية. وهنا يناسب لي أن أذكر أن اللغة العبرانية كانت مقبولة فيما بين علماء جريا كوت بمدينة أعظم جراه، فلقد استعملوا الكتب السماوية والمراجع العبرانية في مصنفاتهم ومباحثهم العلمية. فقد استفاد الأستاذ عنايت رسول العباسي الجريا كوتي (1244-1320هـ) من عدة مراجع العبرانية لترتيب الكتاب الشهير "بشرى"، وكذلك استخدم عدة مراجع عبرانية الأستاذ الجليل أبو الجلال الندوي وقد اشتاق السير سيد أحمد خان إلى تعلم اللغة العبرانية بعد أن لقي العلماء الجريكوتيين ثم استفاد منها في كتابة تفسير القرآن الكريم وخطبات أحمدية وخاصة لكتابه العظيم "تبين الكلام" في ثلاثة مجلدات.²

كان الأستاذ الفراهي قد أقام بمدينة أعظم جراه لمدة ملموسة فعرف القدر العلمي لعلماء جريكوت كما وفق شهود البيئة العلمية لكلية علي جراه والنشاطات العلمية للسير سيد أحمد خان ولذلك هو تضلع في اللغة العبرانية لكي يتناول المآخذ العبرانية لتأليف تفسير القرآن وكتابه الشهير "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" وأثبت فيه من

¹ الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح للإمام عبد الحميد الفراهي، دار القلم، دمشق، ط1، 1420هـ/1999م، ص 25

² راجع للمعرفة بأهمية تبين الكلام: تبين الكلام (الجزء الثاني)، أبو سفيان الإصلاحي، مجلة تهذيب الأخلاق، عدد خاص للسير سيد أحمد خان، جامعة علي كر الإسلامية، يوبي، الهند، أكتوبر 2012م، 10/31، ص 143-135

خلال ثلاثة عشر دليلاً من التوراة نفسها أن الذبيح ليس إسحاق عليه السلام¹ والأستاذ أشار إلى تحريفات النصارى واليهود في كتبهم ورد ردًا شنيعًا على الإسرائيليات وكذلك استفاد منها لشرح المفردات والأساليب القرآنية كما سنشير إلى هذا الجانب من حياته العلمية في الصفحات التالية فهو يقول:

"وقد أشار المؤلف في تذكرته التي نقلناها من قبل إلى مصدر مهم يفيد الرجوع إليه في توضيح الكلمة التي يشك في معناها وهو استعماله في أخوات العربية كالعبرانية والسريانية وقد استفاد المؤلف بمعرفته للغة العبرانية في تحقيق بعض الألفاظ التي هو من المواد المشتركة بينها وبين العربية والرد على المستشرقين الذين زعموا أن القرآن الكريم أخذ بعض الألفاظ من اليهود والنصارى ومن الكلمات التي رجع فيها المؤلف إلى العبرانية: (الأب) و(السفرة) و(الدرس)"².

قد بدا من الأسطر السابقة أن الأستاذ قد انفرد بين العلماء الهنود بمعرفته للغات الشتى وكذلك برع الأستاذ في اللغة الأردية وقرض بعضًا من الأشعار فيها كما كتب التفسير القيم الجامع لسورة الإخلاص في كراتشي على طلب بعض من الأوبة وقدّم شرح كلمة "الصمد" شرحًا رائعًا وقد استفاد السيد سليمان الندوي (1884-1953م) من هذا التحقيق الفريد في "سيرة النبي". ولننقل طرفًا من الشرح لكي يعرف القراء قيمته فيقول الأستاذ العلامة :

"كلمة "صمد" التي ترجمناها بكلمة "باهمه" الفارسية تعني لغة "الصخرة الضخمة" وبما أنها تحمي أهلها حين هجوم الأعداء فسوّى الزعيم الذي يحيى قومه الذين يؤولون سمي "الصمد" ولقد ذكر الله بالصمد في غير موضع من الزبور والكتب السماوية الأخرى وذكرنا شواهد هذه الدعوى في تفسيرنا العربي "نظام القرآن"³.

¹ راجع للتفصيل: الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، ص 39-71

² مفردات القرآن للإمام الأستاذ الفراهي (تحقيق وشرح: الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي)، ص 67، وقد كتب البروفيسور أطفاف أحمد الأعظمي مقالة بعنوان: "تفهيم إنجيل اور مولانا فراهي" وأبرز أن الأستاذ الفراهي كان يعرف العبرانية الجديدة

³ راجع للتفصيل: مولانا حميد الدين كي بنيادي أفكار، البلاغ بيلي كيشنزن دلهي الجديدة، 2010م، ص 188-220

قد نال الأستاذ الفراهي قبولاً واسعاً في الهند وخارجها لأجل خدماته الجليلة للقرآن وعلومه والدراسات العربية والإسلامية ولا شك فيه أن أساتذته الأجلة قد لعبوا دوراً ملموساً في تربيته فمن أبرزهم الحافظ أحمد علي السكروري والمولوي محمد حسن الجتاروي وشبلي النعماني والأستاذ عبد الحي الفرنجي المحلي والأستاذ فيض الحسن السهارنفوري والأستاذ أرنولد. والأستاذ الفراهي كان يعبر عن حبه المخلص لمعلميه العلامة شبلي النعماني والشيخ فيض الحسن السهارنفوري لأنهما فتحا أبواب العلم والفضل أمامه وربّاه تربية حسنة مثالية فوصل الأستاذ الفراهي بتوجيهات أساتذته الكرام وإرشاداتهم التحقيقية إلى ذروة الكمال واحتلّ مكاناً مرموقاً بين المفسرين والمأهرين للعلوم القرآنية فاستفاد به كثير من العلماء والباحثين والمولعين بالعلوم القرآنية والمساهمين في محاضراته. ومنهم من يجدر بالذكر الشيخ أختَر أحسن الإصلاحي والأستاذ أمين أحسن الإصلاحي وسيد سليمان الندوي ومناظر أحسن الجيلاني وأبو الكلام آزاد وأبو الأعلى المودودي وإقبال سهيل وعبد الرحمان النجرامي والحاج الدكتور محمد علي شاه والشيخ سعيد الأنصاري والشيخ عبد الماجد الدرايبادي والشيخ حفظ الرحمان السيوهاروي والشيخ حسرت موهاني ونصير الدين الهاشي والسيد نذير النيازي وأبو محمد امام الدين الرام نغري وأبو سراج بهادر رانا والشيخ أنيس أحمد بي إيه¹ وشوكت علي² والشيخ أحمد سعيد الندوي³ والشيخ نجم الدين الإصلاحي⁴ فلقد أثار هؤلاء قلوبهم وأشرقوا عقولهم بالمنهل العلمي للإمام الفراهي.

بعد هذه الكلمات الوجيزة أودّ أن أكشف القناع عن جوانبه العلمية البارزة فأذكر أولاً رأيه عن نظام القرآن الذي يوجد عند المفسرين منذ البداية ولكنهم ابتعدوا عن النظام الجامع للقرآن بينما قام الأستاذ الفراهي بالبحث عن النظام

¹ راجع للتفصيل: ذكر فراهي، ص 485

² راجع للتفصيل: نفس المصدر

³ تذكره علماء أعظم كره لحبيب الرحمان الأعظمي، ديوبند، ط2، 1433هـ-2012م، ص 235

⁴ راجع للتفصيل: مجلة مكتبة خدا بخش، ع: 127، ص 227-242

الجامع للقرآن في كتابه الشهير "دلائل النظام" وألقى الضوء عليه بالدلائل والشواهد وأثبت أن أحدًا لا يقدر أن يفسر الآيات القرآنية بدون هذا النظام الرباني التوقيفي ولا يجد الأسرار والرموز القرآنية. فيقول الأستاذ بدر الدين الإصلاحي في مقدمته لـ "دلائل النظام" مشيرًا إلى رأي الأستاذ الفراهي:

"ثم صرح بعد ذلك بأن القرآن الكريم كلام منظم ومرتب من أوله إلى آخره على غاية حسن النظم والترتيب وليس فيه شيء من الاقتضاب لا في آياته ولا في سورة بل آياته مرتبة في كل سورة كالنصوص في الخواتم وسورة منظمة في سلك واحد كالدرر في القلائد حتى لو قدّم ما آخر وأخر ما قدّم لبطل النظام وفسدت بلاغة الكلام بل ربما يعود إلى قرب من الهذيان".¹

وبمضي قائلًا بأن مفتاح النظم القرآني لا يفوز به الإنسان بدون التفكير والتدبر في القرآن الكريم وبذلك يطلب الله تعالى من عباده في كتابه العزيز. يقول الشيخ بدر الدين:

"ثم أوضح ثانيًا: الوسائل التي تهدي إلى معرفة النظام وأهمها عنده التدبر في القرآن الكريم لأن الله تعالى قد جعله محلاً للتدبر مركزاً للتفكير كما قال (كتاب أنزلناه إليك مباركاً ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) وكما قال في موضع آخر (أفلا يتدبرون أم على قلوب أقفالها) وهذا كثير جدًا، فالتدبر في آياته هو أول إكلید لفتح هذا الباب فمن نظر في مطالب الآيات على حديثها ولم يتأمل في مناسبة أجزاء السورة فقد عميت عليه الحكمة وحسن نظامها لأن أكثر الحكم مخبوءة تحت دلالات النظام وإنه لا يبرز إلا بالتدبر".²

إن الله تعالى دعا الناس إلى الحكمة القرآنية وإن هذه الحكمة رأس التقوى ورأس المعرفة الربانية ولذلك ألّف الأستاذ الفراهي كتابًا بعنوان "حكمة القرآن" وأرشد الدارسين إلى الطرق التي تتعلق بالحكمة القرآنية ومنها "نظام القرآن" الذي يشجّع الناس على نيل الحكمة القرآنية كما قال الأستاذ الفراهي:

¹ دلائل النظام (كلمة الجامع بدر الدين الإصلاحي)، الدرة الحميدية ومكتبها، ط1، 1388هـ، ص2

² نفس المصدر (كلمة الجامع)، ص2

"الكلام لا يلتزم بعضها ببعض إلا بجامع يشتمل على أشتات المطالب والجامع يكون أعلى وأوسع كما أن الإنسان يشمل الأفراد التي تحته وهكذا يعرض من الأخص إلى الأعم فمن طلب النظم لا بد أن ينظر فوق ما يراه حتى يجد جامعاً عاماً وهذا الطلب هو سلم الحكمة ولا يتعاطى ذلك إلا ذو بصيرة وذكاوة ولولا ذلك لما جعل الله تعالى راعى ذلك ليعلمهم الحكمة ويرشحهم الملكة هي أصل العلم والمعرفة لا نفس المعلومات وإنما المقصود هنا أن الله تعالى راعى ذلك ليعلمهم الحكمة و يرشحهم لملكته هي أصل العلم والمعرفة لا نفس المعلومات فإنها منحصرة محدودة ثم العلم بها ليس في شيء من ملكة في المقصود وقد أشار إلى كون القرآن "عليّاً" لاشتماله على الحكمة حيث قال تعالى (وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم)".¹

الأستاذ الفراهي رتب أجزاءه التفسيرية² ونظام القرآن³ وتاويل الفرقان بالفرقان والتكميل في أصول التاويل وتعليقات في تفسير القرآن الكريم في

¹ نفس المصدر، ص 33

² الأستاذ أمين أحسن الإصلاحي ترجم الأجزاء التفسيرية للأستاذ الفراهي إلى اللغة الأردية بعنوان "مجموعة تفسير فراهي" وإنهما طبعتا من الدائرة الحميدية، بمدرسة الإصلاح بسرائير، أعظم كره

³ إن التفاسير لسور البقرة وآل عمران والحج والأجزاء التفسيرية للفراهي طبعت من دار الغرب الإسلامي، تونس (بجزئين)، ط1، 1433هـ-2012م، صفحاتها: 1001. إن "تعليقات في تفسير القرآن الكريم" طبعت من "الدائرة الحميدية" بجزئين بإعداد الدكتور عبيد الله الفراهي ومراجعة الشيخ محمد أمانة الله الإصلاحي، والأستاذ الدكتور عبيد الله الفراهي يشير إلى أهمية التعليقات بالكلمات التالية:

"وأخيراً أحب أن أنبه على أن هذه التعليقات لم يقيدها المؤلف للنشر وإنما هي كالمذكرات كما سبق وقد يكون رجع عن بعض أقواله الواردة فيها ولعل بعض أقوال المفسرين التي ذكرها فيها لا لموافقة بل لنقدها أو حاجة أخرى في نفسه ومن ثم لم يكن تلميذه الشيخ أمين أحسن الإصلاحي، يحبّ نشرها كما بلغنا عنه. ولكن لما كان المؤلف لم يكمل تفسيره وتناولت تعليقاته هذه سور القرآن كلها. ثم قد اشتملت على كنوز وجواهر استخرجها إمام نابغة كان نسيج وحده في علم كتاب الله - رأينا من حق الدارسين علينا أن نظهرها لهم، لينتفعوا بما فيها من الحق والصواب وكل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول صلوات الله عليه وسلامه. نسأل الله عز وجل أن يوفقنا للعمل بما علمنا وأن يجعل القرآن العظيم حجة لنا، لا حجة علينا وهو الموفق والمستعان".

(تعليقات في تفسير القرآن الكريم للإمام عبد الحميد الفراهي (إعداد: الدكتور عبيد الله الفراهي ومراجعة: الشيخ أمانة الله الإصلاحي)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائير، أعظم كره، يوبي الهند، 6/1)

ضوء القرآن الكريم لأن المفسر لا يقدر على الكشف عن المعاني والمفاهيم القرآنية والقضايا الشرعية. ولقد ذكر الأستاذ عدة مآخذ لتفسير القرآن الكريم ومنها كلام العرب ونحن نعرف أن القرآن الكريم أنزل في لغة العرب فيناسب لكل مفسر أن يدرس كلام العرب الذي يبحث في تاريخ العرب والخطوات الاجتماعية والثقافية والديانة العربية وإن كلام العرب أكبر وأهم المآخذ لمعرفة الأنشطة العربية الجاهلية ولذلك أوجب على المفسرين خاصة أن يستشهدوا بالشعراء الجاهليين. ذكر الأستاذ كثيراً من الأشعار للاستشهاد بها كما يقول في تفسير الآية "لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم" (الحج: 37/22): والآيات السابقة في ذكر القربان والتقوى في قصة هابيل وقابيل وقبل ذلك بيان بذل النفوس في سبيل الله ونيل الفلاح به كما ذكر في قصة موسى عليه السلام وقومه حين أبوا أن يقاتلوا في سبيل الله والربط بين بذل النفس والمال بالجهاد والنحر ظاهر. وقد جاء في القرآن كثيراً فعلى هذا البناء قال ههنا: "جاهدوا في سبيله" أي حققوا تقواكم بالجهاد فتفلقوا. ثم كان القربان سواء كان قربان النفس أو المال فدية وقد قرب هذا المعنى من قلوب العرب من وجوه مختلفة قال قائلهم:¹

نهين النفوس وهون النفوس عند الكربة ابقى لها²
وكذا يشرح معنى "الوحي" بالاستشهاد بكلام العرب فيقول:

"الوحي في أصل معناه إلقاء خيال لا بشرط النطق وهذا هو المعنى المراد في كلام العرب. قال علقمة الجاهلي يصف الظليم يظهر خياله لعرضه:³

يوحي إليها بأنقاض نقنقة كما ترأطن في أفدائها الروم⁴

¹ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 1/154-155

² ديوان الخنساء (تحقيق: الدكتور أنور سويلم)، دار عمان، الأردن، 1409هـ، ص 104

³ تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 1/166

⁴ شعراء النصرانية، مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، بيروت، بدون تاريخ، ص 500

وكما قال تعالى: "وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذني من الجبال بيوتا" (النحل: 68/16) "و" ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء" (الشورى: 51/42)

قد اختار الأستاذ الفراهي هذا الأسلوب في تفسير الآيات الكريمة واستشهد بكلام العرب كثيراً في تفسيره "نظام القرآن وتاويل الفرقان بالفرقان". يقول في سورة البقرة عن صفة القرآن "هدى": "كون القرآن على غاية الاستقامة في الإيصال إلى رضوان الله تعالى فصار أحق بأن يسمى "هدى" بمعنى الصراط المستقيم حسب الوجه الثالث للهدى كما قال تعالى: "الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً لينذر" (الكهف: 2-1/18) أي كتاباً كصراط مستقيم لا عوج فيه هو على غاية الاستقامة لا يضل عليه الساري¹ وهكذا قال النابغة الجعدي رضي الله عنه فيما أنشد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم:

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتاباً كالمجرة نيراً²

قد ألف الأستاذ تفسير سورة "الكوثر" بأسلوب منفرد ممتاز بينما اختار المفسرون في تفسير كلمة "الكوثر" أقوالاً عديدة ومنها نهر في الجنة والخير الكثير وحوض في الجنة والنبوة والقرآن والإسلام والحكمة والأقوال الأخرى مما يوجد عند الأئمة والمفسرين ولكن الأستاذ الفراهي يريد من الكوثر "الكعبة" وقدم عشرة دلائل للاستدلال على موقفه في ضوء القرآن الكريم والأحاديث والآثار وكلام العرب وما ترك شيئاً في تأييد رأيه فننقل هنا دليلين منها. يقول الأستاذ:

"إن النفوس لها شوق إلى الرب ولا تطمئن ببعدها عنه وهذه الفطرة منشأ الديانات في الناس حتى لا تخلو عنها أمة وما يعبر عن هذا الشوق الروحاني غير العطش وكثر في الزبور هذا التمثيل فإن صح ذلك فالموحدون عند الحج لأشبهه

¹ نظام القرآن وتاويل الفرقان بالفرقان للإمام العلامة عبد الحميد الفراهي (اعتناء: الدكتور عبيد الله الفراهي)، دار الغرب الإسلامي، تيونس، ط1، 1433هـ-2012م

² جمهرة أشعار العرب، ص 744

شيء بالعطاش المجتمعين عند حوض بعد مقاساة الظمأ الشديد فالكعبة لهم في الدنيا هي كالحوض الكوثر الذي يردونه في المحشر"¹
ويستدل على رأيه بما يلي:

"إن هذه السورة نزلت يوم صلح الحديبية الذي فتح باب الوصول إلى بيت الله والحج والصلوة والنحر وظهور الإسلام وكثرته، حتى سمّاه الله تعالى "فتحاً مبيناً" ونتكلم على زمان نزولها في الفصل الرابع² 33 ببعض البسط إن شاء الله تعالى".³
ويعتني الأستاذ الفراهي بالكلمات اعتناءً بالغاً ويحتوي جميع جزئياتها لكي يصل إلى منابعها الأصلية لأن هذا المنوال نافع جداً لتحقيق المفردات ولذلك يتوجه الأستاذ أولاً إلى معنى "الكوثر" ثم يفسر "الكوثر" ويقول:

"لا يخفى أن "الكوثر" مبالغة الكثير فهو ذو كثرة عظيمة وبركة وثروة فإن الكثير هو الثروة وقد سمّوا به الرجال كما سمّوهم بكثير وكثير وترى استعماله على طريق الصفة في قول لبيد:

وصاحب ملحوب فجمعنا بموته وعند الرداع بيت آخر كوثر⁴
وفي قول أمية بن أبي عائذ الهذلي:

يحمي الحقيق إذا ما احتدم من محم في كوثر كالجلال⁵
فاستعمل الصفة بتقدير الموصوف أي في غبار كوثر وقد جعلوا منه فعلاً كما قال حسان بن نشبة:

¹ نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، 787/2

² راجع للتفصيل: نفس المصدر، 828-826/2

³ نفس المصدر، 798/2

⁴ شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري (تحقيق وتقديم: الدكتور إحسان عباس)، الكويت، 1962م، ص 52

⁵ ديوان الهذليين، الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، 1385هـ-1965م، 181/2

أبوا أن يبيحوا جارههم لعدوهم وقد ثار نفع الموت حتى تكوثر¹
فالكوثر ههنا محتمل لثلاثة وجوه من التأويل.² ولكن لا أنقل هذه التأويلات
الثلاثة مخافة التطويل.

اتضح من المباحث السابقة أن الأستاذ له باع طويل في المسائل اللغوية وإن هذه
الناحية قد برزت في جميع مصنفاته فقد درس الأستاذ جميع المآخذ اللسانية
والقواميس المهمة والكتب التي رتبت حول المفردات وكذلك حلل آراء النحويين
لتعيين المعاني والمفاهيم للمفردات ولذلك ألّف كتاباً رائعاً حول المفردات بعنوان
"مفردات القرآن" خاصة لتوضيح الآيات الكريمة والأستاذ اختلف من الأئمة
المتقدمين والمفسرين واللغويين وقد دل هذا الكتاب على تمهره وتفردّه. كما
ستدرسون هذا الجانب المهم في الأسطر التالية:

"وقد دارس المؤلف كلام العرب مدارس دقيقة وقيد على طرز الدواوين التي نظر
فيها إشاراته وتعليقاته وتبذره الطويل المتصل في القرآن الكريم واستقرائه
وممارسته لكلام العرب، وبما وهبه الله من ذكاء وقاد وبصر نفاذ وذوق أدبي عال.
قد توصل في تحقيق بعض المفردات القرآنية إلى نتائج مهمة تختلف عما جاء في
الكتب اللغة والتفسير".³

وأثنى الأستاذ رشيد رضا المصري على أسلوب تفسير الإمام الفراهي في مجلته
الغراء "المنار" حينما استعرض بعض أجزائه التفسيرية فيقول:

"وإنه ليكثر الرجوع باللغة إلى مواردها والصدور عنها ريان من شواهدا".⁴

¹ شرح ديوان الحماسة للموزوقي (نشره: أحمد أمين وعبد السلام هارون)، ط1، مطبعة لجنة
التأليف والترجمة والنشر، 1371هـ-1951م، ص 338

² نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، 780/2-781

³ مفردات القرآن للإمام عبد الحميد الفراهي (تحقيق وشرح: الدكتور محمد أجمل أيوب
الإصلاحي)، دار الغرب الإسلامي، 2002م، بيروت، ط1، ص 64

⁴ مجلة المنار صفر 1327هـ

العدد الخاص مجلة الهند

وقد ألقينا على بعض هذه الرسائل لمحة من النظر، فإذا الطريق جديد في أسلوب جديد من التفسير يشترك مع طريقتنا في القصد إلى المعاني من حيث هداية الهية، دون المباحث الفنية العربية..... وإن للمؤلف لفهًا ثاقبًا في القرآن وإن له فيه مذاهب في البيان...

يناسب لي أن أحضر بمباحثه اللسانية بين يديكم عن المفردات القرآنية لكي اتضح تعمقه اللغوي وإمعانه اللساني في الكلمات القرآنية خاصة. أولًا أنا ألفت إلى بحثه في كلمة "الآلاء". لا شك في أن الأستاذ كان غير مثيل في هذا البحث القيم الجاد فتشده في الأسطر الآتية.

"أجمعوا على أن معناه: النعم ولكن القرآن وأشعار العرب يأباه والظاهر أن معناه: الفعال العجيبة وفارسيته "كرشمه" ولما كان غالب فعاله تعالى الرحمة ظنوا أن "الآلاء" هي النعم.

والرواية عن ابن عباس رضي الله عنه حملتهم على هذا ولكن السلف إذا سئلوا أجابوا حسب السؤال والمراد المخصوص في موضع مسؤول عنه.

وهذا الظن فتح لهم نفعًا إلى تبديل معنى "إلى" في قوله تعالى: "وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة" (القيامة: 22-23). فقالوا إن "إلى" واحدة الآلاء وليس له في كلام العرب مثال ولكنهم زعموا أن الأعشى أراد هذا في قوله:

أبيض لا يرهـب الهـزال ولا يقـطـع رحـمًا ولا يـخـون إلا¹

وقال بريق بن عياض الهذلي:

فقال: إليكما عنه، ولو لا مقام الجد ما رقبوا إله²

¹ ديوان الأعشى الكبير الميمون بن قيس (شرح وتعليق: الدكتور محمد حسين)، مكتبة الآداب للجماهير، المطبعة النموذجية، بدون تاريخ، ص 235

² يكتب الإصلاحي: كذا في الأصل وفي المطبوعة جعل ما بين القوسين في الحاشية وأثبت مكانة قول ابن دريد من لسان العرب وقد خففت العرب، وانظر الجهمرة، 20/1. وبذلك فسر ابن جني في التمام 1000 بيت بريق عياض الهذلي، مفردات القرآن، ص 128

أما القرآن فقولته تعالى: "فبأي آلاء ربك تتماهى. هذا نذير من النذر الأولى". (النجم: 56-55/35) بعد ذكر إهلاك الأقوام وهكذا في سورة الرحمن.

وأما كلام العرب فقال طرفة:

كامل يحمل آلاء الفتى نبه سيد سادات خضم¹
وقالت مية بنت ترثي أخاها:

كريم ثناه وآلائه وكافي العشيرة ما غالها²
والأستاذ قد استشهد بعدة أشعار لتوكيد رأيه بأن معنى الآلاء فعال عجيبة وأنا
أظن أن الأستاذ كان منقطع القرين بين المفسرين بهذا الصدد³. وكذلك بين
وجوهًا مختلفة لكلمة "الصلوة". وقد ترشح من هذا البحث الجامع أن الأستاذ قد
أرجأ الكلمات وسلاسلها التاريخية ونحن نشاهد هذه العلامة في تحقيقه عن
"الصلوة" وهو يقول:

"الصلوة هي في الأصل: الإقبال إلى شيء ومنه: الركوع ومنه التعظيم والتضرع
والدعاء وهي كلمة قديمة بمعنى الصلوة والعبادة جاءت في الكلدانية بمعنى الدعاء
والتضرع وفي العبرانية بمعنى الصلوة والركوع.

ومن هذا الأصل صلي النار: أقبل عليها، ثم بمعنى دخل النار كما قال تعالى:
"سيصلى نارًا" وأيضًا "يصلى سعيًا" ومنه التصلية كما قال تعالى: "وتصلية
جحيم" واستعملت العرب كل ذلك. جهات الصلوة (من أصول الشرائع أيضًا) هي:
1. إقرار بالتوحيد.

2. وذكر لعهدنا بعبوديته الخالصة والذكر هو الذي يجعل المعتقدية راسخًا في
النفس حتى تتكيف به أصل الخلقة تعبد للخالق فترك العبادة تناقض في

¹ ديوان طرفة بن العبد (تحقيق وشرح: كرم البستاني)، بيروت، 1953م، ص 128

² شاعرات العرب

³ راجع للتفصيل: مفردات القرآن للأستاذ الفراهي، ص 125-133

الوجود ولذلك كل خلق يعبد الرب والصلوة مخ العبادة فلزم جميع الخلق لزوم التوحيد والتعبد وقد يعبر عن الصلوة بالتسبيح فكل خلق له صلوة كما قال تعالى: "كل قد علم صلوته وتسبيحه".

3. الصلوة عهدنا بالله تعالى، قال تعالى: "فاذكروني أذكركم" (البقرة: 152/2)

4. وعبادته هو الدعاء الخالص له كما قال تعالى: "أذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون" (الأعراف: 205/7-206)

5. الصلوة شكر لربنا وهو الرب الواحد فالشرك في الدعاء كفر كما أن ترك الصلوة والإعراض عن ذكره كفر قال تعالى: "فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون. يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلوة إن الله مع الصابرين" (البقرة: 152/2-153)

6. ويجب علينا هذا الشكر خاصة لأنه تعالى أمر الملائكة بالسجدة لأدم فوجب عليه أن يسجد لربه قال تعالى: "قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين" (ص: 38/75)

7. الصلوة رجوع إلى الرب، فهي ذكر للمعاد وصورة له وكذلك للمبدأ فإنه كمال الطاعة والتعبد قال تعالى: "وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون" (الأعراف: 29/7)

8. الصلوة تقرب وحضور. قال تعالى: "واسجد واقترب" (العلق: 19/96)

9. الصلوة قربان بهيمة النفس عقلاً ولهذا جمعت بالنحر والنسك قال تعالى: "فصل لربك وانحر" (الكوثر: 2/108)

10. فالصلوة حياة كما أن "مما تي لله تعالى نسكي" والنسك علامة لقربان نفسي لله تعالى.

11. الصلوة صنو للصبر وتحقيق له ولهذا تستعمل بدلاً منه، قال تعالى: "واستعينوا بالصبر والصلوة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين. الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون". (البقرة: 45-46)

12. الصلوة استعانة¹ بالله تعالى لقوله تعالى: "واستعينوا بالصبر والصلوة". (البقرة: 45/2)

فهذه الوجوه العديدة للصلوة التي ذكرها الأستاذ الفراهي في "مفردات القرآن" فيمكننا في ضوءها أن نفهم قدرة الأستاذ اللسانية والقرآنية وتركيزه على القرآن الكريم ولا جرم في أن الأستاذ قد بذل قصارى جهده للتفكير في الكتاب الحكيم. قد احتل الأستاذ مكاناً بارزاً في مجال اللغة القرآنية. وهنا نتأسف لأن التحقيقات والمصنفات للأستاذ الفراهي ما وصلت إلى البلاد العربية والأستاذ كتب التفسير لسورة العصر واستشهد بعدة أشعار لتعيين معنى كلمة "العصر" ويقول: معناه "الزمان الماضي" وإن هذا المعنى يوجد كثيراً عند الشعراء. يقول عبيد بن الأبرص:

فذاك عصر وقد أراني تحملني نهدة سرحوب²

وقال امرؤ القيس:

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي وهل ينعم من كان في العصر الخالي³

وأكتفي هنا بذكر هذه الأبيات وإلا فقد استدلل الفراهي بأكثر منها.

وبعد هذا البحث الموجز أرجع إلى كتابه الفريد العظيم "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" والأستاذ قد أثبت في ضوء التوراة والقرآن الكريم والأحاديث والتفاسير والمصادر الأخرى أن الذبيح إسماعيل عليه السلام وما كان هو إسحاق عليه السلام ورد ردّاً شنيعاً على اليهود والمفسرين بضوء الدلائل وهذا الكتاب يشتمل

¹ نفس المصدر: ص 209-216

² جمهرة أشعار العرب، ص 476

³ ديوان امرئ القيس، ص 27

على ثلاثة أبواب وخاتمة وأوضح في الباب الأول رأيه بالتوراة وفي الباب الثاني استدل بالقرآن الكريم وفي الباب الثالث قام بتحليل الروايات وآراء المتقدمين والمفسرين وأحوال العرب، وألف الأستاذ هذا الكتاب لهدفين أولهما أن الذبيح إسماعيل عليه السلام وثانيهما الكشف عن التحريفات في التوراة ولذلك هو جاء بثلاثة عشر دليلاً من التوراة على أن الذبيح إسماعيل عليه السلام وبهذا الأسلوب العلمي القطعي نحن فهمنا باستدلالاته ومباحثه والأستاذ قد فاز بهذا الفتح العظيم بالوقوف على اللغة العبرانية ويقول قبل ختام البحث القيم:

“أما الخامس فإن الله تعالى لما ابتلى إبراهيم عليه السلام بذبح إسماعيل عليه السلام وجده كاملاً باركه وكان أول ظهور هذه البركة أنه تعالى جعل سارة أيضاً مثمرة وبشره بولادة ابن منها فكان إسحاق عليه السلام من بركات تضحية إسماعيل عليه السلام.

وقد جاء ذلك في التوراة ومع أن اليهود لبسوا عليه، لا تخفى حقيقة الأمر على أهل النظر وقد ذكرنا في الفصل الحادي عشر فتكرم القرآن حسب عادته وضرب صفحاً عن تفضيهم ولكن أتى بالقصة على وجهها فذكر قصة القربان ثم ذكر السلام على إبراهيم ثم وصل به أنه تعالى بشر بإسحاق”¹.

وقد قدّم كثير من المفسرين والباحثين من الأمة الإسلامية أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام ومنهم الإمام جرير رحمه الله. فالأستاذ قد أبرز ضعف دعواه الباطلة ولكنه اعترف بأن العلماء المسلمين كانوا مبتعدين عن التعصب العلمي وما رفضوا الروايات التي وردت في قربان إسحاق عليه السلام ويقول عن الإمام جرير أنه ما وصل إلى النتيجة الصحيحة وأظهر بطلان رأيه في هذه الكلمات التالية:

“وإذ تبين عدم صحة ما توهمه ابن جرير عاد الاستدلال باتصال الدعاء بالخير على أن المراد بالإبن المذكور متصلاً بالدعاء هو المولود أولاً، كما مرّ بيانه في

¹ الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح للإمام عبد الحميد الفراهي، ط1، 1420هـ-1999م، دار القلم، دمشق، ص 104

العدد الخاص مجلة الهند

الفصل العشرين وفيما بعده وهو الاستدلال محمد بن كعب القرطبي بالقرآن كما مرّ في الرواية الثانية في الفصل الثالث بعد العشرين".¹

والأستاذ قد استدلل أيضًا بأحوال العرب قبل الإسلام وأقوالهم لكي تبين الحقيقة أمام المعاندين والمحرفين في التوراة والعرب اشتهروا في الصداقة والشجاعة والافتخار بأنفسهم فوجد الأستاذ كلام العرب برهانًا قاطعًا في مسألة الذبيح فكتب الأستاذ:

"وأما أقوالهم في ذلك قبل الإسلام فمن المعلوم أنه لم يبلغن منها إلا نزر يسير ومع ذلك نجد فيها ذكرًا مما يدل أن الكعبة هي بيت الله وعندها المنحدر الإبراهيمي حسبما وصف في التوراة وعلى أن القربان إنما هو بكره حسبما صرح به التوراة، ولم يكن بكره إلا إسماعيل عليه السلام بإتفاق بيننا وبين أهل الكتاب".²

كما يقول أمية بن أبي الصلت:

ولإبراهيم الموفى بالند	ر احتسابًا وحامل الأجزاء
بكره لم يكن ليصبر عنه	أو يراه في معشر أقيال
أبني إني نذرتك لله م	شحيطا فاصبر فدى لك خالي
واشدد الصفد لا أحيّد عن م	السكين شد الأسير ذي الأغلال
وله مديّة تخايل في اللحم	حذام حنيّة كالهلّال
بينما يخلع السرابيل عنه	فكه ربه بكبش جلال
فخذ هذا وأرسل إبنك إني	للذي قد فعلتما غير قال
والد يتقي وآخر مولو	د فطارا كنه بسمع فعال
ربما تجزع النفوس من الأم	رله فرجة كحل العقال ³

¹ نفس المصدر، ص 116

² نفس المصدر، ص 128

³ كتاب شعراء النصرانية، 203/1

أكتفي بالنزول اليسير من المباحث الجيدة والاستدلالات الجادة للإستاذ الفراهي ولا يوجد أي مثال في جميع المواد والضحمة التي ترتب من قبل الأمة الإسلامية وفي الحقيقة إن أرض الهند أنتجت شخصية الفراهي التي برزت بين العلماء المفلّحين الجهابذة. وإنه قد جاء بمزية من مزاياه إلى أساليب القرآن وجماليات القرآن والتصرفات العديدة القرآنية كذلك يهديننا إلى الأساليب الأدبية والجماليات اللسانية. إن الأستاذ كما كان عارفاً للرموز القرآنية كذلك كان متعمقاً في الأبحاث الأدبية والعلمية ولذلك لقبه سيد سليمان الندوي بـ"ترجمان القرآن". يجدر بنا أن نسلط الضوء اليسير على "أساليب القرآن" فأولاً أنقل الإشارات المفيدة من جانب الدائرة الحميدية في السطور الآتية فلاحظوها:

"وأما 'أساليب القرآن' فيبحث في وجوه الأساليب في القرآن ومفاهيمها ومواقع استعمالها وقد كان الإمام الفراهي وضع كتاباً آخر كتوطئة استطراد لهذا الكتاب يسمى بـ"مفردات القرآن" الذي يبحث فيه الألفاظ المفردة ويتناولها بكشف معانيها ووضع حدودها وقيودها وتجليه ملامحها وقسماتها وشرح لوازمها وعوارضها فبعد ما يفرغ القارئ من معرفة الألفاظ المفردة يترقى إلى معرفة الجمل والتراكيب فهنا يأتي دور "أساليب القرآن" يسلط الضوء على الطرق الموجهة لفهم دلالة التراكيب المختلفة الوجوه التي تدل عليه الأساليب المختلفة".¹

وقد ألقى مدير الدائرة الحميدية سابقاً المرحوم الأستاذ بدر الدين الإصلاحي الضوء على أهمية هذا الكتاب وأبرز مكانته القرآنية والأدبية في ديباجة الكتاب وتفردته في هذا المجال وعبقريته الموسوعية القرآنية فيقول:

"إن هذا المجموع أول خطوة الاستاذ الإمام الفراهي في هذا الميدان والحق أنه ما حقق فيه من آداب القرآن وأساليبه فهو على أساس متين مأخوذ من سنن كلام العرب الخالص والقرآن الحكيم لا أمت فيه ولا عوج فإن نظرنا فيه وسلكنا سبيله

¹ رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن للإمام عبد الحميد الفراهي، ط2، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، ص 440-444

في دراستنا فالمرجو منه أن يكون شعورنا بجمال القرآن وأساليبه أدق وألطف ويكون لنا التطلع إلى إعجازه أسهل وأقرب والله هو المستعان وبيده التوفيق".¹

قد أوضح الأستاذ غاية "أساليب القرآن" ألا وهي فهم القرآن. والمفسر قد يحتاج أشد الاحتياج إلى المعرفة بالأساليب والمعاني وبدونها هو يمشي على الطرق الضالة التي تبعد المفسر بعيداً عن المفاهيم القرآنية والمقاصد المطلوبة كما صرح الأستاذ الفراهي في غاية الكتاب:

"كما أن المقصود من كتاب المفردات إحاطة العلم حتى الوسع بدلالة الكلم بحرمة وجوهه فكذا المقصد من هذا الكتاب إحاطة العلم حتى الوسع بدلالة الصور والأساليب ومواقع استعمالها فإن محض العلم بأسلوب خاص من دون تخصيص مواقعه يفتح باباً عظيماً لسوء التاويل مثلاً قالوا: إن كلمة "لا" ربما تأتي زائدة. فإهمال هذا القول أقرب إلى الضرر منه إلى النفع فإنه يجعل لنفي إثباتاً فلا بد أن نعلم مواقع الأساليب فنستدل على معانيها ولا نحولها عن مواضعها الخاصة. ومن هذه الجهة اشتدت الحاجة إلى إقامة الحجة على هذه الدلالات فإن ذلك جزء من معاني الكلام والجاهل به كالجاهل ببعض المعاني لكلمة مشتركة فلا يأولها إلا إلى ما علم من معانيه وربما يكون المراد غيره".²

والأستاذ قد صنف كتاباً بعنوان "جمهرة البلاغة" الذي أصبح منقطع النظر في المآخذ البلاغية والعرب يفهمون أن أرسطو كان قد أسس البلاغة فالأستاذ الفراهي درس النظرية البلاغية لأرسطو بإمعان النظر وحلّل أيضاً جميع المصادر البلاغية القديمة التي وجدت لدى العرب وكذلك اعتنى بالشعراء الجاهليين وبعدهم أيضاً لكي يبرز الآراء البلاغية القرآنية ويقدم الأصول والقواعد البلاغية في ضوء القرآن الكريم وإن هذا الكتاب أول كتاب في التاريخ الإسلامي الأدبي ولذلك العلامة شبلي النعماني أثنى على هذه الخدمة العظيمة البلاغية لتلميذه المحبب الفراهي في المجلة الشهيرة

¹ كلمة الجامع بدر الدين الإصلاحي، رسائل الإمام الفراهي في علو القرآن، ص 147

² رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، ص 155

العدد الخاص مجلة الهند

الأردنية "الندوة"¹ والأستاذ أبو الحسن علي الندوي قد ذكر أهمية "جمهرة البلاغة" خلال محاضرة بمدرسة الإصلاح سرائ مير أعظم جراه ويقول مركزاً على هذه الناحية أن المصنفات للفراهي ما وصلت إلى العرب وما عرفوا جوانبه القرآنية والأدبية والبلاغية، يجدر بنا خاصة المسؤولين لهذه المدرسة القرآنية أن يقدموا هذا الكتاب الغالي الثمين أمام البلاد العربية لكي تثبت بالمقارنة بين الرأي البلاغي لأرسطو والفكر البلاغي للفراهي. وإن الأستاذ الفراهي قد بلغ ذروة الكمال في مجال البلاغة لأنه أسس قواعد البلاغة في ضوء القرآن وانتقد انتقاداً حاراً على محاكاة أرسطو التي اشتملت على الكذب والزور وكذلك استدل من الشعر الجاهلي ونكاته الخاصة على البلاغة الحقيقية. والأستاذ البروفيسور محمد راشد الندوي² والكاتب الشهير الدكتور عبد الباري³ قاما بتحليل "جمهرة البلاغة" وركزا دراستهما على جواهرها والأستاذ الفراهي قد أشار إلى نقائص أرسطو وكذلك اعتنى بالوجهات البلاغية الضارة للمتقدمين العرب. وجعل القرآن الكريم مطافاً نهائياً في هذا المجال كما يقول في بداية الكتاب:

"سبحان الذي فضل بني آدم على سائر الخلائق: فجعله الحي الناطق، كما فضل محمد صلى الله عليه وسلم على سائر بني آدم، فأعطاه أبلغ الكلم، فلنشكر ربنا الرحمن بداية على أنه علّمنا البيان ونهاية على أن نزل علينا القرآن ولا شكر لمن جهل بالنعمة فضيّعها أو حوّلها فأخطأ موضعها. فوجب علينا أن نعرف إعجاز القرآن ودلائله، لنستكمل من فطرتنا عنصرها ونستسقي من عيون الوحي كوثرها وها أنا أشرع في المقصود"⁴.

قد استقصى جميع الوجوه المختلفة للبلاغة للاستدلال أولاً من القرآن الكريم ثم من الشعر الجاهلي فعلى سبيل المثال هو يكتب عن أصول "للإيجاز والإطناب":

¹ راجع للتفصيل: مكاتيب شبلي، 20/2، أيضاً مجلة "الندوة"، ديسمبر 1905م، وكذلك راجع:

مقالات شبلي، مطبعة معارف أعظم جره، ط2، 1369هـ 1950م، 28/2

² راجع للتفصيل: علامة حميد الدين الفراهي، حيات وأفكار، ص 533-546

³ المصدر نفسه، ص 547-561

⁴ جمهرة البلاغة للمعلم عبد الحميد الفراهي، مطبعة معارف، أعظم كره، الهند، 1360هـ، ص1

“أولى بنا أن نسّي الإيجاز إحكامًا والإطناب تفصيلًا في القرآن،” كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير” فالإحكام يدل على حكمة القائل ومعرفته بالأصول وحقائق الأمور، والتفصيل يدل على سعة علمه بتفاصيل الأمور ولكل ذلك مواقع وأصول فأما المحكم من الكلام فيلقي إلى الحكماء للفكر وإلى الجمهور لسهولة الأخذ به وظهور دليله فإن الحكمة أبين عند القلب السليم كأنها لباب الأمر والقاعدة فيه أن تذكر فيه عوالي الأمور وأصولها كما ترون في سورة العصر وغيرها من القصار وأن يختار فيه جهة ظهورها وأقرب جانب يشير إلى فروعها لكي ينتقل الذهن منها إلى علوم جمة وأما المفصل من الكلام فيلقي بعد المحكم كالفراغ بعد الأصل ويراعي فيه أن يذكر فيه ما قد انطوت عليه القلوب من الفطرة ولكن خفي عليه التفصيل فإذا ألقى عليه علم أن هذا هو الذي كان في قلبه ولكنه لم يتبين عنده تفصيله فكان الكلام تذكيرًا له كما إنك رأيت شيئًا وبقي في حافظتك صورته ولست تقدر أن تفصله فإذا رأيته مرة أخرى ورأيت تمثاله الصحيح صدقت بأن هذا ذاك وهذا الأمر يوجد في المحكم أيضًا لكن أكثر المحكمات معلومة من قبل ولكن فروعه وما يلزم من النتائج مذهولة عنها ولذلك سعى القرآن وكتبه ذكرًا. إلى هذا أشار طرفة حيث قال:

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

وهذا هو مراد الحكيم أفلاطن “إن علومنا ذكر ما نسينا”¹

أكتفي بهذه الآراء القرآنية والأدبية للأستاذ الفراهي والاستعراض لمصنفاته وأخيرًا أود أن أقدم فهرس جميع المطبوعات والمخطوطات للأستاذ الفراهي كما يلي:

- (1) أسباق النحو (2) أساليب القرآن (3) أمثال آصف الحكيم² (4) إمعان في أقسام القرآن (5) تحفة الإعراب³ (6) ترجمة فارسي بارة از طبقات ابن سعد (7)

¹ نفس المصدر، ص 58-59

² نقل الكاتب الشاعر أحمد محمود الكوثر الأعظمي، “أمثال آصف الحكيم” شعرًا إلى اللغة الأردنية، البلاغ بليكيشنز، دلهي الجديدة، ط1، أبريل 2008م، ص 86

³ قام بشرح “تحفة الإعراب” بالأردنية الشيخ احتشام الدين الإصلاحي

العدد الخاص مجلة الهند

تاريخ بدء الإسلام (8) التكميل في أصول التاويل (9) جمهرة البلاغة (10) خرد نامہ (11) دلائل النظام (12) ديوان المعلم عبد الحميد (13) الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح (14) رسالة في عقيدة الشفاعة والكفارة (15) فاتحة نظام القرآن (16) في ملكوت الله (17) القائد إلى عيون العقائد (18) مفردات القرآن (19) نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (أجراؤه التفسيرية) (20) تفسير سورة الإخلاص¹ (باللغة الأردنية) (21) نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (الجزءان): تفسير سورة البقرة وتفسير سورة آل عمران وتفسير سورة الحج مع الأجزاء التفسيرية² (22) تعليقات في تفسير القرآن الكريم³ (23) نوائ بهلوي.

وفيما يلي ما لم يطبع من مؤلفاته ورسائله:

(1) إحكام الأصول بأحكام الرسول صلى الله عليه وسلم⁴ (2) الأزمان والأديان (3) أسباب النزول (4) الإشراق في الحكمة الأولى من حقائق الأمور ومكارم الأخلاق (5) أصل الفنون (باللغة الأردنية) (6) الإكليل في شرح الإنجيل (7) أوصاف القرآن (8) تاريخ القرآن (9) تزكية الروح (10) حجج القرآن (11) حكمة القرآن⁵ (12) الدر النضيد في النحو الجديد والمعاني والعروض والبلاغة (13) الدمدمة والشمقممة (14) الرائع في أصول الشرائع (15) رسالة في إصلاح الناس⁶ (16) الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ (17) سليقة العروض (18) الطارق والبارق (19) العقل وما فوق العقل (20) فقه القرآن (21) فلسفة البلاغة (22) القسطاس (23) قيد

¹ مفردات القرآن (تحقيق وشرح: الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي)، ص 32-35
² هذا التفسير طبع في جزئين من دار الغرب الإسلامي، تونس في 1433هـ-2012م وإنه يحتوي جميع الأجزاء التفسيرية فيهما ويشتمل على 1001 صفحة
³ قد طبعت هذه التعليقات من "الدائرة الحميدية" أعظم كره في جزئين
⁴ مفردات القرآن (تحقيق وشرح: الدكتور أجمل أيوب الإصلاحي)، ص 35
⁵ "حكمة القرآن" ترجمه الأستاذ خالد مسعود الكاتب الباكستاني إلى اللغة الأردنية وكاتب هذه السطور كتب مقالة حول هذه الترجمة الأردنية وذكر خصائص حكمة القرآن وميزات الترجمة الأردنية كما أشار إلى بعض نقائصها.
⁶ هذه الرسالة ترجمها الأستاذ أمين أحسن الإصلاحي إلى اللغة الأردنية وطبعها في المجلة الأردنية "الإصلاح"، عدد: يونيو 1936م

العدد الخاص مجلة الهند

الأوابد (24) لوامع الأفكار (25) مسائل النحو (26) المنطق الجديد (27) النظام في الديانة الإسلامية (28) النظر الفكري.¹

قد اتضح مما سبق أن الأستاذ الفراهي كان عالماً موسوعياً وقدم خدمات بارزة في مجال القرآن والدراسات الإسلامية والأدب والشعر العربي والفارسي وقد لقبه الأستاذ حبيب الرحمان الشرواني بحسان العجم² بسبب مواهبه الفارسية واحتل مكاناً منفرداً في تفسير الآيات بنظم القرآن والاستشهاد بكلام العرب وتوضيح المفردات القرآنية وقد برز من كتابه "مفردات القرآن" أنه انفرد في تحقيقاته اللسانية بين المفسرين وقد بذل جميع مجهوداته لنشر التعليمات القرآنية بين الأمة الإسلامية لأن القرآن الكريم ينظم أشتاتاً من الأمة الإسلامية في سلك واحد. ونختم هذه العجالة على ما قاله العلامة سيد سليمان الندوي عن الإمام الفراهي:

"الدنيا دار العجائب ومن أعجب عجائبها وقوع ما كنت تحذر منه حدوث ما لم يخطر ببالك. بعثنا هذه الرسالة للطبع³ وصاحبها حي يرزق فلم يمض شهر حتى فوجئنا بموته وفجعنا بانحزام حياته وكان رحمه الله آية من آيات الله في حدة الذهن وكثرة الفضل وسعة العلم ودماثة الخلق وسداد الرأي والزهد في الدنيا والرغبة في طلب مرضاة الله".⁴

¹ راجع للتفصيل: مفردات القرآن، ص 35-39. وقدم الأستاذ الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي التعريفات اليسيرة لهذه المخطوطات وكذلك كتب الأستاذ مقالة رائعة حولها باللغة الأردية. راجع للتفصيل: "تصانيف فراهي كا غير مطبوعه سرمايه" للدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي، علامة حميد الدين الفراهي: حيات وأفكار (ترتيب وتعليق: الدكتور عبيد الله الفراهي)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، 1992م، ص 57-96. وراجع أيضاً: ترجمة الأستاذ الفراهي بقلم المؤلف العلامة سيد سليمان الندوي (الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح)، الإمام عبد الحميد الفراهي، دار القلم، دمشق، ط1، 1420هـ-1999م، ص 25-27

² لباب الألباب، محمد عوفي (تصحيح وتعليقات: سعيد نفسي)، طهران 1355هـ

³ وهي: "إمعان في أقسام القرآن"

⁴ راجع للتفصيل: ترجمة المؤلف العلامة سيد سليمان الندوي، الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، ص ألف

المصادر والمراجع

1. أمثال آصف الحكيم (منظومة للأستاذ أحمد محمود كوثر الأعظمي)، البلاغ بليكيشنز، دلهي الجديدة، الطبعة الأولى، أبريل 2008م
2. تذكره علماء أعظم كره لحبيب الرحمان الأعظمي، ديوبند، طبع ثاني، 1433هـ-2012م
3. تعليقات في تفسير القرآن الكريم للإمام عبد الحميد الفراهي (إعداد: الدكتور عبيد الله الفراهي ومراجعة: الشيخ أمانت الله الإصلاحي)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، يوبي الهند
4. جمهرة البلاغة للمعلم عبد الحميد الفراهي، مطبعة معارف، أعظم كره، الهند، 1360هـ
5. دلائل النظام للإمام عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية ومكتبتها، الطبعة الأولى، 1388هـ
6. ديوان الأعشى الكبير الميمون بن قيس (شرح وتعليق، الدكتور محمد حسين)، مكتبة الآداب للجهامير، المطبعة النموذجية، بدون تاريخ
7. ديوان الخنساء، (تحقيق: الدكتور أنور سويلم)، دار عمان، الأردن، 1409هـ
8. ديوان الهذليين، الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، 1385هـ-1965م
9. ديوان طرفة بن العبد (تحقيق وشرح: كرم البستاني)، بيروت، 1953م
10. ذكر فراهي للدكتور شرف الدين الإصلاحي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح بسرائ مير، أعظم كره، 2001م
11. ذكر فراهي للدكتور شرف الدين الإصلاحي، دار التذكير، ط1، 2002م
12. الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح للإمام عبد الحميد الفراهي، دار القلم، دمشق، ط1، 1420هـ/1999م
13. شرح ديوان الحماسة للموزوقي (نشره: أحمد أمين وعبد السلام هارون)، الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1371هـ-1951م

العدد الخاص مجلة الهند

14. شرح ديوان لبید بن ربیعة العامري (تحقیق وتقدیم: الکتور إحسان عباس)،
الکویت، 1962م
15. شعراء النصرانية، مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، بيروت، بدون تاريخ
16. علامة حميد الدين الفراهي: حيات وأفكار (ترتيب وتعليق: الدكتور عبيد الله
الفراهي)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، 1992م
17. لباب الألباب لمحمد عوفي (تصحيح وتعليق: سعيد نفسي)، طهران 1355هـ
18. مفردات القرآن للإمام عيد الحميد الفراهي (تحقيق وشرح: الدكتور محمد
أجل أیوب الإصلاحی)، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2002م
19. مقالات شبلي، مطبعة معارف أعظم جره، ط1، 1369هـ 1950م
20. مكاتيب شبلي (ترتيب) سيد سليمان الندوي، مطبع معارف، أعظم كره،
1981م
21. مولانا حميد الدين فراهي: مفسر ومحقق، للدكتور أبو سفيان الإصلاحی،
قرآنك ريسرچ سنتر، كبير كالوني، علي كره، يوبي
22. مولانا حميد الدين كي بنيادي أفكار للبروفيسور أطفاف أحمد الأعظمي،
البلاغ ببلي كيشنز، دلهي الجديدة، 2010م
23. نظام القرآن وتاويل الفرقان بالفرقان للإمام العلامة عبد الحميد الفراهي
(اعتناء: الدكتور عبيد الله الفراهي)، دار الغرب الإسلامي، تيونس، ط1،
1433هـ-2012م
24. مجلة علوم القرآن الصادرة عن إداره علوم القرآن بعلي كره
25. مجلة المنار صفر 1327هـ
26. مجلة خدابخش الصادرة عن مكتبة خدابخش الشرقية الوطنية ببتنه
27. العدد الخاص لمجلة "تهذيب الأخلاق" بالسير سيد أحمد خان

العلامة عبد الحميد الفراهي وتحقيق مفردات القرآن

- الشيخ أفتاب عالم الندوي¹

ترجمة من الأردوية: محمد عبد القيوم الإصلاحي²

قد قام الإمام الفراهي برسم خطة شاملة لتدوين علوم القرآن لكي يفهم الناس هذا الكتاب العظيم ويعتبروه جامعاً لعلوم كثيرة ومعارف جمة وحافلاً لحكم عديدة وبصائر شتى مع كونه مرتبطاً ومنتظماً، ومن أهم ما استعان به في إبراز هذه الخطة المثلث إلى حيز الوجود هو تحقيق مفردات القرآن وشرحها وتوضيحها. فيقول في كتابه "مفردات القرآن" وهو يلقي الضوء على أهمية المعرفة الصحيحة بالمفردات وحاجة القراء إليها:

"لا يخفى أن المعرفة بالألفاظ المفردة هي الخطوة الأولى في فهم الكلام وبعض الجهل بالجزء يفضي إلى زيادة جهل بالمجموع وإنما يسلم المرء عن الخطأ إذا سدّ جميع أبوابه فمن لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن أغلق عليه باب التدبير وأشكل عليه فهم الجملة وخفي عنه نظم الآيات والسورة ولو كان الضرر عدم الفهم لكان يسيراً ولكنه أكثر وأفظع، وذلك بأن المرء قلما يقف على جهله بل يتجاوز موقفه، فيتوهم من اللفظ ضد ما أريد فيذهب إلى خلاف الجهة المقصودة. ثم سوء فهم الكلمة ليس بأمر هين فإنه يتجاوز إلى إساءة فهم الكلام وكلما يدل عليه من العلوم والحكم فإن أجزاء الكلام يبين بعضه بعضاً للزوم التوافق ---- وهكذا ترى الخطأ في حد كلمة واحدة أنشأ مذهباً باطلاً وأضل به قوماً عظيماً وجعل الملة الواحدة بدداً".³

¹ أحد أبرز المتخرجين في دار العلوم التابعة لندوة العلماء بلکناؤ

² أحد المتخرجين في مدرسة الإصلاح بسرائ مير، أعظم كره، الهند

³ مفردات القرآن، ص 4-5

والعلوم الخمسة عشر التي أوجب معرفتها العلامة جلال الدين السيوطي رحمه الله - نقلاً عن بعض العلماء - في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" على من يريد تفسير القرآن وبيانها على رأسها العلم باللغة، لأن بها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع. - على حد قوله - إضافة إلى ذلك يقول - نقلاً عن الإمام مجاهد - إنه لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب ولا يخفى في حقه معرفة اليسير منه فقد يكون اللفظ مشتركاً وهو يعلم أحد المعنيين والمراد الآخر.¹

كتب المفردات

قد بدأ المسلمون بتفسير وتحقيق القرآن لغة منذ بداية الإسلام. فقد صار علم غريب القرآن في القرن الثالث فنّاً مستقلاً بذاته، ثم صنّف في القرون التالية أئمة التفسير والقراءة واللغة كتباً منفردة بذلك كله كمثّل غريب القرآن ومعاني القرآن ومجاز القرآن وما يستعجم الناس من القرآن وغرائب القرآن ومفردات القرآن ومشكلات القرآن حتى تكونت في الموضوع قبل نهاية القرن السابع مكتبة حافلة تجاوز كتبها العدد الحصر.²

والكتب التي تتعلق بتفسير وتحقيق القرآن اللغوي تنقسم إلى ثلاثة أقسام تالية:

1. تفسير مفردات القرآن على نهج عام:

أول كتاب صُنّف في هذا الباب ينسب إلى عبد الله بن عباس، والذي يغلب على الظن أنه جمع أحد رواته في كتاب أقواله في شرح مفردات القرآن وبيانها كما جمع العلامة السيوطي في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" أقواله التي رويت عن أبي طلحة رضي الله عنه.³

¹ الإتقان في علوم القرآن، 231/2 طبعة الحلبي بمصر

² المصدر نفسه، 113/1

³ المصدر نفسه، 114/1

العدد الخاص مجلة الهند

من أشهر ما صَنَّف في هذا الباب ما يلي:

- غريب القرآن تأليف: الكسائي (189هـ)
- معاني القرآن " يحيى بن زياد الفراء (207هـ)
- مجاز القرآن " أبو عبيدة معمر بن المثنى (210هـ)
- معاني القرآن " أخفش الأوسط (215هـ)
- غريب القرآن " محمد بن سلام الجمعي (231هـ)
- تفسير غريب القرآن " ابن قتيبة الدينوري (376هـ)
- غريب القرآن " ابن جرير الطبري (310هـ)
- معاني القرآن أو
- إعراب القرآن ومعانيه " الزجاج (311هـ)
- غريب القرآن " نفطويه (323هـ)
- نزهة القلوب في
- تفسير غريب القرآن " محمد بن عزيز السجستاني (330هـ)
- معاني القرآن " أبو جعفر النحاس (338هـ)
- العمدة في غريب القرآن " مكي بن أبي طالب (437هـ)
- المفردات في غريب القرآن " راغب الأصفهاني (502هـ)
- الأريب بما في القرآن
- من الغريب " ابن الجوزي (597هـ)

- تحفة الأريب بما في

القرآن من الغريب " أبو حيان النحوي (745هـ)

- عمدة الحفاظ في تفسير

أشرف الألفاظ " ابن السمين الحلبي (756هـ)

2. لغات القرآن:

والكتب التي صنفت من هذه الجهة تبحث عن الكلمات والألفاظ التي لها أصل في غير العربية أو ليست بلمهجة قريش، وقد بدأ التأليف في هذا النوع في صدر الإسلام تسابقه فأول رسالة في هذا الباب تنسب أيضاً إلى عبد الله بن عباس، وقد نشرها الدكتور صلاح الدين المنجد بعد جمع وتحقيق من نسخة الظاهرية.¹

ومن أشهر ما صنف في هذا الباب هي:

- اللغات تأليف الفراء النحوي (207هـ)

- لغات القرآن " هيثم بن عدي (207هـ)

- لغات القرآن " أبو زيد الأنصاري (205هـ)

- اللغات " الأصمعي (216هـ)

- اللغات " ابن دريد الأزدي (231هـ)

- المعرب من الكلام الأعجمي

على حروف المعجم " أبو منصور الجواليقي (540هـ)

¹ مفردات القرآن (رسالة الدكتور أجمل أيوب الإصلاحي)، ص 31

• المذهب فيما وقع في

القرآن من المعرب " العلامة السيوطي (911هـ)

3. الوجوه والنظائر:

المراد بالوجوه هي التي استعملت في مواضع شتى من القرآن لمعان مختلفة وبالنظائر هي الكلمات التي قد استعملت في مواضع كثيرة منه في معنى واحد.¹

وقد نسب أيضًا هذا الفن إلى عبد الله بن عباس. فقد قال أبو عبد الرحمن الحيري (430هـ) في مقدمة كتابه "وجوه القرآن":

"أول من صنف في هذا الباب عبد الله بن عباس ثم مقاتل بن سليمان ثم الكلبي".²

وأول كتاب صنفه المتقدمون في هذا الباب هو كتاب مقاتل بن سليمان البلخي الذي نشره الدكتور عبد الله شماته عام 1395هـ الموافق 1975هـ باسم "الوجوه والنظائر". ومن اشتهر في هذا الباب من المؤلفين هم:

1. يحيى بن سليمان (200هـ)

2. أبو العباس المبرد (286هـ)

3. محمد النعاش (315هـ)

4. حكيم الترمذي (320هـ)

5. أحمد بن فارس القزويني (395هـ)

ومن أشهر ما صنف في هذا الباب:

• الوجوه والنظائر تأليف مقاتل بن سليمان البلخي (150هـ)

¹ ولكتب الوجوه راجع: الإتيان في علوم القرآن، 1/141 ولتعريف الوجوه راجع: مقدمة

التصارييف، ص 17-24

² مقدمة التصارييف، ص 28

العدد الخاص مجلة الهند

- الوجوه والنظائر " أبو الفرج ابن الجوزي (597هـ)
- الأشباه والنظائر " أبو منثور الثعالبي (429هـ)
- وجوه القرآن " إسماعيل بن أحمد الحيري (430هـ)
- قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن " الفقيه الداسفاني (478هـ)
- الأشباه والنظائر " العلامة السيوطي رحمه الله (911هـ)

رأي الإمام الفراهي في هذه الكتب

مع تواجد هذا الذخيرة الكبيرة في موضوع مفردات القرآن أولى الإمام الفراهي رحمه الله اهتمامًا خاصًا بتحقيق وتفسير مفردات القرآن وجعله جزءًا أساسيًا في خطته الواسعة الجامعة لعلوم القرآن لمجرد أن المفردات لها أهمية لا ريب فيها ولكن هذه الكتب المتداولة بين الناس لا تعطينا حدود الألفاظ حدًا صحيحًا تامًا، ولا تبرز قيودها وصورتها ولا تكشف عن حقيقتها كشفًا يساعد في فهم القرآن ككتاب حي وبحيث أنه كتاب مفيد مرتبط ومنظم بنظام بليغ ويحصل اليقين والاطمئنان بأن كل آية وسورة في القرآن لمنظمة بنظام باهر جامع. فهو يقول في مقدمة "تفسير نظام القرآن" لدى ذكر المآخذ اللسانية في التفسير.

"فأما في سائر الألفاظ وأساليب حقيقتها ومجازها، فالمآخذ فيه كلام العرب القديم والقرآن في نفسه. وأما كتب اللغة فمقصرة فإنها كثيرًا ما لا تأتي بحد تام ولا تميز بين العربي القح والمولد، ولا تهديك إلى جرثومة المعنى. فلا يدري ما الأصل

وما الفرع وما الحقيقة وما المجاز؟ فمن لم يمارس كلام العرب واقتصر على كتب اللغة ربما لم يهتد لفهم بعض المعاني من كتاب الله".¹

ويقول في كتابه "مفردات القرآن" وهو يدلي برأيه في تلك الكتب:

"وكتب اللغة والغريب لا تعطيك حدودًا للكلمات حدًا تامًا، وكتب السير والتفسير لا تبين لك بالتمام والصحة أمورًا جاء ذكرها في القرآن، وكتب العلوم الآخر من العقلية والأخلاق لا تعطيك ما تضمن عليه القرآن من الحكم والأسرار فاحتجنا إلى ثلاثة علوم، اللغة والتاريخ والحكمة.

ومن أراد التأمل الصحيح والتدبر التام وجب عليه أن لا يغفل عن النقد فيما يأخذه من هذه العلوم كلها ومن يتمسك بالقرآن وينور الله عقله به يطلع على أغلاط كثيرة في كتب القوم. والضرر يكون بقدر الاعتماد عليها والغفلة عن النقد.

ومضرة كتب الفلاسفة أضل وأوغل فإن معظم القرآن الحكمة وهي الأصل، ولا سبيل إلى فهمها من القرآن دون الاطلاع على معاني كلماتها المفردة ودون العلم بصحيح علوم اللسان من البيان".²

منهج الفراهي في تحقيق المفردات

نظرًا إلى ما للمفردات من أهمية أساسية في فهم القرآن ثم إنها لا تروى كتب اللغة والغريب غليلاً. قام الإمام الفراهي بتأليف "مفردات القرآن" وكان يريد بذلك أن يفسر كنموذج ومثال مفردات مهمة خاصة في ضوء كلام العرب القح وآيات القرآن الكريم، ويبحث عن أصلها ويبذل الجهد في إبراز كنهها ودقائقها وسرّها، وأن لا يكتفي بذكر معاني كثيرة لكلمة كمثال عامة أصحاب المعاجم بل أن يعرف على مباحث أصولية متعلقة بالألفاظ واللغات تدل بالغ الدلالة على أنه كيف

¹ مقدمة نظام القرآن، ص 42

² مفردات القرآن، ص 5

يبحث عن الألفاظ وما هي الأصول التي نجعلها بأعيننا عند البحث والتحقيق كما يقول العلامة في مقدمة كتابه "مفردات القرآن":

"ولا نورد في هذا الكتاب من الألفاظ إلا ما يقتضي بياناً وإيضاحاً إما لبناء فهم الكلام أو نظمه عليه --- وأما عامة الكلمات فلم نتعرض لها وكتب اللغة والأدب كافلة به".¹

ولكنه- رحمه الله تعالى- لم يتمكن من إتمام هذا الكتاب وإكماله فلا يمكننا تعيين منهج الفراهي الكامل لتحقيق المفردات في ضوء هذا الكتاب فقط وهذا ظلم عظيم في مجال البحث والتحقيق. نعم، إننا نبحت ونكشف القناع في ضوء هذا الكتاب وغيرها من مؤلفاته عن تلك الأصول التي وضعها الإمام الفراهي بين يديه في تحقيق "مفردات القرآن":

1. لا يقتنع الإمام الفراهي بالنقل من كتب اللغة والتفسير وتلخيص المعاني التي ذكرت فيها أو تفصيلها بل يبحث عن الكلمة وكنهها ومدلولها الحقيقي وينتقدها في ضوء آيات القرآن وكلام العرب القح لأن القرآن قد نزل بلسان عربي مبين بلغ في فصاحة وبلاغة مبلغ الإعجاز، الإعجاز البلاغي الذي خضع له أعلام الجاهلية حتى شعراء المعلقات، الذين هم آيات في البلاغة وأعلام في الفصاحة. هم كانوا يعترفون بعجزهم واستلامهم أمام إعجاز القرآن فلا يدلنا من أن نرجع إلى كلام العرب وننظر فيه للعلم بصحيح استعمال الكلمة ومفهومها الواضح المعروف عند نزول القرآن.

2. وقد ألقى الإمام الفراهي ضوءاً على بعض أصوله لمنهج تحقيقه في تذكرة له لمفردات القرآن² وأوضح أنه إن لم يتعين المعنى الصحيح للكلمة فطريق بيانها أن تتبع استعمالات تلك الكلمة في اللغتين العبرانية والسريانية ذواتي التشابه باللغة العربية. ثم يعين معناها الصحيح في ضوءها.

¹ المصدر نفسه، ص 3

² مفردات القرآن (رسالة الدكتور أجمل أيوب الإصلاحي)، ص 39

فيقول الإمام الفراهي رحمه الله في مقدمة "نظام القرآن" مشيرًا إلى ما بين اللغتين العربية والعبرانية من تشابه وتماثل.

"فاعلم أن كلام المسيح المروي باللغة اليونانية أصله عبراني. فلغة الإنجيل وكتب العهد العتيق واحدة. ولا شك أن العربي والعبراني وهما لغتا الكتب المنزلة صنوان. إذا كان الأمر هكذا لا بد أن تشبه بعضها بعضًا وتهدي إحدهما إلى معنى الأخرى ثم لما كانت مطالب هذه الكتب متقاربة ونبعث كلها من ضئضئ الوحي فجدير بها أن نتساوق".¹

وعلى أساس المعرفة باللغتين العبرانية والسريانية تمكن الإمام الفراهي من البحث والتحقيق لكثير من المفردات ذوات الأصل العبراني أو السرياني كمثال كلمة العصر والآلاء والأب والسفرة وغيرها.

3. من أصول الإمام الفراهي في تحقيق المفردات "عدم الالتفات إلى المعنى الشاذ" فيقول في كتابه "التكميل في أصول التأويل" عند ذكر المباديء والأصول الأولية في التفسير والتأويل.

"إنما لا نجعله من المرجحات فإن اللفظ الحسن المصون ربما عوض الظاهر العامي ولكن اللفظ إذا استعمل لا بد أن يدل على مفهومه المعلوم الثابت، فإن أريد به مفهوم ينكره الناس ويدعيه مدّع ولا سبيل إلى إثباته، فهذا تعمية. والقرآن أنزله الله عربيًا مبينًا، فلا شيء يترك الإفصاح".²

ويقول في موضع من كتابه "نظام القرآن" وهو يبحث عن المآخذ اللسانية والمصادر اللغوية في التفسير:

"فينبغي لنا أن لا نأخذ معنى القرآن إلا مما ثبت. وكذلك يجب أن نترك المعنى الشاذ من اللغة. كما قيل في معنى التمني إنه هو التلاوة وما فزعوا إلى هذا المعنى الشاذ

¹ مقدمة نظام القرآن، ص 44-45

² رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن (المجموعة الأولى)، ص 262-263

الذي لم يثبت إلا فراراً من بعض الإشكال وهذا أفتح لأبواب الفتنة واختلاف الأمة.
فمن ترك جادة الطريقة وإذلالها: لعبث به الأوهام والأهواء".¹

4. وأيضاً يعتني في تحقيق الكلمات بالموقع والمحل وعمود الكلام اعتناءً بالغاً.
فيذكر إحدى تلك المرجحات وهي أنه عند اختلاف الجهات وتعداد المعاني لا
نرجح إلا المعنى الذي يناسب سياق الكلام وسباقه وعمود السورة مناسبة
كاملة. فيقول في كتابه "التكميل في أصول التأويل" موضحاً ذلك الأصل:

"اعلم أن ما من كلمة إلا ولها أطراف وجهات فهي كالمعاني لها وكذلك كل أمر
وقصة لها اعتبارات شتى، وكما أن اللفظ المشترك يؤل حسب محلها. مثلاً
صفة الأحدية الكاملة مختصة بالله تعالى ومع ذلك نرى ذكره تعالى بأسماء
مختلفة وعلى ترتيب شغائر مثل (رب الناس ملك الناس، إله الناس) ومثل
(رب العالمين، الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين) ومثل (الملك القدوس، العزيز
الحكيم) ومثل (العزيز الغفور) ومثل (الملك القدوس، السلام المؤمن،
المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر) فمن لا يتدبر القرآن لا يلتفت إلى محل
الكلمات ولا يهتدي لفهم جهة الكلمة".²

5. وكذلك من أصول الترجيح والتأويل والتفسير عند الإمام الفراهي أصل الأخذ
بأثبت الوجوه لغة، فيقول في كتابه "التكميل في أصول التأويل":

"فإن المعنى الذي كثر في كلام العرب لا ينبغي تركه إلا لصارف قوي فإذا تساوى
الوجوه الآخر وهو النظم والموافقة بباقي القرآن وصريح العقائد لا بد أن نأخذ
المعنى الشائع ومثاله معنى "الشوى" فإنه لحم الساق عموماً في كلام العرب.

وقد أخطأ العلامة عبد القادر الدهلوي رحمه الله في ترجمة قوله تعالى:
"نزاعة للشوى" فظن أنه الكبد ... وكذلك أخطأ من أخذ بمعنى جلد الرأس

¹ مقدمة نظام القرآن، ص 42

² رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن (المجموعة الأولى)، ص 267-268

فإن مجئ الشوى للحم الساق عام شائع. ولجلد الرأس جاءت الشوى في قليل من الكلام مع احتمال معنى آخر. ثم لم يذكر في القرآن ولا في الحديث مجئ النار في الموقف من فوق حتى إذا دنا وأطل عليهم نزع جلدة رؤوسهم. فلو تساوى المعنيان للشوى لكان الأخذ بما هو أوفق بالنظم وباقي القرآن أخرى فكيف والمعنى غير معروف وغير معتمد عليه".¹

إن منهج الفراهي في تحقيق المفردات ليس مجرد النقل والحكاية من كتب اللغة والتفسير وشرح وتلخيص أقوالهم وآرائهم وذكر معاني شتى، كمثال عامة أهل اللغة، بل نجد في تحقيقه كدأبه في غير هذا الفن - تفرّدًا وأصالة وتعمّقًا للفكر وتوقّدًا وذكاء في الذهن ودقة في الاستدلال والاستنباط. ولا شك أنه قد زاد في تراثنا التفسيري زيادة قيمة.

لقد أصبحت كتب اللغة والغريب عقيمة جامدة بعد أبي عبيدة والفراء النحوي وراغب الأصفهاني. واقتصرت على تلخيص أقوال المتقدمين وجمعها ونقلها وبيانها. وكم من قول ضعيف اشتهر لفقدان المستوى الأعلى للبحث والتحقيق. وكم من رأي شاذ صار دليلًا وسندًا. فمن هذه الجهة أيضًا يجدر تحقيق الإمام الفراهي وجهوده فيه بأهمية زائدة. لأنه - في جانب - تبرز منه جوانب مجهولة غير معلومة للبحث والتحقيق، ويتم تصحيح وتصويب آراء وأقوال لا سند لها ولا أساس. ومن جهة أخرى يبحث عن أمور كانت محتاجة إلى مزيد البحث والتحقيق ويزداد تاريخ علوم القرآن بابًا مهمًا خطيرًا. ويدل عليه صريحًا ما حققه الإمام الفراهي رحمه الله عند البحث عن "الآلاء" و"الأب" و"الغشاء" و"الجرد" و"الدرس" و"العصر" و"الصغو" و"الكوثر".

¹ المصدر نفسه، ص 272-273

مفسر القرآن الإمام عبد الحميد الفراهي

ونظريته عن الحديث النبوي

- الشيخ سلطان أحمد الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: محمد ياسر²

كان مفسر القرآن الإمام عبد الحميد الفراهي من الموهوبين في التاريخ الإسلامي الذين لم يقلدوا أحداً بل خلقوا فكراً جديداً وقد تركوا بعدهم كثيراً من الأفكار الجيدة. ويكفي لتكريم العلامة أنه يعرف في هذا العصر الأخير بأنه إمام التفسير وعلوم القرآن. وقد ذكر من الموضوعات المتنوعة في علم التفسير ما يمكن أن نختار حتى أجزاءها الصغيرة للبحوث والدراسات وعلى أساسها يمكننا أن نخلق عالماً جديداً من الأفكار التي تعتبر أساساً للعلم النافع. ورأيه عن الحديث هو جزء مهم من أفكاره الجديدة التي سنناقشها هنا.

وللأسف فإن مفسر القرآن الفراهي لم يتمكن من تفصيل وشرح رأيه في الحديث بسبب أشغاله الكثيرة حيث أنه لم يتمكن من شرح أشياء كثيرة أخرى. وقد ظهر رأيه عن الحديث واضحاً إلى حد كبير بما ذكره في كتبه المطبوعة وغير المطبوعة وكذلك بما ذكره في رسائله. وفي الحقيقة نجد أفكار العلامة عن الحديث في مقدمة تفسيره "فاتحة نظام القرآن"، ورسائله "التكميل في أصول التاويل"، وفي رسالته غير المطبوعة "إحكام الأصول بأحكام الرسول"، وملخصها هو أن العلامة كان يؤمن أن القرآن هو الأصل والأساس في فلسفة الشريعة وأحكامها، ويقول إنه إذا تناقض شيء بين القرآن والحديث فالأصل هو القرآن الكريم لأنه قطعي الدلالة منزل من عند الله، والأحاديث ظنية تشتمل بجانب أقوال الرسول ﷺ على روايات بالمعنى،

¹ كاتب هندي كبير للدراسات الإسلامية

² باحث، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي

فالقُرآن هو الذي يرجح، وإن وجدت هذه الأحاديث والروايات في كتاب البخاري الذي هو أصح الكتب بعد كتاب الله أو في صحيح مسلم الذي يساويه في المرتبة. ويمكن أن نشبه رأي العلامة عن الحديث بآراء بعض من الصحابة الفقهاء مثل عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وعائشة الصديقة رضي الله عنهم جميعاً، وقد ذكر الفراهي هذا في موضع من رسائله.¹

وكذلك ينبغي أن نسمع رأي العلامة عن الحديث بألفاظه كما يقول في المقدمة الثانية لفاتحة نظام القرآن عن مكانة مأخذ الأخبار من الأحاديث والتاريخ والكتب السماوية السابقة مقارنة بالقرآن الكريم:

"ومن المآخذ ما هو أصل وإمام ومنها ما هو كالفرع والتبع، أما الإمام والأساس فليس إلا القرآن نفسه وأما ما هو كالتبع والفرع فذلك ثلاثة: ما تلقته علماء الأمة من الأحاديث النبوية، وما ثبت واجتمعت الأمة عليه من أحوال الأمم، وما استحفظ من الكتب المنزلة على الأنبياء. ولولا تطرق الظن والشبهة إلى الأحاديث والتاريخ والكتب المنزلة من قبل لما جعلناه كالفرع بل كان كل ذلك أصلاً ثابتاً يعضد بعضه بعضاً من غير مخالفة فوجب على من يحاول فهم القرآن أن لا يأخذ من الروايات ما يهدم الأصل أو يقلعه فإني رأيت بعض الروايات تقلع الآيات وتقطع نظمها إلا أن تؤول ولكن التعجب ممن يؤول الآية ولا يؤول الرواية وربما لا يؤول الآية بل يرضى بقطع نظامها والفرع أولي بالقطع".²

وقد أوضح رأيه هذا في المقدمة الأخيرة لرسالته "في تأويل القرآن بالحديث" من مقدمة التفسير، وقد صرح بأسماء البخاري ومسلم.

"قد سبق مني القول بأن القرآن هو الحاكم عند اختلافه بالأحاديث فهنا نريد الإيضاح وكنت أفرق عن طعن بعض إخواننا ولكن ذهب بهم الشغف بالحديث

¹ التكميل في أصول التأويل، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم غره، الهند، 1388هـ، ص 22.

² فاتحة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، مطبعة الإصلاح، سرائ مير، أعظم غره، الهند، 1357هـ، ص 10.

إلى أن قالوا إن الحديث داخل تحت آية (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩٦﴾) ولم يتفكروا في نتائج هذا القول. فحان لي أن أرفع راية الصدق ولا أبالي ولو قطعوا رأسي لديه وأوصالي".²

وقد بدأ الموضوع الأصلي بعد هذا الاستهلال، فيقول: فاعلم أن في قلوب أكثر أهل الحديث أن ما رواه البخاري ومسلم لا مجال فيه للشك فنورد بعض ما فيها لكي تعلم أن الله تعالى شنع اتخاذ العلماء أرباباً فلا نؤمن بما فهموا من غير النظر والفكر.³ وقد ذكر العلامة عبيد الله السندي أفكار العلامة الفراهي عن صحيح البخاري وننقل هنا كلمات العلامة السندي:

"إن العلامة حميد الدين الفراهي رحمه الله كان من أصدقائي القدماء. كنا على رأي واحد في ترتيب وتناسق آيات القرآن.... وعندما كنا في الهند وكلما التقينا لن بنته خلافنا حول قبول الأحاديث وعدمه. والصدفة أنه في السنة التي ذهبت فہیت إلى مكة المكرمة للحج، وصل العلامة أيضاً في نفس السنة، كنا نلتقي هناك لفترات طويلة، وكان هناك توافق إلى حد كبير في أفكارنا، ولكن جادلنا حول قبول الأحاديث وعدمه استمر هناك كذلك، وقد خالفت آراءه بشدة وقلت له إنه يلزم عليه قبول الأحاديث، فانزعج العلامة وقال ماذا تريد مني؟ فقلت له يلزم مؤطا مالک! قال أنا أقبله، فقلت له الآن انتهى النزاع بيننا في قبول الأحاديث وعدمه، وأنا لا أكرهك على قبول صحيح البخاري".⁴

¹ سورة الحجر: 9

² فاتحة نظام القرآن، ص 32

³ فاتحة تفسير نظام القرآن، ص 32-33

⁴ الفرقان، بريلي، العدد الخاص للشاه ولي الله، الطبعة الثانية، عام 1360هـ / 1941م، رتبہ الشیخ محمد منظور النعماني، ص 302، مقالة العلامة عبيد الله السندي بعنوان "التعريف الإجمالي بحكمة الإمام ولي الله الدهلوي". * وذكر العلامة السندي آراءه عن صحيح البخاري في هذه المقالة. وينبغي أن أذكر آراءه بكلماته "أما رأيي عن صحيح البخاري ولماذا لا أستطيع أن أدرس ذلك الكتاب لمسلم جديد من أوروبا، فلا يناسبني أن أتحدث عن هذه التفاصيل في المجالس العامة وسأبين كل شيء في المناقشات مع العلماء الذين قد أكملوا أو الذين هم على وشك الإكمال".

وفي هذه الخلفية نلقي نظرة على أحاديث الصحاح وخاصة أحاديث البخاري ومسلم، أول رواية منها مذكورة في البخاري ومسلم وهي رواية "كذب إبراهيم"¹ وملخصها هو أن سيدنا إبراهيم قال في ثلاثة مواضع ما يخالف الحقيقة، الأول أنه قال: "إني سقيم"² والثاني بشأن كسر الأصنام: "بل فعله كبيرهم"³ والثالث ما قال حماية لزوجته من ملك ظالم أنها أختي ليست زوجتي. يقول العلامة الفراهي عن هذا الحديث أنه مكذب لنص القرآن.⁴ ورأي الإمام الرازي هو أقرب إلى رأي العلامة كما يقول الإمام الرازي في تفسير هذه الآية المذكورة بعد ذكر هذا الحديث أن من المرجح أن تنتسب الكذب إلى راوي الحديث بدلاً من انتسابه إلى النبي الجليل سيدنا إبراهيم. وفي هذا الموضع يناسب ذكر كلمات الإمام الرازي: قلت لبعضهم هذا الحديث لا ينبغي أن يقبل لأن نسبة الكذب إلى إبراهيم لا تجوز فقال ذلك الرجل فكيف يحكم بكذب الرواة العدول فقلت لما وقع التعارض بين نسبة الكذب إلى الراوي وبين نسبته إلى الخليل عليه السلام كان من المعلوم بالضرورة أن نسبته إلى الراوي أولى.⁵

ولكن مع ذلك يذكر الإمام رأياً آخر وهو:

لم لا يجوز أن يكون المراد بكونه كاذباً خبراً شبيهاً بالكذب.⁶

المرجع السابق. ويذكر عن هذا الرأي من قبل هذا في هذه المقالة "كلما ازدادت عنايتي بالقرآن العظيم وصعب علي إفهام بعض أحاديث البخاري للشباب وتزلزل يقيني". (ص 300)
* وقد رد على هذه المقالة الشيخ أمين حسن الإصلاحي في المجلة الشهرية "معارف" في عددها المطبوع في شهر فبراير سنة 1942م، وقد سبق الذكر في مقالة خالد مسعود. (المرتب)
¹ البخاري ج 1، كتاب الأنبياء، باب قول الله عز وجل: "واتخذ الله إبراهيم خليلاً..." الخ، أصبح المطابع، دلهي. مسلم ج 2، كتاب الفضائل، باب فضائل إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم، أصبح المطابع، دلهي.

² الصافات: 89.

³ الأنبياء: 63

⁴ فاتحة تفسير نظام القرآن، ص 10.

⁵ مفاتيح الغيب: 145/7 - المطبعة العامرة (مصر) 1308هـ.

⁶ المرجع السابق

وقد ذكر البخاري ومسلم هذا الحديث في بيان أحوال الأنبياء وفضائلهم. وكذلك ذكر في الصحيحين في موضع آخر في بيان يوم الحشر والشفاعة.¹ عندما يذكر الأنبياء ضعفهم تواضعاً ويظهرون أنهم عاجزون عن الشفاعة ويحولون الأمر إلى محمد ﷺ. فخلقية هذا الحديث تدل أن سيدنا إبراهيم مثل الأنبياء الآخرين يعبر عن تعريضه وتوريته بالكذب بمناسبة مكانة العبدية العالية خلأً بسبب التواضع وحكم الدعوة والأحوال الشديدة.*

وذكر العلامة الفراهي حديثاً آخر روي عن أبي ذر رضي الله عنه: أن الشمس سوف تسجد لله تحت عرشه، والنبي ﷺ يقول إن هذا التفسير لآية "والشمس تجري لمستقر لها" (يس: 38) وكلمات هذا الحديث هي من كتاب التفسير في البخاري والتي ذكرها العلامة في هذا الموضع.² وكذلك ذكر هذا الحديث في موضعين آخرين.³ وذكر الإمام مسلم هذا الحديث في كتاب الإيمان.⁴ والعلامة

¹ البخاري ج 2، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، مسلم ج 1، كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار.

* ولا يناسب هذا التأويل خلفية الرواية لأنه ذكر في الرواية أن إبراهيم لن يستطيع أن يشفع للناس عند الله بسبب خوف عن غضب الله على كذبه وبسبب شعور بالندامة على الكذب وليس بسبب التواضع كما ذكره صاحب المقالة ولا يصح توجيهه هذا بأن إبراهيم يقول إن التعرض والتورية كذب وهذا بسبب علو مقامه في العباد، و لهذا السبب ذكر البخاري في حديث في باب "اتخذ الله إبراهيم خليلاً" أن إبراهيم لم يقل ذلك بل قال رسول الله صلى الله وسلم: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاثاً". ويمكن بالتورية تأويل قول إبراهيم في القرآن (من المناسب أن نعدّها في حكم الحجج التي أعطاها الله) ولكن لا يمكن تأويله في الحديث المذكور، لأنه إذا كان تورية فلا يصح ذكره بأن يكون إبراهيم عاجزاً عن الشفاعة يوم القيامة.

² البخاري ج 2، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: "والشمس تجري لمستقر لها..." الخ.

³ البخاري ج 1، كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، ج 2- كتاب الرد على الجهمية، باب قوله وكان عرشه على الماء.

⁴ مسلم ج 1، كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان.

* ولم يذكر صاحب المقالة الحديث الذي ترك أمامه العلامة المكان الفارغ. وكلمات الحديث هي: قال (أبو ذر) كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد عند غروب الشمس، فقال يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت الله ورسوله أعلم، قال فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فذلك قوله تعالى "الشمس تجري لمستقر لها" ص 33. في هذا الحديث فسر الآية

الفراهي ذكر هذا الحديث وترك بعده مكانًا خاليًا ولم يقدم أي ملاحظة. يبدو أن العلامة يعترض على كلمات الحديث "مستقرها تحت العرش" ولا يقبل هذه الكلمات "لمستقر لها" في تفسير الآية المذكورة.* وكذلك يبدو أنه يعني الأجل بلفظ المستقر ومن حيث المعنى يشبه الآية المذكورة بآيات ذكر الله فيها أن الشمس والقمر يجري كل منهما لأجل مسمى¹ ولكن تفاصيل الحديث المذكورة في كتاب بدء الخلق من البخاري وفي كتاب الإيمان من مسلم تدل أنها تبين نفس مفهوم المستقر. وذكر في هذا الحديث أن الشمس تسجد لله تحت عرشه وتطلب الإذن من الله سبحانه لطلوعها إلى أجل.** ثم يأتي الوقت الذي لا يأذن الله فيه أن تطلع مرة أخرى وتؤمر بالعودة من حيث أتت، فتطلع من المغرب بدلاً من طلوعها من المشرق. وجاء في حديث صحيح عن النبي ﷺ أنها علامة لقرب القيامة.²

وبين مفهوم هذا الحديث أن هذه هي حقائق عن الغيب كان بينها رسول الله ﷺ من إشارات الغيب. ولماذا لا يمكن تأويل سجود الشمس لعرش الله بينما نؤول سجود الظل لله كما ذكر في القرآن؟***

وقد تحدث العلامة الفراهي عن الحديث في كتابه "فاتحة نظام القرآن" وفي "التكميل في أصول التأويل" وكذلك في مؤلفات أخرى. وبعد مطالعة هذه المؤلفات

"والشمس تجري لمستقر لها" بأن الشمس تغرب تحت العرش. وكذلك في الحديث المذكور فسر الآية بأن مستقرها تحت العرش. وكذلك ذكر صاحب المقالة حديثاً آخر ذكر فيه عن طلب السماح للطلوع بعد غروب الشمس. وبالجمله نفهم من هذه الأحاديث بأن طلوع الشمس وغروبها وإياها وذهابها وتحركها بسبب حركتها وليس بسبب تحرك الأرض. وتبين نقطة اعتراض العلامة من هذا الجانب لا من جانب ما ذكره صاحب المقالة في مكان "الأغلب".

¹ الرعد: 2، لقمان: 29، فاطر: 13، الزمر: 5.

* وتفسير "مستقر" الذي ذكره صاحب المقالة هو تفسيره وليس تفسير العلامة، ولا علم للمرتب إن كان العلامة قد كتب شيئاً في هذا المجال .

** وماذا يعنى الطلوع من جديد أو مرة أخرى؟

² البخاري ج2، كتاب الفتن، مسلم ج2- كتاب الفتن وأشراف الساعة، ص 393.

*** القضية ليست سجود الشمس تحت العرش، حركتها للغرب والعودة إلى الشرق للطلوع.

يمكن فهم رأيه. على سبيل المثال يقول في أحكام الأصول إن السنة هي من مصادر الشريعة، وإن نبين مضمرة هذا القول فستنتهي اختلافاته مع الأمة. ومن المناسب أن نذكر هنا ما ذكر في ترجمان القرآن:

"والقسم الثالث ما لا نجده في الكتاب ولكن الزيادة محتملة فجعلنا السنة فيه أصلاً مستقلاً فإن الله تعالى أمرنا عمومًا بإطاعة الرسول وأمر الرسول بالحكم بما يريد الله تعالى سواء كان بالكتاب أو بالنور والحكمة التي ملأ الله بها قلبه.¹

ويبدو من هذا الكلام كله أن رأي مترجم القرآن الفراهي عن الأحاديث هو أنها مستنبطة من القرآن الكريم. وهذا ليس بجديد، لأن الإمام الشافعي قد قال قبل سنين:

"كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن".²

وكذلك هذا رأي مفسر القرآن كما ذكره في مقدمة تفسيره فمن هذه الناحية لا يختلف رأي العلامة عن السلف. وهذا خلاف في الجزئيات فقط وأمثلته موجودة عند السلف أيضاً.³

ونجد مثلاً جيداً لتعمق مفسر القرآن الفراهي في قضية المواريث ضمن آية الميراث. فينبغي أن نذكر رأيه هذا بكلماته. يقول في كتاب "التكميل" عن عبارة "هل يؤول الحديث إلى القرآن أم يعكس الأمر؟":

"كم من آيات القرآن إن تدبرت فيها وفهمت معناها وجدت من الأحاديث ما جاء موافقاً له. فالحديث لم يزد شيئاً على القرآن. ولكن صرح به من الآية أمراً غامضاً يكاد يخفي على من لا يتدبر. مثلاً في آية الميراث ترى وصيتين: وصية من الله وسمّاها فريضة من الله وقال فيها: "أباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً".⁴

¹ أحكام الأصول.

² فتاوى ابن تيمية، 363/13، أيضاً الإتيان في علوم القرآن، 126/2.

³ على سبيل المثال العلامة ابن تيمية الذي لا يستثني الروايات المختلفة في الصحيحين عن النقد والنظر رواية ودراية، ولزيد من التفاصيل انظر في فتاوى ابن تيمية، 21-17/18- (المملكة العربية السعودية) لمرتبها عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد، بدون سنة.

⁴ سورة النساء: 11.

وصية أخرى من الميت وجعل التقدم لوصية الميت.

وقد علمنا أن الله أعلم وأحكم ووصيته أقدم، فلا بد أن تكون هذه وصية الميت لغير وارثيه من الخيرات، ثم ترى النبي عليه الصلوات صرح بذلك فقال: "ألا لا وصية لوارث"¹.

ومن الجدير بالذكر أن الإمام الشافعي قد تفوق في رأيه مع ذكر آراء أخرى عن هذا الحديث على الإمام محمد الشيباني الذي يقول إنه لا يجوز أن يفضل الخبر الواحد على القرآن ولكن هذا الرأي يخالف آية "كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت" الآية-(البقرة: 18)² بينما الإمام الفراهي يبحث عن أصله في كتاب الله. وكذلك يقول إن الحديث الذي ورد فيه النهي عن الوصية لغير الوارثين في أكثر من الثلث هو مفهوم عن كتاب الله وقد ذكره العلامة في ملاحظاته من كتاب "إحكام الأصول" باختلاف بسيط.³

ولا يتفق مفسر القرآن الفراهي على نسخ القرآن بالحديث وفي هذا الأمر ذكر آراء الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل لتأييد رأيه:

"ولا يجوز نسخ الكتاب بالسنة ويجوز نسخ السنة بالكتاب ويجوز نسخ المتواتر بالمتواتر ونسخ الأحاد بالأحاد والمتواتر ولا يجوز نسخ المتواتر بالأحاد".⁴

وكذلك في الفقه الحنبلي:

¹ التكميل في أصول التأويل، ص 65. وقد ذكر الإصلاحي حفظه الله قوله مثل هذا في تفسيره "تدبر قرآن" في ذكر تفصيل النقطة الرابعة عن آيات الميراث. تدبر قرآن، 33/2. أنجمن خدام القرآن، لاهور، الطبعة الثانية، 1396هـ/1976م.

² حجة الله البالغة: 146/1

³ أحكام الأصول: (مخطوط)

⁴ الورقات للجويني مشمولة مجموع متون أصولية، ص 45. وقد انقلب المتن في البداية كما أشار اليه المحشي ونحن قد رجعناه إلى مكانه وقد ذكر المحشي أن الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل يتفقان على هذا الرأي.

"ويجوز نسخ القرآن والسنة المتواترة والآحاد بمثلها والسنة بالقرآن لا هو بها".¹

وقال الإمام الفراهي إن القرآن هو المقياس فيقاس الحديث والرواية على هذا المقياس. وفي هذا الشأن نرى مهارته الأصلية في تاريخ القرآن، وأرض القرآن. ونجد مثاله في روايات ذكر فيها أن هاجر كانت تخدم سارة، وكذلك عن إبراهيم بأنه ترك إسماعيل عندها رضيعاً في أرض مكة دون أي وسائل. ولو أن مفسر القرآن الفراهي قد رفض هاتين القصتين المذكورتين بالدلائل القوية في كتابه الشهير "الرأي الصحيح في من هو الذبيح" ولكن رفضها يؤثر على صحيح البخاري كذلك، حيث نجد فيه هذه الروايات في مواضيع متعددة.

1. نجد في صحيح البخاري ذكر هاجر بأنها كانت تخدم سارة في رواية "كذب إبراهيم" كما ذكرت هذه الرواية من قبل. فحسب هذه الرواية فالملك الظالم تعجب من كرامات سارة ووهب ابنته لخدمتها.²

وكذلك نجد هذه الرواية في مواضع مختلفة من صحيح البخاري³ بنفس الكلمات تقريباً حيث ذكر عن هاجر أنها كانت تخدم سارة.

2. وكذلك نجد في رواية أخرى للبخاري أن إبراهيم ترك إسماعيل الرضيع عاجزاً مع أمه هاجر وحيدة في أرض مكة. هذه الرواية طويلة ولكن سوف نتحدث هنا عن جزئها الابتدائي، وعبارتها هي:

عن سعيد بن جبير⁴ قال ابن عباس: "أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم وبابها

¹ قواعد الأصول ومعاهد الفصول لصفي الدين البغدادي الحنبلي (ت658م) مشمولة مجموع متون أصولية، ص 142

² البخاري ج 1- كتاب الأنبياء، باب قول الله عزوجل: "واتخذ الله إبراهيم خليلاً"

³ البخاري ج 1 - كتاب البيوع، باب شري المملوك من الحربي وهبته الخ أيضاً الكتاب المذكور، باب قبول الهدية من المشركين.

⁴ وقد حكم حجاج بن يوسف بإعدام سعيد بن جبير في شهر شعبان سنة 95هـ عندما كان عمره 49 سنة. الإكمال في إسماء الرجال للخطيب التبريزي، صاحب المشكوة ملحقاً بآخر المشكوة، المكتبة الرشيدية دلهي، بدون سنة.

إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليهما فقالت له الله أمرك بهذا قال نعم قالت إذن لا يضيعنا ثم رجعت... الخ¹

وفي نفس الباب جاءت رواية مختصرة قبل هذه الرواية عن عبد الله بن عباس بواسطة سعيد بن جبير:

"قال أقبل إبراهيم بإسماعيل وأمه وهي ترضعه معها شنة"².

وقد جاء التفصيل في فتح الباري لشرح البخاري عن الغيرة بين هاجر وسارة والتي بسببها هاجر إبراهيم مع هاجر وولده. ومن المناسب هنا ذكر العبارة الأصلية:

"وكان السبب في ذلك أن سارة كانت وهبت هاجر لإبراهيم فحملت منه بإسماعيل فلما ولدته غارت منها فحلفت لتقطعن منها ثلاثة أعضاء فاتخذت هاجر منطلقاً فشددت به وسطها وهربت وجرت ذيلها لتخفي أثرها على سارة"³.

وجاء في الرواية الثالثة أن هذه القصة هي التي كانت السبب في هجرة إبراهيم⁴.

ونجد تفصيل هذه القصة في رواية أخيرة من هذا النوع رواها مجاهد وآخرون وهنا تختلف التفاصيل عن الروايات الأخرى، ولكن وصول إسماعيل الرضيع إلى مكة المذكور كما جاء في الروايات الأخرى⁵.

ويمكن أن نرى هذا الأمر في التوراة كما رأيناه في صحيح البخاري وفي شرحه. وقد جاء في الكتاب المقدس في العهد القديم في الباب الواحد والعشرين من كتاب الولادة:

¹ البخاري ج 1- كتاب الأنبياء، باب يزفون النسلان في المشى

² المرجع السابق

³ فتح الباري شرح صحيح البخاري، 251/6، المطبعة الخيرية، مصر، 1325هـ، الطبعة الأولى

⁴ المرجع السابق

⁵ المرجع السابق

العدد الخاص مجلة الهند

صرف إبراهيم هاجر وابنها بعد أن زوّدهما بالخبز وقربة ماء وودعهما في الصباح الباكر لعلهما يجدان مأوى قبل الظهيرة. وكان الولد يبلغ حوالي 16 عامًا من عمره... فخرج الاثنان إلى البرية متجهين نحو الجنوب وقد تاهوا في البرية التي دعيت بعد ذلك "بئر سبع"، وإذ فرغ الماء من القربة خار الولد من العطش فتركته أمه مطروحًا في الظل تحت الأشجار، إذ قالت "لا أنظر موت الولد" فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت". سمع الله صوت الغلام، ونادى ملاك الله هاجر من السماء، وقال لها: مالك يا هاجر، لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو قومي وخذي الولد وربيه لأنني سوف أخلق منه أمة عظيمة.¹

وكذلك من المناسب أن نرى في موضع آخر في الباب السادس عشر من كتاب الولادة ليتضح به تفصيل خدمة هاجر لسارة كما ذكره البخاري:

"وأما ساراي امرأة إبراهيم فلم تلد له وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر فقالت ساراي لإبراهيم هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة ادخل على جاريتي لعلني أرزق منها بنين فسمع إبراهيم لقول ساراي فدخل على هاجر فحبلت ولما رأت أنها حبلت صغرت مولاتها في عينها فقالت ساراي لإبراهيم ظلمي عليك أنا دفعت جاريتي إلى حضنك فلما رأت أنها حبلت صغرت في عينها يقضي الرب بيني وبينك فقال إبراهيم لساراي هو ذا جاريتك في يدك افعلي بها ما يحسن في عينيك فأذلتها ساراي فهربت من وجهها فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية على العين التي في طريق شور وقال يا هاجر جارية ساراي من أين أتيت وإلى أين تذهبين فقالت أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي فقال لها ملاك الرب ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها وقال لها ملاك الرب تكثيرًا أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدن ابناً وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك وأنه يكون إنسانًا وحشيًا يده على كل واحد ويد كل واحد عليه وأمام جميع إخوته يسكن".²

¹ الكتاب المقدس، العهد القديم، باب الولادة: 21: 14-18

² باب الولادة: 16 - آيات: 1 - 12

ويمكن أن نفهم بعد قراءة هذه التفاصيل من العهد القديم أنه ليس هناك فرق أساسي بين التفاصيل المذكورة في الكتاب المقدس وصحيح البخاري وشرحه بالنسبة لسيدنا إسماعيل وأمه هاجر إلا بعض الفروق في بعض الفروع أو الفرق في الإجمال والتفصيل، حتى أن ملك الله يتكلم بلغة سارة كما تكلم إبراهيم.

وفي رسالته الشهيرة "الرأي الصحيح في من هو الذبيح" يدحض مفسر القرآن الفراهي هاتين القصتين في التوراة:

"إن اليهود لم يقنعوا بإنكار هذا الشرف لإسماعيل عليه السلام، بل أدخلوا في التوراة أن إبراهيم عليه السلام أخرجه عن بيته مع أمه، وأنها كانت أمة لسارة عليها السلام، ومعاذ الإله أن تكونها. وقد عاد وبال هذا الافتراء عليهم من غير مهلة، ثم ضربت عليهم الذلة والعبودية. وبالجمله فكان الفخر بالأباء قد سيطر من دمهم".¹

وقال في موضع آخر في هذا الكتيب:

"وأما الثالث فإنهم افترضوا قصة إخراج إسماعيل وأمه عليهما السلام من مسكن إسحاق وأمه عليهما السلام إلى بركة فاران، لما أنها سخطت بهما، ولم ترض بأن يرث إسماعيل عليه السلام مع ابنها إسحاق عليه السلام. والكذب والتناقض في هذه القصة ظاهر لمن ينظر فيما ذكره في صحفهم".²

والجدير بالذكر بأن الرواية التي ذكر فيها البخاري خدمة هاجر لسارة، برزت فيها شخصية سارة أكثر من إبراهيم كما حدث في التوراة، حتى أن فرعون مصر أو الملك ظالم الذي كان في البداية يريد أن يغتصب سارة، تأثر بها أكثر مما تأثر بإبراهيم

¹ الترجمة الأردنية لـ "الرأي الصحيح" للشيخ أمين أحسن الإصلاحي، ذبيح كون هي؟ ص 118، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره. المطبعة كوه نور بدلي، الطبعة الأولى. وقد ذكر العلامة في هذا الموضوع تفسيره لسورة الفيل من تفسير الشيخ الإصلاحي. وكذلك ذكر التحريفات المذكورة عن سيدنا إسماعيل وهاجر من قبل اليهود. تفسير سورة الفيل تأليف الأستاذ الإمام حميد الدين الفراهي، ترجمة: أمين أحسن الإصلاحي، ص 32-33، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، مطبعة كوه نور، دلي.

² ذبيح كون هي؟، ص 137.

ووهب ابنته لخدمتها¹ وكما جاء في رواية أخرى فعندما رأى فرعون مصر كرامات سارة قال هذا شرف لي بأن تكون ابنتي خادمة في بيتها بدلاً من أن تكون ملكة في بيت شخص آخر.² ونرى العلامة السيد سليمان الندوي يؤول هذه الرواية لكي يعطي عذراً لحديث البخاري، بأن هاجر كانت تخدم سارة لأن سارة كانت الزوجة الأولى.³ ثم يشير إلى الحديث السابق: "وذكر في كتب الحديث عندنا".⁴

في هذه الحالة لا يعقل بأن النبي الجليل سيدنا إبراهيم كان سبباً في الظلم على الزوجة الثانية بأن تخدم الزوجة الأولى. وقد قال اليهود إن هاجر كانت أمة لسارة. وبلغ الأمر إلى حد بأن علماءنا دافعوا عن سارة، وقدموا الدلائل القوية في حق حرية سارة.⁵ والسؤال هنا هو أنه إن كانت هاجر خادمة وفي كلمات أخرى كانت أمة لها فكيف نؤول الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر".⁶

وكذلك نجد دليلاً لسيادة النبي ﷺ ولعلو نسبه في روايات أخرى، كما ذكر مسلم في صحيحه:

-
- ¹ الشيخ محمد حفظ الرحمن السيوهاروي، قصص القرآن، 213/1، ندوة المصنفين، دلهي، الطبعة الجديدة، 1987م.
- ² السيد سليمان الندوي، أرض القرآن، 41/2، دار المصنفين، أعظم غره، الطبعة الرابعة، 1375هـ/1956م.
- ³ المرجع السابق
- ⁴ المرجع السابق
- ⁵ أعني كتيب العلامة عنايت الله رسول الجريا كوتي "النصوص الباهرة في الحرية الهاجرة" كما ذكرها السيد سليمان الندوي في أرض القرآن وذكر العلامة حفظ الرحمن السيوهاروي في قصص القرآن. أرض: 40/2 قصص: 213/1. ولكن ذكرها في قصص القرآن باسم "البراهين الباهرة" الخ. بدلاً من "النصوص" وكذلك نجد أنه ذكر اسم المؤلف "غلام رسول" بدلاً من "عنايت رسول" قصص القرآن، المرجع السابق. ونأسف أننا لم نجد هذا الكتيب في مدينة على جره لنتأكد من الكتيب ومؤلفه.
- ⁶ السيرة النبوية لابن كثير الدمشقي ت774هـ: 194/2م، دار المعرفة، بيروت، 1403هـ/1983م، تحقيق: مصطفى عبد الواحد.

العدد الخاص مجلة الهند

"إن الله اصطفى من ولد آدم إبراهيم وإسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم".¹

ونجد روايات كثيرة في هذا الموضوع.²

روى الحاكم والبيهقي عن عائشة أن النبي ﷺ يقول صراحة:

"قال لي جبريل: قلبت الأرض من مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلاً أفضل من محمد، وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بني اب أفضل من بني هاشم".³

إن مفسر القرآن الفراهي يبين أحوال إبراهيم ولم يذكر الرواية المذكورة في البخاري. وذكر تقديم هاجر في خدمة إبراهيم دون خدمتها لسارة، مما يظهر أن الفراهي لا يؤيد كون هاجر خادمة سارة. فلذا يقول إن إبراهيم قد مكث في كنعان بعد أن رجع من بابل فبارك الله له في الأغنام والخدم وأصبح غنياً وصاحب الأموال. وكان هناك رئيس قبيلة عربي يدعى أبو مالك، وقد جعل إبراهيم خليفة له ووهب له هاجر لخدمته.⁴ نعلم على إسناد صحيح البخاري ونعترف بقوة روايات مسلم وبعدها وأصاله الرواة ولكن في ضوء التفاصيل المذكورة أعلاه يميل القلب بأن نعترف بإمكانية سهو الراوي وسوء فهمه من غير قصد أو وجهة نظر خاطئة في بعض المواضع الاستثنائية.

2- وكذلك نجد تعقيدات ومشاكل أكثر من هذا في رواية البخاري التي ذكر فيها رضاعة سيدنا إسماعيل. والواقع أن القرآن لم يصح بكون سارة مؤمنة ولكن

¹ المرجع السابق، 191/2.

² وعلى سبيل المثال لاحظ المقطع الأخير من رواية طويلة مروية عن عبدالله بن عمر كما ذكره الحاكم والبيهقي. المرجع السابق، 193/2-194.

³ المرجع السابق، 194/2.

⁴ الكتيب "أنحضرت كا سلسله نسب اور أهل كتاب" ص 14، المكتبة المركزية الإسلامية بدلهي، الطبعة الأولى، 1991 م. ويمكن أن نختار هذا الكتيب للعلامة كموضوع مستقل للتحقيق.

القرآن قد ذكرها في مواضع مختلفة بأسلوب رائع وخاصة حديثها مع الملائكة في سورة الهود والذاريات،¹ وهذا يوضح أنها لم تكن مؤمنة فحسب بل كانت امرأة صالحة ومخلصة مطيعة لزوجها. وإن المنافسة والغيرة أمر طبيعي في قلب سارة لأن هاجر ولدت قبلها، ولكن أن تتحول هذه المنافسة والغيرة إلى عداوة شديدة بحيث ترفض سارة رؤية وجه ضرتها حتى تطردها من البلد، وتشتد شقاوة قلبها إلى حد أنها لا ترحم طفلها الرضيع، وتجبرها بالهرب مع ابنها بعد ضربها، وتحلف بأن تقطع أعضائها، وكذلك سكوت إبراهيم حتى بعد رؤية الظلم على هاجر، كل هذه الأمور لا يرضى بها أحد إلا اليهود. ومع صرف النظر عن هذه الناحية من الرواية نجد كذلك أن إبراهيم ترك ولده الحبيب مع أمه في أرض مكة وحيدين ورجع، نرى أن هذه الأحوال المذكورة كلها تخالف الآية: "فلما بلغ معه السعي" (102) بشكل صريح، وكذلك تخالف الفهم العام وهي ضد صفاته "حليم" و"أواه". لا نتحدث هنا عن سيدنا إسماعيل بأنه تربى في كنف أمه في كنعان أوفي بئر السبع² أو ذهب به إبراهيم إلى مكة بعد أن بلغ سن الشعور وسكن معه. ولكن نقصد هنا فقط أن كلمات الآية "فلما بلغ معه السعي"³ تبين أن إسماعيل مكث مع والده حتى بلغ معه السعي ولم يترك مع أمه وحيداً في أرض مكة عندما كان رضيعاً، بل إنه تربى في كنف أبيه وترعرع تحت ظل أبيه حتى بلغ سن الشعور. ونرى العلامة السيد سليمان الندوي قد وجد العذر لهذه الرواية كما فعل بالرواية الأولى، ولكنه اضطر بسبب الضعف في الرواية إلى أن يقول إن هذه الرواية ليست مرفوعة بل إنها من إسرائيليات عبد الله عباس.⁴

¹ هود: 71، الذاريات: 29.

² ولتعيين وتفصيل بئر السبع وكنعان أنظر "أنحضرت كا سلسله نسب اور اهل كتاب". ولمزيد من التفاصيل لمقر إبراهيم وإسماعيل أنظر إلى "ذبيح كون هي؟" ص 34-38 وأيضاً، ص 122-124.

³ وكذلك استدلل العلامة السيد سليمان الندوي بالآية "فلما بلغ معه السعي" في كتابه أرض القرآن. ص 43/2.

⁴ أرض القرآن: 244/2. وكذلك قول العلامة عن هذه الرواية بأنها ليست مرفوعة هذا رأيه الشخصي، لأننا نجد أن رواية قبلها من كتاب البخاري ذكر عنها أنها ليست مرفوعة فتأويلها يختلف عن هذا التأويل. وهذا اختلاف لجزء من القصة. ولا تتأثر قصة رضاعة إسماعيل بل هي موجودة كما كانت سابقاً. ولمزيد من التفصيل انظر إلى فتح الباري: 250-251/6.

فأين هذه الروايات الضعيفة عن سيرة إسماعيل من القرآن الذي بين أن إبراهيم خرج من بيته بأمر من الله تعالى، وأنه أمره باتخاذ مكة مقراً له لمهمة عظيمة ألا وهي عمارة بيت الله كما قال:

- 1- "ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم. ربنا ليقيموا الصلوة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون."¹
- 2- وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.²

إن ما تركه مفسر القرآن الفراهي من خزائن العلم بعد أن قام بتحقيق الأحاديث والآثار في ضوء كتاب الله، وقام بفهم الأحاديث والاعتماد عليها بمساعدة كتاب الله، يعتبر ثروة عظيمة، فنجدته قد تعمق وتفوق في الأفكار والآراء في هذا المجال أيضاً مع أنه اختلف في بعض النكات والمسائل. وإن قمنا بدراسة هذه الأفكار وخططنا الأعمال الجديدة في ضوءها لحدثت ثورة في عالم علوم الحديث. وبها سوف نحصل على أدب إسلامي نافع وعملي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على رسوله النبي الكريم.

¹ إبراهيم: 37.

² البقرة: 127.

بداية العهد الجديد في تاريخ النحو العربي

- د. أورك زيب الأعظمي¹

مدخل في الموضوع:

قد أبرز الله تعالى في كل عهد شخصيات فاضلة أحييت العلوم ونفخت الروح فيها وتركزت مآثر قيّمة في كل مجال سواء كان مجال التفسير أو مجال الحديث، مجال الأدب أو مجال الفقه، مجال الطب أو مجال الحساب. ومن هذه المجالات المختلفة مجال النحو وهو مجال مهمّ بحيث كونه سلّمًا إلى العلوم الأخرى؛ علوم التفسير والحديث.

وفي هذا المجال برز عدد كبير من الرجال الذين ذاع صيتهم وأولهم سيّويه وهو الذي صنّف كتابًا منفردًا في هذا الموضوع سمّاه بـ"الكتاب" ثم حذوا حذوه حتى جاء الأستاذ جاز الله الزمخشري فلمّا ما شتّوه وجمع ما فرقوه وصنّف كتابًا منفردًا على هذا الموضوع أسماه بـ"المفصل في علم العربية" وهو مجموع لأصول نحوية مختلفة وأما وجه التسمية به فعلى كونه فصلًا فصلًا لا مفصّلًا ضد مجمل.

ولما استقرّ أصولهم وأتباع آرائهم أجد أن فيها نقائص عديدة. إنهم راغبون في الأصول عن الأمثلة فهم يعلمون قواعد اللغة صرفًا عن قدر الأمثلة الذي نحتاج إليه وفضلاً عن ذلك يجعلون لها تبعًا عوامل كثيرة لا تعدّ.

بينما كان ذلك شائعًا إذ وجدنا شخصية فاضلة تبخّرت في لغات عديدة وأخذت علومًا شتى وكانت لها اليد الطولى في النحو العربي فجددت هذا الفن وأضافت إلى هذا العلم إضافة مهمّة ولها آثار في ذلك وهي العلامة حميد الدين الفراهي رحمه الله تعالى.

¹ مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة المليية الإسلامية (نيو دلهي)

آثار الإمام الفراهي في هذا الفن:

لقد ترك الإمام الفراهي آثارًا عديدة في مختلف مجالات العلم والأدب والفن، أما علم النحو فقد ترك فيه ثلاث رسائل "أسباق النحو" جزءان ورسالة منظومة باسم "تحفة الإعراب" وله أيضًا آثار غير مطبوعة في ذلك منها "الدر النضيد في النحو الجديد" و"مسائل النحو" ولكن هذه الرسائل الثلاث جامعة لآرائه التي ذكرت في تينك الرسالتين فإني أبحث عن هذه الرسائل صراحة عن تينك وأشير إلى بداية عهد جديد في عالم النحو العربي.

فيقول الإمام الفراهي وهو يذكر اختلافه:

"قد أخذنا هذا الكتاب- أسباق النحو- من كتابي "النحو الجديد" فقد خالفنا في بعض مواضعه كتب النحو القديمة وأما سبب اختلافه بيننا فهو في الكتاب المأخوذ عنه".¹

وبعد ذلك يذكر بعض مواضع الأصيل الذي خالف فيه النحويين القدامى:

"ولدفع الشبهة نذكر هناك اختلافين أولهما أنا وضعنا حجر أساس الإعراب على تبدل أحوال الاسم خلاف بنائه على العوامل فمن ذلك أولًا نتخلص من مئة عامل وثانيًا أن الأفعال تكون غير معربة لعدم تبدلها فيسهل أن أعلم الأعراب قبل أن أقع في طول الحديث عن الفعل ومن أكبر نفعه أن الطالب يجعل يمارس الكلام وإذا بدأ البحث عن الفعل بدأ استعماله على وقته لأن الطالب قد علم بالإعراب وقبل أن يتم البحث عنه يكون الطالب ذا استعداد رائد في الأدب دون الطريق القديم الذي يحفظ الطالب فيه- لمدة طويلة- قواعد النحو والصرف التي هي صعبة مع عدم ملائمة النفوس ثم بعد ذلك يبلغ الموضع ويبدأ دراسة الأدب العربي فقد جربنا هذه الطريقة الحديثة ولننا فوزًا باهتًا وثانيهما هو الذي اعتنى به في هذا الكتاب الجديد بأننا وضعنا الأمثلة موضع التعاريف غالبًا وإن الإنسان

¹ الأستاذ حميد الدين الفراهي: أسباق النحو، 5-4/1، مطبعة تانده، فيض آباد، د.ت

يعرف شيئاً بالتمثيل لا بالتعريف المنطقي وكثيراً ما نرى أن المنتهي يعجز فهمه عنه فلم يوقع الطالب في صعوبة التعريفات".¹

وأيضاً يذكر اختلافه في الرسالة المنظومة:

"هذه رسالة (تحفة الإعراب)، إنا وجدناها سهلاً ليحفظها الطلاب المبتدون. إن ما سلكه القدماء واختاروه سبيلاً إلى إفهام الطالبين هو صعبٌ جداً وكثيراً ما ترى أن من يسلكه يتعب ويصبه اللغوب لأن ذلك السبيل مظلم والمقام المراد بعيداً ومع ذلك لا بد لكل قوم من زلة وركلة فقد عرفنا الإعراب تعريفاً جديداً ورتبنا هذا الفن ترتيباً حديثاً فقد صارت الأفعال متخلصة من الإعراب والعوامل مجلوة عن البلاد فصار الفن غير صعب والطريق سهلاً قصيراً".²

باب جديد في علم النحو:

وهكذا فتح الإمام الفراهي باباً جديداً للتفكير في النحو العربي وهو أن لا تجعل للإعراب عوامل ولا نعرب الأفعال فإنها مبنية غير معربة ولا نسلك المسلك القديم لأن فيه صعوبة وطولاً زائداً عليها ونفهم القواعد بالأمثلة ولا نميل كثيراً إلى القواعد وتعريفها فنكون حملاً ثقيلاً على من يطلب اللغة العربية ويريد علمها وتعليمها.

ولمزيد التوضيح آتي بأمثلة عديدة وأختم هذا البحث وأدعو أهل التحقيق إلى أن يحذوا حذو الإمام الفراهي ويبلغوا المرام لأنه قد خط لنا الأعلام وسهل الطريق إليه ومن جدّ وجد.

1. نفي العوامل:

ذكرت أن الإمام الفراهي خالف القدماء في كون العوامل سبباً للإعراب بل هو تبديل الأحوال فقط فهو يذكر أحوال الاسم وينفي العوامل عن بلادها:

¹ المصدر نفسه، ص 5

² الإمام الفراهي: تحفة الإعراب، ص 5، مطبعة الدائرة الحميدية، سرائير، د.ت

"إن تبدل الأحوال لهو تبدل المنازل فافهم تبدل المنازل تعلم تبدل الأحوال:

إن الاسم حينما يركب يكن له ثلاث منازل: الأولى: حينما كان جزءاً ضرورياً للكلام كـ"زيدٌ ذاهبٌ" فهناك "زيد" و"ذاهب" جزءان ضروريان. فإن فقد أحدهما فلا يتم الكلام. والثانية: حينما كان جزءاً زائداً ولكن بلا احتياج إلى أي وسيلة كـ"زيدٌ ذاهبٌ غداً" فهناك زيدت كلمة "غداً" لمزيد العلم ولكنها بلا وسيلة. والثالثة: حينما كان جزءاً زائداً ومحتاجاً إلى وسيلة كـ"زيد ذاهب إلى المدرسة" فهناك زيدت كلمة "المدرسة" لمزيد العلم ولكنها لم تلتحق بالكلام إلا بوسيلة.

ويقال لهذه المنازل على الترتيب الرفع والنصب والجر والأسماء التي تحتل هذه المنازل يقال لها المرفوع والمنصوب والمجرور.

والآن نعرف هذه المرفوع والمنصوب والمجرور بأن ذاك الاسم في حالة الرفع أو النصب أو الجر أو في محل الرفع أو النصب أو الجر.

وبالجملة فإن الاسم من حيث تركيبه على ثلاثة أحوال: الرفع والنصب والجر فقد وجدت أن في آخر المرفوع وفي آخر المنصوب وفي آخر المجرور فكأن هذه التبدلات أعلام للأحوال وعلامات لها".¹

ويذكر أدوات الإشارة ولا يشير إلى عواملها فهو مخالف ويقول:

"أدوات الإشارة هي: هذا، هذه، ذلك، تلك والمثنى هذان، هاتان، ذاك، تانك، والجمع: هؤلاء وأولئك".²

ويذكر الأمثلة ولا يقول شيئاً:

"هذا القلم نفيس. وهذه الدواة رديئة. هذا الكتاب كامل. وهذه الرسالة ناقصة. ذلك الطفل شرير. وتلك البنت صالحة. هذان الطفلان أخوان. وهاتان البنتان

¹ المصدر نفسه، ص 12-13

² المصدر نفسه، ص 37

العدد الخاص مجلة الهند

أختان. ذاك الرجلان مسافران. وتناك المرءتان غريبتان. هؤلاء قوم زيد. وأولئك أصحاب عمرو. جواب هذين الطفلين صحيح. قول ذينك الرجلين صادق. خط هاتين البنيتين جميل. عم تينك الأختين تاجر".¹

2. عدم إعراب الأفعال:

قد ذهبوا إلى أن الأفعال معربة أيضاً وأما الإمام الفراهي فله أصل واحد وهو أن الأفعال لا تبدل أحوالها فهي لا تعرب لأن تبدل الإعراب هو سبب الإعراب فإن صارت الأفعال غير متبدلة أحوالها صارت غير معربة فهو يقول:

"إن الفعل ولو كان معروفاً أو مجهولاً لا بد من أن يكون تارة غائباً وأخرى حاضراً وتارة متكلماً وأخرى مثنى وتارة جمعاً وهكذا تارة مذكراً وأخرى مؤنثاً فإن تبدل الشيء يسبب تبدلاً خفيفاً في أشكال الفعل وهذا هو المسعى بـ"الصرف".²

ولضيق الموضوع أصرف عن ذكر الأمثلة ومن يردّها فليراجع نفس الكتاب.

3. العناية بالأمثلة:

قد ذكرت أنه كان في مسلك القدماء نقص هو أنهم ماثلون إلى التعاريف المنطقية ولا ينظرون إلى الأمثلة والطالب المبتدئ له شغل بالأمثلة فهو يتوجه إليها ويسرع إلى فهم القواعد منها فلا إزالة هذا النقص أكثر الإمام الأمثلة واعتنى بها ولنا أمثلة لا تحصى نذكر بعضها منها.

يذكر المسند إليه والمسند فهو يأتي بالأمثلة ولا يذكر التعريف:

"سليم عاقل ونسيم غافل. بشير فارغ ونذير مشغول. وحيد غائب ومجيد حاضر. رشيد أمير وجعفر وزير. هاشم غني وحاتم سخي.

¹ المصدر نفسه والصفحة ذاتها

² أسباق النحو، 11/2

العدد الخاص مجلة الهند

"الإنسان حاكم. والحيوان محكوم. العالم عزيز والجاهل ذليل. المجلس قريب. والمكتب بعيد. الطعام حاضر. والخادم غائب. السؤال سهل. والجواب مشكل. الامتحان قريب. والتعطيل بعيد".¹

وكذا يذكر الحال:

"وحيد في البيت مريضاً. حامد أفصح القوم خطيباً. سليم كاتب جالساً. زيد مضروب مشدوداً. ذهابي غداً ماشياً. الأطفال في المدرسة قارئون وكاتبين. الناس ذاهبون سريعين. اليوم حارٌّ شديد الحر. خالد ورشيد نائمان ساكتين".²

وهكذا يذكر المواقع للتعريف والتنكير:

"هذا القلم النفيس لسعيد. لرشيد قلم نفيس. إن وحيداً في المدرسة. في البيت خادم وأطفال. إن في المكتب أطفالاً كثيرة. لا خادم لزيد ولكن لعمرو خداماً كثيرة. لا شك في هذا الخبر ولكن في ذلك شكاً. لا حاجة لي إليه ولكن له إليّ حاجات. لا صديق لعباس ولأخيه أصدقاء كثيرة. لبيت لعباس صديقاً واحداً".³

ولنا أمثلة كثيرة لهذا البحث ولمن يرد مزيداً منها فليراجع نفس الكتاب.

بعض آرائه البديعة

وقبل أن أختتم البحث لا مناص لي من أن أذكر بعض آرائه التي خالف فيها الإمام النحويين القدماء وذهب إلى جهة أخرى جهة موافقة بالعقل وسهلة للعمل بها، فهي هي ذي:

1. الموصولات العامة:

قد ذهبوا إلى أن "يوم" وأمثاله يأتي بعد الفعل مضاف إليه ففي قوله تعالى:

¹ المصدر نفسه، ص 17-18

² المصدر نفسه، ص 21

³ المصدر نفسه، ص 49

"هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم"، "يوم" مضاف إلى الجملة".¹

وأما الإمام الفراهي فهو ذاهب إلى أن "يوم" وأمثال ذلك لا يضاف إلى الجملة بل هو اسم للموصول وأما الذي يأتي من بعده فهو صلة له كما يقول وهو يذكر الأمثلة تحت عنوان "الموصلات العامة":

"الكتاب جليسك حيث لا جليس لك، أنا مسافر غدًا إذ الناس ذاهبون للحج".²

2. المقياس:

إن لكل كلمة حروفًا أصيلة يقال لها "المادة" ولما تقبل الحركة يلتحق بها بعض الحروف الزوائد فتصير صورة جديدة فهي سمّيت بـ"الوزن" كما "ح"، ب، ل "منها حبل وجمعه حبال ووزنه عظم وجمعه عظام ولكنه يصعب حينما نرجع إلى مادتها فلذلك وضع الإمام لكل كلمة "وزنًا خاصًا" وهو "ف، ع، ل" فنقيس على ذلك ما نبغي مادتها كـ"ركاب" فوزنه "فعال" ومادته "ر، ك، ب" وهذا سهل جدًا. فيقول الإمام الفراهي:

"إن لكل كلمة حروفًا أصيلة يقال لها "مادة تلك الكلمة" لما تقبل هذه الكلمة الحركة أو في بعض الأحيان يلتحق بها حروف زائدة فهي تصير صورة جديدة يقال لها "وزن تلك الكلمة" ككلمة "الكتاب" ومادتها "ك، ت، ب" ووزنها "فعال" فليبينه خصصنا "ف، ع، ل" والأحرف الأصيلة ثلاثة غالبًا فنضع "ف، ع، ل" في موضعها ولا نتعرض الحركات والأحرف الزائدة".³

وهكذا نقيس في علم الاشتقاق ونعلم بما في الكلمة من المادة وهذا سهل جدًا دون ما وضعوا من الأصل الصعب.

3. استعمالات الأفعال:

فإذا علمنا أن الفعل لا يعرف وأنه لا يؤثره أي عامل فقد زال أثر الكلمات التي ذكروها وسمّوها بنواصب المضارع وجوازمه وكيت كيت.

¹ الإمام الزمخشري: المفصل في علم العربية، ص 96، دار الجيل، د.ت

² المصدر نفسه، ص 39

³ المصدر نفسه، ص 58

فالإمام الفراهي يخالف وذكرها تحت عنوان "استعمالات الأفعال" فيقول:

"إنه تأتي قبل الفعل الماضي- هكذا قبل كل فعل كما يظهر من التفصيل الذي ذكر من بعد- أحرف لا يتبدل بها شكل الماضي وتوجد هناك تبدلات معنوية".¹

الخاتمة:

بدا من هذا البحث الوجيز أن الإمام الفراهي كان من كبار علماء النحو الهنود وأنه طوّر هذا الفن كما طوّر الفنون والعلوم الأخرى من التفسير والحديث والفقه والكلام. إنه ألّف العديد من الكتب والرسائل في هذا الفن ومنها "أسباق النحو" في جزئين و"تحفة الإعراب" و"النحو الجديد" و"مسائل النحو". إن رسائله هذه تحتوي على ما تحتويه من أفكار وآراء بديعة في النحو والصرف وتختلف عما تحويه رسائل العلماء الآخرين من الهند وغيرها من البلاد التي تعني بالعربية وأدائها وفنونها اعتناء كبيراً. إن محاولاته في مجال النحو مفخرة لنا وتدعو العلماء والباحثين إلى أن يقوموا بالبحث المزيد فيطوّروه ويقدموه في أسلوب جديد وطريقة بديعة سهلة.

¹ أسباق النحو، 15/2

الآراء النقدية للعلامة الفراهي في ضوء كتابه "جمهرة البلاغة"

- البروفيسور محمد راشد الندوي¹

ترجمة من الأردوية: عبد الكريم²

لم تكن أمة العرب تحتل مكانة قبل مجئ الإسلام كما كانت الأمم المتطورة تتمتع بالمكانة والجاه، ولكن أنعم الله عليها ببعض نعمه حتى فازت بالامتياز على الأمم الأخرى المعاصرة، وهي نعمة اللغة والبيان، والشجاعة، والحماسة والبساطة. والعرب كانوا بمعزل من الأمم المتطورة بسبب موقعهم الجغرافي ولذا نمت وازدهرت فيهم الخصائص الشعبية الخاصة بهم. وقبل ظهور الإسلام طوّر العرب لغتهم بدون القواعد والأصول الموضوعية والمرتبة وجعلوها جامعة حتى أصبحت إلى يومنا هذا منبع جميع أصول اللغة والقوانين. ومن حسن حظهم أن الله سبحانه وتعالى اصطفى رسوله الأخير من بين العرب وأنزل كتابه بلغتهم "إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزُكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" ³ فقد دلت ولادة النبي فيهم ونزول القرآن بلغتهم أنهم أشرف الأمم على بقاع الأرض، لأنها حاملة رسالة النبي الأخير ونزول القرآن بلغتهم يدل على أن لغتهم لغة مستحكمة ولهذا نرى أن المسلمين حافظوا على ذخائر اللغة العربية، ولا يمكن فهم إعجاز القرآن الظاهري والمعنوي بدونها، ومن خلال هذه اللغة فهم الناس أحكام الله وأوامره التي نزل بها القرآن واضطر قارئ هذا الكتاب إلى بيان وصفه كما جاء في القرآن "فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ" ⁴.

¹ بروفيسور، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره

² مدرّس ضيف، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليّة الإسلامية، نيو دلهي

³ آل عمران: 164

⁴ سورة المدثر: 24

ومن أجل نزول القرآن الكريم جاءت العديد من العلوم إلى حيز الوجود وتطورت على مر العصور، وأخذ يظهر إعجاز القرآن والإسلام فيها لأن العرب الذين كانوا متخلفين في مجال الفلسفة والعلوم والثقافة من بين أمم العالم قد حدث فيهم التغير الظاهري بسبب نزول القرآن مع حلول التغير المعنوي الجذري في نفوسهم، ثم بدؤوا تحصيل هذه العلوم شيئاً فشيئاً مما كان لا بد لتبليغ رسالة القرآن وفهمه فهماً صحيحاً. ومعجزة الله سبحانه وتعالى أن العرب برعوا في العلوم التي ظهرت إلى حيز الوجود بسبب الإسلام، بلغ العرب فيها أوج الكمال بذكائهم وجهودهم، وعلى سبيل المثال فإن تدوين الفقه على منهج معين جعل الأمم الأخرى متأخرة في مجال الفقه والقانون خلال قرن أو قرنين. والكتب التي ألّفت في الفقه وأصوله في مدة قصيرة كانت ومذهلة ومحيرة للعقول، مثلاً كتاب الأم للإمام الشافعي والموطأ للإمام المالك وكتاب الخراج للإمام أبي يوسف وكتاب المبسوط للإمام محمد، فهذه المؤلفات تعد من أمهات الكتب في الفقه وأصوله، وعلى نحو ذلك فإن فهم ألفاظ القرآن وتراكيبه وتعليم الأعاجم أصول اللغة الصحيحة ومنهجها التي عرفت فيما بعد باسم النحو والصرف، ففي هذه الموضوعات ألّفت كتب لا يستغني عنها الملم بعلوم النحو والصرف، مثلاً المفصل للزمخشري والكتاب للسيبويه ومعنى اللبيب لابن هشام، ونتيجة لذلك فقد ظهرت العلوم الأخرى مثل علم البلاغة والعروض والنقد، وقد بذل المسلمون مؤهلاتهم الذهنية في ترويض هذه العلوم بجانب العلوم الأخرى. ولكن يعتبر ما ألّف في هذه العلوم غير واضح، ويوجد فيه خلاف وإشكال في فهم المسائل وذلك لأسباب.

فالسبب الأول هو أنه لم تكن توجد عند العرب جذور علم النقد والبلاغة قبل الإسلام، ولم تدون هذه العلوم بعد مجئ الإسلام مباشرة. وذلك لأن أصول النقد والبلاغة تكون مبنية على الأذواق في أغلب الأحوال، وصحيح أنه لم توجد أصول النقد والبلاغة لدى العرب ولكن لغتهم كانت محكمة حتى إنهم كانوا يدركون محاسن الكلام بسهولة بسبب نبوغهم في البيان، ولهذا إذا قرئ أمامهم شعر ووجد فيه أي سقم أو

خطأ فكانوا يصلحونه مباشرة، فكأن الذوق الرفيع كان هو المقياس عندهم. وعلى هذا الأساس أدركوا إعجاز القرآن وفهموه، ويدرك معنى "إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ، إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ" قوم يفهم بلاغة الكلام فهمًا سليمًا، ولكن على مر العصور اضمحل ذوقهم شيئًا فشيئًا فحاول علماء ذلك العصر أن يرتبوا مبادئ البلاغة والنقد، فلأجل ذلك وضعوا أمامهم المبادئ والأصول الذين قد سبقوهم في تدوين أصول هذه الفنون، فالليونانيون هم الذين تقدموا في هذا المجال وطوروا العلوم والفنون على مدى قرنين وفي هذه الفترة تم تدوين مبادئ النقد والبلاغة. وقد كتب المفكر اليوناني الأخير أرسطاطاليس رسالتين في الشعر والخطابة في ضوء الأدب والشعر اليوناني، وقد تم نقل هاتين الرسالتين إلى اللغة العربية في العصر العباسي.

وعندما أراد العرب بعد القرن الثاني الهجري تدوين أصول البلاغة والنقد كان لديهم أساسان: الأول: الشعر الجاهلي، والقرآن الكريم، والأحاديث النبوية والثاني: علوم النقد والبلاغة اليونانية. فعلى هذين الأساسين بدؤوا تدوين علوم النقد والبلاغة واستفادوا في تدوينها مما كان موجودًا لدى اليونانيين من أصول النقد والبلاغة من جهة، ومن التراث العربي من جهة أخرى، ولم يخطر على بالهم أن الأصول الموضوعية في النقد والبلاغة في اليونان كانت مأخوذة من الأدب اليوناني. والمجتمع اليوناني كان مجتمعًا حرًا، لا يملك أصول القيم الأخلاقية كما وضعها الإسلام ولهذا نرى في آدابهم حرية التعبير والخيال، والأدب يكون حرًا في بيان ما يخطر بباليه بدون أي قيد من قيود الدين والقيم. ولهذا لم يكن أي أثر للدين في النقد والبلاغة عندهم بل تكمن عظمة الفن في الفن بذاته بغض النظر إلى ما يوجد فيه. ولما بدأ العرب تدوين أصول النقد العربي في ضوء أصولهم، واجهوا التعقيد والصعوبة، لوجود قيم وأصول في الدين الإسلامي أصول لا يجوز الإغماض عنها في أي حال من الأحوال. ولكن العرب لم يراعوا في تدوين أصول النقد ومحاسن الفن مبادئ الأخلاق والدين بل ركزوا عنايتهم على محاسن الكلام المروج عندهم، وكان المجتمع الجاهلي حرًا تمامًا ولهذا وصفهم القرآن الكريم كما

جاء في قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾¹ حتى وصف العرب ملكة قرض الشعر بالشيطان كأنه هو مصدر الإلهام والوحي للشاعر أو الأديب.

ومن أهداف العرب الرئيسية والتي من أجلها كتبوا في هذا الموضوع، تعريف الناس بإعجاز القرآن ومحاسنه الفنية، وما كتب حتى القرن الرابع الهجري يوجد فيه التوضيح للأصول وشرحها، فكتاب نقد الشعر لابن قدامة، وكتاب الصناعتين للعسكري، والمثل السائر لابن الأثير، وكتاب العمدة لابن رشيق القيرواني، وكتاب البديع لابن المعتز، وأسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني كتب مهمة جدًا، وبعد هذه الفترة يبدأ عصر الانحطاط والزوال للمسلمين وما كتب في هذه الفترة ركز فيها على البحوث اللفظية أكثر من الخصائص الفنية، وكتاب المطول، ومختصر المعاني مثال لذلك. وما ألف بعد هذين الكتابين كان النقل والمحاكاة للكتب التي ألفت إلى ذلك الوقت.

ومن العجب أن عالمًا هنديًا والذي لا تعتبر اللغة العربية لغته الأم، كتب في هذا الموضوع وقام بدراسة نقدية لكل ما ألف حتى عصره، ألا وهو العلامة حميد الدين الفراهي.

ويقول عنه العلامة شبلي النعماني عند استعراضه لكتابه "نظام القرآن" و"جمهرة البلاغة": "ومن المعروف أن الشخصيات الفذة لا تبقى دون ذكر كما تشهد الخبرات والتاريخ، ولكن لكل قاعدة شواذ. فشخصية العلامة حميد الدين الفراهي الذي نحن بصدد استعراض كتابه الرائع مثال لهذا الاستثناء. وقد حصل العلامة على التعليم الابتدائي حسب المنهج القديم المروج وهو الدرس النظامي ثم بدأ يتعلم الأدب من الأستاذ فيض الحسن، شارح ديوان الحماسة، وكان أستاذي أيضًا. ثم التحق بمدرسة العلوم (الجامعة الإسلامية بعلي جره) ليتعلم اللغة الإنجليزية وقد حصل من هناك على شهادة الليسانس. وحينما كان الفراهي طالبًا في المدرسة قام بترجمة كتابين من اللغة العربية إلى اللغة الفارسية على أمر من السير سيد أحمد خان في السيرة النبوية ونشر كلا الكتابين وهي من ضمن منهج الدراسات الإسلامية.

¹. سورة الشعراء: 224

وبعد تخرجه من المدرسة عين أستاذًا للغة العربية في مدرسة الإسلام بكراتشي ولا يزال يشغل نفس المنصب. وقد طبع ديوانه باللغة الفارسية. وصاحب العلامة الفراهي اللورد كرزن في رحلته على سواحل العرب، وهو الذي أعد الخطاب الذي ألقى أمام رؤساء العرب باللغة العربية. وقد يكفي حدث واحد من مثل هذه الأحداث لشهرة الفرد، ولكن العلامة لا يزال غير معروف وهذه هي رغبته¹.

وكان ارتباط العلامة الفراهي بالقرآن الكريم ارتباطًا شديدًا، وكتب العديد من الكتيبات حول علوم القرآن وأصوله بما فيها بيان إعجاز القرآن، وكتابه "جمهرة البلاغة" نموذج فريد في هذا الفن. قرأ العلامة الفراهي الشعر الجاهلي بعمق وكذلك أحاط بما كتب إلى عصره في علوم البلاغة والنقد. وكان يشعر بفصاحة كتاب الله وبلاغته بملكته اللغوية لأنه كان مطلعًا على الشعر الجاهلي والقرآن الكريم وما كتب في علوم النقد والبلاغة.

ورتب العلامة أصول علم النقد والبلاغة من الأدب الجاهلي والقرآن الكريم ثم بدأ يفحصها في ضوء كتب العلماء، فوجد التضاد في كل مرحلة حتى رغب عن كتب العلماء المتقدمين ولم ير بدءًا إلا أن قال إن علماء المسلمين قد وضعوا أسس فن الشعر والنقد والبلاغة على ضوء كتاب أرسطو، ولو كان أرسطو ولد في بلاد العرب ووضع أساس هذا الفن بعد تتبع كلام العرب لنجح، ولكنه ولد في اليونان وتربى فيها، وكان أمامه كلام اليونانيين، فكل الأصول التي وضعها لفنون النقد والبلاغة كانت مستفادة من كلام الشعراء اليونانيين، وكان أفضل نموذج في الشعر اليوناني هو أشعار هومر وسوفوكليس، وكاننا قد وضعنا أساس أشعارهما على حكايات وأساطير.

إن القاعدة الأساسية في تدوين الفنون الجميلة أن يركز على موضع الجمال الملم به عامة، ويتم تحليل أجزائه لإبراز ما يوجد فيه من الأمور، وهي التي تسمى المحاسن وتقام عليها القاعدة الكلية. تعتبر أشعار هومر وسوفوكليس في اليونان مثالية لا

¹ مجموعة المقالات للعلامة شبلي النعماني، الطبعة الخامسة، مطبعة معارف، أعظم جره،

1964م، 13/2-14

نظير لها في من حيث فصاحتها وبلاغتها. وقام أرسطو بتحليل كلامهما فوجد أن محور أشعارهما حكايات وأساطير، وأنها ليست واقعية بل أكثرها خيالية، فمن هنا جاءت الفكرة في ذهنه أن حسن الكلام هو تصوير حادثة بغض النظر عن صحتها أو عدمها، ورأى أيضًا أن الأشياء الكريمة، قبيحة المنظر إن صوّرت بعينها لكان هذا التصوير أيضًا ممتعًا. فاستنتج من هنا أن الحادثة سواء كانت حقيقية أم خيالية إن صوّرت كأنها حدثت أمام أعيننا تستحق القبول والثناء، واعتقد كذلك أنّ صفة المحاكاة توجد في الإنسان أكثر من أي حيوان آخر، فالطفل الصغير لا يفعل إلا ما يرى ويشاهد الآخرين يفعلونه، فبيان حادثة ما هي من مقتضيات فطرة الإنسان، العلم أمر مرغوب في نفسه وبيان الحادثة أيضًا علم، وعلى هذا ففن بيان الحوادث أمر مرغوب فيه. وعلى هذا الأساس فقد وضع أرسطو أصول محاسن الكلام على هذين الأمرين ورفض ما خالفهما. وقد اعترض الناس على سوفوكليس بأن ما صوّره من أخلاق الناس وعاداتهم ليست مطابقة للواقع، فأجاب سوفوكليس بأنه بيّن العادات التي يجب أن تكون ولا التي كانوا عليها، وقد اعتبر أرسطو برد سوفوكليس صحيحًا. ويقول العلامة ضمن بيان نظرية أرسطو في البلاغة أن أساس البلاغة عنده وضع على الكذب وتنميق الكلام والمبالغة ويرد عليه العلامة بقوله:

"خلق الإنسان بفطرته حيوانًا ناطقًا، والصفة الفارقة بينه وبين الحيوانات الأخرى التي تسمى في مصطلح علم المنطق الفصل هي صفة النطق، ولكن ليس المراد من هذه الصفة الصوت أو اللهجة أو الغناء فحسب لأن هذه الصفات تتواجد في الببغاء والعندليب بل أكثر من الإنسان، وإنما يراد بصفة النطق أن يستطيع التعبير عن كل ما يجول في خاطره. ووظيفة العقل التفكير والخيال الذي يتولد بالتفكير فيظهره العقل بالنطق ولذا النطق هو آلة للعقل. وأول خطأ ارتكبه أرسطاطاليس هو أنه جعل خاصية الإنسان وفضيلته الأصلية المحاكاة ولكن هذه الخاصية ليست المحاكاة بل هي صفة النطق. والمحاكاة أيضًا هي نتيجة النطق. ولما لم توجد صفة النطق في الإنسان لم توجد صفة المحاكاة أيضًا، وينحصر كمال

النطق على أمرين وهما أن تعبر الخيالات والمعاني بدقة وأن يكون صحيحة وجميلة. والشرط الثاني ليس بضروري عند أرسطاطاليس ومتبعيه. ووظيفة النطق عندهم هي أداء المعنى بعينه سواء كان المعنى جميلاً أم قبيحاً. وذكر قدامة بن جعفر في كتابه "نقد الشعر" لو جاء في بيت من اللهو واللغو فلا يؤثر ذلك المعنى في جمال الشعر لأن المقصود هو طريقة أداء ذلك المعنى بجودة".

ويقول في موضع:

"يزعم عامة الناس أن حسن الشعر يكمن في استخدام التشبيهات والاستعارات ويعتبر مواعظ عيسى عليه السلام نوعاً من الشعر لأنها مليئة بالتشبيهات ولكن هذا الرأي ليس بصحيح. لأن أصل روح الشعر هو أن يكون سريع الانفعال وموسيقى الطبع ولما أثرت فيه ميزته الخاصة فتحركت ميزاته الأخرى من الغناء والوزن والرقص. حينما يغلب نعم الله على داود عليه السلام فإنه جعل يرقص وكان كلامه كله شعر يخرج من قلبه عفواً، ولهذا سمي أشعاره مزامير بالرغم من كلام عيسى عليه السلام لأن في كلامه لا يوجد العاطفة الشعرية بل يغلب عليه الحكمة. وقد ارتكب أرسطاطاليس خطأ كبيراً في هذا البحث حيث يقول: إن الإنسان يرقص ويغني عند قرض الشعر وذلك لأن الرقص والغناء نوع من المحاكاة ومعنى ذلك أن العواطف التي تنشأ في قلب الإنسان فهو يصورها بالصوت والحركات، فالشخص الذي يغني عند الرقص فهو يبين بحركاته ما يغني ولكن هذا الرأي ليس بصحيح. والحقيقة هي أن العواطف الإنسانية مثل الحزن والفرح والتعجب والشوق والكراهية تخلق في قلب الإنسان الهزة الشديدة فهي التي تخرج في صورة الصوت أو الغناء أو الرقص أو الطرب. مثلاً عندما يضحك الإنسان فتنشأ الحركة في قلبه وتكون هذه الحركة الضحك لأن هذه الآثار تشبه بالحركات النفسية وتدل على ما يجول في نفس الإنسان من الخواطر كما تدل الألفاظ على المعاني".

وقد ناقش العلامة الفراهي في كتابه فلسفة الكلمات ومعانيها وهيئتها بالتفصيل، وفي ذلك السياق أفاض الكلام حول الاستعارة والكناية والتشبيه وقام بتدوين

أصول البلاغة وتفرد بها إلى حد ما عن العلماء الآخرين في هذا المجال. ويقول العلامة في موضع:

"الكلام الذي يتكلم الإنسان بلسانه فقد يكون إما بدافع العواطف أو العقل أو الروح ولكل منها أسلوب يتناسب الكلام به حسب المقتضى، فأسلوب يثير العواطف يختلف من الأسلوب الذي يستخدم لإيقاع الأثر في الذهن والعقل، وكذلك يتناسب الأسلوب الآخر من أجل اقناع الآخرين على أمر. ويختلف أسلوب الوجدان عن سابقيه، وفي هذه الأساليب تظهر مهارة الخطيب أو الشاعر لأن تعريف البلاغة هو أن يكون الكلام موافق لمقتضى الحال".¹

ولذلك نرى أن العلامة الفراهي قد أوضح الفرق بين النثر البليغ والشعر البليغ بطريقة علمية. فيقول إن أغراض الشعر وأهدافه تختلف تمامًا عن أغراض النثر، ولذا فإن كل نوع من الكلام يختلف عن الآخر، ولو تم خلطهما، كان من المستحيل التفريق بينهما. وقد تكلم العلامة في الألفاظ بالتفصيل وقال إن الاستعارات والتشبيهات فقط ليست ضرورية لجعل الكلام بليغًا، بل الأفكار والمعاني التي تقدمها الألفاظ لا تكون أقل أهمية من الاستعارة والكناية، وإن هدف التشبيه والكناية هو تجسيد المشاعر والأحاسيس التي لا تدرك بالبصر، فنراها من خلال التشبيه ترقص وتتكلم على القرطاس وفي الفضاء. واستدل على هذا الأمر من أبيات الشاعر الأموي نصيب:

كأن القلب ليلة قيل يغدي	بليلى العامرية أو يـراح
قطاة عزها شرك فباتت	تجاذبه وقد علق الجناح
لها فرخان قد تركا بوكر	فعضهما تصفقه الرياح
إذا سمعا هبوب الريح نصّا	وقد أودي به القدر المتاح
فلا في الليل نالت ما ترجى	ولا في الصبح كان لها براح ²

¹. جهرة البلاغة، ص: 21.

². جمهرة البلاغة، ص: 44-45.

العدد الخاص مجلة الهند

إن ما بينه العلامة في كتابه المختصر من أصول البلاغة والنقد يعتبر عصارة آرائه النقدية والأدبية، وقد أوجز العلامة الكلام في تناول هذه القضايا بل لو وجدت كلمة أخرى أدق من الإيجاز لجاز إطلاقها على كتاباته، وقد اكتفى أحياناً فقط بالإشارة إلى القضايا المهمة بالرغم من أنها تحتاج التفصيل والإيضاح، وكأنه يظن القارئ لكتاباته أيضاً يتمتع بالثقافة الواسعة مثله عن هذه العلوم. وكان العلامة الفراهي أستاذاً بارعاً ومعلماً نابغاً ويريد أن يكون مدرسو مؤلفاته بارعين مثله في هذه العلوم، وعلى كل حال هذه هي طريقته. ومن المناسب الإشارة أشير إلى بعض آرائه.

ويرى العلامة الفراهي أن علماء النقد والبلاغة من المسلمين قلدوا علماء العجم، فتوجد أمثلة عند علماء العرب مثلاً عبد القاهر الجرجاني وقدامة بن جعفر، ولكنه استثنى من هذا الجاحظ مرات عديدة في كتابه واعتبره ناقداً وماهراً للبلاغة بمعناه الصحيح، وأرى أن هناك علماء آخرين غير الذين أسهموا في هذه العلوم وأبدوا آراءهم في هذا الصدد كما فعل ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة وأبو الهلال العسكري في كتابه كتاب الصناعتين وابن المعتز في كتابه كتاب البديع والآمدي في كتابه الموازنة والجرجاني في كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه وابن الأثير في كتابه المثل السائر وأبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني، وهذه الآراء تدل على عروبتهم ولم يظهر في أذواقهم النقدية أثر أعجمي.

وكتب العلامة شبلي في 1324هـ مقالاً عن ابن الأثير في مجلة الندوة، الصادرة من ندوة العلماء بلقناؤ، يقول فيه: من العلوم التي أوجدها المسلمون بأنفسهم علم البلاغة، وقد يزعم كثير من الناس وقد اعتقدت كذلك لفترة طويلة، أنهم أخذوا هذا العلم من اليونانيين، وقد ذكر ابن الأثير في كتابه المثل السائر أن ما ألفه اليونانيون في علم البلاغة قد تمت ترجمته إلى اللغة العربية، ولا أعلم عنها، وأنا لا أقلدهم في النقاط التي أضيفت إلى علم البلاغة بل أعتبر نفسي مجتهداً. وقد برأ ابن الأثير نفسه من تهمة تقليد اليونانيين ولكن العبارة تثبت أن هذا الفن قد وفد من اليونان".¹

¹. مجموعة المقالات للعلامة شبلي النعماني، 4/2

وقد ذكر العلامة في كتابه جمهرة البلاغة أسماء العلماء المتقدمين مثل الجاحظ وابن قدامة وعبد القاهر الجرجاني في مواضع مختلفة، ويظهر أن العلامة تأثر بآراء الجاحظ في فن البلاغة، بل يقول إن الجاحظ هو الوحيد من المتقدمين والذي حاول تقديم فن البلاغة حسب ذوق العرب وأفكارهم، ورأيه هذا في الجاحظ له أهمية كبيرة، وقد اعترف العلماء في كل عصر بمساهمة الجاحظ الأدبية والعلمية. وحظي الجاحظ المقام الأول من بين الأدباء المتأخرين الذين يذكر نثرهم كنماذج، وقد ذكر العلامة الفراهي في كتابه بعد الجاحظ قدامة بن جعفر في عدة مواضع، وشخصيته مأخوذ عليها عنده، حيث يعتبره أول شخص قام بنقل فن البلاغة اليوناني إلى العربية ورتب أصوله بعينها في اللغة العربية. فشوه بفعله هذا فن البلاغة من جهة، وحاول تحويل طبيعة اللغة العربية إلى العجمية من جهة أخرى. وإن كان قد نجح في محاولته لكان هذا بمثابة كارثة كبيرة في تاريخ اللغة العربية وآدابها، إن نقد العلامة لابن قدامة مبني على الحقيقة.

وعندما نطالع كتب علماء النقد والبلاغة الآخرين نجد أنهم جميعًا لم يأخذوا برأيه وهذا من حسن حظ اللغة العربية أن آراء قدامة بن جعفر لم تستمر إلا مع حياته، ولم تتأثر اللغة العربية بها في أي عصر من العصور، وقد رتب الأمدي كتابًا حول أخطاء قدامة بن جعفر وسمّاه "تبين غلط قدامة بن جعفر في كتاب نقد الشعر"، ومكانة الأمدي معروفة في تاريخ النقد والبلاغة حيث استفاد العلماء المتأخرون بكتابه "الموازنة" في تدوين أصول علم البلاغة والنقد، وقد تحدث الأمدي عن البحري وأبي تمام بالتفصيل وكذلك ذكر آراءه في اللغة والأدب أيضًا.

وقد ذكر العلامة الفراهي بعد قدامة بن جعفر، عبد القاهر الجرجاني وقد قرأ كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز بدقة وعمق وانتقدهما في كتابه جمهرة البلاغة. وكذلك انتقد العلامة الفراهي رأي عبد القاهر الجرجاني بكون الأصل في الأدب هو المعنى والفكرة ولا أهمية للألفاظ، ويرى العلامة أنه يوجد ترابط عميق بين اللفظ والمعنى وإذا زال هذا الربط بينهما فقدت اللغة مكانتها الأدبية. إن رأي عبد

القاهر الجرجاني الذي ذكره الفراهي قد قدم في العصر الذي انحرف فيه النثر العربي من مركزه ومحوره، وانتشر استخدام الصنائع والبدايع في الكلام حتى بدأت تعتبر فئة من الناس الكلام الصحيح السهل خارجًا عن نطاق الأدب، وكادت اللغة تفقد حياتها في شباك الكلمات المنمقة من لغة المقامات والرسائل، فحاول عبد القاهر الجرجاني إخراج اللغة من هذه الورطة ومهد لها طريقة سهلة وسليمة. ويدل عليه ما ذكر في كتابيه من نماذج من كلام الأدباء الذين يتبعون الأسلوب السهل السليم في الكتابة، وعلى سبيل المثال الجاحظ فإنه لم يعترف ببلاغة الجاحظ ومنهجه العلمي فحسب بل دعا إلى اتباع أسلوبه. وقد قدم عبد القاهر الجرجاني في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز نماذج من كلام الجاحظ وتكلم عن أهمية اللفظ في مواضع عديدة بالتفصيل. ويرى أنه لو استخدم الألفاظ السهلة بدل الألفاظ الصعبة والتراكيب البسيطة والمتداولة بدل التراكيب الصعبة والمهملة لأصبح الكلام فصيحًا وبليغًا. ولو اعتنى الأديب من أجل جعل الكلام فصيحًا بالفصل والوصل، والتقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب، والاستعارة والتشبيه لكان الكلام أكثر فصاحة. كما قال الدكتور محمد مندور: "لأن علماء البلاغة بعد عبد القاهر قد اقتفوا أثره وتعلموا على ما كتبه ونهجوا نهجه، ولخصوا كتابيه بما فيه ما من أثر عظيم له ريادته في فن البلاغة".

وعلى كل حال فقد ظهر من موضوعات البلاغة والنقد واللغة التي تناولها العلامة الفراهي بالبحث أنه يمتلك ملكة فريدة في هذه الفنون، وكذلك يتجلى حبه لإعجاز كتاب الله وبلاغته، ولو وفرت له أمهات الكتب في النقد والبلاغة نحو كتاب الصناعتين، وكتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني، والمثل السائر لابن الأثير، ورسائل عديدة للجاحظ التي لا تزال مخطوطة لكان كتابه هذا منفردًا في هذا الفن، ومع ذلك يتضح بعد قراءة هذا الكتاب أن هذه الإشارات فتحت أبوابًا للنقد والبلاغة ولا تزال تفتح، وهذا هو الدليل على كفاءة المؤلف العظيم.

العدد الخاص.....مجلة الهند

ومن العجب أن هذا الكتاب رتب في العقد الأول من هذا القرن، وكان منهج تدريس النقد والبلاغة في الهند قد أصبح ضعيفاً جداً في ذلك الوقت، ويكتفى بتدريس بعض الأبواب من كتاب "مختصر المعاني" وكتاب "تلخيص" المفتاح، وأما ما يتعلق بالتأليف فقد ألف بعض الكتب حول هذا الفن ولكنها كلها كانت محاكاة وتقليداً لعلماء النقد والبلاغة في عهد الزوال أو بعض الحواشي على الكتب، وأعجب من هذا أن تدريس علم البلاغة والنقد والتأليف والتدوين في العالم العربي لم يكن بأحسن حالاً من العلماء الهنود، كان جامع الأزهر مركزاً للتعليم العالي، ولكننا لا نجد أي ذوق أو محاولة علمية أو أدبية تذكر هناك أيضاً.

وفي رأيي أن هذا الكتاب أول تأليف باللغة العربية حول هذا الموضوع، والذي لا يعتبر فخراً للعلامة حميد الدين الفراهي فحسب، بل لجميع علماء شبه القارة الهندية.

جمهرة البلاغة

- د. أحمد مطلوب¹

(1)

عُني القدماء عناية فائقة بالبلاغة العربية، وكانت تلك العناية مبكرة، ظهرت بذورها الأولى في كتاب سيبويه، ومجاز القرآن لأبي عبيدة، ومعاني القرآن للفراء. وأعطت تلك البذور نباتاً طيباً، ظهر في قواعد الشعر لثعلب، والبديع لابن المعتز الذي يُعدّ رائداً في التأليف البلاغي. وتوالى التأليفُ في البلاغة، وظهرت كتب كثيرة منها: نقد الشعر لقدامة بن جعفر، وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، والعمدة لابن رشيق، وأسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، والجامع الكبير لضياء الدين بن الأثير، والبرهان، والتبيان لابن الرّمْلَكاني، ونهاية الإيجاز لفخر الدين الرازي، وبديع القرآن وتحرير التحبير للمصري.

وكانت هذه الكتبُ تتخذ عدة طرق في التصنيف، وكانت المَسَحَةُ الأدبيةُ تُلَوِّنُهَا بألوان زاهية، وإشراف ناصعة، تحبُّبُ البلاغة، وتجعلُ الدارسين يُقَدِّمون عليها.

ولم تبق البلاغة حرة في التَّقْسِيم والعرض، فقد ظهر في القرن السادس للهجرة في خوارزم عالم هو السكاكي المتوفى سنة (626هـ) للهجرة الذي ألف كتاب "مفتاح العلوم" وخصَّ القسم الثالث منه بالبلاغة التي قَسَّمَهَا إلى علم المعاني، وعلم البيان، ووجوه يُؤْتَى بها لتحسين الكلام، وهي التي أطلق عليها بدرُ الدين بن مالك (686هـ) في كتابه "المصباح" اسم "البديع".

وسيطر المنهجُ السكاكيُّ على دراسة البلاغة، وأول من تأثر به بدر الدين بن مالك، ثم تلاه الخطيب القزويني (-739هـ) في كتابيه "التلخيص" و"الإيضاح". وتوالى

¹ عضو المجمع العلمي العراقي وأمينه العام، بغداد\

العدد الخاص مجلة الهند

الشروح والتلخيصات، وكان سعد الدين التفتازاني، والسبكي، وابن يعقوب المغربي، وغيرهم من أعلامها.

وحيثما أطلَّ القرنُ العشرونَ الميلادي نَهَدَ بعض المؤلفين ووضِعوا كتبًا بلاغية لم تخرج عما اختطَّه السكاكي في "مفتاح العلوم". وحاول المتأخرون أن يضعوا منهجًا جديدًا ولكن لم تتضح السبيل، ولم يأتوا بما يجعل البلاغة قريبةً إلى النفوس على الرغم مما قام به المرحوم أمين الخولي صاحب "فن القول" من رسم منهج جديد لم يطبق حتى اليوم.

وكرثت الدراسات، وتنوّعت الاجتهادات حتى إذا وصلت الأسلوبية بمعناها الغربي تمسك بها بعضهم، ودعا إلى هجر البلاغة العربية والأخذ بالأسلوبية التي هي الوريث الشرعي للبلاغة كما يقول الدكتور عبد السلام المسدي ومَن شايعه من المهوورين الذين انتهوا إلى تقسيم كتبهم الأسلوبية إلى مستويات ثلاثة هي: المستوى الصوتي، والمستوى التركيبي، والمستوى الدلالي، وما هذا إلا التقسيم الثلاثي للبلاغة العربية التي حصرها السكاكي في ثلاثة علوم هي: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع.

ولا يزال الباحثون والدارسون يُجربون، ولا يزال بعضهم يُنادي بالبلاغة الجديدة التي نادى بها الغربيون في الثلث الأخير من القرن العشرين، ولم تثمر تلك المناداة حتى اليوم بما يطمئن إليه الدرسُ البلاغي وتهشّ له النفوس.

ولم يقف أمر البلاغة عند هذا الحد، بل أسهم قوم في البحث خدمةً للقرآن الكريم في غير أرض العرب، ومنهم عبد الحميد الفراهي الذي دعا إلى الأخذ ببلاغة العرب لا بلاغة العجم، في كتابه "جمهرة البلاغة" الذي طبع سنة 1340هـ في (أعظم كره) بالهند ونفدت نسخه قبل أن يصل إلى البلاد العربية.

ومؤلف الكتاب هو عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان بن قنبر بن تاج علي حميد الدين أبو أحمد الأنصاري الفراهي نسبة إلى القرية التي وُلِدَ فيها (فراه)، وكانت أسرته قد هاجرت من المدينة المنورة إلى أفغانستان، وأقامت زمناً في (فراه)

فلما نزلت إلى الهند، ونزلت في هذه القرية، سمّيت باسم موطنها، وتحرفت على ألسنة الناس إلى (فريها).

ولد صباح الأربعاء في السادس من جمادى الآخرة سنة (1280هـ) في أسرة عُدَّت من أعيان المنطقة ووجهائها، وتلقى التعليم الإسلامي بقراءة القرآن الكريم، ثم عكف على تعلم اللغة العربية وهو ابن أربع عشرة سنة وبرَّزَ فيها، حتى إذا ما أتقنها توجه نحو اللغة الإنكليزية، وهو ابن عشرين سنة والتحق بعد إكماله الثانوية بكلية (عليكره). واعتنى في أثناء دراسته بالفلسفة الحديثة والعلوم العصرية وتولَّى بعد إكمال دراسته تدريس اللغتين: العربية والفارسية في مدرسة الإسلام بمدينة كراچی، وكلية عليكره، وجامعة الله آباد، واختارته حكومة حيدر آباد عميداً لدار العلوم، وكان أحد المؤسسين للجامعة العثمانية بحيدر آباد، وهو الذي اقترح أن يكون تدريس العلوم الشرعية باللغة العربية، والعلوم العصرية بالأردية، فوافق المسؤولون على المقترح الثاني وأهملوا المقترح الأول.

مكث في حيدر آباد إلى سنة 1337هـ ثم استقال من منصبه، وعاد إلى وطنه، وهو بين خمسين وستين من عمره، وتولى إدارة مدرسة إصلاح المسلمين في بلدة (سراي مير)؛ وظل عاكفاً على التدريس والتأليف حتى توفاه الله وهو يتلو القرآن الكريم في التاسع عشر من جمادى الآخرة سنة 1349هـ، على إثر عملية جراحية أجراها طبيبه الخاص في مدينة (مثورا) ودُفن فيها، تاركاً عدة كتب إسلامية تشهد له بالعلم الواسع، والثقافة الأصيلة، والإحاطة بالتراث العربي والإسلامي.

وقد أثنى العلماء على أخلاقه الإسلامية، ودفاعه عن الإسلام، وردَّ شبهات المستشرقين، وتحدثوا عن زهده بعد أن نذر نفسه لخدمة الإسلام، ولغة القرآن الكريم؛ وقد عبَّرت إحدى رباعياته عن ذلك فقال مُحذِّراً نفسه: "الجاهل مشغول بالبحث عن لذيذ المأكّل، والعاقل مصروف همه إلى نيل الصيِّت والسمعة، أما أنت أيها الفراهي فاجتنب الاثنين، فيوشك أن ترى كليهما قد نشبت حلوقهما في

الحبالة" (تنظر ترجمة حياته في كتاب مفردات القرآن للفراهي، تحقيق: الدكتور محمد أجمل محمد أيوب الإصلاحي- السعودية).

(2)

ترك الفراهي عدة كتب في علوم القرآن وتفسيره، وكان منها "جمهرة البلاغة" الذي قال عنه الإصلاحي: "جمهرة البلاغة الذي نقض فيه الأساس الذي يقوم عليه فن البلاغة عند أرساطاليس، وهو نظرية المحاكاة. ويرى الفراهي أن فن البلاغة العربية تأثر بهذه النظرية فجار عن قصد السبيل. وانتقد في ذلك الإمام عبد القاهر الجرجاني مع اعترافه بجلالته، ودعا إلى تأسيس فن البلاغة على أسس منبثقة من القرآن الكريم وكلام العرب الأقياح" (مفردات القرآن، المصدر نفسه، ص 26).

وقد أعجب بهذا الكتاب شبلي النعماني ولخص بعض مباحثه المهمة ولا سيما نظرية المحاكاة، ونشرها في (مجلة الندوة) التي كان يصدرها باللغة الأردنية. وقد نشر الكتاب بعد وفاة مؤلفه، قال الإصلاحي: "ونقد قبل أن يصل إلى البلاد العربية ليأخذ مكانه من البحث والنقاش، فهو فريد في تأريخ البلاغة العربية" (المصدر نفسه، ص 26).

إن كتاب "جمهرة البلاغة" فريد حقاً؛ لأن مؤلفه بناه على غير ما بُنيت كتب البلاغة العربية إذ جعله قسمين:

الأول: القسم العمومي.

الثاني: القسم الخاص.

وألحق بهما مباحث متفرقة، لما ندد عن هذين القسمين.

بدأ الفراهي كتابه بمقدمة موجزة قال فيها: "سبحان الذي فضّل بني آدم على سائر الخلائق فجعله الحي الناطق، كما فضّل محمداً على سائر بني آدم فأعطاه أبلغ الكلم. فلنشكرن ربنا الرحمن بداية على أن علّمنا البيان ونهاية على أن نزل

علينا القرآن. ولا شكر لمن جهل بالنعمة فضيَّعها أو حَوَّلها فأخطأ موضعها، فوجب علينا أن نعرف أسرار البيان وفضائله كما وجب علينا أن نعرف إعجاز القرآن ودلائله لنستكمل من فطرتنا عنصرها، ونستقي من عيون الوحي كوثرها، وها أنا أشرع في المقصود". (جمهرة البلاغة، ص1).

وانطلق الفراهي بعد هذه المقدمة ليقول: "إنَّ البيان كالظل والأثر للنطق الذي هو مَقْوَمٌ للإنسان، كما أنَّ النطق ظل من الوحي الأعلى وكلمة الله العليا. فالبحث عن أوليات علم البيان يجلبنا إلى الحكمة الإلهية" (المصدر نفسه، ص1). وهذا فهم جديد للبيان أراد به المؤلف أن يُبيِّن الفرق بين "تعاطينا العلوم لا سيما هذا العلم وبين تعرض الأمم الآخر له، فإنهم نظروا إليه من نظر دني دنياوي فنالتهم غوائلها، وأبعدهم عن الحق باطلها، فتراكمت عليهم ظلمات بعضها فوق بعض". ولكن كيف يُعرف الكلام الحسن؟ يرى المؤلف أن في ذلك صعوبة على الرغم من أنَّ الناس اتفقوا على "أنَّ في الكلام حسناً وقبيحاً، وعالياً وسافلاً" ولكنهم "اختلفوا على تعيين موضع الحسن وتفضيل بعض الكلام على بعض، حتى أن أبصر الناس بالنقد يخالف من هو ليس دونه، وهكذا العادة في كل لذيذ مرغوب؛ لأن أكثر الأشياء المستحسنة غير بسيطة، وأسباب الحسن فيه غير واحد" (المصدر نفسه، ص2) ومن هنا تختلف الأحكام النقدية (فمع أنَّ للكلام حسناً وعلوًا تدعن لها الأذواق صعب سبيل النقد والتميز، وأهمت معرفة كنه الحسن وسر البلاغة حتى أنك ترى شعراً أو نثراً يروق أكثر الناقدين وعامة أهل الذوق، ولكن إذا سألتهم عن وجه الحسن اختلفت كلمتهم كما إذا سمعوا صوتاً أو شموا طيباً فسألتهم من أي جهة جاءكم هذا اختلفوا في جوابهم" (المصدر نفسه، ص3).

وهذا ما كان السابقون يقولون به كعبد القاهر الجرجاني الذي ذهب إلى أنَّ إدراك البلاغة يكون بالذوق وإحساس النفس، وهذا صعب المنال يقول: "فليس الداء فيه بالهين، ولا هو بحيث إذا رُمِّت العلاج منه وجدت الإمكان فيه مع كل أحد مُسْعِفاً والسعي منجحاً، لأن المزايا التي تحتاج أن تعلمهم مكانها، وتصور لهم شأنها أمور

خفية ومعاني روحانية أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها، وتحدث له علمًا بها حتى يكون مُهيئًا لإدراكها، وتكون له طبيعة قابلة لها، ويكون له ذوق وقريحة يجد لهما في نفسه إحساسًا" (دلائل الإعجاز، ص 547- طبعة محمود محمد شاكر).

وأقرب من هذا إلى ما ذهب إليه الفراهي قول السكاكي وهو يتكلم على إعجاز القرآن الكريم. يقول: "واعلم أنّ شأن الإعجاز عجيب يُدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تُدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحاة. ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين - المعاني والبيان" (مفتاح العلوم، ص 196- طبعة 1937م).

وانتقد الفراهي البلاغيين الذين ذهبوا مذهب العجم، ولو أنّهم "استقصوا كلام العرب واقتفوا آثار المحاسن فيه، وقيدوها بالحدود، ونظموها في ترتيب حتى يصير لهم ميزان ومحك لمعرفة محاسن الكلام، ثم نظروا في براعة القرآن ونظمه المعجز لكانوا أقرب إلى معرفته - أي إعجاز القرآن- ولكنهم لم يأخذوا من العرب ولا من كلامهم فإِنَّهم أثرت فيهم علوم العجم كما خالطهم سجاياهم إلا الأولين منهم كالجاحظ فإنه لا يبعد عن سنن العرب كبعد صاحب "دلائل الإعجاز"، ولم يبعد هذا إلا لقلّة ممارسته بكلام العرب الخالص. فلو تيسر له ذلك عرف منزلتهم في هذه الصناعة واعترف بفضلهم على المولدين وقال بقول الجاحظ: "لم أجد في خطب السلف الطيب، والأعراب الأقحاح ألفاظًا منحولة. ولا معاني مدخولة، ولا طبعًا رديًا، ولا قولًا مستكرها، وأكثر ما نجد ذلك في خطب المولدين البلديين المتكلفين ومن أهل الصنعة المتأدبين، وسواء كان ذلك على جهة الارتجال والاقتضاب، أو كان من نتاج التحيز والتفكر". فلما تركوا منهج كلام العرب صار أهم شيء عندهم البديع ومطمح نظرهم التشبيه، وعند الأول أولهما منكر، والثاني غير مهم لذاته" (المصدر نفسه، ص 3). وهذا إسراف في الحكم على بلاغة عبد القاهر الجرجاني التي لم تكن أعجمية كما قال الفراهي، وإنما هي قرآنية، فضلًا عن أنّ عبد القاهر لم يكن جاهلاً بكلام العرب نحوًا وأسلوبًا، وهو النحوي الذي ترك كثيرًا من الكتب في

بلاغة القرآن، والنحو، والصرف والعروض وغيرها (تنظر كتبه في عبد القاهر الجرجاني - بلاغته ونقده للدكتور أحمد مطلوب، ص 25-47).

هذا موقفه مما سمّاه (بلاغة العجم) فما موقفه من بلاغة العرب؟ يقول: "فاعلم أنه ليس أنَّ العرب أعطوا البلاغة، ولم يعطوا تمييزاً بين محاسن الكلام ومساويه، وانتباهاً لمواضع الجودة والرداءة فيه، فإنَّهم كانوا يُباهون ببراعة الكلام، ويحكمون بينهم مَنْ كان أبصرهم بنقده" ثم يقول "إنَّ سبيلهم في نقد الكلام لم يكن كسبيل صاحب (أسرار البلاغة) وهو القدوة للذين جاءوا من بعده فاتَّبِعُوا خطواته فكان سبيله سداً بينهم وبين العرب. فلو التزموا كلام العرب ولم يلتفتوا إلى أصول مَهْدَها المبعدون، لكان خيراً لهم، وكانوا أقرب إلى معرفة إعجاز القرآن من طريق الذوق، وإن لم يكونوا من طريق الصناعة" (المصدر نفسه، ص4).

وجرّه هذا إلى نقد نظرية المحاكاة التي نادى بها أرسطو، وقال: "فلو قال: إنَّ الشعر بل كل كلام ونغم جنسه الأعلى تصوير لكان أقرب، إذ ليس بين المحاكاة والتصوير إلا فرق يسير، ولكنه أبعد عن الصواب خطؤه في غاية الشعر ومادته ومبدئه. وكان مثار خطئه كلام قومه واستعمالهم إياه. ولو بحث عن أمر الشعر على طريق الفلسفة، ونظر فيه من جهة العلل التي ألحَّ على البحث عنها فيما بعد الطبيعة وردَّ فيه على الحكماء الأقدمين لم يَخْفَ عليه الصواب بعد الاقتراب ولم يلتبس عليه غاية الشعر" (المصدر نفسه، ص4-5). وذلك لأنَّ أرسطو يزعم مرة أنها الأثر والإطراب، ويزعم مرة أخرى أنها القصة، ولعل سبب ذلك أنَّ "كتابه على الشعر بداية ريعان حكمته" (المصدر نفسه، ص5) ورأى أنَّ الأولى الصفح عن باطله لولا أنَّ العلماء المسلمين حينما ألَّفوا في البلاغة أذعنوا له فيما مَهَّدَه. ولو نظر الرجل في كلام العرب لأصاب الحقَّ، ولكنه "نظر في كلام قومه فبنى فن نقد الشعر حسب ما وجد في أحسن كلامهم" الذي كان الشعر منه قصصاً وحكايات مكذوبة مثل نظم هومروس وسوفاكليس وغيرهما، فأمعن فيها لاستنباط أصول النقد ومناط المحاسن "وهذا هو الطريق فإن المحاسن توجد أولاً، ثم أهل النظر يستخرجون منها

الأصول" أي أنَّ أصول البلاغة والنقد تُستنبط من الكلام الذي يُدرس لا كلام لغة أخرى، وهذا ما جعل أرسطو يستنبط تلك الأصول لأنه رأى غالب صفة الكلام المستحسن عند اليونان قصة وحكاية عن الوقائع، ودفعه إلى ذلك أمران:

الأول: أنَّ الإنسان حاكية بالطبع أكثر من سائر الحيوان، فهذه الصفة أنسب بطبعه، وأحبها إليه.

الثاني: أنَّ العلم مرغوب بالطبع، وحكاية الشيء تُخبر عن المحكي عنه، فلذلك هي محبوبة.

ولهذا تَمَسَّكَ أرسطو بالمحاكاة وتعصَّب لها، ورَدَّ كل امرئ رأى خلافه، ولما كان جل أشعار اليونان "للتلذذ والتلهي في محافل المسامرة ونادي اللهو بحكايات مضحكة أو مبكية، لم يجد لمحاسن الأشعار غاية إلا الإطراب فقال: إن يكن الصدق لا يطرب فينبغي للشاعر أن يزيد أو ينقص. ولم يكن في هذا الرأي بدعًا في قومه فإنه ظن كما ظنوا فإن اسم الشاعر عندهم (المختلق) الذي يصنع الحكايات والقصص لإطراب السامعين" (المصدر نفسه، ص 6).

ولما رأى البلاغيون العرب أنَّ أرسطو أسَّس الأمر على مهارة الاختلاق "سبق إلى ظن بعضهم أنَّ أحسن الشعر أكذبه، وإذ ليس في أشعار العرب من أمر القصة والحكاية إلا التشبيه ظنوا أنَّ الغلو في التشبيه من المحاسن. وكما أن المحاكاة صارت عمود الرجاحة عند أرسطو فكذلك صار التمثيل والتشبيه الذي يشابه القصة عندهم قطب البلاغة. ثم أنهم وافقوه في عين هذا الرأي فإنه قال في محاسن الكلام: "إنَّ أعلى كمال البليغ أنَّ يكون حاذقًا في استعمال التشبيه" وقال صاحب (أسرار البلاغة): "كأنَّ جَلَّ محاسن الكلام إنَّ لم نقل كلها متفرعة عنها أنواع التشبيه وراجعة إليها". وأدَّى هذا القول إلى أن "المتكلمين من المؤلِّدين عكفوا عليه، فغاب عنهم ما كان للعرب من سِحْرِ الكلام وإعجازه" ونظروا إلى الاستعارة التي هي مبالغة في التشبيه هذه النظرة "فغلب على ظنهم أنَّ الحسن

أميل إلى الكذب" (المصدر نفسه، ص7) واستدرك الفراهي قائلاً: "وإنّا لا ننكر محاسن التشبيه وأنواعه، ولكننا نجعله متفرعاً عن أصل غير التشبيه، وأساسه الصدق، خلاف ما سمعت من مذهب أرسطو وأمثاله".

لقد ذهب الفراهي بعيداً في هذا التصور؛ لأنّ العرب لم يأخذوا مفهوم التشبيه والاستعارة من نظرية المحاكاة التي قال بها أرسطو، إذ هذان الفنان معروفاً الأهمية في كلام العرب، ولا سيما التشبيه الذي قال عنه المبرد: "والتشبيه جارٍ كثير في الكلام – أعني كلام العرب- حتى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم لم يبعد" (الكامل، 818/3- طبعة زكي مبارك)، وتكلم عليه، وأشار إلى أنواعه، وإلى ما يحسن منه، وما لا يحسن في عدة مواضع من كتابه (المصدر نفسه، 740/2 وغيرها). ومثل ذلك الاستعارة التي لم يكن مفهومها بعيداً عن مدارك العرب، بل إن غرابة التصور والخيال من محاسن أشعار العرب، ألم يستحسن حسان بن ثابت عبارة ابنه في التشبيه قبل أن يؤلف العرب في البلاغة، ويطلعوا على كتابي "الشعر" و"الخطابة" لأرسطو، فقد رجع عبد الرحمن إلى أبيه حسان يبكي ويقول: "السعني طائر" فقال حسان: "صِفْهُ يا بُنَيَّ" فقال: "كأنه ملتف في بردي حبرة" وكان قد لَسَعَهُ زنبور، فقال حسان: "قال ابني الشعر وربّ الكعبة". أليس في هذا ما يدل على بُعْدِ الخيال والاستعداد لقول الشعر والتصوير؟ فالغلو في التصوير مذهب معروف في الشعر العربي القديم، وإن التصوير البعيد ليس غريباً، وهو ليس كذباً، وإن كان بعضهم يميل إلى عرض الحقيقة كما هي، وقال إنّ "أَحْسَنَ الشعر أصدقُه".

ويعود الفراهي إلى المحاكاة ويرجعها إلى النطق لأنّ "الإنسان في فطرته ناطق" ولذلك "فإن النطق هو الفصل المقوم له لا المحاكاة كما زعم أرسطو" (المصدر نفسه، ص8) وكان قد قال في أول الكتاب: "إنّ البيان كالظل والأثر للنطق الذي هو مُقَوِّم للإنسان" (المصدر نفسه، ص1) والنطق "مُودَع في فطرته – أي الطفل- وكل قوة تلتبس الوسيلة للعمل". ويمضي الفراهي في إيضاح ذلك مؤكداً فهمه ورأيه في المحاكاة، وربط البيان بالنطق الذي هو "زهرة تخرج من كمال الفهم وصلاح البنية"

(المصدر نفسه، ص9) ولو "لم يكن النطق في الإنسان لما استطاع المحاكاة"، وقوة النطق هي العلة الفاعلية وأما "المعاني ثم الألفاظ فهما المادة، فالنطق يأخذ المعاني ويلبسها ألفاظاً سواء مما ابتدعها، أو مما تعلمها الإنسان بوسيلة المحاكاة".

هذا موقف الفراهي من المحاكاة التي شغلت أرسطو والفلاسفة المسلمين والمعاصرين، وهو رأي ينبثق من فهمه للكلام الذي لا يريدُه تقليدًا أو محاكاة للواقع لئلا يؤخذ الطيب والخبيث، وهو ما لا يؤمن به من يربط الكلام عامة والشعر خاصة بالأخلاق. ويتضح هذا في قوله: "اعلم أنَّ حسن البلاغ وكماله يحتوي حسن ما يبلغه من الصُّور والمعاني وهو أولى باللحاظ فلا نقيم وزنًا للكلام أبلغ بكمال الصحة شيئًا خبيثًا من نفس متدنية، فالخَرَسُ أحسن من هذا النطق. وهذا رأي يستدعي بيانًا لصحته، فإن أبا جعفر قدامة صاحب (نقد الشعر) وهو أول مَنْ جعله فنًّا من العلوم قال قولًا يضل به الغافل وإن كان له وجه صحيح، فقال: "ليس فحاشة المعنى في نفسه مما يُزيل جودة الشعر فيه، كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب مثلًا رداءته في ذاته" وقال أيضًا: إِنَّ الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقًا، بل إنما يُراد منه إذا أخذ في معنى من المعاني كائنًا ما كان أن يجيده في وقته الحاضر" فلم يرد من الشعر إلا شيئًا نازلاً وصناعة دنية... ونحن نلتمس محاسن الكلام كما يليق به وكما وضعته الفطرة الإلهية، ويقتضيه كمال قوة النطق، ويستعمله الشاعر أو الخطيب الجديد بهذا الاسم" (المصدر نفسه، ص9-10).

والشعر عند الفراهي قسم من أقسام الكلام "والكلام ليس اسمًا للجرس المحض، بل هو شيء مركَّب من المعنى والصوت، والشيء المركب يحكم بحسنه لحاظًا إلى أصل الأمر فيه" أي أنَّ النظرة يجب أن تكون كلية، وأنَّ يُحكم على الكلام مجموعًا، ولا يكون حسنًا إذا اختلَّ جانب من جوانبه أو سقط ركن من أركانه، ويضرب مثلًا فيقول: "إنك لا تصف بالملاحظة وجه أعور أفتس إذا وجت إحدى عينيه مليحة، فكذلك الأمر في حسن الكلام. نعم إن شئت قلت: إنَّ وزن هذا الشعر أو صوته حسن، ثم نُؤزِّر هذا الرأي بأمر أقرب إلى الكلام من جهة الإبداع،

العدد الخاص مجلة الهند

وهو أن الكلام لا يبلغ قلب العاقل إلا أن يكون معناه شريفًا، ولا اعتبار لتأثر الحمقى والأشرار، فإننا إنما نُعطي الأشياء أسماءً لحاظًا إلى سلامة الحال، وإلا لزمك أن تسمي الكلام حسنًا وقبيحًا معًا، أو لا تسميه شيئًا. وهذا أمر يتضح لك كل الاتضاح إذا بحثنا عن أسباب بلوغ المعاني القلوب، فترى أنَّ الألفاظ ربما تُصرف عن قواعدها الصحيحة العامة لأجل المعنى الذي يبلغ نفسه بقوة فيه ويجد الألفاظ حجابًا وثقلًا عليه، كما أن ملكًا جعل نفسه سفيرًا. فالبلغ هو المعنى واللفظ مركبه، فالمعنى أجدر باللاحاظ في حسن الكلام. فذلك برهانان ثم نعززهما بثالث، وهو أنَّ العرب لم يحمداوا الكلام إلا لحسن معناه، وليس لهم نزوع إلى قول أدى الخبث فإنهم يذمون ويحتقرونه. " (المصدر نفسه، ص10).

ويذكر أبياتًا لزهير بن أبي سلى ويستحسنها ثم يقول: "فهذا يبين لك أنَّ حسن الكلام تابع لحسن المعنى، فلا تسمي الكلام حسنًا إلا بعد أن حسن معناه، ولا تترك للكلام فضيلة إلا صحة الأداء، فإذا أدَّى الكلام من قلب المتكلم أدَّى حقه، ولكنه مع ذلك غير بليغ إن لم يكن المعنى مما يبلغ القلب. وكثر في كلام العرب ذم الفحش، والخنا، والهجر، والبذاءة حتى إذا خلط شعرهم بهذه المساوئ صار ساقطًا. ألا ترى كيف أمر الحجر بقتل ابنه امرئ القيس لقول الشعر، وسَمَّاه الناس ضليلاً؟ وكيف ذموا النابغة لمدحه الملوكة. والعرب تحب مدح الشاكر، وذم الساخط، وتأنف عن مدح المتذلل " (المصدر نفسه، ص11).

وذكر أنَّ كلامه هذا ليس بدُّعًا، واستشهد بكلام للجاحظ الذي جعل مدار البلاغة نور العلم وطهارة القلب، ثم يقال: "وهل ينشأ الكلام من غيرهما، ويهتدى للقول الصائب دونهما؟". واستشهد ببيت عبيد بن الأبرص:

القائل القَوْلَ الذي مثله يمرُّ منه البلدُ الماحلُ
والبيت:

وإنَّ أحسنَ بيتٍ أنتَ قائلُهُ بيتٌ يُقالُ إذا أنشدته صدقا

ثم قال: "وهذان الشاعران ذكرا أمرين:

الأول: أراد قولاً لا تصلح به أمور الناس فنظر إلى جهة أخلاقية.

والثاني: أراد قولاً يقبله القلب لكونه حقاً ناصعاً فنظر إلى جهة عقلية وأيد رأيه بالقرآن الكريم، فإن الله تعالى سمى كلامه بليغاً؛ لأنه يبلغ القلب حيث قال: "وقُلْ لهم في أنفسهم قَوْلًا بليغًا" (سورة النساء: 63) وحيث قال: "فلله الحُجَّةُ البالغة" (سورة الأنعام: 149) فاتضح أنَّ أبلغ الكلام أبلغه في القلوب وأهداه إلى العقل.

عرض الفراهي هذا كله ليوضح رأيه في المحاكاة، ولينتهي إلى الحكم القاطع الذي لخصه بقوله: "وإذا علمت أنَّ حسن الكلام ليس في محض كونه محاكاةً بل في إبلاغ المعاني من المتكلم، وإنَّ غايته ليست إطراب السامع بل كونه سفيراً صادقاً للعقل، وإنَّ التلذذ بها ليس لكون المحاكاة داخلة في عنصر الإنسان، بل لأن فيه استعمالاً رفع قواه، وأنَّ ليست المحاكاة بل النطق من خصائص الإنسان، وأنَّ الصدق يلزم المخبر فإن خالطه الكذب أحبطه عن درجته، وأنَّ سوء المعنى يمحو عنه اسم البلاغة، فإذا علمت هذه الأمور اتضح لك الفرق بين مذهب أرسطو ومذهبنا، واتضح لك في هذا الرأي من الائتلاف والمناسبة بين أجزاءه مع شرف المكان" (المصدر نفسه، ص13).

فصحة المعنى، وصدق القول، والنظرة الخلقية، والنظرة العقلية هي أساس بلاغة الكلام وليست المحاكاة التي نادى بها أرسطو. أما الكذب الذي في الشعر "فليس إلا لغرض صحة التمثيل، فإنك لا تبلغ الأمر المهم فتعطيه شكلاً وتشخصاً، فإن أعيالك الخبر أعطيت الشكل من قبل خيالك، وليس المراد منه إلا التصوير، وهذا هو المطلوب من الأمثال وحكايات العجماوات، وهو أخو التشبيه" وأما "كذب المبالغة في التشبيه وغير التشبيه فتعلم أنَّ الشاعر لا يُخبر إلا عن نفسه" ثم قال: "فإن كان كذب المبالغة غير متجاوز بهذا الحد أي إحساس النفس فهي عين الصدق. كان فمن لم يعلم هذا الأمر لم يفرق بين الإحساس والافتراء، فظن الكذب من أجزاء الشعر، والشعر ليس بناؤه إلا على الصدق" (المصدر نفسه، ص13).

وفَرَّق بين الشعر والخطابة، وذكر قول أرسطو وهو أَنَّ الشعر حكاية عن أفعال الناس معالها ومخازيها، والفراهي لا يفرق بينهما من هذه الجهة؛ لأن الشعر والخطابة شريكان في البلاغة، وأنه لا يفرق بين الشعر وغير الشعر في الوزن والقافية فحسب، بل للشعر أوصاف آخر، كما أن الخطيب ليس كل مَنْ قال: "أما بعد". والفرق بينهما أَنَّ الشاعر يشعر بأمر فيحتاج للقول فيقول، وليس هيجانه للقول إلاَّ لِأَنَّهُ أكثر الناس شعورًا، أي إحساسًا نفسانيًا، وهذا الشعور يعمل فيه فينبه متخيله، ونطقه، وغناؤه، فتيقظ فيه هذه القوى، ويدبَّ الإحساس في جميع مشاعره، فيفيض منه الكلام.

أما الخطيب فهو ليس بأقلَّ من الشاعر شعورًا، ولكنه فارق الشاعر في أَنَّهُ غالب على شعوره، فليس حاله كالمصدر، ولكنه قاهر على نفسه ومنغمس في مخاطبين، فهمَّه التأثير في غيره، كما أَنَّ الشاعر لا همَّ له إلاَّ الانقياد لقوى تعمل فيه، فالخطيب لا يُفارق الشاعر في الهيجان ولا في قلة الشعور، ولكنه بزيادة صفة عالية استحق هذا الاسم، فالشاعر ملتفت إلى الماضي والخطيب ينظر إلى المستقبل. فالخطيب أرفع منزلة لغرضه الأعلى، وأقوى عقلاً، وأشدَّ قوة، وأدكى نفسًا، كما أن الشاعر أغنى طبعًا، وأرق فطرة، ولذلك وصفت العرب الخطبة بالحكمة والبيان والفصل، ووصفت الشعر بالسحر.

هذا فضلًا عن أن الشعر يمتاز بالوزن، إذ إنَّ منه ما ينبعث من نبع الروح، أشبه بالنفس في الاشتعال، وهذا هو الشعر الشاعر، وليس كل كلام زَيَّنَهُ المجاز والتشبيه، لأنَّ مثل ذلك يحفل به الكلام المنتثر. إنَّ الشاعر "يتأثر بأمر فيهيج فيه الوزن والنغمة والرقص، فما من شاعر إلاَّ فيه عرق من هذه الانبعاثات" وقد سلك الفراهي هذه -أي العروض والنغمة والرقص- في سلك واحد لأنَّها في الحقيقة كذلك، وهذا مما "خفي كُنْهُهُ على أرسطو فإنه لم يكن شاعرًا فلم يَدْرِ ما لم يذق، فزعم كما زعم في أمر الشعر أَنَّ النغمة والرقص محاكاة؛ لأنَّ فيهما إظهارًا لواردات النفس والأحوال والأعمال. وإنما قال ذلك لِأَنَّهُ رأى المغنين والرقاصه يظهرهم بالغناء والرقص (من جهة أثر الأول وإشارات الثاني) أحوال

النفس وأفعال الناس. فمر بأمرٍ لو تأمل فيه أو كان له من الوجدان كوجدان الشاعر، علم أنَّ هذه الأمور لم تُستعمل للمحاكاة وإظهار ما تظهره إلا لأنها نتائج من أحوال النفس، مثلاً التأوه لا يُظهر الحزن، والتَّبسم لا يُظهر المسرة إلا لأن النفس تفهم هذه الإشارات" (المصدر نفسه، ص16). وهذه الإشارات فطرية مثل أن النطق فطري ولا علاقة لها بالمحاكاة.

ولو لم يكن الفراهي شاعرًا ما استطاع أن يتكلم على الشعر هذا الكلام الذي لا يدركه إلا الشعراء، أو الذين وُهبوا ذوقًا رفيعًا، وإحساسًا رقيقًا، كالفراهي الذي نظم الشعر وهو في السادسة عشرة من عمره، وقد عارض في تلك السن قصيدة خاقاني الشرواني الملقب بـ"حسان العجم" وهي قصيدة صعبة الرديف. وطبع ديوان شعره الفارسي عام 1903م، وله ديوان آخر (خردنامه) ترجم فيه صحيفة أمثال سليمان إلى الفارسية، وقد طبع في حياته بحيدر آباد. وديوان باللغة العربية طبع سنة 1387هـ (ينظر كتاب مفردات القرآن للفراهي، ص14، 22، 29).

لقد أهلتُهُ شاعريته لتلمس الفروق بين الشعر والخطبة، ومكنته لغته الإنكليزية من أن يطلع على التراث الغربي، ويؤلف بها رسالة في عقيدة الشفاعة والكفارة ردَّ بها آراء بعض علماء النصارى. (المصدر السابق، ص 23).

واستمر الفراهي في عرض آرائه في الكلام، وفَرَّق بين الشعر والنثر البليغ، وذكر أنَّ أول من أخطأ في عدم التمييز بين الشعر والنثر البليغ أرسطو وآخر هو (جان مل). وأرسطو أشنع قولاً فإنه ظن "أن للمحاكاة طرقاً شتى. وفي الكلام وسيلة لمحاكاة ثلاث: وزن، وألفاظ، ونغمة، فهذه محاكاة فرادى ومثنى وبأجمعها. ثم ظن أن المحاكاة هي الشعر، ومحاكاة معالي الأمور هي التي تسمى ابوبيه (EPOPEE) القسم الذي اختاره هومروس فقال: إِنَّ ابوبيه تُحاكي بوسيلة الألفاظ وحدها كمكاملة سقراط، أو بوسيلة الألفاظ مع النظم كنظم فلان وفلان. ثم قال: إِنَّ العادة علقت الوزن بالشعر، ولكن الذين نظموا كتباً في الطب أولى باسم الطبيب منهم باسم الشاعر. وإنه أصاب فيما قال: إن مجرد الوزن لا يتم به الشعر، ولكن العلة

ليست أنَّ الوزن ليس من أجزاء الشعر بل لأن الكل لا يوجد بمجرد أن يوجد منه جزء، فجعل كلام هومروس وسقراط شيئاً واحداً، وزعم علاقة الوزن بالشعر نشأت من العادة. وأما (جان مل) فقارب الإصابة فيما فهم أنَّ الشعر هيجان، والشاعر يخاطب نفسه، فأمن بهذا الظن تخليطاً بين الشاعر والخطيب أو الحكيم، فلا يكاد يُعدّ كلام سقراط من الشعر، ولكنه أوضح قولاً من أرسطو بأن الوزن أمر زائد على الشعر" (جمهرة البلاغة، المصدر السابق، ص 17-18).

وأعاد الكلام على خصائص الشعر، وقال إنَّ "الحركة النفسانية تستولي عليها وتلتهمس الخروج من طرق النطق، فإن الإنسان صفته الغالبة هو النطق... فمن أوتي نطقاً ورقة وغناء يخرج منه الشعر والترنم وإن زفَّه الأثر ربما رقص. فالشعر لا يتجرد عن الوزن والنغمة والرقص، ولكن الوزن يحتمل فيبقى بالكلام، فأما النغمة فلا يحتملها الكلام إلا قليلاً، والرقص أمر على نهاية الإحساس حتى يخرج المرء عن وقاره، والكلام لا يحتمله، فبقي من آثار حركات النفس بالكلام قدر ممكن وترك ما لم يُمكن ولم يلتزمه، فإن كمال الشيء ليس مما يصحبه في كل حال. ألا ترى العقل من مقومات الإنسان، ولكن كمال العقل لا يلتزمه، وكذلك البلاغة كمال النطق، ولكنها لا توجد في كل ناطق، فكذلك النغمة لا توجد مع كل شاعر، ولكن مع ذلك لا يوجد الشعر خالياً عن النغمة كلَّ الخلو، فإنَّنا لا نتصور شاعراً لا يترنم، والعرب لا تعرف الشعر بغير الإنشاد، والوزن طرف من النغمة" (المصدر نفسه، ص 18-19) وانتهى إلى القول: "فمن ظن أنَّ مكاملة سقراط من جنس الشعر لم يعرف من كُنَّه الشعر إلا المحاكاة، ومن ظن أنَّ الوزن ليس من الشعر لم يعرف من أصل حقيقة الشعر إلا طرفاً واحداً وهو الهيجان المفيض إلى النطق". وهذا هو الفرق بين الشعر والنثر البليغ، وصلتهما بالمطبوع والمصنوع وما بينهما من اختلاف. والأصل هو الكلام المطبوع، وأما "المتصنع في أوَّل أمره فهو مخادع، ومنافق، لا روح في كلامه" (المصدر نفسه، ص 20).

وتكلم على طريق البلاغة، وقال: "إنَّ الكلام ليس إلا الإبلاغ، ولا يتم ذلك إلا بمطابقته بالأصل الأول، وبالذي في خيال المتكلم، وبكونه واضح الدلالة، وصائب

العدد الخاص مجلة الهند

الإشارة، وبكونه مؤثراً حسب حال المستمع، إمّا لينّاً سائغاً أو خشناً دامغاً" (جمهرة البلاغة، ص21) وأوضح هذه الوجوه، ثم انتقل إلى طرق التوضيح من جهة استعمال الألفاظ، وقال إنّ العرب أطول باعاً في ذلك إذ إنّ "لهم ألفاظاً خاصة تحت كل جنس عام أكثر من سائر اللغات، فيصورون الشيء ويمثلونه مُشَخَّصاً بين يديك من غير ضم صفة، وفي ذلك لهم طرق كثيرة:

الأول: وجود الأسماء الدالة على أنواع جنس واحد.

والثاني: وجود الأفعال.

والثالث: من جهة الاشتقاق للدلالة على التأنيث، والتثنية، وجمع القلة، وعلى الشدة" (المصدر نفسه، ص24).

وتكلم على الصوت وقال إنّ له "دلالة على بعض المعاني لمناسبة بينهما، وما من لغة إلا وفيه آيات على ذلك، وأما لغة العرب فالدلالة فيها أكثر وأبين من أن ينكره منكر. وأعجب من صاحب (دلائل الإعجاز) كيف غمض عينه عن هذا الأمر، وردّ على العلماء الذين جعلوا للفظ حظاً في مزية الكلام من جهة صوته" (المصدر نفسه، ص26). وكان ابن جني قد عقد "باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني" و"باب في إحساس الألفاظ أشباه المعاني" (الخصائص، 145/2 وما بعدها)، وتحدث ضياء الدين بن الأثير عن "قوة اللفظ لقوة المعنى" (المثل السائر، 60/2). ولم ينكر عبد القاهر الجرجاني الألفاظ، ولكنه لا يُرجع إعجاز القرآن الكريم إليها، يقول: "واعلم أنا لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلاً فيما يوجب الفضيلة، وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز، وإنما الذي نُنكره ونُقِيل رأيي من يذهب إليه، أن يجعله مُعْجِزاً به وحده، ويجعله الأصل والعمدة، فيخرج إلى ما ذكرنا من الشناعات" (دلائل الإعجاز، ص522).

لقد فصلّ الفراهي القول في هذه المسألة، ثم عاد إلى عبد القاهر وقال: "والعجب كل العجب كيف غلب الوهم على صاحب (دلائل الإعجاز) فزعم أنّ المتكلم لا

يعنيه إلا المعنى، ولا همَّ له في الألفاظ من جهة جواهرها، وخالف جمهور العلماء" (جمهرة البلاغة، ص31).

وتكلم على الوضاحة من جهة اختيار المعاني، وقال: "إنَّ العرب كما أنَّهم اختاروا للمعاني من الألفاظ ما يكون أحسن تصويرًا لها، فكذلك أنَّهم اختاروا لها من المعاني ما يكون أرفق لتوضيحها ورفَّع إبهامها" (المصدر نفسه، ص32). وذكر أمثلة شعرية كثيرة إيضاحًا لهذا الموضوع، وقد أكمل المبحث بالكلام على تصوير الشيء بالتشبيه، والاستعارة، والتمثيل، والمجاز وقال: "إنَّ التَّصوير غير محصور في التشبيه وله طرق كثيرة" (المصدر نفسه، ص 39) ثم قال: "إنَّ المثل والتشبيه، والاستعارة، والمجاز تأتي بما يفصح عن صفة من غير جعل الشيء شيئًا آخر، فلا بُدَّ من مغايرة بين المشبه والمشبه به، وإلا جعلوهما شيئًا واحدًا" (المصدر نفسه، ص40). وأوضح دلالة التشبيه بقوله: "اعلم أنَّ الباعث الأول على التشبيه هو حرص الناطق على إظهار ضميره واستعمال قوة النطق بقوة حتى يجعل السامع كأنه قد رأى، وجرب فتأثر به بما يزيده وضاحة وأثرًا.

والباعث الثاني أن الناطق لا ينطق لمحض الإظهار ولكن ليؤثر في السامع، ويحركه، ويجلب رغبته أو نفرتة إلى محض السمع ليعجب نفسه والناس بنطقه بالتصوير العجيب الحسن النادر، ويتوسل بذلك إلى أمور أُخر من جلب الصيت أو منافع أُخر.

والباعث الثالث أنَّه يتوسل بالتشبيه إلى تقرير، أو تحريض من جهتين مختلفتين: الأولى: أنَّ المثل أشبه بأن يكون كمثله في أمور أُخر.

والثانية: أنَّ الأمر العقلي أو الدعوى المجهولة إذا صوّرت محسوسة أسرع الذهن إلى التأثر بها لفطرته بالتأثر للمحسوس وتعوده بذلك كما ترى الناس يقرأون القصص المكذوبة، ويضحكون، ويبكون، ويفرحون، ويحزنون بها مع علمهم بكذبها.

وانتهى إلى أنَّ التشبيه "إيضاح، وإعجاب، وتقدير، وتأثير" (المصدر نفسه، ص 46) وجرَّه الكلام على التشبيه إلى نقد عبد القاهر فقال: "إنَّ المؤلِّدين زعموا أنَّ الندرة

والبعد في التشبيه من محاسنه، وقد أسهب الجرجاني -رحمه الله- في إثبات ذلك، وجمع التشبيهات الرديئة، وإنّا نُورد عليك منها لكي تعمل فيها ذوقك وتبين سخافتها" (المصدر نفسه، ص 47). ولم يذكر الأمثلة التي وصفها بالسخف في المبحث الذي سمّاه "المذهب الباطل في التشبيه".

وكلام الفراهي باطل، لأنّ التشبيهات التي ذكرها الجرجاني من الروائع، وكان تحليله لها أكثر روعة وبياناً (ينظر: أسرار البلاغة، ص 64 وما بعدها).

وأصول البلاغة عند الفراهي: مطابقة الكلام بالمعنى، والوضوح، ونفي الفضول، وحُسن الترتيب، والمقابلة، والتشبيه، والتمثيل من جهة الوضوح، وتنقيح اللفظ من المطابقة، وهذه من الموضوعات التي بحثها البلاغيون المتقدّمون. ثم تكلم على الاعتدال، ومطابقة الكلام بالمعنى، وسداجة الكلام، والترتيب، والمقابلة، وتمييز المعاني وفَرْق درجاتها، وتنقيح الألفاظ، والإيجاز، وأصول الإيجاز والإطناب، والإيجاز والإطناب، وادخار الألفاظ والأساليب، ومنع الكلام، وواسطة العقد. وبذلك ينتهي القسم الأول من الكتاب، ويأتي القسم الثاني وهو "القسم الخصوصي".

(3)

لم يُوضّح الفراهي سبب تسمية القسم الثاني بالخصوصي مع العلم أنّه بدأ بدلالة الفصل، وقد يُظن أنّه سيتحدث عنه كما يتحدث البلاغيون، ولكنه نحا منحى أقرب إلى الذوق وروح الأدب. يقول: "إنّ سردت الكلام سرداً ذهب غافلاً عن بعض المعاني، بل ربما بدّلت المعنى مثلاً إن لم تقف على كلمة المرسلين في قوله تعالى: "وجاء من أقصى المدينة رجلٌ يسعى، قال: يا قوم اتّبعوا المرسلين، اتّبعوا مَنْ لا يسألكم أجراً وهم مُهتدون" (يسن: 20-21) غفلت عن قوة الدليل، وأكدت على الأمر كأنك قلت: اتّبعوا اتّبعوا، فهذا مع الغفلة يرد المعنى من الأمرين إلى أمر واحد" (جمهرة البلاغة، ص 62).

لم يتحدث الفراهي في هذا المبحث عن الفصل ومواقعه، وإنما ذكر الآيتين الكريميتين اللتين وقع الفصل بينهما حينما أعاد- سبحانه وتعالى- الفصل

(اتَّبِعُوا). والجديد في مبحث الفصل والوصل أَنَّ الفراهي ربطه بالخيال، يقول: "ثم الفصل يجعل الخيال جسراً بين معنيين، فإن وصلتهما لم يكن للخيال سبيل بينهما" (المصدر نفسه، ص 62).

وعقد مبحثاً بعنوان "حظ السامع" (المصدر نفسه، ص 63) وهو رعاية جانب السامع، ومن هذا اللون: الاستفهام لينتبه السامع، والسكوت ليستريح، وبعض الحذف ليصير السامع متكماً في نفسه فيعمل عقله، ومنهات الرغبة والنفرة، والالتفات لينتبه بما أحس من تجديد، والتمثيل ليشاهد محسوساً، فينتبه من رقدته، وكل تبدل من الحركات، والالتفات وهيجان الضحك والحزن. فهذه مع فوائده الأخر أسباب لانتباه السامع. وتعرض لمباحث الحذف ومواقعه، وإدراج الدليل، والترتيب في النسق، والمقابلة، والاستثناء، وانتهاز الفرصة، والمجاز، والكنية، والتشبيه، ودلالة المجاز في الأزمنة، ولسان الغيب، والإشارة والتعريض. وهذه من فنون البلاغة التي وجدت سبيلها إلى التأليف، وإن جاء بعضها متأخراً في مسيرة البلاغة العربية.

وختم الكتاب بمباحث متفرقة هي: صرف الكلام عن سنته، والجمل المعتبرة، ووجوه الخطأ في التمييز بين حسن الكلام وقبيحه، وروح البلاغة وسرها، وكمال البلاغة والإعجاز، ومناط كلام العرب، وأخلاق العرب (قوى العرب العقلية والكلامية) وارتجال العرب، وصوت الخطب، ومذهب العرب في نقد الكلام، وباب من التمرين في النقد، وباب نقد الكلام، والفواصل والقوافي، وبعض هذا ما لم تبثه البلاغة العربية.

هذه جولة في كتاب فريد من نوعه ألفه مسلم في المشرق الإسلامي، ولم يصل إلى البلاد العربية ليكون صورة من صور الدرس البلاغي في القرن العشرين للميلاد.

وبعد: فما خصائص هذا الكتاب الفريد وأهميته:

تبدو في كتاب "جمهرة البلاغة" نزعة الفراهي واتجاهاته واضحة كل الوضوح، وتتمثل في:

1. الاعتزاز بالعرب لأنهم من أذكي الأمم كما يرى.
2. الاهتمام باللغة العربية ذات الخصائص التي تميزها عن اللغات الأخرى ولا سيما لغة اليونان التي استقى منها أرسطوطاليس مفهوم الشعر والمحاكاة.
3. تمسكه ببلاغة العرب والعزوف عن بلاغة العجم.
4. العناية بالأسلوب العربي البليغ.
5. الاطلاع على أهم كتب البلاغة العربية، وعلى كتب أرسطوطاليس، والشعر العربي.

وأهم ما تجلى في الكتاب:

1. تقسيم مباحث البلاغة إلى قسمين: القسم العمومي والقسم الخاص، وهو تقسيم جديد لم تألفه البلاغة العربية في تاريخها الطويل.
 2. ربط البلاغة بالنقد، واتخاذها مقياساً في الأحكام النقدية.
 3. وضوح النزعة الأدبية في العرض والتحليل.
 4. إبداء الآراء الخاصة في القضايا المختلفة، ومن ذلك: نقض نظرية المحاكاة لأرسطو، ونقد عبد القاهر الجرجاني، والتمييز بين بلاغة العرب وبلاغة العجم، والفرق بين الشعر والخطابة، وغير ذلك من الآراء المبتوثة في مباحث الكتاب.
 5. إلحاق بعض المباحث العامة المتصلة بالنقد.
 6. وضوح أسلوب الكتاب في العرض والتحليل.
- ومن هنا تأتي أهمية الكتاب، وتأمل ما ورد فيه من مباحث وآراء، يرشد الدرس البلاغي والنقدي، ويضيف ما فيه النفع وإنارة السبيل يوم تلبس البلاغة العربية ثوبها الجديد.

الإمام عبد الحميد الفراهي وكتابه "جمهرة البلاغة"

د. أوردنك زيب الأعظمي¹

ملخص البحث

لقد عني العلماء والباحثون بالبلاغة العربية في كل عصر من عصور التاريخ الإسلامي فبدءًا بسيبويه وأبي عبيدة والفراء ومرورًا بثعلب وابن المعتز وقدامة وأبي هلال وابن رشيق والجرجاني نجد عددًا هائلًا من علماء الإسلام وأدبائه الذين كتبوا في البلاغة العربية وألفوا عددًا لا يحصى من الكتب والرسائل في هذا الفن فنقد الشعر والصناعتين والعمدة ودلائل الإعجاز والمثل السائر ومفتاح العلوم والتلخيص والإيضاح كتب مشهورة في فن البلاغة العربية. ولقد بدؤوا ببلاغة الألفاظ ونظم الكلمات والجمل وركزوا على الأساليب وقسموها في علم المعاني والبيان والبديع وحاولوا وضعها في قوالب الأسلوبية والفلسفة. وكل هذه المحاولات كانت خارج الهند والسند.

ولم يتخلف وطننا الهند في هذا المجال فبرزت فيه محاولات عديدة لفهم البلاغة العربية مثل "بحر المعاني" و"بدائع البيان" و"عين المعاني" و"فتح المعاني" و"شرح ميزان البلاغة"، وأما بلاغة القرآن الكريم فقد حظيت بعنايتهم، فنجد من الكتب "إعزاز قرآن" و"وجوه إعجاز القرآن" و"جمهرة البلاغة" و"البلاغة القرآنية" وهذه علاوة على الشروح والحواشي والتلخيصات التي لا عد لها ولا حصر.

وكتاب "جمهرة البلاغة" من مؤلفات الإمام عبد الحميد الفراهي (ت 1932م) الذي انقطع إلى تدبر القرآن وسبر غوره والتفكير في معاني آياته ونظم سوره. وحاول التجديد في كل فن وتدوينه من جديد في ضوء القرآن الكريم فألف الكتب والرسائل

¹ مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وأدائها بالجامعة المليية الإسلامية (نيو دلهي)

العدد الخاص مجلة الهند

في التفسير والحديث والفقه والنحو والفلسفة ومبادئ الدين حتى نجد في مؤلفاته محاولات المقارنة بين أديان العالم وذلك لأنه كان متضلعا من العربية والفارسية والإنجليزية والسريانية والسندسكريتية وغيرها من شتى لغات العالم. وكان باحثا ومفكرا وشاعرا فانطلق يكتب أكثر من سبعين رسالة في آن واحد وترك إشارات وذكريات عنها إلا أنه لم يوفق إتمامها سوى العدد القليل منها، وهي تفسير بعض سور القرآن وإمعان في أقسام القرآن، والرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، وأسباق النحو وزمزمه دري وغيرها من مؤلفاته ورسائله التي سيطول بذكرها الملخص.

من خلال محاولته لتجديد الفنون وتطهير العلوم قام الإمام الفراهي بتأليف رسالة صغيرة للغاية باسم "جمهرة البلاغة" صدرت في حياته وتوجد إحدى نسخها في مكتبتنا المركزية ولكنه شعر فيما بعد بأنها تحتاج إلى إعادة النظر فيها وإضافة المواد الأخرى إليها فبدأ بتأليفها من جديد ولكن عاجلته المنية قبل أن يقوم بإتمامها.

هذه الرسالة غير التامة صدرت بعد وفاته في 1360هـ من مطبعة "معارف" بأعظم كره (أوترا براديش) في 86 صفحة. تنقسم الرسالة إلى ثلاثة أقسام: القسم العمومي، والقسم الخاص، ومباحث متفرقة. فالقسم العمومي يتناول معنى البلاغة والنقد على النظريات المختلفة عنها بجانب الإشارة إلى أصول البلاغة العامة، بينما القسم الخاص يتحدث عن مختلف الأساليب البلاغية بما فيها دلالة الوصل والفصل والحذف والمقابلة والاستثناء، ومن هنا تخلص إلى بلاغة القرآن التي هي غاية هذه الرسالة وهدفها الرئيس، والقسم الثالث (مباحث متفرقة) ينطق عن الجملة المعترضة وروح البلاغة وسرها وكمالها ومحاسن كلام العرب ومذهب العرب في نقد الكلام وغيرها من المباحث المهمة. حاول الإمام الفراهي من خلال رسالته هذه أن يكشف القناع عن بلاغة القرآن في ضوء كلام العرب القح وكلام الرب تعالى ذاته، فلم يحولها إلى بلاغة العجم التي لا صلة لها ببلاغة العرب ولا سيما ببلاغة القرآن الكريم. هذه محاولة بديعة وناجحة.

والبحث القادم، وهو تفصيل هذا الموجز، ينقسم في مبحثين بعد المدخل أولهما
يقدم ترجمة موجزة للإمام الفراهي وثانيهما دراسة تحليلية لكتابه جمهرة البلاغة.
فنبداً بسم الله الرحمن الرحيم.

مدخل إلى الموضوع

مما أنجبت محافظة أعظم كره من الشخصيات ذات الشهرة الدولية في مختلف
المجالات العلمية والأدبية شخصية العلامة الإمام عبد الحميد الفراهي (1863-
1930م). كان الإمام الفراهي شخصية ذات أبعاد شتى فكان متضلعا في العربية
والفارسية والإنجليزية وكان ماهرا في الكلام والفلسفة والتعليم إلا أن مجاله
الحبيب كان هو القرآن وعلومه. فقال فيه العلامة السيد سليمان الندوي:

"وبعدما قضى وطره من طلب العلم، واستقى من حياضه، ورتع من رياضه انقطع
إلى تدبر القرآن ودرسه، والنظر فيه من كل جهة، وجمع علومه من كل مكان،
فقضى فيه أكثر عمره، ومات وهو مكب على أخذ ما فات من العلماء، ولف ما
نشره ولم ما شئتوه، وتحقيق ما لم يحققوه. فكان لسانه ينبع علما بالقرآن
وصدره يتدفق بحثا عن مشكلاته وقلمه يجري كشفا عن معضلاته".¹

وفيما يلي موجز عن حياة هذه الشخصية القرآنية وأعماله الخالدة، ودراسة
تحليلية لأبرز مؤلفاته في النقد والبلاغة ألا وهو كتاب "جمهرة البلاغة".

المبحث الأول: موجز عن حياة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي

ولد الإمام الفراهي في 18/ نوفمبر سنة 1863م بقرية "فرها" (أعظم كره،
أوترا براديش)، وكان أبوه من أشرف الديار ومثقفا بثقافة غربية ومالك مكتبة
غنية كعادة أسلافه. بدأ الفراهي دراسته بقراءة القرآن الكريم فحفظه عن ظهر
القلب ثم تلمذ لأمهر دياره في الفارسية وشاعرها الشيخ محمد مهدي الشتاروي

¹ الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، ص 4

وتعلّم عليه اللغة الفارسية كما تعلّمها على ابن خاله العلامة المؤرخ شبلي النعماني. ثم شرع يتعلّم اللغة العربية وعلومها على ابن خاله المذكور وقد وفق الاستفادة من العلامة محمد فاروق الشرياكوتي أستاذ العلامة شبلي. وكان العلامة الشرياكوتي ماهراً في الفارسية والعربية وشاعرهما وكانت له اليد الطولى في علم الكلام. وبعدها نهل من هذه المناهل ارتحل إلى لکناؤ حيث استفاد من علامتها الجليل عبد الحي الفرنجي محلي في مجال الفقه الإسلامي. ولقد أنهى تعليم العلوم العربية والإسلامية على علامة الشرق فيض الحسن السهارنبوري الذي كان فاقده النظير في التبهر في الأدب العربي وأنساب العرب. كان العلامة السهارنبوري شاعراً للفارسية والعربية والأردوية وناقداً كبيراً وماهراً في علوم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. كتبه ومؤلفاته دليل بيّن على تبهره هذا. أنهى الإمام الفراهي هذه السلسلة التعليمية في 1883م.

وبعد الفراغ من نيل هذه العلوم والفنون رغب في الحصول على العلوم الجديدة فتعلّم أولاً اللغة الإنجليزية وبعدها شدا منها اجتاز اختبار الثانوية من كلية الله آباد، وفي عام 1891م توجّه نحو علي كره والتحق بكليتها الشرقية في البكالوريوس واجتازها في 1895م فاستفاد من علمائها وباحثيها لاسيما البروفيسور أرنولد وحاول أن يجتاز ماجستير ولكنه لم يوفق لها وكذا حاول أن يجتاز اختبار القانون ولكنه لم يقدر له وهكذا انتهت سلسلة تعلّمه الديني والعصري في 1897م.

بدأ الفراهي يفكّر ويكتب منذ إقامته بعلي كره فقام في رحابها بترجمة كتابين إلى الفارسية تمّ تقريرهما في المقررات الدراسية في كلية علي كره وكذا كتب قصيدته العربية التي هنأ فيها أستاذه العلامة شبلي على تكريمه بشرف "شمس العلماء" وجعل يتفكّر في القرآن الكريم كما يبدو من مقدمة كتابه الجليل "تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان".

بدأ الفراهي حياته العملية من مدرسة الإسلام بکراتشي حيث تم تعيينه كمدرّس للعربية في 1897م. قضى بها عشر سنوات معلماً ومؤلفاً ثم رجع إلى علي كره حيث

العدد الخاص مجلة الهند

تعيّن أستاذًا مساعدًا للعربية في 1907م وقضى بها سنة واحدة ثم تعيّن أستاذًا للعربية في كلية ميور التابعة لجامعة الله آباد في 1908م. وفي 1914م ارتحل إلى حيدرآباد حيث تعيّن كعميد دارها للعلوم وأقام بها حتى 1919م فاستقال عنها في شهر أغسطس لنفس السنة راجعًا إلى دياره لخدمة مدرسة الإصلاح التي ساعد في تأسيسها ابن خاله العلامة شبلي النعماني ولقد دعاه لذلك العلامة النعماني ذاته. ومنذ هذه الفترة بقي يخدم تلك المدرسة حتى وافاه الأجل في 11/ نوفمبر سنة 1930م. فكتب العلامة السيد سليمان الندوي على وفاته:

"الصلوة على ترجمان القرآن نداء رفع للصلاة على جنازة ابن تيمية من مصر والشام حتى جدران الصين قبل الآن بستة قرون ونصف قرن، ومن الواقع أن يعاد هذا النداء مرة ثانية وأن يبلغ، على الأقل، مصر والشام من بلاد الهند بأن توفي ابن تيمية هذا العصر في 19 جمادى الثاني 1349هـ الموافق لـ 11 نوفمبر 1930م ولا نتوقع في هذه الأوضاع الراهنة أن يبرز نظيره في العالم الإسلامي فقد كان العلامة كآية ربانية لتبحره في العلوم الشرقية والغربية وكان فاقد النظر في التضلع بالعربية ومثقفًا للإنجليزية وصورة حية للتقوى وتمثالًا ناطقًا للفضل والكمال وحافظًا للفرسية ونابغة للعربية فلو كان شخصية واحدة ولكنه قد جمع في فرديته عالمًا للحكمة، ودنيًا للمعرفة، وكونًا للعلم، فلو كان في عزلة عن الناس إلا أنه كان مجتمعا لأبحر العلم والفضل وكان مضرب المثل في غناه عن الناس مع ثروته العلمية. كان فريدًا في الإلمام بالعلوم الأدبية وذاخرًا للعلوم العربية، وناقدًا للعلوم العقلية، وماهرًا للعلوم الدينية، وبارعًا لعلوم القرآن، وفوق تلك أنه كان في غنى عن متاع الدنيا وبعيدًا عن مدح الناس ومعتكفًا في زاوية لخدمة العلم فكان وحده ملكًا في دنياه ذاته. إنه أنفق ثلاثين سنة كاملة في التفكير على القرآن وسبر غوره بعيدًا عن ضجيج العالم وغوغائه ---- ولد فقضى عمره في تدبر القرآن ومضى لسبيله، ولكن الأسف أن العالم لم يسعه تقدير أهميته وفضله".¹

¹ ياد رفتگان، ص 124-125

ألف الفراهي ودون أكثر من سبعين كتابًا ومجموعة ومن أبرزها "تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" و"الرأي الصحيح في من هو الذبيح" و"إمعان في أقسام القرآن" و"أسباق النحو" و"مفردات القرآن" و"التكميل في أصول التأويل" و"في ملكوت الله" و"أساليب القرآن" و"القائد إلى عيون العقائد" و"ديوان حميد" و"زمزمه دري" و"ديوان فيض الحسن السهاري" و"جمهرة البلاغة". ونود أن نقوم بالدراسة التحليلية للكتاب الأخير الذي طبع في 1360 هـ من الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح بسراي مير، أعظم كره والذي موضوعه بلاغة العرب لاسيما بلاغة القرآن الكريم.

المبحث الثاني: دراسة تحليلية لكتاب "جمهرة البلاغة"

أولاً: السبب في تأليف هذا الكتاب: أراد الإمام الفراهي بتأليف هذا الكتاب الكشف عن بلاغة الوحي الرباني لاسيما القرآن الكريم كما يقول في خطبته لهذا الكتاب:

"فوجب علينا أن نعرف أسرار البيان وفضائله كما وجب علينا أن نعرف إعجاز القرآن ودلائله لنستكمل من فطرتنا عنصراها ونستسقي من عيون الوحي كوثرها".¹

ويقول في مكان آخر من كتابه:

"اعلم أن البيان كالظل والأثر للنطق الذي هو مقوم للإنسان كما أن النطق ظل من الوحي الأعلى وكلمة الله العليا فالبحت عن أوليات علم البيان يجلبنا إلى الحكمة الإلهية ولكننا الآن في الجدول فلا نفوض في البحر غير أن لا ننساه ونعلم أن إليه منتهاه وهل المصير لشيء إلا الله وقدّمنا هذه الكلمات ليتبين لك الفرق بين تعاطينا العلوم لاسيما هذا العلم وبين تعرض الأمم الآخر له فإنهم نظروا إليه من نظر دني دنياوي فغالتهم غوائلها وأبعدهم عن الحق".²

¹ جمهرة البلاغة، ص 1

² المصدر نفسه، ص 1

العدد الخاص مجلة الهند

وهذا من ميزة الفراهي أنه يشير في خطبة كل كتاب له إلى ما هو الهدف في تأليفه. ولقد تناولنا بالبحث خطبه العربية في مقالة منشورة في مجلة "ترجمان دار العلوم جديد".¹ وإنه بنى هذا الفن على كلام العرب الأقحاح الذين كانوا فرسان الكلام وكانوا أعرف ببلاغة كلامهم من غيرهم فيقول مشيرًا إلى هذا الجانب:

"كما أن علماء الإسلام أقبلوا على هذا الفن لأجل الكشف عن إعجاز القرآن فلو أنهم استقصوا كلام العرب واقتفوا آثار المحاسن فيه وقيدوها بالحدود ونظموها في ترتيب حتى يصير لهم ميزان ومحك لمعرفة محاسن الكلام ثم نظروا في براعة القرآن ونظمه المعجز لكانوا أقرب إلى معرفته ولكنهم لم يأخذوا من العرب ولا من كلامهم فإنهم أثرت فيهم علوم العجم كما خالطتهم سجاياهم إلا الأولين كالجاحظ فإنه لا يبعد عن سنن العرب كبعد صاحب دلائل الإعجاز ولم يبعد إلا لقلة ممارسته بكلام العرب الخالص فلو تيسر له ذلك عرف منزلتهم في هذه الصناعة واعترف بفضلهم على المولدين".²

ويقول في موضع آخر من كتابه:

"فاعلم أنه ليس أن العرب أعطوا البلاغة ولم يعطوا تمييزًا بين محاسن الكلام ومساويه وانتباهًا لمواضع الجودة والرداءة فيه فإنهم كانوا يباهون ببراعة الكلام ويحكمون بينهم من كان أبصرهم بنقده. والأخبار في ذلك كثيرة حتى بلغ أمر البلاغة فيهم منزلة نظام المعاشرة. فكان خطيبهم يأخذ بزمام القوم فيقودهم إلى حيث شاء ويقوم شاعرهم فيرفع قومه من الأرض إلى السماء فأجدر بقوم هذا شأنهم أن يجري ذوقهم في هذه الصناعة على سنة وأصول معلومة وإلا كيف يقضي فيهم حكمهم أم كيف يدعن لحكمه أرباب العقل فيهم وإن رأيت في كتب الأدب نقدهم وبيانهم وجوه المزية لكلام على كلام علمت باليقين صدق هذه الدعوى وذكرنا نبذة منه في باب اختيار اللفظ. ثم علمت أن سبيلهم في نقد الكلام

¹ مجلة "ترجمان دار العلوم جديد" الشهرية، 55-49/2/11

² جمهرة البلاغة، ص 3

لم يكن كسبيل صاحب أسرار البلاغة وهو القدوة للذين جاءوا من بعده فاتبعوا خطواته فكان سبيله سداً بينهم وبين العرب فلو التزموا كلام العرب ولم يلتفتوا إلى أصول مهدها المبعدون لكان خيراً لهم وكانوا أقرب إلى معرفة إعجاز القرآن من طريق الذوق وإن لم يكونوا من طريق الصناعة".¹

وثانياً: رأي العلماء والباحثين عن هذا الكتاب: ولو أن الكتب كثرت وتعددت في هذا الموضوع إلا أن هذا الكتاب فريد من نوعه فقد أشاد الكتاب والعلماء والباحثون بهذا الكتاب ومن بينهم عدد ملموس من العلماء العرب كما ربطت ألسنة العلماء الهنود بذكره ونقل فيما يلي طرُقاً من آرائهم:

1. العلامة شبلي النعماني: "--- هذه هي مباحث الكتاب والكاتب يعرف جيداً ما كُتِبَ عن بلاغة القرآن ولكنه يظن أن كلها غير تامة في الموضوع. وما قام به القدامى من ترتيب فن البلاغة ناقص كذلك، ولذا فقد اعتنى الكاتب بهذا الفن ورتبه في نطاق واسع ووضع أصولاً عديدة لم يكن بها عهد لفن البلاغة وهكذا فألف كتاباً مستقلاً سماه "جمهرة البلاغة".²
2. الشيخ أمين أحسن الإصلاح: "--- قام الأستاذ الفراهي بتأليف كتاب جديد في فن البلاغة فغيّر ترتيب هذا الفن وجاء بالعديد من الأصول الجديدة التي يمكن أن تثبت مستوى صادقاً لتقدير بلاغة القرآن".³
- ويقول في موضع آخر: "جمهرة البلاغة كتاب فاقد النظير للفراهي في فن بلاغة القرآن".⁴
3. العلامة أبو الحسن الندوي: "لما فرض إليّ مهمة تدريس القرآن الكريم في دار العلوم باندوة العلماء قرأت مؤلفات الشيخ عبد الحميد الفراهي بإمعان وجدية وجهد بالغ واستفدت منها قدر المستطاع، ولما وُجِّهْتُ إليّ الدعوة من قبل جامعة دمشق في 1956م حملت معي كتب الشيخ الفراهي لاسيما

¹ المصدر نفسه، ص 4

² مجلة "الندوة" الشهرية، شهر ديسمبر 1905م، ص 4

³ مجلة "الإصلاح" الشهرية، شهر أكتوبر 1937م، ص 607-608

⁴ المصدر نفسه، شهر أبريل 1938م، ص 199

"جمهرة البلاغة" الذي تأثرت به كثيرًا كطالب الأدب العربي وتاريخه،
وكباحث لهما ومفكر فيهما".¹

ويقول في مكان من خطابه هذا: "من أعماله الجليلة "جمهرة البلاغة" لو قام
أحد بتحقيقه وتقديمه بأسلوب علمي جديد لثبت تفرد الشيخ الفراهي في هذا
المجال فلقد قام الشيخ بإعداده لذوقه السليم للأدب العربي والقرآن الكريم".²
4. الدكتور شرف الدين الإصلاحي: "لو أتم العلامة الفراهي هذا الكتاب على
المستوى الذي بدأ به لكان كتابه هذا من كتب العالم العظيمة لسبب أفكاره
ونظرياته البديعة".³

ويستطرد قائلاً: "إن هذا الكتاب يحتوي على مجموعة كبيرة للمسائل
الدقيقة والنكت اللطيفة".⁴

5. البروفيسور محمد راشد الندوي: "كان العلامة الفراهي ولعًا كلفًا بالقرآن
الكريم، ألف عديدًا من الرسائل في علوم القرآن يضمها إعجاز القرآن
الحكيم. كتابه "جمهرة البلاغة" مثال رائع لجهد في هذا الفن. ولقد مارس
العلامة الفراهي كلام العرب الجاهلي كما أمعن النظر فيما ألف من كتب
النقد والبلاغة حتى عصره. كان العلامة يشعر تمامًا بفصاحة القرآن وبلاغته
لتضلعه من اللغة العربية، ولقد درس جيدًا كلام العرب الجاهلي والقرآن
الكريم ومؤلفات علماء النقد والبلاغة".⁵

ويمضي قائلاً: "ما ذكره العلامة من أصول النقد والبلاغة في كتابه الموجز هذا
هي عصارة نظرياته الأدبية والنقدية، أسلوبه موجز للغاية بل لو كان هناك
كلمة أخرى لما هو أوجز من الإيجاز للتعبير عن إيجاز كتاباته لاستخدمناها

¹ علامه حميد الدين فراهي- حیات و افکار، ص 21

² المصدر نفسه، 28

³ ذكر فراهي، ص 575

⁴ المصدر نفسه والصفحة ذاتها

⁵ المصدر نفسه، ص 538

فربما يكتفي العلامة بالإشارة إلى قضية مهمة للغاية والحال أنها تقتضي التوضيح. لعله ظنّ حين تأليف كتبه أن قارئها أحدَ عقلاً كمثله".¹

ويقول كذلك: "وفي رأيي المتواضع أن هذا الكتاب فريد من نوعه في الموضوع باللغة العربية وهو ليس مفخرة للعلامة الفراهي فحسب بل لعلماء شبه القارة أجمعين".²

6. الدكتور أحمد مطلوب بعد دراسة هذا الكتاب في أكثر من عشرين صفحة: "هذه جولة في كتاب فريد من نوعه ألفه مسلم في الشرق الإسلامي، ولم يصل إلى البلاد العربية ليكون صورة من صور الدرس البلاغي في القرن العشرين للميلاد".³

7. الدكتور صالح سعيد الزهراني في مقالته الطويلة عن هذا الكتاب: "كتاب جمهرة البلاغة يمثل رافداً من روافد التفكير البلاغي الحديث".⁴

ويقول في نهاية دراسته لهذا الكتاب: "كتاب جمهرة البلاغة يمثل إضافة نوعية للتفكير البلاغي في العصر الحديث لكونه رؤية خاصة للبلاغة العربية في الإبداع وسياسة القول، وقراءة واعية لأصول البلاغة العربية كما تجلّت في البيان المعجز وكلام سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه، وأدب العرب الخالص، ورؤية ناقدة لتحولات البلاغة العربية إبداعاً وسياسة للنص عقب مثاقفتها مع الفلسفة اليونانية، وبخاصة فلسفة أرسطو، التي كان لها أكبر الأثر في رؤي البلاغيين والشعراء المجددين في العصر العباسي".⁵

8. الدكتور أجمل أيوب الإصلاحي: "جمهرة البلاغة الذي نقض فيه الأساس الذي يقوم عليه فن البلاغة عند أرسطاطاليس، وهو نظرية المحاكاة، ويرى الفراهي أن فن البلاغة العربية تأثر بهذه النظرية فجار عن قصد السبيل، وانتقد في

¹ المصدر نفسه، ص 542

² المصدر نفسه، ص 546

³ www.ust.edu ، مقالة الدكتور أحمد مطلوب، جمهرة البلاغة

⁴ aruc.org ، مقالة الزهراني، سياسة البلاغة عند عبد الحميد الفراهي

⁵ المصدر نفسه

ذلك الإمام عبد القاهر الجرجاني مع اعترافه بجلالته، ودعا إلى تأسيس فن البلاغة على أسس منبثقة من القرآن الكريم وكلام العرب الأقياح¹.

وثالثاً: هل تمّ الكتاب أم لم يتمّ؟ كل من يلقي نظرة خاطفة على هذا الكتاب يعرف بأول وهلة أن هذا الكتاب غير تام وأن الفراهي لم يوفّق إتمامه فيكثر فيه "بياض في الأصل" فقرة كتبها من قام بجمع وتدوين مؤلفات الفراهي وهذه تعني أن الفراهي ترك هذا المكان فارغاً ليمأله في المستقبل ولكنه لم يوفّق مآله. وهذا كما يدلّ على شيء فكذا يدلّ على أن الفراهي ليس كمثّل الكتاب الآخرين الذين يدرسون بعض الكتب فيشرعون في تأليف كتاب ما وينهون تأليفه في مدة قليلة أو طويلة، إنما يفكر الفراهي في الموضوع فيدرس الكتب فيه كما يستفيد من المصادر والمراجع ولا يكتب شيئاً إلا بعد دراسة طويلة وإمعان النظر فلقد ذكر لي أستاذي الشيخ نجم الدين الإصلاحي الذي كان تلميذاً من تلامذة الفراهي وكان يلزمه ليل نهار أن الفراهي لم يكن يكتب شيئاً في النهار بل كان يدرس ويدرس وكان يستيقظ في السحر فيغسل ثم يصليّ الفجر ثم يقوم بكتابة شيء ما عن الموضوع وكان يكتب على أوراق فيجمعها في صندوق له موضوع في حجرته وعندما وجد في موضوع تحريراً ظنه كافياً لموضوع فقام بجمعه وتأليفه في صورة كتاب.

ومثله حدث مع هذا الكتاب فقد شرع الفراهي في تأليف هذا الكتاب في 1905م وأرسل بعض ما كتب إلى أخيه العلامة شبلي النعماني وواصل كتابته حتى خمس عشرة سنة ولم يكمل فتوفي في 1930م.

ورابعاً: طريقة تأليف الكتاب: هذا الكتاب المشتمل على 88 صفحة ليس مما أنجاه الفراهي وأتمّه، إنما بدأ بتأليفه حين إقامته بمدرسة العلوم بكراتشي (باكستان) وكتب بعض المباحث التي رأى البعض منها أخوه العلامة شبلي النعماني فأشاد به في مجلته "الندوة"، ومن عادة الفراهي أنه كان يدرس فيدرس ليل نهار ولم يكن يكتب إلا في وقت السحر وكان يكتب إذا وجد شيئاً جديداً فكل ما كتبه مما

¹ مفردات القرآن، ص 26

العدد الخاص مجلة الهند

جاء به من عنده وهو جديد تمامًا فكان الفراهي كاتبًا مفكرًا. ونجد أمثلة تفكيره المتواصل في كتابه هذا فقد كتب من قام بجمعه "بياض في الأصل" حيث ترك الفراهي ولم يكتب فيه شيئًا ليكتبه في المستقبل. وعلى كل حال فما نجده بين أيدينا نستخلص منه عادة الفراهي حين التأليف ولا سيما تأليف هذا الكتاب.

فالشيء الأول أن الفراهي يفضل الإيجاز في حديثه ولا يحب الإسهاب والتفصيل فما نجده في رسالته الوجيزة للغاية يمكن لنا أن ننشره في مجلدات كبار فلقد قمت بتحقيق إحدى رسائله "أساليب القرآن" في ثلاثة مجلدات ضخام بينما هذه الرسالة لا يتجاوز رقم صفحاتها سبعين صفحة. ومن هنا يمكن لكم تقدير مدى حبه للإيجاز. وكذا نجده في هذا الكتاب فلقد اعتبره كاتب ترجمته المسهبة في 800 صفحة دررًا منثورة.¹ والواقع كذلك فهي مثل درر منثورة تطلب منا أن نقوم بنظمها في سلك جميل، الأمر الذي عجزت عنه الأمة ولو بعد مئة سنة مضت على تأليفها. يشير الشيخ أبو الحسن الندوي إلى صفة الفراهي هذه ولو بطريقة سلبية: "نجد في كتابات العلامة عبد الحميد الفراهي إيجازًا على عادة كثير من المحققين والمتقدمين والمجتهدين مما يجعل تحقيق أعماله صعبًا على الآخرين".²

ويقول البروفيسور محمد راشد الندوي:

"--- أسلوبه موجز للغاية بل لو كان هناك كلمة أخرى لما هو أوجز من الإيجاز للتعبير عن إيجاز كتاباته لاستخدمناها فربما يكتفي العلامة بالإشارة إلى قضية مهمة للغاية والحال أنها تقتضي التوضيح. لعله ظن حين تأليف كتبه أن قارئها أحد عقلاً كمثله".³

والفراهي يعدّ الإيجاز من مميزات تأليفه فهو يقول في موضع من هذا الكتاب الجليل:

¹ ذكر فراهي، ص 575

² علامة حميد الدين فراهي، حيات وأفكار، ص 28

³ المصدر نفسه، ص 542

العدد الخاص مجلة الهند

"وفيما قلنا ليس إلا إشارة إلى جملة الأمر فأما طرقهم إلى تصوير المعاني الخاصة فلا أدري كيف أكشف عنها دون أن نورد نبذة من الأمثلة من غير إطالة الكلام فيها. فصمّم إلى الأمثلة الآتية تأملك وألمم بها بل خيّم عليها حتى يتبين لك، فإني لا أحبّ الإسهاب ونحن نحسن الظن بعقلك فإن هذا حديث تصوير الشيء ذو أفانين لا نستطيع استقصاءها فليكنها منه قدر صالح يبين لك ما نريد ويصوّر لك ما أشرنا إليه".¹

ولو أنه يوجز الكلام عن الموضوع إلا أنه لا يغفل عن قدر الدلائل والأمثلة فهو كثيرًا ما يستدل بكلام العرب القديم كما يعضّده بآيات القرآن الكريم وآيات الصحف القديمة لاسيما التوراة وشيء قليل للغاية بالحديث النبوي وكلام غير العرب والاستدلالات الأخرى جاء كتعزيد لكلام الله تعالى. ونورد لكم بعض الأمثلة التي تدعّم ما قلنا أنفًا فيقول الفراهي في مطابقة الكلام بالمعنى:

"ليكن التعبير مطابقًا بالمعنى لينًا وخشونة وحلاوة ومرارة حسبما أردت من المدح والذم كما قال حاتم الطائي:

فإذا ما مررت في مسبطر فاجمع الخيل مثل جمع الكعاب
ومنه ما قال امرؤ القيس:

وشحم كهذاب الدمقس المفتّل

أو كما قال:

كمشي العذارى في الملاء المهذب

وهذا اختيار المناسب يكون من عدة جهات: من الصوت، من الظم، من التشبيه. أما من التشبيه فقد علمت. أما من الصوت فكما قال لبيد:

غلب تشذر بالذحول كأنهم جن البدى رواسيا أقدامها

¹ جمهرة البلاغة، ص 34

المراد من البيت الصدر في أمر الصوت والعجز في أمر التشبيه. فاجتمعت خشونة المعنى والصوت والتشبيه وفي القرآن (كشجرة خبيثة اجتثت) ولم أر قوماً راعى مطابقة الصوت بالمعنى كما أرى العرب فإنهم براء من التكلف مولعون بالصدق متجنبون من السفاف".¹

ويكتب في ذكر تصوير الشيء بالتشبيه والاستعارة والتمثيل والمجاز ويستدل بأكثر من أربعين بيتاً فيقول بعد نقل أبيات نصيب التالية:

كأن القلب ليلة قيل يغدى	بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت	تجاذبه وقد علق الجناح
لها فرخان قد تركا بوكر	فعشهما تصفقه الرياح
إذا سمعا هبوب الريح نصا	وقد أودى به القدر المتاح
فلا في الليل نالت ما ترجي	ولا في الصبح كان لها براح

"وقرنت بين المصورات المحض وبين التشبيهات لترى المناسبة بينهما وقرب أمرهما. وبعد ذلك من التشبيهات ما لا يرى كالتشبيه بادئ بدء ولكنه ليس إلا التشبيه وإذا التفنن يذهب بالملال فينبغي أن تعلم أنحاء التصوير فيه لكيلا تذهب مذهباً واحداً. فمنه قول المهلهل يرثي أخاه:

ولست بخالغ درعي وسيفي إلى أن يخلع الليل النهار
فشبه الليل باللباس على النهار وشبه الدرع بالليل وشبه لزوم السلاح بجسمه
بلزوم الليل بالنهار وشبه جسمه بالنهار لبياضه. والأسلوب ليس بأسلوب التشبيه
الظاهر بل هو مما سمّوه المجاز ومن ذلك ما مرّ من قول عبيد بن الأبرص:

القائل القول الذي مثله يمرع منه البلد الماحل

¹ المصدر نفسه، ص 49

فشبه القول بالغيث بركة بطريق الكناية وهذا تشبيه عام في التوراة وجاء في القرآن تشبيهاً واستدلالاً¹.

ويقول في مبحث المقابلة:

"الشيء يذكر مقابلة فالطبع أقرب له قبولاً ثم يتبين الضد بالضد ويزداد حسناً ويذهب بالملال. أما الأول فهو أمر طبيعي للإنسان حتى أن بعض العلماء زعم أن في الأول كل لفظ كان للضدين وأما حسن الأشياء واستبانة محاسنها من التقابل فكان مصور الخلق تعالى شأنه أظهر المحاسن بها فأخرج الأزهار الحمر والصفير والبيض من بين أوراق خضر وأبرز النجوم البيضاء من صفحة سوداء والقمر الفضي في الصحن الزبرجدي. فهكذا الأمر في الكلام وتصاويره ولا يخلو منه لسان فأما العرب فكما قال المهلهل:

يزهزون من الخطي مدمجة كمتاً أنابيهما زرقاً عوالها
وما أحسن ما قال قيس بن عاصم المنقري في مدح قومه:

لا يفطنون لعيب جارهم وهم لحسن جوارهم فطن
وهذا كما قال حاتم:

واني لعبد الضيف ما دام ثاوياً وما في إلا تلك من شيمة العبد
وأحسن المقابلة دريد بن الصمة:

ويبقى بعد حلم القوم حلبي ويفنى قبل زاد القوم زادي
وحسن هذه المقابلات في جمع الحسنتين ثم في وصفهما بالمقابلة ليزداد وضوءهما وليبين حدّهما. فجمع الإغماض والفتانة، والتواضع والأنفة، والعقل والسخاء وقال معد بن علقمة:

¹ المصدر نفسه، ص 44-45

العدد الخاص مجلة الهند

وتجهل أيدينا ويحلم رأينا ونشتم بالأفعال لا بالتكلم
وقال تأبط شراً:

يابس الجنبين من غير يؤس وندي الكفين شهم مدل
قال النبي صلى الله عليه وسلم في مدح الأنصار "يقلّون عند الطمع ويكثرّون عند
الفرح" ويضمحل قول أوس بن حجر في جنب هذا السهل الممتنع حيث قال:

وليس أخوك الدائم العهد بالذي يذمّك إن ولى ويرضيك مقبلاً
ولكنه النائي إذا كنت آمناً وصاحبك الأدنى إذ الأمر أعضلاً
والبلاغة القصوى التي يحسر دونها الوصف يضيق العقل عن إحاطتها في قوله
تعالى (ترى إذ فزعوا) (أرادوا الفرار) فلا فوت (أي لم يمكنهم أن يفلتوا) وأخذوا من
مكان قريب وقالوا آمناً به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد) فمن فهم معنى
الآيتين صوّرت بين يديه جماعة أولاً فزعوا فأرادوا الفرار فلم يمكنهم الإفلات بل
أخذوا على مكانهم فلما يئسوا قالوا آمناً ولات حين الإيمان فإن وقت الإيمان كان
بالغيب في حياتهم الأولى وقد فاتهم الآن وبعد عنهم مكاناً فيمدّون إليه أيديهم
كالتناوش لما بعد عنه فأنى له ذاك".¹

ومن خلال حديثه عن موضوع ما، ينتقد الكتاب والباحثين الذين يجد رأيهم
خاطئاً أو غير صحيح فانتقد أرسطو وجان مل والجرجاني وأبا جعفر قدامة
والأصمعي والباقلاني والحريزي والزمخشري والرازي وغيرهم من العلماء
وأصحاب الفن.

وليس هذا فحسب بل يمدح من الكتاب والباحثين من يجد رأيهم صحيحاً
وصائباً فيجانب الإطراء للجاحظ فقد أشار إلى ما أصاب فيه أرسطو
والجرجاني وغيرهما ممن قام بتوجيه النقد إليهم. وأما مدحه للعرب فنفرده له
مبحثاً إن شاء الله تعالى.

¹ المصدر نفسه، 53-55

ومن ميزة هذا الكتاب أن الفراهي، خلال حديثه عن أصول البلاغة، يذكر لنا نكتاً بلاغية يخرجها من القرآن والشعر وهكذا فهو يعلمنا كيف نقوم بالكشف عن بلاغة نص أو بيت أو جملة من الكلام فيستخرج النكت من بعض آيات سورة هود حين البحث عن الفصل والوصل بالخيال:

"--- في سورة هود في ذكر جدال قوم عاد ببنيه هود (إني توكلت على الله ربي وربكم، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم) فهذه ثلاث كلمات جئن بعد إعلان اليأس والحرب من هود فقوله "إني توكلت على الله ربي وربكم" ينطوي على أنني لا أباي بمكائدهم فإن الله الذي هو ربي وربكم مولائي فإذا توكلت عليه فما خوفي من أحد، فاتصال الجزء الأول بالثاني ظاهر. ثم قوله "ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها" مع اتصاله بالأول ينطوي على أنه ما من دابة إلا سبيلها إلى الله تعالى فترجعون إليه وعلى أنه من يعاجزه قاسى جذبات العنف والهون ومن سلك إلى ربه هان عليه السلوك ويسر له السبيل. فقرب إلى الجزء الثالث لأن من بيده نواصي العباد قائم على الصراط المستقيم فمن أخذ هذا الصراط وجده سهلاً وفاز فظهر أن الجملة الوسطى ذات جهتين والفصل يعطي الخيال مجاًلاً للتأمل في أطراف القول وتوسيعه حتى يبصر بجتهى الربط".¹

ويكشف الغطاء عن بلاغة بيت عربي تالٍ حين الكلام عن انتهاز الفرصة:

إن الحمول التي راحت مهجرة يتبعن كل سفيه الرأي مغيار
لم تكن له حاجة بادية إلى أن يزيد على المغيار كلمة سفيه الرأي وإني أتعجب من النابغة هذه الكلمة الواحدة مثلما أتعجب منه إيراد هذا حديث المغيار فإني رأيت الشعراء لهجوا بذكر البأس والمنعة دون معشوقهم أو عداوة الحماة وحنقهم ولكن النابغة ترك تلك الأمور المبتذلة وأخذ ما هو ملاك الأمر ثم زاد عليه سفاهة الرأي لتأكيد سوء الظن ثم لم يقل إن ذا رحم لها مغيار وسفيه الرأي فتظن أن ذلك أمر

¹ المصدر نفسه، ص 67

واقع من الاتفاق بل جعل هذا المغيار أمير الرفقة فوصفه بسفاهة الرأي ليس إلا مجازاً لما هو لا يرضى من غيرته وشدة الغيرة يفصح عن الحسن فالييت حقيقة في شكاية الحرس وكناية عن الحسن. وكانت العرب منتهين لهذا الإدراج فلمجت به فصحاءهم وطربت له أذهانهم وكان النابغة هذا أسبقهم في هذه الصنعة حتى أنك ترى من قدّمه على سائر الشعراء قدّمه بأبيات ليس في أكثرها إلا تلك الصنعة".¹

فكان كتابه هذا يثبت سفرًا مفيدًا لدارسي البلاغة بأسلوب نسميه "ما قلّ ودل".

وخامسًا: محتويات الكتاب: هذا الكتاب الذي أثنى عليه العلماء والباحثون واعتبروه فريدًا من نوعه في الموضوع ينقسم في خطبة وثلاثة أقسام فالقسم الأول يسمّى بالقسم العمومي والقسم الثاني يعنون بالقسم الخصوصي وأما القسم الثالث الأخير فهو يسمّى "مباحث متفرقة".

ففي الخطبة أشار إلى الهدف وراء تأليف هذا الكتاب ويتلوه القسم الأول العمومي فلو أن هذا القسم عمومي إلا أنه يحتوي على مباحث هامة عن هذا الفن ففي البداية ذكر ما هو البيان وكيف يهدي هذا البيان إلى الله جل جلاله ومن ثم دلّ على بلاغة الوحي وكيف كانت حالة الأمم السابقة بالنسبة لهذا الفن ولم لم يهتدوا إلى سواء السبيل في هذا الشأن ثم ذكر صعوبة معرفة محاسن الكلام وأشار إلى مختلف الجوانب والجهات لحسن شيء ثم أشار إلى بلاغة العجم وكيف هي أضلّت العلماء والباحثين في معرفة بلاغة القرآن وما هي الطريقة التي تهدينا إلى معرفته الصحيحة، ألا وهو معرفة محاسن كلام العرب لأن لكل لغة خصائص وميزات كما للغة العربية. وبعد ذلك ذكر حظوة العرب بالقوة لفهم الكلام ولتمييز الجيد من الخبيث وهكذا ذكر كيف كانوا يميزون الكلام وما هي الأصول التي وضعوها أو اختاروها ومن ثم انتقد نظرية أرسطو للبلاغة ودخّض أن الكلام نوع من المحاكاة وأثبت أنه مفطور على النطق والبيان وما نراه من المحاكاة إنما هي محاولة منه

¹ المصدر نفسه، ص 72

للإعراب عما في ضميره. وبما أن النطق والبيان من مواهب الله فكذلك أن الوحي قمة عليا للبيان وذلك ظاهر من قول الله تعالى "الرحمن علّم القرآن خلق الإنسان علّمه البيان".¹ وبعد ذلك تحدّث عن الشعر وأثبت أنه نوع من البيان، والتصوير يقوّيه وكلما صدقت الصورة ارتفع الكلام فالعرب اعتبروا الكلام الصادق حسناً كما عدّوا الكاذب منه غير حسن فقد قال العرب:

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا
فالكذب، لديهم، عيب في الكلام.

بعد هذه المباحث عرّف الشعر والخطبة وبَيّن الفرق بينهما كما ذكر أن الخطبة أقوى تأثيراً من الشعر إلا أن الأول أسرعهما تأثيراً، ومن خلال هذا الحديث ذكر الفرق بين الشعر والنثر وميزتهما. ثم ذكر طريق البلاغة فذكر فيها مطابقة الكلام بالأصل ومطابقة الكلام بالذي في خيال المتكلم وبكونه واضح الدلالة وصائب الإشارة وبكونه مؤثراً حسب حال المستمع ثم ذكر طرق التوضيح من جهة استعمال الألفاظ، ومن جهة الصوت، ومن جهة اختيار المعاني، وبعد ذلك عقد فصلاً في تصوير الشيء بالتشبيه والاستعارة والتمثيل والمجاز كما أشار إلى دلالة التشبيه والمذاهب الباطلة في التشبيه.

وبعد ذلك بيّن أصولاً عامة للبلاغة فذكر عشرة أصول بما فيها الاعتدال ومطابقة الكلام بالمعنى وسداجة الكلام والترتيب والمقابلة وتمييز المعاني وفرق درجاتها وتنقيح الألفاظ والإيجاز وادخار الألفاظ والأساليب ومنبع الكلام. وينتهي على هذا، القسم العمومي.

والقسم الثاني هو القسم الخصوصي فقد تناول فيه دلالة الوصل والفصل والوصل والفصل بالخيال وحظ السامع ودلالة الحذف وحسن الترتيب والمقابلة والاستثناء وانتهاز الفرصة في كلام العرب والقرآن والمجاز والكناية والتشبيه ودلالة

¹ سورة الرحمن: 4-1

المجاز في الأزمنة ولسان الغيب والإشارة والكناية والتعريض وهذه كلها بأسلوب جديد وجاء في غضون هذه المباحث بأشياء لم تكتب من قبل مثل حظ السامع.

وأما القسم الثالث وهو يشتمل على مباحث متفرقة حيث ذكر صرف الكلام عن سنته والجملة المعترضة ووجوه الخفاء في التمييز بين حسن الكلام وقبيحه وروح البلاغة وسرها وكمال البلاغة والإعجاز ومناطق محاسن الكلام وأخلاق العرب بما فيها قوى العرب العقلية والكلامية وارتجالهم وصوت الخطيب ومذهب العرب في نقد الكلام والفواصل والقوافي. ولقد جاء في هذه المباحث بأشياء مفيدة للغاية وأبدع في مناقشة الموضوع فمثلاً حديثه عن الجملة المعترضة وكلامه عن أخلاق العرب ودفاعه عن سجيتهم للارتجال مباحث قيّمة بديعة.

وسادساً: أمور لم يسبق إلها: ولقد كتب الفراهي من خلال مباحث هذا الكتاب ما لا يوجد لدى الآخرين من البلاغيين والنحويين وهي بديعة نادرة ونودّ أن نشير إلى البعض منها على سبيل المثال لا الحصر فإن هذه المقالة الوجيزة لا تتحملها.

1. تقسيم البلاغة: أول ما نجده من روائع الفراهي بالنسبة للبلاغة هو تقسيمها إلى قسم عمومي وخصوصي فهذه قسمة جديدة لم يسبقه فيها أحد من المتقدمين فيقول الدكتور أحمد مطلوب في مقالته عن هذا الكتاب:

"تقسيم مباحث البلاغة إلى قسمين: القسم العمومي والقسم الخصوصي، وهو تقسيم جديد لم تألفه البلاغة العربية في تاريخها الطويل".¹

2. ربط البلاغة بالنقد: والشيء الجديد الثاني الذي نشهده لدى الإمام الفراهي بالنسبة لفن البلاغة هو ربطه إياها بالنقد مما لم يقم به المتقدمون.²

3. وضوح النزعة الأدبية في العرض والتحليل: والشيء الجديد الثالث الذي نراه لدى الإمام الفراهي ولو نجد لمحة عنه لدى غيره من المتقدمين هو أنه لا

¹ جمهرة البلاغة للدكتور أحمد مطلوب، ص 21

² المصدر نفسه، ص 21

يربط البلاغة بالسياسة أو الفلسفة أو بشيء آخر بل يربطها بالأدب وينظر إليها بهذا المنظار.¹

4. التمييز بين بلاغة العرب والعجم: والشيء المهم بالنسبة للبلاغة لدى الإمام الفراهي أنه لا يرضى أن ننظر في بلاغة العرب في ضوء أصول وضعها العجم فإن للعجم ميزات كما للعرب ولغتهم وأدبهم فينبغي لنا أن نبنيها على أساس الأدب العربي ولا سيما الأدب الجاهلي لا على الأدب اليوناني أو الفارسي. وهذا أقرب إلى فهم بلاغة العرب وروعتهم.²

5. نقد نظرية المحاكاة: ولقد انتقد الفراهي بشدة ما أدلى به أرسطو من أن الإنسان محالٌ من فطرته فهو يتعلم من حوله عن طريق المحاكاة. ومن هنا تطرق إلى أن الكلام الجيد ما كان كاذبًا لا صادقًا فقال:

"--- فلو قال: إن الشعر بل كل كلام ونغم جنسه الأعلى تصوير لكان أقرب، إذ ليس بين المحاكاة والتصوير إلا فرق يسير، ولكنه أبعد عن الصواب خطؤه في غاية الشعر ومادته ومبدئه. وكان مثار خطئه كلام قومه واستعمالهم إياه. ولو بحث عن أمر الشعر على طريق الفلسفة، ونظر فيه على الحكماء الأقدمين لم يخف عليه الصواب بعد الاقتراب ولم يلتبس عليه غاية الشعر".³

وقد أثبت أن الإنسان ناطق من فطرته لا محالٌ فقال: "الإنسان في فطرته ناطق" وقال: "إن النطق هو الفصل المقوم له لا المحاكاة كما زعم أرسطو".⁴ وكذا أثبت الفراهي في ضوء كلام العرب أن الشعر حسنه احتواؤه على الصدق لا على الكذب. وهذا بحث طويل فنكتفي بهذا القدر من الإشارة.

¹ المصدر نفسه، ص 21

² المصدر نفسه، ص 21

³ المصدر نفسه، ص 4-5

⁴ المصدر نفسه، ص 8

6. الفصل والوصل بالخيال: ولقد قرأنا كثيرًا عن الفصل والفصل في كتب

البلاغة ولكننا لم نجد ربطه بالخيال وذلك بكلمات الإمام الفراهي:

"الفصل يجعل الخيال جسرًا بين معنيين فإن وصلتها لم يكن للخيال أخفيت من الخيال وجعلت بين الجزئين اتصالًا ذهبت بلينة الجزء الثاني فلم يكن وصله بالثالث إلا أن يكون بخط مستقيم مع الأولين ومثال الوشاح يبين لك هذا الأمر كما أظهر الأمر الأول فإن شئت أن لا يكون فصل زدت بين كل فصل أمرين بل ربما أمورًا الأمر الأول لبيان اتصال الجزئين والأمر الثاني لبيان اتصال الثالث وجملة القول أن الكلام إذا لم يكن على خط مستقيم لا بد له من واصلات والفصل ربما هو أحسن الواصلات".¹

7. حظّ السامع: هذا أيضًا مبحث جديد في فن البلاغة وذلك كما يقول الفراهي:

"اعلم أن الكلام تنازع الحديث وإن سكت السامع ويُرَى منصبًا فإنهما يجريان معًا قائداً ومقودًا فإذا وقف السامع والمتكلم جار على رسله ذهب كلامه ضائعًا كأنه لم يتكلم فإذا علمت ذلك تبيّن لك شدة الحاجة إلى رعاية جانب السامع وهديت إلى حكمة أساليب لم تكن للكلام لولا هذا الأصل الراسخ والآن نذكر منها عيونها. فمنها الاستفهام لينبه السامع ومنها السكوت ليستريح ومنها بعض الحذف ليصير السامع متكلمًا في نفسه فيعمل عقله ومنها منبهات الرغبة والنفرة ومنها الالتفات لينبه بما أحسن من جديد ومنها التمثيل ليشاهد محسوسًا فينتبه من رقدته ومنها تبدل الحركات والالتفات ومهيجات الضحك والحزن فهذه الأمور مع فوائدها الأخر أسباب لانتباه السامع ---".²

8. انتهاز الفرصة: وكذا انتهاز الفرصة وهو شيء غير الجملة المعترضة

فيقول الفراهي:

¹ المصدر نفسه، ص 66

² المصدر نفسه، ص 67-68

"اعلم أن للفظ، مثل سائر التداوير، محلاً وموقعاً إن فاتته ذهب مضيقاً ولو أتقن كل الإتقان وهذا باب وسيع ولكني ههنا أريد موقع اللفظ في الكلام فإنك تجد بين أجزاء حديث جار ألقى كلام بل لفظة لا يكاد يلقيه كل متكلم. وهذا الجزء المدرج هو الذي يسمونه جملة معترضة ولكنك ستعلم أنه ربما لا يزيد على كلمة واحدة. فشأن هذه المعترضة ليس بهين فإن لها مواقع خفية لا يفتن لها إلا الذكي المتوقد فمتى ما وجد لها فرصة انتهز لها حتى أنه إن فاتته الفرصة ثم تذكرها ندم على فواتها ولكي يتبين ما قلت لك أورد ههنا أمثلة. قال نابغة بني ذبيان:

نبئت نعماً على الهجران عاتبة سقياً ورعيّاً لذاك العاتب الزاري
فلو ترك المصراع الثاني ومرّ في الكلام يصفها أو يشكها لم يرتفع من الدرجة الوسطى ثم أضاف كلمة الرازي فأكد بها المقابلة بين الدعاء والعتاب فهي مثال لما قلت لك إن المعترضة ربما تكون كلمة واحدة وخذ مثلاً آخر من كلامه:

إن الحمول التي راحت مهجرة يتبعن كل سفيه الرأي مغيار
لم تكن له حاجة بادية إلى أن يزيد على المغيار كلمة سفيه الرأي وإني أتعجب من النابغة هذه الكلمة الواحدة مثلما أتعجب منه إيراد هذا حديث المغيار فإني رأيت الشعراء لهجوا بذكر البأس والمنعة دون معشوقهم أو عداوة الحماة وحنقهم ولكن النابغة ترك تلك الأمور المبتذلة وأخذ ما هو ملاك الأمر ثم زاد عليه سفاهة الرأي لتأكيد سوء الظن ثم لم يقل إن ذا رحم لها مغيار وسفيه الرأي فتظن أن ذلك أمر واقع من الاتفاق بل جعل هذا المغيار أمير الرفقة فوصفه بسفاهة الرأي ليس إلا مجازاً لما هو لا يرضى من غيرته وشدة الغيرة يفصح عن الحسن فالبيت حقيقة في شكاية الحرس وكناية عن الحسن. وكانت العرب منتبهين لهذا الإدراج فلهجت به فصحاءهم وطربت له أذهانهم وكان النابغة هذا أسبقهم في هذه الصنعة حتى أنك ترى من قدّمه على سائر الشعراء قدّمه بأبيات ليس في أكثرها إلا تلك الصنعة".¹

¹ المصدر نفسه، ص 71-72

وكذا تفريقه بين الشعر والخطابة من حيث الهيجان والعلو، وجعله العروض والنغمة والرقص في سلك واحد، ولسان الغيب وقضية الارتجال والاعتزاز بالعرب لأنهم أركى الأمم والاهتمام باللغة العربية ذات الخصائص التي تميزها عن اللغات الأخرى، والتمسك ببلاغة العرب والعزوف عن بلاغة العجم، والعناية بالأسلوب العربي البليغ أشياء لا نراها لدى الآخرين.

وليس هذا فقط بل إنه يأتي بالجديد في كل بحث يتناوله فمثلاً قضية الجملة المعارضة فقد جاء الفراهي بالجديد فقال:

"الجملة لا بد من وضعها في محلها الذي توضع فيه لوجوه خاصة فلا بد من قطع الكلام ولكن هذا القطع لا بد أن يكون غير مذهل عن مجرى الكلام ولذلك يلتبس أحياناً ما يرجع إلى المجرى إما بتكرار كلمة أو إعراب حسب إعراب ما قطع عنده الكلام. أما الوجوه الخاصة للاعتراض ففرصة الكلام المفيد ليكون أوقع عند القرية منه ودفع دخل لا بد من دفعه".¹

وسابغاً: الفراهي يمدح العرب وقواهم وسجاياهم: ولقد وجدنا الفراهي يمدح العرب كثيراً في معظم مؤلفاته لاسيما هذا الكتاب الوجيز فيقول وهو يشير إلى براعتهم وحذاقتهم في تسمية الشيء:

"--- ونوجّهك إلى اسميهما (الشاعر والخطيب) عند العرب فإنهم أحذق الأمم في التسمية فتعما فعلوا حين سمّوا الشاعر شاعراً والخطيب خطيباً. فإن الشاعر يشعر بأمر فيحتاج للقول فيقول كما أن الضحك والبكاء والتثاؤب والسرقعة والعطسة أفعال غالبية على النفس فكذلك الشعر وليس هيجانه للقول إلا لأنه أكثر الناس شعوراً (أي إحساساً نفسانياً) فكما أن الجسم من جهة إحساس قاهر جسماني يصدر عنه التثاؤب والعطسة فكذلك النفس تشعر بباعث ما من السرور والحزن والرضى والسخط والعجب واليأس وأمثالها فينطق. وليس المراد بأكثر الناس شعوراً

¹ المصدر نفسه، ص 79

أنه يحزن مثلاً بأكثر من سائر الناس بل إن شعوره يعمل فيه فينبه متخيله ونطقه وغناؤه فتيقظ فيه هذه القوى وأما غيره فشعوره جامد خامد فكأن الشاعر نبات حي إذا سقيت أصله ذهب الماء في كل عرق منه فاهتز فكذلك الشاعر يدب الإحساس في جميع مشاعره فيفيض منه الكلام كما قال عبد الله ابن عمرو بن عثمان حين قيل له كيف تقول الشعر مع النسك والفقه فقال "إن الصدور لا يملك أن ينث" وقيل لصحار العبيدي ما هذا الكلام الذي يظهر منك قال "شيء تجيش به صدورنا فننقذه على ألسنتنا" فأما الخطيب فليس هو بأقل شعوراً من الشاعر ولكنه فارق الشاعر في أنه غالب على شعوره فليس حاله كالمصدر والمتناوب المقهور ولكنه قاهر على نفسه ومنغمس في مخاطبين فهمه التأثير في غيره كما أن الشاعر لا هم له إلا الانقياد لقوى تعمل فيه. فالخطيب لا يفارق الشاعر في الهيجان ولا قلة الشعور ولكنه بزيادة صفة عالية استحق هذا الاسم فالشاعر ملتفت إلى الماضي والخطيب ينظر إلى المستقبل. فالخطيب أرفع منزلة لغرضه الأعلى وأقوى عقلاً وأشدّ قوة وأذكي نفساً كما أن الشاعر أغنّ طبعاً وأرقّ فطرة ولذلك من نظر في كلام الخطيب وهيجان قلبه ولم يؤمن بعلو غرضه وطهارة نفسه وصحة رأيه لم يفرقه من الشاعر بل لتصويره البعيد المنتظر الذي لا يراه غيره يظنه مجنوناً. ولذلك ترى العرب وصفوا الخطبة بالحكمة والبيان والفصل كما أنهم وصفوا الشعر بالسحر".¹

ويشير إلى طول باعهم في اختيار الخاص في محل العام المهم فيقول:

"--- ثم مع هذه الثلاث اختيار الخاص في محل العام المهم مثلاً لفظ زيد أشدّ تصويراً من لفظ رجل. وهذه الوسيلة فيها العرب أطول باعاً فإن لهم ألفاظاً خاصة تحت كل جنس عام أكثر من سائر اللغات. فيصوّرون الشيء ويمثلونه مشخصاً بين يديك من غير ضم صفة وفي ذلك لهم طرق كثيرة. الأول وجود الأسماء الدالة على أنواع جنس واحد. والثاني وجود الأفعال مثل ذلك كما ترى في كسر حطم فتق فلق ولهذين الأمرين نحولك إلى كتب هذا الفن. والثالث من جهة الاشتقاق للدلالة على

¹ المصدر نفسه، ص 14-15

التأنيث والتثنية وجمع القلة وعلى الشدة مثل كسر وكسر وقتل وقتل وحطم وحطم ومثل سقط وتساقط وعلا وتعالى ومثل كسب واكتسب وجهد واجتهد ومثل خشن واخشوشن وحذب واحدودب ومثل بعث وبعثر وعلى هيئة الشدة في الأسماء مثل خضم وعفرناه وكذلك هيأت الشدة في الصفة والمصدر مثل فاعل وفعال وخلافة وخليفي وللدلالة على هيئة الاشتراك ثم فرق المتعدي من اللازم في الاشتراك مثل شتم وشاتم وتشاتم ومع ذلك جعل الأفعال من الأسماء مثل تأبط وحملق ومن الجملة مثل بلل وحوقل وجعل المجهول من المعروف من غير زيادة. ومن جهة الاشتقاق للدلالة على حالة مع الفعل من التطلب له كاستعان واستفهم أو التكلف فيه مثل تسرّ ثم التعدي في مثل تمارض¹.

ويمدحهم في مطابقة الصوت بالمعنى مستدلًا بالأبيات ومنها بيت لبيد التالي:

غلب تشدّر بالذحول كأنهم جن البدى رواسيا أقدامها

فيقول:

"المراد من البيت الصدر في أمر الصوت والعجز في أمر التشبيه فاجتمعت خشونة المعنى والصوت والتشبيه وفي القرآن (كشجرة خبيثة اجتثت) ولم أر قوّمًا راعى مطابقة الصوت بالمعنى كما أرى العرب فإنهم براء من التكلف مولعون بالصدق متجنبون من السفاسف"².

ويشير إلى قضية الإيجاز وعادة العرب فيها:

"ثم أهم الأمور في تأدية المعاني أن تصطفي من أحوال الشيء قليلًا يخبر عن كثير لم يذكر فإن التخييل يكون جملة كما أن إحساس الأشياء يكون بنظرة ووهلة فإن طال الكلام خالف سنة الطبع وإن صوّرت شيئًا بتفاصيلها كان ذلك من التاريخ والأخبار ويبعد عن البلاغة التي للكلام المحرك فإن ذكرت بعض الأحوال

¹ المصدر نفسه، ص 24-25

² المصدر نفسه، ص 49

الذي أغنى غناء الكل فقد أبلغت ضميرك وإن تركت هذا البعض وجئت بكل تفصيل فذلك هو العي. وهذا القليل الكثير ضالة البلغاء يحومون حولها ولا يجدونها فإذا هي وجدت قال كلهم هي هي. هذه التي كنت أبغي وكانت هي تجول في قلبي وكنت ألمسها ولا أجد. فأعجبوا بها لا لبعدها بل لشدة قربها فما كان منها أقرب كان أحسن. وهذه نقطة الافتراق بين العرب والعجم وبين رؤساء الكلام في الغرب والمشرق كهومروس وشاكسفير وفردوسي وعامتهم الذين طلبوا كل نادرة بعيدة من القافية والتشبيه والبديع. فكان تعجبهم لتصنع المتكلم لا لحسن الكلام فاجتمع لهم من محاسن الكلام أسماء سموها وفازت العرب منها بشيء واحد لا اسم له عند العجم وهو الصدق والتأثير وإن هذا لهو الذي يبلغ القلب".¹

خاتمة البحث

بدا من هذا الحديث الموجز أن الإمام عبد الحميد الفراهي كان عالماً كبيراً للقرآن وعلومه ومتضلعا من اللغات العديدة ومنها العربية. إنه ألف كتباً ورسائل عديدة تم البعض منها بينما الكثير منها لم تتم، وكل هذه الرسائل مليئة بالقضايا الدقيقة من علمية وأدبية وفنية، إنها تزخر بالأفكار البديعة والنكت اللطيفة والمعارف النادرة. وكل كتاب بدأ بتأليفه أو أتم تأليفه بديع من نوعه، فريد من جنسه. وأما كتابه الوجيز "جمهرة البلاغة" الذي لم يوفق إتمامه فهو أيضاً فاقده النظير في ترتيبه ومحتوياته، وفي تناوله للمباحث والقضايا البلاغية. إن الفراهي قدّم فيه أصولاً جديدة لم يألفها البلاغة العربية من قبل. وعلى هذا فصدق البلاغي الشهير الدكتور أحمد مطلوب حيث قال: "إنه كتاب فريد من نوعه، ألفه مسلم في الشرق الإسلامي، ولم يصل إلى البلاد العربية ليكون صورة من صور الدرس البلاغي في القرن العشرين للميلاد".²

¹ المصدر نفسه، ص 57

² جمهرة البلاغة للدكتور أحمد مطلوب، ص 21

المصادر والمراجع

أولاً: الكتب والرسائل:

1. البروفيسور ظفر الإسلام الإصلاحي، كتابيات فراهي، إداره علوم القرآن، علي كره، الهند، 1991م
2. البروفيسور عبيد الله الفراهي (جمع وتدوين)، علامه حميد الدين فراهي- حيات وأفكار، منظمة طلاب مدرسة الإصلاح الأقدمين، سرائ مير، أعظم كره، 1992م
3. الدكتور شرف الدين الإصلاحي، ذكر فراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سراي مير، أعظم كره، 2001م
4. السيد سليمان الندوي، ياد رفتگان، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 1999م
5. المعلم عبد الحميد الفراهي، الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، الدائرة الحميدية، سرائ مير، أعظم كره، 1994م
6. المعلم عبد الحميد الفراهي، جمهرة البلاغة، الدائرة الحميدية، سراي مير، أعظم كره، 1360هـ
7. المعلم عبد الحميد الفراهي، مفردات القرآن (تحقيق: الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002م

وثانياً: المجلات والجرائد:

1. مجلة "الإصلاح" الشهرية الصادرة عن مدرسة الإصلاح، سراي مير، أعظم كره، الهند
2. مجلة "الندوة" الشهرية الصادرة عن دار العلوم بندوق العلماء، لكتاؤ، الهند
3. مجلة "ترجمان دار العلوم جديد" الشهرية الصادرة عن منظمة طلاب دار العلوم بديوبند الأقدمين، نيو دلهي

وثالثاً: المواقع والشبكات:

1. www.ust.edu، الدكتور أحمد مطلوب، جمهرة البلاغة
2. aruc.org، الدكتور صالح سعيد الزهراني، سياسة البلاغة عند عبد الحميد الفراهي
- www.alukah.net، الدكتور أورنك زيب الأعظمي، الدائرة الحميدية، تاريخها ومساهماتها في تطوير العلوم والآداب

الإمام عبد الحميد الفراهي: منهجه وآراؤه في قضايا العقيدة الإلهية

- د. حمدي عبد الله نافع¹

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه وسار على نهجه إلى يوم الدين، أما بعد.

فإن علمائنا المتقدمين قد صَنَّفُوا في علم العقائد مؤلفات عديدة، ولا شك أنهم قد أفرغوا جهدهم في هذا المجال، غير أنَّ كثيرًا منهم اشتغل بالجدل واهتم بالمعقول، وقلَّ اهتمامه بالمنقول، وذلك بعد شيوع الفلسفة وتبني بعض العلماء الجدل الفلسفي الذي يؤدي في بعض الأحيان إلى الخروج عن جوهر العقيدة، ويقحم الدارسين في قضايا بعيدة كل البعد عن روح الإسلام وسماحة العقيدة، وليس معنى هذا أنَّ العلماء كلهم نهجوا هذا المنهج، بل من العلماء من سلك الطريق القويم في تناول قضايا العقيدة، وسلم إلى حد بعيد من التعصب البغيض والجدل غير البنَّاء، وهؤلاء هم علماء السلف وأهل السنة والجماعة.

ومن خلال اطلاعاتي وقراءاتي وجدت عالمًا جليلاً من علماء القرن الرابع عشر الهجري، ولد 1280هـ، وتوفي 1349هـ، قد فاق أقرانه في علوم أصول الدين وعلوم العربية وغيرها، له من المؤلفات ما يربو على الخمسين مؤلفًا بل ويزيد، من بينها كتابٌ في علم العقيدة أسماه "القائد إلى عيون العقائد" أورد فيه الكثير من قضايا العقيدة في الإلهيات والنبوات والسمعيات، وله كذلك تفسير للقرآن الكريم لم يتمه وقد أسماه "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" إلى غير ذلك من المؤلفات الكثيرة والمتنوعة والتي منها ما هو مطبوع ومنها ما هو مخطوط والتي يتضح منها غزارة علمه وصفاء ذهنه وسلامة عقيدته وحبّه للقرآن واعتماده عليه في كل ما يورده من قضايا، حيث جعله حاكمًا وليس محكومًا عليه.

¹ أستاذ مساعد، قسم العقيدة والفلسفة، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، جامعة الأزهر، والمعار إلى جامعة الإمارات العربية المتحدة

العدد الخاص مجلة الهند

لأجل ذلك اخترت الإمام الفراهي وفكره العقدي ليكون موضوعاً لهذا البحث وخاصة وأنه أعجبي من الهند، وقد تعلم اللغة العربية وأبدع فيها بل وأقرض الشعر وله ديوان بالعربية وآخر بالفارسية.

كما اعتنى بالفلسفة الحديثة، وتعلم فيها على يد المستشرق الإنجليزي الشهير توماس أرنولد.

يضاف إلى ذلك كونه شخصية مغمورة لم يتكلم عنها، على حد علمي واطلاعي، أحد من الباحثين في مصر، وإن كان قد تزامن مع كتابتي لهذا البحث اهتمام بعض الباحثين، في جامعة الإمارات، بالإمام الفراهي وكتب بحثاً عن جهوده في علوم القرآن، وآخر كتب عن جهوده في التفسير، فأردت أن أكتب عن آرائه في علم العقيدة، ولما كان هذا العمل بحثاً وليس كتاباً فقد رأيت أن أقتصر على آرائه في الإلهيات نظراً لأهمية موضوعاتها واختلاف العلماء في بعض قضاياها، فأردت أن أبرز آرائه فيها، وموقفه من آراء العلماء السابقين في هذه القضايا وسوف أكمل باقي آرائه في قضايا العقيدة، النبوات والسمعيات، في عمل آخر إن شاء الله تعالى. وقد واجهتني بعض المشكلات أثناء كتابتي لهذا البحث: منها أن كتابه "القائد إلى عيون العقائد" به بياض كثير، والكلام في كثير من الأحيان غير كامل مما صعب علي المهمة، كما أن بعض كتبه لا زالت مخطوطة، وقد بذلت جهداً مضمناً للوصول إلى هذه المؤلفات نظراً لعدم نشر الكثير منها في دور النشر ولكن بعلاقاتي الشخصية ولقائي ببعض المهتمين بفكر الإمام الفراهي استطعت أن أحصل على كثير من هذه المؤلفات، خاصة ذات الصلة بهذا البحث.

ويتكون هذا البحث من مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة:

المبحث الأول: في التعريف بالإمام الفراهي (اسمه وكنيته ونسبته ومولده ونشأته ورحلاته العلمية، ووفاته وثقافته ومؤلفاته العلمية).

المبحث الثاني: في مناهج البحث في قضايا العقيدة ومشكلة العلاقة بين العقل والنقل وموقف الفراهي منها.

المبحث الثالث: آراؤه في قضايا العقيدة الإلهية – وفيه ثلاثة مسالك:

المسلك الأول: طرق الاستدلال على وجود الله تعالى.

المسلك الثاني: صفات الله تعالى وآراء العلماء فيها وموقف الفراهي منها.
المسلك الثالث: أفعال العباد الاختيارية وعلاقتها بالإرادة الإلهية وموقف الفراهي منها.
وأما الخاتمة فسوف أذكر فيها أهم نتائج البحث وما نتوصل إليه من توصيات.

المبحث الأول

التعريف بالإمام الفراهي¹

اسمه وكنيته ونسبته: هو عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان قنبر بن تاج علي، حميد الدين، أبو أحمد، الأنصاري، الفراهي.

¹ اعتمدت في التعريف بالإمام الفراهي على ترجمتين من أهم ما كتب عن الفراهي وهما:

- 1- ترجمة العلامة السيد سليمان الندوي - رحمه الله - وهو تلميذ للإمام الفراهي - مقالين:
أ- ترجمة موجزة بالعربية كتبها بعد وفاة الفراهي - رحمه الله - بشهرين في 27 شعبان 1349 هـ ونشرت في آخر كتابه "إمعان في أقسام القرآن" المطبعة السلفية بالقاهرة سنة 1349 م، وقد أثبتها الدكتور الفراهي - صاحب الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح، أعظم كره، الهند - في تقديمه لبعض الكتب المطبوعة للإمام الفراهي، مثل كتاب "نظام القرآن في تأويل الفرقان بالفرقان" تفسیر سورة البقرة، طبعة الدائرة الحميدية سنة 2000 م وكتاب "الرأي الصحيح في من هو الذبيح" طبعة دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى 1999 م، وطبعة دار القلم لكتاب "إمعان في أقسام القرآن"، دمشق، 1994 م.
ب- ترجمة مفصلة نشرت في مجلة "معارف"، عددي يناير وفبراير 1931 م، وسنحيل لهذه الترجمة على كتاب "مختصر حيات حميد".
 - 2- الترجمة التي أوردها الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي في مقدمة الكتاب الذي حققه وشرحه للإمام الفراهي وعنوانه "مفردات القرآن" والتي اعتمد فيها على عدة مصادر أهمها:
أ- الترجمة الذاتية التي كتبها الإمام الفراهي - رحمه الله - بخطه في دفتر مذكرات العلامة الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي - رحمه الله - ولد في سجلماصة 1311 هـ وتوفي في الدار البيضاء 1407 هـ - عندما زاره في قريته في رمضان 1342 م أي قبل وفاة المؤلف بسبع سنوات، وهي على وجازتها أوثق مصدر لسيرته، كما يقول الدكتور محمد أجمل.
ب- رسائل العلامة شبلي النعماني المتوفى سنة 1914 م وهو ابن عمه الإمام الفراهي، وهي منشورة ضمن مجموعة "مكاتيب شبلي"، 1/2-55.
ج - نزهة الخواطر للعلامة عبد الهي الحسني المتوفى سنة 1341 هـ، 248/8 - 249.
د - مقال للدكتور شرف الدين الإصلاحي بعنوان "ترجمان القرآن مولانا حميد الدين الفراهي" نشر في مجلة "معارف"، عدد رجب 1411 هـ لخص فيه كتابه الجليل الذي ألفه في سيرة الفراهي، وقد صدر مؤخراً بعنوان "ذكر فراهي" من الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح، أعظم كره (الهند).
- راجع: كتاب مفردات القرآن "نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية" للإمام عبد الحميد الفراهي تحقيق وشرح: الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي - طبعة دار الغرب الإسلامي، دار صادر، بيروت، 2002 م، من ص 11-12.

العدد الخاص مجلة الهند

وفي ترجمة العلامة سليمان الندوي اسمه الحقيقي: حميد الدين، ولكن لما كان هذا الاسم في العربية لقب مدح وتعظيم، سعى نفسه في أول مصنفاته العربية "عبد الحميد".

والحق كما يراه الدكتور محمد أجمل الإصلاحي أن "عبد الحميد" هو الاسم الذي سعى به بعد ميلاده، وظل معروفاً به، حسب الشواهد الثابتة، إلى سنة 1306 هـ إذ كان عمره 26 سنة.¹

وقيل أن اسمه مركب وهو محمد عبد الحميد.²

وقد غلب اسم "حميد الدين" على عبد الحميد وخاصة بعدما ثبت في أوراقه الرسمية، واشتهر به لكونه أقرب إلى ذوق أهل الفارسية والأردية، وأكثر شيوعاً على ألسنتهم، فأخذ الفراهي نفسه يوقع مكاتباته بـ "حميد الدين".

وبهذا الاسم صدرت كتبه التي أعدها بالفارسية والأردية، أما كتبه التي أعدها بالعربية، وهي جل مؤلفاته، فأثبت عليها اسمه هكذا: "المعلم عبد الحميد الفراهي".

أما كنيته: فيكنى بأبي أحمد، وهو الذي كنى بها نفسه في أول ديوانه العربي المسعى (ديوان أبي أحمد الأنصاري)،³ وقد ثبتت هذه الكنية أيضاً في مطلع قصيدة له وردت في ديوانه المطبوع بعنوان (في تناول الطليان على طرابلس).⁴

ونسبته الفراهي: نسبة إلى قرية (فريها) من قرى أعظم كره أحد أضلاع الإقليم الشمالي في الولايات المتحدة بالهند، وهي ولاية "أترابرايش".

¹ المرجع السابق يتضمن كل الشواهد التي تؤكد أن اسمه الحقيقي عبد الحميد وليس حميد الدين.

² المرجع السابق، ص 14 حيث استشهد على هذه التسمية.

³ نسخة منقولة من أصل المؤلف محفوظة في مكتبة دار المصنفين بمدينة أعظم كره، نقلاً عن المرجع السابق ص 15.

⁴ ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي، ص 8 - 10. وجدير بالذكر أنه لا يوجد أحد من أولاده اسمه أحمد ولعله قصد من هذه الكنية التعمية على استخبارات الاستعمار البريطاني - حيث كان يحرض المسلمين على الجهاد ضد الصليبيين، راجع: مختصر حيات حميد، ص 61.

مولده ونشأته ورحلاته العلمية: ولد الفراهي في قرية فريها صباح يوم الأربعاء سادس جمادى الآخرة سنة 1280هـ¹ في أسرة كريمة معروفة بنسبها وعلمها وفضلها ومكانتها الاجتماعية، تعدّ من وجهاء المنطقة وأعيانها، الأمر الذي كان له المردود الإيجابي في تعلّمه ووفرة شيوخه الذين قاموا بتعليمه، إذ عيّن له مؤدّب يسمّى الشيخ أحمد علي،² فقرأ عليه القرآن الكريم وحفظه وهو ابن عشر سنين.

كما تعلم اللغة الفارسية في منزله أيضاً في مدة تسعة أشهر³ أخذها عن الشيخ محمد مهدي الذي كان من المؤدّبين المشهورين في تلك الديار، وله ديوان شعر بالفارسية، ونسج وهو ابن ستة عشر عاماً قصيدة فارسية صعبة الرديف، باري فيها شاعر الفارسية الطائر الصيت "خاقاني الشرواني" المتوفى سنة 595هـ⁴ والملقب بـ"حسان العجم" فأثى فيها بما أعجب الشعراء.

واشتغل بعد ذلك بطلب العربية على يد الشيخ شبلي النعماني،⁵ فأخذ منه العلوم العربية كلها من صرفها ونحوها، ولغتها وأدبها، ومنطقها وفلسفتها.

ثم سافر إلى لكنؤ مدينة علم الولايات المتحدة بالهند، وتتلّمذ على الفقيه المحدث الإمام "أبي الحسنات عبد العي اللكنوي (ت 1304هـ)⁶ صاحب التعاليق المشهورة، ثم ارتحل إلى لاهور وأخذ الأدب العربي من إمام اللغة العربية وشاعرها المفلق في

¹ هذا التاريخ لميلاد الإمام الفراهي وجد في وثيقة، ضمن نسخة كتاب الدر النضيد للفراهي، وقد وجدها جامع كتاب "مفردات القرآن" الدكتور بدر الدين الإصلاحي رحمه الله سنة 1980م، راجع: مفردات القرآن، المرجع السابق، ص 13، مقدمة كتاب "إمعان في أقسام القرآن"، لسليمان الندوي، المرجع السابق، ص 15، طبعة دار القلم.

² مقال الدكتور شرف الدين الإصلاحي، مجلة "معارف" عدد رجب 1411هـ، ص 89، نقلاً عن كتاب "مفردات القرآن" (المحقق)، المرجع السابق، ص 16.

³ الترجمة الذاتية للفراهي، مجلة "الضياء" المجلد الثاني، العدد السابع، ص 260، نقلاً عن المرجع السابق ص 16.

⁴ ترجمته في كتاب "لباب الألباب"، ص 405.

⁵ مؤلف كتاب "الانتقاد على تاريخ التمديد الإسلامي" لجرجي زيدان بالعربية، و"سيرة النبي"، و"الفاروق" و"شعر العجم".. وغاير ذلك بالأردية، توفي سنة 1914م، راجع: إمعان في أقسام القرآن للفراهي، طبعة دار القلم والدار الشامية، 1994م، ص 15-16 هامش (3)، الإعلام للزركلي، دار القلم للملايين، بيروت، 1984م، 355/3.

⁶ تنظر ترجمته في: نزهة الخواطر، 250/8.

العدد الخاص مجلة الهند

ذلك العصر "فيض الحسن السهارنفوري" (ت 1304هـ)¹ شارح الحماسة، والمعلقات شرحًا ثلاثي اللغات. وأستاذ اللغة العربية في كلية العلوم الشرقية بلاهور. فبرع الفراهي في الآداب العربية، وفاق أقرانه في الشعر والإنشاء، وقرأ دواوين الجاهلية، وحلّ عقد معضلاتها، وقنص شواردها، فكان يقرض القصائد على منوال الجاهليين، ويكتب الرسائل على سبك بلغاء العرب وفصحائهم.

ثم عرج على اللغة الإنجليزية، وهو ابن عشرين سنة، ودخل في كلية عليكره الإسلامية² ونال شهادة (B.A) الليسانس من جامعة الله آباد وامتاز في الفلسفة الحديثة وقد أخذها من المستشرق الإنجليزي الشهير توماس أرنولد الذي كان من أساتذة الكلية،³ فصار عالمًا بالعلوم العربية والدينية، وفاضلاً في العلوم العصرية والإنجليزية، فاجتمعت فيه خصال الجنسين؛ المتقين من العلماء الراسخين، والمتنورين من الفضلاء الكاملين.

أعماله والمناصب التي تقلدها: نصب بعد ذلك معلماً للعلوم العربية بمدرسة الإسلام بكراتشي،⁴ عاصمة السند، فدرّس فيها سنين، وكتب وألف، وقرض وأنشد، ثم عيّن عام 1324هـ أستاذًا مساعدًا للعربية في كلية عليكره، وبعد سنتين وفي عام 1326هـ عيّن أستاذًا للعربية بجامعة (الله آباد)، واختير عضوًا في اللجنة العربية للعلوم الشرقية، ثم اختارته حكومة حيدر آباد، الدكن عميدًا لدار العلوم.

وكان الفراهي أحد المؤسسين للجامعة العثمانية بحيدر آباد، وهو الذي اقترح أن يكون تدريس العلوم الشرعية باللغة العربية، والعلوم العصرية باللغة الأردية، إلا أنه أجيب للمطلب الثاني دون الأول.⁵

¹ تنظر ترجمته في: نزهة الخواطر، 389/8.

² جامعة عليكره الآن.

³ وقد عمل فيها مدرسًا لمدة عشر سنوات، من مؤلفاته كتاب "الدعوة إلى الإسلام" الذي نال قبولًا عظيمًا عند الباحثين المسلمين، لكن الفراهي كان ينتقد هذا الكتاب، ويرى أن الغرض من تأليفه تجريد المسلمين من روح الجهاد. مختصر حيات حميد، ص 34.

⁴ باكستان حاليًا.

⁵ مختصر حيات حميد، ص 17.

ثم استقال من خدمته، ولزم بيته، وانقطع إلى العلم، وكان قد أسس بالقرب من قريته مدرسة سميت مدرسة إصلاح المسلمين التي فيما بعد بمدرسة الإصلاح فكان ينظر في شؤونها، ومن أجل مقاصدها تحسين طريقة تعليم العربية، وإلغاء العلوم البالية والعكوف على طلب علوم القرآن، والبحث عن معانيه ونظمه وأحكامه وحكمه، وتدريس الحديث النبوي والفقه الإسلامي بعيداً عن التعصب المذهبي.

وكان رئيساً للجنة المديرين لدار المصنفين التي أسست تذكراً لشيخه شبلي النعماني، فكان هو أحد مؤسسيها، وكان يقضي أوقات فراغه في التأليف، والتدوين والنظر في كتاب الله ومعانيه وكان حسن النظر في كتب اليهود والنصارى، كما كان يقوم بإلقاء الدروس لتلاميذته الملتفين حوله.¹

وفاته وثناء العلماء عليه: ظل رحمه الله منقطعاً إلى هذا البر من العمل، حتى أتاه الأجل في التاسع عشر من جمادى الثانية 1349هـ الموافق الحادي عشر من نوفمبر 1930م، حيث مات غريباً في مدينة متهورا كعبة الوثنيين في الهند، كان قد رحل إليها للاستشفاء، لكن وافته المنية بعد أن أنهكته العلة، وهو محتسب صبراً مطمئن شكراً، يجود بنفسه وهو يتلو القرآن، ويشكر الرحمن، حتى أسكت الحمام ناظم الكلام إلى يوم القيامة.²

وقد رثاه عدد من أصدقائه بقصائد عربية وفارسية وأردية.

ثقافته في العلوم العقلية: كان الفراهي عالماً يتمتع بثقافة واسعة ومتنوعة، فقد برع في العلوم العقلية والنقلية، ومهر في اللغات العربية والفارسية والإنجليزية، وتعلم اللغة العبرانية، وانفرد من بين معاصريه من علماء الهند بأنه درس مع كل ذلك علوم الغرب وآدابه في اللغة الإنجليزية دراسة الناقد البصير، ثم لم يزد ذلك إلا قوة في الدين واستقامة عليه علماً وعملاً.³

¹ سليمان الندوي، أقسام القرآن، المرجع السابق، ص 17، 18.

² المرجع السابق، ص 19.

³ مقدمة "مفردات القرآن"، المرجع السابق، ص 22.

ونظرًا لانتشار جمعيات التنصير في الهند آنذاك، وشغفه إلى الاطلاع على كتب اليهود والنصارى ودراساتها بدقة وبصورة مباشرة، درس الفراهي اللغة العبرانية.

"فاستفاد الفراهي بمعرفته للغة العبرانية ووقوفه على الدراسات المتعلقة بصحف أهل الكتاب في اللغة الإنجليزية؛ في كشف كثير من تحريفاتهم بنصوص كتبهم، كما نرى في كتابه "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" فقد جاء بثلاثة عشر دليلاً من التوراة نفسها للرد على زعمهم بأن الذبيح إسحاق عليه السلام، وناقش علماء أهل الكتاب، وفسّر بعض ما أشكل عليهم من كتبهم" ومن ثم رشّحه العلامة شبلي النعماني للرد على شبهات المستشرقين وافتراءاتهم على القرآن الكريم، ذلك حينما كتب إليه بعض المسؤولين في حكومة بهوبال فأجاب بأنه لا يوجد في الهند كلها من يستطيع أن يقوم بهذا العمل مثل حميد الدين.¹

وقد اهتم الفراهي بالعلوم العقلية أيام طلبه للعلم إذ كانت من المقررات الإجبارية في عصره، ثم اهتم بالفلسفة الحديثة حينما دخل كلية عليكره، ونال فيها درجة الامتياز – كما سبق وأشرت -، يقول الأستاذ عبد الماجد الدرايابادي الذي كان من المتخصصين في الفلسفة الحديثة: "إن الفراهي قد درس الفلسفة دراسة واسعة وعميقة جدًا، وكان يقرأ أحدث ما يصدر في الغرب من كتب الفلسفة والمنطق.. قراءة بحث ونقد ومقارنة".²

وكان من أعظم كتبه التي لم يكملها كتاب حجج القرآن، والأبواب الثلاثة الأولى منه في نقد الفلسفة والمنطق وعلم الكلام، وكتاب القائد إلى عيون العقائد، والعلماء والباحثون الذين حضروا مجالسه ومحاضراته، كانوا يشهبونه بشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في ذلك وفي تبحره في علوم القرآن.³

¹ مكاتيب شبلي، 1/25.

² مقالته في: صحيفة الداعي، عدد 3 ديسمبر 1976م، نقلًا عن كتاب "مفردات القرآن"، المرجع السابق، ص 25.

³ المرجع السابق، ص 26.

العدد الخاص مجلة الهند

تلامذته: كان الإمام الفراهي رحمه الله مرجعًا ومنتهى لكثير من العلماء الأجلاء نظرًا لما انفرد به من بين أقرانه من الجمع بين الثقافتين الإسلامية والغربية والتعمق فيهما.¹

وقد حضر مجالس الفراهي واستفاد من علمه الكثير، وتأثر بعضهم بأفكاره كما تبين ذلك من كتاباتهم وأقروا بذلك أنفسهم أو بعض أقرانهم من هؤلاء:

1. الأستاذ عبد الله العمادي (ت 1366هـ).
2. العلامة السيد سليمان الندوي (ت 1373هـ).
3. الشيخ مناظر أحسن الكيلاني (ت 1375هـ).
4. العلامة صاحب الرئاسة أبو الكلام آزاد (ت 1377هـ).
5. الأستاذ عبد الماجد الديابادي (ت 1397هـ).

أما تلامذته الذين حملوا لواء فكره، وقاموا بنشره فهم الذين استفادوا منه في آخر حياته في مدرسة الإصلاح، ولا سيما الشيخ أختر أحسن الإصلاحي (ت 1378هـ) والشيخ أمين أحسن الإصلاحي (ت 1418هـ)²

منهجه في التأليف: يحسن بنا قبل أن نذكر أسماء ما صنفه الفراهي من مؤلفات، وما خلفه من آثار علمية أن نشير باختصار إلى منهجه في التأليف، حيث يختلف مع كثير من مناهج المؤلفين، فالقضايا التي كانت تشغل الفراهي ويرى ضرورة الكتابة فيها وحل مشكلاتها كانت ماثلة أمام عينيه، يتم النظر والبحث فيها، فإذا حقق مسألة أو حل معضلة أو أحكم رأيًا قيد ذلك وكتب عليه: (من كتاب كذا..). حتى إذا اكتملت جوانب البحث أقبل على تأليفها وتنسيقها، ولذلك كان يؤلف كتباً عديدة في وقت واحد، وقد بقي أكثر مؤلفاته ناقصاً نظراً لتبنيه هذا المنهج، وكذلك لكثرة مشاغله، والأمراض التي أنهكته. لذلك فقد أكمل بعض مصنفاته ونشر أكثرها في حياته، وترك البعض الآخر جملة من الفصول، والبعض عبارة عن مباحث أو إفادات... إلخ.

¹ مكاتيب شبلي، 37/2-38، نقلاً عن "مفردات القرآن"، المرجع السابق، ص 29.

² للوقوف على بيانات أكثر عن هؤلاء ينظر: المرجع السابق، ص 30، 31.

العدد الخاص.....مجلة الهند

ونظرًا لكثرة مؤلفات الفراهي¹ وتعددتها سواء أكانت مطبوعة أو مخطوطة، وكذلك لكونها متنوعة بين اللغة والأدب والبلاغة والتفسير والعقيدة والفلسفة، ومنها ما هو بالعربية، وما هو بالفارسية، والإنجليزية، وكثير من الرسائل، والمسودات والإفادات... إلخ. ونظرًا لضيق المقام أيضًا لكون هذا العمل بحثًا وليس كتابًا رأيت أن أشير إلى مؤلفاته ذات الصلة بالتخصص (العقيدة والفلسفة) مما هو مطبوع أو مخطوط، وهي:

أولاً- المؤلفات المطبوعة:

(1) القائد إلى عيون العقائد، وهو يشتمل على مجموعة أفكار قيمة للإمام الفراهي رحمه الله قد ابتكرها-كما يقول جامع الكتاب بدر الدين الإصلاحي- في ضوء القرآن، ولكن لم يتيسر له أن يرتب الكتاب ويضع هذه الأفكار في مواضعها، فكانت مبثوثة في مخطوطاته، وقام بدر الدين الإصلاحي بجمعها ووضعها في هذا الكتاب الذي سماه الفراهي بهذه التسمية، ويعيب هذا الكتاب وجود بياض في الأصل، متكرر. ويشتمل هذا الكتاب على مقدمة وثلاثة أبواب: أما المقدمة فبين فيها موضوع الاعتقاد، ومثار النزاع في العقائد، والعلاقة بين العقل والنقل، والعقائد والشرائع... إلخ.

¹ حيث أوصلها السيد سليمان الندوي إلى أربعة وأربعين مؤلفًا منها أربعة كتب بغير العربية، وهذا ما أورده في مقدمة تفسير سورة البقرة، وفي مقدمة كتاب "أقسام القرآن" أوصلها سليمان الندوي أيضًا إلى أربعين كتابًا فقط حيث زاد في الأولى هذه الكتب: "الدر النضيد في النحو الجديد"، "الطارق والبارق"، "قيد الأوابد"، "لوامع الأفكار". راجع: تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان (سورة البقرة) للفراهي، طبعة الدائرة الحميدية، (ترجمة الفراهي)، ص 15 - 18 وأقسام القرآن، المرجع السابق، ص 19 - 22.

وزاد محقق كتاب "مفردات القرآن" في ترجمته للفراهي خمسة كتب لم ترد في الترجمتين السابقتين بالإضافة إلى الأربعة التي أشرت إليها:

- 1 - أصل الفن (رسالة بالأردنية في الأصول العامة لتعليم العلوم في 8 ورقات).
 - 2 - تعليقات في التفسير قيدها على حواشي نسختين من المصحف الشريف.
 - 3 - مسائل النحو في 8 ورقات.
 - 4 - النظام في الديانة الإسلامية وهو جزء من كتاب حكمة القرآن، أفرده في كتاب نظرًا لأهميته.
 - 5 - تفسير سورة آل عمران التي وصل فيها إلى الأردية (31).
- قارن المرجعين السابقين مع كتاب "مفردات القرآن" (المحقق)، المرجع السابق، ص 32 - 39.

العدد الخاص مجلة الهند

وأما الباب الأول ففي الألوهية، والباب الثاني في الرسالة، والباب الثالث في المعاد.

ويتألف الكتاب من 207 ورقة، وقدم له جامعه بدر الدين الإصلاحي، ونشرته الدائرة الحمديّة، سرائي مير، أعظم كره، الطبعة الأولى، 1395هـ/1975م.

(2) في ملكوت الله، قصد فيه ذكر السنن الإلهية في رقي الأمم وانحطاطها وعلو الحق وهزيمة الباطل وأصول النظام السياسي للإسلام، ولم يتمه، نشرته الدائرة الحمديّة سنة 1391م.

(3) رسالة في عقيدة الشفاعة والكفارة بالإنجليزية، رد بها على بعض علماء النصارى وقد ذكرها السيد سليمان الندوي ولم نقف عليها.

(4) الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، صدر الكتاب في حياة المؤلف سنة 1338هـ، وطبعته مطبعة المعارف بأعظم كره، وصدرت له طبعة من الدائرة الحميدية سنة ١٤١٤، ثم أصدرته دار القلم، الدار الشامية بدمشق سنة 1420هـ.

(5) دلائل الظالم، ألف هذا الكتاب لإقامة الحجة علي وجود النظام (الوحدة الموضوعية) في كل سورة من سور القرآن الكريم وبيان الطرق التي تهدي إلى نظام السورة، نشرته الدائرة الحميدية سنة 1388هـ.

(6) إمعان في أقسام القرآن، صدرت منه طبعتان في حياة المؤلف إحداها بالهند، والثانية في المطبعة السلفية في القاهرة 1930م، ثم صدرت له طبعة من دار القلم بدمشق سنة 1415هـ.

(7) أساليب القرآن، أفرد هذا الكتاب لذكر وجوه الأساليب في القرآن وبيان دلالتها ومواقع استعمالها، والتكميل في أصول التأويل، رسالة قيمة في أصول التفسير، أشار فيها إلي معاني التأويل، والفرق بينه وبين التحريف والتفصيل وكيفية التأويل إلى معنى واحد، والأصول التي تهدي إلى المعنى الواحد والمتشابه وتأويله...الخ، هذان الكتابان نشرتهما الدائرة الحميدية في مجلد واحد سنة 1389هـ.

(8) مفردات القرآن، عرف فيه بالألفاظ المفردة التي وردت في القرآن الكريم، حيث إنها الخطوة الأولى في فهم الكلام، فمن لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من

العدد الخاص مجلة الهند

القرآن أغلق فيه باب التدبر و أشكل عليه فهم الجملة و خفي عنه نظم الآيات والسورة- كما يقول الفراهي في مقدمة هذا الكتاب- قام بتحقيقه الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي، و نشرته دار الغرب الإسلامي سنة 2002م.

(9) تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، وهو تفسير كبير صدرت منه الأجزاء الآتية:

(أ) تفسير سورة الفاتحة والبسملة، نشر سنة 1357هـ.

(ب) تفسير سورة البقرة، نشرته الدائرة الحميدية سنة 2001م، وقد صدره بخطبة مهمة جداً تبين قوة إيمانية ويقينه بالله و تمكنه في اللغة العربية وأدائها، وتكشف عن حسن عقيدته.

(ج) كما فسر السور الآتية: الذاريات، التحريم، القيامة، المرسلات، عبس، الشمس، التين، والعصر، الفيل، الكوثر، الكافرون، اللمب، وسورة الإخلاص.

ثانياً - مؤلفاته المخطوطة: لا تزال هناك كتب مخطوطة للفراهي ولم تخرج إلى النور بعد وقد أوردها السيد سليمان الندوي والدكتور محمد أجمل الإصلاحي في ترجمتهم للفراهي ولعل من أهم هذه المخطوطات ذات الصلة ما يأتي:

1- حجج القرآن، وهو من أجل كتب المؤلف- كما يقول محمد أجمل الإصلاحي- ولم يقدر له إتمامه وهو يشتمل على ثلاث مقالات، وكل مقالة في ثلاثة أبواب: المقالة الأولى في نقد المنطق والفلسفة وعلم الكلام. والمقالة الثانية في تأسيس العلم وبيان طريق احتجاج القرآن. والمقالة الثالثة: في ذكر حجج القرآن على الربوبية والمعاد والرسالة، النسخة المنقولة من الأصل في 168 صفحة.¹

2- العقل وما فوق العقل، وهو كتاب بالغ الأهمية وقد أشار إليه الفراهي في كتابه القائد إلى عيون العقائد، بين فيه أهمية العقل ودوره في إثبات الرسالة وفهم النصوص الشرعية، النسخة المنقولة من الأصل في 4 ورقات.

¹ وإنني أسعى سعياً حثيثاً للحصول على هذا المخطوط للاطلاع عليه وتحقيقه إن أمكن ذلك إذا شاء الله.

3- المنطق الجديد، الأصل في 18 ورقة.

4- حكمة القرآن، من مؤلفاته المهمة أيضًا، والنسخة المنقولة من الأصل في 27 ورقة.

5- النظام في الديانة الإسلامية، وهو جزء من كتاب حكمة القرآن، ولكن نظرًا لأهمية الموضوع أفردته بكتاب وكتب له خطبة مستقلة، والنسخة المنقولة من الأصل في 10 ورقات.

6- النظر الفكري حسب الطريق الفطري، النسخة المنقولة من الأصل في 6 ورقات¹ وهذا غيض من فيض من مؤلفات الفراهي المتعددة والمتنوعة جزاء الله عنا وعن الأمة الإسلامية خير الجزاء وأسكنه فسيح جناته مع الأنبياء والصديقين وحسن أئلك رقيقًا.

المبحث الثاني

مناهج البحث في قضايا العقيدة ومشكلة العلاقة بين العقل والنقل

وموقف الفراهي منها

البحث في أمور العقيدة² ظاهرة عامة، وجدت منذ نزول الأديان على الأرض ودار الجدل حولها، وتباينت عقائد الناس بين الحق والباطل على مر الأزمان من أول آدم إلى خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليهم سلم تسليما كثيرًا.

ولما كان الإسلام هو الدين الخاتم فقد جاء ليبين للناس زيف العقائد السابقة فنناقش كل الاتجاهات العقيدية وبين صحيحها من فاسدها وحذر من العقائد

¹ راجع هذه المؤلفات المطبوع منها والمخطوط في المصادر التي اعتمدت عليها في الترجمة السابق ذكرها.

² علم العقيدة كما يعرفه الايجي في المواقف: هو (العلم الذي يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه) وهو ما يعرف بعلم الكلام أو علم التوحيد... إلخ، المواقف، ص 35.

أي أنه العلم الذي يوصل الإنسان إلى الدلالة اليقينية على صحيح معتقدة، وكيفية الرد على المخالفين ومحاجتهم وإبطال مدعاهم.

المنحرفة وظل- صلى الله عليه وسلم- في مكة ثلاثة عشرة سنة يعلم الناس أصول العقيدة و يرسخ فيهم كلمة التوحيد، وكان الصحابة يتعلمون منه ولايسألون عن أمور العقيدة من الذات أو الصفات أو الأفعال... الخ لانهم فهموا معنى ذلك من رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وسكتوا فلم يفرعوا ولم يأولوا وإنما أخذوا آيات الذات والصفات كما جاءت فهم كما يقول ابن خلدون في مقدمته : "قضوا بأن الآيات من كتاب الله ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل".¹

ولم يكن ذلك مانعاً من ظهور بعض التساؤلات العقلية حول القضاء والقدر مثلاً، غير أن الرسول- صلى الله عليه وسلم- كان يجيب على هذه التساؤلات بما يشبه الزجر والنهي عن البحث فيها إذا لاحظ أن المسألة قد خرجت من طور التعليم والأصول إلى اليقين إلى طور الجدل والتنازع والفرقة.

ولا يصح أن يفهم من هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يريد الحجر على عقول الناس ومنعه من التفكير والتدبر كلا، فان الرسول كان ينهى عن الجدل والمرء في الدين لانه سبب من أسباب ضلال وهلاك السابقين وانحرافهم عن طبيعة الدين، وهذا أمر واقع.

بدليل أنه صلى الله عليه وسلم قد أجاب عن كثير من التساؤلات التي أحس من خلالها أن السائل لا يريد الجدل والتنطع، وإنما يريد الفهم والمعرفة، فقد أجاب بعض السائلين في مسألة من أهم المشكلات الفكرية، وهي مشكلة الحدود والقدم حيث سأل " بنو تميم" عنها فقال لهم "كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض"² إلى غير ذلك من النماذج المماثلة.

ثم لحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الاعلى تاركاً أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، وعلى العقيدة الصافية التي لا يزيغ عنها إلا هالك أو جاحد.

¹ ابن خلدون، المقدمة، دار الشعب، القاهرة، ص 427.

² الحديث أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق.

ومن المعلوم أن مبتغى كل إنسان سوي في هذه الحياة أن يصل إلى الحقيقة في علمه ومعرفته، وإلى اليقين في إيمانه وعقيدته، وإلى الخير في مسلكه وعمله وهذا مما لا يماري فيه عاقل، ولا يختلف عليه أحد.

ولكن الناس حتى يصلوا إلى هذه الغاية فقد اختلفت مسالكهم ومناهجهم، حيث ان الطرق أمامهم كثيرة والمسالك متشعبة، والمناهج متنوعة،¹ "والتعصب المقيت يمتلك النفوس حيناً والأهواء والمآرب والمنازع تتقاسم الناس أحياناً فتعصف بالعقول، وتذهب بالقلوب، وتزل بالأفهام والأقدام إلى الخطل في الرأي، والضلال في العقيدة، والانحراف في السلوك.

لهذا ولغيره: أراد الله أن يسلك بالناس أقرب الطرق إلى هذه الغاية، وأصح الأنهاج إلى هذه الحقيقة، فأنزل القرآن المجيد: شرعة للناس ومنهاجاً فنهج بالناس منهجاً لم ترق إليه حكمة الحكماء، ولم يتوفر مثله في غيره من كتب الأنبياء؛ حيث جمع في هدايته إلى الحقيقة، ودعوته إليها كلّ وسائل المعرفة، وأدوات العلم، وسبل الإقناع، والبرهان، مما من شأنه أن يقرب الحقيقة- نظرية أو علمية- إلى العقول، والقلوب معاً إلى العامة والخاصة جميعاً".²

منهج القرآن في تقرير قضايا العقيدة: لقد جاء القرآن الكريم هداية ونوراً ودعوة للناس جميعاً "فكان منه ما يتجه للقلب ليتفتح للموعظة، وكان منه ما يتجه للعقل ليدعن للمنطق والدليل، وكان منه ما يشتمل على الحقيقة سافرة يفهمها الجميع، وكان منه ما يجرى في شكل أمثال: (ما يعقلها إلا العالمون).³ من أجل هذا كله كان القرآن حريّاً أن يصل إلى ما أراد من الهداية، وتبين الحق من الباطل فيما كان الناس فيه من أمر مريج قبل نزوله مما يتصل بالله، والعالم، والإنسان.⁴

¹ فهناك المنهج الحسي المادي الذي يعتمد على الحواس ولا يثق إلا فيها، وهناك المنهج العقلي، وهناك المنهج النقلي كما سيتبين.

² د. عبد الرحمن المراكبي، قضايا التأويل في الفكر الإسلامي (المعتزلة والفلاسفة) دار الطباعة المحمدية، الطبعة الأولى 1987م.

³ سورة العنكبوت الآية/43.

⁴ د. محمد يوسف موسى، القرآن والفلسفة، دار المعارف الطبعة الرابعة، 1982م، ص 8.

وقد كان الصحابة أبعد الناس عن الجدل والخلاف المذموم، وذلك لسلامة عقيدتهم، وقوة إيمانهم، وقرب عهدهم بالوحي والنبوة، وجعلهم كتاب الله وسنة رسوله هما مرد خلافتهم ومنتهى جدلهم.¹

وهذا ما أكدّه الإمام الفراهي بقوله: "إن الله أمرنا بالإيمان بما بينه، وفطر عقولنا وقلوبنا بالقبول له، فلم يجعله مشتتاً لا في كتابه ولا في عقولنا، وهو جماع العقائد من التوحيد، والرسالة، والمعاد.

ثم ذكر (الله) تفاصيل لهذه الأمور: منها ما لا سبيل إلى علمه إلا بالخبر، منها ما لا سبيل إلى تصوره لقصور علمنا وتجربتنا، فلم يكلفنا بتأويله بل رضي منها بالإيمان الإجمالي، ورد ما اشتبه إلى المحكم الذي بينه وشيده.

فالرسوخ في العلم أن تثبت على المعلوم ولا تهالك على المظنون الذي يصوره الظن والتخمين.²

ومما لا شك فيه أن اختلاف المناهج وتعدد الاتجاهات العقيدية والفكرية، كان له أثره الخطير في تعرض القرآن الكريم والسنة النبوية للكثير من الأفكار المتناقضة، والآراء المتضاربة، وحمل الكثير من نصوصهما على غير ما تحمله من المعاني، لكي تتسق مع هذه المناهج، وتتوافق مع هذه الاتجاهات.³

¹ وقد استمر حال المسلمين هكذا حتى ابتلوا بالفتنة التي اشتغلت بمقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه - ونشوب الحرب في موقعي الجمل وحنين وقبول الإمام علي للتحكيم، الأمر الذي أدى إلى فرقة المسلمين إلى خوارج ومعتزلة ومرجئة وشيعة وغيرهم.

² الفراهي، القائد إلى عيون العقائد، المرجع السابق، ص 6.

³ ومع أن الإسلام في جانبه العلمي لا يناقض مع النظر الصحيح، وفي جانبه العملي لا يتعارض مع المصالح المشروعة للناس، إلا أن كثيراً من الناس يعارضون النص بالرأي، ويقيمون المصلحة في وجه الحكم والشرع. وهم لهذا بين أمرين: إما أن يلجأوا إلى تأويل النصوص ولو كانت مكروهة لكي تتوافق مع الغاية التي يقصدون إليها. وأما أن يتقولوا على الإسلام - زوراً - بأنه غير موافق للعقل في الجانب النظري، وغير مسائر لتقديم البشرية، وغير مواكب لركب الحضارة في الجانب العملي، وفي كلتا الحالتين يصبح الإسلام متهمًا من أعدائه وأوليائه جميعاً، د. المراكبي، قضية التأويل في الفكر الإسلامي، المرجع السابق، ص 18-19.

منهج الإمام الفراهي: والحل كما يراه الإمام الفراهي لهذه المعضلة، أن يسلك المسلم في الأمور العقدية المسلك الحق وذلك بأن تكون مرجعيته في أمور العقيدة ما يثبت عنده باليقين الذي لا يداخله شك أو ظن، فلا يعتمد فيها إلا على صحيح النقل وصريح العقل، وهذا ما يوضحه بقوله: "أن العقائد ليست بالظن، فلا يعتمد فيها إلا على صحيح النقل وصريح العقل، ولذلك وجب الاكتفاء بقدر ما يحتمله المعتقد ويكون فيه على بصيرة وإيقان، ولذلك قلت مسأله في عهد الصحابة، فإنهم اعتقدوا ما علموه وصدقوه، وإنما كثرت- المسائل الخلافية- فيما بعد لفساد القلوب، وقلة التقوى، وسخافة العقول، وغلبة اللجاج".¹

ويقول أيضًا: "إن بسط اللسان في العقائد يجر إلى التقول على الله من غير علم وشناعته ظاهرة وقد صرح بها القرآن كثيرًا، ولو كان للعقل سبيل إلى تفاصيل الأمور الإلهية لكان في غنى عن الرسل، والعقل كثير الخطأ في تفاصيل الأمور التمدنية حتى يستضيء بما أنزل الله من هديه، فكيف بالإلهيات؟

فلا بد من الاكتفاء بما ثبت بالتصريح من الكتاب والسنة وكان أساسًا للدين الفطري المسعى بالإسلام".²

ولا يجوز أن نسارع في الحكم على الإمام الفراهي بأنه في اكتفائه بما ثبت مصرحًا من الكتاب والسنة أنه يلغي دور العقل في أمور العقيدة، بل أراد أن يقول إن العقل لا سبيل له في تفاصيل الأمور الإلهية لأنها أمور غيبية وإلا لكان في وجود العقل غنى عن الاحتياج إلى الرسل، فإذا كان العقل كثير الخطأ في الأمور الدنيوية المحسوسة، فكيف به في الأمور الغيبية، فالعقل مهما أوتي من قوة فهو قاصر ووقوعه في الخطأ والزلل وارد، كما أن العقول متفاوتة فما أراه حسنًا قد يراه غيري قبيحًا والعكس صحيح، ومع ذلك نراه يصح أن للعقل مجالًا واسعًا في الأمور العقدية، وسيوضح لنا ذلك في حديثنا عن مشكلة العلاقة بين العقل والنقل.

¹ القائد إلى عيون العقائد، المرجع السابق، ص 4.

² المرجع السابق، ص 5.

مشكلة العلاقة بين العقل والنقل: تعد مشكلة "العلاقة بين العقل والنقل" من المشكلات التي ظهرت قديماً ولا تزال تطرح نفسها بقوة على أذهان المفكرين من المتكلمين وغيرهم، على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم لا سيما في الفكر الإسلامي، حيث حظيت بمجهود وافر، وحلول متعددة.

فالمتكلمون على اختلاف مذاهبهم- وجلهم قد استخدموا المنهج العقلي في إثبات العقائد، ودرء الشبهات عنها، ودحض مفتريات المخالفين لها- كان من المحتم عليهم النظر في هذه المعضلة لبيان مكانة العقل من النقل.

هل يقدم العقل على النقل؟ أو يقدم النقل على العقل؟ أو يجمع بينهما؟ فخلصوا إلى ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأول: اتجاه المعتزلة الذين تأثروا بمناهج الفلاسفة، فقدموا العقل على النقل، ولما كان العقل- في نظرهم- أساساً للنقل، لأنه أساس التصديق بالشرع فلا يجوز التشكيك فيه وإلا انهدم الشرع والعقل معاً، ومن ثم ذهبوا إلى تقديم العقل على النقل.

الاتجاه الثاني: في مقابل مذهب المعتزلة الذي يقدم العقل على النقل يأتي مذهب الحشوية¹ والظاهرية ومن وافقهم من المشبهة والمجسمة حيث يعملون على إلغاء العقل، وفصله تماماً عن مجال النقل، فالعقل في نظرهم ليس له مدخل فيما جاء به الشرع.²

الاتجاه الثالث: وهو المذهب الوسط بين الاتجاهين السابقين، وهو اتجاه أهل السنة والجماعة الذين جمعوا بين العقل والنقل معاً، ومع أنهم قدموا الشرع على العقل إلا أنهم جعلوا للعقل مدخلاً في فهم الشرع، فهم يجمعون بينهما بحيث لا يصادرون منهجاً لحساب منهج آخر، فمنهجهم منهج وسط بين الإفراط والتفريط.

¹ الحشوية: نسبة إلى الحشو، وهو الزائد الذي لا طائل تحته. الجرجاني، للتعريفات، المطبعة الحميدية، 1321هـ، ص 60. وسَمَوْا بالحشوية لأنهم أدخلوا في العقيدة ما ليس منها بقولهم بالتجسيم والتشبيه، وهو مقابل للقائلين بالتجريد والتعطيل كالفلاسفة والمعتزلة.

² الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: محمد بن فتح الله بدران، الانجلو، 95/1.

وهكذا فإن أهل السنة والجماعة- ومنهم الأشاعرة- قد جمعوا بين مقتضيات الشرائع، ومواجبات العقول، وتحققوا من أنه لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول، وهم بهذا لا يلغون العقل، ولا يعزلونه عن الشرائع، كما أنهم لا يحكمون العقل في الشرع ويجعلون له التقدم عليه.

وقد بين الشهرستاني منهج أهل السنة فقال:

"فالواجبات كلها سمعية عندهم، والعقل لا يوجب شيئاً، ولا يقتضي تحسیناً ولا تقبیحاً: فمعرفة الله عز وجل بالعقل تحصل، وبالسَّمْع تجب.

قال الله تعالى ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾¹ كذلك شكر المنعم وإثابة المطيع وعقاب العاصي تجب بالسَّمْع دون العقل، ولا يجب على الله تعالى شيء ما بالعقل من رعاية الأصلح أو اللطف، أو غيرها مما أوجبه المعتزلة به".²

فالموجب للمعرفة وغيرها عند الأشاعرة من أهل السنة هو الله تعالى، لأن العقول لا تدرك الأحكام مستقلة عن الشرع، فلا حكم على شيء، ولا تكليف قبل مجيء الشرع بالأحكام والتكاليف.

أما الماتريدية فيرون أن الموجب للمعرفة هو العقل دون غيرها من الأحكام.³

موقف الإمام الفراهي: وبعد هذا العرض لاتجاهات ومناهج المفكرين الإسلاميين في قضايا العقيدة ومواقفهم في العلاقة بين العقل والنقل نورد منهج الإمام الفراهي وموقفه من هذه القضية حيث يرجع الخلاف بين العلماء وتنازعهم في العقائد وزيفهم فيها إلى إعجاب وتمسك كل فريق بوجهة نظره، وسعيه إلى التوفيق بينه وبين ما سواه، أو الانتصار لرايه وتوجيه الأدلة النقلية أو تأويلها للتوافق مع مدعاه، وأن الذين يسلكون طريق التوفيق نوعان:

¹ سورة الإسراء: 15.

² الملل والنحل، المرجع السابق، 48/1.

³ تسهيل الأصول إلى علم الأصول، ص 54، نقلاً عن: قضية التأويل في الفكر الإسلامي، المرجع السابق، ص 38.

1. منهم من يلتمس التوفيق بين النصوص الشرعية.
 2. ومنهم من يلتمس التوفيق بين العقل والنقل.
- غير أنه أشار إلى خطورة طريق التوفيق ووصفه بأنه طريق وعر، حيث إنه قد يلتبس عليه الأمر فيخبط في التوفيق، ويحتاج إلى التأويل البعيد للمحكم من آيات الله تعالى.
- لذلك نراه يقول: "كل من تمسك بأمر بين واضح عنده، يسعى للتوفيق بينه وبين ما سواه، لينفي التناقض من بين معتقداته، وهذان فريقان:
- منهم من يلتمس التوفيق بين النصوص الشرعية، ومنهم من يلتمس التوفيق بين العقل والنقل، وطريق التوفيق وعر، فربما يلبس عليه فيخبط ويحتاج إلى التأويل البعيد للمحكمات".¹
- ثم يبين أن العلماء متفاوتون في الاستدلال بالعقل والشرع؛ فمنهم من يتمسك بالعقل فيجعله أصلاً، ومنهم من يتمسك بالأحاديث، ومنهم من يتمسك بالقرآن.
- غير أنه لم يرتض هذا الانقسام في الرأي بين العلماء وأكد على أنه إذا كان الأصل في الاعتقاد مبنياً على الشرع المنزل فإن ذلك لا يغني عن العقل، بل أن للعقل دوراً بارزاً في فهم الشرع وإبراز الأدلة والآيات التي أودعها الله تعالى في النفس البشرية وفي الآفاق وهي أدلة لا تحصى، ليزداد الإنسان بصيرة ونوراً واطمئناناً.
- كما أن للعقل دوراً آخر لا يقل أهمية وذلك في تعيين المراد في النصوص المتشابهة برده المتشابهة إلى المحكم والحكم باليقين وترك المظنون، وفي تطبيق المتشابهات بالمحكمات بعضها ببعض حتى لا يكون هناك تناقض.
- ونراه يزيد هذه القضية وضوحاً حينما صرح بأن العقل ليس بمعطل في طريق النقل، بل هو المعتمد في فهم معاني النقل، وهو المخاطب فيما نزل علينا حيث جعله الله تعالى مناطاً للتكليف.

¹ القائد إلى عيون العقائد، المرجع السابق، ص 7.

يقول الإمام الفراهي: "ثم للعقل مجال وسيع في تطلب الدلائل التي أودعها الله النفوس والآفاق فإنها لا تحصى، ليزداد بصيرة ونورًا واطمئنانًا.

وفي تعيين المراد برد المتشابه إلى المحكم والحكم باليقين وترك المظنون، فالعقل ليس بمعطل في طريق النقل أيضًا، بل هو المعتمد في فهم معاني النقل، وهو المخاطب فيما نزل علينا".¹

ومع احترامه للعقل وإيمانه بدوره البارز في فهم الشرع وإجلاء ما غمض منه وبيان ما استغلق فهمه على الناس، ... إلخ إلا أنه لا يطلق للعقل العنان ليحكم ويقضي كما شاء بل جعله محكومًا في إطار الشرع، خاصة بعدما رأى أن الناس قد افتتنوا بالعقل وجعلوه مقدمًا ومتبوعًا لا تابعًا، كما هو الشأن عند المعتزلة ومن وافقهم، وفي نفس الوقت لم يقبل رأى من يقصى العقل من مجال الاعتقاد كما فعل الحشوية والمجسمة.. فهو يجمع بين صحيح النقل وصريح العقل ويؤلف بينهما، ومن ثم التوقف فيما لا يعلم.

حيث يقول "الطريق المثلى هو التمسك بصحيح النقل وصريح العقل، ثم الكف عن التأويلات البعيدة، والتوقف في ما لا علم له به، وقد أمر الله بذلك، والنبى-ﷺ- والسلف الصالح اتخذوه طريقًا، كما قال الله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾². وقال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾³.^{4/3}

تعقيب: مما سبق يتضح لنا أن الإمام الفراهي كان متبعًا لمذهب أهل السنة والجماعة حينما جعل للعقل مدخلًا فيما جاء به الشرع ولكنه ليس حاكمًا ولا موجبًا، بل الحاكم والموجب هو الله تعالى، وهو بهذا يقدم الشرع على العقل، إلا أنه لا يسلب العقل سلطانه، ولا يعزله عن الشرع.

¹ المرجع السابق، ص 5.

² سورة البقرة: 32.

³ سورة الإسراء: 85.

⁴ القائد إلى عيون العقائد، المرجع السابق، ص 7.

يقول الإمام الفراهي مبرزًا اتباعه لأهل السنة: "والقرآن قارع بحججه المكذبين فلم يخاطبهم إلا من طريق العقل، وأما المؤمنون فزادهم بها إيمانًا ورفع به درجاتهم؛ فإن المؤمن إذا ازداد حكمة وبصيرة وعلماً و يقيناً ازداد خشية وحباً لله. وبذلك ازداد قرباً منه ... فلزمنا في هذا الكتاب أن لا نعول إلا على العقل الصريح، والتعويل على العقل في أصول المذهب هو مذهب أهل السنة، وذلك بأن الخطاب بالأصول عام، والناس أجمعون مطالبون بالإيمان بها.

وأما الفروع فلا شك أنها مبنية على المصالح وقد دل القرآن عليها ولكن المعول فيها على النقل؛ فإن المخاطب بها المؤمنون الذين آمنوا بالرسول وبكتاب الله، وبايعوا على الطاعة، كما ترى القرآن يصرح بذلك حين يخاطبهم بالأحكام بمثل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فهم مطمئنون بعقولهم أن الله ورسوله لا يهديهم إلا إلى صراط مستقيم وهذا الحكم العام من عقولهم يغني عن مطالبة الدليل في كل حكم".¹

فالمنهج الذي سلكه الإمام الفراهي هو منهج أهل السنة والجماعة بل هو منهج الإسلام الذي ينبغي أن يسلكه السالكون ويعتقده المعتقدون، فالعقل مع الشرع نور على نور كما يقول الإمام الغزالي: "وأنى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر، وينكر مناهج البحث والنظر، أو يعلم أنه لا مستند للشرع إلا قول سيد البشر ﷺ، وبرهان العقل هو الذي عرف به صدقه فيما أخبر، وكيف يهتدي للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر، قد خاب على القطع والثبات وتعثر بأذيال الضلالات من لم يجمع بتأليف العقل والشرع هذا الشتات... فالمعرض عن العقل مكتفياً بنور القرآن مثاله المتعرض لنور الشمس مغمضاً للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان، فالعقل مع الشرع نور على نور، والملاحظة بالعين العور لأحدهما على الخصوص متدل بحبل غرور".²

¹ نفس المصدر، ص 7.

² مقدمة كتاب الاقتصاد في الاعتقاد، المرجع السابق.

المبحث الثالث

آراؤه في قضايا العقيدة الإلهية

وفيه ثلاثة مسالك:

المسلك الأول: طرق الاستدلال على وجود الله تعالى وموقف الفراهي منها.

سلك العلماء في الاستدلال على وجود الله تعالى طرقًا متعددة منها طريق الفطرة، وطريق القرآن الكريم، وطريق الفلاسفة المتكلمين وسوف اقتصر في هذا المسلك على إيراد الطريقتين الأولين دون الثالث لاهتمام الفراهي بهما دون غيرهما.

أولاً- طريق الفطرة على وجود الله تعالى: الفطرة: شعور متأصل في النفس البشرية جمعاء، وفحواه أن لهذا العالم قوة عليا عظيمة مهيمنة عليه، يشعر بها كل إنسان سليم الفطرة، ولم تؤثر فيه عوامل الانحراف البشري، هذه الفطرة التي أودعت في الإنسان ترشده من خلال تأمله في الكون وما فيه إلى أن هناك قوة مهيمنة عليه وعلى هذا الكون من حوله.

ولكن ما هي حدود هذا الطريق الفطري؟

إن حدود طريق الفطرة لا يتجاوز إلا الشعور بوجود القدرة المهيمنة على هذا الكون، وليس من شأنه أن يدلنا على وجود الله تعالى؛ لأن هناك بؤناً شاسعاً بين أن يشعر الإنسان بتلك القوة وبين أن يعرفها، لأن الشعور بتلك القوة مودوع في النفس الإنسانية، أما معرفتها المعرفة الصحيحة؛ فإنما يتأتى من خلال الشرع الحكيم، وإعمال العقل بالنظر في الأنفس والآفاق والكون من حوله، فالأثر يدل على المسير، والبصرة تدل على البعير، والخلق يدل على الخالق، والصنعة تدل على الصانع، وكلما كانت الصنعة متقنة وعظيمة دل ذلك على قدرة الصانع وعظمته.

فقد خلق الله عباده على معرفته والإقرار بربوبيته واستحقاقه وحده للعبادة، وهذا ما يؤكد قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ

وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَرِفِينَ ﴿١٧٦﴾¹

وكذلك أشار الرسول ﷺ إلى هذه الحقيقة فقال: "ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة عرضاء هل تحسون فيها من جدعاء".

فمن سلك طريق الفطرة يجد أن وجود الله تعالى من البديهيات التي يدركها الإنسان بفطرته، ويهتدي إليها بطبيعته، وليس من مسائل العلوم المعقدة، ولا من خصائص التفكير العويصة، ولو لا أن شدة الظهور قد تولد الخفاء؛ ما اختلف على ذلك مؤمن أو ملحد، ومن ثم فقد اهتدى العقل من قديم إلى ضرورة وجود صانع لهذا العالم قدير حكيم، وإن أخطأ في التفاصيل المتعلقة بهذا الصانع الحكيم.

وقد اعترف بطريق الفطرة وعول عليه كثير من العلماء منهم بعض المعتزلة وابن تيمية وابن القيم وكثير من الصوفية وبعض الفلاسفة المحدثين، وكذلك الفراهي موضوع البحث:

موقف الفراهي من طريق الفطرة: وأما الفراهي فقد ذهب هو أيضاً إلى أن وجود الله تعالى فطري في النفوس البشرية ولا يحتاج إلى دليل يدل عليه، وأن توافق الفطرة مع شرع الله دون تغير، دليل على أن وراءها حكيمًا، وأنها تحت إرادة رب واحد، وأن تغيرها عن عاداتها- كما أخبر الرسول ﷺ - (فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)- في بعض الأحيان لأمر ذلك الرب دليل على أمره وإرادته، والأمر المرید لا بد وأن يكون موجودًا.

قال الفراهي: "كل شيء في الفطرة مقدر وموزون، ثم فيها توافق لبناء فائدة وراحة، فالتوافق دليل على حكيم، وقيامها على فطرتها غير متغير؛ دليل على

¹ سورة الأعراف: 172.

كونها تحت إرادة رب واحد، وتغيرها عن عاداتها في بعض الأحيان لأمر ذلك الرب، دليل على أمره وإرادته".¹

ثم بين الفراهي منشأ اليقين عند الإنسان تجاه الأشياء وهو إما بالبداهة أو بالنظر أو بالفكر ثم بين درجات الفكر وسبيل كل ذلك في الاستدلال على وجوده تعالى فقال:

"اعلم أن ما توقن به إما هو البديهي وهو ما ورد عليك وأيقنت به من غير فكر وتدبر، أو هو النظر وهو ما تكتسبه من البديهي بنظرك في الخارج، ويقابله الفكري وهو ما تقف عليه بفكرك في نفسك، وهو درجتان:

- أدناها الفطري وهو ما يطيعه العقل لا لظهوره بل لكونه حاكمًا عليه؛ فهو أساس للعلم البديهي كاليقين بصحة حواسنا.

- وأعلىها الجذري وهو الذي أودع في جذر فطرتنا... فإن أنكره أحد أظلم عليه كل ما علمه... ومن ذلك يقينه بكون فاطره غنيًا وحميدًا، فإن لم يطمئن بذلك قلبه لم يطمئن بشيء، فلم يفرق بين النور والظلمة والحق والباطل".²

وهكذا يصرح الفراهي بأن وجود الله تعالى الغني الحميد قد أودع في جذر فطرتنا وأن من لم يطمئن بذلك قلبه لم يطمئن بشيء، حتى يصير لا يستطيع التفريق بين النور والظلمة والحق والباطل.

ويتابع الفراهي حديثه عن فطرية وجوده تعالى، بل على فطرية وحدانيته- ومن ثبت له الوحدانية فهو من باب أولى موجود-، مستندًا في ذلك إلى أن القلوب جبلت على طلب الاطمئنان على ما تعلم؛ من كون علمها بالشئ حقًا أو باطلًا فإنه لا سبيل إلى هذا إلا بالإيمان بالله الواحد الحميد، وبهذا فهي مفطورة على التوحيد.

¹ القائد إلى عيون العقائد، المرجع السابق، ص 30.

² المرجع السابق، ص 33.

يقول الفراهي: "وإذا كان القلب محبوباً على طلب الاطمئنان في علمه ولا سبيل إليه إلا بأن يؤمن بالله الواحد الحميد، فالظاهر أنه مفطور على التوحيد، وهكذا هدانا القرآن الكريم حيث قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي لا ينبغي لأحد أن يبدل فطرته التي كتبها الله في قلبه ظلمًا واتباع هوى وجهلاً، فإنه تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (أي أشركوا) أهواءهم بغير علم، فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين"، أي بعد أن اتبعوا سلبوا نور الهدى نتيجة لما فعلوا حسب فطرة الله التي جعل النتائج السيئة للسيئات...

(ثم ذكر بعد ذلك أن التوحيد فطرته من جهة أخرى)، ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْقُوا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾²¹

ثم يخلص الفراهي إلى نتيجة مفادها أن التوجه إلى الله أقوى ما جبلنا عليه وأن الإيمان بالله ليس ببديهي، ولا نظري مكتسب؛ بل هو مما أودع في جذر فطرتنا وصميم علمنا، وإنما يكشف عنه بالفكر في أنفسنا وهذا من جهة العلم.

وإذ أن النفس ذات إرادة ورغبة كما هي ذات علم، فلها توجه إلى ربها قبل كل رغبة، وانبعث هذا التوجه بالفكر والذكر.³

ثانيًا- طريق الاستدلال بالقرآن على وجود الله تعالى: وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تحث على النظر في النفس، والتفكير في الكون كي نستدل بهذا النظر وذلك التفكير على وجود الله تعالى، خالق الكون ومبدعه بحكمة القادر على كل شيء وفي ذلك يقول الله جل شأنه: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾⁴ وقوله تعالى:

¹ سورة الروم: 29 – 32.

² القائد إلى عيون العقائد، المرجع السابق، ص 34، 35.

³ نفس المصدر، ص 35.

⁴ سورة الذاريات: 21.

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾¹، وقوله تعالى في سورة السجدة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾² إلى قوله تعالى ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾³ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على وجود الله تعالى.

وقد سلك هذا الطريق (طريق القرآن) في الاستدلال على وجوده تعالى بعض العلماء وكان من أبرزهم أبو الفرج ابن الجوزي وأبو الوليد ابن رشد،³ وكذلك الفراهي وقد استندوا في أدلتهم على ما يسمى بدليل الخلق والاختراع أو دليل العناية والنظام.

فابن الجوزي أكد على أهمية دور العقل في الاستدلال على وجود الله تعالى مسترشداً في ذلك بهدي القرآن الكريم وبعيداً عن الأسلوب الجدلي الذي استخدمه المتكلمون والفلاسفة، والدليل على ذلك أنه لم يصنف تلك الأدلة تحت عناوين معينة، وإنما ساق الكلام سوقاً في معرض الرد على الدهريين والطبائعيين وغيرهم معتمداً هذا الرد من آيات الذكر الحكيم.

¹ سورة يونس: 101.

² سورة السجدة: الآيات 4، 5، 7.

³ ولي بحث في بيان الصلات الفكرية بين هذين العالمين الجليلين (ابن الجوزي وابن رشد)، نشر في مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية العدد الرابع عشر لسنة 1998م.

أوضحت فيه أن هذين العالمين مع أن الأول مشرقي المنشأ وهو فقيه على المذهب الحنبلي، والثاني مغربي وهو فيلسوف المغرب العربي، وأنهما وإن كانا متعاصرين إلا أنهما لم يلتقيا غير أنه توجد صلات فكرية وتوحد فكري بينهما في كثير من القضايا. راجع كلام ابن الجوزي وابن رشد في الاستدلال على وجود الله تعالى في، ابن الجوزي صيد الخاطر، تحقيق: عبد القادر أحمد عطاء مكتبة كليات الأزهرية، القاهرة، 1979م، ص 452، 453، وتلبيس إبليس، مكتبة المتنبي، القاهرة، د.ت، ص 41، 42. وابن رشد، مناهج الأدلة، تحقيق: د. محمود قاسم، مكتبة الأنجلو المصرية، 1964م، ص 150.

أما ابن رشد فقد رفض أدلة المتكلمين وأهل الظاهر والصوفية في استدلالهم على وجود الله تعالى، ووصف هذه الأدلة بأنها ليست شرعية ولا برهانية، ثم طالعنا بما ارتضاه من الأدلة على وجود الله تعالى بقوله "الطريقة التي نبه الكتاب العزيز عليها ودعا الكل من بابها، إذا استقرئ الكتاب العزيز وجدتها تنحصر في جنسين: أحدهما: طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله ولنسم هذه دليل العناية.

والطريقة الثانية: ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات - ولنسم هذه دليل الاختراع.¹

وقد وردت الآيات القرآنية التي تتضمن دليلي الاختراع والعناية على أقسام ثلاثة:

الأول: ما يدل على الاختراع فقط كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾².

وكقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾^{١٣} ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ^{١٤} ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ^{١٥}﴾³.

الثاني: ما يدل على العناية فقط من مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾^{١٦} أَنَا صَبَبْتُ الْمَاءَ صَبًّا^{١٧} ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا^{١٨} فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا^{١٩} وَعَبَبْنَا وَقَضَبًا^{٢٠} وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا^{٢١} وَحَدَائِقَ غُلْبًا^{٢٢} وَفَيْكَةً وَأَبَّا^{٢٣} مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَعْلَمِكُمْ^{٢٤}﴾⁴.

الثالث: ما يتضمن الداليتين معًا وهو أكثر من مثل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^{٢٥}

¹ المرجع السابق، نفس الصفحة.

² سورة الحج: 73.

³ سورة المؤمنون: 12-14.

⁴ سورة عبس: الآيات 24-32.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾¹

موقف الفراهي من الاستدلال بالقرآن الكريم على وجوده تعالى: أما الفراهي فقد سلك مسلكاً آخر في الاستدلال بالقرآن الكريم على وجود الله حيث توسع في هذا الأمر بل ما أورده في كتابه "القائد إلى عيون العقائد" من الإلهيات يكاد يكون كله موظفاً لإقرار حقيقة وجود الخالق والتعرف عليه سبحانه تعالى، وقد قسمها إلى أربعة أقسام أو طرق، يوضحها قول الفراهي تحت عنوان "طريق الاستدلال بالقرآن": "قد دلنا القرآن على صحة العقيدة فيما يتعلق بمعرفة الرب تعالى بطرق مختلفة متفاوتة في درجات الدلالة، ونذكرها بالترتيب:

فأولها: طريق التسمية، وهو أبلغها وأوضحها وأوثق ما يعتمد عليه، فإن الاسم ألزم وأقدم وأدل على المسمى من غير لحاظ إلى ما سواه.

وهذا موافق لعادة عامة (الناس) لاسيما عادة العرب، فإنهم أصح الأمم إصابة في التسمية، وإنما جعل الاسم للدلالة على المسمى،² فمن عرف الشيء باسمه الصحيح فقد عرفه.

والطريق الثاني: هو طريق الوصف بصفة، وهذا دون التسمية، فإن الشيء قد يوصف بصفة ولا يسمى بها.

¹ سورة البقرة: الآيات 20 – 22.

² اختلفت المعتزلة والأشاعرة في المراد من الاسم هل المسمى أو التسمية، فالمشهور من مذهب المعتزلة أن المراد من التسمية لا المسمى، أما الأشاعرة فيرون أن المراد من الاسم المسمى لا التسمية، وقد عرف الإمام الغزالي الاسم بأنه: اللفظ الموضوع للدلالة على المسمى، وعرف المسمى بأنه: المعنى الثابت في الأعيان من حيث دل عليه اللفظ.

وقال الباقلاني: والذي يذهب إليه أهل الحق: أن الاسم هو المسمى نفسه أو صفته متعلقة به، وأنه غير التسمية، وقد عرف الجرجاني التسمية بأنها: تحصيل الاسم ووصفه للشيء. راجع هذه المسألة في: شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار، ص 542 – 544، المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى للغزالي، مكتب الجندي، 1968م، ص 12، 13، 165، التمهيد للباقلاني، شرح لمعة الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة، رسالة ماجستير للباحث، كلية الدراسات بالقاهرة، 1991م.

والطريق الثالث: هو نسبة الأفعال، وهذا دون الأولين؛ فإن بعض الأفعال ينسب إلى شيء على طريق المجاز وللمجاز أبواب كثيرة.

والطريق الرابع: ما يدل عليه نظم القرآن، وهذا لطيف جداً، ولكنه طريق واضح يبين عند أهل الفكر والتدبر، فإن الكلمة إذا وضعت في جنب كلمة أخرى أو ضم كلام مع كلام آخر، دل على أمور جملة.

ثم عقب فقال: فهذه أربعة طرق وإنما ذكرنا الرابع أخيراً لدقته لا لضعفه، كما أن الأول أوثق مع أن شرح الأسماء يقتضي تأملاً إمعاناً، ويهتدي إلى معناه الصحيح بالطرق الثلاث ويتوفيق بعضها ببعض، وذلك أصل راسخ".¹

وسيقصر حديثنا الآن على الطريق الأول: وهو المعرفة من أسمائه تعالى حيث إن الطرق الثلاث الأخرى تدل على وجود الله تعالى دلالة غير مباشرة، وسوف نتضح عندما نتكلم عن صفات الله تعالى، وأفعاله، فالصفة تدل على الموصوف، وإثبات الفعل دلالة على وجود الفاعل. ففي قوله تعالى: ﴿قُل ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيُّمَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.²

قال الفراهي: "فعلمنا أن الله والرحمن من أسمائه الخاصة التي ندعوه بها عن طريق الاسم، وهكذا نفهم من كلام العرب فإنهم لم يستعملوا هذين الاسمين إلا لله تعالى، وقال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ إلى قوله تعالى ﴿هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.³ فهذه أيضاً أسماء نصفه بها، وأما أن ندعوه بها فمستنبط غير مصرح به، وطريق الاستنباط ظاهر؛ فإن قوله تعالى: (أَيُّمَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) دل على أن ندعوه بأسمائه الحسنَى.

ثم قوله بعد سرد أسماء آخر: (له الأسماء الحسنَى) دل على أنها منها. ثم نظم قوله تعالى ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾⁴ يشبه نظم تلك الآيات الجامعة لأسمائه.

¹ القائد إلى عيون العقائد، المرجع السابق، ص 21، 22.

² سورة الإسراء: 110.

³ سورة الحشر: 22 – 24.

⁴ سورة البقرة: 255، سورة آل عمران: 2.

ثم جاء من صفاته تعالى على طريق الخبر كقوله تعالى: ﴿وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد﴾¹ فاحتمال كونها أسماء كاحتمال كونها صفات فوجب إعمال الفكر.

وطريقته المثلى: أن نجعل أسمائه الحسنی المصرحة بها أصلاً ونرد الصفات والأفعال إليها.

وأبين أسمائه وأصرحها الله والرحمن فنجعلهما أصل المعرفة بالرب تعالى². وهكذا تبين لنا أن الفراهي جعل من أسماء الله تعالى مدخلاً للتعرف عليه حيث يرى أن المراد من الاسم هو المسى وهو بذلك يوافق مذهب أهل السنة الذين يرون أن الاسم هو المسى نفسه، أو صفه متعلقة به، وأنه غير التسمية فاسم الله أو الرحمن مثلاً من أخص الأسماء التي ندعوه تعالى بها وأن العرب لم يستعملوا هذين الاسمين إلا لله تعالى، وكذلك باقي الأسماء المصرح بها أو التي دل السياق على كونها أسماء الله تعالى حيث وصفها بقوله (له الأسماء الحسنی) أو حتى الصفات التي تحتل أن تكون أسماء ككونها صفات.

وفي هذه الحالة (حالة عدم التصريح بالاسم) يبين لنا الفراهي الطريقة المثلى التي ينبغي أن يسلكها العلماء وذلك بأن نجعل أسمائه الحسنی المصرح بها أصلاً ونرد الصفات والأفعال إليها، وأن أبين وأصرح أسمائه تعالى الله والرحمن فنجعلهما أصلاً لمعرفة الله تعالى ونرد الجميع إليهما.

ومع أن الفراهي قد سلك هذا النهج في التعرف على الله تعالى- وهو التعرف عليه من أسمائه وصفاته وأفعاله- إلا أنه أيضاً لم يهمل الطريق الذي سلكه علماء أهل السنة في الاستدلال بالخلق على الخالق، والصنعة على الصانع، وذلك بالنظر في المخلوقات، وربط الأثر بالمؤثر، والصنعة بالصانع وبيان أن هذا الكون مخلوق لله

¹ سورة البروج: 14-16.

² القائد إلى عيون العقائد، المرجع السابق، ص 22، 23.

العدد الخاص مجلة الهند

وأن ما فيه من إبداع ونظام وعناية دالّ على وجود خالق مبدع لهذا الكون، وأن المادة والنفس نظرًا لكونهما حادثتين فهما يفتقران إلى محدث يعتني بهما ويسير أمورهما وهو ما يعرف بدليلي الاختراع والعناية:¹

أ- لا خالق إلا الله: يقول الفراهي:

"الخلق: إما هو إيجاد شيء من غير مادة، أو تبديل شيء إلى شيء آخر. أما الإيجاز ابتداءً فمفهوم ولكن كيفه لا يدري، وأما التبديل فمشتغل على تدبير عجيب، وحساب متقن، وحركة سارية في أدق أجزاء الشيء، فالإيجاز والتبديل كلاهما عجيب، والتبديل ليس بأدون (بأقل) من الإيجاد، بل هو مركب من إفناء وإيجاد، مثلاً: تبدل الحركة إلى الضياء والبرق -إشارة إلى حركة السحاب-، وتبدل التراب إلى الدهن والسكر واللحم والعظم والأزهار والثمار، والأجسام الحية من أعجب الأشياء وأغمضها".²

ثم رد الفراهي على الملاحدة الذين أنكروا الإيجاد من غير مادة، وادعوا في ذلك البداهة ونسبوا التبديل إلى قوى الطبيعة فقال:

"الملاحدة أنكروا الإيجاد من غير مادة، لا بدليل بل ادعوا فيه البداهة تمسكاً بأن هذا أكبر من أن نفهم، ونسبوا التبديل إلى قوى طبيعية لما أنهم رأوه عياناً، فلا بد له من نسبة إلى سبب، فنسبوا إلى الطبائع ووقفوا هناك.

ولكن لكل أمر ذي حكمة وتدبير ومنافع، لا بد من مريد حكيم، قادر، رحيم، والطبائع ليست كذلك.

¹ وقد أشار الفراهي إلى هذين الدليلين وأوردهما في كتابه، "عيون العقائد" وبعنوانين آخرين وهما:

1 - لا خالق إلا الله. 2 - حدوث المادة والنفس وسوف نلاحظ أنهما يتضمنان الاختراع والعناية.

² القائد إلى عيون العقائد، المرجع السابق، ص 29.

ثم هذه الحكمة راجعة إلى توحيد في العالم- أي نظام واحد في العالم- ينظم (علاقة) بعضها ببعض، فتحيروا ونسبوها إلى طبيعة واحدة وسعت العالم مع كونها خالية من إرادة وعلم".¹

يشير الفراهي في النص السابق إلى أن الخالق لا بد أن يكون مغايرًا للمخلوق، وأن يكون قادرًا على الإيجاد من عدم، وأن الخلق يجب أن يكون مريدًا حكيمًا قادرًا رحيماً والطبيعة لا توصف بشيء من ذلك، فبطل مدعاهم وثبت نقيضه، وهو أن الله مبدع هذا الكون فهو موجود، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾.²

فهذا الدليل يحفز الإنسان إلى السير في طريق العلم وربط الأسباب بمسبباتها، ذلك أن فكرتنا عن حقيقة الخلق لا تصبح كاملة إلا إذا ما وقفنا على آثار صنعة الله في كل جزء من أجزاء الكون.

ب - حدوث المادة والنفس وعناية الخالق بهما: يقول الفراهي:

- 1- كل ما فيه نظم وترتيب، لا يخلو من تصرف عقل وعلم.
- 2- المادة في أصل فطرتها قابلة لفوائد جمّة وتبدلات عجيبة، فلا بد لها في أصل فطرتها من عقل وعلم لا يحصى.
- 3- كلنا نرى المادة ذلولاً تحت أيدينا، وخالية عن كل إرادة بل مسخرة لنا، فهي خالية عن العقل والعلم أيضاً.
- 4- فلا بد للمادة في أصل فطرتها من جاعل، حكيم خلقها بهذه القابليات العجيبة فكانت حادثة.
- 5- قابليات النفس أكبر من قابليات المادة، وعلمها وإرادتها وسائر قواها ليست من ذاتها لنسيانها، وضعفها، وقلة عزمها، فكانت هي أيضاً قابلة لما أعطيت، ولا بد لها من فاطر، حكيم، رحيم، فكانت حادثة".³

¹ المرجع السابق، ص 29.

² سورة الأعراف: 185.

³ القائد إلى عيون العقائد، المرجع السابق، ص 30.

وهذا كله يوجب أن يكون للمادة والنفس مديراً وخالقاً ومعتنياً ليس من جنسهما بل خارجاً عنهما وذلك لضعفهما وعدم قدرتهما على الاستقلال والاستغناء عن فاطر خالق حكيم رحيم، ومعتني بما خلق مراعي لشؤونه، مقدم ما يصلح من شأنه.

فالله تعالى مخترع الكائنات، ولذلك كان واجباً على من أراد معرفة الله تعالى حق المعرفة، أن يتعرف على جواهر الأشياء ليقف على حقيقة الاختراع، وأن الله خلق الخلق ولم يتركهم هملاً بل اعتنى بهم وخلق لهم ما يكفل لهم الحياة الكريمة قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾^(١) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا^(٢) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا^(٣) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا^(٤) وَعَبَبْنَا وَقْضًا^(٥) وَزَيْتُونًا تَخْلًا^(٦) وَحَدَائِقَ غُلْبًا^(٧) وَفَكْهَةً^(٨) وَأَبًّا^(٩) مَتَّعًا لَكُمْ وَلَا نَعْمِيْكُمْ^(١٠)^١.

تعقيب: مما سبق يتبين لنا أن الفراهي سلك في الاستدلال على وجود الله تعالى أكثر من طريق وبذل جهداً طيباً في هذا الشأن مما يدل على سعة علمه وتحمسه للدفاع عن قضايا العقيدة، حيث سلك طريق الفطرة، وطريق القرآن الكريم في الاستدلال على وجوده تعالى وألمح إلى دليل الحدوث الذي استند إليه المتكلمون في استدلالهم على وجود الله تعالى، إلا أنه لم يورده على منهجهم من أن العالم حادث، وكل حادث لا بد له من محدث ... إلخ بل اعتمد في ذلك على الآيات القرآنية.

وقد سبقه إلى ذلك كثير من الأئمة ومنهم- كما سبق وأشرت- ابن تيمية، وابن القيم وابن الجوزي، وابن رشد، على اختلاف مناهجهم وأساليبهم في الاستدلال على وجوده تعالى.

فالفراهي وإن كان قد سلك الطرق التي سلكها هؤلاء الأئمة، إلا أنه قد استخدم منهجاً خاصاً في عرضه لهذه المسألة وإثباته لوجود الله تعالى.

^١ سورة عبس: 24-32.

المسلك الثاني: صفات الله تعالى وآراء العلماء فيها وموقف الفزاهي منها

تمهيد: تحدثنا فيما سبق عن وجود الله تعالى وطرق الاستدلال عليه سبحانه، وبيننا أنها مع كونها متنوعة إلا أنها انتهت جميعها إلى حقيقة واحدة وهي أن هذا الكون الفسيح بما فيه ومن فيه تقف وراءه قوة جبارة عظيمة ذات إرادة وعلم لما وجد وما سيوجد، وهذا يسلمنا إلى الاهتداء بأن لهذا الكون إلهًا عظيمًا يتصف بصفات الكمال والجلال، خلق الكون وأبدعه على غير مثال سبق، واعتنى به تمام العناية حيث حافظ على نظامه ووضع كل شيء في نصابه، وهياً لكل مخلوق ما يكفل له الحياة ويساعده على البقاء ... هذا الإله سبحانه بلا شك قادر عالم مرید سمیع بصیر متكلم حي مستغن عن خلقه؛ لأنه كان من قبل ولا شيء معه (كان الله ولا شيء معه وكان عرشه على الماء) فهو القديم الأزلي الباقي فهو ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾¹ ... فالنظر إلى الكون يدلنا على أن له إلهًا يتصف بكل هذه الصفات وغيرها.

وقد قسم العلماء صفات الله تعالى إلى أربعة أقسام: وهي صفات المعاني (الصفات الوجودية)، والصفات المعنوية، والصفات السلبية (التنزيهية)، والصفات الخبرية.

وسوف نركز في هذا البحث على القسم الأول والأخير من هذه الصفات نظرًا لاهتمام الفراهي بهما، ولكثرة اختلاف العلماء فيهما:

أولاً: صفات المعاني: تعد صفات المعاني (الصفات الوجودية) في إثباتها لله - تعالى - ونفياً عنه من كبريات المسائل التي وقع فيها الخلاف بين العلماء؛ فبعد أن أجمعوا على أن الله تعالى قادر، عالم، مرید، حي، سمیع، بصیر، متكلم، اختلفوا في هل هذه الصفات توجب معنى زائداً على الذات هو القدرة والعلم والإرادة، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام.

أو أنها لا توجب معنى زائداً على الذات؟ فيكون الله تعالى قادراً بذاته، عالماً بذاته وهلم جرّاً..؟

¹ سورة الحديد: جزء من الآية 3.

1- فأهل السنة: يثبتون هذه الصفات لله تعالى، ويثبتون لها أربعة أحكام وهي: أنها قديمة، وقائمة بذاته تعالى، وزائدة على ذاته وأن الأسماء المشتقة منها صادقة على الله تعالى أزلاً وأبداً، وأثبتوها لله تعالى بلا تشبيه، ونزهوه تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله بلا تعطيل، معتمدين في ذلك على الأدلة النقلية والعقلية معاً، وبهذا خالفوا المشبهة والمجسمة من الحشوية والكرامية وأهل الظاهر؛ الذين ألغوا عقولهم بحجة التمسك بالظاهر، فأضافوا لله- تعالى- ما لا يرتضيه عاقل حيث أثبتوا له الصفات وشبهوها بصفات غيره وتوقفوا عند ظاهر النص وألغوا عقولهم فوقعوا في التشبيه والتجسيم حيث نسبوا لله تعالى الجهة والمكان والزمان... كما خالفوا المعتزلة الذين أسرفوا في الاعتماد على العقل، وحكموا عقولهم في النصوص وأولوا منها كل ما لا يتفق مع نزعتهم العقلية حتى وقعوا فيما يسمى بالتعطيل.

2- أما المعتزلة: فقد كان موقفهم رد فعل لما أحدثه المشبهة من تشبيه وتجسيم لله تعالى، فلجأوا إلى نفي الصفات وأنكروا أن تكون صفات الله تعالى قديمة زائدة على ذاته تعالى.¹

وببدو أن المعتزلة الأوائل كانوا أكثر إفراطاً في التنزيه من المتأخرين منهم، فقد كان "الجعد بن درهم" أول من تكلم في الصفات فنفاها، وقال بخلق القرآن.

وعن "الجعد" أخذ "جهنم بن صفوان" القول بنفي الصفات، وادعى أن الله لا يوصف بشيء يوصف به خلقه، ولما ظهر المعتزلة أخذوا عن الجهمية قولهم في نفي الصفات، فكان واصل بن عطاء ينفىها أصلاً لأنها تؤدي- في نظره- إلى الشرك، ولذلك كان يقول: (من أثبت لله تعالى معنى أو صفة قديمة فقد أثبت إلهين).²

ثم شرع أصحاب واصل في مطالعة كتب الفلاسفة فتوسعوا في هذه المسألة وأخذت حذتهم وتطرفهم في الصفات تخف شيئاً فشيئاً حتى طالعنا "أبو الهذيل

¹السعد التفتازاني، شرح المقاصد، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب والكليات الأزهرية، 54/2.

²الشهرستاني، الملل والنحل، المرجع السابق، ص 50.

العلاف" بإثباته لله تعالى صفات هي ذاته حيث قال: إن الله عالم بعلم وعلمه ذاته، وقادر بقدرة وقدرته ذاته... إلخ.

وبهذا يكون أبو الهذيل لم ينف الصفات أصلاً بل أثبت صفات هي بعينها ذاته.

ثم جاء بعد ذلك من رد جميع الصفات: لكونه تعالى قادراً عالمًا ثم الحكم بأنهما صفتان ذاتيتان هما اعتباران للذات القديمة وهو أبو علي الجبائي وأبو الحسن البصري في بعض ما نقل عنه،¹ وأطلق عليها أبو هاشم الجبائي لفظ الأحوال.

وعلى كل حال فإن المعتزلة أنكرت الصفات الزائدة على الذات، حتى لا يتعدد القدماء. وذلك لأنه لو كانت لله تعالى صفات فلا بد أن تكون قديمة لأنه تعالى لا تقوم به الحوادث، وإثبات صفات قديمة يوجب في نظر المعتزلة- أن تكون تلك الصفات القديمة مثلاً لله تعالى في القدم، والقدم أخص وصف لله تعالى لأنه تعالى إنما يخالف غيره بكونه قديماً، فلا شيء- في نظرهم- يصلح أن يكون فاصلاً بين الله تعالى وبين ما سواه غير القدم.²

3- وأما الفراهي: فإنه يرى أن الصفات ترجع بعضها إلى بعض وتؤول إلى الذات، ولكن الذات المجردة من الصفات مفروضة لا حقيقة لها.

ويرى أن الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة خلاف لفظي حيث يقول: (والمقصود ههنا أنّ النزاع بين أهل السنة والمعتزلة في هذه المسألة إنما هو نزاع لفظي).³

ثم قرّر بإيجاز مذهب كل من الفريقين وعلّق عليهما فقال: (المعتزلة لم ينكروا بعلم الله وقدرته وسائر صفاته، إنما أنكروا بكون هذه الصفات زائدة على ذاته

¹ المرجع السابق، ص 51.

² وهذا القول ينقده ما أثبتته أبو هاشم من قوله بحالة خاصة يميز بها بين ذات الله تعالى وسائر الذوات، راجع الجرجاني، شرح المواقف، المرجع السابق، 15/8. وراجع موقف المعتزلة في الصفات في شرح الأصول الخمسة، مكتبة وهبة 1956م، ص 196، 197، للقاضي عبد الجبار. تحقيق: د. عبد الكريم عثمان.

³ الفراهي، عيون العقائد، ص 38.

حتى لا يلزم تعدد الواجب والقديم، وكون الله في عين ذاته خاليًا عن العلم والقدرة، فقالوا: إنه عالم بذاته لا بعلم يكون صفة زائدة عليه.

والأشاعرة: قالوا: إن البدهية فارقة بين الذات والصفات، فالصفات لا بد لها من حامل وهو الذات، والذات المجردة عن كل صفة أمر مفروض، وأن الصفة لا تتقلب ذاتًا، فقالوا: إن الله تعالى لم يزل عالمًا، قديرًا، مدبرًا، سميعًا، بصيرًا فصفاته قديمة واجبة ولا يلزم تعدد القدماء، فإن الصفات لا تتفرق عن الذات، ولم تكن موجودة خارجة عن الذات بل كانت مع الذات أبدًا، فلا تعدد إلا في الانتزاع العقلي.

وأيضًا قالت المعتزلة إنه يلزم على مذهب الأشاعرة التركيب، والافتقار، وأجيبوا بأن التركيب لا يعقل إلا بين شيئين متفارقين في الوجود، وأما الذات وصفاته، فلا تركيب بينهما، خذ أي ما شئت من البسائط تجدها ذاتًا مع صفة، ولن تجد ولن تتعقل ذاتًا مجردة عن كل صفة).¹

وبعد تقرير الفراهي لمذهب أهل السنة والمعتزلة وردده على شبه المعتزلة أبرز رأيه في القضية فقال: (ولكن هذا البحث من التعمق، وما أمرنا الله تعالى بذلك بل نهانا عنه وعن المراء في الأمور فيما لا نفع فيه، وقد رأينا ضرر هذا المراء وأما لدفع إلزام المخالفين فيكفينا فيه إيراد المنع على ما يلزمونا، ولا حاجة لنا إلى وضع مذهب مبتدع، فنقول كما ورد وهو الظاهر عند العقل).²

تعقيب: وهذا يتبين أن الفراهي قلل من أهمية البحث في زيادة الصفات على الذات أو كونها عين الذات، وأشار إلى عدم جدواها وأن الله نهانا عن البحث في مثل هذه الأمور وعن المراء في الأمور فيما لا نفع فيه. واختار إثبات الصفات لله تعالى كما وردت دون بحث في كونها عين الذات أو زائدة عليها لعدم جدوى هذا البحث، وعدم توقف أمر عقدي عليه يؤثر على إيمان الفرد، وفي نفس الوقت

¹ المرجع السابق، ص 38.

² نفس المرجع والصفحة.

يرى أن الذات المجردة من الصفات مفروضة لا حقيقة لها، فلا تتصور الذات من دون الصفات، حيث إن الصفات هي التي تميز الذوات بعضها من بعض، كذلك لا يتصور صفات من دون ذات تقوم بها، أو كما قال الفراهي: "العلم بالذات يظهر من العلم بالصفات، ثم تصير الذات موضع الفكر فتزداد بها البصيرة ويتبين الصحيح من السقيم وينفي المناقض، وعلى هذا الأصل؛ فالنظر في صفات الرب الحاصلة من الآيات يصحح ما كان من خطأ: "أي يصحح ما اعتقده الناس خطأ في حق الله من وصفه تعالى بصفات لا تليق به وذلك بالإفراط في إثبات ما لا يليق بجلاله أو التفريط والتعطيل بنفي بعض صفاته.

وبذلك يتبين لنا أن الفراهي كان متأثرًا بالسلف في موقفهم من الصفات الوجودية (صفات الكمال عندهم) ورفضهم القول بأنها زائدة على الذات أو هي عين الذات وهو الحق في نظرنا والأولى بالاتباع.

ثانيًا- النصوص الموهمة للتشبيه ومناهج العلماء فيها: وردت في كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ كثير من النصوص التي يوهم ظاهرها التشبيه مثل ما جاء في الصفات الخيرية من اليد، والوجه، والساق، والاستواء، والمحيء... الخ هذه الصفات وكذلك ما يتعلق بوقف الساعة، وأحوال الآخرة، وحقيقة الروح، على اختلاف بينها في نوعية هذا التشابه.

ولما كان هذا المتشابه مؤديًا إلى الالتباس والمشاكلة وعدم فهم حقيقة كان لا بد من رده إلى المحكم حتى نتبين المراد منه.

ورد المتشابه إلى المحكم من عمل الراسخين في العلم، الموقنين بأن المتشابه والمحكم كل من عند الله.

ولما كان التأويل هو وسيلة كثير من العلماء في فهم المتشابه والمحكم من القرآن؛ فهل كل متشابه يمكن تأويله؟

الواقع أن المتشابه نوعان حقيقي، وإضافي:

أ - المتشابه الحقيقي: هو ما اتفق على أنه لا يعلم تأويله إلا الله. وهو كل ما يتعلق بأحوال الآخرة ووقت قيام الساعة، وحقيقة الروح والملائكة" وكل ما اتفق على أنه لا دخل للعقل في معرفته بل سبيلنا إلى معرفته عن طريق النقل فقط، وهذا النوع لم يحدث فيه خلاف بين العلماء وأرباب الفرق من الأشاعرة والمعتزلة والحنابلة والسلف في أنه لا يعلم تأويله إلا الله.¹

ب- المتشابه الإضافي: وهو ما يتعلق بصفات الله تعالى الخيرية وكيفية الثواب والعقاب في الآخرة، وقد حدث خلاف بين العلماء في هذا النوع هل هو مما استأثر الله بعلمه فمن ثم لجأ إلى التفويض، أو أنه مما يعلم الله ويعلم الراسخون في العلم، فنأوله إلى المعنى الذي يليق بالله تعالى، مع صرف الظاهر غير المراد؟ فالعلماء تجاه هذا النوع من المتشابه (الإضافي، أو النسبي) تعددت آراؤهم:

1. فالمشبهة والمجسمة كالكرامية وبعض شيوخ الجنبالة كالقاضي أبي يعلى، وابن الزغواني، وأبي عبد الله بن حامد² حملوا الصفات على مقتضى الحس فأتبوا لله صورة، ووجهًا وأضراسًا، وخنصرًا، وإبهامًا...الخ. فأتبوا النصوص كما وردت مع القول بالتشبيه والتجسيم والتكييف.
2. وأما المعتزلة فقد ذهبوا إلى أن هذه الصفات من التشابهات التي يجب صرف ظاهرها غير المراد ونفي التشبيه والتجسيم والتكييف، وتأويل هذه الصفات بمعان تليق بالله تعالى مع تعين المعنى المراد منها، واعتبروها من المجاز الذي يجب أن يعرف حقيقية فقالوا بأن اليد مجاز عن القدرة، والوجه مجاز عن الذات...الخ وهكذا صرفوا اللفظ عن ظاهره وعينوا المعنى المراد من هذه النصوص وواقفهم في ذلك بعض متأخري الأشاعرة كالجويني والغزالي، وإن

¹ يقول ابن تيمية، "ومن قال من السلف: إن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله فقد أصاب أيضًا، ويراد بالتأويل ما استأثر الله بعلمه، مثل وقت الساعة ومجيء أشراتها، ومثل كيفية نفسه، وما أعد في الجنة لأوليائه": رسالة الفرقان، في مجموعة الرسائل الكبرى 108/1، وراجع القاضي عبد الجبار وأيضًا في تنزيه القرآن عن المطاعن، دار النهضة الحديثة، بيروت، ص 58.

² ابن الجوزي، دفع شبهة التشبيه، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية، 1998م، ص 6-7.

كان قد تراجعاً عن القول بالتأويل في آخر حياتهم.¹

3. وأما متقدموا الأشعري والباقلاني وغيرهما:

(أ) فالأشعري وإن نسب إليه القول بالتأويل كأحد قوليه إلا أنه صرح بالتفويض واتباع الصحابة والتابعين في هذه المسألة حيث قال في كتاب الإبانة - على فرض صحة نسبته إليه "قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا- عز وجل- وبسنة نبينا ﷺ وما روي عن الصحابة والتابعين، وأئمة الحديث، ونحن معتمضون بذلك... وجملة قولنا أنا نقر بالله وملائكته ورسله، وما جاء من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ لا نرد من ذلك شيئاً... وأن الله استوى على عرشه كما قال: (الرحمن على العرش استوى) وأن له وجهًا بلا كيف كما قال تعالى: (لما خلقت بيدي) ... الخ النصوص".²

(ب) وأما الباقلاني فقد ثبت قوله بالتفويض أيضًا وعدم اللجوء إلى تأويل المتشابه، ويؤيد ذلك قوله: في كتاب التمهيد: (فإن قال قائل: فهل تقولون إن الله في كل مكان؟ قيل معاذ الله؛ بل نقول هو مستوٍ على العرش كما أخبر في كتابه... ولو كان في كل مكان لكان في جوف الإنسان وفي فمه وفي الحشو، وفي المواضع التي يرغب عن ذكرها).³

واستدلوا على ما ذهبوا إليه بعبارة الإمام مالك "الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة" فأثبتوا الاستواء بلا كيف وفوضوا معرفته لله تعالى.

¹ راجع: الجويني، العقيدة النظامية، حيث قال: "ذهب أئمة السلف إلى الإنكاف عن التأويل وإجراء الظواهر على موارد وتفويض معانيها إلى الرب تعالى، والذي نرتضيه رأيًا وندين الله به عقلاً اتباع سلف الأمة، فالأولى الاتباع وترك الابتداع، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، 1979م، ص 32-33، والغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، مكتبة الجندي، القاهرة، 1972م، ص 52، 53، حيث منع الغزالي التأويل بالنسبة لعوام الخلق دون خواصهم.

² الأشعري، الإبانة عن أصول الديانة، دار الدعوة السلفية، 1992م، ص 56-57.

³ الباقلاني، التمهيد لقواعد التوحيد، نشره المكارثي، ص 153.

4. وأما السلف ومنهم ابن تيمية وابن القيم فقد كان لهم موقف خاص من الصفات الخيرية حيث إنهم لم يعتبروها من النصوص المتشابهة التي لا يعلم معناها، بل من النصوص المحكمة المعلومة المعنى.

وأن هذه الصفات لها معان ثابتة ومعلومة ولا بد من إجرائها على ظاهرها، ولكن كيفيتها غير معلومة وأن علمها عند الله، وأننا لسنا مكلفين بالعلم بكيفيتها، لأن معرفة الكيفية والحقيقة هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله.

وهكذا فرقوا بين علم المعنى وعلم التأويل، فالمعنى متعلق باللفظ، والتأويل متعلق بالكيف. فالذي امتنعوا عن الخوض فيه هو البحث عن الكيفية.

وقالوا: لو كانت آيات الصفات غير معلومة لنا لخرج معظم القرآن عن نطاق فهمنا، وهذا معارض للمنهج القرآني الذي أمر بتدبر آياته تعالى حيث قال عز وجل: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ٥٨).

"والحث على تدبر القرآن وفقه معناه يناقض القول بأن هناك آيات لا معنى لها أو لا يفهم معناها، أو يجب الكف عن بيان معناها أو التفويض فيها".¹

ولهذا نرى أن ابن القيم يؤكد على نفي المجاز في القرآن، وأن "القرآن كله حقيقة لا مجاز فيه"² وهكذا فالصفات الخيرية جميعها من قبيل الحقيقة المعلومة المعنى.

ويوجهون مقولة الإمام مالك (الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب) بأن معنى الاستواء معلوم أما الكيف فهو مجهول، فهناك فرق بين معنى الاستواء وكيفيته، وما دام الاستواء معلوماً فالآية ليست من المتشابهة وإنما من المحكم المعروف المعنى والتفسير، وإنما الذي استأثر الله بعلمه هو الكيفية، ولم

¹ محمد السيد الجلندي، ابن تيمية، ص 58، نقلاً عن د. سعد الدين صالح، العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث، دار الصفا 1991م، 1/175.

² ابن القيم، الصواعق المرسلة، ص 284، نقلاً عن المرجع السابق، ص 176. وهو بذلك يخالف المعتزلة الذين اعتبروا الصفات الخيرية من المجاز الذي يجب أن يعرف حقيقته كما سبق وأشرت.

يكلفنا الله إلا بتدبر الآية ومعرفة معناها، وبذلك فله يد، وساق، وقدم، ووجه، واستواء، وعلو، ونزول، فلا بد من إجراء اللفظ على ظاهر معناه، مع تفويض معرفة كيفية هذه الصفات لله تعالى، وبذلك فالسلف ومعهم متقدمو الأشاعرة، يثبتون هذه الصفات كما وردت مع نفي التشبيه والتمثيل والتكييف والتأويل.

5. وأما الفراهي:¹ فيرى أنه لكي نفهم القرآن ونتمسك به يجب أن نفرق بين الأمور الثلاثة وهي (التأويل والتحريف والتفصيل) حيث يرى أن "التأويل حمل الكلام على ما يحتمله نقلاً وعقلاً.

والتحريف حمله على ما لا يحتمل.

والتفصيل ذكر أجزاء لم تذكر لجامع يحتملها، والفرق بين هذه الثلاثة من أشد الأمور وجوباً لفهم القرآن والتمسك به.

والضرر من تخطيط التأويل بالتفصيل أهون من ضرر تخطيط التحريف بهما، فإنه باطل محض وافتراء على الله وهدم لدينه وإقامة لدين آخر.

ألا ترى كيف ضلّت النصارى واليهود بتحريف الكلم عن مواضعه...²

يظهر لنا من كلام الفراهي أن مفهوم التأويل عنده مغاير لمفهومه عند علماء الكلام الذين يعرفون التأويل بأنه: (إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخالف ذلك بعادة لسان العرب).³ حيث إن القرآن

¹ فقد أفرد كتاباً لقضية التأويل أسماه "التكميل في أصول التأويل" تكلم عن أصول التأويل، وآراء العلماء فيه، والتأويل إلى معنى واحد، وطريق الفهم للمعنى المراد... إلخ وهو ضمن مجموعة رسائل، نشر الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح - سرائر مير - أعظم كره (الهند)، ص 227.

² المرجع السابق، نفس الصفحة.

³ ابن رشد، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال، تحقيق: د. محمد عمارة، دار المعارف، 1983م، ص 32.

كله عند الفراهي قطعي الدلالة لا يحتمل إلا معنى واحدًا،¹ وعن طريق التأويل نصل إلى هذا المعنى الواحد الذي أراده الله تعالى في كتابه، وذلك باستخدام أصول التأويل الخاصة التي تعصم الإنسان من الوقوع في الخطأ في التأويل والذي من أسبابه أن "كل من اتخذ عقيدة وثبتت عنده من أي دليل كان ووجد ظاهر القرآن لا يوافقها، التزم تأويل القرآن إلى ما اعتقده ومن هذا الباب دخل كثير من التأويلات التي لا تصح.

ثم إنهم ربما التزموا تأويلًا، يمكن تصحيح العقيدة التي لأجلها أولوا بغير ذلك التأويل"² وبعد أن بين سبب الخطأ في التأويل أرشدنا إلى المنهج القويم في التأويل فقال:

- "فالأصل الراسخ استعمال أصول مختصة للتأويل، وإن وجدت عقيدة لا توافق القرآن:

- فإما أن تصلح تلك العقيدة حتى تصبح موافقة بالكتاب.

- أو تنظر مرة أخرى في القرآن لعل الله تعالى يهدي إلى التوفيق.

أو يتوقف.

وأما صرف القرآن عن معناه على غير أصول التأويل فهو التعرض للتحريف".³

ولكن ما هي أصول التأويل التي اعتمدها الفراهي ودعا إلى استعمالها في تأويل المتشابه؟

لقد أشار الفراهي إلى تلك الأصول في كتابه "التكميل في أصول التأويل" وهي كالآتي:

¹ وهناك من يرى أن القرآن الكريم منه ما هو قطعي الدلالة مثل قوله تعالى (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) سورة النور: 2، ومنه ما هو لفظي الدلالة كما في قوله تعالى: (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) سورة البقرة: 228.

² الفراهي، التكميل في أصول التأويل، ص 228.

³ المرجع السابق.

الأصل الأول: إذا كثرت وجوه التأويل في آية، كان الأمر كاشتراك اللفظ والحاكم عند اشتراك اللفظ موقع استعماله. فهكذا عند اشتراك الوجوه في آية لا سبيل إلا بالنظر إلى موقع الآية، ومن هنا ظهرت شدة الحاجة إلى النظام وعلة الاختلاف الكثير.

الأصل الثاني: العلم بخصائص أسلوب القرآن، فإن كل ذي كلام له في كلامه أساليب تخصه، فإن لم تراعها وأولته حسب ما تعودت به أخطأت معناه وكذلك العلم بخصائص أساليب كلام العرب.

الأصل الثالث: إذا احتملت كلمة أكثر من معنى، سألنا هل هذه الكلمة أجدر بهذا المعنى من غيرها؟ فإن وجدنا كلمة أخرى أجدر وأقوم وتركها القرآن؛ علمنا أن القرآن لا يترك أبين الكلام وأقومه، فتركنا ذلك المعنى وأولناها إلى ما هي أصوب له، مثل قوله تعالى: (وعلى الذين يطيقونه) في معنى المستطيع كما ذهب إليه صاحب حجة الله البالغة¹.. وكما جاء في قوله تعالى: (وقالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت) وهذا ليس كما قالوا² إن الحقيقة أولى من المجاز فأثبتوا اليد والاستواء، وإنما مرادنا أن لا نؤل الكلام إلى معنى كان من حقه أن يعبر عنه بكلام غير ما جاء به القرآن.

وهذا الأصل احتج الشافعي رحمه الله خلاف تأويل ابن عيينه لحديث: (من لم يتغن بالقرآن) فإنه كان يقول يستغني به، فسئل الشافعي رحمه الله عن هذا فقال: نحن أعلم بهذا لو أراد به الاستغناء لقال: (من لم يتغن بالقرآن) علمنا أنه أراد به التغني.

الأصل الرابع: وفيه عدة نقاط:

1. الموافقة بالآيات الأخر.

¹ هو الإمام المحدث الشاه ولي الله الدهلوي

² يشير الفراهي إلى ابن تيمية وابن القيم بصفتهما ممثلين للمذهب السلفي حيث يرون أنه لا مجاز في القرآن بل القرآن كله حقيقة كما سبق وبينت، راجع، ص من البحث، وسنلاحظ أن الفراهي خالفهم في إثبات اليد والساق والوجه.

2. الموافقة بالكتب السابقة.
 3. الموافقة بالعقل والبرهان.
 4. الموافقة بما ثبت من تاريخ الأمم الخالية وسنة الله تعالى بعباده.¹
- فالفراهي يرى أن العلماء لو استخدموا هذه الأصول في تأويلهم لما تشابه من كتاب الله تعالى لاهتدوا إلى معنى واحد كما كان حال الصحابة رضوان الله عليهم، فقد كان "للقرآن عند الصحابة تأويل واحد لتقواهم وعلمهم باللسان وبشأن النزول، ولذلك قل منهم السؤال والتفسير.
- أما التابعون للصحابة فخفي عنهم بعض شؤون النزول، فأولوا القرآن إلى آياته وآثار الصحابة فكأنهم اعتصموا بأصلين:
- الأول: أن القرآن لا يخالف بعضه بعضاً.

الثاني: أن أفعال النبي وأقواله وعمل الصحابة أقرب شيء موافقة بالقرآن، فوقع بعض الاختلاف في وجوه لمعنى واحد، وهذا لا يبعد عن الصواب. ولكن في ذلك العصر كثر الروايات الضعيفة واعتمدوا عليها في التفسير فصارت كتب التفسير حاملة لروايات من اليهود والدجالين الواضعين. ثم ظهرت الفلسفة واختلفت الآراء في العقائد، فصنعوا الكتب على نمط الكلام (علم الكلام) وأرخوا عنان الخيال، وتشبثت كل فرقة من الروايات والفلسفة بما أعجبها فكثرت وجوه التأويل حتى صار الأمر الواضح مشتملاً، وأظلمت سبل التفسير وأغلق باب القرآن، ولكثرة الآراء وتشاجر الروايات ضاع الحكم الفيصل".²

واستشهد الفراهي على ما قال بما أورده الرازي في تصويره لاختلاف العلماء في تأويل الصفات بقوله (فالمعتزلي يقول: (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ))

¹ وقد جمع هذه الأصول بدر الدين الإصلاحي - الذي قدم وطبع كثير من كتب الفراهي بعد أن كانت ماثوبة في المخطوط، ووضعها تحت عنوان "الأصول التي تهدي إلى معنى واحد. المرجع السابق، ص 239-241 وما بعدها كلام طويل عن طريق الفهم للمعنى المراد.

² نفس المرجع، ص 39.

محكم، وقوله تعالى: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) متشابه، والسني يقلب الأمر في ذلك، فلا بد من قانون يرجع إليه).¹

ويبرز الفراهي رأي الرازي في هذه المسألة وهو قوله (فلهذا التحقيق المتين مذهبننا أن بعد إقامة الدلائل القطعية على أن حمل اللفظ على الظاهر محال، لا يجوز الخوض في تعين التأويل فهذا منتهى ما حصلناه في هذا الباب"، قال الفراهي معلقاً على كلام الرازي: ما أصدق قوله بأن الخوض في تعين التأويل لا يجوز؛ فهو قول مرضي.

ولكن بقي باب الفتنة مفتوحاً إذا لم يتبين المحكم من المتشابه، وبئس الأمر إذا كان محكم فرقه هو نفسه متشابه فرقة أخرى- حيث حكموا العقل مع أنه ظني الدلالة - ... فما بالهم جعلوا القرآن غير قطعي، فقطعوا عنه الرجاء وانكبوا على برهان لا يزداد شاربهُ إلا ظمئاً فبقينا في التشاجر والاختلاف: فبعدما خاب الأمل في هذا القطعي المزعوم- وهو العقل- حان لنا أن نرجع إلى ما أسأنا به الظن أولاً، فنحسن به الظن، فنؤمن بأن القرآن هو القطعي في دلالته والفاصل في حكمه.² فالحل في رأيه التمسك بالقرآن الكريم ورد الروايات والآراء إلى كتاب الله تعالى، والإيمان بأن القرآن لا يحتمل إلا تأويلاً واحداً.

وعدم جواز الخوض في تعيين المعنى المراد بأن نقول المراد باليد القدرة، وبالوجه الذات الخ، كما لا يجوز أن نثبت هذه الصفات إثباتاً مشخصاً بأن نقول لله يد أو ساق أو قدم الخ بل نثبتها على وجه الإجمال ومن غير تأويل مشخص لها، قال الفراهي: "العقيدة ليست إلا ما يعتقده القلب، وذلك لا يكون اللفظ المحض- أي لا يجوز أن نقف عند ظاهر اللفظ- بل لا بد من معنى، وأقل ذلك المعنى المجمل، فأما الألفاظ المحظة كاليد والساق وغيرهما، فلا تدخل في العقائد، والقول بهذه الألفاظ بدعة، أنما جاء الوحي بالمجملات فلا نزيد عليها فنقول: (يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) ولا نقول إن لله يداً أو قدماً أو ساقاً.. وغير ذلك والفرق بين القولين ظاهر".³

¹ الفراهي، التكميل في أصول التأويل، المرجع السابق، ص 233.

² المرجع السابق، ص 229، 230، 132.

³ القائد إلى عيون العقائد، المرجع السابق، ص 6.

تعقيب:

يتبين لنا مما سبق أن العلماء اختلفوا في النصوص الموهمة للتشبيه (الصفات الخبرية) فمنهم المثبت المشبه المجسم كالكرامية وبعض شيوخ الحنابلة، ومنهم من يرى ضرورة تأويل هذه النصوص وهم المعتزلة ومتأخرو الأشاعرة الذين يرون أن المتشابه في القرآن من قبيل المجاز الذي ينبغي أن تعرف حقيقته، ولا يكون ذلك إلا بتأويل المتشابه وتعيين المعنى المراد منه. ومنهم من أثبت هذه الصفات الخبرية، كما وردت من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل ولا تكييف، فأثبتوا لله تعالى اليد والساق، والوجه، والاستواء... إلخ وفوضوا معرفة كيفية هذه الصفات لله تعالى وهؤلاء هم السلف ومتقدمو الأشاعرة.

وإذا كانت المعتزلة قد قالت إن التشابه من قبيل المجاز، فإن ابن القيم من السلف يؤكد على نفي المجاز من القرآن الكريم فهو عنده حقيقة لا مجاز فيه لذلك ترى المعتزلة ومتأخري الأشاعرة يأولون اليد بمعنى القدرة، والوجه بمعنى الذات... إلخ مع صرف النص عن ظاهره غير المراد ونفي التشبيه والتجسيم والتكييف، أما السلف فأثبتوا لله يدًا ليست كأيدينا وساقًا ليست كساقنا... إلخ على سبيل الحقيقة. حيث يذهبون إلى أن معنى هذه الصفات معلوم أما كيفيةها فمجهولة.

وأما الفراهي فيذهب إلى أن القرآن جميعه قطعي الدلالة، أي أن اللفظ القرآني يدل على معنى واحد محدد، وأن المقصود من التأويل هو معرفة هذا المعنى الذي يريده الله تعالى في كلامه. وإن هذا التأويل يجب أن يكون مؤسسًا على أصول يجب مراعاتها عند التأويل، كما سبق وبينت وأن مراعاة تلك الأصول تجنب الباحث الوقوع في الخطأ في التأويل.

غير أن التأويل عند الفراهي يختلف عن التأويل عند المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة فهو يأول النص تأويلًا إجماليًا، وذلك بالبحث عن المعنى العام للآية والذي يفهم

منه مراد الله، وتفنيده المعاني الأخرى التي لا يحتملها النص، وذلك بضم الآيات المناظرة للآية التي يريد تأويلها، ومعرفة موقع الآية في السورة ومناسبتها، وصلتها بالآيات السابقة واللاحقة، وعرض المعنى الذي يتم التوصل إليه على صريح المعقول وصحيح المنقول مما ورد في كتاب الله تعالى، وبما ثبت من تاريخ الأمم الخالية وسنة الله بعباده، وهذا ما يعرف لدى الفراهي بأصول التأويل، وقد سبق ذكرها.

فالفراهي لا يلجأ إلى تعيين المعنى المراد من اليد، والساق، والوجه... كما فعل المعتزلة وبعض الأشاعرة بل يأول تأويلاً إجمالاً دون تعيين المعنى المراد.

كما أنه لا يوافق السلف في القول بإثبات الصفات الخبرية تفصيلاً، فالسلف يثبتون لله تعالى يدًا ليست كأيدينا، وساقًا ليست كساقنا... إلخ؛ بل إنه يرى أن هذا الكلام بدعة وأن الوحي إنما جاء بهذه الصفات على وجه الإجمال فلا نزيد عليها فنقول: "بل يده مبسوطتان ينفق كيف يشاء".

فإذا كان السلف يثبتون هذه الصفات تفصيلاً فالفراهي يثبتها إجمالاً، وإذا كان السلف يفهمون المعنى المراد من ظاهر النص ولا يأولونه، ويفوضون معرفة كيفية هذه الصفات لله تعالى، فإن الفراهي يأول هذه النصوص ويحاول أن يصل إلى المعنى المراد لله تعالى، حيث يرى أن كلام الله تعالى لا يحتمل إلا معنى واحداً، مع تفويض معرفة الكيف لله تعالى أيضاً.

المسلك الثالث: أفعال العباد الاختيارية وعلاقتها بالإرادة الإلهية

(آراء العلماء فيها وموقف الفراهي منها)

تمهيد: لم تكن الخلافات السياسية وحدها هي السبب في نشأة الجدل بين المسلمين، فقد ساعد اختلاط المسلمين بنصارى الشام ويهوده على ظهور الجدل حول بعض العقائد الأخرى مثل عقيدة الجبر والاختيار.

وهذه المسئلة خطيرة الشأن لها اتصال وثيق بوحدة الإله وانفراده- جل شأنه- بالخلق، كما لها اتصال بتكاليف العباد، وما يترتب عليها من ثواب وعقاب، لذلك

فإن الباحث فيها يجد نفسه بين أمرين متنازعين؛ فبينما يعتقد انفراد الله تعالى بالخلق والإيجاد وأن الله هو الذي يهدي ويضل كما تشير بذلك كثير من الآيات كما في قوله تعالى: (اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ)¹، وقوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)² مما قد يوهم الإنسان بأنه مجبر في أفعال ولا اختيار له.

كذلك يجد أن العباد مأمورون بالطاعات ومكلفون باجتنب المعاصي، وأنهم مثابون على الطاعة ومعاقبون على المعصية، كما في قوله تعالى: (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ)³، وقوله تعالى: (وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)⁴. مما يشعر الإنسان بأنه حر مختار ومسؤول عن أفعاله.

لذلك اختلفت آراء العلماء في أفعال العباد الاختيارية⁵ هل هي من فعل الله وحده أو من فعل العباد...؟ إلخ.

- فذهبت الجبرية إلى أن العبد مجبور على فعله وليس له خلق ولا كسب بل الكل من الله وعلى رأس هذا المذهب جهنم بن صفوان، فالعبد في نظرهم كالريشة المعلقة في الهواء فهو مجبر جبراً مطلقاً، لا يختلف عن الجماد إلا في المظهر؛ فمظهر الإنسان أنه مختار، والحقيقة أنه لا اختيار له، والجماد مجبر مظهرًا وحقيقة⁶.

¹ سورة الرعد: 16.

² سورة الصافات: 96.

³ سورة الكهف: 29.

⁴ سورة الصافات: 39.

⁵ أما أفعال العباد الاضطرارية كارتعاش اليد وإحياء الإنسان وأمانته وكونه جميلًا أو قبيحًا.. إلخ

فالكل مجمعون على أنها مخلوقة لله تعالى وليس للعبد فيها دخل ولا اختيار بل هو مجبر فيها.

⁶ لكن يبدو أن هذا الخبر المطلق الذي سوى فيه الجهم بين الإنسان والجماد لم يقل به الجهم ولكنه ذهب فيما يروي عنه الأشعري إلى قول آخر يختلف عن الجبر المطلق بعض الشيء فهو يقول: "لا فعل لأحد في الحقيقة إلا لله وحده، وأنه هو الفاعل وأن الناس إنما تنتسب إليهم أفعالهم على المجاز كما يقال تحركات الشجرة... إلخ وإنما فعل ذلك بالشجرة الله تعالى. ولكن

- وذهبت القدرية الأوائل "أتباع معبد الجبني"، و"غيلان الدمشقي" الذين يؤمنون بحرية الإنسان واختياره، إلى أن أفعال العباد تقع بقدرتهم واختيارهم، وقد تبنى هذا المذهب فرقة المعتزلة الذين يرون أن أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدره العبد وحدها على سبيل الاستقلال.

يقول القاضي عبد الجبار: (اتفق كل أهل العدل على أن أفعال العباد من تصرفهم وقيامهم وقعودهم حادثة من جهتهم).¹

وقد كان المتقدمون منهم يمتنعون عن تسمية العبد خالقاً؛ لقرب عهدهم بالسلف الصالح الذين يجمعون على أنه لا خالق إلا الله، إلى أن تجرأ "أبو علي الجبائي" على إطلاق لفظ "الخالق" على العباد لزعمه أنه لا فرق بين الإيجاد والتخليق فسَمَّى العباد خالقين لأفعالهم.

- وذهب جمهور أهل السنة من الأشاعرة والماتريدية إلى أن الله تعالى خالق لأفعال العباد الاختيارية وأن للعبد كسباً² اختيارياً هو مناط التكليف.

وحقيقة الكسب: أن قدرة العبد لا تأثير لها في حدوث مقدورها، ولا في صفاته، لكن الله أجرى العادة بخلق مقدورها مقارناً لها، فيكون الفعل خلقاً من الله- تعالى- إبداعاً وإحداثاً، ومن العبد كسباً لوقوعه مقارناً لقدرته.³

الإنسان يختلف عن هذه الجمادات بعض الاختلاف فقد خلق الله للإنسان قوة كان بها هذا الفعل، وخلق له إرادة للعقل، واختياراً منفرداً له".

يقول الدكتور يحيى هويدي وأنا أوافقه الرأي: وإن صح هذا فإن الجهم ابن صفوان يكون قد قال بالكسب الذي تبنته الأشاعرة فيما بعد، وهذا صحيح.

راجع الأشعري، مقالات الإسلاميين، نقلاً عن دراسات في علم الكلام والفلسفة، يحيى هويدي، دار النهضة العربية، 1972م، ص 101.

¹ القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، 3/8.

² الكسب لغة: طلب الشيء والحصول عليه، وفي اصطلاح المتكلمين: حظ الإنسان من الاختيار فيما يصدر عنه من أعمال، ويراد بذلك أن أفعال العباد يخلقها الله بقدرته يحدثها، وليس للإنسان إلا أن يصرف هذه الأفعال إلى الخير أو الشر. الموسوعة الميسرة، ص 1462.

³ وهذا هو رأي الإمام الأشعري ووافقه الماتريدي الذي يرى أن أفعال العباد منسوبة إليهم بمعنى اكتسابهم وفعلهم لها. الماتريدي، التوحيد، ص 226، الأشعري، اللمع، ص 71-72.

ويذهب الإسفرائيني إلى أن فعل العبد واقع بمجموع القدرتين (قدرة الله وقدرة العبد) بمعنى أن القدرتين تتعلقان بأصل الفعل. ويرى الباقلاني أن قدرة الله تتعلق بأصل الفعل وقدرة العبد بكونه طاعة أو معصية.¹

تحرير محل النزاع: مما سبق يتبين لنا أن العلماء تباينت آراؤهم في قضية أفعال العباد في بعض الأحيان وتقاربت في البعض الآخر، فبينما تنفي الجبرية أي فعل العبد- إن صح نسبة ذلك لهم- وتنسب كل شيء إلى الله، نجد المعتزلة على النقيض يرون أن أفعال العباد واقعة بقدرتهم وإرادتهم وحدها، وتوسط أهل السنة من الأشاعرة والماتريدية حيث نسبوا أصل الفعل لله تعالى، وأن للعبد كسباً اختياريًا هو مناط التكليف، وذهب أبو إسحاق الإسفرائيني إلى أن الفعل واقع بمجموع القدرتين، وفصل الباقلاني القول بأن قدرة الله تتعلق بأصل الفعل، وقدرة العبد بكونه طاعة أو معصية.

أما قول الجبرية بأن العبد لا قدرة له أصلاً فبدهاءة العقول تحكم ببطلانه، وأما قول إسحاق الإسفرائيني فإن أراد أن قدرة العبد ليست مستقلة بالتأثير، وإذا انضمت إليها قدرة الله صارت مستقلة بالتأثير بتوسط هذه الإعانة فرأيه قريب من الصواب، وإن أراد أن كلاً من القدرتين مستقل بالتأثير فباطل، لاستحالة اجتماع مؤثرين على أثر واحد.

ومذهب الباقلاني قريب من مذهب أهل الحق، لأنه أثبت أن أصل الفعل من الله، وكونه طاعة أو معصية من العبد، ولعله أراد بذلك الكسب.

وبذلك ينحصر الخلاف بين المعتزلة القائلين بأن العبد موجد لفعله الاختياري استقلالاً، والأشاعرة والماتريدية القائلين بأن أفعال العباد واقعة بقدرة الله اختراعاً، وليس للعبد فيها إلا الكسب، وقد استدلل كل فريق على مدعاه.

¹ راجع: الجرجاني، شرح المواقف، ت.د. أحمد المهدي، المرجع السابق، ص 237، الباقلاني، التمهيد، المرجع السابق، ص 347.

أما الإمام الفراهي: فيرى أن هناك أمورًا لا ننسبها إلا لله تعالى كالخلق والإيجاد والرزق وكل ما فيه الخير العظيم الذي يتعالى عن قدرة المخلوق، ولكننا في نفس الوقت نرى أمورًا قبيحة وضارة فلا يجب أن ننسبها إلى الله تعالى، ولا شك أن الله تعالى بريء من كل قبيح.

ولما كانت الشرور والذنوب واقعة الله تعالى محيطة بكل شيء وكذلك علمه فكيف أنه تعالى لا يدفع هذه الشرور؟

الأمر الذي حمل العلماء إلى الإجابة عن هذا التساؤل بأجوبة شتى لا يرى فيه الفراهي رأيًا سويًا، وذهب إلى أن حل هذه المعضلة يتمثل فيما هدانا إليه الوحي من حسن الظن بالله تعالى وتنزيهه عن كل شيء،¹ وعدم تحميل النصوص ما لا تحتمله، واتباع أصول التأويل، وترجيح ما تؤيده النظائر، ويقبله العقل، ويتوافق مع مسلمات العقائد.

والفراهي يفسر نسبة الأفعال إلى الله تعالى ولا سيما الإضلال والفتنة وانتقام وختم القلوب وإذهاب النور، والنسيان، بل ونتائج أمره، وأفعال ملائكته، بأن الله لا يريد بذلك رفع الوسائط، ولكنه يريد أن يبين لنا أن كل ذلك بأمره وإذنه، وحسب سنته الحكيمة.

"فالْبصير بلسان الوحي وهداياته لا شك في أن ذلك ليس إلا بيان لسنته الحكيمة ذات الرحمة والعدل، وإنما اختار هذا الأسلوب لأنه أبلغ تخويفًا وأقرب فهمًا لعامة الناس.

وقد علمنا من كتب الوحي ولا سيما القرآن أن الله وسيع الرحمة، لا يظلم العباد ولا يريد ظلمًا، ونرى أنه يحب العدل والرحمة، وأجرى شرائعه على الرحم والمواساة، ثم فطر قلوبنا على حب هذه الخصال، وأودع عقولنا اليقين بكونها المحاسن وخلافها المساوئ، وأن الله تعالى عالٍ علوًا كبيرًا عن صفات الشر وسمات القبح، فتعاضد العقل والوحي في هذا الأمر".²

¹ الفراهي، القائد إلى عيون العقائد، ص 48 بتصرف.

² المرجع السابق، ص 47.

وبناء على ما سبق يرى الفراهي أن الإنسان يعلم الخير والشر، والحسن والقبح، وأن الله تعالى فطر الإنسان على حبّ الخير، وأودع ذلك في عقله، فإذا صدر منه خلاف ذلك فهو مسؤول عن فعله، مع الإقرار بأن الخير والشر مراد الله تعالى فلا يقع في الكون شيء إلا بعد مشيئته عز وجل.

"فالأفعال لها نسبة إلى مصدرها من وجوه مختلفة، والمدح والذم متفرعان على حسب هذه الوجوه- لذلك فإن- الأمور خيرها وشرها كلها تنسب إلى البارئ تعالى، ثم تنسب إلى مصادرها القريبة كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فنسب الكل إلى البارئ تعالى ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾. ثم أراد أن يبين أن الشر من حيث إنه شر، مصدره ليس البارئ تعالى فقال: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾¹ فبين حكمة واضحة وذلك أن الله اسمه الرحمن الرحيم والودود والرؤوف، ولا اسم له ضد ذلك، ولكنه يغضب ويسخط وينتقم فنسب هذه الأمور إلى أفعاله وهي لحكمة وتدبير ومآلها إلى صفاته من الرحمة والعدل والحكمة وغيرها من أمهات الصفات، وهذا مثلما نأول- نرد- الآيات المتشابهة إلى أمّ الكتاب ومحكمه"².

ويحسم الفراهي الكلام في هذه القضية ويبين أن الفعل سواء أكان حسناً أو سيئاً له مصدران وهما إيقاع الفعل واستحقاقه، فالفعل من ناحية إيقاعه ينسب إلى الله تعالى لأنه لا يقع في ملكه إلا ما يريد، ومن ناحية الاستحقاق ينسب إلى العبد. يقول الفراهي "لا يخفى أن نسبة الحسنه والسيئة إلى الله تعالى من جهة إيقاعهما، وإلى نفوسنا من جهة الاستحقاق لهما، ولذلك قال تعالى: (قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ).

وهكذا نسب الضلالة إلى ذاته تعالى كما قال: (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا) ثم بين مصدر الضلالة فقال: (مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ

¹ سورة النساء: 78-79.

² المرجع السابق، ص 47.

اللَّهُ مِنْ بَعْدِ مِثْلِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾²¹

وكلام الفراهي قريب مما ذهب إليه الإسفرائيني والباقلاني اللذان يريان أن أفعال العباد واقعة بالقدرتين معاً (قدرة الله تعالى وقدرة العبد) على اختلاف بينهما في التفصيل:

فالإسفرائيني يرى أن فعل العبد واقع بالقدرتين معاً على أن يتعلق جميعاً بالفعل نفسه، وأن اجتماع مؤثرين على أثر واحد جائز، بمعنى أن ذات الفعل وصفاته تقع بالقدرتين³ والباقلاني يرى أن قدرة الله تتعلق بأصل الفعل، وقدرة العبد تتعلق بكونه طاعة أو معصية، كما في لطم اليتيم تأديب أو إيذاء فإن ذات اللطم واقعة بقدرة الله تعالى وتأثيره، وكونه طاعة على الوجه الأول، ومعصية على الوجه الثاني واقع بقدرة العبد وتأثيره.⁴

أدلة القائلين بالجبر والرد عليهما: أشار الفراهي إلى أن بعض فرق المسلمين ظنوا أن القرآن جاء بالجبر صراحة واستدللاً. أما صراحة: فذلك مثل قوله تعالى: (وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)⁵ وقوله: (فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)⁶ وقوله: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)⁷ وغير ذلك.

وأما استدلالاً: فإن القرآن قد صرح بكون كل شيء مقدرًا ومنه أعمالنا، فلا اختيار لنا في ما هو مقدر وذلك كقوله تعالى: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)⁸ وقوله تعالى: (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ)⁹ وأمثال ذلك كثيرة.

¹ سورة البقرة: 26-27.

² نفس المرجع، ص 49.

³ الجرجاني، شرح المواقف (الموقف الخامس) تحقيق: د. أحمد المهدي، ص 237.

⁴ الباقلاني، التمهيد، المرجع السابق، ص 374.

⁵ سورة إبراهيم: 27.

⁶ سورة فاطر: 8.

⁷ سورة الإنسان: 30.

⁸ سورة القمر: 49.

⁹ سورة الرعد: 8.

ويرى الفراهي ضرورة تأويل ما تمسك به المجبرون من آيات المشيئة التي وردت في القرآن إلى محكمات الآيات فقال "فاعلم أن الله تعالى علّمنا أنه مالك الملك يفعل ما يشاء ولا راد لمشيئته؛ فدلّ بذلك على عموم قدرته ونفي أُنداد له وشفعاء باطلة رجوا منهم نصرة وتوكلوا عليهم مع الإصرار على معصية الله.

فعلّمنا إحاطة رحمته ونعمته، فمن شاء غفر له ومن شاء عذبه، ومن شاء هداه، ومن شاء أضلّه فإنه لو عجز عما أراد لم يكن إلهاً، فلا رحمة ولا نقمة ولا هداية ولا ضلالة...إلا بمشيئته وإذنه فهو الذي نرجوه ونخاف ونتوكل عليه.

- ثم كما أنه تعالى علّمنا أنه مالك الملك يفعل ما يشاء، فكذلك علّمنا أنه لا يشاء إلا الحكمة والعدل والرحمة... فهذان أصلان راسخان يتقبلهما العقل ويصرح بهما القرآن".¹

ثم أول آيات المشيئة التي تمسك بها الجبريون بما يتفق مع هذين الأصلين، وما يتفق مع رؤيته في أفعال العباد التي تنفي الجبر وتثبت الاختيار.²

من ذلك تأويله لقوله تعالى: (إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣﴾) أي مشيئته تجري على العلم والحكمة فمن آمن بالله واليوم الآخر وبما أنزل يوفقه أن يتخذ إلى ربه سبيلاً، كما قال: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٥﴾) وكما قال: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ).⁵

وقد بين مشيئته في قوله تعالى: (يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ) في قوله تعالى: (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ) ⁶ فيبين أن الذين يشاء

¹ المرجع السابق، ص 90 – 91.

² راجع تأويل الفراهي لآيات المشيئة في المرجع السابق، من ص 92 إلى ص 56.

³ سورة الإنسان: 29-31.

⁴ سورة التغابن: 11.

⁵ سورة البقرة: 257.

⁶ سورة الجاثية: 30.

⁷ القائد إلى عيون العقائد، ص 93.

الله أن يدخلهم في رحمته هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أي أنهم بادروا بالإيمان والعمل الصالح فقبل الله تعالى ذلك منهم فأدخلهم في رحمته.

أما قوله تعالى: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) فليس من الجبر في شيء كذلك، قال الفراهي: "من تمام الربوبية أن لا يقع في ملك الرب تعالى ما لم يشاء، فالخلق كله يجري حسب ما قدر حكمة وعلماً ورحمة، فكما أن الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب مسخرات بأمره، فكذلك الإنسان وكل مخلوق يجري حسب ما قدر له، فلو شأوا أن يقلبوا أمره أو يبدلوا تدبيره لم يمكنهم. وهذا القدر ظاهر بين من جهة العقل وصريح النصوص.

ولكن أخطأ كثير من الناس في فهم ذلك، ووقعوا في اعتقادهم بالجبر، وقالوا: إن الله تعالى قد خلق خلقاً ليعذبهم ويلقيهم في النار من غير سابقة من الذنب...¹ وقد نسب الفراهي هذا القول إلى الأشاعرة فقال:

"صريح العقل وحسن الظن بالرب تعالى يشمئزان عن ما ذهب إليه الأشاعرة من القول بأن الله تعالى يجوز له تعذيب العباد من غير ذنب، وقد أجبرهم على فعل ما يجلب عليهم العذاب من غير سابقة ذنب.

لا شك أن الإحسان إليهم من غير استحقاق ولا سابقة حسنة حسن، ولكن التعذيب من غير جريمة أو الإجبار على الجريمة ظلم شنيع تعالى الله سبحانه عن ذلك. وقد دلّ صريح القرآن والعقل على نفي ذلك كما في قوله تعالى: (وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) (٢٥)² وهذا كثير"³.

واني أوافق الفراهي في الجزء الثاني من كلامه، أما ما نسبته إلى الأشاعرة من القول بأن الله تعالى يجوز له تعذيب العباد من غير ذنب وقد أجبرهم ففيه نظر حيث إنه لم

¹ الفراهي، دلائل النظام، الدائرة الحميدية ومكتبتها، ص 109.

² سورة الحج: 10.

³ القائد إلى عيون العقائد، ص 96.

يثبت عن الأشاعرة هذا القول، وهو أن الله يجبر العباد على المعصية ثم يحاسبهم عليها، فهم لم يقولوا بالجبر وليس مذهباً لهم، وإن كان هذا لازم مذهبهم ولكن لازم المذهب ليس بمذهب كما هو معروف عند جمهرة العلماء، ولعل ما قالوه هو أنه يجوز تعذيب المطيع وإثابة المعاصي، ولكن ليس كل جائر واقع فله تعالى مطلق التصرف في خلقه، وقد يكون ذلك من باب الابتلاء أو التمهيص أو ما إلى ذلك، والله أعلم.

تعليل أفعال الله تعالى وإثبات الحكمة وإثبات الحكمة فيها: كما انتقد الفراهي الأشاعرة في ذهابهم إلى أن أفعال الله تعالى لا تعلل ونقل عنهم قولهم: "أن حكمتنا بأن هذا الفعل حسن لله تعالى أو قبيح، حكم على ربنا وهو أرفع من أن يحكم عباده عليه مستدلين على ذلك بقوله تعالى: (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ۝١) ولعل الذي دفعهم إلى ذلك، التأكيد على مشيئة الله المطلقة، وأن الله لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وإثبات الكسب والقدرة غير المؤثرة (المستقلة) للعبد.

لذلك قالوا: لا يجوز تعليل أفعاله تعالى بشيء من الأعراض والعلل الغائية. وقد رد عليهم الفراهي فقال: "أما حديثكم، كلامكم، بأن هذا حكم على الله فلا يلزم أبداً فإن قد آمنا بجميل صفاته وقدرته فليس أنا نحكم عليه بل ننفي عنه كل قبيح ألهمنا بقبحه وأوضح ذلك في كتابه.

وأما الحديث بأنه (لا يسأل عما يفعل)- فنقول إنا آمنا بأنه تعالى لا يفعل إلا ما هو الخير والحسن، وكثير من أفعال ربنا لا نستطيع أن نعلم الحكمة التي فيها، وليس لنا أن نطلعنا ربنا على حكمة جميع أفعاله، فكيف بنا أن نسأله لم فعل ذلك؟ أليس يكفيننا أن نؤمن أنه حق وحكمة وحسن".²

تعقيب: وهكذا فلم يقبل الفراهي كلام الأشاعرة على عمومته بأن هذا الفعل حسن لله أو قبيح، ووصفهم ذلك بأنه حكم على الله تعالى بل رأى أن أفعال الله

¹ سورة الأنبياء: 23.

² القائد إلى عيون العقائد، ص 97-98.

تعالى كلها حسنة، كما أشار إلى أن السؤال قد يكون على وجه الاستعجاب، أو على وجه الاستنكار فأجاز الأول ولم يجز الثاني لأنه لا يليق بمقام الألوهية.¹

وتتميمًا للفائدة نذكر باقي الآراء في هذه القضية، حيث يرتبط الخلاف فيها بالخلاف في القدر، فنفي التعليل والحكمة في أفعال الله مرتبط بسلب العباد مشيئتهم، والزعم بأنهم مجبورون على أفعالهم، وليسوا فاعلين لها كما قالت الجهمية (الجبرية) وكما ذهبت الأشاعرة الذين أثبتوا للعبد الكسب فقط، فهؤلاء يستدلون على قولهم في القدر بقولهم في التعليل، وأما المعتزلة الذين أثبتوا حكمة منفصلة عن الله، فقد حصروا هذه الحكمة في المخلوق، ثم زعموا أن هذه الحكمة لا تتم إلا بأن يكون العباد خالقين لأفعالهم، حتى لا تنتفي صفة العدل عن الله تعالى، لوقوع الظلم والجور من العباد، الأمر الذي أدى بهم أن أوجبوا على الله فعل الأصلاح للعباد.

وأما ابن القيم ومن وافقه من جمهور أهل السنة والفقهاء وأهل الكلام ... وسائر من يقول بالتعليل، فهم يرون أن الله تعالى يفعل ما يفعل لغاية وحكمة يعلمها هو، وهو يعلم عباده أو بعضهم من حكمته ما أراد أن يطلعهم عليه. يقول ابن القيم: "إنه سبحانه حكيم، لا يفعل شيئًا عبثًا، ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل، كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل وقد دلّ كلامه وكلام رسوله على هذا".²

وأصحاب الرأي الأخير ومعهم الفراهي لا يلزمهم على مذهبهم في تعليل أفعال الله لازم من اللوازم الباطلة، بل جاء مذهبهم وسطًا بين المذاهب.

الهداية والضلال: إن مفهوم الحرية الإنسانية قد يلتبس على بعض الناس حينما يطالعون كتاب الله ويقرءون أن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فيذهبون إلى

¹ المرجع السابق، ص 98-99.

² ابن القيم، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، دار الفكر، 1978م، 190/2.

أن الإنسان لا يملك من أمر نفسه شيئاً، فليس له حرية الاختيار بين أن يكون مهتدياً أو ضالاً، ولعل هذه الشبهة هي التي دفعت بالمعتزلة إلى اتخاذ موقف متطرف من هذه القضية، نافين أن تكون الهداية والإضلال من الله تعالى، وزعموا أن الإنسان هو الذي يهدي نفسه بخلقه للإيمان، وهو الذي يضلها بخلقه للكفر واحتجوا لرأيهم بأن استحقاق المؤمن للجزاء على إيمانه، واستحقاق الكافر للعقاب على كفره يستلزم المسؤولية التامة عن فعله، وهذا لا يكون بغير إسناد ما يقع فيه من هداية وضلال له.

أما أهل السنة فيذهبون إلى أن الهدى والضلال من الله تعالى، وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وأن الهدى والضلال من خلق الله وصنعه وفعله، وأن الاهتداء والإضلال فعل العبد وكسبه¹ وأن هناك نوعين من الهداية: هداية عامة، وهداية خاصة:

وقد سلك الفراهي مسلك أهل السنة في هذه القضية وحرر محل النزاع فيها بقوله: "معتزك الاختلاف في أنه تعالى:

1. هل هدى خلقاً وأضل خلقاً في الابتداء؟
 2. أم هدى في الابتداء كلهم، ثم أضل من أعرض عن هداة، وزاد الهداية لمن تقبل الهداية الأولى؟
 3. أم لم يضل أحداً بل جاءت الضلالة من ترك الهداية، فمن ترك الهداية الأولى وقع في الضلالة باختياره؟
- وإنما نسبت الضلالة إلى الله مجازاً، أو من قبيل أن هذه النتيجة إنما كانت من سنته تعالى بما ربط الآثار بعلاقتها فنسبت إليه تعالى.
- فالشق الثاني والثالث لا اختلاف بينهما كبيراً، ولكن بين هذين الأول اختلافًا عظيمًا، فالعقل يحكم بادئ الرأي بأن الله تعالى لو أضل بعض خلقه من الابتداء

¹ الجويني، الإرشاد إلى قواطع الأدلة، المرجع السابق، ص 210.

من غير ذنب منهم، ثم عذبهم كان جورًا وسوء ظن بالرب تعالى. وأما النقل، فالقرآن موافق بالعقل ولو أخذوا بالقرآن لم يذهبوا إلى خلاف هذه العقيدة¹.
ثم أبرز رأيه في المسألة فقال:

"إن الله تعالى جعل الهداية عامة، فمن تقبلها زاده الله هدى، ومن أعرض عنها زاده عى لزومًا، وهذا الإعراض فعل المرء وتركه في قدرته، فحينئذ يصير الترك صعبًا ويفسد قلبه مرضًا.

والدليل على ترك الإعراض من قدرته، وقبول الهداية في فطرته الأولية في اختياره قوله تعالى: (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)² أي بالهداية التالية للطاعة (الهداية الخاصة) أي ما دام على فسقه لا يأتيه الهدى المترتب على الاهتداء، فإننا نعلم عقلاً ونقلًا إن الفاسقين يتوبون والكفار يرجعون، فما دام على فسقه وكفره لا يأتيه الهداية.

وقال تعالى: (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ)³ فالتلقي كان باختياره فتاب آدم إلى الله فتاب الله عليه، وما من آدمي إلا ويلقى إليه كلمة التوبة بعد الذنب، فإن شاء تلقاها وإن شاء أعرض عنها، وقال تعالى: (كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)⁴ فهذا تصريح بأن الذين فسقوا حق عليهم قضاء ربك بأنهم لا يؤمنون، ويشبهه قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ)⁵ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)⁶.

ويشبهه قوله تعالى: (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ)⁷ فقد تشبثوا بأن الله تعالى إنما خلق قلوبهم غلفًا ولذلك لا تبلغها دعوة النبي،

¹ الفراهي، الفائدة إلى عيون العقائد، ص 71-72.

² سورة المائدة: 108.

³ سورة البقرة: 37.

⁴ سورة يونس: 33.

⁵ سورة يونس: 96 - 97.

⁶ سورة البقرة: 88.

فأبطل الله تعالى تمسكهم بهذا العذر وبين أن ذلك إنما هو لكفرهم، ولما ذكر من آثار ذلك الكفر، وبين أن ذلك الطبع من لعنة الله عليهم، وإنما لعنهم لسيئات أعمالهم، كما صرح به في موضع آخر، فقال تعالى: (فِيمَا نَقُصُّهُمْ مَيِّتَتْهُمْ لَعْنُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً)¹ وهذا كثير في القرآن الكريم.

ومن هذا الباب ما جاء كثيرًا في القرآن مثل قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)،² وقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)،³ وأيضًا (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)،⁴ إلخ الآيات.⁵

فضلالة الناس ليست بأن الله تعالى لم يقدر على هدايتهم، إنما هي من أنه تعالى بعد إعطاء الهداية الأولى (العامة) زادها وأتمها لمن اهتدى بها، فلم يشأ الله أن يتم الهداية لكل الناس ولكن للشاكرين كما قال تعالى: (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم).⁶

فالهدى يطلق على مجرد فعل الهداية، وعلى إتمامه، وقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) ﴿٦٠﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦١﴾)،⁷ جاء في المعنى الثاني (إتمام الهداية) أي الذين رسخوا في الكفر وبلغوا نهايته لا ينفعهم الإنذار، وأيضًا يمكن تأويله إلى عدم النفع ما داموا على الكفر.⁸

¹ سورة المائدة: 13.

² سورة المنافقون: 6.

³ سورة الأنعام: 144، سورة القصص: 50، سورة الأحقاف: 10.

⁴ سورة الزمر: 3.

⁵ راجع تفسير سورة البقرة في كتاب "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" للفراحي، المرجع

السابق، ص 138-140.

⁶ سورة محمد: 17.

⁷ سورة البقرة: 6-7.

⁸ الفراحي، القائد إلى عيون العقائد، ص 74.

وخلاصة القول: إن أول هدايته عامة، وتمام هدايته يترتب على أعمالهم فقال تعالى: (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) فليس من مشيئته أن يتم هدايته ويوصلهم إلى السعادة، ولا من مشيئته أن يكرههم بعد أن أعطاهم التمييز والعقل، فيكون ذلك نقضاً لفعله وإبطالاً لحكمته وعدله، فلا نقص في قدرته بل يعاملهم حسب أعمالهم، فيهدي من يتقبل ويسخط من يأبى، فيحل عليه نتائج سخطه، وقد صرح القرآن بأن الله لا يهدي الفاسقين، والظالمين، والكافرين، والمستكبرين الذين نبذوا الحق بعد العلم والبينة وجحدوا بآياته- كما سبق وبينت- وكما قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٢٥﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٢٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٢٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٢٨﴾)¹

أما دعوى المعتزلة بأن نسبة الهداية والإضلال لله يستلزم عتاب الكافر على غير ما اقترف من عمل، ويتضمن أن الله تعالى يضل الخلق ثم يعذبهم وهو مخالف لعدل الله تعالى؛ فقد رد عليهم الإمام أبو حنيفة مبيئاً "إن الإيمان والكفر يكتسبهما العبد، ومن ثم يعاقب ويجزى على كسبه، وأن الله يقضي كل شيء ويكتبه بالوصف لا بالحكم، أي يكتب كل شيء بأوصافه من الحسن والقبح، والطول والعرض...، كتب كل هذا بالوصف أي: سيكون كذا وكذا، لا بصفة الحكم (أي فليكن كذا وكذا)، وقد خلق الله الخلق من غير الكفر والإيمان، ثم خاطبهم وأمرهم ونهاهم، فكفر من كفر بفعله وإنكاره وجحوده الحق بخذلان الله إياه،

¹ سورة النحل: 104-108.

وَأَمِنْ مِنْ آمَنْ بِفَعْلِهِ وَإِقْرَارِهِ وَتَصْدِيقِهِ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُ وَنَصْرَتِهِ لَهُ .."¹،
فَالْإِيمَانُ وَالْكَفَرُ صِفَتَانِ نَكْتَسِبُهُمَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا.

فَالْكِتَابَةُ السَّابِقَةُ وَالتَّقْدِيرُ الْأُزْلِيُّ لِلْإِيمَانِ وَالْكَفَرِ لَا يَتَنَافَى مَعَ إِثْبَاتِ الْإِرَادَةِ
الْإِنْسَانِيَةِ وَالْكَسْبِ الْإِنْسَانِيِّ، وَلَا يَنَافِي الْمَسْئُولِيَّةَ الْفَرْدِيَّةَ، وَأَنْ اسْتَقْرَاءُ
النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ يَكْشِفُ أَنَّ الْهَدَايَةَ وَالْإِضْلَالَ لِيَسْتَأْنِفِي الْإِنْسَانَ ابْتِدَاءً وَخَلْقَةً
أَوْ قَدَرًا مُسَبِّقًا، بَلْ هُمَا نَتَائِجُ لِمُقَدِّمَاتٍ، وَمُسَبِّبَاتُ لَأَسْبَابٍ، فَالْهَدَايَةُ إِنَّمَا هِيَ ثَمَارُ
الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالْإِضْلَالُ إِنَّمَا هُوَ نَتَاجُ الْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ.

وَإِسْنَادُ الْهَدَايَةِ إِلَى اللَّهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ وَضَعَ نِظَامَ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبِّبَاتِ، لَا إِنَّهُ أَجْبَرُ
الْإِنْسَانَ عَلَى الْهَدَايَةِ وَالْإِضْلَالِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ..

الخاتمة

وَبَعْدَ هَذَا الْعَرْضِ لَتَرْجُمَةِ الْفَرَاهِيِّ وَمَنْهَجِهِ وَأَرَائِهِ فِي قَضَايَا الْعَقِيدَةِ الْإِلَهِيَّةِ
وَمَوْقِفِهِ مِنْ آرَاءِ الْعُلَمَاءِ فِيهَا نَخْلُصُ إِلَى أَهَمِّ نَتَائِجِ هَذَا الْبَحْثِ وَهِيَ:

1. يرى الفراهي أن بسط اللسان في العقائد يجر إلى التقول على الله من غير علم، وإنه لو كان للعقل سبيل إلى تفاصيل الأمور الإلهية لكان في غنى عن الرسل، وأن علوم العقلية علوم ظنية، والعقائد لا يعتمد فيها إلا على صحيح النقل وصريح العقل.
2. أن الفراهي اتبع منهج أهل السنة والجماعة حينما جعل للعقل مدخلا فيما جاء به الشرع ولكنه ليس حاكما ولا موجبا، بل الحاكم والموجب هو الله تعالى. حيث قدم الشرع على العقل إلا أنه لا يسلب العقل سلطانه ولا يعزله عن الشرع.
3. يرى الفراهي أن وجود الله تعالى الغني الحميد أمر فطري وأن من لم يطمئن

¹ الإمام أبو حنيفة، الفقه الأكبر، ص 72-73 نقلاً عن كتاب: دراسات في العقيدة الإسلامية (الغيبيات القدر - الإيمان) د. أحمد محمد الجلي، مطبوعات جامعات الإمارات، 2001م، ص 135.

بذلك قلبه لم يطمئن بشيء حتى يصير لا يستطيع التفريق بين النور والظلمة والحق والباطل.

4. أن الفراهي في استدلاله بالقرآن الكريم على وجود الله تعالى جعل من أسمائه تعالى وصفاته وأفعاله وما يدل عليه نظم القرآن مدخلاً للتعرف على الله تعالى.

5. جعل الفراهي أسماء الله تعالى مدخلاً للاستدلال على وجوده تعالى حيث يرى أن الاسم هو المسَمَّى، وهو بذلك يوافق مذهب أهل السنة الذين يرون أن الاسم هو المسَمَّى نفسه، أو صفة متعلقة به، وأنه غير التسمية، فاسم الله أو الرحمن مثلاً من أخص الأسماء التي ندعوه بها، وأن العرب لم يستعملوا هذين الاسمين إلا لله تعالى وكذلك باقي الأسماء المصريح بها أو التي دلّ السياق على أنها أسماء الله.

6. ينتقد الفراهي الطبائعيين الذين ينسبون كل ما في الكون إلى الطبيعة ويبين لهم أن الخالق لا بد أن يكون مغايراً للمخلوق، وأن يكون قادراً على الإيجاد من عدم، ويكون مريدًا حكيمًا قادرًا رحيماً، والطبيعة لا توصف بشيء من ذلك، فبطل مدعاهم وثبت نقصه وهو أن الله تعالى مبدع هذا الكون وهو موجود.

7. أن الفراهي وإن كان قد تكلم عن دليل الخلق والحدوث إلا أنه ابتعد عن منهج المتكلمين في نظم أداتهم بالشكل الجدلي.

8. قلل الفراهي من أهمية البحث في كون صفات الله تعالى زائدة على ذاته أو هي عين ذاته، وأشار إلى عدم جدواها، وأن الله نهانا عن البحث في مثل هذه الأمور، وعن المرء فيما لا نفع فيه. وأنه لا جدوى من هذا البحث، لعدم توقف أمر عقدي عليه يؤثر على إيمان المرء، وفي نفس الوقت يرى أن الذات المجردة من الصفات مفروضة لا حقيقة لها، فلا نتصور الذات من غير الصفات، وكذلك لا يتصور صفات من غير ذات.

ونخلص من هذا إلى أن الفراهي قد تأثر بالسلف في موقفهم من الصفات الوجودية، ورفض القول بزيادتها وغير ذلك.

9. التأويل عند الفراهي يختلف عن تأويل المتكلمين حيث يأول النص تأويلاً إجمالياً، من دون تعيين المعنى المراد من كل لفظ على حدة، ووضع للتأويل

أصولاً يجب مراعاتها.

كما أنه لا يوافق السلف في القول بإثبات الصفات الخيرية تفصيلاً، حيث يثبتون لله تعالى يدًا ليست كأيدينا وساقًا ليست كساقنا...إلخ.

ويصف ذلك بأنه بدعة وأن الوحي إنما جاء بهذه الصفات على وجه الإجمال فلا نزيد عليها فنقول (بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء)، إلا أنه يتفق معهم في أن الكيف مجهول ويجب تفويض لله تعالى.

10. يرى الفراهي أن نسبة الحسنه والسيئة إلى الله تعالى من جهة إيقاعهما، وإلى نفوسنا من جهة الاستحقاق لهما وكلامه قريب مما ذهب إليه أهل السنة من نسبة أصل الفعل إلى الله إبداعاً وإحداثاً وإلى العبد كسباً، بل قريب بصفة خاصة من كلام الإسفرائيني والباقلاني اللذين يريان أن أفعال العبد واقعة بالقدرتين معاً (قدرة الله وقدرة العبد) على اختلاف بينهما في التفصيل.

11. يرى الفراهي ضرورة تأويل ما تمسك به الجبريون من آيات المشيئة التي وردت في القرآن إلى محكمات الآيات.

12. نسب الفراهي إلى الأشاعرة القول بأن الله تعالى يجوز له تعذيب العباد من غير ذنب، وقد أجبرهم على فعل ما يجلب عليهم العذاب من غير سابقة ذنب، وبينت أن كلامه هذا فيه نظر حيث لم يثبت عن الأشاعرة هذا القول وهو أن الله يجبر العباد على المعصية ثم يحاسبهم عليها.

فالجبر ليس مذهباً لهم، وإن كان هذا لازم مذهبهم ولكن لازم المذهب ليس بمذهب كما هو معروف عند جمهرة العلماء، وقد يكون ذلك من باب الابتلاء أو التمهيص....إلخ.

13. كما انتقد الفراهي الأشاعرة في ذهابهم إلى أن أفعال الله تعالى لا تعلل.

14. في القول بالهداية والضلال يرى الفراهي أن الله تعالى جعل الهداية عامة، فمن تقبلها زاده الله هدى، ومن أعرض عنها زاده ضلالاً لزوماً، وهذا الإعراض فعل المرء، وتركه في قدرته. فهناك هدايتان: هداية عامة لكل البشر وهداية

خاصة (هداية التوفيق) وهذه خاصة بمن قبل الهداية الأولى.

فالهداية والإضلال ليستا في الإنسان ابتداءً وخلقه أو قدرًا مسبقًا، بل هما نتائج لمقدمات، مسببات لأسباب، إنما هي ثمار العمل الصالح، والضلال إنما هو نتائج الأعمال القبيحة، قال تعالى: "والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم".

مصادر البحث

1. ابن الجوزي، تلبيس إبليس، مكتبة المتنبي، القاهرة، د.ت.
2. ابن الجوزي، دفع شبه التشبيه، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية، 1998م.
3. ابن الجوزي، صيد الخاطر، تحقيق: عبد القادر أحمد عطاء، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1979م.
4. ابن القيم، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، دار الفكر، 1978م.
5. ابن الوزير اليماني، إثثار الحق على الخلق، بيروت، 1983م.
6. ابن خلدون، المقدمة، دار الشعب، القاهرة.
7. ابن رشد، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال، تحقيق: د. محمد عمارة، دار المعارف، 1983م.
8. ابن رشد، مناهج الأدلة، تحقيق: د. محمود قاسم، مكتبة الأنجلو المصرية، 1964م.
9. أحمد محمد الجلي، الدكتور، دراسات في العقيدة الإسلامية، مطبوعات جامعة الإمارات، 2001م.
10. الأشعري، الإبانة عن أصول الديانة، دار الدعوة السلفية، 1992م.
11. الباقلاني، التمهيد لقواعد التوحيد، نشره المكارثي.
12. البخاري، صحيح البخاري، طبعة دار الفتح الإسلامي.
13. التفتازاني، شرح المقاصد، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب والكليات الأزهرية.
14. الجاحظ، الدلائل والاعتبار، حلب، 1928م.
15. الجرجاني، التعريفات، المطبعة الحميدية، 1321هـ.
16. الجويني، العقيدة النظامية، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، 1979م.

العدد الخاص مجلة الهند

17. الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1984م.
18. سعد الدين صالح، الدكتور، العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث، دار الصفا، 1991م.
19. شبلي النعماني (رسائله ضمن مجموعة مكاتيب شبلي) .
20. الشريف عبد الحي الحسني (ت1341هـ) نزهة الخواطر.
21. الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: محمد بن فتح الله بدران، مكتبة الأنجلو المصرية.
22. عبد الرحمن المراكبي، الدكتور، قضايا التأويل في الفكر الإسلامي (المعتزلة والفلاسفة)، دار الطباعة المحمدية، الطبعة الأولى، 1987م.
23. عوض الله حجازي، الدكتور، دراسات في العقيدة الإسلامية، دار الطباعة المحمدية، 1992م.
24. الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، مكتبة الجندي، القاهرة، 1972م.
25. الغزالي، المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى، مكتبة الجندي، 1968م.
26. الفراهي (عبد الحميد الفراهي)، أساليب القرآن، الدائرة الحميدية، أعظم كره، 1279هـ.
27. الفراهي، إمعان في أقسام القرآن، الطبعة السلفية، القاهرة، 1930م، ودار القلم، بيروت، 1994م.
28. القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب العدل والتوحيد.
29. القاضي عبد الجبار، تنزيه القرآن عن المطاعن، دار النهضة الحديثة، بيروت.
30. القاضي عبد الجبار، شرح الأصول، تحقيق: د. عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة القاهرة، 1965م.

الإمام الفراهي ونظريته عن الإنجيل

- البروفيسور الطاف أحمد الأعظمي¹

ترجمة من الأردوية: د. أورك زيب الأعظمي²

الإنجيل، كما نعرف، قد نزل على عيسى عليه السلام ولكن ما هي اللغة التي نزل بها، وهل الإنجيل الحقيقي هو الذي يؤمن به النصارى هذه الأيام، وهل تعاليمه بريئة من التحريف؟ هذه أمور سنتحدث عنها فيما بعد فنبدأ هذا البحث بأصل هذه الكلمة وتوضيح معناها اللغوي.

الإنجيل لغة: يرى بعض الباحثين أن الإنجيل كلمة عبرية أو سريانية كما يرى البعض أنها كلمة عربية فمن يراها عربية الأصل يقول إنها على وزن الإكليل والإخريط وهي مشتقة من "نجل" فنجل الشيء ينجله نجلاً: أبداه وأبانه و"نجل" معناها أساس، وينبوع وتجمع³.

ولكن أنكر هذه المادة صاحب تاج العروس وغيره من أصحاب المعاجم⁴ فيروى عن الأصمعي أنجيل (بفتح الهمزة) على زنة أفعيل والأنجيل كتاب فيه أسطر عديدة⁵، وهذا دليل على أنها كلمة غير عربية فإن زنة أفعيل ليست من أوزان العربية فيقول العلامة الزمخشري (ت 538هـ/1143م) ما ملخصه:

"التوراة والإنجيل كلمتان عجميتان فمن ذكر مادتهما ورى ونجل وزنتهما تفعلة وإفعيل فقد تكلف فلا يصح الأمران ما لم تكونا كلمتين عربيتين. وقد قرأها

¹ كاتب هندي كبير للدراسات الإسلامية وصاحب تفسير "ميزان القرآن".

² مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة المليية الإسلامية (نيو دلهي)

³ لسان العرب، 648/11

⁴ تاج العروس، 138/8

⁵ المصدر نفسه والصفحة ذاتها

الحسن البصري أنجيل بفتح الهمزة، التي تدلّ على كونها عجمية فإن أفعيل بفتح الهمزة لا تأتي من أوزان العربية".¹

وقال العلامة البيضاوي (ت 685هـ/1286م) في "أنوار التنزيل" إنها كلمة أعجمية،² ويرى رأي المفتي محمد عبده.³ فإن كانت هذه الكلمة أعجمية فمن أي لغة هي؟ فقل أنها سريانية،⁴ واستدلّ على هذا بأن الأناجيل التي نشرت باللغة السريانية نشرت باسم Evaggelion. ولنلاحظ هنا أن أقدم ترجمة عربية للإنجيل جاءت من اللغة السريانية وكذا قيل أنها كلمة يونانية⁵ ومنها انتقلت إلى السريانية ومن ثم دخلت في اللغة العربية.⁶ وكاتب هذه المقالة يرى الرأي الأخير ويؤيده.

معناها اللغوي: الإنجيل يقال له بالإنجليزية Gospel، وهي مشتقة من الكلمة الإنجليزية القديمة Godspel. وهذه الكلمة مركبة من كلمتين: god spel فgod تعني حسناً بينما spel تعني خبراً فGodspel تعني خبراً حسناً أي بشرى. وهذه الكلمة الإنجليزية القديمة والكلمة الرومية Evangelium التي هي ترجمة حرفية للكلمة اليونانية Evaggelion مترادفتان.

فتشمل كلمة Evaggelion في الأدب اليوناني القديم كل ما يتعلق بEvaggelos التي تعني مبشراً. هذه الكلمة مركبة من ev وaggelos فev تعني حسناً بينما aggelos تعني سفيراً أو معلناً.⁷ ومن ثم تدرّجت الكلمة فاستخدمت لكل ما كان يتعلق بالملك لاسيما الإعلانات عن مولد أحد في السلالة الملكية وتوليّ الملك عرش الحكم وما شابههما من الأمور حتى جعلت هي تطلق على الأحكام الملكية.⁸

¹ الكشف، 73/1

² أنوار التنزيل، ص 62

³ تفسير المنار، 158/1

⁴ تاج العروس، 138/8

⁵ Encyclopedia Britannica، 536/10 (Gospel)

⁶ قال كاتب مقالة "Encyclopedia of Islam" (125/3) إن الإنجيل تعريب كلمة "Wangel" الحبشية ولكن كاتب هذه الأسطر لا يصوّب هذا التحقيق.

⁷ Encyclopedia of Religion، 80-79/6

⁸ المصدر نفسه والصفحة ذاتها

وعلى كل حال فقد اتضح من هذا الحديث أن الكلمة اليونانية Evaggelion تعني بشرى ويؤيدها كلمة عبرية بسر (bsr) فهي تترجم باليونانية بـEvaggelion، وهذه الكلمة العبرية أصبحت بشرى حينما دخلت في العربية واسم فاعلها مبشّر.¹

لغة الإنجيل: رُتّب الإنجيل أولاً باللغة اليونانية ولكن هذا لا يعني أن لغة عيسى الأم كانت يونانية، ويرى بعض العلماء أن لغة عيسى الأم والدينية كانت عبرية ولكن يرى رينن (Renan) أنها كانت سريانية مختلطة بالعبرية، ويرى كاتب مقالة موسوعة بريطانيا أن عيسى وحواريه كانوا يتكلمون اللغة الآرامية.² وكتب Moses Butten Wieser بروفييسور اللغة العبرية أن اللغة اليومية في عهد عيسى كانت آرامية،³ وأما أنا فأرى أن لغة الإنجيل كانت آرامية إلا أنه لم يدون بها فقد دُون أول ما دُون باللغة اليونانية.

حقبة الإنجيل: يرى معظم العلماء أن الإنجيل الحقيقي الذي نزل على عيسى عليه السلام لا يوجد الآن فالأنجيل التي نسميها اليوم بـ"متى" و"مرقس" و"لوقا" و"يوحنا" قد رتبها أتباع عيسى بعد رفعه إلى الله بكثير فيقول الإمام الرازي مؤيداً هذا المذهب ما ملخصه:

"في هذه الفترة الفوضوية ضاع الإنجيل الأصلي الذي أنزله الله تعالى فلم تبق إلا بعض أجزائه فلن يمكن إتمام الحجة عليهم إلى في ضوءها".⁴

ويرى العلامة رشيد رضا المصري أن العدد الملموس من الأنجيل قد كان يوجد في القرن الرابع الميلادي، التي قد اختير منها الأربعة ومن ثم ضمت هي إلى الميثاق الجديد فلن نعتبر هذه الكتب ذلك الإنجيل الذي قد جاء ذكره في القرآن بصيغة الواحد والذي نزل على عيسى عليه السلام".⁵

¹ المصدر نفسه والصفحة ذاتها

² Encyclopedia Britannica، 22/3

³ Jews' Encyclopedia، 505/8 (Messiah)

⁴ العلل، 39-2/2

⁵ تفسير المنار، 159-158/3

العدد الخاص مجلة الهند

ويرى العالم المفسّر الهندي الشيخ عبد الحق الحقاني "أن التوراة والإنجيل الحقيقين لم يكونا موجودين في زمن النبي ﷺ --- فاعتبار المجموعة المزوّرة التوراة والإنجيل ليس إلا سوء الفهم والاختلاق".¹

وكتب الدكتور حميد الله أن هناك أكثر من سبعين إنجيلًا كما يقول المؤرخون النصارى، التي قد وثق بأربعة منها بينما البقية قد اعتبرت مشكوكًا فيها. يبدو من دراستها أنها لا تشتمل على ما أوحى من قبل الله بل هي ترجمة عيسى وذكر الأحاديث عنه وعن أتباعه".²

ويرى أغلبية علماء الإسلام أن الأناجيل الموجودة مشكوك فيها وقد ذهب هذا المذهب المسعودي (ت 345هـ/951م)، والبيروني (ت 440هـ/1048م)، وابن حزم (ت 456هـ/1064م)، والإمام الغزالي (ت 505هـ/1111م)، والسهوردي صاحب "عوارف المعارف" (ت 632هـ/1234م)، وابن تيمية (ت 728هـ/1328م)، وابن القيم (ت 751هـ)، وقد تناول هذه القضية بالتفصيل الإمام ابن تيمية في كتابه "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح"، والعلامة ابن القيم في كتابه "هدية الحبارى"، والعالم الهندي رحمة الله الكيرانوي في كتابه "إزالة الشكوك"³ وادّعوا أن الأناجيل الموجودة محرّفة لفظًا ومعنى على السواء.⁴

¹ فتح المنان، 46/4 وفي شدة النقد نسي العلامة ما يلي من آية القرآن: "قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين"، سورة آل عمران: 93

² خطبات بهاولفور، ص 309

³ وله كتاب "إظهار الحق" الذي ألف ردًا على كتاب "ميزان الحق" لأب.

⁴ وتعترف جماعة من العلماء والمحققين النصارى أن الأناجيل الحاضرة محرّفة فقد أثبت الكاتب الياباني الشهير الدكتور مل في 1707م وويت شتائن في 1751م بتحقيقهما أن العهد الجديد محرّف وقد ذكر الكاتب الشهير بوركيت (F.C. Burkit) في Encyclopedia Britannica (518/3) أمثلة عديدة للتحريف.

هذه التحريفات تتعلق معظمها بالنص، وما ذكره علماء الإسلام من أمثلة التحريف يتعلق كذلك بالنص إلا هذا النص يتعلق بالترجمة بل بترجمة الترجمة وذلك لأن الإنجيل الحقيقي لا يوجد فلنقرّ بأنما قاموا به من التحريفات في الأناجيل تتعلق بالترجمة والتفسير.

نظرية الإمام الفراهي: ويمتاز ابن تيمية من بين القدامى كما يمتاز الإمام الفراهي من بين الجدد من العلماء من حيث أنهما كانا يعرفان اللغة العبرية وستجد كثرة كاثرة من الإشارة في كتابات العالم الأخير فما قام به الفراهي من تحقيق "المروة" في كتابه "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" لن يمكن بدون معرفة هذه اللغة وكذا ما وجهه من النقد الشديد على الترجمة الإنكليزية لكلمة "اليمين" العبرية يبدو منه أنه لم يكن يعرف اللغة العبرية فحسب بل كان يملك ناصيتها. وستقدر رغبة الإمام الفراهي في الإنجيل واهتمامه به من رسالته غير التامة "الإكليل في شرح الإنجيل" فلو تمت هذه الرسالة لكانت هي خدمة دينية وعلمية كبرى فيقول الإمام الفراهي في مقدمته عن معنى الإنجيل والهدف وراء بعثة المسيح عليه السلام:

"إن المسيح جاء مبشراً بهذا النبي وبعثته وسوى له الطريق كما قال ولذلك سعى كتابه إنجيلاً أي بشرى وضرب أمثلاً كثيرة على سلب الشريعة الإلهية من اليهود وبشر بني يأتي بعده".¹

فيرى الإمام الفراهي أن لغة الإنجيل كانت عبرية² بينما كتب تلميذه الشيخ أمين أحسن الإصلاحي في تفسيره "تدبر قرآن" أنها كانت سريانية.³ والصواب أنها كانت آرامية كما كتبناه آنفاً.

الجانب الديني للإنجيل: قد زلت أقدام الكثير من علماء الإسلام في تعيين الجانب الديني للإنجيل فهم إما على إفراط أو على تفريط فاعتبره الواحد

ولو نزعنا نص القرآن اليوم ووضعنا ترجماته وتفسيره وقمنا بمقارنتهما فسنرى من الخلل المدهش في النص ما لا نراه في نص الإنجيل فسنرى فيها محاولات قبيحة للتحريف وإبداعات العقل غير الناضج ولنضع أمام أعيننا بالنسبة لأهل الكتاب ما يلي من الآية القرآنية: "وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ" ، سورة المائدة: 8

¹ الإكليل في شرح الإنجيل، الورقة: 1 (مخطوط)

² تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 36

³ تدبر قرآن، 264/8

"ميلادنامه"¹ بينما برّاه الآخر عن أي خطأ باعتباره كتابًا سماويًا² والموقف الذي اختاره الإمام الفراهي منه، هو مقتصد إلى حدّ بعيد وأقرب من الحق والصواب.

فيرى الإمام الفراهي أن الأصل هو القرآن الكريم ولا غير وما سواه فهو فرع. إنه وضع ثلاثة أشياء من الفروع؛ الأحاديث، وحقائق أخبار الأمم والأقوام، وصحف الأنبياء السابقة فهو يقول في مقدمة تفسيره نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: "من المأخذ ما هو أصل وإمام، ومنها ما هو كالفرع والتبع. أما الإمام والأساس فليس إلا القرآن نفسه وأما ما هو كالتبع والفرع فذلك ثلاثة: (1) ما تلقته علماء الأمة من الأحاديث النبوية (2) وما ثبت واجتمعت الأمة عليه من أحوال الأمم (3) وما استحفظ من الكتب المنزلة على الأنبياء. ولولا تطرق الظن والشبهة إلى الأحاديث والتاريخ، والكتب المنزلة من قبل لما جعلناها كالفرع، بل كان كل ذلك أصلًا ثابتًا يعضد بعضه بعضًا من غير مخالفة".³

فيمكن لنا القول في ضوء هذا المقتبس إن الإنجيل، مثل صحف الأديان الأخرى، كان فرعًا لا أصلًا لدى الإمام الفراهي.

التحريف: كان الإمام الفراهي يقرّ بأن الإنجيل قد مرّ بالحذف والإضافة فهو يقول مؤيدًا أفكار علماء الإسلام: "قد علمنا، وقد اعترف علماء المسيحيين بأن أصل الإنجيل مفقود، وإنما في أيدينا تراجم اختلط فيها أقوال المسيح وأقوال الرواة، والروايات مختلفة ربما يضاد بعضها بعضًا مع اضطراب المتون وعدم السند فضلًا عن الاتصال والصحة".⁴

نوعية التحريف: إلا أن معظم العلماء قد جانبهم الصواب في فهم نوعية هذا التحريف فالإمام الفراهي أول عالم قام بالبحث والتحقيق في هذه القضية وعيّن

¹ منصب نبوت اور اس کے عالی مقام حاملین، ص 232 (ميلادنامه: كلمة أردوية تعني ملحمة عن

سيرة النبي وأصحابه ومن تبعهم)

² راجع: عبقریات (المسيح) للعقاد

³ تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 28

⁴ إمعان في أقسام القرآن، ص 107

نوعية التحريف الصحيحة فمن درس الإنجيل يعرف أن معظم أجزائه بأسلوب تمثيلي وقد استخدم العديد من الألفاظ بمعانيها المجازية وهذا هو الأسلوب المجازي والتمثيلي الذي فتن أتباعه.¹

وقد نسي النصارى ما قاله هاديههم الحق "اللفظ يهلك والمعنى ينجي".² فهم عكفوا على الألفاظ وبالتالي فقد ألقوا بأيديهم إلى التهلكة.

فمعظم تحريفات العلماء النصارى تتعلق بألفاظ معدودات بما فيها ابن، وأب، ورب، وملكوت الله وما قاموا به من التحريف في الجمل هو مما أنتجه تأويل فاسد لتلك الألفاظ.

وقد قال الإمام الفراهي في كتابه "مفردات القرآن" عن الألفاظ الثلاثة الأولى (ابن، وأب، ورب) موضحاً مفاهيمها الحقة: "كلمة الابن في العبرانية تستعمل لمعنيين: (1) للنسبة، كابن السبيل، وابن الليل، أو كابن صبح، ابن حول وسنة. (2) للعبد، كالرجل، والفتى، والغلام. ولفظ "الابن" ليس كلفظ "الولد" صريح في الابنية ولذلك ترى في القرآن لم يشْتَعِ إلا على لفظ "الولد"، ويَبَيَّن أن استعمال لفظ "الابن" مضاهاة بالكفر، فينبغي أن يجتنب. كما أن لفظ "الرب" يشابه المعبود، فيَبَيَّن في القرآن أنهم أفرطوا في هذين اللفظين".³

¹ لم يضل العلماء النصارى بالأمثال فقط بل لم يفلت منها بعض علماء الإسلام والصوفية لا سيما صوفية الوجودية فمثلاً ذلك الحديث القدسي الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه، الذي يقول فيه الله يوم القيامة: يا ابن آدم! مرضت فلم تعدني، قال: يا رب! كيف أعودك؟ وأنت رب العالمين، قال: أما علمت أن عبيد فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم! استطعمتك فلم يطعمني قال: يا رب! وكيف أطعمك؟ وأنت رب العالمين، قال: أما علمت أنه استطعمك عبيد فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ ---، رقم الحديث: 6556

فما فهمه محيي الدين ابن عربي من معنى هذا الحديث لا يخفى على العلماء وهناك أحاديث أخرى أخطأ في فهم معانيها الصوفية.

² إنجيل متى

³ مفردات القرآن، ص 249-252 ويرى الشاه ولي الله المحدث الدهلوي أن "الابن" كان يستخدم في قديم الزمان للمقرب، والحبيب، والمصطفى، وهناك نظائر عديدة لهذا المعنى في الإنجيل، راجع: الفوز الكبير في أصول التفسير، ص 18

وبعدما أوضح معنى ومفهوم كلمة "الابن" قام بالبحث عما تدل عليه كلمتا "الأب" و"الرب" حقًا فقال "كل ما نجد في الإنجيل من "ابن الله" فهو "عبد الله" في المعنى وكل ما فيه من "أبونا" أو "أبونا وأبوكم" فهو: ربنا وربكم، كما ترجمه القرآن. وقد منع المسيح عليه السلام عن استعمال كلمة الرب لنفسه، وقال: "ربنا واحد- وهو الله- وأنا وأنتم إخوة". وقد بدلت النصارى هذا التعليم الواضح¹. ومن أوضح الأمثلة على تحريف هذا النوع ما جاء في متى:

"ويحبون المتكأ الأول في الولائم والمجالس الأولى في المجمع والتحيات في الأسواق وأن يدعوهم الناس ربي ربي وأما أنتم فلا تدعوا ربي لأن ربكم واحد، المسيح وأنتم جميعًا إخوة ولا تدعوا لكم ربًا على الأرض لأن ربكم واحد الذي في السماوات ولا تدعوا معلمين لأن معلمكم واحد المسيح وأكبركم يكون خادمًا لكم فمن يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع"².

وما نقلناه من المقتبس من إنجيل متى قد أخذناه من رسالة الإمام الفراهي "مفردات القرآن" فأيات الإنجيل، كما هو يصرح، كانت هذه هي فما تم التحريف في هذه الآيات قد كانت ذات صلة بكلمتي "الأب" و"الرب" ولذا فقد بدّل المحرّفون في طبعة بيروت "سيدي سيدي" بـ"ربي ربي" و"لأن ربكم واحد" بـ"لأن معلمكم واحد" كما بدّلوا "لأن ربا على الأرض" بـ"أبا على الأرض" و"لأن ربكم واحد" بـ"لأن

ويؤيد هذه الفكرة التوراة فقد قال الله تعالى في صموئيل:

"متى كملت أيامك واضطجعت مع آبائك أقيم بعدك نسلك الذي يخرج من أحشائك وأثبتت مملكته. هو يبني بيتًا لاسمي وأنا أثبت كرسى مملكته إلى الأبد. أنا أكون له أبًا وهو يكون لي ابنًا"، 14-12/7

وهذا من قواعد اللغة أنه كلما يريد أي كبير أن يعبر عن لطفه ومحبته لمن هو أصغر منه فيخاطبه بابنه ولكن هذا من الأسف أن العلماء النصارى قد حملوه على الأصل فظنّوا المسيح ابن الله فضلوا وأضلّوا.

¹ مفردات القرآن، ص 249-252

² إنجيل متى، 12-6/23

أباكم واحد".¹ ومن حسن الحظ أن الطبعة التي بأيدينا قد نشرت من بيروت وهي تمتلك نفس التحريف فاقرأوا:

"وأن يدعوهم الناس سيدي سيدي وأما أنتم فلا تدعوا سيدي لأن معلمكم واحد، المسيح وأنتم جميعاً إخوة ولا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السماوات".²

وقد كتب الإمام الفراهي عن ترجمة تلك الآيات الإنكليزية في الهامش الأنف الذكر أن كلمات "ربي ربي" قد بقيت فيها إلا أن البقية من التحريفات لم تنمح عن مكانها، وزد على ذلك ظلم المترجم الآخر أنه فصل "المسيح" عن "أنتم إخوة" بعلامة (:)، الأمر الذي أوصل "المسيح" بالآية السابقة بدلاً من "وأنتم جميعاً إخوة". وترجمة الإنجيل التي بين أيدينا وهي قديمة للغاية تمتلك نفس الفصل فاقرأوا الجمل:

"They like to have places of honour at feast and chief seats in synagogues, and greetings in the market, and to be called of men, Rabbi Rabbi. But be not ye called Rabbi: for one is your master, even Christ; and all ye are brother, and call no man your father upon the earth: for one is your father, which is in heaven"³.

وفي ترجمة أخرى وهي باللغة الإنكليزية الحديثة قد حذف المترجم كلمة "المسيح" أصلاً وأقام مقامه كلمة "ربي" بالأحرف الجلية (Capital Letter)، اقرأوا تلك الترجمة:

"But you must not be called "rabbi"; for you have one Rabbi and you are all brothers"⁴.

¹ مفردات القرآن، ص 249-252

² إنجيل متى (بالعربية)، 10-8/23

³ إنجيل متى (بالإنجليزية)، 11-6/2

⁴ 11-6/2، The New English Bible

ولكن قول المسيح "إن ربكم واحد، الله ولا تدعوا لكم رباً سواه" قد بقي مكانه وسنتحدث عنه فيما بعد.

واللفظ الرابع هو ملكوت الله الذي قد أخطأ العلماء النصارى في تأويله لأجل قصر علمهم، وبالتالي فقد حرموا الدخول في ملكوت الله وحتى الآن يحرم أغليبيتهم هذه الفضيلة. وقد أوضحنا في الصفحات السابقة أن عيسى قد جاء مبشراً بنبي يأتي بعده وعلى هذا فقد بدأ دعوته بهذه البشيرة فقد جاء في إنجيل متى:

"من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات".¹ فماذا أراد عيسى بملكوت السماوات أو ملكوت الله؟ تختلف أقوال العلماء النصارى فترى جماعة منهم أن المراد منه ورود عيسى في الأرض مرة ثانية حينما يرجع إلى الأرض كابن آدم وربّ ويقوم ملكوت الله على الأرض، وتخالفها جماعة أخرى قائلة: إن هذه الأرض ستزول عن قريب وتقوم ملكوت الله على الأرض فيقول كاتب مقالة نشرت في موسوعة الأديان:

"The coming of God's kingdom implied the end of the world order as it was then known"².

ولكن حينما نتفكر في المكان الذي جاءت هذه الكلمات في الإنجيل الحالي في ضوء السياق يتضح لنا خطأ كلتا الجماعتين النصرانيتين ونعلم جيداً أنه لا أريد به القضاء على الدنيا المادية ولا ورود عيسى الثاني وقيام ملكوت الله على الأرض بيده بل المراد به بعثة النبي الخاتم أصلاً.

وأغلب الظن أن العلماء النصارى القدامى قد عرفوا هذه الحقيقة ولذا فقد بذلوا أقصى جهودهم في تحريفها، وقد بين الإمام الفراهي في رسالته المذكورة أعلاه "الإكليل في شرح الإنجيل" اختلاف آرائهم عن ملكوت الله ناقلًا آيات متى ومرقس المتعلقة بالموضوع.

¹ متى، 17/4

² 184/2، Encyclopedia of Religion

فقد جاء في متى أن عيسى عليه السلام سأل الفريسيين (فقهاء اليهود): ماذا تظنون في المسيح (أي ملك الموعود)؟ والآيات التي جاءت بعد هذا السؤال أي الآيات من "ابن من هو" إلى "من ذلك اليوم لم يحسر أحد أن يسأله" مما زادها الشراح النصارى لأنها ردّ لا يتعلق بالموضوع على السؤال المذكور فقد كان السؤال عن ملكوت الله لا عن النسب ولذا فنجد جملة الردّ غير واضحة ولا صالحة للفهم.

وأما إنجيل مرقس فقد حذف فيه هذا السؤال أصلاً فلم ينقل سوى "آية وصية هي أول الكل" فالردّ الذي قدّمه عيسى عليه السلام على هذا السؤال صدّقه أحد منهم (ولعله كان من الفريسيين) قائلاً بأنه مذكور كذلك في التوراة فلما سمع عيسى هذا التصديق قال: لست بعيداً عن ملكوت الله".

وهذا من العجب العجيب أن قد جاء السؤال عن ملكوت الله في متى ولو أنه ليس بواضح إلا أن الردّ عليه قد تم حذفه وما ذكر في مرقس من الرد ولكن السؤال الصحيح لا يوجد فيبدو منه أن مؤلفي كلا الإنجيلين قد حاولا أن يخفيا حقيقة ملكوت الله.

وقد جاء ذكر ملكوت الله في عظة مهمّة لعيسى تسمّت بـ "وعظ جبلي"، وقد فصلت هذه العظة بالتفصيل في إنجيل متى. تبدو العظة بهذه الكلمات:

"طوبى للمساكين بالروح، لأنّ لهم ملكوت السماوات. طوبى للحزانى، لأنهم يتعزّون. طوبى للودعاء، لأنهم يرثون الأرض. طوبى للجياع والعطاش إلى البر، لأنهم يشبعون. طوبى للرحماء، لأنهم يرحمون. طوبى للأتقياء العقب --- لأنّ لهم ملكوت السماوات".¹

وقد كتب الإمام الفراهي ناقداً ومحللاً هذه العظة: إن من قرأ نسخ الإنجيل هذه بالتأمل لا يخفى عليه أن المسيح عليه السلام إنما جاء مبشّراً بقرب ملكوت الله الظاهر الذي كان عبارة عن سلطة دينية. وقد كان أعطاه الله اليهود، وضيّعوه، ثم دارت عليهم الدوائر. وكانوا ينتظرونه مرة أخرى لوعده الله لهم، فبشّرهم المسيح بقربه، وعرفه لهم بأمثال كثيرة تطابق مطابقة واضحة نبوة خاتم النبيين.

¹ متى، 10-1/5

ولما لم يؤمن به جمهور قومه، وآيسه علماؤهم لقساوة قلوبهم وتعبدتهم لخراف الدنيا، اصطفى من عامتهم البسطاء شردمة قليلة لم يغلبهم الترف والحرص، لكيلا يعسر عليهم الدخول في ملكوت الله إذا ظهر، وحينئذ يكملون بالشرعية الكاملة. فأمرهم بوصايا تقيمهم على حالة الفقر والمسكنة، ليقبوا على طهارة القلب والتقوى والصبر، ليتوب الله عليهم حسب سنته ووعد¹.

ويرد الفراهي قائلاً: وإنما اخترنا هذا التأويل لأنه يجعل قول المسيح من أعظم البشارة ونبوة كبرى، ولا يخالف العقل ولا النقل. وذلك بأنه انطبق على أحوال المسيحيين، ووقع عليهم كل ما أخبر عنه، فإن طائفة من أمته آثرت الفقر ونبذت المال. وطائفة آثرت الدنيا، وعبروا الأولين بتسميتهم بالفقراء، وطردهم، كما بشر المسيح في أول هذه الخطبة.

ولم يكن ذنبهم إلا أنهم أعطوا أموالهم في سبيل الله وألزموا على أنفسهم الفقر، ولم يتركوا التوراة، وحرّموا الخنزير، وأوجبوا الختان، ولم يقولوا بألوهية المسيح، ولم يقبلوا إلا الإنجيل العبراني الذي ضيعه الآخرون، وشتّعوا على بولوس الذي بدّل النصرانية².

وما قام به العلماء النصارى من التحريف في آيات متى المذكورة أعلاه يكشف الفراهي عنه القناع ويقول³: إن هذه الوصايا إن أريد بها العموم والإطلاق تكون مخالفة لسنة أئمة الهدى كإبراهيم وداود وغيرهما. فإنهم قاتلوا، وانتصروا، وجمعوا الأموال، وأنفقوها في المواقع المحموده، ولم يكونوا عيالاً على الناس.

ولدفع هذا الاعتراض زادوا في رواية متى ما يحرف الكلام عن معناه: فقال: طوبى للمساكين بالروح"، وكذلك "طوبى للجياع وللعطاش إلى البرّ لأنهم يشبعون".

¹ إمعان في أقسام القرآن، ص 112

² المصدر نفسه، ص 112-113

³ وقد قام العلماء النصارى بالتحريف في معظم الأماكن لأنهم قد عجزوا عن فهم محتوى الكلام كما يتضح من هذا المقتبس.

وهذا لا يبدّل الكلام الذي فيه الخطاب إلى الفقراء والمساكين من جهة المال لا من جهة الروح".¹

فقد اتضح جلياً من هذا الحديث أن الإنجيل قد مرّ بالحذف والإضافة باسم الشرح والتفسير فلم يكشف الفراهي القناع عن هذه التحريفات فحسب بل قام بإصلاحها وإعادة الأصل إلى مكانه.

تقديس الإنجيل: ولا ينبغي لأحد أن يسيئ الظن بالفراهي بأنه لا يقُدّس الإنجيل ولا يجلّه كما يبدو من دراسة كتابات معظم علماء الإسلام فبالرغم من بعض التحريفات في الإنجيل يقُدّس الفراهي الإنجيل ويقدره حقاً فإنه من إرشادات القرآن الكريم أن يؤمن الإنسان بكافة الكتب السماوية بدون أيّ تفريق بينها.

فقد كتب الإمام الفراهي بكل أسف على من لا يقيم للإنجيل وزناً من بين العلماء المسلمين فقال: وكذلك نرى بعض المسلمين يسخرون من بعض عبارة الإنجيل، ولو أولوها إلى تعليم القرآن لكان أجدر بهم، وأمرنا في القرآن بالإيمان بما تشابه في القرآن ولا نرى علة لانتواء هذا الحكم عن سائر الكتب المقدّسة والتكذيب ممن جهل التأويل ذنب عليه. كما قال الله تعالى: "بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين" (سورة يونس: 39) وكذلك يأمرنا قول النبي الكريم ﷺ بأن "لا تصدّقوا أهل الكتاب (يعني فيما روي عن الكتب المقدّسة فإنهم لم يحفظوه) ولا تكذبوهم" (فإنه يمكن أننا لم يأتنا تأويله)".²

فبدا من هذا المقتبس أن الإمام الفراهي قد قام بتحليل الإنجيل كداعٍ مخلص كما راعى ما كان يقتضيه وبناءً على هذا فإنه لم يستخدم أسلوباً جدالياً، حين انتقاد وتحليل آيات الإنجيل، أسلوباً لا يراد به سوى ترديد نظرية المعارض

¹ إمعان في أقسام القرآن، ص 110

² تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 36-37

وتنقيصها، فما قام به علماء الإسلام من الانتقادات على الإنجيل وأتباعه يملؤه أسلوب الجدل والمناظرة، الأمر الذي أسفر عن إبعاد النصارى عن القرآن الكريم. فكان الفراهي لا يحبّ هذه المعاملة غير الحكيمة وقال بأسلوب ملؤه حزن وأسف: وأنت ترى بعض المسلمين يسخرون بآيات الإنجيل، وإلى الله المشتكى ممن يسخر بالمسيح نفسه، وقد نهينا عن الجدل إلا بالتي هي أحسن وعن سبّ أربابهم، فلم يزداهم إلا تنفراً وتباعداً، فحرموا قبول الحق، واتسع بيننا الشق. ولما أن الحق يعلو على الباطل، والنور يمحو الظلمة لا حجة أبلغ من أن نضعهما معاً، ليصطفي العاقل منهما خيراً¹."

وهذه هي العاطفة الدعوية للفراهي التي جرّته إلى فكرة قيامه بشرح الإنجيل لكي يسدّ نقص ضلال أتباع الإنجيل ويفتح لهم السبيل إلى قبول الحق فقال في موضع من تفسيره: ونذكر في مقدمة أخرى بعض ما ضلّت فيه النصارى، فمنه ما هو قطب رحي دينهم. الأول: لفظ الابن والأب، والثاني: أن الخبز والشراب ينقلب لحم عيسى ودمه، والثالث: أنه قاعد في يمين الرب وينزل في فوج الملائكة، ويحكم عليهم يوم القيامة، والرابع: أنه يرسل فارقليط، فيعلّمهم تفاصيل الشريعة واضحة، والخامس: أن رجال قرنه يرون ما أنذر به²."

قد بدأ الإمام الفراهي بكتابة هذا الشرح باسم "الإكليل في شرح الإنجيل" إلا أنه لم يوفّق إتمامه ولكن مع ذلك هذه الرسالة غير التامة تشهد حقاً على أنه كان يطوي بين جنبه نصّاً مخلصاً لأهل الإنجيل وكان يقدّسه بالرغم من بعض التحريفات فيه.

هل يوجد الحق في الإنجيل؟ وحينما نقول بأن الإنجيل محرّف فيفهم الناس به عادة أنه لا يوجد الحق فيه الآن، ونقعد حيارى حينما نسمع مثل هذا القول من أفواه العلماء، وذلك لأنهم لا يمعنون النظر في الإنجيل. ودع الإنجيل فإنه محرّف

¹ المصدر نفسه، ص 37-38

² المصدر نفسه والصفحة ذاتها

العدد الخاص مجلة الهند

لديهم، كم من المسلمين يقومون بتدبر القرآن الكريم. والواقع أن الإنجيل يطوي بين دفتيه أنواعًا من الحق إلى الآن. وإذا تفكرت فيه في ضوء سياق آياته ونظائرها الموجودة في الإنجيل، وفوق ذلك في ضوء القرآن الكريم فسينكشف لك التحريف بل تفوز بإرشاده الحقيقي.

وملخص ما قام به الفراهي من التحقيق في هذا الباب أن الحق يوجد في الإنجيل حتى الآن فقال محيلاً إلى حديث للمسيح عن ترك الدنيا: وهو أنه لا كمال في ترك الدنيا بأسرها، فبين لهم أن هذا كمال إضافي: وهو التطهر عن الذنوب بالفرار عن الامتحان. وكان ذلك سنته تعليمًا للذين عجزوا عن كمال أكمل، فقال "ليس التلميذ أفضل من معلمه بل كل من صار كاملاً يكون مثل معلمه (لوقا).

والمبتدعون لم يرضوا بأن تكون سنته كمالاً إضافياً، فزادوا في رواية متى: "فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السماوات كامل". وفي رواية لوقا عوض هذه الجملة: "فكونوا رحماء كما أن أباكم أيضاً رحيم".

هممات هممات! هل يساوي العبد ربه؟ ولكن الحق غالب، يبقى على رغم معانديه، ويطمس على عيونهم، فانظر إلى تصريحه بما ينفي شائبة الشرك، ويبين أن كماله كمال إضافي مما يختص بالفقراء¹.

وأما قول الفراهي "الحق غالب، يبقى على رغم معانديه" فيحتل أهمية كبرى كما أنه يحمل الكثير على الاستعجاب فيناسبنا هنا أن نفصل هذا القول شيئاً ما ولهذا الهدف نأخذ تلك الألفاظ الثلاثة التي قد تعرضت لتحريف العلماء النصاري: الرب وملكوت السماوات (ملكوت الله) وأحمد (فارقليط).

فقد تناولنا كلمتي "الرب" و"ملكوت الله" فيما سبق فلا نناقشهما إلا قدر ما يثبت أن معاني تينك الكلمتين قد بقيت كما هي بعد أن مرتا بالتحريف الشديد.

¹ إمعان في أقسام القرآن، ص 108-109

العدد الخاص مجلة الهند

فتمتدّد النصرارى اليوم أن عيسى ربّهم (Lord) وهو سيرجع إلى هذه الدنيا كربّ ولكن هذه العقيدة تعارض تعليم عيسى الحقيقى فقد صرّح المسيح بكلمات واضحة عن ألاّ يعتبروا أحدًا ربّهم سوى الله ولو هو ذاته ولكن من جاؤوا بعده بدّلوا هذا الإرشاد وقد نقلنا، فيما سلف، مقتبسًا من إنجيل متى بهذا الشأن فالمرجو منكم إلقاء نظرة خاطفة على ما يلي من الكلمات:

"ويحبون المتكأّ الأول في الولاثم والمجالس الأولى في المجامع والتحيات في الأسواق وأن يدعوهم الناس ربي ربي وأما أنتم فلا تدعوا ربي لأن ربكم واحد، المسيح وأنتم جميعًا إخوة ولا تدعوا لكم ربًا على الأرض لأن ربكم واحد الذي في السماوات ولا تدعوا معلمين لأن معلمكم واحد المسيح وأكبركم يكون خادمًا لكم فمن يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع".¹

وكما قلنا سالفًا أن "لأن معلمكم واحد" أقيم مقام "لأن ربكم واحد" من هذا المقتبس وذلك أن النصرارى يعتقدون أن المسيح ربهم (Lord) والحال أن هذه الآية تقطع دابر هذه العقيدة، وإن اعترفنا، لمدة قصيرة، بأن "معلمكم واحد" كانت الآية كما تدعي النصرارى فستكون هذه الجملة غير مرتبطة حسب نظم الكلام، ومع ذلك أن هذا الإرشاد الخاص لم يحتج إليه هنا بالإطلاق لأن هذا الإرشاد قد جاء بعد آية في هذه السلسلة للإرشادات فقول "ولا تدعوا معلمين لأن معلمكم واحد المسيح" فهل لا يتضح من هذا أن العلماء النصرارى قد بدّلوا الآية الحقيقية "لأن ربكم واحد" بـ "لأن معلمكم واحد".

ولكنه بالرغم من هذا التبديل أن الإرشاد الحقيقى يصان في غير هذا من مواضع الإنجيل فتوجد الآية التالية في بداية إنجيل متى حيث ابتلي عيسى عليه السلام بيدي إبليس:

"حينئذ قال له يسوع اذهب يا شيطان، لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد".²

¹ متى، 11-7/22

² المصدر نفسه، 11-4:10

العدد الخاص مجلة الهند

ففي هذه الآية جاءت كلمة "الرب" والتي تبادلتها كلمة "Lord" بالإنجليزية، وهنا قد استخدمت كصفة لله تعالى، وبعبارة أخرى أن الله هو رب العالمين. وقد جاء هذا الإرشاد بصورة أوضح في موضع آخر من إنجيل متى فقد سأل الفريسيون (فقهاء اليهود) عيسى عليه السلام لكي يبلوه: يا معلّم أية نصيحة هي العظمى في الناموس؟ فقال: "تحبّ الربّ إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك، هذه هي الوصية الأولى والعظمى"¹ فترى في هذه الآية أيضًا أن كلمة "الرب" جاءت مع "الله" لذات واحد فكأن الذي هو الله هو الرب ولا ربّ سواه، وفي الإنجيل مواضع أخرى تشبهها.

فهل يمكن لأحد أن يقول بعد هذه الآيات إن الإنجيل لا يوجد فيه تعليم التوحيد، وأما السؤال: لم يعتبر النصارى عيسى عليه السلام ربًّا بعد هذه الآيات؟ فالردّ عليه واضح تمامًا فقد جاء في غير موضع من القرآن بكلمات واضحة أن كافة الأنبياء كانوا بشرًا والنبي الخاتم أيضًا كان بشرًا ولكنه بالرغم من هذا الإرشاد الواضح لم يعتبر أغلبية المسلمين نبيهم الخاتم ما فوق البشر؟ والسبب واحد في كلا الأمرين وهو العلماء السوء الذين يبدّلون الإرشاد الإلهي الحقيقي بتأويلهم الباطل.

ومراد عيسى عليه السلام من "ملكوت الله"، كما مضى، كان بعثة النبي الخاتم ولذا فقد أضاف العلماء النصارى كلمات أو جملاً في كافة المواضع التي جاء فيها ذكر هذه البشرى لكيلا تنطبق هذه الآيات على خاتم النبيين محمد ﷺ، وقد نجحوا في محاولتهم هذه في بعض الأماكن إلا أن هناك مواضع في الإنجيل حتى الآن بفضل الله جلّ وعلا، تشهد واضحًا على أن المراد من ملكوت السماء ليس إلا بعثة النبي الخاتم ﷺ.

ونذكر على سبيل المثال أنّ عيسى عليه السلام قال: كان إنسان ربّ بيت غرس كرماً وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبني برجًا وسلّمه إلى كرامين وسافر. ولما

¹ المصدر نفسه، 37-36/22

قرب وقت الأثمار أرسل عبده إلى الكرامين ليأخذ أثماره. فأخذ الكرامون عبده وجلدوا بعضًا وقتلوا بعضًا ورجموا بعضًا. ثم أرسل أيضًا عبداً آخرين أكثر من الأولين. ففعلوا بهم كذلك. فأخيراً أرسل إليهم ابنه قائلاً هيا بون ابني. وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث هلموا نقتله ونأخذ ميراثه. فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه. فمضى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين. قالوا له. أولئك الأعداء يهلكهم هلاكاً ردياً ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها. قال لهم يسوع أما قرأتم قط في الكتب. الحجر الذي رفضه البنّاءون هو قد صار رأس الزاوية. من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا. لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره ومن سقط على هذا الحجر يترضّض ومن سقط هو عليه يسحقه".¹

وقد ذكرت أمثال أخرى بليغة لطيفة في إنجيل متى في هذا الشأن، نصرف عنها الذكر مخافة التطويل.²

والهدف الثاني لتحريف العلماء النصارى كان "أحمد" فقد جاء في سورة الصف:

"وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدّقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد".³

ففي هذه الآية ذكر عيسى اسم النبي الذي يتبعه أحمد ولعل أندر مثال في تاريخ الأنبياء أن نبياً بشّر برسول يأتي بعده بتعيين اسمه البديهي أن الإيمان بالرسول الخاتم كان سهلاً للنصارى بعد هذه البشرى الواضحة المبيّنة ولكن العلماء النصارى قد قاموا بالتحريف في هذا الاسم حين ترجمة الإنجيل لأجل عصبيتهم القومية والدينية.

¹ المصدر نفسه، 45-33/21

² راجع: متى، 13/24-34، و18/1-6، و20/1-16، و22/1-14

³ سورة الصف: 6

العدد الخاص مجلة الهند

الترجمة الأولى للإنجيل تمت باللغة اليونانية فاللغة البديلة لأحمد في هذه اللغة هي ¹Periclytos ولكن هناك كلمة أخرى تشبهها وهي Paracletus فاستغلّ العلماء النصارى هذه المشابهة اللفظية فترجموها بـ"معزٍ" ولكن هذا التحريف قد محا بشرى النبي الخاتم عن الإنجيل؟ لا، فقد بقيت هذه البشرى بكلمات صريحة بالرغم من محاولاتهم المتعبة فاقروا الآيات المذكورة أعلاه من إنجيل يوحنا:

"وأنا أطلب من الأب فيعطيك معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد"^{2 3}

"بهذا كلمتكم وأنا عندكم وأما المعزّي الروح القدس⁴ الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويدرككم بكل ما قلته لكم".⁵

"ومتى جاء المعزّي الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب فهو يشهد بي".⁶

"لا أتكلّم أيضاً معكم كثيراً لأنّ رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيّ شيء".⁷

"لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزّي".⁸

"إنّ لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمر آتية".⁹

¹ وترادفها بالسريانية "منحمنّا" وبالرومية (اللاتينية) "برقليطس" انظر: سيرة النبي، 149/1

² وما يلحقها من الآية "روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله" زائدة.

³ 17-16/14

⁴ هذه جملة تفسيرية للعلماء النصارى ألحقوها إليها ولنضع هنا بأعيننا أننا نجد اختلاف القرآت عندنا فمثلاً يقرأ ابن عباس "ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج" بينما قد عزيت إلى عائشة قراءة "والصلوة الوسطى، صلوة العصر" ولكن هذه الجمل التفسيرية ليست بملحقة إلى النص القرآني والحمد لله على ذلك.

⁵ 26-25/14

⁶ 26/15

⁷ 30/14

⁸ 7/16

⁹ 13-12/16

فهل يقول نصراني عدل بعد ذلك إن الآيات المذكورة أعلاه لا تطوي ذكر تلك البشرية عينها التي جاء ذكرها في سورة الصف فالآيتان الأخيرتان المشار إليهما (13-12/16) تنطبقان تمامًا على النبي الخاتم ﷺ فكلماتها "أنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به" تشبه ما جاء في سورة النجم معني ومحتوي من "وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى"¹.

فبدا من هذا أن الحق موجود حتى الآن في الإنجيل بالرغم من بعض التحريفات فيه والسبب من ورائه أسلوبه التمثيلي الذي لم يدع المحرّفين أن ينجحوا في أهدافهم السيئة تمامًا وإن لم يكن الحق موجودًا فيه فلم يؤمر النصراني بإقامته في القرآن الكريم، فافقروا الآيات التالية وهي حجة دامغة على ما قلنا:

"قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم"².

وقال في موضع آخر:

"ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم"³.

فما جاء في هذه الآيات من إقامة التوراة والإنجيل يعني جليًا أنهما تطويان الحق بين طياتهما فإن إقامة الكتاب المحرّف لا تعني شيئًا ولكن علماء الإسلام لم يقبلوا هذا المعنى وادّعوا أنه لم يرد من هذين الكتابين التوراة والإنجيل اللذان يوجدان إلى الآن بل أريد بهما ذاك الكتابان السماويّان اللذان كانا موجودين في العهد النبوي إلا أنهما قد ذهب بهما الدهر الآن.

ولكن هذه الفكرة لا تصح فأقدم نسخة للإنجيل تم العثور عليها تتعلق بالقرن الرابع الميلادي فهي تردد فكرة علماء الإسلام تلك أن الإنجيل المتواجد الآن لا يمت

¹ سورة النجم: 3-4

² سورة المائدة: 68

³ السورة نفسها: 66

إلى العهد النبوي بصلة. وبالرغم من هذا فلو أمعنوا النظر في الآيات المذكورة أعلاه فلم يقطعوا في هذا الخطأ فلم يأمر القرآن أهل الكتاب بأن يقيموا التوراة والإنجيل فحسب بل يشملها إقامة القرآن الكريم أيضاً فقد أشير إلى هذا الجانب في كلمات "وما أنزل إليكم من ربكم"، ولنضع أمام أعيننا أن القرآن قد اعتبر مهيمناً¹ على هذه الكتب أي القرآن قد صان مبادئ التوراة والإنجيل فهو يقوم مقياساً حين الاختلاف.

من له إلمام بنفسيات الأقوام وعصبياتهم القومية والدينية يقدر جيداً على فهم السبب وراء أمر أهل الكتاب بإقامة التوراة والإنجيل بجانب إقامة القرآن الكريم. إن هذه الآية بإمكانها أن تثبت معلماً في سبيل تبليغ الدين بين ظهرائي غير المسلمين فلو استفاد المسلمون من حكمة الدعوة هذه لأمكن أن يتجلى بنور الإسلام عدد لا يحصى من القلوب ولكن من الأسف أننا معشر المسلمين لا نتدكر حكمة الدعوة هذه.

وما قمنا به من تقديم نظرية الإمام الفراهي عن الإنجيل في الصفحات السابقة بدا منه أن الإمام الفراهي قد استعرض الإنجيل كداعٍ مخلص، إنه لم يكشف القناع عن التحريفات في الإنجيل لكي يبتلي النصارى بالشعور بالدناءة الدينية في جانب وفي جانب آخر يبتلي المسلمين بالشعور بالاستعلاء بل أراد به أن يتجلى الحق للنصارى، وعلى هذا فقد أشار بالبنان إلى تحريفات الشارحين النصارى في جانب وفي جانب آخر أول الآيات المحرّفة تأويلاً صحيحاً في ضوء الإنجيل ذاته. وهذا الموقف يميّز الإمام الفراهي عن غيره من النقاد المسلمين ويهدي العلماء والباحثين إلى الصراط السوي خلال دراسة الكتب السماوية.

¹ فقال تعالى: وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ---"، سورة المائدة: 48

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. Encyclopedia Britannica، 1950م
3. Encyclopedia of Islam، لندن، 1971م
4. Encyclopedia of Religion، نيويورك، لندن، 1987م
5. Holy Bible، لندن، 1611م
6. Jews' Encyclopedia، لم يذكر اسم المطبع وسنة الطبع
7. The New English Bible، مطبعة جامعة أوكسفورد، جامعة كيمبريج، 1961م
8. ابن منظور: لسان العرب، بيروت، 1956م
9. ابن هشام: سيرة النبي، مطبع محمد علي الصبيح، الأزهر الشريف، القاهرة، سنة الطبع لم تذكر
10. أبو الحسن علي الندوي: منصب نبوت اور اس کے عالی مقام حاملین (النبوة والأنبياء)، لکناؤ، سنة الطبع لم تذكر
11. الإمام الرازي: العلل، مصر، لم يذكر اسم المطبع وسنة الطبع
12. أمين أحسن الإصلاحي: تدبر قرآن، شركة تاج، دلهي، 1989م
13. حميد الله، الدكتور: خطبات بهاولفور، إداره تحقيقات إسلامي باكستان، 1985م
14. رشيد رضا المصري: تفسير المنار، مصر، 1234هـ
15. الشاه ولي الله الدهلوي: الفوز الكبير في أصول التفسير (الترجمة الأردوية)، مكتبة برهان، دلهي، 1963م
16. عبد الحق الحقاني: فتح المنان، لاهور، 1364هـ
17. عبد الحميد الفراهي: الإكليل في شرح الإنجيل (مخطوط)
18. عبد الحميد الفراهي: إمعان في أقسام القرآن، دار القلم، دمشق، 1994م
19. عبد الحميد الفراهي: مفردات القرآن، دار الغرب الإسلامي، 2002م

العدد الخاص.....مجلة الهند

20. عبد الحميد الفراهي: نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، الدائرة الحميدية، 2008م
21. العلامة الزمخشري: الكشاف، اسم المطبع لم يذكر، مصر، 1354هـ
22. الكتاب المقدس (كتب القديم والعهد الجديد)، اسم المطبع لم يذكر، بيروت، 1930م
23. محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس، بيروت، لم يذكر اسم المطبع وسنة الطبع
24. محمود العقاد: عبقریات المسيح، اسم المطبع لم يذكر، القاهرة، 1952م
25. ناصر الدين البضاوي: أنوار التنزيل (التفسير البضاوي)، مطبع نولكشور، لكناؤ، 1382هـ

الموقف السياسي للإمام الفراهي

- أبو الأعلى سيد بن محمد عناية الله¹

هو الإمام العبقري والمفسر الملمهم عبد الحميد الفراهي ولد في شمال الهند وكان ابن خال العلامة شبلي النعماني رحمه الله، فقد عاش في الهند، وتعلّم على كبار علماء الهند وقتذاك، وكان بارعًا في عدة لغات: العربية والفارسية والعبرانية والإنجليزية وكان شاعرًا في الفارسية والعربية وله ديوان في كلا اللغتين وله إسهام كبير في تفنيد دعاوي اليهود والنصارى، وقد قال عنه العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله إنه كان آية من آيات الله. توفي رحمه الله في الحادي عشر من نوفمبر سنة 1930م.²

من المعلوم لدى المطلعين على كتبه أنه قد عزم على مشروع كبير لخدمة القرآن الكريم، ولكن للأسف لم يحظ مشروعه بالإكمال، مع ذلك فقد ترك وراءه ثروة كبيرة من العلوم والمعارف، منها تفسيره لخمس عشرة سورة من القرآن والذي طبع باسم "تفسير نظام القرآن" مع العلم بأنه قد بدأ بفكرة النظام بين الآيات والصور.³ ومقدماته لهذا التفسير الجليل،⁴ ومن هذه المقدمات رسالته الشهيرة "في ملكوت الله" الذي وضع فيها الإمام ما يراه في مسألة الخلافة والسياسة مع أن

¹ باحث، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملكية الإسلامية، نيودلهي

² انظر للاطلاع على سيرته وحياته في اللغة العربية: موقع نظام القرآن www.nizamulquran.org

³ ومع أنه توجد هذه الفكرة من قديم لكن الإمام قد أسّس لها الأصول ووضع لها القواعد وجاء بحجج وأدلة لم يسبقه إليها أحد.

⁴ معظم ما كتبه الإمام يشتمل على هذه المقدمات ومنها ما اكتملت ومنها ما لم يصل فيها إلى النهاية وإن وضع فيها الغاية ومنها ما بدأ بها وهذه كلها تنتظر باحثًا ينظر فيها بنظر ثاقب ويكملها ويملاً فراغها.

العدد الخاص مجلة الهند

هذا الكتاب أيضًا مما لم يوفق بالإكمال. وقد كتب بعض الأمور المهمة حول هذه المسألة في تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان".

وإن الإمام الفراهي كان ذا بصيرة تامة في مسألة الخلافة والسياسة وقد شهد له العلامة تقي الدين الهلالي المراكشي رحمه الله بذلك حيث قال: "وهو عارف بمسألة الخلافة محقق لها، لا يلتبس عليه شيء من أمرها خلافاً لأهل الهند".¹ فقصدي بكتابة هذا المقال هو توضيح الموقف السياسي للإمام، وأسأل الله التوفيق والسداد.

علم ملكوت الله: يقول في فاتحة الكلام "أما بعد فهذا كتاب من مقدمة نظام القرآن، باحث عن مسألة ملكوت الله الجامعة لمعارف مهمة من علوم القرآن التي لا يطلع عليها الطالب إلا إذا قام على هذه النقطة الجامعة التي تنفجر منها أنهار علوم، كأنها نبعت من عين جموم. وإذا لم يتعرض لها أحد من علمائنا، ينبغي أولاً أن نعرفها ونبين وجوهها، ونذكر المعارف التي تحصل منها، حتى يتضح موضعها في علم الدين، ويستبين نفعها لطلاب الطمأنينة واليقين".²

فهو يعتبر هذه المسألة من أساسيات العلوم والمعارف القرآنية ويعنى بهذا أنه لا بد من هذا العلم للاطلاع على العلوم والمعارف القرآنية، مع الاعتراف بأن العلماء عامتهم لم يتعرضوا بهذا العلم ولكن هذا لا ينقص من شأنه شيئاً.

مكانة علم الملكوت في الدين: ويضع العنوان الثاني "موضع علم الملكوت في الدين" ويتكلم فيه عن مكانة علم الملكوت في هذا الدين الحنيف، ويقول فيه صراحة أنه لا يمكن القيام بالعدل والقسط إلا بأن نقوم بهذا الدين ويكون الحكم لله الواحد القهار فهو يقول:

¹ مجلة الضياء، المجلد الثاني، العدد السابع، ص 260، مفردات القرآن للفراهي، تحقيق: د. أجمل أيوب الإصلاحي، فقد نقلها المحقق في الترجمة الذاتية للمؤلف
² في ملكوت الله للإمام الفراهي، الدائرة الحميدية، سرائير، أعظم كره، ص 3

"اعلم أن جماع علوم الدين معرفة الرب تعالى بصفاته الكاملة، وأهمها تفرد به بالملك، فلا ندع لسواه. وملكه بالعدل والرحمة، والمعاد مبني على ملكه وعدله، والنبوة من ملكه ورحمته وعدله، وتأخير المعاد لحكمته وحلمه. ورسالة (محمد صلى الله عليه وسلم) كمال النبوة وتمام الرحمة والعدل في الدنيا كافلة بإتمامها في الآخرة فهي صورة ملكوته كما أن أحوال وقائع الدنيا صورة ملكوته المبني على أصول الحكمة والعدل والرحمة والتربية، والغافلون لا يرونها. فاحتجنا إلى كشف الحجب عن ملكوت الله تعالى".¹

فيستفاد من كلامه ما يلي:

الأصل هو معرفة الرب عز وجل، بصفاته الكاملة، ومن أهم صفات الرب جلّ وعلا، أنه متفرد بالملك، فلا إذعان ولا طاعة إلا له. وملكوته قائم على العدل والرحمة، والمعاد يربط بملكه وعدله، كما أن النبوة نتاج ملكه ورحمته وعدله، وكل ما يقع على ظهر الأرض من الوقائع والحوادث تشهد على ملكوته الحكيم العادل الرحيم الذي يروم تربية النفوس الإنسانية. ولكن لا ينظر إليها الغافلون. والواقع أنه لا يعرف الكثيرون ملكوته حق المعرفة. فأراد الإمام أن يقوم بهذه المهمة وأن يعطيه في تفسيره ما يستحقه من العناية والمكانة.

منافع علم الملكوت في فهم الأمور: الإمام الفراهي رحمه الله كان ينظر إلى ملكوت الله بحيث لا يمكن فصله عن أمور الحياة الدنيا بل هو يتعلق بالحياة البشرية ويساعد الإنسان في فهم الأمور الدنيوية والدينية، وإذا كان الإنسان لم يطلع ولم يعترف به كان خائبًا محسورًا. فالإمام الفراهي له موقف صريح واضح وهو يقول تحت عنوان "منافع هذا العلم في فهم الأمور":

1. يتيسر به فهم تاريخ الدنيا واطمئنان القلب بها، والعلم بأن الأمور إلى الخير. وهي مسألة حكمية.

¹ نفس المصدر، ص 4

العدد الخاص مجلة الهند

2. ويتيسر به فهم تاريخ الدين وما وقع وما يقع. وفيه بشرى للمتقين. وهي مسألة تاريخية.
 3. ويتيسر به فهم أصل الشرائع وحكمها وثبوتها. وهي مسألة جامعة للحكمة والكتاب.
 4. وفهم الإنجيل والبشرى للمنتظرين. وفيه بشارة بنبوته محمد ﷺ.
 5. ويتيسر به علم سياسة فاضلة موافقة لسياسة إلهية (وهو أصل للقوانين وردّها إلى الفطرة والعدل)
 6. ويتيسر به تطبيق شريعتنا بالعدل التام، وإثباتها بالعقل من جهة التشريع، وإكمال الدين بها.
 7. ويتيسر به فهم ما يعامل به الله تعالى عباده في الهداية والضلالة والرحمة والعذاب والرضى والسخط والتطهير والتبكي.
 8. ويتيسر به معرفة الرب تعالى من جهة صفته الملك والعدل والرحمة والحكمة، وتحقيق الطاعة والرضا بما قضى.
 9. ويتيسر به معرفة ما جعل الله من التعلق بين الأحوال الدنيوية والأحوال الدينية، وذلك التعلق ينكر به أهل الكبر والهوى، وثبوتهم من التأمل في ترتب آثار الأحوال الدينية على الأخلاقية، والأخلاقية على الدنيوية مما يجلب السعادة والشقاوة....¹
- إثبات الملكوت نقلاً وعقلاً: ثم إن الإمام الفراهي يتقدم خطوة إلى الأمام، ويبدأ حديثه عن إثبات الملكوت نقلاً وعقلاً، فلا يجد التوحيد يستقيم ولا الدين الحق إلا بإثبات الملكوت لله تعالى ولا يجد القلب يطمئن ولا العقل إلا به، فهو يلتفت إلى القرآن فيجده يقول: إن الله تعالى حاكم في الأرض والسماء، وليس شيء خارجاً عن ملكه، ويجده يجعل الملكوت قرين التوحيد يعني كما لا يتم الإيمان إلا بالتوحيد كذلك لا يكون الإيمان كاملاً إلا بمعرفة ملكوت الله في الأرض وفي السماء.

¹ نفس المصدر، ص 4-5

وإن القدرة إذا اختصت لله عزَّ وجل في الأرض وفي السماء، وهذه القدرة لا بد منها للقيام بالعدل والقسط في هذه الحياة الدنيا، ثم إن الله تبارك وتعالى بعدما صرح والإنسان يرى بنفسه أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وهو ينظر في دنياه أن كل ما حوله يجري بحكمه وهذا الكون كله مغمور بأنعمه ومسخر بأوامره فلا بد أن يكون الإنسان معترفًا بملكوته وقدرته في ما جعله الله فيه مخيرًا.

فهو يقول تحت عنوان "إثبات الملكوت نقلًا وعقلًا":

"من أعظم المعارف وأهمها التي لا يستقيم التوحيد ولا الدين الحق ولا يطمئن القلب ولا العقل إلا بها ما هدانا إليه القرآن وجعلها قرينة للتوحيد، هي معرفة ملكوت الرب تعالى وعدله، وإن الله تعالى حاكم في الأرض والسماء وليس شيء خارجًا عن ملكه وكل شيء يجري حسب رضاه وإذنه وتصريفه بالرحمة والعدل والحكمة ولذلك له الحمد في السماوات والأرض كما جاء في سورة البروج: "الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد" (9) وفي سورة الملك: "تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير" (1) وفي أول سورة الحديد: "سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم. هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير. له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور. يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور" (6)، وفي سورة الزخرف: "وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم (84) وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون" (85).

ومثلها كثير ثم ما صرح فيه من تصرفه في العالم من إنزاله المطر وإنباته الشجر، وتقديره الأقوات، وتسخيره قوى الأرض والسماوات وكذلك ما طرح من تصرفه في البواطن من الهداية وإعطاء السكينة والنور والوحي والتوفيق فكثير جدًا.

فهذه عقيدة اتفق فيها العقل والوحي وإنما لم نذكر دلائل العقل لوضوحها، فإن الإيمان بصفاته تعالى من كمال قدرته وإحاطة علمه وحبه العدل والحق لا يدع محلاً للشك في أن كل شيء يجري حسب حكمه وحكمته، ولا تصرف في الأرض ولا في السماء لأحد على ضد حكومة الله تعالى".¹

فإذا اتضح الأمر أنه قد اختص بالملكوت في هذا الكون فلا بد أن يكون له الحكم والأمر.

فائدتان: ثم يبحث، رحمه الله، عما تعود به هذه العقيدة من المنافع في حياتنا، فهو يقول: "فبعد الوثوق بأن أمور العالم وحوادث الأمم تحت تصرف خفي وحكومة إلهية، ينبغي لنا تطلب أصولها وفروعها، لفائدتين:

(1) لكي نعمل بما يجلب الخير لنا.

(2) ولكي نؤسس قواعد السياسة على أصول الحكومة الإلهية، فنسوس الملك كما يقتضيه الأمر الإلهي. ويرتضيها ربنا الرحمان".²

فهذا يعني أن تكون الحياة كلها خاضعة لأمر الله، كما يعني أنه لا بد أن تكون السياسة حسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية والأحكام الربانية والرضا من الله جلّ جلاله. فالنكتة الأولى تتصل بالإنسان على مستواه الشخصي والنكتة الثانية تتصل به على مستوى المجتمع.

معنى الإيمان غير الإيقان: ومن المعروف في الأوساط الدينية أن الإيمان هو الإيقان وهو المعتبر عند الله، فلا حاجة للمرء بعد الإيمان بشيء، والإيمان لا يطلب منه إلا الإيقان، ولكن الإمام الفراهي رحمه الله يقدم معنى آخر وهو معنى سياسي للإسلام مع الاعتراف بالمعنى الأول وهو الإيقان:

فهو يقول تحت عنوان "للإيمان أيضاً معنى خاص، وهو الإيقان، ومعنى سياسي":

¹ نفس المصدر، ص 6-7

² نفس المصدر ص 20

"ولكن للإيمان معنى أخص مما ذكرنا، وهو الإيقان... ومن هذا الاستعمال خيّل إلى بعض العقول أن الإيقان هو كل الإيمان المعتبر عند الله، وأنه الجزم المحض، وإذن كيف يزيد بالعمل، أم كيف يكون العمل ركنًا له؟ فإن الجزم والعمل متباينان. وخيّل إلى هذه الطائفة أن هذا الرأي الذي رآه الإمام أبو حنيفة رحمه الله، فأبرموا ما زعموا، وتكلفوا في آيات واضحة وأمر بين.

وأما أنا فالظاهر عندي أن الإمام رحمه الله نظر إلى المسئلة نظر الفقيه والقاضي والأمير في جريان الشرائع من الوراثة والنكاح، والخراج، والجزية، وسائر الأحكام السياسية... وفي هذا الإيمان يتساوى بعضهم ببعض، ولا زيادة ولا نقصان فيه. فإن السياسة لا تبحث عما بين المرء وربه. وإنما يكشف عنه يوم القيامة".¹

أصول الحكومة الإلهية: وكان الرجل يعزم أن يأتي على أصول تقوم عليها الحكومة الإلهية. حيث قال:

"ونحن الآن نذكر أصول الحكومة الإلهية كما أخبرنا الله تعالى في كتابه العزيز الحكيم، وكما أَرانا في تاريخ العالم وجريان مقاديره".²

فإمامنا الفراهي كان يريد أن يأتي بأصول الحكومة الإلهية من نصوص القرآن، ولكنه لم يستطع أن ينجز ما أراد وكانت الفكرة مهمة جدًا، وعسى أن يوفق الله شخصًا حتى يملأ هذا الفراغ.

موقفه من الأنظمة الأخرى: أولًا: موقفه من الرأسمالية: في بداية القرن العشرين ونهاية القرن التاسع عشر بدأ العالم يتحرك وظهرت في ذلك الزمن الأيدلوجيات والأنظمة الجديدة، فالرأسمالية والاشتراكية كلها من نتاج ذلك العصر، والإمام الفراهي هو عاش وترعرع في نفس الزمن، وحاول بأن يقيم سدًا على تلك الفيضانات التي كانت تسيل من الغرب إلى الشرق فهو وإن لم يظهر في الميدان

¹ تفسير نظام القرآن للفراهي، الدائرة الحميدية، سرائير، أعظم كره، ص 397-398

² في ملكوت الله، ص 21

فقد قاد الركب الإسلامي في ذلك الزمن، فهو يقول في قضية الربوا التي هي من أساس النظام الرأسمالي وقد تزلقت فيها كثير من علماء المسلمين استدلالاً بأن هذه الربوا كان يأخذها صناديد ورؤساء العرب من الفقراء، وفي يومنا هذا، تكون الربوا جائزة فإنها تكون معاملة الأغنياء والرؤساء مع أمثالهم، ولكن الإمام الفراهي يقول في تفسيره لسورة البقرة إن حال العرب في تعامل الربوا لا يختلف شيئاً عما عليه حالنا اليوم وهذا ما ترشدنا إليه الآية الكريمة ويقول في تفسيره لسورة البقرة:

"وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم" يلوح من هذه الكلمات أنهم كانوا يأخذون الربوا من ذي ميسرة والقريش كانت تجاراً وأصحاب الربوا فلا أرى فرقاً بين حالهم وحال أبناء زماننا في الربوا والله أعلم¹.

وثانياً: موقفه من الاشتراكية: وهو يتحدث عن الاشتراكية في كتابه "في ملكوت الله":
"الاشتراكية حسنها بعض الحكماء مثل لائي كركس (lycurgus) مقنن أسباطه وأفلاطون ووضعها على أمة ولكنها لم تبق لاختلاف الاستعدادات وهي الآن أيضاً يدعو إليها بعض الدعاة ويتهالك عليها العامة ولكنها ممقوتة عند الأمراء والأغنياء فصارت مثاراً للتخالف والتشاكس في الأمة واشترأت منها فتنة لا تكاد تطفأ لظاها. قال الله تعالى: أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾" (32:43)².

فهو يعتبر الاشتراكية فكرة قديمة نقلت من أهل اليونان وهم قد فشلوا في تطبيق هذه الفكرة ولكن بعض الناس في هذا العصر الجديد يدعون إليها وهذا أمر متأكد أنها لا تعود إلا بالخراب والفساد للعالم كله فإن الرازق هو الله وحده ولا يشرك في حكمه أحداً.

¹ تفسير سورة البقرة (تفسير نظام القرآن)، الدائرة الحميدية، سرائير، أعظم كره، تفسير الآية: 280.

² في ملكوت الله، ص 46

وثالثاً: موقفه من الفوضى والنظام اللاهكومي (Anarchism): وجعل بعض من الإشتراكيين يقولون بأنه لا حاجة إلى الحكومة فإنها تنور بها المفاسد كلها، وعلى الإنسان أن يحل مشاكله بنفسه وهذا ما يقال له في المصطلح الجديد (Anarchism) أي: لا حاجة إلى الحكومة بل يكفي النظام اللاهكومي فهو يقول:

"الفوضى كانت ممقوتة عند العرب ويعدونها من أمارة الحمق، ولكن الآن قامت لها الدعاة في المغرب واستغفوا بها العامة، وهي كأختها (الاشتراكية) مثار للفتن وهدم للنظام الإنساني. قال تعالى: (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ؛ 59:4) ثم قال تعالى: (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ 38:42)" ¹

ورابعاً: موقفه من الملك في حين وآخر: بعد انحطاط الخلافة الراشدة استولت على الحكم الإسلامي قبيلة بعد قبيلة على تغاير الزمان، من الأموية إلى العباسية وما إلى ذلك على مر العصور.

ولكن نرى الإمام الفراهي لا يقر بهذا النظام الموروثي ولا يستحسنه، فهو حينما يتحدث عن السلطنة فهو يقسمها إلى اثنتين ثم يرجح الأولى منهما:

"السلطنة قسمان: 1- حرة 2- ومعبدة. وكلتاها ترتفع وتنحط بأسباب تناسها ولكن الأولى أقوى وأحكم. ونبين أسباب بقائهما وزوالهما.

أما الحرة فلا بد فيها: من بناء الأمور على الشورى، ثم كون الإمارة غير موروثية من أب إلى الابن، ثم عدم الحشم والجند الخاص لحفظ السلطان، ثم عدم اختيارهم في العطاء والمنع إلا على خدمة ملية جمهورية، ثم عدم غناه، ليكون كأحدهم ولا يهاب إلا من جهة منصبه، ثم حماية شديدة منه ومن الناس أن لا يذلوا، ولذلك كان عمر رضي الله عنه لا يحب للمسلمين عقاباً مهيناً ثم إكراماً لغيره والأنفة وأهلها وتربيتها فيهم.

¹ نفس المصدر، ص 46

أما المعبدة فلا بد لبقائها: من محبة الناس للملك وأولاده، حتى ينتهي إلى العبودية كدأب فرعون وأكبر المغولي ولذلك الاختيار المطلق في الإعطاء والمنع، والسخاء والسرف، والعقاب المهيمن. ثم الجهد في قطع حبال الرعية من بينهم إلى أن يكون الملك هو واسطة العقد، وإفناء كل عزة وفخر إلا ما يعطيه الملك. ولذلك كله أن يقوى شوكته بالجند الخاص فإذا تم أمر السلطنة المعبدة كان الناس كالأعضاء والجوارح للنفس، وتصرفها كيف شاءت....¹

ولكنه يقرّ بالملك ويعتبره شيئاً لا بأس به إذا تخربت الخلافة بسبب ما ولا بد لكل شيء من الأسباب والخلفيات وطبعاً لا بد من النظام فإنه إذا لم يكن هناك نظام يكون الأمر خطير جداً. يقول الإمام الفراهي:

"ثم إذا فسدت العامة اتبعوا من يوافق أهواءهم فساعدوا أهل الجور وجعلوهم أولي أمرهم، وحينئذ وقعوا في مفسدة أكبر مما قبلها، وهي أن هؤلاء وكلاء السوء قلما تجتمع كلمتهم على إمام عادل قوي. فإذا اختلفت الكلمة اشرأبت الفتنة وتهدم الصلاح، ولذلك هو أكبر الأدواء وأعدى عدو الملة. فيرجع عليهم وبأل فسادهم. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما أعمالكم عمالكم) فأضاعوا الحرية وسلبوا نعمة الخلافة التي بنيت على القسط والحرية اللتين أعطاهم ملكوت الله. وجلبوا على أنفسهم ذلة الطاعة لمن يقهرهم فأول ما يفعل هؤلاء الجبابرة أنهم يسلبون الأمة وأولى أمرهم حق انتخابهم أميرهم. وحينئذ تبطل الخلافة وتنوبها الملكية.

والملكية مع كونها أدون من الخلافة، هي خير من إبطال الحكومة بالكلية. ثم هي أحسن ما يمكن لمصلحة أمة غير صالحة لفقد أولى الأمر فإنهم لا يتبعون أحداً ويعجب كل امرئ بنفسه....²

¹ نفس المصدرن ص 32

² نفس المصدر، ص 25-26

لا بد من الخلافة: يؤكد الإمام الفراهي على ضرورة الخلافة والسياسة الإسلامية بأنه لا يمكن أداء الحقوق ولا يمكن القيام بالقسط إلا أن تكون هناك خلافة إسلامية، ولكن الحصول على هذه النعمة الكبرى ليس بأمر سهل، فهذا يحتاج إلى الإيمان الخالص مع القيام بما يقتضيه الإيمان من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخوة الصادقة بحيث يكون الأمر والنهي بالتضامن والتعاون، فهو يقول في تفسير سورة العصر:

"ولا يخفى أن الله تعالى جعل ذمة الأمر والنهي على أمراء الأمة وأئمتهم، كما تفهم من قوله تعالى: ولتكن منكم أمة (سورة آل عمران: 104). ولكنه تعالى جعل التواصي فرضاً عاماً.

فدلنا على أصل الأمر، وهو أن المؤمنين غير موفين بذمتهم حتى أن يعملوا الصالحات، ثم يساعد بعضهم بعضاً في أداء الحقوق الواجبة عليهم، والاستقامة عندما تزل أقدامهم. ولا يستتب أداء الحقوق إلا بعد إقامة الخلافة والسياسة، ولا يتم التثبيت عليه إلا بعد الإذعان لها".¹

وكذلك يقول: "وأما الصالحون فهم ملح الأرض، ورثاب الفتق، وأساة الخلق يحسون ويألمون لا لأهل زمانهم فقط، بل لمن يأتون من بعد. فتوسع نطاق مواساتهم كتوسع الخلائق، وبهذا استحقوا وراثته العالم، وخلافة ربهم. فما يطلبون إلا صلاحاً عاماً، وهو الحق والقسط والحكمة والرحمة".²

اختيار الخليفة وإذعان الناس لأوامره: من يكون الخليفة؟ ومن يقوم باختياره؟ ثم ماذا يكون كيفية الأمر والنهي؟ وماذا يكون دور الشورى فيه؟ وماذا يجب على الناس تجاه خليفهم؟ هذه هي بعض الأسئلة تثور حول الخلافة، فهو يجيب عن جميع هذه الأسئلة:

¹ تفسير نظام القرآن للفراهي، الدائرة الحميدية، سرائير، أعظم كره. ص 389

² نفس المصدر، ص 401

"وجعل الخلافة جماع الحرية، لبنائها على الاختيار وإنما جعلوا واحدًا منهم على أنفسهم حاكمًا لكونه من أنفسهم وأعلمهم بمصالحهم وأرحمهم. والمال الذي يأخذ، هو فيه أمينهم، فيرده عليهم وهو منهم وهكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الفداء إن له خمسًا وهو مردود عليهم.

هذا هو جهة الذمة الأصلية، ولكنه مطاع لما أنهم أعطوه الحكم، فلا يعصى ولا يتهم فيما يفعل وإذا أخلصوا في الإجماع على خيرهم، رزقوا خيرهم. وكما أن الحاكم عليهم من هو خيرهم، أعلمهم بالتدبير، وأتقاهم لله، وأقومهم في العزم، فذلك الذين يعينونه بالمشورة ويساعدونه بإنقاذ الأمور، وهؤلاء هم أهل الحل والعقد وموضع السر والرأي. وهم المسلمون بأولي الأمر فالحاكم مع أولي الأمر يجري الأمور على سنة القسط، وهو مركزهم ونظامهم وواحد منهم. والجمهور مأمور بإطاعة أولي الأمر، فإنهم أعلم بمصالحهم منهم، فطاعتهم لأولي الأمر ليست إلا بالاختيار والحرية. ولا يكون أحد من أولي الأمر إلا بما ظهر من صالح أعماله، فأذعن له الناس طوعًا، وعظموه حبًا، واعتمدوا على رأيه مصلحة، فجعلوه وكيلًا في أكبر الأمور وهو انتخاب الأمير. فانه أمر ذو خطر عظيم ومع ذلك صعب جدًا. والقرآن هدى إلى كل ما ذكرنا، وعمل السلف به، فصار لنا سنة..."¹

أوصاف الخليفة: ثم يذكر أوصاف الخليفة ويؤكد من أوصافه على العقل والبصر بالحق أكثر من العلم المجرد لأن العقل هو الحاكم والعالم.

ثم لا بد أن يكون تقيًا ويوجد عنده التواضع ويكون أبعد الناس عن طلب الرئاسة لتواضعه وخوفه ولكن بعد تفويض الأمر إليه يكون أكثر الناس جهدًا لإقامة القسط ولا يستبد بالرأي بل يكون مستشيرًا بالناس لحسن ظنه بالناس وفوق كل ذي علم عليم ويستشير للانتفاع بآراء أرباب العقول.

¹ في ملكوت الله، 24-25

والشيء الأخير الذي يذكره في أوصاف الخليفة هو التثبث فهو يقول: "فاذا اتضح له الحق لا يصرفه عنه صارف".¹

تأسيس الجماعة الإسلامية والإمام الفراهي: وفي نهاية المطاف يثور سؤال إذا كانت قضية السياسة واضحة عند الإمام الفراهي على هذا القدر. وقد عرفنا فيما مضى. فما الذي منع الإمام أن يقوم بتأسيس حركة إسلامية تروم إقامة الحكومة الإلهية؟

قد أجاب عن هذا السؤال الإمام الفراهي نفسه، كما ذكر عنه العلامة أمين أحسن الإصلاح رحمة الله² أنه خطب في يوم من الأيام وسلط الأضواء على ضرورة النظام الإسلامي الخالص وأهميته. فتأثر بعض المستمعين وقال لو أن النظام الإسلامي من الضرورة هكذا، فمدّ يدك أبايك ولا أرى شخصاً أحسن منك لهذا العمل. ولكن الأستاذ لم يجبه بشيء ثم قال بعد ذلك ما خلقي الله لهذا العمل، والعمل الذي أستطيع أن أقوم به هو تمهيد الطريق لفهم القرآن الكريم، وإذا اكتمل هذا العمل فسيفتح الله الطرق للعمل بطريق إسلامي صحيح.³

أزيد فأقول إن الإمام الفراهي رحمه الله ولو لم يقم بحركة تهدف إلى إقامة الحكومة الإلهية لكنه مهّد الطريق للإمام أبو الأعلى المودودي، رحمه الله، حتى يقوم بتأسيس "الجماعة الإسلامية" التي تسعى وتتطلع إلى إقامة دين الله وإعادة الخلافة الراشدة، يقول الشيخ صدر الدين الإصلاح رحمة الله عن نفسه⁴ "صحيح أنني وجدت الحركة والحماس من كتابات الأستاذ المودودي، رحمه الله،

¹ نفس المصدر، ص 29-30

² كان من تلاميذه وقد امتاز بين تلامذته بتأليفه تفسيراً كبيراً باسم "تدبرقرآن" حسب المستطاع على أسس وقواعد أرشده إليه أستاذه الفراهي.

³ أضواء على سيرة الإمام الفراهي في بداية ترجمة نظام القرآن بالأردنية، الدائرة الحميدية، سرائير، أعظم كره

⁴ من أعلام الحركة الإسلامية في الهند وقام باختصار تفسير المودودي باسم "تلخيص تفهيم القرآن" وهو نفسه بدأ بتفسير ولكن لم يوفق بالإكمال وقد وقف عند سورة البقرة وله كتابات قيمة باللغة الأردية.

العدد الخاص مجلة الهند

لكن هذه الفكرة كانت موجودة عندي من قبل والحمد لله، وكان هذا من بركات الإمام الفراهي، التحقت بمدرسة الإصلاح سنة 1929م وكنت في المراحل الأولى من الدراسة إذ توفي الإمام الفراهي. فتعلمت على تلاميذه أولي العلم والفضل وكنت أسترى القراءة والنظر في كتبه المطبوعة والمخطوطة مما كانت محفوظة في الدوايب هناك. فهذه الكتابات لها دور كبير في صياغة ذهني صياغة إسلامية".¹

وقال، رحمه الله، عن الإمام المودودي "إن المودودي رحمه الله كان يقول بأن الإمام الفراهي عن طريق كتبه وإلقاءاته وأحاديثه، قد ألهم مشاعر الناس حتى يتحركوا لإعلاء كلمة الله وكان يعني بهذا القول أن شخصاً لو قرأ ما كتبه الفراهي فمن اليقين أنه يشترك ويتحرك للعمل الذي تعمله الجماعة الإسلامية".²

ثم هذا لا يحتاج إلى قول قائل فإن الذين رافقوا المودودي في أول الأمر هم كانوا من مدرسة الإمام الفراهي على حد كبير مثل العلامة أمين أحسن الإصلاحي، والعلامة اختر أحسن الإصلاحي والشيخ صدر الدين الإصلاحي والشيخ أبو الليث الإصلاحي والأخير كان أميراً للجماعة الإسلامية لعموم الهند في حياة الإمام المودودي وما إلى ذلك من العلماء الكبار رحمهم الله جميعاً.

هذا ما تيسر لي في كتابة الموضوع وإن أحسنت فالشكر لله وإن أخطأت فأتوب إليه واسأله التوفيق لما يحب ويرضى.

¹ قال هذا الكلام في حوار جرى بينه وبين جريدة "الدعوة"، العدد الخاص بمناسبة 50 عاماً على الجماعة الإسلامية، 7 من نوفمبر سنة 1991م. ص 26.

² نفس المصدر، ص 26.

الأستاذ عبد الحميد الفراهي والعلوم الحديثة

- أ.د. أبو سفيان الإصلاحي¹

كان العلامة حميد الدين الفراهي (1863-1930م) يتصف بكثير من الجهات القرآنية كما له مهارات وخبرات في العلوم والفنون المختلفة، وكان العلامة شبلي النعماني لعب دورًا مهمًا لبناء شخصية الأستاذ الفراهي وتعليمه وتربيته، وقد شهدت علامات الفضل والكمال على شخصيته الفذة في ميادين مختلفة من ترجمة القرآن وتفسيره والأدب العربي والفارسي واللغة الإنجليزية وعلم الكلام والفلسفة والتعليم والتربية، لكن الجانب الأبرز من شخصيته هو شغفه الشديد بالقرآن الكريم ودراساته الأخرى. جعل دراسة القرآن والتدبر فيه شغله الشاغل واعتبره مركزًا لجميع أشغاله العلمية. يبرز هذا الجانب جليًا مما قاله معاصروه لاسيما ممثل لمدرسة شبلي النعماني العلمية السيد سليمان الندوي فيه: "كان الفراهي قد اشتغل ثلاثين سنة طوالًا بفهم القرآن وتدبره وتدرسه، وكان القرآن شغله الشاغل فيه".

رغم هذه الحقيقة أشغال الأستاذ الفراهي التعليمية والتدريسية ونشاطاته في مجال التأليف والتصنيف كانت قد ارتكزت على العلوم الدينية وخاصة على الدراسات القرآنية، وإن العلوم الجديدة والفنون العصرية ما كانت شجرة ممنوعة لديه وإن كان معارضًا شديدًا بأن نعتبرها غاية للحياة بالنسبة إلى تدريس العلوم الدينية الأساسية، وكانت وجهة نظره نحو العلوم والفنون أن العلم هو علم القرآن الكريم في الحقيقة وإن سائر العلوم تنمو من جذره فليجعل الطلاب هذا الكتاب هدفًا حقيقيًا لحياتهم وتدرس العلوم الأخرى كوسيلة للحصول على العلم الحقيقي وتستخدم لنشر العلم القرآني فكان الأستاذ حميد الدين الفراهي يعتبر جميع العلوم لازمة ومفيدة بدون تفريق بين القديم والجديد، كان يظن أن

¹ بروفييسور، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره، الهند

العلوم القديمة والجديدة تكون مساعدة لنا في فهم معاني القرآن ومفاهيمه وفي هذا الزمن الراهن قد استفاد الكتاب الغربيون من خرائته ومعارفه.

يتجلى من دراسة حياة الأستاذ الفراهي التعليمية أنه كان ملتقى جمياً لتيار التعليم (القديم والجديد) ومن الصعب أن نقرر أنه عين أولاً مراحل تعليمه المختلفة وقضاها حسب برنامجه رويداً رويداً ولكن لا يمكن أن ينكر أنه اهتم بالانتفاع من الطريقتين القديم والجديد واستفاد من النظام التعليمي الجديد مع الفراغ من مقررات التعليم الرائجة في النظام التعليمي الإسلامي القديم ومما يثير العجب أن تعليم الأستاذ الفراهي الشرقي تم بيد الأساتذة الذين كانوا متبحرين في العلوم المختلفة على طريق فردي حسب ذلك العصر بينما كانت دراسة العلوم الجديدة رهين التعليم الرسمي للمدرسة والكلية والجامعة إلى حد كبير. تلقى الأستاذ الفراهي التعليم الابتدائي للغة الفارسية من الأستاذ مهدي حسن الجتاوري بعد الفراغ من تجويد القرآن الكريم وحفظه واستفاد من ذي قرباه العلامة شبلي النعماني في ميدان اللغة العربية وآدابه بالإضافة إلى اللغة الفارسية وفي نفس المرحلة أنه سعد بمرافقة العالم الممتاز وأستاذ العلامة شبلي النعماني الأستاذ فاروق الجرياكوتي فتجلت مؤهلاته العلمية، وبالإضافة إلى الاستفادة بالشخصية محلياً سافر الأستاذ الفراهي لحصول العلم حسب المسلمين القدامى وحضر دروس الأستاذ عبد الحي الفرنجي محلي مدة في لكتناؤ واستفاد منه في ميدان الفقه الإسلامي خصوصاً. وأخيراً ذهب إلى لاهور لإكمال مقررات الأدب العربي من الأستاذ فيض الحسن السهارنفوري وهكذا بعد التمهيد في الأدب الفارسي والعربي والعلوم الدينية لفت الأستاذ الفراهي عنايته بالعلوم الجديدة وبدأ يتعلم اللغة الإنجليزية وكان تعلم اللغة الإنجليزية إذ ذاك يعتبر كفضلاً كما قال الأستاذ السيد سليمان الندوي. وبعد إلمام باللغة الإنجليزية قضى مراحل مختلفة للتعليم الجديد على طريق منظم ونجح في امتحانات المدرسة الثانوية أولاً فالمدرسة المتوسطة وتلك من مدرسة كرنل كنج، إله آباد ثم التحق بالكلية المحمدية الإنجليزية الشرقية (M.A.O. College) وأكمل مقررات البكالوريوس بها سنة 1895م وكانت هذه الكلية تابعة في ذلك العصر

لجامعة إله آباد- وكانت الامتحانات تنظم من قبل جامعة إله آباد، يذكر عامة أن الأستاذ الفراهي أحرز شهادة البكالوريوس من جامعة إله آباد، ساحت للأستاذ الفراهي الفرصة للحصول على العلوم الجديدة رسميًا وغير رسمي خلال قيامه بعلي جراه في ذلك العصر وجب على كل طالب أن يختار إحدى اللغتين؛ العربية والفارسية لأنها لازمة لجميع الطلبة- لكن الأستاذ الفراهي كان متقنًا فيهما من قبل، لذلك استثنى من تلك الحصة وبذلك ساحت له فرصة للاشتغال بالمواد الأخرى، اعتنى هناك بالحصول على اللغة الإنجليزية والفلسفة الجديدة اعتناء بالغًا وفي تلك الأيام كان عالم الفلسفة المعروف والمستشرق الممتاز آرنولد من أساتذة الكلية، فاستفاد الأستاذ الفراهي منه ونشأت فيه رغبة في الفلسفة الجديدة من تدريسه ومباحثه العلمية وكان الأستاذ الفراهي يريد أن يلتحق بالمجستير بالإضافة إلى البكالوريوس في القانون ولكن لم يستطع أن يحضر الامتحان في أي منهما رغم استعداداه. لذلك يمكن أن يقال أن الأستاذ كان يحمل موهبة جيدة في اللغة الإنجليزية مع تكميل البكالوريوس في الآداب. يدل على ذلك اختيار الأستاذ آرنولد إياه لترجمة كتاب حول موضوع قواعد اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية سنة 1896م كما اتضحت هذه الناحية من رسالة للعلامة شبلي النعماني، وبالإضافة إلى ذلك حينما وضع لورد كرزن نائب ملك بريطانيا في الهند برنامجًا لسفره إلى سواحل العرب وخليج فارس سنة 1913م لزيارة رؤساء وسادات العرب، احتاج إلى مترجم يرافق الوفد ويتمهر في اللغتين العربية والإنجليزية فاختير الأستاذ الفراهي لهذا العمل ممثلًا له أمام العرب أيضًا، والأستاذ الفراهي لم يكن راضيًا عن أداء هذه الخدمة لأجل طبيعته الخاصة المائلة إلى التقوى والانعزال عن الناس ولكن قام بهذا العمل على إلحاح من العلامة شبلي النعماني.

كان الأستاذ الفراهي بدأ التفكير والتدبر في القرآن الكريم منذ تعلمه في علي جراه، ثم بدأ التصنيف والتأليف مع المشاغل التدريسية أيضًا حول هذا الموضوع، وهذه المشاغل استمرت في العثور على العلوم التي كان يعدها مساعدة ومعاونة في دراساته وبحوثه على سبيل المثال حينما كان من (أوائل 1907م إلى شهر مايو

العدد الخاص مجلة الهند

1908م) يعمل كأستاذ مساعد للعربية من كلية ايم- اي- او- وتعلم اللغة العبرانية من رئيس قسمه العالم الألماني الأستاذ جوزف هارويز وأنشأ فيها موهبة فائقة في فترة وجيزة، حتى جعل يستفيد من الكتب العبرانية مباشرة كما يتضح جلياً من دراسة مصنفاته العديدة في التفسير وعلوم القرآن.

ليس الهدف من هذه التفاصيل ادعاء أن الأستاذ الفراهي كان أول عالم هندي حصل على العلوم القديمة والجديدة وقدم نموذجاً جيداً للجمع بين التعليم الشرقي والتعليم الغربي بل المقصود إيضاح أنه ناول الدراسة الجديدة حسب حاجته وعنايته بالإضافة إلى شغفه الخاص بالعلوم الدينية والأهم من ذلك أنه استخدم مواهبه هذه في دراساته الدينية والعلمية وخاصة في ترويج علوم القرآن وتطويرها كما يظهر مما يلي:

أما إلمامه باللغة الإنجليزية فقد وسع نطاق دراساته وبحوثه باستخدامها واستفاد من كتابات الباحثين للآداب ناقداً خلال تأليفاته في مختلف المواضيع القرآنية. درس معجم الكتاب المقدس ودائرة المعارف أيضاً بالإضافة إلى كتب بعض الجغرافيين خاصة أثناء تحقيقه للمواضع التاريخية المذكورة في القرآن الكريم، وقد صنف رسالة في الرد على عقيدة الشفاعة والكفارة للنصارى ولا توجد هذه الرسالة إلى الآن. وذكرها السيد سليمان الندوي في مقدمته على الكتاب "الإيمان في أقسام القرآن" للفراهي وفي ترجمته يوجد أن إنجليزا أسلمت على يد الأستاذ الفراهي سنة 1913م، لا يمكن أن ينكر بإمكان مساعيه التبليغية بهذه اللغة، ولا يكون غير ملائم أن يذكر بعض من المشاريع الخطيرة المتعلقة بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية وترجمة بعض الكتب الإنجليزية القيمة إلى اللغة الأردية، وفي أوائل القرن العشرين مست الحاجة إلى ترجمة للقرآن موثوق بها إلى اللغة الإنجليزية لاستخدامها في نشر الإسلام وتبليغه واستفاد بالمتقنين الجدد من المسلمين الذين لهم خبرات واسعة في اللغة الإنجليزية وإن جميع تراجم القرآن الكريم باللغة الإنجليزية إلى ذلك الوقت ترجمها الإنجليز، فبذلك عرض العلامة شبلي النعماني اقتراح إعداد ترجمة إنجليزية

للقرآن الكريم في حفلة ندوة العلماء السنوية التي انعقدت بدهلي، في (مارس 1910م) فهذا الاقتراح ناول قبولاً عاماً من قبل المساهمين فيها فمست الحاجة إلى المثقفين المسلمين الذين يحضون بذوق خاص للقرآن الكريم مع المهارة في اللغتين العربية والإنجليزية، تكونت لذلك لجنة تشتمل على الأستاذ الفراهي والنواب عماد الملك من حيدر آباد والأستاذ محمد صالح من بهاولپور وتقرر أن النواب المحترم يترجم أولاً ويقوم الآخرون بإصلاحها وأكمل النواب المحترم الترجمة إلى ستة عشر جزءاً ثم حينما انتقل الأستاذ الفراهي إلى حيدرآباد كعميد دار العلوم فقام النواب المحترم بإصلاح مع الأستاذ الفراهي على ترجمة أربعة أجزاء، لكن لما رجع الأستاذ الفراهي من هناك سنة 1907م لم يستطع النواب أن يستمر في عمله وحيداً لأجل مرضه وضعفه، حتى توفي سنة 1926م، لا نعلم ما لقيت هذه المسودة المصححة وفي رواية أخرى أنه اقترح ترجمة إنجليزية أخرى للقرآن الكريم في أمانة بوفال فقدّم اسم الأستاذ الفراهي لهذا العمل أيضاً، والمشروع الثاني الأهم للترجمة الذي انتى إليه الأستاذ الفراهي، كان مشروع نقل مصنفات اللغة الإنجليزية المفيدة إلى اللغة الأردية تحت إشراف لجنة المترجمين التي أسّست في علي جراه في سنة 1907م، كان هدفها أن يتعرف المسلمون على منتجات أوروبا العلمية ويستفيدون منها، كان لها اثنا عشر عضواً في ديسمبر 1907م واختير الأستاذ الفراهي والأستاذ وحيد الدين سليم رئيس التحرير لها، بالإضافة إلى تصحيح الترجمة وإصلاحها كان عليهما أن يعدّا معجماً لتوضيح للمصطلحات الإنجليزية العلمية إلى اللغة الأردية وتوفير بدائلها في اللغة الأردية، بالإضافة إلى ذلك حينما ابتدئ عمل إعداد المقررات الدراسية للجامعة العثمانية بحيدرآباد سنة 1917م فأسّست لجنة لنقل المقررات الدراسية باللغة الإنجليزية إلى اللغة الأردية ونقل المصطلحات العلمية إلى اللغة الأردية وكان الأستاذ الفراهي عضواً لها وأخدم معرفته للغة الإنجليزية في أداء وظائفها، بالإضافة إلى ذلك ترجم الحكايات الناصحة للحكيم آصف من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية، وهذا الكتاب أصبح جزءاً لمقررات المدارس الإسلامية المختلفة.

اتضح مما مضى آنفاً أن الأستاذ الفراهي كان عارفاً باللغة العبرانية أيضاً. وإن كانت هذه اللغة لا تتعلق بالعلوم الجديدة، لكن يبدو ذكرها مناسباً من حيث أن تعليمها لم يكن شاملاً في المقررات الدراسية الرائجة للعلوم الشرقية. كان الأستاذ الفراهي تعلمها بنفسه واستعملها لخدمة العلوم الدينية، كما نحن نعرف أن الأستاذ كان يعتني بدراسة الصحف السماوية لتفسير القرآن الكريم بمعونة من هذه اللغة، سنحت له الفرصة للرجوع إلى نصوص التوراة والإنجيل الأصلية بسبب معرفته لها واستفاد من التوراة والإنجيل في تعيين مفاهيم المصطلحات وتحديد الأعلام وتحقيق المواطن التاريخية الجغرافية المذكورة في القرآن الكريم، وتوجه إلى تقديم الحقائق في مؤلفاته في مسائل مختلفة بإقامة الحجة ضد أهل الكتاب وبكتهم أنفسهم. على سبيل المثال استفادها في تحقيق كلمة " التين " وإثبات شخصية إسماعيل عليه السلام كذبيح، بالإضافة إلى أمثلة عديدة للرجوع إلى التوراة والإنجيل في تفسير سور مختلفة للقرآن وكتبه عن القرآن لاسيما مفردات القرآن، وبالإضافة إلى ذلك توجد أمثلة عديدة للمراسلات بين العلامة شبلي النعماني والأستاذ الفراهي في " رسائل شبلي " لتعيين مفاهيم بعض المواضع والكلمات المذكورة في القرآن الكريم في ضوء التوراة والإنجيل ومن بين الرسائل المخطوطة للفراهي "الإكليل في شرح الإنجيل" و"الطريف في التحريف"، أولاهما في شرح الأناجيل والثانية تبحث عن قضية تدوين التوراة والإنجيل وتكشف عن التحريف فيها بالمقارنة بين نسخها وبالإضافة إلى ذلك ترجم الأستاذ الفراهي أمثال سليمان ومواعظه منظومة من اللغة العبرانية إلى اللغة الفارسية القديمة (دري). طبع هذا الكتاب باسم "خرد نامه" من حيدرآباد خلال قيامه بها (1914م-1919م).

كانت الفلسفة الجديدة من بين العلوم العصرية موضوعاً خاصاً للأستاذ حميد الدين الفراهي، أنشأت صحيفة العلامة شبلي النعماني والأستاذ آرنولد هذا الذوق فيه حتى دخل في عمقه بدراساته الذاتية، وأكبر دليل على ميزته في هذا الفن أن العلامة شبلي أيضاً كان معترفاً وحامداً بنفسه حينما تم الإصلاح في مقررات ندوة

العدد الخاص مجلة الهند

العلماء الدراسية وكان العلامة شبلي آنذاك مسؤولاً عن الشؤون التعليمية أدخل كتاب الفلسفة الجديدة "الدروس الأولية" في العلوم الطبيعية (المطبوع من بيروت) في المقررات الدراسية. أكد العلامة شبلي النعماني مراراً على الأستاذ الفراهي أن يدرّس هذا الكتاب في ندوة العلماء وكان الأستاذ الفراهي في ذلك الوقت في مدرسة الإسلام بكراتشي، لذلك اقترح العلامة شبلي أن يجيء الأستاذ الفراهي إلى ندوة العلماء على إجازة فترة قليلة أو يقيم في الندوة بشهرين أو ثلاثة في العطلة ويدير الطلبة هذا الكتاب. وكتب العلامة شبلي مرة: إن يمكن لك أن تفرغ بعض أوقاته في كراتشي لتدريس هذا الكتاب، ويرسل بعض طلابه إليه، وبالإضافة إلى ذلك كتب إليه مرة أنه حينما كان يرجع إلى وطنه فيأتي إلى الندوة ويصحب معه بعض الطلاب ويدرسهم تفسيره وهذا الكتاب أثناء قيامه في وطنه، ويشير بيان السيد سليمان الندوي أن الأستاذ الفراهي كان يدرس الطلبة القرآن الكريم و"الدروس الأولية" أيضاً في الندوة، حينما كان يذهب إليها. ويقول السيد سليمان الندوي "ذهب الأستاذ الفراهي مرات عديدة إلى الندوة على إلحاح من أستاذه العلامة شبلي ودرس الطلبة الفلسفة الجديدة حيناً والقرآن الكريم حيناً آخر، وكنت طالباً في الندوة حينئذ فاستفدت من دروسه كذلك، وعندما رجع الأستاذ الفراهي من كراتشي إلى علي جراه سنة 1907م وتوظف كأستاذ مساعد للغة العربية في كلية ايم- اي -او فعرض العلامة شبلي اقتراحاً في لجنة الندوة الإدارية، أن يرسل طالب إلى علي جراه لكي يدرّس الأستاذ الفراهي "الدروس الأولية" والهيئة الجديدة واستطاع أن ينال تجربة عملية هناك من الآلات المتعلقة في بيت الآلات، ابتداءً العمل على هذا الاقتراح أيضاً، لكن انقطعت هذه السلسلة بسبب انتقال الأستاذ الفراهي إلى كلية ميور بإله آباد، يمكن أن يفهم من هذه التفاصيل أن العلامة شبلي كان راغباً إلى حد بعيد في أن يدرّس الأستاذ الفراهي طلبة الندوة هذا الكتاب في الفلسفة الجديدة، يؤيد ميزة الأستاذ الفراهي في هذا المجال أنه حينما أسست "لجنة علم الكلام" على حفز من العلامة شبلي في سنة 1912م فالعلامة شبلي كان يريد بواسطتها أن يختار من المثقفين المسلمين الجدد من يرغب في الفلسفة، اختير عدة منهم ومن العلماء من

يتمهر في الفلسفة القديمة ويلمّ بالعلوم الجديدة ويقدر على الرد على اعتراضات الفلسفة الجديدة وكان يريد أن هذه اللجنة تبحث عن تلك المسائل التي كانت ضد الإسلام وتحاول الرد على "الاعتراضات التي ترد على الدين ولذلك اختار العلامة شبلي النعماني لهذه اللجنة الأستاذ المفتي عبد الله التونكي والأستاذ شير علي الحيدرآبادي وسيد رشيد رضا المصري من العلماء والدكتور محمد إقبال والأستاذ حميد الدين الفراهي والأستاذ عبد القادر الباغلفوري المثقفين الجدد، لم يبلغنا التفصيل عن نشاطات هذه اللجنة ولكن لا يمكن أن ننكر أهميتها وفوائدها.

والجدير بالذكر عن مساهمة الأستاذ الفراهي في العلوم العصرية، أنه قرّر تعليم العلوم الطبيعية في دار العلوم بحيدرآباد أثناء رئاسته، والأهم من ذلك أنه عرض أمام أرباب الأمانة في حيدرآباد أن تدرس العلوم العصرية باللغة الأردوية، وكان يرى أن تجعل اللغة الأردوية وسيلة لتعليم جميع العلوم إلا أصول الدين، وخلفية هذا الاقتراح أنه كانت إذ ذاك مساعي لترقية دار العلوم إلى جامعة شرقية تحت إشراف ولاية حيدرآباد ووضعت لذلك خطط وبرامج، قدّم الأستاذ الفراهي خطة تفصيلية حسب تصوره أمام مسؤول الشؤون التعليمية وبرز من رواية شهيرة أن الجامعة العثمانية صورة عملية لذلك التصور.

ويجدر بالتوضيح هنا أن الأستاذ الفراهي استفاد في الميدان العلمي من الطريقتين: القديم والجديد ولكن لم يكن طريقه تقليدياً بل كان بحثياً وتحقيقياً، يظهر من دراسة مؤلفاته ورساله استخدام مصادر متنوعة. ولا شك في أن الأستاذ قام بالأسلوب التحليلي والاستدلالي خلال كتاباته وكان يراجع مصادر مختلفة قبل تقديم رأيه على أي موضوع ولا يقبل أية وجهة فكرية إلا بعد البحث الطويل والدراسة المتأنية مثل الناقد الجوهري فلم يكن يقدم رأياً حول أي موضوع إلا بعد استقصاء جميع نواحيه في ضوء الشواهد والدلائل. وعلى سبيل المثال أنه أثبت في كتابه القيم "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" أن الذبيح إسماعيل عليه السلام، ففي هذا الأمر استفاد من المآخذ الكثيرة وتفحص آراء اليهود

واعتراضاتهم ناقدًا، ورفع الستار عن أقوالهم المفترة، وقدم ثلاثة عشر دليلًا من التوراة نفسها في تأييد رأيه، ثم دعم رأيه بأدلة من القرآن الكريم. هذا الأسلوب النقدي والطريق التحقيقي والطراز التحليلي للأستاذ الفراهي يتجلى في غير هذا من مؤلفاته من أمثال "إمعان في أقسام القرآن" و"مفردات القرآن" و"نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" كما يقول مفكر الإسلام ومفسر القرآن الكريم السيد أبو الأعلى المودودي عن مستوى بحثه وتحقيقه:

"كان العلامة الفراهي محققًا فذاً والتزم طريق التفحص والتتبع الذي اختلف من أساليب المفسرين الآخرين، والمعاني التي أخذها لهذا الأسلوب الخاص والمفاهيم التي حددها بها، فيها مجال للاختلاف كالاختلاف في تحقيق المفسرين الآخرين، لكن من محاسن أسلوبه أنه وسّع وجهة نظر القارئ، وهابه لفهم معاني القرآن الكريم ومفاهيمه إلى ميادين التحقيق والتفحص والمواد العلمية لذلك يجد من لا يتفق مع نتائج بحثه أيضًا خزانة علمية قيّمة في بحوثه وتحقيقاته ولا يمكن أن يستغني عنها ويغمض عينه".

قدّم العلامة الفراهي نموذجًا مثاليًا للتحقيق في كتاباته وقام باستعراض نقدي في ضوء القرآن الكريم لكافة العلوم والفنون ولاسيما العلوم التي تستخدم في فهم القرآن الكريم، فدل على نقائصها وضعفها وأوضح أنها لا تستطيع أن تكون ممدّة ومعاونة في تدبر القرآن الكريم على طريقة صحيحة، لذلك يجب أن ترتّب وتدوّن من جديد في ضوء القرآن الكريم. في الحقيقة كان الأستاذ الفراهي داعيًا ومترجمًا لفكرة أن يجعل القرآن الكريم أساسًا ومركزًا لجميع العلوم الجديدة والقديمة ومثابة للناس، لكي يتصل جميع العلوم بالمنبع الحقيقي، ويجدر بالذكر أن ذلك لم يكن تصورًا محضًا بل وضع برنامجًا جامعيًا ومنهجيًا شاملًا للباحثين والكتّاب وبدأ يعمل عليها ولكنه لم يوفق لتكميلها، إلا أنّ كتاباته المطبوعة وغير المطبوعة في علم النحو والبلاغة وأصول الفقه والمنطق وعلم الكلام والفلسفة وعلم السياسة وغيرها، توضح فكرته لتدوين العلوم من جديد في ضوء القرآن الكريم

ولا يسع الاعتناء لي بالتفصيل في هذه العجالة لكن يجب علينا إظهار هذه الحقيقة أن فكرة الأستاذ الفراهي لها أهمية خاصة بشأن تدوين العلوم من جديد إذ يشعر بعض الأوساط العلمية في المسلمين بشدة ضرورة تكوين العلوم والفنون من جديد (Islamisation of Knowledge) في ضوء المبادئ الإسلامية وابتداءً تأليف الكتب وكتابة المقالات وعقد الندوات والمؤتمرات حول هذا الموضوع. والجدير بالاهتمام أن الأستاذ الفراهي رفع، قبل ثمانين أو تسعين سنة، هتاف تجديد العلوم والفنون وتدوينها من جديد وأوضح الأصول الأساسية والاقتراحات الهادية لها وقدم دليلاً أولوياً عملياً لها، لذلك يمكن أن يقال أن الأستاذ الفراهي هو رائد هذه الفكرة. ولنعلم كذلك أن مساعي الأستاذ الفراهي لم تكن رياضة ذهنية وممارسة علمية نظرية للتحقيق والتفتيش وتدوين العلوم والفنون من جديد فحسب بل كانت تدفعها عاطفة عالية وهي عاطفة الإصلاح الفكري للأمة المسلمة وكان يرى الفراهي أنه يجب لذلك أن تتصل جميع علوم المسلمين بالقرن الكريم وتمحق الأفكار والنظريات التي دخلت في عالمهم الفكري من طرق مختلفة ويمهد الطريق لفهم القرآن الكريم لتمكن الهداية منه في مختلف نواحي الحياة بسهولة. أنظروا كيف تمر عاطفة الأستاذ الفراهي هذه في العصر الحاضر بأن أكبر ترجمان للفكر الفراهي الأستاذ أمين احسن الإصلاحي لم يكن مؤلفاً ومحققاً أكاديمياً فحسب بل كان تدفعه عاطفة عميقة للإصلاح وكان يرى الإصلاح الفكري لازماً قبل الإصلاح العلمي، ووضع أساس هذا الإصلاح الفكري على القرآن الكريم، وباستعراضه لجميع العلوم والأفكار في ضوء القرآن، كان يريد إنهاء الأفكار والزوايا الباطلة التي تسربت في مختلف أنحاء الفكر وفي جانب آخر كان يسعى لكي يمهد السبيل الوسط إلى القرآن الكريم للتفكير في جميع أنحاء الحياة وقضاياها.

المصادر والمراجع

1. Coherence in the Qur'an لمستنصر مير، إندين بولس، الولايات الأمريكية المتحدة، 1983، ص 125
2. امام فراهي كي قرآني أفكار للبروفيسر عبيدالله الفراهي (ترتيب)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم جراه، 2013م
3. إمعان في أقسام القرآن للمعلم عبد الحميد الفراهي، المطبعة السلفية، القاهرة، 1348هـ
4. حياة حميد للأستاذ عبد الرحمن ناصر الإصلاحي (ترتيب)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم جراه، 1973م
5. ذكر فراهي للدكتور شرف الدين الإصلاحي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم جراه، 2001م
6. علامة حميد الدين فراهي: حيات وأفكار (مقالات الندوة الدولية حول الأستاذ عبد الحميد الفراهي) ترتيب: البروفيسر عبيدالله الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم جراه، الطبعة الأولى، 1992م
7. مفردات القرآن للأستاذ حميد الدين الفراهي (تحقيق وشرح: الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي)، دار العرب الإسلامي، ط1، 2002م
8. مولانا حميد الدين الفراهي، مفسر ومحقق للبروفيسر أبو سفيان الإصلاحي، قرآنك ريسرچ سينتر، كبير كالوني، علي جراه، يوبي، 2008م
9. مولانا حميد الدين فراهي كي بنيادي أفكار للبروفيسور أطفاف أحمد الأعظمي، البلاغ ببلي كيشنز، نيو دهلي، 2010م
10. نظم قرآن للبروفيسور عبيد الله الفراهي (ترتيب)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم جراه، 1994م

الجانب الاقتصادي في فكر الإمام الفراهي

- أ. د. عبد العظيم الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: د. أورك زيب الأعظمي²

إذا نظرنا في الآراء الاقتصادية للعرب قبل قرن وجدنا أن هناك مذهبين مشهورين للاقتصاد يحاربان ويحاول أحدهما أن يغلب على الآخر لحاظاً لفعليهما وما يردّانه وهما الرأسمالية والاشتراكية ولما ظهرت هذه العلوم في الشرق في بدء القرن العشرين لم يوجد ممن انتقدها وخالفها من العلماء المفكرين في العلوم الاقتصادية والقضايا الاجتماعية إلا قليل فأرعبوا منها ولم يهدوا إلى سبيل سوي وسط. والإمام الفراهي لم يبحث عن القضايا الاقتصادية بالتفصيل ولكنه ألقى عند البحث عن القضايا الأخرى آراء تسهّل لنا السبيل إلى تعيين مذهبه في الاقتصاد ففيما يلي دراسة وجيزة تلقي الضوء على مذهبه في الاقتصاد بعد النظر فيما قبل الرأسمالية والاشتراكية وما بعدهما. وإنما نبحت عن جانبه هذا لأنه قد خفي على من كتب عن حياته وأفكاره. وكذا يظهر لنا من هذه الدراسة أنه، رحمه الله، كيف كان يرى ما ذاع فيما بيننا من آراء الغرب وأفكارها.

النظام الرأسمالي والربا:

إن الملك القاهر والمتجرد عن مكارم الأخلاق والاستغلال الباطل والفرق المتصاعد بين أهل الغنى وذوي الفقر من أهم مظاهر النظام الرأسمالي، والسبب الرئيس في تطوّر هذا النظام هو الربا فالرجل العامل يكسب المال على تلك ويأخذها ممن صرف من عامة الناس مضافة إلى تكلفة الإنتاج. ويدل على أهمية الربا في هذا النظام أن خبراء علم الاقتصاد الكلاسيكيين قد عدّوها سلاحاً أوتوماتيكياً يرى

¹ بروفييسور، قسم الاقتصاد، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره، الهند

² مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وأدائها بالجامعة المليية الإسلامية (نيو دلهي)

وظيفة مستقلة بالمعيشة.¹ ولا يعني هذا الموضوع تفصيل ذلك الإجمال ولكن لا يخلو هنا من السرور أن نشير إلى أنه كيف نالت الربا تلك المنزلة في المعيشة؟

قد نهي عن الربا في الكتب المنزلة قبل القرآن بل وقد أبغضها فلاسفة يونان أيضاً كما خالف علماء المسيحية كل نوع من الربا حتى منتصف العصور المتوسطة ولكن لما جمعت الأموال الخطيرة والأراضي الكثيرة عند الكنائس بعد الحروب الصليبية وجعلت تنمو التجارة والصناعة ثار سؤال: هل ربا كل نوع من سعر الفائدة والعوض المقصود على رأس المال ممنوعة أو فيها تخصيص وتحديد؟ وإذا نظرنا في تاريخ الأفكار الاقتصادية في العصور المتوسطة وجدنا أنه قد ناقش عنه العلماء المسيحيون مناقشة حادة فأولاً خالفوها شديداً ولم يجيزوا أي نوع منها ولكن لما ذاعت المادية مع التجارة والصناعة واشتركت الكنائس نفسها في ذلك انهمز هؤلاء العلماء قائلين: إنما منع عن الربا التي تؤخذ على الديون المالية، وأما الربا التي تؤخذ على الديون الإنتاجية فهي ليست ممنوعة عنها. وهكذا عاملوا مع سعر الفائدة فالربا التي سعرها كثير لا تجوز ولكن السعر القليل جائز، وسمّوا الأول ربا والآخر فائدة فقد رقى هذا الفرق التجارة الربوية والبنوك التي بنيت على الربا واستحوذ على العالم كله من كل جانب.²

والجدير بالذكر أن المسلمين بدأوا يتفكرون على مثل ذلك الظراز قبل بدأه في أوروبا بقرون فقد استدل الإمام فخر الدين الرازي (ت 1210هـ) في تفسيره بدلائل عديدة على النهي عن الربا على الديون الإنتاجية ولعله أول من نظر فيها عن جهتها الاقتصادية.³

موقف علماء الإسلام في بدء القرن الراهن:

وفي ختام القرن التاسع عشر وبدء القرن العشرين قد أحاط مباشرة أو غير مباشرة جميع الأقاليم الإسلامية سلطة الغرب السياسية والفكرية والاقتصادية وقد

¹ Macroeconomic Analysis، ص 5

² انظر لمزيد البيان حول هذا الموضوع:

Economic Concepts of Ibn Taimiya لكاتب هذه المقالة

³ التفسير الكبير، 92/5

استحوذ عليها نظامها الرأسمالي استحوادًا لا تتجاوزه فكراً وتدبرًا فجعلوا يسعون لتحليل أفضع عناصرها المعروف بالربا فيصور تلك الحالة فلم كاتب فاضل قائلاً:

"وقد أنشأت السيطرة السياسية والاقتصادية والرعب الحضاري والفكري بين المسلمين جماعة نظن بمستواها العلمي السافل وذكائها الفاقد الإنتاج وبدنائتها وقلة همتها، وجهتها للحياة وقيمها وتراثها العلمي والحضاري حفيرة رذيلة ونفيس كل ما يأتيها على مقياس أفكار الغرب وحضارتها وليس مدى علمها وجدتها إلا تأييد أفكار الغرب المتداولة بلسان الإسلام وهكذا تعاملها مع الربا ولأنها ما كانت تقدر على تصميم نظام المعيشة غير الربوي وتشكيله وتحقيقه وترويجه، لقلة همتها إلى أن تأول شيئاً فظيغاً وتحلل ما حرّمه الإسلام أشدّ تحريم".¹

فأعيد ما استدلووا في القرون المتوسطة من الدلائل والبراهين وادّعي بأن الديون التجارية والإنتاجية وما يربى عليها كانت فقيدة في الغرب وهذا أمر جديد حديث فالديون في ذلك العصر القديم كانت للحاجات الذاتية والأغراض المالية فما يربى عليها فلا جرم أنه ربا وأما ما يؤخذ من المترفين والتجار زائداً على ديونهم فليس ربا، إنما هو فائدة وقد نظر الدكتور فضل الرحمن الغنوري في كتابه "الديون التجارية تاريخاً وفقهاً" في تلك الدلائل بإمعان وردّ عليها ردّاً مفحماً فمن يرغب في الموضوع فليدرس ذلك الكتاب.²

موقف الإمام الفراهي:

قد سوى الإمام الفراهي بين كل نوع من الربا حينما كانوا ينصرفون في تيار تلك الدلائل واستدل بالقرآن الحكيم على أن أكثر أصحاب الربا كانوا ذوي ميسرة وتجارة فقال لدى تفسيره لآية الربا:

¹ الديون التجارية تاريخاً وفقهاً، ص 1

² المصدر نفسه

"وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدّقوا خير لكم" يلوح من هذه الكلمات أنهم كانوا يأخذون الربا من ذي ميسرة والقريش كانت تجارًا وأصحاب الربا فلا أرى فرقًا بين حالهم وحال أبناء زماننا في الربا والله أعلم¹.

والاستدلال بالقرآن الحكيم على إقراض المترفين وأخذ الربا عليه نكتة لم أقف- على حد دراستي- عليها عند أحد من العلماء وهذا يدل على فهمه الموهوب للقرآن الكريم. يقول الشيخ أمين أحسن الإصلاح في تفسيره الأردوي "تدبر قرآن" وهو يوضّح تلك النكتة:

"ونرى في عصرنا هذا بعض أهل الدناءة والخساسة يدعي بأن الربا التي كانت متداولة بين العرب قبل نزول القرآن هي ربا أصحاب التجارة بالفقراء والمساكين كانوا قد اضطروا لمحض حاجاتهم الشديدة إلى أن يستسلفوا أصحاب التجارة وهؤلاء التجار كانوا يأخذون منهم أموالاً خطيرة من الربا وهذا هو الذي سمّاه القرآن بالربا والذي حرّمه أشدّ تحرّيم، وأما الديون التجارية التي يتداولها الناس في هذا العصر الحديث فلا كانت تعرفها العرب في ذلك العصر ولا تحدث القرآن عن تحرّيمها وإكرامها فقد ردّ القرآن واضحًا على قولهم هذا في هذه الآية الكريمة وذلك بأن أمر القرآن بأن ينظروا المدين إلى ميسرته إن يكن ذا عسرة، صدع بأن من المدينين من كانوا أغنياء وأصحاب أموال هائلة بل الحق أن الأسلوب يدل على أنّ كثيرًا ما يتداون الأغنياء ويتسالفون. نعم، من الممكن أن يكون هنا مدين لا يستطيع أداء رأس مال التاجر فأمر فيه القرآن بأن ينظره التاجر إلى أن يكون ذا ميسرة أو أن يعفو عن الرأس وهذا خير وأفضل. وإليه الإشارة في الآية لأنه قال: "إن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة" فكلمة "إن" لا تستعملها العرب للأوضاع العادية العامة وإنما هي مستعملة لذكر الأوضاع الشاذة النادرة والكلمة التي استعملتها العرب للأحوال العامة هي "إذا" فإن تأمل في ضوء ما قلت تجد واضحًا من كلمات الآية أن المدينين في ذلك العصر أكثرهم كانوا ذوي ميسرة

¹ تعليقات الإمام الفراهي على القرآن (مخطوط) وتفسير تدبر قرآن، 639/1

سوى بعض الأحياء فقد كان الوضع يضطر الفقير إلى ذلك أو أن قد صار فقيرًا بعده
فلذلك أمر القرآن بملاحظته خاصة".¹

وبعد هذا التوضيح لمذهب الإمام الفراهي في ركن خاص من أركان النظام
الرأسمالي "الربا" أريد أن ألقى الضوء على آرائه حول أنظمة اقتصادية مهمة.

نقد الإمام الفراهي لتفسير التاريخ المادي أو الاقتصادي:

قد بحث كثير من كتّاب الاشتراكية وعلى رأسهم ماركس عن رقي شتى أطوار المجتمع
فهم يرون أن للدوافع الاجتماعية دورًا رائعًا في تدهور وتقدم المجتمع في شتى عهود
تاريخ البشر ولم يزل الصراع بين وسائل ومناهج الإنتاج والمبادلة والفوائد
الاقتصادية قائمًا بدور حاسم في التاريخ وتصميم كيان المجتمع والفوائد التطبيقية.²
وما مضى من وجهة النظر للكتّاب الاشتراكيين وممارس يسرى بالتفسير المادي أو
الاقتصادي للتاريخ. والإمام الفراهي قد ردّ شديدًا على تلك الوجهة الماركسية في
ضوء القرآن. فيقول في كتابه "ملكوت الله":

"إن للتاريخ قسمًا ثالثًا دينيًا وذلك أن الوقائع مترتبة ترتيبًا أخلاقيًا وأن العالم
تحت قدرة الله تعالى وتصرفه ومن هذه الجهة ترى الكتب المقدسة متباعدة لسائر
كتب التاريخ فإن الأمة تسمو وتهبط حسب أخلاقه --- في سورة الأعراف ذكر من
محالب العذاب: الشرك والفساد في الأرض والفواحش والحرص وأن العذاب يأتي
بعد البلاغ ثم يمنعون ثم يؤخذون بغتة --- والإيمان والتقوى يجلب البركات ---".³

وإننا نستطيع أن نعيّن وجهة نظر القرآن للتاريخ في ضوء ما أجمله الإمام الفراهي
رحمه الله تعالى.

¹ تفسير تدبر قرآن، 1/638-639

² History of Economic Thought، ص 443

³ في ملكوت الله، ص 9

وجهات النظر الخادعة للاشتراك:

لما وقعت الثورة الصناعية وارتقت الاشتراكية تفاقم الفرق بين الأموال وكثرت البطالة وبدأ استغلال العمّال المجاهدين وظهرت القرى الكبيرة المنتنة ونزلت أنواع عديدة من الأسقام والأمراض فأذاع عديد من مفكري العلوم الاجتماعية وجهة نظر الاشتراكية في أن يقطع دابر الملك الذاتي وتملك الحكومة على وسائل الإنتاج ويستوي تحت أمرها جميع الناس في الفوائد الاقتصادية تمتعاً وحصولاً عليها. وبلغ ماركس (ت 1886م) تلك الوجهة غاية كمالها وتماها بالدلائل المنطقية ثم ظفرت الجماعة التابعة لوجهة نظره سنة 1917م بالخدع والغدر بالقيام بحكومة تابعة لها. وأما البحث عن حقيقة تلك الوجهة وفشلها في حل عقدة القضية الاقتصادية فلا يصعب ولا يشكل علينا لأن الحكومة الروسية يتشتت شملها وقد برّدت المساواة غير الطبيعية والاشترك الظالم حرّ التقلبات الاقتصادية تبريداً جعل هذا النظام في تاريخه الطويل فقيراً إلى البلاد الرأسمالية واليوم جعلوا يمهلون في حدود الملك الذاتي وكادوا أن يعتنقوا النظام الاقتصادي القائم على السوق (Market-system) لكي يستدركوا ما فاتهم ولكنه لما أسّس ذلك النظام قبل اليوم بسبعين عاماً قد أرعبت هتافاته الخادعة ودعاويه الفتانة كثيراً من الناس ولم يشعروا بماذا يخفى وراء هذه الحجب الغليظة من نظام الإكراه والحكم المطلق.¹

رأي الإمام الفراهي حول الاشتراكية:

قد استعان الإمام الفراهي عن هذا النظام بالقرآن الحكيم فنجد في كتابه "في ملكوت الله" قوله التالي عن الاشتراكية:

"الاشتراكية حسنها بعض الحكماء مثل لاني كركس مقنن أسبارطة وفلاطن ووضعها على أمة ولكنها لم تبق لاختلاف الاستعدادات هي الآن أيضاً يدعو إليها بعض الدعاة

¹ يعدّ عهد لاني كركس من 900 إلى 700 قبل المسيحية فقد رتب قوانين حكومة أسبارطة وجدد تصميم كيان المجتمع

وبتهالك عليها العامة ولكنها ممقومة عند الأمراء والأغنياء فصارت مثارًا للتخال المتشاكس في الأمة واشرب منها فتنة لا تكاد تطفأ نطاها. قال الله تعالى: أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات يتخذ بعضهم بعضًا سخرًا ورحمة ربك خير ما يجمعون".¹

وما علق الإمام مجملًا على الاشتراكية من رأي حر عادل صريح يعادل كتابًا ضخماً على هذا الموضوع فالاشتراكية المتطرفة الحديثة عنده لقمة ممضوعة لليونانيين الأقدمين فقد فشلت تلك التجربة من قبل وكاد التاريخ أن يعيد نفسه مرة أخرى لأن هذا النظام لا يمسه شيء من الفطرة ولأن طبائع الناس لا تستوي، لن يمكن أن يعامل الناس معاملة سوية ميكانيكية.

قد ظن بعض أصحاب الاشتراكية الفوضى منجاة وجعلوا ينشرونها كنظام للحياة الإنسانية ومنهم فيطرجوزف فترها دون (ت 1809م) وميخائيل باكونين (ت 1876م) فالحكومة عندهم أم الجرائم كلها فينبغي للناس أن يعالجوا قضاياهم وحدائلاً ولا حاجة لهم إلى حكومة تجمعهم على رصيف واحد² فالإمام الفراهي عدّ تلك الوجهة مضلة في ضوء التاريخ والقراءة فيقول:

"الفوضى كانت ممقوتة عند العرب ويعدونها من إمارة الحمق ولكن الآن قامت لها الدعاة في المغرب واستغروا بها العامة. وهي كأختها مثار للفتن وهدم للنظام الإنساني. قال تعالى: "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم" ثم قال تعالى: "وأمرهم شورى بينهم".³

من أهم أصول الاشتراكية أن المقصود هو الأصل ولو ظفر به بأي طريق وبعبارة أخرى أن هذا النظام لا يعبأ بالقيم الإنسانية إذا تحول دون مقاصده وأغراضه فقد ردّ عليه الإمام الفراهي بمقال عنيف.⁴ فليس الأمر كما زعم الظالمون أن

¹ في ملكوت الله، ص 46

² The Evolution of Economic Thought، ص 133-134

³ في ملكوت الله، المصدر نفسه

⁴ تعليقات الإمام الفراهي على القرآن

حسن الغاية محسن الذريعة السيئة" فالمقصود ولو كان لا يعبأ بالقيم الإنسانية والنظام الاشتراكي الذي يدعو في بعض الأحيان إلى وطأ القيم الإنسانية قد خالفها الإمام الفراهي وأيد نظام المعيشة الذي قد بني على القيم والأخلاق.¹

الختام:

وبالجملة فكما قطع الإمام الفراهي دابر النظام الرأسمالي لاسيما الربا وعدّه ضدًا لنظام الصدقات القرآني وفسادًا في الأرض عدّ الاشتراكية تمرّدًا على فطرة الإنسان القائمة على النظام القرآني للتقسيم والتسخير والتناصر وما يبدو بعد الرد على نظامي المعيشة المتحاربين والمتغالبين من المذهب الاقتصادي له يجدر له أن يسوّى نظامًا اقتصاديًا قرآنيًا يحرص على الصدقات والإنفاق دون الربا² ويعدّ الملك أمانة يستل عنها ربها يوم القيامة³ فقد أعطى الله تعالى النعمة ليعلم هل يشكر العبد أم يكفر وزعم الإنسان أن النعمة التي أعطاهها ربه قد نالها على علم وجهاد عنده مسبب للبغي والظلم⁴ وافتخاره بالملك والمال ينتج استعلاء وفسادًا في الأرض⁵ وأما الفرق بين الأوضاع والدرجات فهو لكي يتناصر الناس بعضهم بعضًا والفوز الحق في الآخرة وما هو إلا لمن اتقى.⁶

وكما قلت في البداية إن الإمام الفراهي ما كان خبيرًا بالاقتصاد ولم يبحث عن الأمور الاقتصادية ولكنه ما تشنت عند دراسة القرآن من أقواله عن اللطائف الاقتصادية يبدو منه أنه لو التفت إليه لأتى بمجموع طيب من الاقتصاد القرآني. وفوق كل ذي علم عليم.

¹ المصدر نفسه

² المصدر نفسه

³ المصدر نفسه

⁴ المصدر نفسه

⁵ المصدر نفسه

⁶ المصدر نفسه

المصادر والمراجع

1. الإمام عبد الحميد الفراهي: تعليقات الإمام الفراهي على القرآن (مخطوط)
2. الإمام عبد الحميد الفراهي: في ملكوت الله، الدائرة الحميدية، سرائر مير، أعظم كره، 1391هـ
3. أمين أحسن الإصلاحي: تفسير تدبر قرآن (بالأردوية)، فاران فاؤنديشن، لاهور، 1985م
4. أوسر جيكونب: The Evolution of Economic Thought، إيتش بي وورلد انك، نيويورك، 1971م
5. شاييرو: Macroeconomic Analysis، مطبعة هاركاؤست بريس جوفانريك، نيويورك، 1990م
6. عبد العظيم الإصلاحي: Economic Concepts of Ibn Taimiya، منظمة لوسيوستر الإسلامية، 1988م
7. فخر الدين الرازي: التفسير الكبير، المطبعة البهية المصرية، 1938م
8. فضل الرحمن الغوري: الديون التجارية تاريخاً وفقهاً (بالأردوية)، جامعة علي كره الإسلامية، 1967م
9. هيني ليوس: History of Economic Thought، ميكميلين، نيويورك، 1921م

منهج القرآن الكريم في تربية العقول

(قراءة في كتاب حجج القرآن للعلامة الفراهي)

- د. محي الدين غازي¹

الحمد لله الذي خلق الخلق ليعمهم برحمته، وخص الإنسان بالفكر والنظر ليسبغ عليهم أتم نعمته، والصلاة والسلام على نبي الحكمة والبصيرة والحجة والبرهان. وبعد.

القرآن الكريم كتاب توجيه وتربية، توجيه النفوس وإرشادها إلى الشريعة الإلهية وإلى الصراط المستقيم، وتربية العقول على الفكر والتدبر لتنال الحكمة ولترتقي إلى المدارج العلى.

تتناول هذه الورقة على وجه التحديد الجانب الثاني وهو دور القرآن الكريم في تربية العقول وكيف أنه يوقظ العقول لتعمل عملها، بعد أن كانت خاملة في كهوف الغفلة والخمول، ويعلم العقول كيف تنهج المنهج الصحيح في التفكير والنظر بعد أن كانت محتارة تتخبط في غياهب الحيرة.

إنه موضوع هام جداً، مع قلة الاعتناء به، فإن الذي ذاق طعم التدبر في القرآن الكريم يشعر بأنه وجد النور والهداية والطمأنينة وانشرح الصدر، وهو في نفس الوقت يشعر بأنه يعيش في بيئة تربية يجد فيها تحفيزاً متكرراً على إعمال العقل، ويمرّ بتدريبات عقلية تربي لديه ملكة التفكير، وتنهيه عن الغفلة في النظر والتدبر.

إن قلة وعي المسلمين لمكانة العقل ولأهمية الفكر والتدبر ولضرورة تربية العقول مع تأكيد القرآن الكريم على ذلك كله، من أعظم أسباب تخلفهم وتفريطهم في استخدام العقل في كافة شؤون الحياة، ولا سيما في الشؤون الدينية وخاصة في

¹ عميد، كلية القرآن، الجامعة الإسلامية شانتيرم، في كيرلا

العدد الخاص مجلة الهند

طلب العلوم والحكم المكنونة في القرآن الكريم والتي لا تنال إلا بإعمال العقل، وذلك أدى إلى تأخر الأمة عن ركب المجد، وإلى انتشار السخافات والخرافات في أوساطها، وإلى الخطأ الفاحش في وضع الأمور في محلها. وربّما إلى الخوف والفرار من المحاجة العقلية، ومن مواجهة الآراء المعارضة، ومن ثم وضع القيود الشديدة على الحرية في الرأي والتفكير. ولا سبيل إلى العودة إلى المجد إلا عن طريق العودة إلى كتاب الله تعالى ومن ثم إلى العقل الذي هو منحة ربانية عظيمة. يقول العلامة عبد الحميد الفراهي:

"إن أكثر الذين معظم همهم التدين والاشتغال بالكتاب والسنة يظنون أن طريق العقل مباين للتعليم الإلهي. فيزعمون بأن الإيمان مبني على إخبار من الأنبياء عليهم الصلاة وإنما عرفناهم بالمعجزات، فكل ما علمونا من الإيمان والشرائع تقبلناه بمحض إخبارهم. فإنه لو كان للعقل سبيل إلى علوم الدين لكنا في غناء عن الوحي. ولو لا ذلكلما مدح الله الإيمان بالغيب. ومن غلبة هذا الظن زعموا أن الشرائع كلها مبنية على أمر الله تعالى بها، فيلزمنا أخذها من غير طلب الحكمة فيها. وبما صاروا على هذا الرأي صُرفوا عن استعمال العقل والفكر في أمور الدين كلها، فكيف بالتفكير في دلائل القرآن.

والباعث الأصلي على هذا الرأي ما وجدوا عياناً من الخبط والشطط في المنتسبين إلى العقل من الفلاسفة والمتكلمين فأساؤا الظن بالعقول. ولكن قد تبين لي أن ضلالهم لم يكن من جانب العقل بل من تسلط التفلسف وتركهم طريق الفطرة التي هدى الله سبحانه إلها بكتابه وإرشادات رسله. فرأينا الحاجة إلى ذكر هذا الطريق ليركنوا إلى ما جاء به القرآن من الحجج البالغة والحكم البازغة، ومن الحث على استعمال النظر والفكر ومن مدح أرباب العقل والحجر".¹

¹ حجج القرآن للعلامة عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، 19-20. وهو كتاب لم يتح للمؤلف إكماله.

مكانة العقل في القرآن الكريم:

العقل نعمة عظيمة ومنحة جليلة من الرب الكريم، فهو "نور إلهي الذي يرفع الله به الإنسان على البهائم".¹ و"هو الميزان الفاروق بين الحق والباطل"² فبه يعرف الحق من الباطل، وبه يفرق الإنسان بين الكتاب الحق المنزل من الله وبين ما يوحى الشياطين إلى أوليائهم، ولقد كشف القرآن الكريم عن حقيقة العقل وأعطاه منزلة عظيمة، وهي منزلة حقيقية لم يعطها إياه إلا القرآن الكريم. يقول الفراهي:

"إن القرآن أكثر الكتب المنزلة خطاباً للعقل وتنبيهاً له على الدلائل العقلية ومدحاً للعقلاء وذمّاً للغافلين. وهذه من محكمات القرآن وبيناته لا يشك فيها أحد".³

وللعقاد كلمة رائعة حيث يقول:

"القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة. وتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه، ولا يأتي تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التي يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة، بل هي تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها".⁴

ويلاحظ القارئ أنه لم يرد في القرآن الكريم ذمٌ للعقل ولا ذمٌ لمن اعتمد عليه لا صراحة ولا إشارة، فلم يذكر الاعتماد على العقل كسبب من أسباب الضلالة، بل ذكر صراحة أن من أسباب الضلال الإعراض عن العقل. يقول الفراهي: "وأما

¹ المصدر نفسه، ص 175

² المصدر نفسه، ص 184

³ المصدر نفسه، ص 226

⁴ التفكير فريضة إسلامية لعباس محمود العقاد، ص 1.

العقل، فقال تعالى: وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ (سورة يونس: 100).
فصرح بلزوم الرجس بنبذ العقل. فمن لم يستعمل العقل لم يتميز بين الحق
والباطل والطيب والخبيث فلا بد أن يقع في كل شر".¹

ومما يلفت انتباه القارئ أن القرآن الكريم لم يتعرض لقضية التعارض بين الوحي
والعقل، مع أن الناس يدندنون كثيرًا حول هذه القضية. وذلك لأن القرآن لا يقرّ
أصلاً تصور وجود التعارض بين العقل والوحي.

يقول العلامة ابن تيمية:

"ما علم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع البتة بل المنقول الصحيح لا
يعارضه مع قول صريح قط. وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه فوجدت
ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها بل
يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع. وهذا تأملته في مسائل الأصول الكبار
كمسائل التوحيد والصفات ومسائل القدر والنبوات والمعاد وغير ذلك ووجدت
ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط بل السمع الذي يقال إنه يخالفه إما
حديث موضوع أو دلالة ضعيفة فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضة
العقل الصريح فكيف إذا خالفه صريح المعقول. ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون
بمحالات العقول بل بمحارات العقول فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه بل
يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته".²

إن الذي يفهم من القرآن الكريم أن العقل لا يتعارض مع الوحي مطلقاً.³
والتعارض الذي نجد ذكره كثيراً في القرآن الكريم هو الذي يكون فيه الوحي
والعقل والعلم في صف واحد والظن والهوى في صف معارض.

¹ حجج القرآن، المصدر السابق، ص 176

² درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار الكتب العلمية، 1 / 147

³ لا نجد في القرآن الكريم تقسيمات للعقل كما نجده عند كثير من الكتاب. وعلى سبيل المثال
الكلام التالي للشيخ يوسف القرضاوي: ومن أعظم ما عني به القرآن في مجالنا: هو تكوين

العلاقة بين العقل والوحي:

إذا كانت العلاقة بين العقل والوحي ليست علاقة تعارض وتباين البتة، فما هي العلاقة بينهما؟ والجواب أنها علاقة توافق من كل وجوه.

يقول الفراهي: "تعليم (الأنبياء) كان مما يُراه العقل فيقبله. كمن يهدي إليه أخوه الودود ثمرة من أرض بعيدة فيطعمه ويلتذ به كأنه كان مشتاقًا إليها من قبل".¹

ويقول: "وإنما جاء الوحي والرسول موافقًا له (أي العقل) كالنور للبصر".²

ويقول: "إن الإنسان بفطرته يهتدي بالعقل، وإليه يطمئن وبه يحتج على من خالفه. ومنه يأتيه العلوم كلها إما بالبداهة أو بالنظر والاستنباط. وأما الوحي فإنما جاء لتنبيه العقول وتسديده وتنويه أمره وتأيينه ولذلك حث كثيرًا على

العقلية العلمية... فهناك ما يمكن أن نطلق عليه "العقلية العامية" أو "العقلية الخرافية"، وهي التي تصدق كل ما يقال لها أو يعرض عليها، ولا تضعه موضع امتحان، بل تأخذه قضية مسلمة، ولا سيما إذا جاء من قبل من تعظمه، مثل الأجداد والآباء، أو السادة والكبراء. فتقول: إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، أو وجدنا ساداتنا على ذلك يسرون. وفي مقابل هذه العقلية المتبعة، توجد عقلية أخرى مخالفة لها مواصفاتها وخصائصها، وهي التي عمل القرآن بآياته المشرعة والموجهة على إنشاءها، وصياغتها، وإبرازها لتقوم بدورها في الحياة. ومن المقرر المعلوم: أنه لا يمكن أن يزدهر العلم، وتتأصل جذوره، وتمتد فروعها، بل لا يمكن أن ينشأ علم صحيح إلا في مناخ نفسي وفكري يهيئ للعقول أن تفكر، وللأفكار أن تتفتح، وللآراء أن تناقش، ولصاحب الحجة أن يدلي بحجته. وهذا ما يعمل القرآن على إيجاده في الحياة الإسلامية. وبعبارة أخرى: يعمل القرآن بدعوته القوية، وبتوجيهاته المتكررة على تكوين "العقلية العلمية" المتحررة التي لا ينهض علم إلا على عاتقها، فهو يرفض "العقلية الخرافية"، ويرفض "العقلية المقلدة" ويرفض "العقلية المتخرصة" ويرفض "العقلية المتبعة للهوى". (مفهوم العلم وتكوين العقلية العلمية في القرآن الكريم)

وملاحظتنا على النص المذكور هو أنه لماذا ننسب التقليد والتخرص والخرافة واتباع الهوى إلى العقل؟ فالعقل بإطلاقه يرفض كل ذلك ويأباه. ويبدو لي أن في هذا خطأ من مكانة العقل.

¹ حجج القرآن، المصدر السابق، ص 229

² المصدر نفسه، ص 185

التدبر والفكر، ومدح أرباب الفهم والنظر. ألا ترى إمامنا إبراهيم عليه السلام كيف احتج على الكفار بصريح العقل وهم تمسكوا بمحض الظن والتقليد. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (٥٦) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٨﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٦٠﴾ أَي هَلْ مَعَكَ حُجَّةٌ أَمْ تَسْخَرُ مِنَّا، فجاء بالدليل الواضح كما حكي الله عنه: قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٦١﴾ (سورة الأنبياء: 51-56). أي أنا على بصيرة وأرى الحق الصريح عياناً فأشهد به عليكم¹.

ويقول: "نجاح سعيهم في الرياضيات والهندسة وكثير من الطبيعات. ثم ضلالتهم في الإلهيات وتهاافتهم واعتمادهم على الظنون الواهية دليل على ضرورة النبوة: وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ" (سورة النور: 40). فإن أذكى الناس إذا تحمقوا في أمر فلا بد أن ذلك الأمر لا تستقل به العقول وإنما تكون فيه تابعة. ألا ترى البصر لا يستقل بنوره بل يستبصر بالنور الذي يأتيه فيفرح به ويقبله. فمن أغمض عينه عن النور الذي يدخل عليه ظلم نفسه وألقاها في الظلمة. فلذلك شأن العقل فطر لقبول النور فيطمئن به إذا وجد و يطلبه، ولكن غروره عن قبول الحق يسلب نوره².

الاهتمام بالدلائل العقلية في القرآن الكريم:

القرآن الكريم أكثر الكتب المنزلة خطاباً للعقل وتنبيهاً له على الدلائل العقلية، والدلائل المذكورة في القرآن الكريم وإن أسميناها دلائل النقل نسبة إلى كتاب الوحي الذي احتواها، إلا أنها في الأصل دلائل عقلية يعجز البشر أن يأتي بدلائل عقلية مثلها. وهذا أحد وجوه الإعجاز.

¹ المصدر نفسه، ص 174

² المصدر نفسه، ص 127

واهتمام القرآن الكريم بالحجة العقلية يعود إلى فطرة الله التي فطر الناس عليها، فإن الإنسان خلق حراً في فهمه وإرادته وهو مفطور على قبول ما يدعنه له عقله ومطالب به، فالأصل في الإنسان أن لا يقبل إلا بما يقبله عقله من غير تقليد بشخص أو بمعجزة، سواء في الأمور الدنيوية أو الأمور الدينية.

يقول الفراهي عن مكانة الحجة في الدين أنها "هي المعيار الذي يحكم به على الأديان كلها، فلو لا هي لكان الفرق بين الحق والباطل بمحض التحكم والمصادرة".¹

ويقرر بأن "الإيمان بالنبوة والوحي ليس إلا الإيمان بما يقبله العقل ويطمئن به القلب، ولذلك جاء الوحي بالدلائل".²

ويقول: "الحاصل أن محاجة الوحي لا تكون إلا بطريق العقل والفهم، ولذلك كثر في القرآن مدح التدبر والتفكير. والمراد من التدبر استعمال الفكر على وجه صحيح عقلي، فإن لكل قوة سوء استعمال".³

والحق أن إكثار القرآن الكريم للدلائل العقلية ودعوة الناس إليها من الحجج البازغة على أن القرآن حق وأنه وحي من الله. فإن الباطل هو الذي يخاف ويفر من المحاجة العقلية، وأما الحق فإنه رفيق العقل ومدعوم بالأدلة العقلية لا محالة. "فإن العقل ودين الفطرة على غاية الموافقة".⁴

يقول الفراهي: "اعلم أن سبيلنا سبيل العقل فلا نؤمن إلا بما يتقبله محض العقل ويطمئن به بالهدى الفطري. وإنما جاء الوحي والرسول موافقاً له كالنور للبصر. وصرح به الكتب المقدسة كثيراً والقرآن أكثرها تصريحاً".⁵

¹ المصدر نفسه، ص 197

² المصدر نفسه، ص 288

³ المصدر نفسه، ص 233

⁴ المصدر نفسه، ص 183

⁵ المصدر نفسه، ص 185

منهج القرآن الكريم في تربية العقول:

إن منهج القرآن الكريم في تربية العقول يمكن أن يتلخص في الآتي:

أولاً: إناطة تربية العقول بأعمالها: وهو مطابق لفطرة الإنسان في تنمية الطاقات كلها، فإن تربية العقول لا تتم بإعطاء جميع المعلومات النافعة والحكم المفيدة جاهزة وإنما بإيجاد مناخ مشجع لإعمال العقل وبتاحة فرص الفكر والتدبر. وهذا هو سنة الله في العطاء، فإنه لم يعط جميع العلوم دفعة واحدة، وإنما أناط الحصول على العلوم باجتهاد البشر في البحث والتحري، وكذلك لم يفتح جميع خزائن الأرض على البشر الأول، وإنما يكتشف الإنسان على مر الزمن وبمشيئة الله كلما بحث شيئاً جديداً. يقول الفراهي: "اعلم أن الضروريات هُيأت للمخلوقات، ثم هدوا إلى ما هو أعلى فأعلى، فركبت فيهم القوى وهديت إلى ما قدرت لها من المنازل وألهمت العمل حسبما أودعت، كما قال تعالى: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۖ (سورة الأعلى: 2-3). أي هدى كل قوة لما قدر لها من العمل والمنزل. وذلك بأنها لو عطلت لم تكمل، فإن نشأتها بكدها وجهدها، وبأن حقيقتها البروز. والخلق أولاً إبراز من العدم، ثم إبراز ما أودع الخلق من القوى بعد بروزها، كما قال تعالى: (الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّاءَ فِي السَّمَنَاتِ وَالْأَرْضِ (سورة النمل: 25). وقال: خَلَقًا مِّن بَعْدِ خَلْقِ (سورة الزمر: 6). فأعطي الخلق حسبما استعد، كما قال تعالى: وَءَاتَيْنَاكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ (سورة إبراهيم: 34). فهذه سنة الله في جريان خلقه وربوبيته. فعلى هذا الأصل جاء القرآن بأوليات الهداية من التوحيد والشرائع على غاية الوضوح، ولكن علق تربية العقول بأعمالها، ولا سبيل إليه إلا بذلك".¹

ثانياً: جعل القرآن الكريم نفسه موضع التدبر والفكر: إن القرآن الكريم ليس كتاب أوامر ونواهٍ، وليس كتاب ترغيب وترهيب، وليس كتاب أخبار ومعلومات

¹ المصدر نفسه، ص 131

شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ (سورة يونس: 44). وكذلك قال تعالى: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ (سورة البقرة: 256).¹

ثالثاً: الحث على النظر والفكر: القرآن الكريم يحث على الفكر والنظر واستخدام العقل والحجر ويمدح العاقلين ويذم الغافلين. وذلك في آيات كثيرة ومواضع عديدة، حتى أصبح وجوب الفكر والنظر وإعمال العقل من محكمات القرآن.

يقول سيد قطب في تفسير قوله تعالى: وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ (سورة يونس: 100):

"فالذين عطلوا عقولهم عن التدبر، يجعل الرجس عليهم. والرجس أبشع الدنس الروحي، فهو لاء ينالهم ذلك الرجس بسبب تعطيلهم لمداركهم عن التعقل والتدبر، وانتهأؤهم بهذا إلى التكذيب والكفران".²

يقول العقاد: "والذي ينبغي أن نثوب إليه مرة بعد مرة أن التنويه بالعقل على اختلاف خصائصه لم يأت في القرآن عرضاً، ولا تردد فيه كثيراً من قبيل التكرار المعاد. بل كان هذا التنويه بالعقل نتيجة منتظرة يستلزمها لباب الدين وجوهره ويترقبها من هذا الدين كل من عرف كنهه وعرف كنه الإنسان في تقديره... فليس في هذا الدين إذن من أمر يتجه إلى الإنسان من طريق الكهان، ولن يتجه الخطاب إذن إلا إلى عقل الإنسان حرّاً طليقاً من سلطان الهياكل والمحاريب أو سلطان كهانها المحكمين فيها بأمر الإله المعبود فيما يدين به أصحاب العبادات الأخرى".³

رابعاً: تصريف الناس عن المعجزات الحسية إلى الدلائل والآيات: الآيات التي ترافق رسالة الأنبياء لإثبات نبوتهم ودعم دعوتهم قسماً: الآيات الحسية

¹ المصدر نفسه، ص 221

² في ظلال القرآن لسيد قطب، دار الشروق، 1822/3

³ التفكير فريضة إسلامية، ص 12

العدد الخاص مجلة الهند

الظاهرة والتي تسمى المعجزات، والآيات المعنوية وهي الدلائل الموجودة في كتاب الله ودلائل الكون التي تنبه إليها آيات الوحي. فالذين سلمت فطرتهم من الأمراض وقد نبذوا التقليد والهوى وأعملوا عقولهم، يؤمنون عن طريق الآيات المعنوية من غير أن يطلبوا المعجزات الحسية، وأما الذين في قلوبهم مرض وعطلوا عقولهم، فيطالبون بالمعجزات الحسية الظاهرة ولا يؤمنون بها حينما تعرض عليهم، لما في قلوبهم من سيطرة الهوى والعناد.

فالآيات الحسية لا تفيد كثيرًا في تحقيق مقصد الهداية، لأن الفئة التي تصدّق الرسالة للآيات المعنوية لا تحتاج إلى الآيات الحسية عمومًا، وأما المعرضون عن الآيات المعنوية فلا يذعنون للآيات الحسية عمومًا، إلا أنها تقيم الحجة على المكذابين وتثبت المصدقين المؤمنين.

ولما كانت الآيات المعنوية تخاطب العقول والأفئدة حيث أنها تمنحها البصيرة وشرح الصدر واليقين، وليست كذلك الآيات الحسية الظاهرة حيث أنها تحيّر العقول وتبهّر العيون، فالقرآن الكريم ينبه إلى الآيات المعنوية كلما يطلبون الآيات الظاهرة، ويوقع التوبيخ على الذين ينكرون ويطلبون المعجزات مع أن الله قد بيّن الآيات والدلائل في كتابه.¹

ونلاحظ ذلك جليًا في الآيات التالية:

¹وللعقاد كلام رائع عن المعجزات في الإسلام فقد قال: والإسلام دين المعجزات التي يراها العقل حيثما نظر، وليس بدين المعجزات التي تكف العقل عن الرؤية وتضطره بالإفحام القاهر إلى التسليم.. وعلينا أن ندرك أن المعجزة معجزتان كي نطلب المعجزة التي ينبغي أن نطلب، ونتورع عن طلب المعجزة التي لا تجدي أحدًا من العقلاء.. فالمعجزة التي تتجه إلى العقل موجودة يلتقي بها من يريدونها حيثما التفت إليها، ولكنها غير المعجزة التي تقنع من لا يقتنع بتفكيره، ومن لم يقتنع بتفكيره فلن تهديه المعجزة من ضلال.. والإسلام دين متناسق مستجيب للفهم وللموازنة بين الأمور، فهو دين المعجزات في كل شيء، ولكنه ليس بدين المعجزة التي تفحم العقل ولا تقنعه، لأنه دين العقل.. والتفكير فريضة فيه. (انظر: التفكير فريضة إسلامية. ص 80)

"وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشْتَبِهْتُمْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ [البقرة: 118، 119]

"وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١١٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿١١٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٢٠﴾ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٢١﴾ [العنكبوت: 48 - 51]

قال ابن عاشور:

"كونه مما يتلى، فإن ذلك أرفع من كون المعجزات الأخرى أحوالاً مرئية لأن إدراك المتلو إدراك عقلي فكري وهو أعلى من المدركات الحسية فكانت معجزة القرآن أليق بما يستقبل من عصور العلم التي تهيأت إليها الإنسانية".¹

خامساً: الإرشاد إلى أصول للاستدلال والنظر أقرب إلى العقل وأرسخ في القلب: ربما يستغرب كثير من القراء دعوى أن القرآن الكريم ليس فيه أدلة عقلية فحسب، بل أصول للاستدلال والنظر، غير ما تعارف عليه الناس وتداولها الحكماء. ولكن هذا الذي أعلن عنه العلامة الفراهي بعد أن نهل من فلسفة القدماء والمحدثين، وبعد أن عكف على القرآن الكريم يتدبره أربعين سنة.

يقول الفراهي: "وكنيت أجد في القرآن أصولاً للاستدلال والنظر أقرب إلى العقل وأرسخ في القلب من أصول منطق اليونانيين، ودلائل أصح وأثبت من أدلة الفلاسفة والمتكلمين، وأتعجب ممن يتغافل عنها".²

¹ التحرير والتنوير لمحمد بن الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، 189 / 20

² حجج القرآن، المصدر السابق، ص 21

ويقول: "ولا شك أن استدلال القرآن لا يخالف ما صح من المنطق ولكن أين الجذوة من النور الأعظم والوشل من البحر الخضم".¹

وقد شرع الفراهي في تأسيس علم يشرح أصول الاستدلال في القرآن الكريم وسمّاه "حجج القرآن"، وأتى بطريقة تخالف طريقة أهل المنطق والفلسفة، إلا أنه لم يوفق للإتمام، والكتاب يجمع فوائد غزيرة، ومما ذكر في الكتاب من أصول الاستدلال الأصل الآتي:

بناء الحجة على اليقين المغروس في النفس:

يقول الفراهي: "فالتطريق الصحيح أن تبني الحكمة على أصول العلم واليقين الراسخة في الفطرة، ومن ذلك تنشعب أصول النظر التي يستدل بها في جميع العلوم. ولا يكون ذلك محض علم الصورة كما يوجد في المنطق المتداول. فإذا بحث عن الفطرة وجد فيها أصول علوم جزئية كلها وتبين مقدار العلم الثابت فيها جميعاً. ثم بعد ذلك تنشعب منها جميع العلوم بحسب غاياتها ومواضيعها. وعلى هذا الطريق يصير بناء الحكمة راسخاً في فطرة النفس والعقل واسعاً حسب سعة المعارف المحققة".²

ويقول: "لما كان المقصود إتمام الحجة على كافة الناس أكثر القرآن من الحجج الفطرية التي بنيت على شهادة الفطرة الإنسانية. وربما أفحم أهل الكتاب بما هو مسلم عندهم، وذلك لا يخفى. فالأهم هو النظر في المبادئ التي هي مغروزة في فطرة الإنسان من حيث هو عاقل فاعل فارق بين الحق والباطل، والخير والشر. ومحِب للعلم والإيقان والاطمئنان، راغب في أن يكون سعيداً محبوباً ممدوحاً حراً نقيّاً تقيّاً. وبعبارة أخرى من حيث أنه إنسان".³

ويقول: "فالناس يوقنون بالخارج الظاهر المحسوس وهم ذاهلون عن أنفسهم. وأصل اليقين إنما غرس فيها، قال تعالى: (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٥٠﴾ وَفِي

¹ المصدر نفسه، ص 22

² المصدر نفسه، ص 71

³ المصدر نفسه، ص 72

العدد الخاص مجلة الهند

أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ (سورة الذاريات: 20-21). فلليقين آيات في الأرض، وتلك مع ظهورها قد يخفى على كثيرين كما قال تعالى: (وَكَايْنِ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾) (سورة يوسف: 105). بل أكبر من ذلك ما هو في أنفسهم ولكن إعراضهم عنه أكثر. ولذلك نبّه عليه بقوله: أَفَلَا تُبْصِرُونَ¹.

ويقول: "القرآن جعل بناء الحجة على اليقين الضروري الفطري الذي لا يسع العقل أن يعصيه، وهو ينبوع جميع علومه وأعماله ونظره واستدلّاله. وهو مودع في غور فطرة النفس مكنون كاللب وراء القشور والروح وراء الستور. ولكن يجري منه الجداول"².

ويقول: "أعلم أن العلم منه اضطراري لا يكون مبنياً على الاستدلال، فإن الاستدلال لا بد من بنائه على علم موجود من قبل في فطرة النفوس. وليس من الضرورة العلم بهذا العلم. ومن ههنا يخفى على الناس هذا العلم مع كونه ضرورياً موجوداً...

فالأول: هو هذا الذي ذكرنا وهو الأصل والأساس لكل استدلال، وذلك هو العلم بالله تعالى فإنه من أول الضروريات.

والثاني: هو علم استدلالي يحصل من العلم الاضطراري، وذلك يسعى علمًا بالآيات سواء كان في الآفاق أو في الأنفس. وقد نبّه القرآن على هذا الأصل حيث ذكر في سورة الجاثية بعد ذكر آيات في الآفاق وآيات في النفس وآيات هي فيهما، فقال: فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون (الآية: 6). فنبّه على أن الإيمان بالله هو أول العلم، وجعله مقابلاً لدلائل الآيات. وذلك بأن الله تعالى فطر النفوس واضطرها للعلم والإيقان، وكذلك اضطرها للفكر والنظر في الآفاق وفي الأنفس بما أودعها من القوى العقلية والأخلاقية اللازمة لماهيتها الحاكمة عليها. فالإيمان بالله تعالى مودع في فطرة مجرد العلم، وآيات الأنفس والآفاق كلتاها داخل تحت العلم، والعلم داخل تحت فطرة النفس، والفطرة حاكمة عليها لا محيص لها عنها.

¹ المصدر نفسه، ص 88

² المصدر نفسه، ص 93

والعلم الاضطرابي لا يستدل عليه ولكن ينبه عليه. ومثال ذلك النور والبصر، فإنك ترى كل شيء بهما فتوقن به. وأما إيقانك بالنور والبصر ففي فطرتك. وربما لا تلتفت إلى وجودهما واليقين بهما، فإذا نُهت على ذلك استبصرت".¹

ويقول: "فالإيمان بإله واحد رحيم أحاط بكل شيء خلقًا وعلماً وقدرة وتصرفاً ورحمة وحكمة في غاية الصعوبة من جهة الاستدلال بمحض الآثار، ولكنه في غاية الإحكام والوضوح من جهة النظر في فطرة النفس مما جبلت عليه من العلم المركوز على الإيقان بإله واحد رحيم قادر حكيم".²

ويقول: "فإيماننا بالله ليس بمحض الاستدلال، بل لكونه بناء لصحة كل دليل وعلم".³

سادساً: الإكثار من لطائف الأدلة العقلية: لقد أكثر القرآن الكريم من الدلائل التي تخاطب العقل والقلب معاً، وبني الحجج على اليقين المغروس في النفس، ولكن من غير بسط وتفصيل، فيحذف الكثير من فضول الكلام، ويدمج الدليل في الدعوى، ويكتفي بالإشارات.

وهذا لا يعني أن أدلة القرآن ألغاز تعجز العقول، وإنما هي لطائف كلما تأمل فيها الإنسان فتح الله عليه من الحكم البازغة والحجج البالغة. وهذا الجانب من الاستدلال القرآني خفي عن الكثيرين. يقول الفراهي:

"من أعظم غاية القرآن تربية العقول وتعليم الحكمة كما صرح به في مواضع كثيرة، فلذلك خاصة أكثر من لطائف الأدلة ليتعلموا التفكير والاستنباط. ولذلك كثيراً ما يكتفي بالتنبيه على الدلائل والحث على استنباطها، بل قد ينبه على الأصول الفطرية التي يبني عليها الاستدلال كما هو مبسوط في موضعه. فلما كان

¹ المصدر نفسه، ص 88-90

² المصدر نفسه، ص 114

³ المصدر نفسه، ص 120

القرآن على هذه الصفة من الغور واللطافة خفي كثير من دلائله على من يتوهمه خطأً عامياً".¹

ويقول: "فجعل القرآن موضع التدبر والفكر وحث عليه العقول فأكثر من التنبيه على ما يكون موضعاً ومادة لأعمال العقل. فمن ذلك أمثال قوله تعالى: أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿١﴾ (سورة محمد: 24). وقوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ (سورة طه: 54). فأكثر من ذكر الآيات، وما هي إلا ما يحث الفكر والنظر. فلو فصل القرآن كل دليل بغاية البسط لم يكن تربية للعقول بل صارت الأفهام منفعة، كما ترى بعض الطلاب يحفظون ما لقنوا، وقصارى عملهم الحفظ.

وعلى هذا فالقرآن لا يخالف سنة الله في الخلق والتربية. ولما تكفل إتمام الهداية وتطهير النفوس علم الشرائع كالمعدات والممهّدات. ثم علم الحكمة بطريق عملي يحث الفكر والنظر. ثم بكليهما طهر النفوس، فإن الطهارة إنما تتم بجاني العلم والعمل الظاهر والباطن. وبين ذلك في مواضع شتى وامتن به علينا وهو قوله تعالى: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ (أي ما كتب عليهم من الشرائع) وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ (سورة الجمعة: 2-4).

ومثله قوله تعالى: لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ (سورة آل عمران: 164). فبعث الله تعالى رسوله أحسن معلم للحكمة، وذلك بأنه جعل التعليم جزءاً من التربية كما قدّمناه. فلم يكتف بإعطاء العلم المحدود بل جلى بصيرة العقل وهياًه للرقى إلى أعلى منازل. ولا يكون ذلك إلا بأن نهبه ليطلع على أصول الفكر والنظر، وليقتني الحق اليقين علماً والطهارة التامة خلقاً، وكل ذلك من باب تعليم الحكمة".²

¹ المصدر نفسه، ص 27

² المصدر نفسه، ص 131-132

ويقول: "وبالجملة فأكثر دلائل القرآن إنما هي لواضع تجلب النظر، وقوارع تنبه الفكر. وكان المخاطبون أذكىاء فصحاء أهرع الناس إلى لطائف المعاني وأشدّهم تهذيباً لفضول الكلام. فلو فصل لهم الدلائل المرتبة على طريق المنطق لأبعدهم عن نهج الفطرة في الفكر".¹

مثال على منهج القرآن في الاستدلال:

يقول الفراهي: قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ (هذا تقرير الدعوى، أي البعث حق لا يرتاب فيه، ثم أتبعها الدليل بقوله) فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ (وهنا نبه على أن الله تعالى أراد بهذه مراتب الخلقة إقامة الحجة على كون الإنسان عبداً مريباً عاجزاً، فلا بد له من خالق رب مريد حكيم رحيم فقال) لِنُبَيِّنَ لَكُمْ (ثم نبه على بطلان شبهتهم من جهة تأخير يوم البعث فقال) وَتَقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً (سورة الحج: 5).

فبذلك نبه على أنه تعالى جعل أجلاً مسمى لخلقه حسب مشيئته وحكمته فيقدم ويؤخر كما يريد. وفيه دليل على وقوع الساعة، فإن لكل خلق مشوب بالخير والشر أجلاً معيناً وإلا لدام الشر أو لم ينتج الخير الأعلى الذي لأجله خلق، وهذا العالم كذلك عياناً ثم في هذا التحول نفسه دليل واضح على القيامة كما جاء في سورة الانشقاق، وستعرفه في موضعه. ثم أتى بدليل آخر على البعث الجاري بين أيديهم فقال: وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُثْبِتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ (وبعد بيان الدليل الإتي ذكر الدليل اللهي فقال) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ (فلا يخلق عبثاً باطلاً) وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى (كما علمتم من خلقكم وإحياء الأرض) وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (الآية: 6). (فإن خلق الحياة أكبر شيء في القدرة

¹ المصدر نفسه، ص 195

لأن كل صنعة وقدرة هي دون إعطاء الحياة، ولا قدرة أكبر من سلب الحياة، فمن أحيى وأمات فهو قادر على كل شيء.

ثم أعاد ذكر ما أقام الحجة عليه فقال: وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا (فأي شيء يريكم بعد ما رأيتم آجالاً لأفعاله تعالى، وعلمتم أنه الحق فلا يفعل عبثاً، وأنه قادر متصرف بكمال القدرة والحكمة. ثم أعاد النتيجة الأخيرة فقال) وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ (الآية: 7)¹.

يقول الفراهي عن منهج القرآن في ذكر حججه: "هو أقرب إلى بلاغة القول وطريق الفطرة. فإنه يخاطب العقل والقلب معاً ويركب الأدلة الإنسية مع اللمية ويخلط بالدلائل ترغيباً وترهيباً، فكما ينبه العقول من رقدته فكذلك يحث القلوب من غفلته".²

الأسباب التي تؤدي إلى عطل العقول أوزيغها، ومعالجة القرآن لها

1. الانهماك في الظاهر الحاضر: يقول الفراهي: "لما كانت الغفلة عما هو فوق هذه الحياة الدنيا غالبية على أكثر العقول لشدة انهماكهم في مشاغل هذه المحسوسة الحاضرة وعلومها كما قال تعالى: وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٥﴾ (سورة يوسف: 105). فمع أن دلائل القرآن قريب من الفطر بل منبهة على الفكر وأصول النظر تراهم لا يتفكرون، ولذلك قد أكثر القرآن من الحث على التدبر والتفكير مثلاً قوله تعالى: أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿١١﴾ (سورة محمد: 24). وهذا كثير جداً.

والغفلة هي عدم النظر فهي سبب عديم ولكنها إنما نشأت من الانهماك في الظاهر الحاضر، وهذا عطل قوى العقل وأغلق غرف الإدراك لما هو المشهود في الأنفس والآفاق من مظاهر الجلال والجمال والحكمة والرحمة. فصاروا لا يرون إلا الظاهر

¹ المصدر نفسه، ص 136-137

² المصدر نفسه، ص 138

المحسوس كاليهائم كما قال تعالى: لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ (سورة الأعراف: 179). وقال تعالى في هولاء: يَغْلِبُ ظِلْمُهُمُ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ (سورة الروم: 7). وقال تعالى: فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ (سورة النجم: 29-30). وهذا كثير جداً¹.

2. الاشتغال بالأسفل والاستكبار عن المشقة: يقول الفراهي: "من الأمثال السائرة لكل شيء آفته، وللعلم آفات ولاغرو، فإن سقم العقل ليس بأعجب من سقم البدن. ألا ترى الحواس تسقم بل تبطل وتنعدم. وإذا كان ذلك كذلك فلا بدع ولا عجب أن يعتري العقل أو الفؤاد مرض فيغشى عليه بل يطفئ نوره فيعميه. فالعلم الذي أودع في فطرة الإنسان لا يلزمه أن يكون ظاهراً بيّناً على الناس كلهم، بل لجلالة قدره هو أجدر بأن لا يصل إليه أيدي المشتغلين بالدني في السافل، المستكبرين عن خضوع التعلم ومشقة النظر. فإن الاشتغال بالأسفل يعوق عن المعالي، وكذلك الاستكبار عن المشقة يمنع عن المكارم. وقد غلب هذان على الناس أجمعين إلا أولي البصيرة وقليل ما هم. ولذلك قد أكثر القرآن من الدلالة على أدواء النفوس لا سيما هذين الذين ذكرنا. قال تعالى: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ (سورة المطففين: 14). قوله: مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ متوجه إلى ما سبق من ذكر حرصهم الشديد على المال. والحب يعمي ويصم لما يشغل القلب، كما قال تعالى: أَلْهَيْكُمُْ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ (سورة التكاثر: 1). والاشتغال بشيء يغفل عن غيره، فنبه على أن حرصهم الذي حملهم على الخيانة صار ظلمة على قلوبهم فلم يبصروا، فلو لا هذا الرين لأبصروا. وأيضاً سعى ذلك غطاء، فنبه على وجود البصر والمرئي ولكن الرين والغطاء صار حجاباً، كما قال تعالى: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ (سورة ق: 22)...

¹ المصدر نفسه، ص 25-26

وبالجملة فأودع الله فطرة الإنسان العلم والفكر كما أعطاه السمع والبصر، فإذا لم يستعمل ذلك بطل عمله وضاع، فإنه لم يشكر على النعمة كما قال تعالى: فَجَعَلْنَاهُ (أي الإنسان) سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ (سورة الإنسان: 3). وقال تعالى: لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ (سورة إبراهيم: 7). وقال تعالى: وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى (سورة محمد: 17). فالهداية الأولى مودعة فطرة ولكن من شكر أعطى المزيد، ومن كفر يسلب الأولى أيضًا كما جاء كثيرًا، مثلًا إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ (سورة المائدة: 67).

وانما قدّمنا ذلك لتعلم أن صحة العقل والفؤاد أهم من صحة صورة الاستدلال ورعاية شروط الأشكال، كما أن صحة النظر أهم من صحة المنظار. والمنطق إنما يبحث عن صور الأدلة وأجزائها، ولكن الأهمية كل الأهمية للنفس المفكرة وفكرتها وبناء علمها وإيقانها¹.

3. اتباع الهوى والظن: الغواية في الدين لا تأتي من قبل العلم والوحي، وإنما من قبل اتباع الظن والهوى. وهذا الذي قرره القرآن الكريم في آيات كثيرة، فليس هناك تعارض بين العقل والوحي ولا بين العلم والوحي، وإنما التعارض بين الهوى والعقل وبين العلم والظن.

يقول الفراهي: "إن المؤمن يتبع العقل في جميع أحكامه، والكافر يتبعه فيما يوافق هواه وظنه كما قال تعالى: إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمْ الْهُدًى ﴿٢٣﴾ (سورة النجم: 23). فيعيشوا عن هديه.

وقد ضرب الله مثلًا لهديه ونوره والذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، فقال: أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيْءِ أَذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ (سورة البقرة: 19-20).

¹ المصدر نفسه، ص 101-102

فهو النفس لهذه الحياة الدنيا يثبطها عن القصد إلى أعلى الخير، وظنونها الباطلة تحجبها عن النظر في محض الحق ولم أر كالظن والهوى عدوًا للحق والتقوى. فالظن يزين الباطل في صورة الحق، والهوى يغطي الشر بحلاوة الخير. فهما عثرتان في طريقي العلم والعمل. وأخبر الله تعالى في كتابه الحكيم عمن اتبع الظن وأقبل على الدنيا وأعرض عن أصل الخير ومحض الحق، فقال عز من قائل: وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٣٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ (سورة النجم: 28-30). أي لا يطلبون العلم الذي يحتاج إليه من يهمة الحياة العليا التي هي خير وأبقى¹.

الخاتمة:

إن المقصد القرآني من تربية العقول لا يتحقق إلا بكثرة التأمل في القرآن الكريم والعكوف على تدبر آياته، من غير عائق يعوق حركة التدبر.

إن مسيرة التدبر في القرآن الكريم بطبيعتها تقتضي أن تكون في جو يسوده الحرية والتشجيع خاليًا من القيود والمطبات. إن القرآن الكريم نفسه مع كثرة حثه على إعمال العقل والفكر والتدبر لم يضع قيودًا ولا شروطًا، إلا عدم اتباع الظن والهوى.

إن الموقف المعارض من التفسير بالرأي والتفسير بالمعقول والإصرار على الاكتفاء بما سمي بالتفسير المأثور على ما فيه الكثير من غير المأثور، لا يتماشى مع ما نراه من موقف القرآن الكريم من التأكيد على الفكر والتدبر. يقول الدكتور محمد عناية الله سبحانه:

"فلنعلم أن المحظور في التفسير، هو التفسير بالهوى، الذي هو فيه أهل الأهواء. وأما التفسير بالرأي فهو شيء مطلوب، ومندوب، بل هو من أوجب الواجبات؛ فإنه هو الطريق الوحيد لربط الأمة بالقرآن، وهو العلاج الناجع لغائلة

¹ المصدر نفسه، ص 185

العدد الخاص مجلة الهند

التفسير بالهوى، فحينما منع التفسير بالرأي، خلا الجو للتفسير بالهوى، فباض وصفر! وفشا وانتشر!¹

وأختم بكلمة رائعة للفراهمي حيث يقول: "لا شك أن لا نجاة إلا بالعقل فهو الرفيق الأعلى، وبالعلم وهو العروة الوثقى، وبالعامل الصالح وهو الطريق المثلى إلى السعادة الكبرى".² ولله الحمد.

¹ التحرير والتحرير في أصول التفسير، الدكتور محمد عناية الله أسد سبحاني، دار عمار، الأردن، ص 170

² حجج القرآن، المصدر السابق، ص 175

المزايا الأسلوبية لكتابات العلامة حميد الدين الفراهي

- د. عرفات ظفر الأعظمي¹

قد شهد القرن التاسع عشر مولد كوكبة من العلماء والأدباء والكتّاب والمفكرين في شبه القارة الهندية، كان لهم دور عظيم الأهمية في النهضة الفكرية والأدبية العربية المعاصرة في هذه البلاد ولا تزال نتائجها تتفاعل مع مكونات واقعنا بعد رحيلهم جميعاً. ومن بين هؤلاء العلماء الأجلّة يحتل العلامة حميد الدين الفراهي (1863-1930م) درجة رفيعة بإنجازاته الرائعة في العلوم القرآنية وإسهاماته القيمة في المجالات اللغوية والأدبية. إنه قام بخدمة اللغة العربية مدرّساً ومحققاً طيلة حياته وله دور مرموق لا يستهان به في ترويج العلوم العربية والإسلامية وتطوير الأساليب العربية الفصحى الخالية من التكلف والتصنع، ولذلك أنه يعدّ حتى الآن من أبرز علماء العربية في شبه القارة الهندية.

لم يكن العلامة الفراهي رجلاً عادياً في مواهبه وجداراته في مختلف العلوم والفنون ومعرفة اللغات والثقافات، بل كانت شخصيته ممتازة في أكثر المجالات العلمية والأدبية، فنلاحظ بصماته العريقة في كل مجال خاض فيه العلامة، ولا نزال نسمع وقع أقدامه فيه. وفي الحقيقة أنه كان من ألدّ أعداء الجمود والتقليد والتخلف والتعقم الذي كان يواكب المسلمين منذ قرون، فدعا الناس إلى ترك الجمود والركود وحثهم على التدبر والتفكير والبحث والتحقيق لتغيير مجرى حياة المسلمين، ومن أجل هذا صاغ العلامة الفراهي أصولاً جديدة ومناهج بديعة لأكثر العلوم والفنون، فلم يبق مجال الأدب والإنشاء حتى أنه أثبت فيه أيضاً جدارته وتفوقه وشق لنفسه طريقة جديدة في الإنشاء والكتابة.

علمًا بأنّ العلامة الفراهي نشأ وترعرع في عصر كان يسود فيه التقليد والمحاكاة على

¹ أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة لكناؤ، الهند

الإنشاء والترسل وكان التكلف والتصنع يتغلب على النثر العربي، وهذا الأمر قد جعل الأساليب العربية الفطرية مثقلة بالتركيب الصعبة والزخارف اللفظية وأصبح أسلوب الحريري العقيم الأجوف هو المعيار الوحيد للكتابة في اللغة العربية ففسد الذوق اللغوي والأدبي بسبب قراءة "المقامات" إلى مدة طويلة، وتلاشت الروعة والبراعة في الأدب والإنشاء، وفقد النثر العربي سموه وبهاءه ورونقه وجماله، لأن جهود العلماء والأدباء والكتّاب والمؤلفين قد اقتصرت في تلك الفترة من الزمن على كتابة التلخيص والتعليق والشرح والتحشية بدلاً من الإبداع والابتكار. وفي هذه الظروف السائدة نشأ وشبّ العلامة الفراهي وأخذ اليراع بيده وحاول أن يخرج عن النمط الذي كان يعمّ في الكتابة العربية ويتحرر من عقال أساليب المقامات العويصة، فاختار لنفسه أسلوباً سهلاً بسيطاً خالياً من التكلف والتصنع والتعقيد والتسجيع، كما يقول الأستاذ الدكتور محمد راشد الندوي في هذا الخصوص:

"الأستاذ الفراهي اختار اللغة العربية لغة الكتابة لجميع آثاره الأدبية والعلمية، فهو بهذا العمل الجليل قد أضاف ثروة فكرية وثقافية ولغوية إلى اللغة العربية وبخاصة في زمن كانت اللغة العربية في حاجة إلى مثل هذه الآثار العلمية والأدبية، لأن الكتب والمؤلفات والأبحاث التي كانت تكتب فيها إلى عصره، كلها كانت سقيمة الأسلوب عقيمة الفكر وكانت شرحاً أو تلخيصاً للكتب العربية القديمة التي ألّفت في عصور ضعف فيها مستوى اللغة والفن والثقافة".¹

وبعد التضلع من اللغة العربية والمهارة في العلوم الإسلامية أقبل العلامة الفراهي على الكتابة واختار لغة الضاد كوسيلة للتعبير عن آرائه وأفكاره ولإصلاح المساويء المتفشية في داخل الأمة الإسلامية بأجمعها، وإنه اختار اللغة العربية للكتابة مع أن أستاذه العلامة شبلي النعماني كان يلح عليه أن لا يكتب أي شيء في هذا الزمن إلا بلغته الأم.² ولكنه واصل الكتابة في هذه اللغة المباركة، لأنه كان

¹ مجلة المجمع العلمي الهندي، علي كره، 56/2-1/17

² مقالات شبلي، 14/2

يريد أن يخاطب بكتابه علماء الأمة الإسلامية المنتشرين في جميع أقطار العالم وكانت اللغة العربية هي الوسيلة الوحيدة لتبادل الآراء والأفكار فيما بينهم. وعلى أية حال، فلما علم العلامة شبلي النعماني بأن العلامة الفراهي لا يحب الكتابة إلا بالعربية، كتب إليه قائلاً:

"علمت بأنك كتبت شيئاً باللغة العربية هل تفعل هذه الأعمال غير المجدية وتعجب نفسك بالكتابة العربية أتريد أن ينشأ حريري آخر؟ وما الفائدة منه؟ هل يحتاج المسلمون اليوم إلى الحريري وامري القيس".³

ولكن عندما اتضح عليه غرض العلامة الفراهي وغايته النبيلة من الكتابة بالعربية وتعرف على مشروعات العلامة العلمية الواسعة، تغير موقفه تماماً في هذا الشأن، فبدأ يحب كتابات العلامة الفراهي العربية ويطالها منه، وأعجب بآثاره العلمية واللغوية والأدبية الموجودة في هذه اللغة، فيقول في رسالة أخرى إليه وهو يثنى فيها على إجادته اللغة العربية وقدرته بيانه فيها:

"رأيت 'نظام القرآن' من أوله إلى آخره، لا يمكن الكلام في حسن تعبيره وأسلوب بيانه".⁴

على كل حال، فإن اهتمام العلامة الفراهي باللغة والأدب والكتابة لم يكن إلا لفهم القرآن الكريم والتدبر في آياته وإدراك معانيه السامية والتذوق ببلاغته وفصاحته، فصنّف حوالي أربعين كتاباً مطبوعاً وغير مطبوع بالعربية ومعظمها يتناول الموضوعات القرآنية. ولكن الأمر الذي يثير إعجابنا وتقديرنا يتلخص في أن العلامة الفراهي رغم تربيته وتدريبه على الأسلوب البارد الثقيل واللغة المسجوعة المعقدة والمحسنات اللغوية والبدايع اللفظية التي كانت تتصف بها اللغة العربية في زمن حياته، اختار لكتابه سليقة أدبية فريدة تنم عن قدرته الفائقة على التعبير عن المعاني اللطيفة والأفكار الدقيقة بأسلوب سهل فصيح. إنه يتناول في

³ ذكر فراهي للدكتور شرف الدين الإصلاحي، ص 158

⁴ المصدر السابق، ص 160

مؤلفاته المباحث العلمية الرزينة من علوم القرآن وأصول تفسيره والعقائد والتزكية وملكوت الله والتاريخ والبلاغة والمعاني ولكنه يعالج هذه المواضيع المتنوعة بأسلوب يمتاز بالبساطة والسهولة والدقة والرصانة. وكل هذا يدل على أن قدرته اللغوية المتميزة وبراعته الإنشائية كانت دومًا تواكب إبداع ذهنه ونتاج فكره وخواطر قلبه، فاستمر هذا العطاء الفكري والثراء اللغوي جنبًا لجنب والآن نود أن نقدم على سبيل المثال بعض النصوص العربية المقتطفة من بعض مؤلفات العلامة الفراهي ورسائله العربية، لكي نقدر بأنفسنا تلك الخصائص اللغوية والتعبيرية التي تتحلى بها آثاره العلمية. فيقول العلامة الفراهي عن أهمية الإيجاز وتأثيره في الكتابة والبيان:

"فإن اللفظ إذا قل يترأى المعنى متجردًا عن حجبهِ، فيزيده تنويرًا وتأثيرًا كأنه أرهف حدّه وقرب بعده، وهذا مما يجعل الاستعارة أحيانًا أبلغ من التشبيه. ولا حاجة إلى توضيح حسن الإيجاز فإنه مبسوط في كتب البلاغة، وقد بالغ في استحسانه بعض كتّاب زماننا، فقال إن الإيجاز لهو البلاغة، وتكلف في ردّ جميع المحاسن إليه، وإنما جعله أصل البلاغة لتشعب أفنانه وتقلب ألوانه، فلم يدخل بابًا من أبواب البلاغة إلا ورأى الإيجاز هناك موجودًا، فقصر النظر عليه _ هذا، والعرب لدكائهم وكبرهم كانوا يحبون الإيجاز أكثر من أقوام آخر، ولذلك لا ترى شيئًا من القرآن إلا ومعناه أوفر من اللفظ فإن أطنب قولًا من وجه أوجزه من وجوه آخر، ولذلك لا تنقضي عجائبه".⁵

وكذلك يقول العلامة الفراهي في موضع آخر عن وجود العلم الفطري قبل وجود العلم النظري:

"لا شك أن فقهاء الصحابة بل عامتهم كانوا أبصر وأعلم بالقرآن لوجوه كثيرة. ولم يكن لهم احتياج إلى أصول علم البيان وفروعه ولا علم النظر والاستدلال. فإن ذوقهم وسلامة عقولهم قد أغناهم عن ذلك، فإن كثيرًا من العلوم المدونة

⁵ إمعان في أقسام القرآن للمعلم عبد الحميد الفراهي، ص 96

ليست إلا كالدواء للمرضي. ألا ترى أن علم العروض والبيان إنما حدث بعد وجود كثير من الشعراء المجيدين والبلغاء المفلحين، بل ذلك إنما أخذ من كلامهم كما استخرج علم النحو من كلام أهل اللسان الذين لم يقرأوا ولم يكتبوا".⁶

وفي هذا الصدد يوضح الفراهي موقفه بمزيد من الكلمات، فيقول:

"لا شك أن كثيرًا من الصحابة إذا فسّروا القرآن كانوا كالبحر الزاخر والسحاب الهائل. يلقون على أصحابهم ما كان يملأ صدورهم علمًا وحكمة، ولكن مع ذلك بل لذلك لم يستطع السامعون أن ينقلوه للخلف، ألا تراك تجلس في مجالس الوعظ والخطب وترى صدرك قد امتلأ وعقلك قد وعى معارف، ولكن لا تستطيع إلقاءها على غيرك، بل تراك تضمحل هذه المعارف وتنمحي عن قلبك ولكن تجد أثرها قد بقي، فهكذا كان خطب النبي صلى الله عليه وسلم وخطب البلغاء، لم يحفظوها ولم يرووها إلا نبذةً منها مع بقاء آثارها في القلوب، وما رويوا إنما هي قطرة من عباب".⁷

وعلى هذا النحو كان يكتب العلامة الفراهي الرسائل والخطابات إلى بعض العلماء وأصدقائه باللغة العربية، فيقول العلامة سيد سليمان الندوي عن رسائله العربية وأسلوبها: "وكان يكتب الرسائل على سبك بلغاء العرب وفصحائهم".⁸ فتشتمل مجموعة رسائله على بعض الرسائل العربية، ونود هنا أن نقدم بعض النماذج منها لإبراز خصائص أسلوبه وطرق تعبيره في الإنشاء والبيان، فيكتب في إحدى الرسائل الموجهة إلى صديقه الكريم الشيخ عبد الحق البغدادي الذي كان يجيد اللغة العربية:

"وصل كتابكم المبارك بعد أن رجعت عن الوطن وفرحت بما أخبر تموني عن عافيتكم وفوزكم ببيت في رسل غنج، وإقامتكم مع أهل بيتكم فيه، فأهنتكم بأعياد كثيرة ونشكركم يا سيدي بما أرسلتم إلي من ثلاثة قطعات من قماش

⁶ التكميل في أصول التأويل، للمعلم عبد الحميد الفراهي، ص 10-11

⁷ المصدر السابق، ص 11-12

⁸ إمعان في أقسام القرآن، ص 16

أنكوري، ولكن أتعجب كيف تعزمون علي بأن أرغب في بعض منها، فإن الرغبة ليست مما يقدر عليه القلب وقد خالطني الشيب (فلو بقي في رغبة إلى الألوان لبدلت بياضي بالسواد) فبيض ما كان علي من السواد ولا بد لأمر جنابكم من اختيار بعض الألوان، فاجعل نفسي متراغبًا في لون أشبه بالبياض".⁹

و في رسالة أخرى يكتب إليه:

"يا سيدي، حديثي عجيب ما رجعت من جنابكم حفتني المشاغل، فلم اشتغل بالبعض إلا والآخر باقية تحوم حول رأسي ودقيقها وخفيفها ملا أذني، فكأنني مختطف عن نفسي. وكان من فوت الفرصة أني رددت خدمة امتحانات البنجاب وحيدرآباد وإله آباد، ومع ذلك لم يسعني أن أرد اثنين منها، لأنهما وقعتا علي كالحكم المبرم، فإن قبلتم عذري فهو المأمول من مودتكم. كتاب الأضداد والمزهر مرسلان إليكم، والآن أرسل إلى جنابكم خمس عشرة روبية والباقي في الشهر القابل، أرجو أن تخبروني عما يبقى على ذمتي من الأثمان".¹⁰

فيتبلور من هذه النصوص المقتبسة أن العلامة الفراهي كان يمتلك قدرة تامة على التعبير عما كان يدور في ذهنه ويخطر في قلبه من الأفكار والعواطف في النثر العربي الطبيعي السلسال، وأما أسلوبه فهو متصف بالبساطة والسهولة والإفصاح والإبانة والتركيز على المعنى وإيضاح الفكرة والبعد عن التكرار والاجتناب عن الزخارف اللفظية، فلا يطغى فيه اللفظ على المعنى ولا تعتدي فيه المعاني على اللفظ، بل يتحقق فيه التناسب والاتزان بين الشكل والمعنى.

ومن الميزات الأخرى لأسلوب العلامة الفراهي أنه يميل في أكثر الأحيان إلى غاية من الإيجاز فلا يزيد كلمة على ما يراه كافيًا لأداء المعنى المراد، بل في بعض الأحيان أنه يكتفي بالإشارة، ولذلك قد يتعذر فهم نصوصه على القراء، كما يصعب على

⁹ مكاتيب فراهي للدكتور شرف الدين الإصلاحي، ص 65

¹⁰ المصدر السابق، ص 68-69

الدارسين والباحثين أن يقدموا ملخص بحوثه وكلامه لما يمتاز ببيانه من شدة الإيجاز وحسن الرصيف. وكل من يمرّ على بحوثه ومؤلفاته كالريح العاصف أو البرق الخاطف يبقى صفر اليدين ولا يمكن له الاستفادة منها، لأن كتيبه تتطلب قدرًا كبيرًا من الإمعان والتفكير من قرائها ليستوعبوا مباحثها ومطالبها استيعابًا كاملاً. وألقى الشيخ أمين احسن الإصلاحي الضوء على هذه الميزة لأسلوبه قائلاً:

"قل هذه الخاصية ما شئت من العيب أو القدرة بأن العلامة الفراهي كان يحبّ الإيجاز والاختصار في كتابته للغاية، ومع ذلك فإن هذا الإيجاز والاختصار في أسلوبه لم يكن يخلّ في تأدية المعاني والمطالب، وفي الحقيقة أنه كان يؤدي كلامًا في سطور مما يبينه الآخرون في صفحات، وليس هذا الأسلوب بصحيح ومفيد لرجل ذكي فحسب بل أنه لا يحب سواه، ولكن رجلاً عادياً إن لم يدرس مؤلفاته بعمق النظر ودقة البصر، قلما يدرك منه شيئاً".¹¹

والعلامة الفراهي بنفسه قد أشار في موضع إلى هذه الميزة لأسلوبه قائلاً:

"إني لا أحبّ الإسهاب ونحسن الظن بعقلك".¹²

ومع هذا كله أنه يختار أسلوبًا جميلًا رائعًا في حين يعالج الموضوعات العلمية والأدبية والاجتماعية والتأريخية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن العلامة الفراهي في بعض الأحيان يستخدم الأساليب والتعابير القرآنية في كتاباته العربية، وذلك لأنه، كما هو المعلوم، ظلّ غارقًا في بحر القرآن طول حياته، يبحث عن آلايه وعجائبه، وهكذا رسخت لغة القرآن وتعابيرها في ذهنه، وغلبت كلماته وأساليبه على لسانه، فكانت تتدفق هذه التعبيرات والأساليب من قلمه خلال كتاباته وتنعكس آثارها في مؤلفاته، فننقل هنا بعض الجمل على سبيل المثال من بعض مؤلفاته الذي يتجلى فيه نور القرآن وتفوح منه رائحته.

¹¹ ذكر فراهي، ص 732-733

¹² جمهرة البلاغة، ص 34

يقول العلامة الفراهي في موضع: "فذلك برهانان ثم نعززهما بثالث وهو أن العرب لم يحمداوا الكلام إلا لحسن معناه".¹³ ونجد نفس الأسلوب في القرآن حيث يقول عز وجل: "ذلك برهانان من ربكم" (سورة القصص: 32)، و"فعزيزنا بثالث" (سورة يس: 14). ويقول العلامة الفراهي في موضع آخر: "ولهذه الدلالة التي هي ظاهرة على السليبي القلوب الذين لا يخرجون على آيات الله صمًا وعميانًا".¹⁴ وجاء هذا التعبير في القرآن كما يلي: "والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمًا وعميانًا" (سورة الفرقان: 73). وكذلك كثيرًا ما يدعم العلامة الفراهي آرائه وأفكاره بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال أجلة الصحابة والتابعين وآراء كبار المفسرين.

وقد أشار بعض العلماء والأدباء إلى أن بعض الكلمات والتعابير في كتابه "جمهرة البلاغة" تتشابه بالكلمات والأساليب الأردية، كما أنهم أيضًا لفتوا أنظارنا إلى الغموض والإجمال الموجود في هذا الكتاب. ولعل السبب وراء هذا كله يكمن في أن هذا الكتاب غير مكتمل مثل معظم كتب العلامة، فلا يتمتع بدرجة كتاب كامل تتمتع بها الكتب المطبوعة في حياة مؤلفهم، وفي الحقيقة لم يجد العلامة الفراهي فرصة لإعادة النظر في شكل هذا الكتاب ومضمونه، ولكن السبب الرئيسي هو أن هذا الكتاب من باكورة أعمال العلامة الفراهي ولذلك وردت بعض الكلمات والأساليب غير الفصيحة فيه، وهذا واضح من كلمات العلامة سيد سليمان الندوي التالية:

"إنه من أوائل كتب العلامة الفراهي، ولعله ألفه في عام 1904م، و بعد ذلك تفرس قلمه، وبالرغم من ذلك مستوى عربيته في هذا الكتاب عالٍ جدًا، غير هذه الكلمات والمحاورات المعدودة التي غلبت على قلمه".¹⁵

وعلى أية حال، فلا شك في أن العلامة حميد الدين الفراهي يحتل مكانة مرموقة بين

¹³ المصدر السابق، ص 10

¹⁴ دلائل النظام، ص 119

¹⁵ مكاتيب سيد سليمان الندوي لمرتبها الشيخ مسعود عالم الندوي، ص 180

العدد الخاص مجلة الهند

الكتّاب والمؤلفين الذين اختاروا اللغة العربية للكتابة والتعبير في شبه القارة الهندية، ويتسم أسلوبه بوجه عام بالبساطة والسهولة والبعد عن التكلف والتكرار، فهو من رواد الكتّاب الذين أقبلوا على الكتابة في النثر العربي الفصيح المرسل الذي يختلف كثيرًا عن النثر المسجوع والأسلوب التقليدي القديم الذي كان رائجًا في زمن حياتهم. وقد اعترف بهذه الحقيقة الأستاذ الدكتور محمد راشد الندوي إذ هو يشير إلى مساهمة العلامة الفراهي في إثراء اللغة العربية ورفع مستوى التصنيف والتأليف في شبه القارة الهندية:

"على كل حال إن الأستاذ الفراهي هو من الشخصيات الفذة التي رفعت مستوى اللغة العربية كما رفعت مستوى التصنيف والتأليف في الهند بل في العالم العربي كله، فهو بأعماله وأثاره أصبح معجزة للثقافة العربية والدينية، ويبقى خالدًا في صفحات تاريخ الفن والأدب".¹⁶

فبفضل جهود العلامة الفراهي وأمثاله الآخرين من العلماء والأدباء والكتّاب والمؤلفين الهنود عادت إلى اللغة العربية حيويتها ونضارتها وقوتها ونصاعتها في التعبير والبيان وهكذا تحققت على أيديهم نهضة اللغة العربية في ربوع الهند، بعد أن تكبدت خسائر فادحة على أيدي الكتّاب الذين كانوا يتلاعبون بالكلمات والتراكيب وينمقون عباراتهم بالصنائع اللغوية والزخارف اللفظية.

¹⁶ مجلة المجمع العلمي الهندي، علي كره، 57/2-1/17

المصادر والمراجع

1. مقالات شبلي للعلامة شبلي النعماني، دار المصنفين أعظم كره، الهند، 1988م
2. ذكر فراهي للدكتور شرف الدين الإصلاحي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سراي مير، أعظم كره، 2001م
3. إمعان في أقسام القرآن للمعلم عبد الحميد الفراهي، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1349هـ ص 96
4. التكميل في أصول التأويل للمعلم عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية ومكتبتها، مدرسة الإصلاح، سراي مير، أعظم كره، الهند، 1411هـ
5. مكاتيب فراهي للدكتور شرف الدين الإصلاحي (ترتيب)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سراي مير، أعظم كره، 1994م
6. جمهرة البلاغة للمعلم عبد الحميد الفراهي، مطبعة معارف، دار المصنفين، أعظم كره، 1360م
7. دلائل النظام للمعلم عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سراي مير، أعظم كره، الهند، 1968م
8. مكاتيب سيد سليمان الندوي للشيخ مسعود عالم الندوي (ترتيب)، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، د.ت
9. مجلة المجمع العلمي الهندي الصادرة عن قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره

الإمام عبد الحميد الفراهي وخطب رسائله وكتبه

- د. أورك زيب الأعظمي¹

ترجمة من الأردوية: د. محمد معتصم الأعظمي²

مدخل إلى الموضوع:

لم يكن الإمام الفراهي (1863-1930م) مفسراً كبيراً فحسب بل كان محدثاً جليلاً وفقهياً متبحراً ولغوياً وشاعراً كبيراً ولا نبالغ لو أنشدنا فيه الشطر التالي من البيت الفارسي الشهير:

آنچه خوبان همه دارند تو تنها داری

وعلى الرغم من خصائصه تلك فقد كان الفراهي متميزاً عن غيره من الكتّاب والشعراء فقد اختار الفراهي في كل فن وعلم تحدث عنه، اختار طريقة مختلفة عن معاصريه من الكتّاب والشعراء فكان بعيداً عن التقليد بعد الثريا عن الثرى وكان مولعاً بخلق شيء بديع في كل مجال يختاره للبحث والكتابة.

ومن خير أمثلة تميزه هذا خطب رسائله وكتبه التي عارض فيها التقليد واختار طريقة مختلفة ففيما يلي دراسة تحليلية لهذه الخطب التي تمتاز بروعتها وتفردتها وحفلها بالمعلومات على الرغم من إيجازها وقلة أعداد كلماتها.

شهادة عالم وشاعر عربي كبير:

وقبل أن نتقدم شيئاً نودّ أن نذكر ما كتبه عن الفراهي كاتب وشاعر عربي كبير وهذا مفخرة لرجل أعجبي يبعد وطنه عن العالم العربي بعد المشرقين. والواقع أن

¹ مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة المليية الإسلامية (نيو دلهي)

² مدرس ضيف، جامعة بردوان، بنغال الغربية

العدد الخاص مجلة الهند

هناك عددًا قليلًا من العلماء واللغويين الذين اعترف بفضلهم العلمي والأدبي الكتاب والشعراء العرب.

وقد زار العلامة الهلالي الهند وخلال جولاته لولاية أوتارا براديش (الهند) لقي العلامة الهلالي الإمام عبد الحميد الفراهي فقدّم إليه الفراهي خطبته لتفسير سورة البقرة فتعجب منها العلامة الهلالي وكادت عيناه أن تصبّا الدموع. يقول العلامة الهلالي:

"سمعت منه خطبة تفسيره للقرآن، اغرورقت منها عيناى لفصاحتها وحقيتها".¹

دراسة تحليلية لخطب رسائله وكتبه

عندما نقوم بدراسة هذه الخطب من مختلف جوانبها فنجدها محتوية على ملائمتها بالموضوع وسعة اطلاع كاتبها وفصاحتها وسجعها والاستخدام الأنسب لكلمات القرآن والحديث وحقية المحتويات، وفوق تلك بدعتها في الأسلوب والمحتوى. ونودّ أن نتحدث عن كل منها على حدة:

أولاً: ملاءمتها بالموضوع: عندما ندرس خطب مؤلفات العلماء الآخرين نجدها على أسلوب ومحتوى واحد فلا فيها تغيير ولا فيها جدة بل لكل كتاب أو رسالة خطبة واحدة تبتدئ بحمد الله وتنتهي على ذكر الصحابة أو العلماء الأجلة بينما نرى الإمام الفراهي ينحت خطبة مختلفة لكل رسالة أو كتاب يشرع في كتابته فعندما يتحدث عن الأضاحي يذكر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وعندما يتكلم عن البلاغة فيتحدث عن صفة نطق الإنسان وكون النبي جامع الكلم وهلمّ جرّاً فكأن الإمام الفراهي يضع لكل كتاب أو رسالة خطبة مختلفة وإليك بعض الأمثلة:

"جمهرة البلاغة" كتاب فريد له عن بلاغة القرآن فتحدث في خطبته عن صفة النطق للإنسان وجمع الكلم للنبي وإعجاز القرآن البلاغي فيقول:

¹ مجلة "الضياء"، لکناؤ، 258/7/1

"سبحان الذي فضّل بني آدم على سائر الخلائق فجعله الحيّ الناطق كما فضّل محمداً على سائر بني آدم فأعطاه أبلغ الكلم فلنشكرن ربنا الرحمن بداية على أن علّمنا البيان ونهاية على أن نزل علينا القرآن ولا شكر لمن جهل بالنعمة فضيعها أو حوّلها فأخطأ موضعها فوجب علينا أن نعرف أسرار البيان وفضائله كما وجب علينا أن نعرف إعجاز القرآن ودلائله لنستكمل من فطرتنا عنصرها ونستسقي من عيون الوحي كوثرها".¹

وللفراهي رسالة غير تامة في نظام القرآن سمّاها بـ"دلائل النظام" وذكر فيها دلائل على كون القرآن كتاباً منظماً فيقول في خطبتها:

"الحمد لله الصانع الخلق على أكمل نظام وأحسن قوام والواضع الأشياء في أجدر مقام وأرفق مصام والصلاة والسلام على المؤيد بأبلغ كلام وخاتم النبوة بالإتمام".²

كتاب "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" يثبت أن الذبيح هو إسماعيل وأن كون إسحاق ذبيحاً فكرة خاطئة. ولقد استدل على هذه الدعوى بدلائل عديدة من القرآن والكتب السماوية القديمة وآثار الصحابة والتابعين فيقول في خطبته:

"والحمد لله خالق الوجود من العدم وجاعل النور من الظلم ومخرج الصبر من الألم وملقي التوبة على القدم --- ونصليّ على رسوله الكريم سيد ولد آدم الذي بشّر به عيسى بن مريم ودعا لبعثته إبراهيم حين يرفع قواعد البيت المحرم".³

وثانياً: قدرته على اللغة: في زمننا لا يرتضي النقّاد بالنثر المسجّع والمقفى. ومن أشنع مناقصه أن مثل هذه الكتابات تفقد السلاسة ويصعب على القراء قراءتها بسهولة وزدّ عليها الكلمات والتراكيب الزائدة التي يستخدمها الكاتب لملأ الفراغ أو لتزيين العبارة. ولكن الزمن الذي نشأ فيه الإمام الفراهي كان زمن النثر المقفى

¹ المعلم عبد الحميد الفراهي، جمهرة البلاغة، مطبعة "معارف"، أعظم كره، 1360هـ، ص 1

² المعلم عبد الحميد الفراهي، دلائل النظام، الدائرة الحميدية، ط 1، 1388هـ، ص 11

³ المعلم عبد الحميد الفراهي، الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، الدائرة الحميدية، 1328هـ، ص 1

والمسجّع فتمشّى الفراهي مع عصره ولكنه لم يثقل كلامه بالكلمات والتراكيب الزائدة وأحكمه بنظام شديد. وفوق ذلك أن نثره سلس سيّال فلا يواجه القراء أي صعوبة في قراءته ولا في فهمه. لنقرأ ما يلي من نماذج نثره المسجّع السلس. يبدأ الإمام الفراهي تفسيره "نظام القرآن" بما يلي من الخطبة:

"الحمد لله الذي ظلّ علينا سرادقاً من السماء الزرقاء وعلّق فيها المصابيح زهراً، وزيّنها بالشمس والقمر يقلّبه هلالاً وبدراً، وجعل له منازل شفّعاً ووتراً، حساباً ولتعدّ أيام السنين شهراً فشهرها، وجعل الليل والنهار خلفاً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكراً، ووسم آناءهما مواقيت الصلاة عشاء وفجراً وعشيّاً وظهرها، لنحمد فيها ربّنا ولا ننسى له ذكراً".¹

ويكتب خطبة كتابه "مفردات القرآن" كما يلي:

"الحمد لله الذي هدانا للإيمان مما أنعم علينا بالقرآن وحفظه عن النسيان وتحريف البيان بما يسره على اللسان وبما أحى لغة بين عدنان على تقادم الزمان ثم الصلاة على سيّدنا محمد الذي أيّده بأقوى سلطان وأبقى برهان بما أرسله بهذا الفرقان الذي هو غاية الهدى وتمام التبيان"---².

وثالثاً: سعة الاطلاع: الدارس لخطب الإمام عبد الحميد الفراهي سيعرف في أول وهلة أن كاتبها له اطلاع واسع على مختلف اللغات وقد درس كافة العلوم والفنون اللازمة فإنه ليس بأديب العربية فحسب بل قد مارس آداب اللغات الأخرى من الأردوية والإنجليزية والسنسكريتية والفارسية.

ولقد عرف الإمام الفراهي منزلة القرآن في كل علم وفن فما لعبه الكتاب العزيز من دور مهمّ في إحياء ورقّي اللغة العربية يبرز من الفقرة التالية لخطبة الإمام الفراهي:

¹ المعلم عبد الحميد الفراهي، تفسير سورة البقرة، الدائرة الحميدية، الطبعة الأولى، 2000م، ص 19

² المعلم عبد الحميد الفراهي، مفردات القرآن، مطبعة "الإصلاح"، 1358هـ، ص 2

"--- بما يسره على اللسان وبما أحى لغة بني عدنان على تقادم الزمان ---".¹

ولنقرأ ما كتبه الإمام الفراهي عن صفة النبي محمد وأصحابه الغر الميامين فيقول الفراهي:

"الحمد لله الذي أنزل الكتاب، والصلاة والسلام على رسوله الذي أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب، وعلى آله وأصحابه الذين هم في الكتاب من أولي الألباب".²

هذه خطبة وجيزة ولكنها تدل على ثلاث صفات لثلاثة أشياء على حدة فدلّت على نزول القرآن من الله العزيز الحكيم، وعلى كون النبي جامع الكلم وفصل الخطاب، وعلى كون الصحابة من أولي الألباب فكأن الكل متصف بالحكمة التي هي إحدى صفات الرب تعالى.

ورابعاً: استخدام المفردات والآيات القرآنية: ولو أننا نجد الكثير من استخدام مفردات والقرآن وتعايره وآياته في كتابات الإمام الفراهي ولكن خطبه أيضاً ليست محرومة من هذه الصفة للفراهي فنجدها بارزة في خطبه أيضاً فيقول، مثلاً، حين ذكر إبراهيم في إحدى خطبه:

"--- دعا لبعثته إبراهيم حين كان يرفع قواعد بيت الله المحرم ---".³

وكذا يذكر السور التي تبتدئ بـ"حم" فيقول:

"--- والصلاة والسلام على رسوله الكريم محمد المؤيد بآل حم المبشر بملكوته ---".⁴ ويقول بعد الحمد لله والصلاة على رسوله:

¹ مفردات القرآن، المصدر نفسه، ص 2

² المعلم عبد الحميد الفراهي، فاتحة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، مطبعة "إصلاح"، 1357هـ، ص 1

³ الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، المصدر نفسه، ص 1

⁴ المصدر نفسه، ص 1

"--- الحمد لله الواحد الصمد --- الذي لم يلد ولم يولد ---"¹

وقال عن لقاء النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل:

"--- أن تصلي على محمد ذي المقام الأسنى، صاحب قاب قوسين أو أدنى ---"²

فهو يفهم الكلمات التي تحتها خط إلا من له إلمام بالقرآن وعلومه.

وخامسًا: السجع القرآني: مضى آنفًا أن الإمام الفراهي لاحظ السجع في خطبه ولكن السجع الذي لا يملّ القارئ ولا يجبره على مراجعة القواميس والمعاجم مرارًا وتكرارًا فتراه يختار الأسلوب القرآني للسجع السلس، ويغيّر القوافي، على عادة القرآن، كلما يشعر بملل القراء وسأتمته. فيقول، مثلًا:

"الحمد لله الذي وطّأنا من الأرض نمارق خضرا، ورقش أزهارها نقطًا وسطرا، ولونها حمراء وشقرا وبيضًا وصفرا، لنعمل في بدائع صنع ربنا فكرا، وجعل عليها من الجبال وقرا، التي خلق فيها مما يوقدون عليه وبه فحمًا وحديدًا وفضة وذهبًا ونحاسًا وقطرا، منافع للناس وأحجارًا يغلون لها سعرا، ويتخذون منها حليًا مرصعة وشذرا ---"³

ويقول في خطبة كتابه "إمعان في أقسام القرآن":

"سبحان الذي أنطق كل شيء بأنه صنع يده وغذى رفده وتصبح الشمس لكبريائه ومجده ويسجد له القمر بجبينه وخده وينتهد له البرّ بغوره ونجده ويحفد إليه البحر بجزره ومدّه كما قال الله تعالى في كتابه "تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده" ونصلي على محمد رسوله المختار وعبدته وعلى آله وصحبه المعتصمين لحبله وعهده والتابعين لهم على سواء السبيل وقصده"⁴

¹ في ملكوت الله، المصدر نفسه، ص 3

² فاتحة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، المصدر السابق، ص 1

³ فاتحة تفسير نظام القرآن، المصدر السابق، ص 35

⁴ تفسير سورة البقرة، المصدر السابق، ص 18

وسادساً: استخدام مفردات الحديث النبوي: بجانب استخدام مفردات القرآن وتعاييره وأساليبه نجد الإمام الفراهي يستخدم مفردات الحديث النبوي ويرصّع به نثره ويزين به جملة، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أنه كان من الملمّين بالحديث النبوي الشريف والواقفين على مدّه وجزره، حلوه ومزّه. يقول، مثلاً، وهو يشير إلى كون النبي "لبنة أخيرة" لصرح النبوة والرسالة:

"--- بعثه في آمن البلد وسدّ به موضع اللبنة الأخيرة في قصر النبوة المصمّد ---".¹

ويقول وهو يشير إلى بعثة النبي بالدين الحنيف والدين اليسر:

"--- بعثه بحنيفية سمحاء فأعطاه ديناً يسراً ووضع به ما كان أغلاً وإصراً ---".²

ويقول وهو يشير إلى بناء الأمة على اتباع السلف الصالح:

"--- فأراد أن يرفع عن فرائد القرآن خدراً، وأراد أن يصلح آخر هذه الأمة بما أصح به أولها فشرح من بعضهم لفهم كتابه صدرًا ---".³

وسابعاً: حقبة المواد: من أهم أصول ومقاييس البلاغة لدى العرب "الصدق" فكانوا يصدقون حديثاً وما كانوا يكذبون، وكانوا مفتخرين بصدق كلامهم فيقول عبيد بن الأبرص:

القائل القول الذي مثله يمرع منه البلد الماحل

فكانوا يكرهون الكذب وينفرون عنه. والإمام الفراهي لسلامة طبعه وإلمامه بكلام العرب كان يصدق ولم يكذب فقد شهد ضدّ والده في قضية وأيدّ الخصم المعارض. هذا وعندما نقرأ مؤلفاته ورسائله نجدها مليئة بما هو الصدق. وليس هذا فحسب بل خطبه أيضاً تتصف بهذه الصفة فمحتوياتها كلها صدق وصفاء.

¹ المعلم عبد الحميد الفراهي، إمعان في أقسام القرآن، المطبعة السلفية، القاهرة، 1328هـ، ص 3

² فاتحة نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، المصدر السابق، ص 1

³ تفسير سورة البقرة، المصدر السابق، ص 22

وقد شهد بها شاهد أجنبي ألا وهو العلامة تقي الدين الهلالي الذي قال عن خطبته لتفسيره حينما قرأها:

"سمعت منه خطبة تفسيره للقرآن اغرورقت منها عيناى لفصاحتها وحقيتها".¹

فكلمة "حقيتها" تشير إلى هذا الجانب من خطب الإمام الفراهي.

وثامناً: الجدة والبدعة: والشئ البارز من حياة الإمام الفراهي أنه دائماً يفضل البحث والتحقيق ولا يحب التقليد وأن أعماله وآثاره بريئة من التقليد الأعلى. وهكذا حدث مع خطبه لمختلف رسائله فهو دائماً يرجح البحث والجدة فعندما ندرسها نجدها مشتملة على الحمد لله والصلاة على رسوله والصحابة والتابعين وعلماء الأمة ولا نجد لها قاصرة عن النبي وآله فيقول، مثلاً، في إحدى خطبه:

"اللهم نحمدك --- ونسأله أن تصلي على محمد ذي المقام الأسنى".²

ويقول في موضع آخر:

"الحمد لله خالق الوجود من العدم. فصلّى عليه وسلّم وعلى أتباعه خير الأمم الذين بارك بهم كافة الناس من العرب والعجم".³

ويقول في خطبة أخرى:

"الحمد لله الصانع الخلق على أكمل نظام - والصلاة والسلام على --- محمد المبعوث لهداية كافة الأنام --- وعلى آله وأصحابه الكرام ---".⁴

ويقول في خطبة كتابه "القائد إلى عيون العقائد":

"الحمد لله رب العالمين --- ثم الصلاة على جميع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين---".⁵

¹ المصدر نفسه، ص 23

² فاتحة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، المصدر السابق، ص 35

³ الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، المصدر السابق، ص 1

⁴ دلائل النظام، المصدر السابق، ص 11

⁵ المعلم عبد الحميد الفراهي، القائد إلى عيون العقائد، الدائرة الحميدية، ط 1، 1975 م، ص 3

هذا عن محتويات الخطبة الفراهية وأما عن أسلوبها فنجده أيضًا بديعًا فلا يخاطب الله بصيغة الغائب فحسب بل نجده يخاطبه بصيغة الحاضر أيضًا فبجانب "الحمد لله الذي ---" نجده يقول كذلك: "اللهم نحمدك بأسمائك الحسنى ونسألك أن تصلي على محمد ذي المقام الأسنى صاحب "قاب قوسين أو أدنى" ونسألك اللهم أن تخلصنا عن هواجس المني وتمنحنا من ذكرك ذكرًا لا يفنى".¹ فلم يقل "الحمد لله" بل قال "اللهم نحمدك ---".

خلاصة القول: بدا مما كتبنا أنفًا أن الإمام عبد الحميد الفراهي كان عالمًا كبيرًا للعلوم الإسلامية لاسيما القرآن الكريم وحديث صاحبه عليه الصلاة والتسليم، وقد تضلع من مختلف اللغات العالمية والمحلية كما نال العلوم الجديدة فكان مجمع البحرين القديم والجديد. استفاد الإمام الفراهي من هذه العلوم في مؤلفاته ورسائله خير استفادة وأحسنها فنجد مؤلفاته مليئة بالقديم والجديد من العلوم والفنون. وبجانب هذه الصفات كان الإمام الفراهي يبغض التقليد ويفضّل البحث والتحقيق في كل مجال وفي كل علم تناوله بالدراسة فنرى كتاباته متصفة بالجدة والروعة نثرًا كان أو نظمًا، وخطبه لمختلف رسائله ومؤلفاته ليست بمحرومة من صفاته تلك فتراها بليغة ورائعة يغلب عليها الطابع القرآني.

¹ فاتحة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، المصدر السابق، ص 35

المصادر والمراجع

1. البروفيسور ظفر الإسلام الإصلاحي، كتابيات فراهي، إداره علوم القرآن، علي كره، الهند، 1991م
2. البروفيسور عبيد الله الفراهي (جمع وتدوين)، علامه حميد الدين فراهي- حيات وأفكار، منظمة طلاب مدرسة الإصلاح الأقدمين، سراي مير، أعظم كره، 1992م
3. الدكتور شرف الدين الإصلاحي، ذكر فراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سراي مير، أعظم كره، 2001م
4. السيد سليمان الندوي، ياد رفتگان، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 1999م
5. مجلة "ترجمان دار العلوم جديد" الشهرية الصادرة عن منظمة طلاب دار العلوم بديوبند الأقدمين، نيو دلهي
6. المعلم عبد الحميد الفراهي، الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، الدائرة الحميدية، 1328هـ
7. المعلم عبد الحميد الفراهي، القائد إلى عيون العقائد، الدائرة الحميدية، ط 1، 1975م
8. المعلم عبد الحميد الفراهي، إمعان في أقسام القرآن، المطبعة السلفية، القاهرة، 1328هـ
9. المعلم عبد الحميد الفراهي، تفسير سورة البقرة، الدائرة الحميدية، الطبعة الأولى، 2000م
10. المعلم عبد الحميد الفراهي، جمهرة البلاغة، الدائرة الحميدية، سراي مير، أعظم كره، 1360هـ
11. المعلم عبد الحميد الفراهي، دلائل النظام، الدائرة الحميدية، ط 1، 1388هـ
12. المعلم عبد الحميد الفراهي، فاتحة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، مطبعة "إصلاح"، 1357هـ
13. المعلم عبد الحميد الفراهي، مفردات القرآن، مطبعة "الإصلاح"، 1358هـ
14. مجلة "الضياء" الصادرة عن لکناؤ، الهند

العلامة عبد الحميد الفراهي ومساهمته في الشعر العربي

- د. عرفات ظفر الأعظمي¹

إن العلامة عبد الحميد الفراهي كان من أبرز شعراء العربية في الهند، الذين لهم باع طويل في اللغة العربية وقدرة موهوبة على قرض الأبيات والقصائد، فترك الفراهي ديوان شعر في العربية يشتمل على قصائد غراء زاخرة بذكر الدعاء والثناء والتذكير والتهنئة والحكمة والأخلاق والوقائع والأحداث بأسلوب رائع يتسم بعذوبة البيان ومتانة التركيب وسهولة العبارة وقلة التكلف، وهو خير شاهد على كونه أديبًا بارزًا وشاعرًا قديرًا في هذه اللغة. ولكن- كما نعلم- أن مضماره الخاص الذي انصرف إليه من أنضر عمره إلى آخر أنفاس الحياة، كان فهم القرآن وإفهامه والغوص في آياته والكشف عن حكمه ومعارفه، فتغلبت سمته هذه على شخصيته إلى حد أن أصبح هذا الجانب الأدبي والشعري لحياته هامشيًا، وقلمًا يعرفه الناس كشاعر وأديب.

فلا شك في أن الفراهي كان شاعرًا فطريًا وأديبًا موهوبًا، وكان منذ طفولته ميالًا إلى الشعر والأدب، فبعد تعلم اللغة الفارسية قرض قصيدة بالفارسية على منوال شعراء الفارسية الأقدمين، ولم يناهز عمره السنة السادسة عشر في ذلك الحين¹. وكذلك تعلم الفراهي اللغة العربية من كبار علماء العربية وأدبائها في الهند، وتلمذ على إمام اللغة والأدب الشيخ فيض الحسن السهارنفوري لكسب الاختصاص في الأدب العربي، كما يقول العلامة سيد سليمان الندوي في هذا الصدد:

"أخذ الأدب العربي من إمام اللغة العربية وشاعرها المفلق في ذلك العصر الشيخ فيض الحسن السهارنفوري أستاذ اللغة العربية في كلية العلوم الشرقية

¹ أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة لکناؤ، لکناؤ، الهند

¹ مختصر حيات حميد، ص 3-4

العدد الخاص مجلة الهند

بلاهور، فبرع في الآداب العربية، وفاق أقرانه في الشعر والإنشاء، قرأ دواوين الجاهلية كلها، وحلّ عقد معضلاتها وقنص شواردها، فكان يقرض القصائد على منوال الجاهليين ويكتب الرسائل على سبك بلغاء العرب وفصحائهم².

ويقول العلامة المذكور في موضع آخر عن نبوغه في العربية:

"قد تفرغ الفراهي من التعليم العربي عام 1300 هـ بما يطابق سنة 1884 م في عمر لم يتجاوز عشرين سنة، وبلغ ذروة الكمال في الأدب العربي، وفي الحقيقة أنه سبق على أساتذته في هذا المجال ويشهد عليه ديوانه العربي"³.

وكان الفراهي ينظم الأبيات والقصائد بالعربية بفضل قريحته الشعرية الوقادة وبراعته العجيبة في اللغة العربية، وهو من أولئك الشعراء القلائل في الهند الذين قرضوا الأبيات في اللغات الثلاث من الأردية والعربية والفارسية. ولكنه بشغفه البالغ بدراسة القرآن الكريم وانقطاعه إلى أمور دينية مهمة أخرى لم يجد الفرصة ليولي اهتماماً لائقاً بالشعر والأدب. وفي الحقيقة لقد حاول الفراهي أن يستخدم الشعر لكي يوفر منفذاً لموهبته الشعرية الفطرية، فكلما جاشت فيه العواطف وهزت روحه الحوادث تفجرت منه الأشعار وفاض قلبه على القرطاس، وقد أبرز الشيخ بدر الدين الإصلاحي هذه النقطة بالكلمات الآتية:

"إن أستاذنا الإمام كان أديباً بليغاً وشاعراً حكيماً،.....ولكنه مع ذلك لم يقرض إلا قليلاً، وذلك لأنه قد انقطع، بحول الله وتوفيقه، من بدء شبابه إلى النظر في القرآن والتدبر فيه، حتى وجد منه ما تهادى به العواطف وتطمئن به القلوب وتسكن إليه الأرواح، فبه سكنت عوامل الشعر وهذأت ولكنه مع هذا إذ كان في نفسه شاعراً مطبوعاً، فإذا جاشت فيه عاطفة شديدة وهجمت عليه فهو إذن يقرض"⁴.

² إمعان في أقسام القرآن، ص16

³ مختصر حيات حميد، ص5

⁴ ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي، ص5

ومع الأسف الشديد نكتب هنا أن قدرًا ملحوظًا من كلامه العربي قد ضاع ولا يوجد له أي أثر الآن، وقد أشار جامع ديوان الفراهي إلى هذا الجانب قائلاً:

"قد أخبرنا بعض الثقات أن له قصائد لم تصل إلينا أيدينا، فيخطر ببالنا أن كان له شيء مما عداها، فهو إما أن يكون قد تلاعبت به أيدي الأيام وأفنته وإما أن يكون موجودًا عند أخلائه أو تلامذته، فإن كان عندهم شيء منها، فالرجاء منهم أن يتفضلوا به علينا".⁵

يعني ذلك أنه قد ذهب جزء من أعماله الشعرية أدراج الرياح بسبب عدم اكتراث الناس بها، وضاع لأن الشعر لم يكن قط موضع عناية جادة عند الفراهي. ومن المعلوم أن الفراهي قرض قصيدة رائعة بليغة رثى بها أستاذه الشيخ فيض الحسن السهارنفوري بعد وفاته، وقد جاء بذكر هذه القصيدة الشيخ أمين أحسن الإصلاحي ضمن بيان العلاقة القائمة بين التلميذ وأستاذه، إذ هو يقول: "إن القصيدة التي قرضها الفراهي بالعربية عند وفاة الشيخ السهارنفوري ينم كل بيت منها عن حزنه الشديد وألمه البالغ".⁶ وكذلك نظم الفراهي قصيدة جيدة بالعربية وهنأ بها الشاعر الإسلامي الكبير الشيخ الطاف حسين حالي المتوفى 1914م حينما خلعت عليه الحكومة الإنجليزية لقب "شمس العلماء" وبعثت بها إليه، فكتب الشيخ حالي رسالة إليه وشكره فيها على كلمات التهنية قائلاً:

"أنا أشكركم من أعماق قلبي على تهنئتكُم الحارة التي بادرتُم بها إليّ، فاعتبرها لنفسِي وثيقة للفخر والامتنان. وسوف أقوم بطباعة أشعاركم الفصيحة والبليغة مع الافتخار في أية جريدة، فلم أجد الفرصة لترجمتها حتى الآن وسأرسلها اليوم أو الغد مع الترجمة إلى لاهور".⁷

وتجدر الإشارة هنا إلى أن القصيدتين المذكورتين لم يتم العثور عليهما حتى الآن، وقد أصبحنا الآن نسيًا منسيًا، وكذلك لا نجد أي أثر لتلك القصائد والأبيات التي

⁵ المصدر السابق، ص 7

⁶ مختصر حیات حمید، ص 31

⁷ ذکر فراهی، ص 167

العدد الخاص مجلة الهند

قرضها الفراهي بالعربية في أوائل عمره وفي عنفوان شبابه الذي يعتبر موسم الربيع لمثل هذه الأعمال، وبذلك ينكشف الفرق بين ديوانيه العربي والفارسي، لأن ديوانه الفارسي يتكون من كل أنواع الشعر، إذ أن كلامه العربي لا توجد فيها هذه الصفة، وذلك لأن أبياته التي أنتجها الفراهي في أيام شبابه قد ضاعت واندرست، وبقيت على وجه الدهر تلك القصائد فقط التي قالها الفراهي بعدما رسخ عقله ونضج فكره في الموضوعات الجدية من التذكير والتهنئة والحكمة والأخلاق والقضايا الإسلامية المعاصرة.

علي أية حال، فإن الأبيات والقصائد الموجودة في ديوانه المطبوع تكفي لوضعه في صف كبار شعراء العربية الهنود لبعض ميزاته الشعرية الخاصة، ولعله بهذا السبب قال الباحث الكبير الأستاذ أبو محفوظ الكريم المعصومي بعد ذكر أسماء شعراء العربية الهنود:

"وخاصة الشيخ فيض الحسن السهارنفوري والعلامة الفراهي والشيخ راغب البدايوني هم أعلى مكاناً وأرفع درجة في الشعر العربي في الهند".⁸

والآن نستعرض فيما يلي أعمال الفراهي الشعرية استعراضاً شاملاً لكي نوضح مكانته في حلبة الشعر، وتبرز مساهمته في الأدب العربي الذي أنتجته قرائح العلماء والأدباء الهنود.

ومما يبدو أن الفراهي بدأ قرض الأشعار ونظم القصائد أثناء إقامته في علي كره في حين أنه كان طالباً في الليسانس، وأول قصيدة قرضها الفراهي بالعربية في إبان هذه الفترة هي قصيدته التي نظمها لتهنئة العلامة شبلي النعماني حينما لقبته الحكومة الإنجليزية بـ "شمس العلماء" في سنة 1894م، وهذه القصيدة باكورة أعماله الشعرية والأدبية باللغة العربية، ويجدر بالملاحظة هنا أن الفراهي قدم إنتاجاته الأدبية الأولى باللغتين العربية والفارسية في قالب الشعر ولم يكن هذا

⁸ مجلة معارف، اعظم كره، 201/3/56، مارس 1950م

العدد الخاص مجلة الهند

الأمر إلا مجرد صدفة ودالّ على قريحته الشعرية الموهوبة. وأيًا كان الأمر، فإن قصيدته في تهنئة العلامة شبلي خير شاهد على براعته في اللغة العربية وأساليها المختلفة، إذ هو يقول في غرة هذه القصيدة:

يا خير من يسمو إلى العلياء كالشمس بازغة بوسط سماء
قد كنت قدمًا للمعالي ساميًا أورثته عن شيمة الآباء
لاذت بجانبك العلوم فإنها لو لم تصنها أذنت بفناء
فربت رياض العلم منك وأنبئت مهتزة بغصونها الخضراء
ويختم كلماته الشعرية هذه بما يلي:

فلأسألن الله طول بقاءكم في كل بكرتنا وكل عشاء
وأهنئكم بما أعطيتكم من خير ما وجدوا من الأسماء
إن كان تلك الشمس شمس سماءها فلصرت شمس العلم والعلماء
إذ أنت شمس العلوم سماؤكم فالشمس شمسي والسماء سمائي⁹
تتسم هذه الأشعار بروعة الخيال وعذوبة البيان وحسن التعبير وصدق العواطف، وتنم عن علاقة الشاعر الوطيدة مع ممدوحه العلامة شبلي النعماني، وألقى الفراهي في هذه الأبيات الضوء على أصالة أسرة شبلي ومآثر آبائه الكريمة، كما ابتكر فيها معاني جديدة بمناسبة الكلمة "شمس العلماء".

تعليم الحكمة والموعظة في أشعار الفراهي: ولا شك في أن العلامة الفراهي كان شاعرًا ذا نزعة إسلامية، فلم يتبع خطوات أولئك الشعراء الذين وصفهم القرآن الكريم قائلًا: "والشعراء يتبعهم الغاؤون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون". بل إنه كان ينتمي إلى تلك الفئة من الشعراء الذين يقول عنهم ربنا الكريم: "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرًا". (سورة الشعراء: 224-227)، فإنه لم يقرض الأشعار لتسلية القلب وترويح الفؤاد أو الهروب من

⁹ ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي، ص 33-34

العدد الخاص مجلة الهند

حقائق الدنيا واللجوء إلى أحضان الأحلام الوردية. وكذلك لم تكن تشوبه شائبة الهواية والغواية، بل كان شعره يمتاز بتعليماته القرآنية ونزعاته الدينية ودروسه الخلقية وشاعريته النضجة، فإنه كان يعلم الأخلاق والحكمة بأشعاره ولم ينحرف حتى في الشعر أيضاً عن ذلك الطريق الذي أرشده إليه نبيّنا الكريم صلى الله عليه وسلم، فجعل قول نبيّنا الكريم "إن في الشعر لحكمة" غاية ومعيّاراً لشاعريته ووضعه أمام عينيه قبل الدخول في حلبة الشعر والأدب. ومن جراء هذا كله نجد جزءاً كبيراً من ديوانه يشتمل على تعليم الحكمة والموعظة الحسنة والاستعاذة بالله والتذكير بالموت، فيستهل ديوانه بالدعاء والتضرع إلى الله والاستعاذة به من جميع وساوس النفس ومكايد الشيطان وفتنة الأموال والأولاد، وهو بمثابة إكليل لديوانه، فيقول الفراهي في هذه القصيدة المعنونة بـ"في الاستعاذة".

أعوذ بالله العظيم الأفضال	الغافر الذنب الشديد الأنكال
من همزات النفس ذات الإيغال	نفثات كل باغ مختال
وفتنة الحرص وطول الآمال	وفتنة الأهل ومال ميال
وفتنة الدنيا كرقراق الآل	وفتنة العلم وزيف الأقوال
وفتنة الجهل وسوء الأعمال	وفتنة الشيطان رأس الضلال ¹⁰

وأتي بعد ذلك بقصيدة عنوانها "في غفلة الإنسان" التي يدعو فيها الإنسان إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، فقد نبّه الشاعر بها الناس من غفلتهم وحذرهم من تقلبات الدهر وذكرهم بفناء الحياة وحقيقة الموت والآخرة بأسلوبه المرن الفصيح الجذاب، وهذه القصيدة مثل نبراس الرشد والهداية للأنام، فيقول فيها الشاعر:

أما للناس أحلام	أهم في السكر نوام
وهم وراد حوض المو	ت أصـرام فأصـرام

¹⁰ المصدر السابق، ص 9

العدد الخاص مجلة الهند

فأبــــــــــــــــاء وأبــــــــــــــــاء وأخــــــــــــــــوال وأعــــــــــــــــمام
فحبــــــــــــــــل الموت مــــــــــــــــددود وحبــــــــــــــــل العــــــــــــــــيش أرمــــــــــــــــام
وهــــــــــــــــم باللهــــــــــــــــو واللــــــــــــــــذا ت مشــــــــــــــــغولون ما دــــــــــــــــاموا¹¹
وله قصيدة طويلة رائعة أخرى بعنوان "في تقلب الأيام بالناس" ومن خلالها أنه
يذكر الناس بالموت وينذرهم بمكائد الزمان وزوال القوة والمال والحياة، ويحثهم
على الأعمال الصالحة كما أنه يوصي الإنسان بأن يعيش في هذه الدنيا كأنه غريب
أو عابرسبيل فيقول فيها الفراهي:

العــــــــــــــــيش إحــــــــــــــــلاء وإمــــــــــــــــرار والــــــــــــــــدهر إقــــــــــــــــبال وإدبــــــــــــــــار
بيننا الفــــــــــــــــتى يرفل في قصــــــــــــــــره إذ نابــــــــــــــــه بــــــــــــــــؤس وإقــــــــــــــــطار
وكم رخي العــــــــــــــــيش في قصــــــــــــــــره يفغــــــــــــــــمه مســــــــــــــــك وأزهار
إذا رفــــــــــــــــع النعش لــــــــــــــــه بغتــــــــــــــــة فضــــــــــــــــمه تــــــــــــــــرب واحجــــــــــــــــار
إذا سلب الملك فلم يــــــــــــــــغنه جنــــــــــــــــد وأحــــــــــــــــراس وأســــــــــــــــوار¹²
قرض الشاعر هذه الأبيات في أسلوب عربي فصيح على منوال الشعراء
المتقدمين، فيقول أحد من النقاد عنه كما يلي: وهو إذ كان ماهراً باللسان الذي
أنزل فيه القرآن وبارعاً فيه فيقرض على منوال الجاهليين وينشد على سبك
فصحائهم".¹³ وتحتوي هذه الأشعار على مشاعر الفراهي الإسلامية وأفكاره
الدينية كما أنها تدل على اهتمامه البالغ بهداية الناس وتذكيرهم بالموت والآخرة
وارشادهم إلى الطريق السوي، فلا يتسكع في شعره في عوالم خيالية، لا علاقة
لها بحياة الناس وواقعهم، بل انه شاعر حب خالص، وإيمان صادق وشعره
يحمل في طياتها رسالة وعقيدة وحكمة ودعوة. وبسمو فكره وعلو همته أنه
يسترعي انتباه القراء ويفوز بثقتهم.

¹¹ المصدر السابق، ص10

¹² المصدر السابق، ص11-12

¹³ المصدر السابق، ص5-6

العدد الخاص مجلة الهند

وكذلك تنم هذه الأشعار عن وجهة نظر الفراهي المتعلقة بالشعر والأدب وتلقي الضوء على مكونات الشعر الإسلامي وعوامله وعناصره، ومن هنا يمكن لنا أن نستنبط من شاعريته مبادئ الأدب الإسلامي وأصوله، وقد أشار إلى هذا الجانب السيد عروج أحمد القادري عندما استعرض ديوانه، فهو يقول:

"إن ما تأثرت به للغاية من خصائص أدب العلامة الفراهي هو أن نظريته في الأدب نظرية إسلامية خالصة. وفي مجال الأدب أيضًا أنه لم ينصرف عن ذلك الطريق الذي يرشدنا إليه أدب القرآن، فلا توجد عنده الازدواجية في الأدب بحيث أنه يتبع في النثر القرآن وفي النظم والشعر يسلك مسلك الحافظ والخيام".¹⁴

ولا شك في أن شاعريته تتميز بجودتها وروعيتها ومتانة أسلوبها، ولا نلاحظ فيها الغموض والتكلف وقلة العطاء الفكري واللغوي، وهذه واضح من كلمات الأستاذ الشيخ بدر الدين الإصلاحي الآتية: "إن شعره كان جيد السبك، رائق الأسلوب، بديع الخيال، قوي المنطق يمتاز بقليل الحشو، إنك تجد في شعره ما لا تجد في غيره من جزالة اللفظ ورشاقة الأسلوب".¹⁵

إن العلامة الفراهي لم ينظم الأبيات والقصائد إلا لتحقيق أهداف دينية وأغراض نبيلة ومن هنا أصبحت قصائده مجموعة ثمينة للحكم والمعارف وسراجًا منيرًا للرشد والهداية، وأنه في قصائده دائمًا يلفت أنظار الناس إلى الحقائق الباهرة من الأرض والسماء ليتذكر بها أولو الألباب وليتفكر فيها أصحاب العقل والنهى وخير دليل على هذا القول أبيات الفراهي التالية:

سرمع العقل أينما سار	درمع الحق حيثما دارا
لا تهولنك ليلة عكرت	إن بعد الظلام أنوارا
إن في الليل والنهار وفي	الشمس والنيرت تذكارا

¹⁴ مجلة "زندكي"، رامفور، نومبر سنة 1967م، ص 60

¹⁵ ديوان المعلم الفراهي، ص 6

راكعات مسـبحات يدعو ننا للـسجود أسـحارا¹⁶
ولا يختلف اثنان في أن قصائد الفراهي تتسم بالسهولة والبساطة إلى حد أنه لمن الصعب أن يأتي أحد بمثلها ولا يتأتى هذا النوع من الشعر إلا بعد التمكن من اللغة العربية وألفاظها وأساليبها تمكناً كاملاً، وكل من يلقي نظرة على ديوانه يلاحظ فيه هذه الميزة، ولأجل ذلك قال أحد النقاد بعد تحليل عناصر شاعريته وإبراز محاسنها الفينة والأدبية:

"قد جاء نظمها سهلاً خفيفاً، يطمع السامع أن يأتي بمثلها، ولكنه إذا حاول، عجز، إنه قد أتى بقريضه للغة العربية دقة في التركيب، رقة في الأداء، جمالاً في الأسلوب، حسناً في الخيال، رونقاً في البيان وطلاوة في المعنى. وإن هذه كلها تدل على أنه كان من الشعراء المطبوعين المجيدين الذين لا يقرضون إلا بفيض قريحتهم ووهي فطرتهم".¹⁷

ومن الأهمية بمكان أن نذكر بأن الشعر العربي حتى عهد الفراهي كان يتصف بالصنائع اللغوية والزخارف اللفظية والمحسنات الكلامية، فتأثر بها كبار شعراء العربية في الهند وتصبغت شاعر يهتم بهذه الصنعة اللغوية والطبعة الهندية، ولكن الفراهي مصون عنها ولم تتأثر بها شاعريته لا في الشكل ولا في المضمون، بل إنها تجري على الأساليب العربية الفطرية والأحاسيس الذاتية الصادقة، وهذه كلها تدل على ذوقه العربي الصحيح، وذلك لأن الفراهي لم يكن شاعراً تقليدياً بل أنه كان شاعراً مطبوعاً وموهوباً يبتكر معاني أصيلة ويبدع أفكاراً جديدة، كما أنه يختار لشاعريته كلمات رشيقة وأساليب متينة، فيقدم أمام القراء تصويراً واضحاً لما يتدفق به قلبه من العواطف والوجدان ويعبر عن مشاعره وخواطره تعبيراً دقيقاً صادقاً.

تأثير القرآن في ديوان الفراهي: وبجانب هذه الخصائص الشعرية والأدبية والمزايا الأسلوبية المتواجدة في أشعار الفراهي المشتملة على تعليم الحكمة والموعظة الحسنة نسمع في أشعاره أصداء الآيات القرآنية ونشاهد فيها جمال التعابير

¹⁶ المصدر السابق، ص35

¹⁷ المصدر السابق، ص6

العدد الخاص مجلة الهند

والكلمات القرآنية. لأن الشاعر أو الأديب إذ يكون متأثرًا بأسلوب كاتب أو كتاب ينعكس هذا التأثير على أسلوب كتابته، وقد أسلفنا الذكر أن العلامة الفراهي قد انقطع إلى مطالعة القرآن منذ عنفوان شبابه وقضى معظم ساعات حياته في روضة القرآن، فكان القرآن عمل ليله ونهاره، فكان من الطبيعي أن يتحلى شعره بأزهار ذات ألوان متنوعة من القرآن ونشم من شاعريته رائحة حديقة الهدى والفرقان. وبرزت هذه الميزة في شعره إلى حد أنها أصبحت أكبر ميزة لشاعريته. والآن نود أن نلقي نظرة على ديوان شعره العربي في ضوء هذه الحقيقة ونبرز هذه الميزة قدر استطاعتنا، ليتضح بأنه كيف كان يستوحي من آيات القرآن ومعانيه وتعبيراته عند قرض الأبيات، وكيف كان ينظم الآيات والكلمات القرآنية في عقد شعره وكيف كان يسكب معاني القرآن ومفاهيمه في قوالبه الشعرية بلباقة فنية. فنقدم فيما يلي بعض الأشعار من قصيدة قرضها الفراهي بعنوان "في نور الحكمة والإيمان" ليثبت أنه كيف كان يستفيد من الآيات القرآنية وكيف كان يدمج كلماتها وأساليبها في قوالب الشعر، فيقول الفراهي في القصيدة المذكورة حيث أنه يصور الإيمان:

فمثل الإيمان يلمع في	قلب سليم للتقى راع
مثل سراج في زجاج كمثل	الكوكب الدرّي لماع
في وسط مشكوة ويوقد من	زيتونة في خير أقطاع
من البلاد لا بشرقية	ولا بغربية أصقاع
كاد يضيء زيتها قبل أن	تمسه النار لإشّماع
نور على نور ومن يهده	الله له يهتد بإسراع ¹⁸

فكل من يقرأ هذه القصيدة يتبادر إلى ذهنه الآيات التالية لسورة النور:

"الله نور السماوات والأرض، مثل نوره كمشكوة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري، يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية،

¹⁸ المصدر السابق، ص 13

العدد الخاص مجلة الهند

يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله بنوره من يشاء
ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شئ عليم." (سورة النور: 35)

وفي نفس القصيدة يقول الفراهي:

ومثل الكفار أعمالهم	كيلمع رقرق بالقاع
يحسبه الظمان ماء فياً	تيه به إهراع وإيضاع
حتى إذا ما جاءه لم يجد	شياً سويًا غير خداع
ووجد الله لديه فوفا	ه جزاء الصاع بالصاع
ومثل الكفر عماياته	غطت على قلب وأسماع
كظلمات البحر هاجت به	الأرواح من هوجاء زعزاع
فظلمات بعضها فوق بعض	طبقت ليس بشعشاع ¹⁹

فنرى كيف تنعكس على هذه الأشعار معاني القرآن وتسبح فيها الكلمات
والتعبيرات القرآنية، فكل من يلقي عليها نظرة عابرة ينتقل ذهنه إلى تلك الآيات
القرآنية التي استلهمت منها هذه الأبيات في الشكل والمعني، وهذه الآيات كما تلي:

"والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم
يجده شيئاً، ووجد الله عنده، فوفاه حسابه، والله سريع الحساب، أو كظلمات في
بحر لحي يغشاه موج، من فوقه موج، ومن فوقه سحب، ظلمات بعضها فوق
بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا، فماله من نور."
(سورة النور: 39-40)

وبناء على مثل هذه الأشعار يمكن لنا أن نتصور مدى تأثره بالقرآن واستيحائه
منه. وأثناء دراسة هذه الأشعار قد خطر ببالنا مرارًا وتكرارًا أن الفراهي ربما أراد
أن يترجم القرآن بشكل منظوم في اللغة العربية. ولكن الأجل لم يمهلته لإنجاز هذا

¹⁹ المصدر السابق، ص 13-14

العدد الخاص مجلة الهند

العلم العظيم. وفي السطور التالية نود أن نقوم بالمقارنة بين أبياته والآيات القرآنية بقليل من التفصيل تحت عناوين فرعية:

الكلمات والتعبيرات القرآنية في أشعار الفراهي: لا غرو في أن شاعرية الفراهي تدور حول القرآن الكريم وتستلهم منه في ألفاظها وأساليبها وفي معانيها ومطالبيها، لأن القرآن هو المحور والأساس لجميع نشاطات الفراهي العلمية والأدبية واللغوية والثقافية، فلا يعمل عملاً إلا بدافع القرآن ولا يتفكر في أمر إلا بفكر القرآن ولا يشاهد شيئاً إلا بمنظار القرآن. وإذا كان الأمر هكذا فلا مكان للاستغراب إذ يستخدم الفراهي ألفاظ القرآن وأساليبه للتعبير عما يجيش في قلبه من المشاعر والعواطف، ولكن الأمر الذي يثير استعجابنا في هذا الصدد هو قدرته الفائقة على حسن انتقاء هذه الكلمات والتعابير وبراعة استعمالها في الأبيات والقصائد. وفيما يلي نقدم على سبيل المثال بعض أبياته المقتطفة من ديوانه التي جاءت فيها الكلمات والتعبيرات القرآنية وبعدها ننقل تلك الآيات حيث استعملها القرآن، وذلك لكي يتجلى ولوعه بالقرآن وبراعته في استخدام كلماته وأساليبه في أشعاره، فيقول في إحدى قصائده التي قرضها الفراهي بعنوان "في ثوران الفتنة البلقانية" بمناسبة هجوم المسيحيين على مدينة طرابلس واعتداءاتهم ضد الإسلام والمسلمين. فأراد الفراهي أن يهز مشاعر المسلمين بواسطة أبياته هذه، إذ يدعو جميع الشعوب الإسلامية لمواجهة أعداء الإسلام:

شبت على بلقان نار الحروب	أشعلها بالبغي أهل الصليب
يا كرد، يا تاتار، يا كابل	يا كل من لله <u>عبد منيب</u>
فالآن يا إخوان ما بالكم	<u>قد مسكم من الجهاد لغوب</u>
ما بالكم لا <u>تنفرون</u> وقد	حل على الإسلام <u>يوم عصيب</u>
<u>يبلى</u> وكم الله ببأس العدى	فإن أمر الله يبلى القلوب ²⁰

²⁰ المصدر السابق، ص 24-25

العدد الخاص مجلة الهند

فكل الكلمات التي تحتها الخط في الأشعار المذكورة مقتبسة من القرآن الكريم واستخدمها القرآن في نفس المعنى في مواضع مختلفة، فمثلاً: "إن في ذلك لآية لكل عبد منيب" (سورة سبأ: 9)، "وما مسنا من لغوب" (سورة ق: 38)، "انفروا خفافاً وثقلاً..." (سورة التوبة: 41)، "وقال هذا يوم عصيب" (سورة هود: 77)، "ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع..." (سورة النساء: 154).

ويقول في قصيدة أخرى قرضها بعنوان "في ذكر الملحمة الكبرى" التي يصف فيها الفراهي مفاصد الحرب العالمية الأولى التي أسفرت عن الدمار الشامل في العالم ويشير إلى عواقبها الوخيمة:

لقد حل بالروم شر شمر	فغار الحروب بهم تستعر
فهم حصب كالهشيم اليبس	يصلونها زمراً فزمر
فإن لم يتوبو ولم يتقو	هبطشهم بطشة المقتدر
كذا الروم لما طغوا في البلاد	ويعثون في الأرض بحرّاً وبر
شديد المحال، شديد النكال	حديد الفؤاد، حديد النظر
فدمرها وسبى أهلها	وما كان إلا كلمح البصر
ولما قضى النحب منها استمر	غرباً فأضرم فيه السعير
فكر إلى الشرق فاستعجلت	كتائب روس تولى الدبر ²¹

فنلاحظ كيف انتقى الفراهي الكلمات القرآنية ونظمها في سلك الشعر، وكل هذه الكلمات التي تحتها الخط مأخوذة من القرآن الكريم، فمثلاً: "إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم..." (سورة الأنبياء: 98)، "يصلونها يوم الدين" (سورة الانفطار: 15)، "إن بطش ربك لشديد" (سورة البروج: 12)، "الذين طغوا في البلاد" (سورة الفجر: 11)، "ولا تعثوا في الأرض مفسدين" (سورة البقرة: 60)، وهو شديد المحال" (سورة الرعد: 13)، "وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر" (سورة القمر: 50)، "فمنهم من قضى نحبه" (سورة الأحزاب: 33)، "سيهزم الجمع ويولون الدبر" (سورة القمر: 45).

²¹ المصدر السابق، ص 24-25

العدد الخاص مجلة الهند

فعلى أساس هذه الكلمات والتعبيرات القرآنية المنتشرة في أشعار الفراهي يمكن لنا القول بأنه لا يوجد أي بيت في ديوانه إلا أنه يتحلى بألفاظ القرآن وأساليبه.

التعليمات والمفاهيم القرآنية في شاعريته: لم يكتف الفراهي باستخدام الكلمات والتعبيرات القرآنية، بل أنه جعل شاعريته وسيلة لنشر الدعوة الإسلامية والتعليمات القرآنية ولذا في أكثر الأحيان نعثر في ديوانه على أشعار تحمل في طياتها معنى آية من آيات القرآن ومفهومها، فنقدّم فيما يلي بعض الأبيات المقتبسة من ديوانه مع الإشارة إلى تلك الآيات التي لخصها الفراهي في تلك الأبيات، فهو يقول في قصيدة يستعيز فيها بالله عزّ وجل من جميع الغوايات والفتن:

أعوذ بالله العظيم الأفضال الغافر الذنب الشديد الأنكال
من همزات النفس ذات الإيغال ونفثات كل باغ مختال
وفتنة الحرص وطول الآمال وفتنة الأهل ومال ميال²²
ألا يتجلى في البيت الأخير معنى الآية: "إنما الأموال والأولاد فتنة..." (سورة التغابن: 14)، وفي قصيدة أخرى يقول الفراهي ملفتاً أنظار الناس إلى مصيرهم المحتوم واجتماعهم بيوم الحشر والجزاء يوم الحساب:

وهم لا بد محشورون يومًا وهو أيام
عن النعماء مسؤلون والسائل عـلام²³
تنطوي هذه الأبيات على معاني بعض الآيات القرآنية، وكثيراً ما نجد هذه المعاني في القرآن الكريم: فمثلاً يقول عز وجل: "ونحشرهم يوم القيامة" (سورة طه: 123)، ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم" (سورة التكاثر: 8)، "إنك أنت علام الغيوب" (سورة المائدة: 116)

وكذلك يقول المعلم الفراهي في قصيدته المعنونة بـ "في نور الحكمة والإيمان":

²² المصدر السابق، ص9

²³ المصدر السابق، ص10

يعنى به الغاوي ويهدي به عبد على نهج الهدى ساع²⁴
ويؤدي القرآن هذا المفهوم في هذه الكلمات: "يضل به كثيرًا ويهدي به كثيرًا (سورة البقرة: 26).

وكذلك يقول الفراهي في إحدى قصائده الرائعة المعروفة بـ"في تناول الطليان على طرابلس" ناصحًا المسلمين بأن يعدوا أنفسهم ويدججوا جيوشهم بالمعدات العسكرية الحديثة لمواجهة اعتداءات المسيحيين واليهود فهو يخاطب أهل الإسلام قائلاً:

واستجمعوا عددا فما تجري السفين على اليبس
أعني المراكب والمدافع والكنايب والحرس
وتعلموا حيل الحروب - الخصم الشرس²⁵
ولا شك في أن هذه الأشعار تحمل في طياتها معنى الآية: "أعدوا لهم ما من قوة ومن رباط الخيل..." (سورة الأنفال: 60)

وعلى هذا النحو يقول الفراهي في قصيدة له بعنوان "في الرجوع الى العقل" وقد نظم فيها الفراهي معاني بعض الآيات القرآنية بأسلوب بارع يدل على مهارته في تقديم الكلمات والمعاني القرآنية بشكل منظوم، فالآيات التالية أحسن دليل على هذا القول:

لا تهولنك ليلة عكرت إن بعد الظلام أنوارا
إن في الليل والنهار وفي الشمس والنيرات تذكارا²⁶
فالمعاني والأفكار التي تشتمل عليها الأشعار الأنفة الذكر، قد جاءت في مواضع مختلفة من القرآن، فيقول سبحانه و تعالى: "فإن مع العسر يسرا" (سورة ألم

²⁴ المصدر السابق، ص13

²⁵ المصدر السابق، ص16

²⁶ المصدر السابق، ص35

العدد الخاص مجلة الهند

نشرح: 5)، وأيضًا "تلك الأيام نداولها بين الناس..." (سورة آل عمران: 140)، وكذلك يقول ربنا الكريم: "إن في خلق السموت والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب". (آل عمران: 190)

ونلاحظ نفس الأسلوب والبيان في البيت الآتي من منظومته التي يقول فيها:

يا بؤس للدنيا شقيًا سعيدها فيا ويل من يسعى لها يستزيدها²⁷

فنجد فحوى هذا البيت في الآية الكريمة التي يقول فيها سبحانه وتعالى: "ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها" (سورة آل عمران: 145).

ولا شك في أن ديوان الفراهي كله زاخر بالقصائد والأبيات التي تحمل المعاني والمطالب القرآنية وتقدم الاحكام والتعليمات الإلهية في طياتها، لأن شاعرية الفراهي، كما قلنا من قبل، ليست شاعرية مهنية جوفاء، بل لها أغراض سامية وأهداف نبيلة يعرفها أهل العلم واصحاب الفن بطريق أحسن.

الآيات القرآنية في شعر الفراهي: وبجانب استخدام الكلمات والمفاهيم القرآنية في أشعاره قد يستعمل الفراهي الآيات القرآنية نفسها في قصائده بحذaque شعرية تامة، بحيث لا يختل وزن الشعر وقافيته مطلقًا، فننقل هنا بعض الأمثلة من ديوانه، فهو يقول في إحدى قصائده:

واستنصروا الله المهيمن في العشي وفي الغلس
"ولينصرن الله ممن ينصـره" فليحتمس²⁸

وهنا وضع الشاعر الفراهي قوله تعالى "ولينصرن الله من ينصره" (سورة الحج: 40) في وسط شعره بمهارة فنية تامة، وعلى هذه الشاكلة يقول في قصيدة أخرى:

إن تصبروا الله لا يخـركم فإن الله علينا رقيب

²⁷ المصدر السابق، ص 36

²⁸ المصدر السابق، ص 16

يا قومنا إن تصبروا يأتكم نصر من الله وفتح قريب²⁹
فنلاحظ في البيت الأخير كيف استخدم الفراهي الآية: "نصر من الله وفتح قريب"
(سورة الصف: 13) بمنتهى البراعة والمهارة في شعره.

الانسجام الصوتي بين شعر الفراهي وآيات القرآن: لا ريب في أن القرآن الحكيم ليس كتاب شعر أو مجموعة منظومات كما يقول القرآن بنفسه في هذا الصدد: "وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين". (سورة يس: 69). لقد أنزل الله تعالى القرآن تذكيرًا لكافة الناس وهدايتهم بلسان عربي بين، ولكن باستخدام الكلمات الملائمة والأساليب المتزنة المتسقة بين الآيات قد تنبثق منها نغمة لاهوتية وموسيقى عذبة تمس القلوب وتسحر الأذهان وتثير العواطف وربما كان هذا هو التأثير المعجز للقرآن والانسجام الصوتي الأنيق بين آياتها الذي كان يجذب قلوب الإنس والجن إليه. فالعلامة الفراهي الذي كان يغوص في أعماق القرآن ويستخرج الدرر واللائي من قيعانه، كان يتذوق بهذه النغمة اللاهوتية ويتلذذ بها، فنشعر بتأثيرها في كلامه العربي، وخير شاهد على هذا الانسجام الصوتي الموجود بين آيات القرآن وأشعار الفراهي قصيدته التالية التي تشتمل على أربعة أبيات فقط، يقول فيها الفراهي:

سر مع العقل أينما سار در مع الحق حيثما دارا
لا تهولنك ليلة عكرت إن بعد الظلام أنوارا
إن في الليل والنهار وفي الشمس والنيرات تذكارا
راكعات مسجات يدعو ننا للوجود أسحارا³⁰
فكل من يقرأ هذه الأبيات وله نظرة واسعة في القرآن الكريم، سيؤديه هذا التناغم والانسجام الصوتي الموجود في الأشعار المذكورة أنفًا على الفور إلى الآيات التالية من سورة نوح:

²⁹ المصدر السابق، ص 25

³⁰ المصدر السابق، ص 35

"قال رب إني دعوت قومي ليلاً و نهاراً، فلم يزد هم دعائي إلا فراراً،...ثم إني دعوتهم جهاراً، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً، فقلت استغفروا ربكم، إنه كان غفاراً، يرسل السماء عليكم مدراراً...ويجعل لكم أنهاراً، مالكم لا ترجون لله وقاراً، وقد خلقكم أطواراً...وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً...، ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً،...ولا تزد الظلمين إلا تباراً." (سورة نوح من 5 إلى 28)

وعلى هذا النحو بسبب تواجد الانسجام الصوتي الرائع بين آيات القرآن وأشعار الفراهي نسمع أصداء الآيات القرآنية في أكثر أشعاره ونشعر تلك النغمة اللاهوتية من منظوماته، وإن دلت هذه كلها على شيء فإنما تدل على تفانيه في مطالعة القرآن بحيث لا يخرج شيء من لسانه وقلمه إلا بعد الاستحمام من حوض القرآن. وعلى أساس هذه الحقيقة يمكن لنا القول بأن من أهم ميزات شاعريته هو تأثير القرآن على معظم آرائه وأفكاره، إذ أنه قد استوحى منه الشكل والصوت والمعنى لأكثر أبياته وقصائده.

وقد حان الوقت أن نقوم بتحليل قصائد الفراهي وأبياته التي تشتمل على ذكر الحروب التي دارت بين إيطاليا وتركيا وتأجج لهبها في طرابلس وبلقان، وأهرقت فيها دماء المسلمين الأبرياء، فتركت هذه المعارك الدامية الفراهي مضطرباً وقلق البال، ففاضت مشاعره وعواطفه في قالب الأشعار من لسانه، فمثل هذه القصائد والأشعار تنم عن أن الفراهي كان يملك قلباً حساساً وكان هذا القلب يتفطر ويتوجع بكل ما كان يحدث على ساحة الأقطار الإسلامية، فكان يستشعر بمصائب إخوانهم المسلمين وآلامهم، كما كان يتأسف على أحوال الأمة الإسلامية ويتأوه. وهذا الأمر يدل على أنه كان يؤمن بالأخوة الإسلامية التي تربط أبناء الأمة الإسلامية ببعضهم ببعض، فكل من يطالع هذه القصائد يتبادر إلى ذهنه ذلك الحديث النبوي صلى الله عليه وسلم الذي وصف فيه نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم المسلمين المؤمنين قائلًا: " ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم

العدد الخاص مجلة الهند

كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى.³¹ وفيما يلي نأتي بذكر القصائد والأبيات التي قرضها الفراهي للفت أنظار المسلمين إلى الحروب التي مني فيها أبناء الأمة الإسلامية بخسائر فادحة، فاثارت مثل هذه الحروب عاطفة الفراهي الإسلامية وأخوته الدينية.

الأخوة الإسلامية في قصائد الفراهي: لا شك في أن شاعرية الفراهي تفوح منها رائحة الأفكار الدينية والعواطف الإسلامية كما تنبعث منها أريج الآيات القرآنية فلما هاجمت القوات الإيطالية مدينة طرابلس وأراقت فيها دماء المسلمين الأبرياء وتيتم فيها عدد كبير من الأطفال المسلمين وترملت كثير من النساء المسلمات، أصبح الفراهي جريح القلب بكل ما حدث مع أبناء الإسلام في هذه المدينة، فجاشت عاطفته الإسلامية إلى حد أنه رفع صوته ضد المظالم والاعتداءات على المسلمين وانتهاك حقوق الإنسان في البلدان العربية وسكب عواطفه هذه في قالب الأشعار، وأبرز بمنتهى الشدة والقوة الوحشية والهمجية التي ارتكبتها القوات الإيطالية ضد الأبرياء من المسلمين، فصور الفراهي تلك الأحداث الدامية أمام العيون ببراعة فائقة فهو يقول معرباً عن حزنه وألمه وسخطه وغيظه قائلاً:

غدرت بنا الروم الفواجر	ذاك الذي كنا نحاذر
شبت إيطاليا الحـرو	ب ومالهـا في الناس عاذر
حثت لها أبناءها	الغاوين في الهيجاء المضاجر
ليدوخوا ملكاوين	تهبوا المدائن والعمائر
فاتوا طرابلس التي	لاحت لهم أدنى المعابر
دخلوا المدينة يقتلو	ن بها الأكابر والأصاغر ³²

وفي قصيدة رائعة أخرى عنوانها "في ذكر هجوم الطليان وظلمهم" قد رثى بها الشاعر بمنتهى الحزن والأسى أولئك المسلمين الذين لاقوا حتفهم في طرابلس،

³¹ الجامع الصحيح للبخاري، كتاب الأدب، باب 27، ص 1279

³² ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي، ص 19

العدد الخاص مجلة الهند

وهذه القصيدة أحسن دليل على حمية الشاعر الدينية وأخوته الإسلامية، فبكى نفسه في هذه القصيدة وأبكى الناس على أحداث طرابلس، إذ هو يقول:

يا عين بكى بالهوامع	لا ترقأ أن لك المدماع
قتلى طرابلس الذ	ين تطحطحت بهم القوارع
نبكى على إخواننا	أهل المكارم والدسائس
دهمتهم الروم الفوا	تك بالمراكب والمدافع
قتلوا المراضع في المضأ	جع والضوارع في الشوارع
لا دين عندهم ولا	حلم عن العدوان وازع
يبدون نصرانية	زوراً وقد رفضوا الشرائع
بل يشمئز الكفر مما	يركبون من الشنائع ³³

وليس من شك في أن هذه الأحداث الفاجعة والمظالم الشنيعة الواقعة على بعد شائع عن موطن الفراهي قد أثارت حفيظته وعواطفه الأخوية الإسلامية، كما هز أحاسيسه ونزعاته الدينية إلى حد أنه بادر بسكب مشاعره وعواطفه هذه في قوالب الشعر باللغة العربية، وأصبحت شاعريته في هذه المرحلة قيثارة الأسى والألم، فأبياته التالية التي قرضها الفراهي إثر استيلاء المسيحيين على مدينة طرابلس، خير شاهد على هذا القول، كما أنها تدل على موهبته الشعرية وقدرته الفائقة على التعبير عن خوالجه النفسية، فهو يصرخ قائلاً:

كيف القرار وقد نكس	أعلامنا بطرابلس
كيف القرار وحولنا	الأعداء ترتقب الخلس
نبكى على إخواننا	بين القتيل ومن حبس
نبكى لربات الخدو	ر شرقت بالماء السلس
هم أهلنا وعشيرنا	أفيألمون ولا نحس

³³ المصدر السابق، ص 17

العدد الخاص مجلة الهند

هل ترتضون بذل دينكم وليس بملتبس
والله لا نرضى به مادام فينا من نفس³⁴
ومن الملاحظ هنا أن العلامة الفراهي لعله قد أدرك في تلك الآونة من الزمن كل ما
سيحدث في البلاد العربية في الأيام القادمة وأنه قد تكهن بكل ما يحدث الآن في
أرض فلسطين وفي الأماكن المقدسة بسبب المؤامرات والمكيدات التي حاكها اليهود
والنصارى قبل سنين، فيشير في نفس القصيدة إلى تلك المشاكل والفتن التي
سيتعرض لها المسلمون في القريب العاجل قائلاً:

فاليوم إن لم تدفعوا	فليأتين يوم النحس
إنني أرى فتناً تموج	وقد ظهرن لمن حدس
يبغون قسطنطينية	وبعداً أرض القدس
قد صيح في حجراتها	ولتسمعن لها الجرس
فلننضحن أو نقتلن	عن قدسنا القوم النجس
فاحموا ذمار الملة	البيضاء كالأسد الشكس ³⁵

ولما تم الصلح بين الأتراك والإيطاليين ووقعوا كلا الجانبين على اتفاقية الصلح
لوقف إطلاق النار، احتدم الفراهي غضباً ولم يكن مستعداً لقبول هذا الذل
والانصياع فقرض قصيدة عاتب فيها أولئك الأتراك الذين كانوا وراء اتفاقية
الصلح مع المسيحيين الخادعين الغاشمين، فرفع الفراهي من بلاد الهند صوته
ضد هذه المسألة والمصالحة وقال:

يا ترك! لا تبغوا الهونيا	لا تنعموا الحساد عينا
أتسلمون عدونا	وتركتمونا بين يينا
نحبي الخلافة بالسيو	فالباترات إذا انتضينا

³⁴ المصدر السابق، ص 15-16

³⁵ المصدر السابق، ص 16

العدد الخاص مجلة الهند

فربت حدائق مجدها بدمائنا لما سقينا
إن العدو هم هم لو تبصرون كما رأينا
لا سلم بالطليان حتى يتركوا بلدًا ثويننا
فالموت خير من حياة تحتوي ذلاً وشيئنا³⁶

الخلافة التركية في نظر الفراهي: إن المسلمين الهنود دائماً اعتنوا بالقضايا الإسلامية اعتناء بالغاً سواء كانت هذه القضايا تتعلق بحرب طرابلس وبلقان أو بأحداث أرض فلسطين، وقد ظهر هذا التحمس والاهتمام في أروع أشكاله وأشد مظاهره إبان "حركة الخلافة" التي كانت موجهة ضد الاستعمار الإنجليزي في الهند وكانت تهدف إلى تأييد وتدعيم الخلافة التركية والمطالبة بإقامتها في العالم الإسلامي من جديد، ومع أن العلامة الفراهي لم يكن عضواً لهذه الحركة، إلا أنه أعرب بشدة عن رأيه في هذا الشأن عن طريق قصيدة نظمها بالعربية، فننقل هنا بعض الأبيات من هذه القصيدة التي تكفي لإلقاء الضوء على موقفه من هذه القضية، فيقول في هذه القصيدة العلامة الفراهي:

غروا بأن البعد بين العرب والأتراك شاشع
وبأن بين قلوبنا صدعاً من الأضغان واسع
يا ضلة لم تعلموا أن الخلافة خير جامع
فلنبدلن لها النفوس ودون حوزتهم اندفاع
ما الترك إلا مثل كف الباسل العاري الأشجاع
والعرب مثل أصابع لا كف إلا بالأصابع³⁷

فيتضح من هذه الأبيات أن العلامة الفراهي كان من أكبر مؤيدي الخلافة التركية القائمة في أكثر البلدان العربية وذلك لأنه كان يعتبرها بمثابة العروة الوثقى للمسلمين جميعاً.

³⁶ المصدر السابق، ص 21-22

³⁷ المصدر السابق، ص 18

العدد الخاص مجلة الهند

القومية الإسلامية عند الفراهي: إن الشعب المسلم في شبه القارة الهندية قام ولا يزال يقوم ضد التمييز العنصري والقومية الضيقة والوطنية المحدودة إذ أنه يؤمن بالوحدة الإنسانية العالمية ويؤيد الجامعة الإسلامية الشاملة، ومن الجدير بالذكر هنا أن العاطفة الدينية والأخوة الإسلامية لا تنافي في أي حال من الأحوال عاطفة الحب للوطن ولكنها تمنع الإنسان عن تقديس الوطن وعبادته والغلو في تمجيده، وذهب إلى هذا الرأي الشيخ أبو الحسن علي الندوي قائلاً: "في الحقيقة لا منافاة بينهما، فالإنسان يستطيع أن يجمع بين الحب لوطن روجي وجسي".³⁸ فالعلامة الفراهي أيضًا كان يعتقد بالقومية الإسلامية الشاملة وأعرب عن هذا الرأي في قصائده المختلفة، كما يقول في قصيدة قرضها بعنوان "في ثوران الفتنة البلقانية":

شبت على بلقان نار الحروب أشعلها بالبغي أهل الصليب
لم تبق في الأفاق أرض بها الإسلام إلا نالها من لهيب
يا كرد، يا تاتار، يا كابل يا كل من لله عبد منيب
يدعوكم الإسلام جهراً إلى ذب العدى عنه فهل من مجيب
قوموا لنصر الحق من فوركم واستنفروا من كل مرد وشيب³⁹
عن طريق هذه الأشعار خاطب الشاعر المسلمين بأجمعهم القاطنين في مختلف أقطار العالم الذين يربطهم رباط القومية الإسلامية وناشدهم الفراهي أن يتأهبوا للحفاظ على دينهم الحنيف وللقيام بالذود عن وطنهم الديني والروحي الذي قد أصبح عرضة للهجمات الشرسة. وعلى هذا النحو خاطب الفراهي المسلمين جميعاً في موضع آخر قائلاً:

يا أمة الإسلام يا أبناء آباء شمس
هل تنعسون وخصمكم عن كيده ما إن نعس
هل لا ذكر تم ما أصاب المسلمين بأندلس

³⁸ المسلمون في الهند، ص 145

³⁹ ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي، ص 24-25

سلبوكم شطر البلاد وما لها من ملتمس⁴⁰
فلا شك أن هذه الأشعار كلها تدل على اعتقاده الراسخ بالقومية الإسلامية الجامعة. فيتضح من خلال هذه الدراسة أن الفراهي يبدو تارة في ديوانه العربي كمعلم الحكمة والأخلاق وتارة أخرى أنه يبرز كشاعر مفسر وملهم يقدم التعليمات الإلهية والتعابير القرآنية في شعره، وتارة ثالثة أنه يظهر في أبياته كمسلم حساس ومؤمن صادق يلتهب غيرة وحماسة وحمية للإسلام والمسلمين، يفيض تألماً وحرقة على أوضاع المسلمين المشجية المبكية للقلوب دماً لا دمعاً، فيتفطر قلبه على ما يعانيه المسلمون من المصائب والمظالم في مختلف أصقاع العالم، وجاشت مشاعره وخواطره إلى حد أنها ظهرت في صورة الأشعار التي تمس القلوب وتمز الشعور وتثير العواطف والوجدان. فنظرًا لهذه القصائد والمنظومات كانت الحكومة الإنجليزية في تلك الفترة تراقب جميع نشاطات الفراهي وتبحث عن تلك المنظومات التي نظمها في مدح الأتراك وتأييد الخلافة.⁴¹ فلا ريب في أن شاعرية الفراهي مليئة بالأفكار الإسلامية والعواطف الدينية وخاصة مما قرصها من الأبيات خلال حرب طرابلس وبلقان، ولذلك نال قبولاً وسمعة في العالم العربي أيضًا، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ أحمد السنوسي المتوفى 1933م لما سمع هذه القصائد انهمرت الدموع من عينيه.⁴² وكذلك أعرب العلامة تقي الدين الهلالي المراكشي عن رأيه حول شعر الفراهي معترفًا بعظمة شعره وسمو فكره، فتشرف العلامة الهلالي بزيارة الفراهي أثناء إقامته في الهند، وسنحت له الفرصة للاستماع إلى هذه القصائد من لسان الشاعر، فهو يكتب في هذا الخصوص:

"وللشيخ المذكور (عبد الحميد) ديوان شعر سمعته منه، بليغ مؤثر في استنهاض همم المسلمين، وبث الحياة في قلوبهم وذكر عداء الأفرنج لهم وذكر حرب طرابلس والحرب الكبرى".⁴³

⁴⁰ المصدر السابق، ص 15-16

⁴¹ ذكر فراهي، ص 629

⁴² مختصر حيات حميد، ص 61

⁴³ ذكر فراهي، ص 23

العدد الخاص.....مجلة الهند

فلا مرأ في أن الفراهي من أبرز شعراء العربية في الهند، لأنه شاعر بارع مطبوع وأديب موهوب مقتدر، خلف آثاره الشعرية في اللغات الثلاث من الأردية والعربية والفارسية ويمتلك ثروة لغوية هائلة قلما تتوفر لأحد وقد منحه الله قدرة فذة عجيبة على التعبير والبيان باللغة العربية، وأما أسلوبه في شاعريته فهو آية في الروعة والجمال والسهولة والمتانة والقوة والتأثير، يذكي جمرات الإيمان والإيقان والغيرة والحماسة في قلوب القراء من الشباب والشيخوخة على السواء، وكذلك يتميز شعره برهافة الحس وصدق العواطف وسعة الخيال ورقة في البيان. فكل هذه الحقائق إن دلت على شيء فإنما تدل على عظمة الفراهي الشعرية ومكانته الرفيعة في تاريخ الشعر العربي في شبه القارة الهندية.

الدائرة الحميدية

- د. أورك زيب الأعظمي¹

مدخل:

من المعاهد غير الرسمية التي أقيمت لنشر وتبليغ فكرة الإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله تعالى "الدائرة الحميدية" التي أسست في رحاب مدرسة الإصلاح التي قام الإمام الفراهي في تشييد صرحها الفكري فاستقال لها عن منصبه الجليل (عمادة الكلية الشرقية بحيدرآباد) ووقف حياته الباقية على خدمتها مرتباً جيلاً من العلماء الأجلة الذين واصلوا سيرها العلمي وجعلوا البذرة التي طرحها الإمام الفراهي في أرضها شجرة خضراء لها فروع ممتدة وأثمار كثيرة منتشرة في مختلف أنحاء العالم. وفيما يلي موجز عن تاريخها ومختلف مراحل رقيها ودورها البارز في نشر وتطوير العلوم والفنون لا سيما الدراسات القرآنية.

تاريخ تأسيسها وأهدافها: نظراً لإتمام ما بدأ به الإمام عبد الحميد الفراهي² (المعروف بـ"حميد الدين الفراهي") (18/ نوفمبر 1863-11/ نوفمبر 1930م)

¹ مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة المليية الإسلامية (نيو دلهي)
² هو الإمام عبد الحميد (حميد الدين) الفراهي من أهالي "فريها" (Fariha) إحدى قرى مديرية أعظم كره. نال العلوم الابتدائية والفارسية على الشيخ مهدي حسن كما أخذ العلوم العربية الابتدائية والمتوسطة على الشيخ شبلي النعماني ثم ذهب إلى العلامة الأديب فيض الحسن السهارنفوري على مشورة ابن عمته العلامة النعماني الذي كان أحد تلامذة السهارنفوري فأصبح متضلعا من العربية وراغبا في التفكير في القرآن. تعلم اللغة الإنجليزية في علي كره حيث نال العلوم الجديدة على المستشرق توماس أرنولد (Thomas Arnold) وأما العبرية فقد تعلمها على المستشرق الألماني جوزف هورفتش (Joseph Horovits) الذي تعلم عليه العربية. كان له إلمام تام بالصحف السماوية الأخرى واطلاع واسع على العلوم الإسلامية والحديثة. انقطع إلى التدبر في القرآن فصار إماماً في التفسير. استفاد منه العلامة مناظر أحسن الغيلاني وأبو الكلام آزاد والعلامة السيد سليمان الندوي. فلسفته لنظام القرآن فريدة من نوعها. من آثاره القيمة "تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" و"إمعان في أقسام القرآن" و"الرأي

العدد الخاص مجلة الهند

وإبلاغ رسالته وفكرته عامة العلماء والمفكرين في البلاد وخارجها وبث الوعي فيما بين المسلمين وإيقاظهم من النوم الثقيل¹ قام الشيخ أمين أحسن الإصلاحي² (1904-1997م) وزميله في الدرس اختر أحسن الإصلاحي³ (1901-1958م)

الصحيح فيمن هو الذبيح" و"مفردات القرآن" و"جمهرة البلاغة" و"ديوانه العربي". اعترف بعلو كعبه في العلوم وفصاحته في البيان علماء جزيرة العرب والعالم الإسلامي كله. (راجع لسيرته التامة: "إمعان في أقسام القرآن" و"ذكر فراهي" و"الترجمة الإنجليزية لـ"حكمة القرآن")¹ مجلة "الإصلاح" الشهرية، 5/1/7

² هو الشيخ أمين أحسن بن الحافظ محمد المرتضى من أهالي "بمهور" (Bamhur) إحدى قرى مديرية أعظم كره. تعلّم العلوم الابتدائية في قريته ثم التحق بالصف الثالث في كتاب مدرسة الإصلاح من حيث تخرّج في 1922م ثم ذهب إلى بيجنور (Bijnaur) حيث عمل كمدير تحرير مساعد لجريدة "مدينة" كما عمل في مجلتي "غنتشة" (Ghunchah: النورة) و"ستش" (Sach: الصدق) لمدة سنتين ثم رجع إلى أستاذه العلامة عبد الحميد الفراهي الذي علّمه القرآن من جديد فعينه أستاذًا بمدرسة الإصلاح. ساهم الشيخ في تأسيس الدائرة الحميدية وأصدر مجلة "الإصلاح" الشهرية. وعندما نادى العلامة المودودي بجماعته لحقه في 1958م مرتحلًا إلى باكستان ثم تركه في 1959م وأصدر مجلة شهرية باسم "ميثاق" تركها بعد مدة وأصدر مجلة شهرية أخرى باسم "تدبر" قائمًا بتأسيس "إداره تدبر قرآن" (معهد التدبر في القرآن) الذي أصبح فيما بعد "إداره تدبر قرآن وحديث" في 1980م. من أهم مؤلفاته "تفسير تدبر قرآن" و"حقيقة توحيد وشرك" و"حقيقة نماز" (حقيقة الصلاة) و"تزكية نفس" (تزكية النفس) و"إسلامي رياست" (تصور الدولة الإسلامية). كان عالمًا كبيرًا أنفق كافة أوقاته في التأليف والخطابة. (راجع لسيرته المفصلة: "الشيخ أمين أحسن الإصلاحي وتفسيره تدبر القرآن" مقالة الكاتب المنشورة في ثقافة الهند، 176-125/2/55 و"ترجمة إنجليزية لـ"حقيقة الصلاة" و"العدد الخاص بشخصيته وأثاره لمجلة علوم القرآن نصف السنوية")

³ هو اختر أحسن بن جنيد عالم من أهالي "أملو تشكيا" (Amilo Chakiya) إحدى قرى مديرية أعظم كره. تربى في قرية "سيدها سلطانفور" (Sīdha Sultānpūr) حيث كان بيت أمها الحنون وذلك لأن أمها ماتت في صغره فزجره أبوه وطرده. تعلّم كافة العلوم في مدرسة الإصلاح على الشيخ العلامة حميد الدين الفراهي والشيخ شبلي المتكلم والشيخ عبد الرحمن النغرامي والحكيم محمد أحمد السلفي. كان أذكي تلامذة الإمام الفراهي الذي كان شيخه وأستاذه الحق في علوم القرآن. كان بارعًا في كلام العرب القح والقرآن الكريم. تعيّن كأستاذ في مدرسة الإصلاح التي تخرّج منها في 1922م فبقي يدرّس حتى موته في 9/ أكتوبر 1958م. لم يكتب إلا مقالات معدودة. كان خلقه القرآن. (راجع لسيرته الكاملة: "شيدائ قرآن" (الكلف بالقرآن) للدكتور عناية الله السبحاني و"تذكرة علماء أعظم كره" للشيخ حبيب الرحمن الأعظمي و"نقوش وتأثرات" للشيخ جليل أحسن الندوي)

العدد الخاص مجلة الهند

ومعالج الفراهي الطبيب حفيظ الله¹ (ت 1949م) بتأسيس معهد علي سَمَوَه "الدائرة الحميدية" في المدة ما بين 1935م و1936م² وهذا الاسم جاء نسبة للشيخ حميد الدين الفراهي الذي كان أستاذ الأولين وهو الذي نادى بفكرة مركزية القرآن ومصدريته لكافة العلوم الإسلامية وغير الإسلامية حتى علوم الحديث والفقه.³

¹ هو الحاج الحافظ الطبيب حفيظ الله المرحوم من قرية بكمهرا (Bakhra) في مديرية أعظم كره. حفظ القرآن في صغر سنه وأنهى دراسته الدينية بسرعة ثم جعل يتعلم في مدارس الحكومة وأما الثانوية فقد تعلمها في كلية الملكة (Queen's College) بفارانسي ثم التحق بكلية كولكاتا الطبية (Calcutta Medical College) ولكنه غادرها لأنها كانت تعطي شهادة LKS فالتحق بكلية الملك ايدوارد الطبية (King Edward Medical College) من حيث تخرج في 1911م نائلاً شهادة MBBS وفي 1919م تعين كطبيب في خدمات الولاية الطبية (Provincial Medical Services) وتدرّج فيها حتى بلغ درجة جراح المدينة (Civil Surgeon) في 1929م وتعين أول ما تعين كحامل هذا المنصب في علي كره، بعد ذلك انتقل إلى مدينة سيتافور (Sitapur) فماتورا (Mathura) فباره بنكي (Bārabanki) فبرتاب كره (Pratāb Garh). تقاعد عن العمل في 1938م. هو الذي أجرى عملية الجراحة في الإمام الفراهي. كان طبيباً محباً للعلوم ومكرماً للعلماء. لعب دوراً هاماً في رقي الدائرة الحميدية التي هو من القائمين بتأسيسها وأول رئيس لها. كانت له صلة وطيدة مع علماء مدرسة الإصلاح لا سيما الشيخ أمين أحسن الإصلاحي صاحب تفسير "تدبر قرآن". توفي في مارس 1949م ودفن بحديقة له على قرب من داره "حفيظ منزل". خلف عشرة أولاد خمسة منها ذكور وخمسة إناث وزوجته زهدة النساء بيغم حية وقطعت مائة سنة من عمرها. كان الطبيب صالحاً تقياً فعالاً في رفاهية البشر. شهد بحسن خلقه وكرمه وحبه للعلم والعلماء عدد غير قليل من معاصريه. (راجع للمزيد عن سيرته: "مجلة مدرسة الإصلاح" العدد الثاني عشر لسنة 1999م ص 179-181 ومجلة "علوم القرآن" عددها الخاص عن الشيخ أمين أحسن الإصلاحي ص 505-530)

² فيقول الدكتور ظفر الإسلام الإصلاحي:

"--- بدأت فعاليات "الدائرة الحميدية" في 1935م كما تمّ إصدار مجلتها "الإصلاح" في يناير عام 1936م، مجلة "علوم القرآن" عددها الخاص عن الشيخ أمين أحسن الإصلاحي، ص 515 ويؤيد هذا الرأي مدة قيام الشيخ الإصلاحي لدى الطبيب حفيظ الله، التي هي ما بين 1935م و1936م. راجع: مجلة "الإصلاح"، 4/1/1

وأما رأي جمهور المؤرخين فيشير إلى 1936م التي هي مدة إصدار مجلة "الإصلاح". راجع: مجلة "ثقافة الهند"، 106/4-1/31 مقالة الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي عن "الدائرة الحميدية" ويتبعه أخوه الشقيق طلحة أيوب الإصلاحي المعروف بـ"أبو أمامة" في مجلة "نقش" السنوية، عدد 2002-2003م، ص 19

³ واليه الإشارة في دليل مدرسة الإصلاح:

العدد الخاص مجلة الهند

كان هذا المعهد العلمي يهدف إلى ما جاء ذكره في العدد الأول لمجلة "الإصلاح" الشهرية الصادرة عن المعهد ذاته وهي:

1. نشر مؤلفات ورسائل الإمام الفراهي العربية بجانب ترجمتها إلى اللغة الأردوية.
2. وإيجاد جماعة تحذو حذو الإمام في تدبر القرآن وتحرير المؤلفات والمقالات عن الدراسات القرآنية.
3. وإصدار مجلة شهرية تنشر فيها المقالات القيمة عن علوم القرآن وتخدم المسلمين خدمة علمية ودينية حسنة.
4. وإصدار جريدة أسبوعية رخيصة الثمن سلسلة الأسلوب تهدف إلى إصلاح القوم الديني والخلقي والاجتماعي¹.

أسماء من ترأسها وأدارها وتولّى عضويتها حسب التاريخ: تمّ تأسيس هذا المعهد العلمي بعون من الطبيب حفيظ الله والسيد عبد الغني المفوّض السامي² لضريبة الدخل والشيخ أمين أحسن الإصلاحي والشيخ أختر أحسن الإصلاحي فقد تعيّن الطبيب حفيظ الله أول رئيس لهذا المعهد العالي والسيد عبد الغني نائبه فيه كما تولّى الشيخ أمين أحسن الإصلاحي مسؤولية الإدارة³ وأما الأخير فقد قام بعونه العلمي والأدبي¹.

--- فالقرآن في منهجها الدراسي شمس يكتسب منها النور جميع كواكب العلوم، فتدرس فيها كافة الفنون --- بعضها لكونه وسيلة لفهم كتاب الله، وبعضها لكونه شرحاً وتفسيراً له --- ولكن بحيث أن لا يقبل على فن من الفنون إلا في ضوء القرآن، ولا ينفّث باب علم من العلوم إلا من داخل القرآن"، مدرسة الإصلاح، تاريخها ونظامها ومنهجها الدراسي، ص 11

¹ مجلة "الإصلاح" الشهرية، 5/1/1

² كان الدبتي عبد الغني الأنصاري من أهالي جيغهان (Jaigahan) وأصبح مفوّضاً سامياً في الحكومة وكان ابن خال الشيخ عبد السلام الفراهي (ت 1979م) ولم نقف على مزيد من المعلومات عنه. راجع: ذكر فراهي، ص 712-713

³ ولنعلم واضحاً أنّ هذا المعهد كان مستقلاً بذاته غير تابع للمدرسة كما يقول الشيخ أمين أحسن الإصلاحي في افتتاحية العدد الأول لمجلة "الإصلاح":

العدد الخاص مجلة الهند

هذا ولما توفيَّ الطبيب حفيظ الله بقي منصبه فارغاً حتى ملأه الشيخ الشاه معين الدين الندوي² وكذلك حينما غادر الشيخ أمين أحسن الإصلاحي أصاب الدائرة نائبة ولم تستطع بمواصلة سيرها إلا³ ببطء حتى قام الشيخ بدر الدين الإصلاحي¹ (1904-

"ولنصرح هنا أن المعهد وكافة أقسامه مستقلة بذاتها في إدارتها غير تابعة للمدرسة ولو أنها وضعت لخدمتها فالعلاقة بينهما علاقة الخدمة لا غير فكافة المسؤوليات عن إصدارات المعهد ومجلة "الإصلاح" تقع على كاتفي المعهد، ومن الممكن أن تكون وجهة نظر "الإصلاح" مختلفة عما تحمله مدرسة الإصلاح نفسها فلنعتن بهذا الفرق الواضح بينهما". مجلة "الإصلاح"، 8/1/1 ولكن كان معظم موظفيه من بين أساتذة المدرسة فكانوا موظفي شرف ولذلك قال الدكتور شرف الدين الإصلاحي:

"لم تكن هيئة منظمة للبحث والإدارة فكان أساتذة المدرسة يؤدون هذه الخدمة في صورة شرف بدون أي أجر من قبل "المعهد". ذكر فراهي، ص 514-515

¹ فالشيخ الإصلاحي كان يدون الكتب والرسائل التي كان يصدرها المعهد. أنظر: مجلة "الإصلاح"، 6-5/1/1

² هو الشيخ الشاه معين الدين أحمد الندوي بن الشيخ محمد حسنات من أحفاد العارف بالله الشيخ عبد الحق الردولي (ت 837هـ). ولد الشيخ الندوي في 1901م في قرية ردولي (Rudauli) الواقعة على بعد نحو 90 كليومتراً من لكتناؤ. درس العلوم الابتدائية على والده الجليل ثم توجه نحو دار العلوم بندوق العلماء وأتم دراسته على أساتذة كبار منهم العلامة السيد سليمان الندوي الذي حثّه على العمل في دار المصنفين حيث خدم طوال ثلاثين سنة بل أكثر. لم يكن يحب المال والجاه والشهرة وكانت حياته متسمة بالتواضع والإخلاص. كان قد بايع المحدث الكبير محمد زكريا الكاندهلوي وزار الحرمين الشريفين مرتين. من آثاره العلمية القيمة "المهاجرون" و"التابعون" و"دين الرحمة" و"حياة سليمان" و"تاريخ الإسلام". كلها باللغة الأردوية. أسلوبه يتسم بالرواء والرشاقة وقصر الجمل ونصاعة البيان بجانب اطلاعه الواسع على العلم والتاريخ والدين والأدب. توفي الشاه في 13/ ديسمبر 1974م. (راجع لسيرته المفصلة: مجلة "البعث الإسلامي"، 20-4 لسنة 1395هـ)

³ فيقول الشيخ محمد أيوب الإصلاحي مشيراً إلى هذا:

"ولما ارتحل الشيخ أمين أحسن الإصلاحي إلى الباكستان تولى أمرها الشيخ أختر أحسن الإصلاحي بعون من الشيخ بدر الدين الإصلاحي وعندما غادر الشيخ أختر أحسن الإصلاحي إلى جوار ربه الكريم وقعت هذه المسؤولية على عواتق الشيخ بدر الدين والشيخ عبد الرحمن ناصر الجامعي

العدد الخاص مجلة الهند

1996م) في 1375هـ وأيقظ² أستاذه الشيخ أختَر أحسن الإصلاحى فقاما وأثرا ما أثرا
وحينذاك كانت كافة المسؤوليات³ على عاتقى الشيخ بدر الدين الإصلاحى إلا أمانة

ولم يزد عدد الأعضاء بصورة منظمة إلا أنّ الشيخ بدر الدين الإصلاحى بقى ناشراً مخطوطات
المعهد بعون من بعض أصدقائه". مجلة مدرسة الإصلاح، العدد التاسع لعام 1996م، ص 7
¹ هو الشيخ بدر الدين بن الحاج نصر الله بن حبّ علي بن شيخ علي من أهالي نياوج (Niyauj).
تعلّم العلوم الابتدائية بما فيها اللغة الفارسية في بيته على الشيخ صادق التشاوي
(Chitarawi) ثم التحق بمدرسة الإصلاح ولكن لم يكن طالباً غير متظم فأخذ العلوم العربية
والفنون الأخرى على الشيخ شبلي المتكلم والشيخ أختَر أحسن الإصلاحى والشيخ أمين أحسن
الإصلاحى والشيخ سعيد أحمد والشيخ عبد الصمد وبعد تخرجه من المدرسة ذهب إلى بورما
(Burma) ليكون خطيباً في مجلس تعليم القرآن حيث قضى أكثر من سنة ورجع إلى وطنه إثر
مرض والده الجليل. في 1945م تعيّن مديراً لمدرسة الإصلاح فبقي على هذا المنصب طوال عمره
إلا قليلاً. إنه كذلك خدم الدائرة الحميدية خدمة جلية. كان خطيباً بارعاً وكاتباً قديرًا فكان
مجمع البحرين، الكتابة والخطابة، الميزة التي قلما يمتاز بها الآخرون. دافع عن مدرسة الإصلاح
مرتين. (راجع لسيرته الكاملة: العدد الخاص بسير الإصلاحيين لـ "مجلة مدرسة الإصلاح" والعدد
التاسع لمجلة "البعث الإسلامى" لسنة 1417هـ)

² تقرير مدرسة الإصلاح الحولى لعام 1378هـ، ص 5-6

يقول الشيخ بدر الدين الإصلاحى معلّقاً على وفاة الشيخ أختَر أحسن الإصلاحى:

"ما أصاب مدرسة الإصلاح من خسران غير مسدود بموت الأستاذ المرحوم لا يحصره البيان ولا
يمكن تسديد هذا النقص بأحد إلا أنّ يبعث الله رجلاً من عنده فقد مضت ثلاث سنوات على أنّ
قام الأستاذ المرحوم بتوكيد مني شديد بإحياء "الدائرة الحميدية" المرحومة لأجل نشر مخطوطات
الإمام الفراهي وكان يبدي رغبته ونشاطه في طبع مؤلفات الفراهي فكان يعمل كثيراً على فساد
صحته. كان يريد أنّ ينشر المخطوطات العربية بعد نشر ترجماتها الأردوية فقد بدأ بجمعها
وتحقيقها ولكن من الأسف على أنه غادرنا إلى ربه الكريم قبل أنّ يتم نشر ترجماتها الأردوية
الكاملة"، المصدر نفسه، ص 6

³ يقول الدكتور شرف الدين الإصلاحى مشيراً إلى هذا الواقع:

"لما غادر الشيخ أمين أحسن الإصلاحى المدرسة والدائرة الحميدية إلى الباكستان صان الشيخ بدر
الدين الإصلاحى مع أستاذه الشيخ أختَر أحسن الإصلاحى هذه الدائرة من الخراب ولما توفي الشيخ
أختَر أحسن بقى الشيخ بدر الدين وحيداً لا ناصر له ولا معين، كان هو المدير لها وخادمها بدون
أي أجر كان يأتيه من قبل الدائرة أو الآخرين". مجلة مدرسة الإصلاح السنوية، العدد: 9 لعام
1996م، ص 68

العدد الخاص مجلة الهند

المال التي حملها الشيخ عبد الرحمن ناصر الإصلاحي¹ وحينما توفي الشيخ بدر الدين الإصلاحي في 1996م عيّن أعضاء الدائرة في 28/ يوليو 1996م رئيسها² الشيخ عبد الرحمن ناصر الإصلاحي كما قرّروا مديرتها الأستاذ عبيد الله الفراهي وأما الشيخ أشفاق أحمد الإصلاحي³ فهو حُمل مسؤولية أمين المال.

وأما الأعضاء الآخرون الذين تمّ تعيينهم طوال هذه المدة فهم فيما يلي حسب الترتيب الزمني:

في البداية حينما تمّ تأسيس الدائرة:⁴

¹ هو الشيخ عبد الرحمن ناصر الإصلاحي الجامعي بن الحافظ عبد الشكور خان من أهالي سيدها سلطانفور ومواليد 1916م. أخذ العلوم العربية النهائية من مدرسة الإصلاح من حيث تخرّج في 1938م ثم حصل على شهادة بكالوريوس من الجامعة المليية الإسلامية في 1943م. في 1945م تعيّن أمين المال في مدرسة الإصلاح وبقي على هذا المنصب حتى وفاته في 2011م. صدرت من قلمه مقالات عديدة تم نشرها في مختلف المجلات الهندية والباكستانية مثل "الإصلاح" و"جديد" و"غنّش" و"جامعة" و"فاران" و"سوداغر" (Saudāgar). من مؤلفاته وأعماله "مباحث القرآن" (إعداد) و"حيات حميد" (إعداد) و"مكتوبات الدكتور خليل الرحمن الأعظمي" (إعداد). كلها بالأردوية وله أعمال ومصنفات تنتظر الطبع. (راجع لسيرته التامة: مجلة "نقش" السنوية)

² مجلة مدرسة الإصلاح السنوية، العدد: 9 لعام 1996م، ص 68

³ هو الشيخ أشفاق أحمد بن الميرزا محمد صديق من أهالي أبدييه (Abdihah). ولد في 16/ يوليو 1933م. التحق بمدرسة الإصلاح في 1946م وتخرّج منها في نهاية 1956م. في نفس السنة تعيّن كأستاذ للدراسات الإسلامية في مدرسة تابعة للجامعة الإسلامية بككراله (Kakrālah) في مدينة بدايون (Badāyūn). قضى هناك مدة سنة واحدة فقط ثم جاء مدرسته الأم وجعل يخدمها حتى بداية العام 1962م وفي أغسطس 1962م تعيّن كأستاذ في مدرسة ما قبل الثانوية الإسلامية في كانفور (Kānpūr) وبقي بها حتى 20/ مايو 1999م ثم رجع إلى مدرسته الأم خادماً لها حتى اختير نائب مديرها في 2000م وهو الآن حائز على منصب مديرها ويريد أن يخدم المدرسة حتى موته. (وللمزيد عن شخصيته وأعماله راجع: ذاته فهو حيّ يرزق)

⁴ ولكن يبدو من قول الشيخ أمين أحسن الإصلاحي التالي أنّ هذا العدد قد شمله الآخرون: "بعد توكيد الطبيب حفيظ الله مراراً شرح الله صدري لإكمال ما بدأه الإمام الفراهي فاتفقنا على أن نؤسس مطبعاً يقوم بنشر كافة مؤلفات الفراهي وترجماته الأردوية وأن نصدر مجلة

1. الشيخ اختر أحسن الإصلاحي
2. والشيخ عبد الأحد الإصلاحي¹
3. والشيخ عزيز الرحمن الإصلاحي²

شهرية ولكن جاءت قضية الإنفاق فزاد الطبيب هبته القديمة وأشار عليّ أن أقول للشيخ حفيظ أحمد الذي كان يرى رأيه فكتبت إليه فجاءني تأييده --- ذكرت هذا أمام زملائي في المدرسة وذوي قربي الإمام الفراهي فكلهم استعدوا للنصر، وعدني للعون أخو الفراهي الحاج رشيد الدين مدير المدرسة والشيخ محمد سجاد الأنصاري ومحمد عباد الأنصاري من أولاد الإمام الفراهي والسيد محمد فاروق النعماني بن الشيخ محمد إسحاق وكذلك وهب الشيخ محمد سليمان الميرزا فوري قدرًا هائلًا من المال على تحريض من الشيخ عبد الأحد الإصلاحي وهكذا رضي الحاج حامد النعماني ناظم رئاسة مجولي (Majhuli)، غورخفور (Gorakhpur) والشيخ عبد الغني الأنصاري مساعد المفوض السامي للدخل عن الإشراف عليه بتحريض من الطبيب حفيظ الله وكذلك وعد الشيخ جنيد أحمد الأنصاري مسجل الجامعة العثمانية بالعون على تحريض من إحدى رسائله إليه.

وبالجملة فقد وضعنا مجلسًا لكافة هؤلاء الأنصار، سمّيناه باسم الأستاذ الإمام "الدائرة الحميدية".

تعيّن الطبيب حفيظ الله رئيسها والشيخ عبد الغني الأنصاري نائبه وسيكون هذا المجلس مسؤولًا عن كافة الفعاليات والشؤون بهذا الشأن". مجلة "الإصلاح"، 5-4/1/1

ويؤيد هذا الرأي قول الشيخ ضياء الدين الإصلاحي الذي عدّ الشيخ حفيظ أحمد خان ركنًا من أركان هذا المعهد، راجع: مجلة "علوم القرآن"، عددها الخاص عن الشيخ الإصلاحي، ص 359

¹ هو الشيخ الحافظ عبد الأحد بن بابو خان من أهالي أبيده. أخذ العلوم الابتدائية في قريته وحفظ القرآن الكريم في صغر سنه ثم التحق بمدرسة الإصلاح من حيث تخرّج في نحو 1928م. من أساتذته الشيخ شبلي المتكلم والشيخ عبد الرحمن النغرامي والشيخ عبد الصمد الندوي. استفاد من دروس الشيخ حميد الدين الفراهي في الفترة ما بين 1925-1928م. تعيّن كأستاذ في مدرسة الإصلاح في 1930م. من تلامذته الشيخ أبو الليث الإصلاحي والشيخ احتشام الدين الإصلاحي والحكيم مختار أحمد الإصلاحي. كتب مقالات قيّمة في القرآن وعلومه، تم نشرها في مجلة "الإصلاح". من أعماله "مفردات القرآن" (جمع) و"إمعان في أقسام القرآن" (جمع) و"مجموع تفاسير الفراهي" (جمع) و"الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" (جمع). (راجع لسيرته التامة: مجلة "شاعر" ومجلة "الإصلاح" و"مجلة مدرسة الإصلاح")

² هو الشيخ عزيز الرحمن بن الشيخ محمد الشفيع مؤسس مدرسة الإصلاح. أخذ العلوم الابتدائية بما فيها اللغة الفارسية في كتاب بقريته "سيدها سلطانفور" ثم ذهب إلى مدرسة الإصلاح والتحق بها في 1919م. تخرّج منها في 1927م. كان من أساتذته الشيخ شبلي المتكلم

وفي 18/ فبراير 1973 م:

1. الشيخ أبو الليث الإصلاحي الندوي¹
2. والشيخ صدر الدين الإصلاحي²

والشيخ عبد الصمد الندوي والشيخ أختر أحسن الإصلاحي. عمل كأستاذ في مدرسة الإصلاح ثم كمدير تحرير مساعد في جريدة "مشرق" الصادرة عن غورخفور ثم أصدر مجلة باسم "كونين" وبعد إصدارها لمدة سنتين رجع إلى مدرسة الإصلاح حيث خدم "الدائرة الحميدية" كمساعد لمديرها الشيخ أمين أحسن الإصلاحي. نشرت له مقالات متعددة في مختلف مجلات الهند مثل "الإصلاح" و"مشرق" و"كونين". لم يخلف كتابًا ولا رسالة. (راجع لسيرته الكاملة: مجلة "شاعر" ومجلة "الإصلاح" و"مجلة مدرسة الإصلاح" و"مجموع رسائل خليل الرحمن الأعظمي" للشيخ عبد الرحمن ناصر الإصلاحي)

¹ هو الشيخ أبو الليث شير محمد بن الشيخ توجه حسين. أخذ العلوم الابتدائية في قريته وقريّة محمد اباد غوهنه (Gohna) ثم التحق بمدرسة الإصلاح في 1925 م وبلغ الصف الخامس العربي وغادرها في 1921 م ملتحقًا بندوة العلماء من حيث تخرّج في 1933 م. ثم تعيّن كأستاذ في ندوة العلماء في 1934 م وفي 1935 م ذهب إلى بيجنور وأصبح عضوًا في هيئة إدارة جريدة "مدينة" ثم في 1940 م تعيّن كأستاذ في مدرسة الإصلاح وبعد مدة عيّن مدرّسًا في ضياء العلوم وفي 1946 م دعي إلى مدرسة الإصلاح. أختير أمير الجماعة الإسلامية بعد استقلال الهند واستقال منها في 1982 م بعدما خدمها طوال 25 سنة ثم في 1982 م استأنف هذه المسؤولية حتى وفاته في 5 من ديسمبر 1990 م. استفاد منه الكثيرون مثل الشيخ احتشام الدين الإصلاحي والشيخ نظام الدين الإصلاحي والشيخ غالب أحسن الإصلاحي والشيخ عبد الحسيب الإصلاحي وغيرهم. من أعماله "مسئله انتخاب ومسلمانان هند" (مسلّموا الهند حول قضية الانتخابات) و"مسلمانان هند كا لائحہ عمل" (مشروع مسلمي الهند) و"بھارت كي تعمير اور ہم" (رقّيّ الهند ونحن) و"هندوستان كا مستقبل اور جماعت اسلامي كي دعوت" (مستقبل الهند ودعوة الجماعة الإسلامية فيها). (راجع لسيرته الكاملة: "مجلة مدرسة الإصلاح" و"مجلة رفيق منزل" ومجلة "حيات نو" عددها الخاص عنه)

² هو الشيخ صدر الدين الإصلاحي (1914-1988 م) بن الحافظ خليل أحمد خان من سكان سيدها سلطانفور. نال العلوم الابتدائية في بندول (Bindawal) ثم التحق بمدرسة الإصلاح في 1929 م وتفرّغ منها في 1937 م. من أساتذته الشيخ أمين أحسن الإصلاحي والشيخ أختر أحسن الإصلاحي والشيخ نجم الدين الإصلاحي والأخير كان مثنيًا على علمه. وبعد الفراغ درّس في مدرسة دينيات بكوهنده (Kohanda) حتى أكتوبر 1938 م ثم لى دعوة أبي الأعلى المودودي وذهب إلى جمالفور (Jamālpur). أقام بها حتى 1940 م ثم رجع إلى وطنه وتوجّه إلى بورما (Burma) حيث علّم في مدرسة دار العلوم التابعة لجمعية العلماء ثم لفترة وجيزة درّس في مدرسة بهريانه (Haryāna) ثم رجع إلى العلامة المودودي ولما انقسمت الهند في 1946 م رجع إلى وطنه وجعل يدرّس فيه حتى تم إحياء الجماعة الإسلامية في الهند فشارك فيها حتى وفاته. كان

3. والشيخ محمد عاصم الإصلاحي¹
4. والشيخ محمد سجاد الفراهي²
5. والشيخ محمد فاروق النعماني³
6. والحكيم حمد الله الفراهي⁴

عضوًا لمدارس وهيئات كما كان رئيس إداره تحقيق وتصنيف إسلامي (المعهد الإسلامي للبحث والتأليف) بعلي كره. استفاد منه الكثيرون ومنهم الشيخ عبد الحسيب الإصلاحي والشيخ نظام الدين الإصلاحي والشيخ جلال الدين أنصهر العمري. من آثاره "معركة اسلام وجاهليت" (النزاع بين الإسلام والجاهلية) و"دين كآ قرآني تصور" (التصور القرآني للدين) و"أساس دين كي تعمير" (بناء الأساس الديني) و"حقيقت نفاق" (حقيقة النفاق) و"فريضه اقامت دين" (فريضة إقامة الدين) و"قرآن مجيد كا تعارف" (تعريف بالقرآن الكريم) و"تلخيص تفهيم القرآن". كلها بالأردوية. (راجع للمزيد عن حياته وآثاره: "يادغار سلف" ومجلة "فكر ونظر" الفصلية بعلي كره ومجلة "حيات نو" الشهرية ومجلة "ثقافة الهند" الفصلية)

¹ هو الشيخ محمد عاصم (1914-1987م) بن الشاه محمد من أهالي كوتله (Kotla) إحدى قرى مديرية أعظم كره. تلقى العلوم الابتدائية حتى "هداية النحو" على الشيخ عقيل أحمد الذي ذهب به بعد ذلك إلى مدرسة الإسلام الواقعة في مسجد أتاله (Atāla)، جونفور (Jaunpūr) ثم رجع إلى وطنه والتحق بمدرسة الإصلاح لعلاقة أبيه مع والده. من أساتذته في مدرسة الإصلاح الشيخ آخر أحسن الإصلاحي والشيخ أمين أحسن الإصلاحي والشيخ نجم الدين الإصلاحي والأخير كان مثنياً على علمه وتقواه. في 1938م حينما تخرج من المدرسة زار الشيخ حسين أحمد المدني لنيل المزيد من علوم الحديث. تزوج مرتين ولم يوفق ولداً ذكراً. بايع الشيخ محمد أحمد البرتاب كره. كانت له علاقة وطيدة مع الأعلام الإصلاحيين والندويين. ساهم في إعداد "كليات سهيل" وتولى إدارة "شاعر" الشهرية. (راجع للمزيد عنه: مجلة "الإصلاح" الشهرية و"رسائل خليل الرحمن الأعظمي" و"يادغار سلف")

² هو سجاد بن عبد الحميد الفراهي. ولد في 1895م. لم يحصل على دراسة منظمة ففضى عمره كله في الاشتغال بشؤون الزراعة والبيت. كان آية في حدة الذهن وقوة الحفظ. وفق عمراً طويلاً. توفي في 1984م تقريباً. (راجع للمزيد عنه: "ذكر فراهي"، ص 800-801)

³ هو فاروق النعماني المعروف بـ"للو" بن س. م. إسحاق بن العلامة شبلي النعماني. ولد في 1907م وتربى لدى الإمام الفراهي. توفي والده في أغسطس 1914م. لم نقف على سنة وفاته. كان يحب الفراهي حباً جماً حتى قال عنه العلامة شبلي النعماني "لن يترك لّو الفراهي حتى ولو أعطي الجنة". (راجع للمزيد عنه: "ذكر فراهي"، ص 823)

⁴ هو الحكيم حمد الله الفراهي بن محمد عباد الفراهي. ولد في قرية "فريها" في أسرة علمية غنية. أخذ العلوم الابتدائية والنهائية في جامعة الفلاح، بلريا غنج (Bilariyāganj). التحق بها في 1961م وتفرغ منها في 1971م ثم حصل على شهادات "أديب" و"اللغة الإنجليزية البحتة" و"فاضل أدب" حتى حصل على شهادة BUMS في 1979م من جامعة عليكره من حيث نال

7. والدكتور عبيد الله الفراهي¹

8. والحافظ جلال الدين الصديقي²

9. والسيد اشتياق أحمد³

شهادة "أديب كامل" في 1980م. بدأ حياته العملية كمدرّس في كلية راجستهان الطبية اليونانية في 1981م ثم انتقل إلى الكلية الطبية الزيرية، جودهفور (Jodhpūr) في 1985م حيث خدم الكلية كعميدها منذ 25 يناير 1986م حتى 13 يوليو 1986م وفي 17 نوفمبر 1986م جاء إلى كلية راجبوتانه الطبية الأيورويدية واليونانية ثم ارتحل إلى كلية تكميل الطب، لكناؤ كمدرّس في 1994م وفي 30 ديسمبر 2003م صرعه السرطان. من مؤلفاته "محسوسات ومعقولات" و"حكيم افتخار الحق تكميلي، حيات وأفكار" و"مكاتيب فراهي" و"جريدة الطب" و"علامه فراهي، شخصيت وأفكار" و"طب ونفسيات" ومباديات طب" و"مبحث حمّيات". كلها بالأردوية. كان رجلاً صالحاً عزيزاً لدى الجميع ومن أبرز خصائصه أنه كان يحبّ الصغار ويحّثهم على الإنتاج والعمل. (راجع لسيرته الكاملة: مقالة الحكيم وسيم أحمد الأعظمي "مساهمة أدباء أعظم كره في الطب اليوناني" المنشورة في مجلة "ثقافة الهند"، 4/57)

¹ هو الدكتور عبيد الله الفراهي حفيد الإمام الفراهي ولد في 13/ ديسمبر عام 1943م. نال شهادات "فاضل أدب" في 1964م و"البكالوريوس" في 1968م و"ماجستير" في 1970م و"الدكتوراه" في 1973م كلها من جامعة لكناؤ في اللغة العربية وآدابها. تعيّن كمدرّس في نفس الجامعة في 15/ سبتمبر عام 1972م وتقاعد عنها كبروفيسور قسم اللغة العربية وآدابها في يوليو 2006م. من أبرز مؤلفاته "شبلي كا نظريه تعليم" (وجهة نظر العلامة شبلي التعليمية) و"تصوف، ايک مطالعه" (التصوف، دراسة) و"تفسير سورة البقرة" (ترجمة أردوية) و"التعليقات في القرآن الكريم" (إعداد) و"رسائل في علوم القرآن، مجموعة ثانية" (إعداد). (راجع عن سيرته الشخصية: الكاتب المحترم فإنه حيّ يفيض الباحثين)

² لم نجد عنه شيئاً يذكر (الأعظمي)

³ هو السيد اشتياق أحمد (18 من نوفمبر عام 1933-20 من نوفمبر 2016م) من أهالي مهواره (Mahuwāra) الكبرى. نال العلوم الابتدائية على الشيخ عبد الواحد الذي اكتراه أبوه على عادة الأغنياء ثم التحق بالابتدائية في ديدار غنج (Dīdārganj) حيث تعلّم حتى الصف السادس ثم التحق بالمتوسطة هنا وتعلّم فيها ثم توجّه نحو سرائ مير حيث تقع مدرسة الإصلاح فالتحق بالصف الخامس الأردوي وتعلّم حتى الصف الثاني العربي ولم يتقدّم وراءه إذ جعل يكتسب وهو صاحب "يگا بيرى" (بيرى: سيجار هندي خالص و"يگا" علامته التجارية ويعني "عربة

إلا أنّ الآخرين فلم يسجّل اسماهما في الأعضاء المستقلة:¹

وفي 28/ يوليو 1996م:

1. السيد اشتياق أحمد
2. والدكتور أجمل أيوب الإصلاحي²

الخيّل"). كان يسكن بسرائ مير. صرعه السرطان فتوفي في علي كره. له ديوان شعر أردوي يسمّى بـ"نشاط غم" وإليك ترجمة بعض أبياته:

1. أعطينا طبيعة العبودية وجعلنا مسؤولين عن شؤون الحكم والإدارة، ص 16
 2. كلما يمتلئ مكيال الحياة يشتدّ شعور القلب بغلتها، ص 16
 3. قد بهته يدي التي بسطتها للسؤال مع أنه يعرفني جيداً، ص 20
 4. كل أمل رهين بالقدر، والقدر غير محكوم عليه، ص 39
 5. ليست الحياة غير متوكلة على شيء فإن الانتظار بالموت موجود هنا، ص 76
- (أخذت هذه المعلومات عنه منه حينما كان حيّاً)

¹ حسب التقرير الذي أعطانيه الدكتور عبيد الله الفراهي.

² هو الدكتور محمد أجمل بن محمد أيوب الإصلاحي ولد في 6 من مارس عام 1953م بقرية "سيدها سلطانفور". بدأ يدرس العلوم البدائية في نفس القرية ثم التحق بالصف الرابع الأردوي في مدرسة الإصلاح من حيث تخرّج في 1971م ثم توجّه نحو ندوة العلماء حيث تخصصّ في الأدب العربي متخرجاً من دارها للعلوم في 1973م وأقام بها لمدة ستة أشهر عند الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي للاستفادة منه ثم ارتحل إلى علي كره حيث تقع الجامعة الإسلامية فالتحق بماجستير في اللغة العربية وأداها وبعد إتمامها التحق بماجستير في العلوم الإسلامية وتخرّج منها في 1979م وفي 1984م نال شهادة الدكتوراه من جامعة لكاناؤ.

بعدما أتمّ دراساته العليا تعيّن كمدرّس في مدرسة الإصلاح منذ 1394هـ وخدمها حتى 1397هـ ثم اختاره المجلس الهندي للعلاقات الثقافية كمدير مساعد لمجلتها العربية "ثقافة الهند". خدم هذه المجلة العلمية حتى يناير عام 1982م وفي نفس الشهر تقرّر كمدرّس لقسم العلوم الإسلامية بجامعة علي كره الإسلامية وبقي بها حتى يوليو عام 1982م وفي ديسمبر عام 1982م عيّنته الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة مدرّساً لها فذهب إليها وخدمها حتى 1994م ثم تعيّن كباحث في مركز البحوث الإسلامية بالرياض في 1995م وخدمه حتى قضى عليه وزارة الشؤون الإسلامية والآن هو يقيم بالرياض وينشغل في تحقيق المخطوطات ونشرها.

كان الأخ الفاضل راغباً في التأليف منذ دراسته في مدرسة الإصلاح فأصدر -كعادة طلابها- مجلة خطية باسم "المنهل" ثم عمل في مجلة "البعث الإسلامي" فنشرت له مقالات وترجمات عديدة في

3. والدكتور محيي الدين الإصلاحي¹

4. والشيخ ضياء الدين الإصلاحي²

وهؤلاء بالإضافة إلى من جاء ذكر أسمائهم في الفهرست المذكور أعلاه:³

وفي الواحد من سبتمبر 1996م:

1. الشيخ احتشام الدين الإصلاحي¹

مختلف مجلات الهند وخارجها وهكذا إنه قام بتأليف وتحقيق كتب شتى منها "محاسن الشعر" في مجلدين و"صلاح الدين الأيوبي" (ترجمة) و"الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" (ترجمة) و"إمعان في أقسام القرآن" و"مفردات القرآن" و"بحوث وتنبيهات" (جمع وتحقيق) (راجع للمزيد عنه: ذات الكاتب ومجلة "نظام القرآن" الفصلية)

¹ هو الدكتور محيي الدين آزاد الفراهي المولود في 1965م. تخرج في مدرسة الإصلاح في 1983م ثم ارتحل إلى جامعة لکناؤ من حيث نال شهادة الليسانس في 1986م ثم توجه نحو علي كره والتحق بجامعة الإسلامية التي حصل فيها على "ماجستير" في العربية في 1988م وشهادة ما قبل الدكتوراه في 1991م وشهادة الدكتوراه في 1993م. تعين الدكتور كمدرس اللغة العربية وأدائها في كلية شبلي، أعظم كره في 2000م وهو الآن يخدمها على منصب الأستاذ المشارك. له مقالات وبحوث تم نشرها في مختلف مجلات الهند. (راجع للمزيد عن سيرته: ذات الدكتور الفراهي فإنه حي يرزق)

² هو الشيخ ضياء الدين الإصلاحي بن عبد الرحمن ولد في 1937م بسهرية (Sahariya) إحدى قرى مديرية أعظم كره. نال دراسته الابتدائية في مدرسة نظام آباد ثم جاء مدرسة الإصلاح من حيث تخرج في 1955م. إنه كذلك حصل على شهادات "أديب" و"أديب ماهر" و"أديب كامل" من جامعة علي كره الأردنية.

إنه درس في مدرسة الإصلاح وكلية شبلي وجامعة الرشاد وفي النهاية استقر في دار المصنفين باحثاً فيها وبلغ حتى منصب مديرها ورئيس تحرير مجلتها الشهرية "معارف". كانت له عضوية في عديد من المجالس والمدارس والكليات وهو أيضاً كان مدير مدرسة الإصلاح. توفي الشيخ إثر اصطدام في 2008م.

قام بتأليف كتب عديدة كما نشرت له مقالات لا تحصى ومن أبرز مؤلفاته "تذكرة المحدثين" في ثلاثة مجلدات و"مولانا أبو الكلام آزاد" و"إعجاز القرآن" و"هندوستان عربون كي نظر مين" (الهند كما يراها العرب) في مجلدين. إنه كذلك أسهم في مؤلفات الآخرين ولها عدد غير قليل فنصرف عنها النظر. (راجع للمزيد عن سيرته وأعماله: مجلة "ثقافة الهند"، 88-87/3/55)

³ حسب التقرير الذي أعطانيه الدكتور عبید الله الفراهي.

2. والشيخ محمد أيوب الإصلاحي²

3. والدكتور اشتياق أحمد الظلي³

4. والشيخ عبد الحسيب الإصلاحي⁴

¹ هو الشيخ احتشام الدين بن الشيخ محمد جنيد من أهالي مونديار (Mundiyār) ومواليد 1926م. أخذ الدراسة الابتدائية في المدرسة الإسلامية بقريته ثم التحق بمدرسة ما قبل الثانوية بسرائ مير وبعد ذلك ذهب إلى مدرسة الإصلاح والتحق بكتابها في الصف الرابع في 1938م. تفرغ من هذه المدرسة في 1946م ثم صحب الشيخ أختَر أحسن الإصلاحي لسنة كما أقام عند الشيخ بدر الدين الإصلاحي لشهر. ثم تعين كأستاذ الكتاب بمدرسة الإصلاح في 1947م وبعد سنتين ترقى إلى القسم العربي وفي 1956م تعين عميد المدرسة وأدى هذا المنصب لسنوات بصورة غير منتظمة وفي 9 من أبريل 1995م استقال من هذا المنصب ولكن واصل تدريس الطلاب حتى 2009م. اختاره منظمة طلاب المدرسة الأقدمين رئيسها في 17 من أكتوبر 1997م. توفي الشيخ الإصلاحي في سنة 2016م. من أعماله "أسباق النحو" (إعداد وتحقيق) و"شرح تحفة الإعراب". (راجع لسيرته الكاملة: مجلة "نقش" السنوية و"مجلة مدرسة الإصلاح")
² هو الشيخ محمد أيوب بن محمد يحيى المنتمي إلى كونره كهني (Kaunrah Gahni) إحدى قرى مديرية أعظم كره. تخرج في مدرسة الإصلاح في 1951م وتوظف فيها بعد الفراغ فوراً، وبعد خلفه الماصب إليه استقر في منصب تدريس طلاب الصفوف العربية القرآن الكريم والأدب العربي ولما صدرت مجلة "نظام القرآن" الفصلية تعين مدير تحريرها. تقاعد عن الخدمة في 2009م. له ترجمات ومقالات تم نشرها في مختلف مجلات الهند والباكستان. من أعماله "متاع قلم". (راجع للمزيد عن سيرته: شخصيته ومجلة "نقش" السنوية)

³ هو الدكتور اشتياق أحمد الظلي المولود في 1942م. تخرج الدكتور من مدرسة الإصلاح في 1962م. ثم التحق بماجستير في التاريخ في جامعة علي كره الإسلامية في 1967م وأكمل في 1968م وفي نفس السنة تعين مدرساً في القسم وأما الدكتوراه فقد أتمه في 1978م وتقاعد الدكتور من نفس الجامعة في 2004م وهو الآن مدير دار المصنفين ومدير تحرير مجلتها الشهرية "معارف" ومدير تحرير مجلة "علوم القرآن" نصف السنوية وله مقالات عديدة تم نشرها في مختلف مجلات الهند. (وللمزيد عن شخصيته راجع: ذاته فإنه حي يرزق)

⁴ هو الشيخ عبد الحسيب بن محمد عثمان من أهالي علاؤ الدين بتي (Patti) إحدى قرى مديرية أعظم كره. هو من كبار الإصلاحيين الذين لهم ذوق عال لفهم القرآن الكريم والأدب العربي الجاهلي. تخرج منها في 1950م. علم في مدرسة الإصلاح لمدة ثم توظف في جامعة الفلاح وهو الآن تقاعد عن العمل. إنه مترجم قدير من الأردوية إلى العربية وبالعكس. من ترجماته "أحكام

5. والدكتور فخر الإسلام الأعظمي¹

وهؤلاء بالإضافة إلى من جاء ذكرهم في الفهرستين المذكورين أعلاه.²

مساهماتها في مختلف المجالات العلمية

وهنا نحبّ أن نلقي الأضواء المفصّلة على مساهمة هذا المعهد العلمي في مختلف المجالات العلمية: في الدراسات الإسلامية واللغة العربية وآدابها واللغة الأردوية وآدابها واللغة الفارسية وآدابها وما شابهها من المجالات الأخرى فنبدأ بالدراسات الإسلامية.

أولاً: مساهمتها في الدراسات الإسلامية: وما قدّمته الدائرة الحميدية من خدمة جليلة حقاً في هذا المجال نشير إليها بشيء من التفصيل. فالكتب والرسائل التي تمّ طبعتها من هذه الدائرة العلمية هي فيما يلي:

1. أجزاء تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: هذه المجموعة تشتمل على أربعة عشر جزءاً وكلّ جزء خاصّ بسورة وتفسيرها على منهجه الخاص البديع فالسور التي تأتي في هذه المجموعة هي:

الحجاب في القرآن الكريم" و"الدعوة الإسلامية ومنهجها" و"التعبير الحقيقي للإسلام". (راجع للمزيد عنه: ذات الشخصية ومجلة "نقش" السنوية)

¹ هو الدكتور فخر الإسلام بن الحافظ عبد الحميد الساكن في تشتي فور (Chhittay Pūr) إحدى قرى مديرية أعظم كره. تخرّج من مدرسة الإصلاح في 1965 م ثم نال شهادة ماجستير في الأدب العربي من جامعة لكانا في 1969 م كما نال شهادة ماجستير في السياسة من جامعة علي كره الإسلامية في 1971 م وأتمّ الدكتوراه في الأدب العربي من جامعة لكانا في 1986 م. وبعد ذلك تعيّن كمدرّس اللغة الأردوية وآدابها في كلية شبلي الوطنية في 1972 م ومن ثم تحوّل إلى قسم اللغة العربية وآدابها. تقاعد عنها كرئيس قسم اللغة العربية وآدابها في 2009 م. له مقالات مهمة ومؤلفات مفيدة منها "دكن كي تاريخ قديم" (تاريخ الدكن القديم) (ترجمة أردوية) و"شعور فن" و"أدب نما" و"أدبي زائى". كلها بالأردوية وهو يريد أن يترجم كتاب "Coherence in the Qur'an" لمير مستنصر علي إلى اللغة الأردوية. (راجع للمزيد عن حياته وأثاره: شخصيته فهو حيّ يرزق ومجلة "نقش" السنوية)

² حسب التقرير الذي أعطانيه الدكتور الفراهي.

1. سورة الفاتحة: صدرت طبعتها الأولى في 1357هـ/1937م
2. وسورة الذاريات: لم يذكر متى صدرت طبعتها الأولى
3. وسورة التحريم: صدرت طبعتها الأولى في 1326هـ/1908م
4. وسورة القيامة: لم يذكر متى صدرت طبعتها الأولى
5. وسورة المرسلات: لم يذكر متى صدرت طبعتها الأولى
6. وسورة الحشر: صدرت طبعتها الأولى في 1326هـ/1908م
7. وسورة عبس: لم يذكر متى صدرت طبعتها الأولى
8. وسورة الشمس: صدرت طبعتها الأولى في 1326هـ/1908م
9. وسورة التين: لم يذكر متى صدرت طبعتها الأولى
10. وسورة العصر: صدرت طبعتها الأولى في 1326هـ/1908م
11. وسورة الفيل: صدرت طبعتها الأولى في 1354هـ/1908م
12. وسورة الكوثر: لم يذكر متى صدرت طبعتها الأولى
13. وسورة الكافرون: لم يذكر متى صدرت طبعتها الأولى
14. وسورة الذهب: صدرت طبعتها الأولى في 1325هـ/1908م
15. وسورة الإخلاص: صدرت طبعتها الأولى في 1931م

تمّ نشر هذه السور في أجزاء على حدة كما تمّ تفسيرها باللغة العربية إلا سورة الإخلاص فهي فُسِّرت بالأردوية لأحد أصدقائه¹ وعلى طلب من عنده فليس تفسيرها يبلغ المستوى الذي بلغته تفسيرات غيرها من السور² ولنعرف أنّ كل هذه السور وتفسيراتها صدرت على نفقة الدائرة الحميدية ولو أنها لم تحمل اسمها إلا قليلاً³.

¹ مقدمة تفسير سورة الإخلاص، ص 3

² ومع هذا فقد ترك بعض الأماكن فارغاً كان الإمام الفراهي يريد أن يملأه ولكن وافاه الأجل فبقي غير مملوء. راجع: "تفسير نظام القرآن"، ص 534 و536

³ ولذلك راجع: لوح كتاب "جمهرة البلاغة".

2. تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: هذه مجموعة تفاسير الفراهي لبسم الرحمن الرحيم وسورة الفاتحة وسورة الذاريات وسورة التحريم وسورة القيامة وسورة المرسلات وسورة عبس وسورة الشمس وسورة التين وسورة العصر وسورة الفيل وسورة الكوثر وسورة الكافرون وسورة الهمز. تبتدئ المجموعة بمقدمة العلامة السيد سليمان الندوي لأول تفسيره لبسم الله الرحمن الرحيم وسورة الفاتحة ثم تأتي خطبة الفراهي لهذا التفسير، التي تم طبعها مع تفسيره لسورة البقرة. تتبعها فاتحة تفسيره التي تم طبعها مع تفسيره لبسم الله الرحمن الرحيم وسورة الفاتحة. يبدو أنه طبعة حديثة لتفاسير الفراهي المطبوعة لبعض السور. ولكنه لا يشمل كافة التفسير العربية. صدرت هذه الطبعة من الدائرة الحميدية في 2008م. إنها مليئة بالأخطاء المطبعية.
3. تفسير سورة البقرة: هذا تفسير سورة البقرة حتى الآية الثانية والستين. أثبت فيه الإمام الفراهي فلسفة نظامه التي نادى بها في مختلف رسائله المتعلقة بالقرآن وأصول تفسيره. نشرته الدائرة الحميدية في 2000م. تمت ترجمته إلى الأردوية بقلم الأستاذ عبيد الله الفراهي وهي نشرت في مجلة "نظام القرآن"¹ الفصلية الصادرة عن مدرسة الإصلاح.
4. تفسير نظام القرآن (بالأردوية): وكما نشرت الدائرة تفسيره العربي فكذلك قامت بنشر ترجمتها إلى الأردوية، التي قام بها الشيخ الجليل أمين أحسن الإصلاحي صاحب تفسير "تدبر القرآن"² بإصلاح قليل من زميله³ في الدرس شيخ التفسير أختار أحسن الإصلاحي. نشرت هذه الترجمة مرارًا وتكرارًا من الدائرة ويمكن طلبها منها.

¹ مجلة "نظام القرآن" الفصلية، من المجلد الثاني والعدد الأول إلى المجلد التاسع والعدد الثاني (في ثلاثين حلقة)

² هذا تفسير قيّم تم تأليفه على المنهج الذي اختاره الإمام الفراهي. انظر للمزيد عنه: مجلة "ثقافة الهند" الفصلية، 176-125/2/55

³ تفسير نظام القرآن (بالأردوية)، ص 5

5. تعليقات في تفسير القرآن الكريم: إن الإمام الفراهي كان يضبط إشاراته التفسيرية على ورقة أو ورقتين موضوعتين بعد كل ورقة للمصحف الشريف. كان للفراهي ثلاث نسخ من هذا النوع، ذهب بها تلميذه الشيخ أمين أحسن الإصلاحي عندما انتقل إلى الباكستان. ولكن زميله في الدرس الشيخ أختر أحسن الإصلاحي قد نسخ كل تلك التعليقات مميّزًا بين المتقدمة منها والمتأخرة كما كانت نسخة أخرى عند الشيخ بدر الدين الإصلاحي، مدير أسبق للدائرة الحميدية. اعتمد عليها الدكتور عبيد الله الفراهي الذي قام بجمع هذه التعليقات كما قام بوضع مذكراته التفسيرية الأخرى المنشورة في رسائله عن القرآن في موضع مناسب لها. راجعها الشيخ محمد أمانة الله الإصلاحي¹ إنها في مجلدين فالمجلد الأول في 450 صفحة ويحتوي على مقدمة مدير الدائرة الراهن ومقدمة الفراهي لتعليقاته ومن سورة الفاتحة حتى سورة النور والمجلد الثاني في 514 صفحة ويحتوي على التفاسير من سورة الفرقان إلى سورة الناس. إنها طبعة غير محققة وصدرت من الدائرة الحميدية في 2010م.

6. ترجمة القرآن الكريم (بالأردوية): أراد الإمام الفراهي أن يترجم القرآن إلى الأردوية ولكنه لم يوفق إلا من سورة القيامة إلى سورة التعوذ كما ترك البياض في بعض المواضع، الذي ملأه الآخرون من ترجمة تلميذه المفسر أمين أحسن

¹ هو الشيخ أمانة الله الإصلاحي من أبرز المتخرجين في مدرسة الإصلاح، ولد في حوال 1940م. نال العلوم الابتدائية في مدرسة برامفور ثم التحق بمدرسة الإصلاح على مشورة من الشيخ أختر أحسن الإصلاحي ومن ثم ارتحل إلى المدينة المنورة فاستفاد من أساتذة الجامعة الإسلامية بها وبعد ذلك بعث إلى نائجيريا حيث خدم لمدة طويلة، وبعدما أصابه المرض رجع إلى وطنه وهو الآن مقيم في دلهي الجديدة. لم يبلغني كتاب له ولا رسالة. ذكر لي أستاذي الشيخ محمد أيوب الإصلاحي أنه علّق على تفسير "تدبر قرآن" وتفسير "تفهيم القرآن" وكتاب "أسباق النحو" ولكن لم يطبع شيء منها إلى الآن، وهكذا قام الشيخ الإصلاحي بمراجعة بعض مؤلفات الإمام الفراهي التي طبعت أخيرًا.

الإصلاح¹. هذه ترجمة جيدة تهدي المترجمين إلى بعض الأصول المهمة في هذا الفن². صفحاتها 55 صفحة. نشرتها الدائرة الحميدية في 1989 م.

7. فاتحة نظام القرآن: هذه مقدمة لتفسير الإمام الفراهي المسمى بـ"نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" ذكر فيها الإمام الأصول التي سلكها في تفسير القرآن الكريم وتعيين معناه الحقيقي ومراده الصحيح. نشرتها الدائرة الحميدية بعد وفاته في 1357 هـ. قدّم لها العلامة السيد سليمان الندوي³ (ت 1953 م) صاحب كتاب "أرض القرآن"⁴ وكتاب "سيرة النبي صلى الله عليه وسلم"⁵.

¹ ترجمة قرآن مجيد، ص 14 و 42

² المصدر نفسه، ص 7-13

³ هو السيد سليمان بن السيد أبو الحسن بن محمد شير. تنتهي شجرة نسبه إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم. ولد في 1884 م في قرية "دسنه" مولد العلماء الأفاضل والعباقرة البارزين. نال العلوم الابتدائية والمتوسطة في قريته وفلوارى شريف (Phulwārī Sharīf) ومدرسة الابتدائية بدربنغه (Darbhanga) ومن هنا ذهب إلى ندوة العلماء في 1901 م فأخذ العلوم النهائية على الشيخ عبد اللطيف السنهلي والسيد علي الزيني والشيخ حفيظ الله الأعظمي والشيخ محمد فاروق التشرياكوتي والأخير قد أثر في شخصيته كثيراً ومن ثم لقي العلامة شبلي النعماني الذي لفت نظر عناته ورفقه إليه فجعله رجلاً يفتخر به شبه القارة الهندية والباكستانية. عمل في هيئات وكليات مثل "الندوة" و"الهلال" و"كلية بهوفال". زار العالم الإسلامي مراراً. أمدّ في تأسيس دار المصنفين في 1915 م وخدم أستاذه العلامة شبلي النعماني خدمة جليلة وأكمل ما أراد ثم هاجر إلى الباكستان في 1950 م حيث توفي. كان عالماً كبيراً للقرآن والسنة والتاريخ الإسلامي بجانب براعته في العربية والإنجليزية والفارسية والأردوية. أفحم المستشرقين بقلمه الرنان فترجمت أعماله إلى مختلف اللغات العالمية. من أبرز أعماله "سيرة النبي" و"سيرة عائشة" و"خيّام" و"أرض القرآن" و"عرب وهند كـ تعلقات" (العلاقات الهندية-العربية) و"عربون كي جهاززاني" (بحارة العرب). (راجع لسيرته الكاملة: "حياة سليمان" للشاه معين الدين الندوي و"تذكرة سليمان" لغلام أحمد و"تصانيف السيد سليمان الندوي" للسيد صباح الدين عبد الرحمن و"سيد سليمان ندوي كي عربي ادب مين خدمات" (خدمات العلامة السيد سليمان الندوي للأدب العربي" للسيدة سطوت ربحانه)

⁴ كتاب شهير في جغرافيا القرآن في مجلدين. كتبه العلامة الندوي باللغة الأردوية.

⁵ كتاب قيّم عن سيرة النبي قام فيه العلامة شبلي بالرد على اعتراضات المستشرقين على سيرة النبي. لم يوفق العلامة إتمامه فقام العلامة الندوي بهذا العمل الجليل بعون من زملائه. هو باللغة الأردوية في سبعة مجلدات.

العدد الخاص مجلة الهند

8. أساليب القرآن: هذا الكتاب يدلّ على وجوه الأساليب في القرآن وبيان دلالتها ومواقع استعمالها. ونظرًا لعنوانه وبعض مشتملاته فهو كتاب فريد.¹ أصدرته الدائرة الحميدية في 1389هـ. قمتُ بتحقيقها والتعليق عليها.²
9. التكميل في أصول التأويل: هذه رسالة قيّمة في أصول التفسير قرّرها الإمام الفراهي وسلّمها لدى تفسير القرآن العظيم وتأويل معناه وتفهم مراده الحقيقي.³ نشرتها الدائرة الحميدية في 1388هـ.
10. دلائل النظام: هذه الرسالة تتحدّث عن الدلائل والبراهين على وجود النظام في القرآن كما هي تهدي إلى الطرق للوصول إلى نظام السورة وتوحيد القرآن.⁴ لم يجد الإمام فرصة لإتمام هذه الرسالة القيّمة. طبعها الدائرة الحميدية في 1388هـ.
11. إمعان في أقسام القرآن: هذه الرسالة تدلّ على نظرية جديدة في أقسام القرآن، تثبت أنّ كافة الأقسام في القرآن شهادات، استخدمها الله جلّ مجده لإقامة الحجة على القارئ والشاهد.⁵ ولو صدرت هذه الرسالة في حياة المؤلف ولكنه زاد في فصولها وأعدّها على نحو جديد فصدرت الطبعة المعدّلة من المطبعة الأحمدية بعليكرة في 1329هـ. ثم أصدرت دار القرآن الكريم بالكويت صورتها في 1401هـ بسعي أصحاب⁶ الدائرة الحميدية الذين يريدون

¹ قام الشيخ خالد مسعود رحمه الله بتلخيصه في مجلة "ميثاق" الشهرية الصادرة عن لاهور، الباكستان، راجع: 6-5/13 و 1/14 و 4-3 كما قام بتلخيصه الشيخ ضياء الدين الإصلاحي في كتابه "إيضاح القرآن"، ص 49-5

² يحتوي هذا التحقيق على ثلاثة مجلدات.

³ قام بتلخيصه الشيخ ضياء الدين الإصلاحي في كتابه "إيضاح القرآن"، ص 288-322

⁴ قام بتلخيصه الدكتور شرف الدين الإصلاحي في مجلة "فكر ونظر" الفصلية الصادرة عن الباكستان، راجع: 13-10/15

⁵ قام بتلخيصه الشيخ عبد المجيد الإصلاحي رحمه الله في مجلة "الرشاد" الشهرية الصادرة من جامعة الرشاد، أعظم كره، راجع: 62-61/13

⁶ يشرف عليهم الدكتور أجمل أيوب الإصلاحي المقيم بالرياض.

العدد الخاص مجلة الهند

أنْ يعيدوا طبعة كافة إصدارات الدائرة العربية من المطابع العربية. وهكذا نشرت الدائرة ترجمتها إلى الأردوية، التي قام بها الشيخ المفسر أمين أحسن الإصلاحي ونشرت أولاً في مجلة "الإصلاح" الشهرية.¹

12. الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح: هذا أروع الكتب في هذا الموضوع وذلك لأن الإمام الفراهي كان بارعاً في الكتب السماوية بجانب مهارته في علوم القرآن والحديث والأدب العربي فقد جاء الإمام الفراهي بكتاب فريد من نوعه. صدر الكتاب أولاً في 1338 هـ من مطبعة معارف بأعظم كره ثم نشرته الدائرة الحميدية في 1414 هـ وفي 1420 هـ أصدرت دار القلم بدمشق طبعة له ثالثة. وهكذا نشرت الدائرة ترجمتها الأردوية التي قام بها الشيخ أمين أحسن الإصلاحي ونشرها أولاً في مجلة "الإصلاح" الشهرية.²

13. في ملكوت الله: هذه الرسالة تنطق عن السنن الإلهية في رقي الأمم وانحطاطها وعلو الحق وهزيمة الباطل وأصول النظام السياسي للإسلام. لم يوفق الإمام إتمام هذه الرسالة القيّمة. ترجمها الأستاذ أطفاف أحمد الأعظمي³ وقدم لها

¹ مجلة "الإصلاح" الشهرية، 11-5/4

² المصدر نفسه، 11-1/3 و 4-1/4

³ هو الأستاذ أطفاف أحمد الأعظمي بن إقبال أحمد خان من أهالي بهاتين باره (Bhatinpara) إحدى قرى مديرية أعظم كره. ولد الأعظمي في 1942 م. نال العلوم العربية في مدرسة الإصلاح ثم ذهب إلى جامعة عليكره الإسلامية حيث أكمل BUMS في 1969 م ثم بدأ عيادته الطبية في 1970 م وفي 1984 م تعيّن كباحث سابق في المعهد الهندي لتاريخ الأدب والبحوث الطبية وبقي حتى 1991 م وفي الفترة ما بين 1991 و 2002 م أصبح رئيس قسم تاريخ الطب وبعد ذلك عيّن عميد كلية الدراسات الإسلامية والعلوم الاجتماعية وتقاعد وهو على هذا المنصب. إنه كان نائب رئيس مجمع اللغة الأردوية، نيو دلهي. له مقالات مهمة تم نشرها في مختلف المجلات الوطنية والخارجية. من أعماله "إيمان كما قرأني تصور" (تصور الإيمان القرآني) و "توحيد كما قرأني تصور" (تصور التوحيد القرآني) و "تجليات حق" و "تاريخ طب وأطباء دور مغليه" (تاريخ الطب والأطباء في عصر المغول) و "History of Unani Medicine in India" (تاريخ الطب اليوناني في الهند). (راجع لسيرته الكاملة: مجلة "نقش" السنوية وشخصية الكاتب ذاته فهو حي يزرق)

العدد الخاص مجلة الهند

معلومات جيّدة عن الموضوع.¹ نشرته الدائرة الحميدية في 1391 هـ وأما الترجمة فهي منتظرة الطبع.

14. القائد إلى عيون العقائد: هذه الرسالة القيّمة تتحدث عن أمور العقيدة الإسلامية مثل الإيمان بالقدر وعصمة الأنبياء والآخرة وما شابهها. لم يجد الإمام فرصة لإتمامها. أصدرته الدائرة الحميدية في 1395 هـ وقد صدرت طبعتها الثانية الجديدة في 2010 م.

15. مفردات القرآن: هذا الكتاب من أروع الكتب الموجودة في العالم في موضوع مفردات القرآن وشرح كلماته الصعبة الجوهريّة. ذكر فيها الإمام الفراهي أصول تعيين مفهوم الكلمة الحق بجانب شرح المفردات الصعبة للقرآن الكريم في ضوء القرآن والسنة وكلام العرب والصحف السماوية الأخرى. لم يوفّق الإمام إتمام هذه الرسالة. صدرت هي باعتناء² عبد الأحد الإصلاحي (ت 1941 م) في 1358 هـ من الدائرة الحميدية ثم نشرت دار الغرب الإسلامي طبعة لها محقّقة³ في 2002 م كما قامت الدائرة الحميدية بنشرها في 2004 م.

16. رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن: هذه مجموعة رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن وهي تشمل "أساليب القرآن" و"التكميل في أصول التأويل" و"دلائل النظام".⁴ أصدرته الدائرة الحميدية في 1991 م.

17. رسائل في علوم القرآن: هذه مجموعة ثانية لرسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن. تشمل هذه المجموعة أربع رسائل: الرائع في أصول الشرائع وإحكام الأصول بأحكام الرسول وأسباب النزول والرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ. تذيّل الرسالة الرابعة بحواشي الفراهي على كتاب الناسخ والمنسوخ

¹ وللدكتور الأعظمي مقالة قيّمة في هذه الرسالة نشرت في مجموعة مقالاته "مولانا حميد الدين فراهي کے بنیادی افکار"، راجع: المصدر نفسه، ص 135-187

² مفردات القرآن (بدون تحقيق)، لوح الكتاب

³ قام بها الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي المقيم بالرياض.

⁴ لخصّ مشتملات هذه الرسائل الشيخ خالد مسعود في كتاب سمّاه "تفسير قرآن کے أصول".

العدد الخاص مجلة الهند

لأبي جعفر النحاس. قام بإعدادها الدكتور عبيد الله الفراهي وأما المراجعة فقد قام بها الشيخ أمانة الله الإصلاحي. إنها في 181 صفحة وصدرت من الدائرة الحميدية في 2011م. ولو أن المجموعة تخلو من مقدمة المدير الجامع ولكنها تشمل المراجع الهامة الضرورية فهي طبعة شبه محققة.

18. حكمة القرآن: هذه رسالة الفراهي عن حكمة القرآن وهي رسالة رائعة في الموضوع تبين مفهوم الحكمة في القرآن وبيان منزلتها وخصائصها وأثارها ومظاهرها وأسبابها وتعليم النبي إياها لأمتة وطرق استنباطها ووجود الحكمة في نظام الديانة الإسلامية. قام الدكتور عبيد الله الفراهي بإعدادها وضبط حواشيها. أصدرها الدائرة الحميدية في 120 صفحة في 2007م. إنها تحمل مقدمة الناشر الجامع.

19. حكمة القرآن (ترجمة): هذه ترجمة أردوية لكتاب الإمام الفراهي "حكمة القرآن" قام بها المرحوم خالد مسعود الباكستاني¹ (15/ ديسمبر 1935-30/ سبتمبر 2003م) ونشرها أولاً في مجلة "تدبر"² الشهرية الصادرة عن الباكستان ثم نشرها من "إداره تدبر قرآن وحديث" (الباكستان) في 1995م

¹ هذا هو الشيخ الذي هجر العلوم الجديدة واعتنق علوم القرآن وخدمها خدمة يندر نظيرها لدى العلماء الأفاضل فلو أنّ الشيخ خالد مسعود أتمّ البكالوريوس في العلوم من كلية لاهور الإسلامية ونال شهادة ماجستير في الكيمياء من جامعة بنجاب وعمل في معمل البحث الصناعي وحصل على شهادة الدبلوم في الهندسة الكيمياء من كلية الملك بلندن وترأس التبشير الإسلامي ولكنه قد تغيّر بخطبة ألقاها الشيخ أمين أحسن الإصلاحي فهجر كافة هذه الفعاليات وتعلّق بالشيخ الإصلاحي فتعلّم عليه وأدار معهد التدبر في القرآن كما أدار مجلته "تدبر" وخدم القرآن عن هذه الطريق خدمة يغبط عليها العلماء الأفاضل، وبجانب هذه الجدارة فقد كان خلقه القرآن كما شهد به المعاصرون. من أبرز أعماله "تلخيص تفسير تدبر قرآن" و"حيات رسول أمي" و"تفسير قرآن كي أصول" (ترجمة وتلخيص) و"أسباق النحو" (تدوين وتحقيق)، توفي الشيخ في الواحد من شهر أكتوبر عام 2003م. (راجع للمزيد عنه: مجلة "تدبر" عددها الخاص عن الشيخ ومجلة "رفيق منزل")

² راجع: أعداد المجلة، 22-30 عام 1987-1989م.

العدد الخاص مجلة الهند

وبعد ذلك تم نشرها في الحلقات في مجلة "علوم القرآن"¹ نصف السنوية الصادرة عن عليكره وفي الأخير أخذت الدائرة الحميدية صورتها ونشرتها في قشيب جيد في 1996م. هذا الكتاب ينطق عن حكمة القرآن ومفهومها الحقيقي في القرآن الكريم وقيام الدين عليهما. هذا كتاب قيم ولكن لم يوفق الإمام الفراهي إتمامه. قمت بترجمتها إلى الإنجليزية.² نشرها مطبعة آدم بدلهي في 2005م.

20. حجج القرآن: هذه هي أهم وأجل رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن ولو أنه لم يوفق إتمامها ولكن أتم خطته. هي تشتمل على ثلاث مقالات وكل مقالة في ثلاثة أبواب فالمقالة الأولى في نقد المنطق والفلسفة وعلم الكلام والمقالة الثانية في تأسيس العلم وبيان طريق احتجاج القرآن والمقالة الثالثة في ذكر حجج القرآن على الربوبية والمعاد والرسالة. قام الدكتور عبيد الله الفراهي بجمعها وضبط حواشيها ونشرها من الدائرة الحميدية. صدرت طبعتها الأولى في 314 صفحة في 2009م.

21. مباحث القرآن: هذه مجموعة مقالات الشيخ أختار أحسن الإصلاحي الخمس المنشورة في مجلتي "الإصلاح" و"مدينة".³ تعالج هذه المقالات القضايا المهمة القرآنية وتحتوي على معلومات مهمة وحقائق جمة. جمعها الشيخ عبد الرحمن ناصر الإصلاحي وقدم لها ونشرتها الدائرة الحميدية في 1996م. صفحاتها 130 صفحة.

22. نظم قرآن، ايك تعارف (نظم القرآن، دراسة تعريفية): هذه مجموعة آراء الإمام ابن تيمية⁴ والإمام الزركشي¹ والعلامة الفراهي عن فلسفة نظام

¹ راجع: أعداد المجلة، 2/3 و 1/4 و 2/4 و 1/5

² ذكرت ترجمة الفراهي في طبعته الإنجليزية.

³ هذه المجلة كانت تصدر من بيجنور (Bijnaur)

⁴ هو تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله. ولد بحران في 661هـ. بدأ دراسته في السادس من عمره ولم يبلغ سبعة عشر عامًا إذ جعل يؤلف ويصنف وذلك لأنه تعلم

العدد الخاص مجلة الهند

القرآن وقد قام بجمعها وترتيبها وترجمتها الأردوية، البروفيسور عبيد الله الفراهي. نشرتها الدائرة الحميدية في 1994. صفحاتها 96.

23. علامة حميد الدين فراهي، حيات وافكار (العلامة حميد الدين الفراهي، سيرته وفكرته- بالأردوية): هذه مجموعة مقالات الندوة العلمية التي تم عقدها في 8-10 من شهر أكتوبر 1991م حول حياة وآثار وأفكار العلامة حميد الدين الفراهي. قام البروفيسور عبيد الله الفراهي بجمع وإعداد المقالات بجانب قيامه بالتعليق والتحشية على بعض الآراء الخاطئة عن شخصية الإمام وأفكاره القيّمة. نشرتها الدائرة الحميدية في 1992م. صفحاتها 592.

24. رسالة في إصلاح الناس (بالأردوية): هذه رسالة تتحدث عن إصلاح الناس في ضوء القرآن الكريم. أراد الإمام الفراهي تأليف رسالة بهذا الاسم ولكن لم يجد الفرصة فتركها غير تامة ولَبَّى دعوة ربه الكريم إلى الآخرة. نظرًا لأهمية

على أكثر من مائتي أستاذ بمن فيهم ابن أبو اليسير وشمس الدين الحنبلي ومجد الدين بن عساكر وأبو بكر الهروي وفخر الدين البخاري وابن شيخان. كان رجلًا شواقفًا إلى العلم وجريئًا لا يخاف السلطان في الإدلاء بالرأي وقول الحق فقد واجه مشاكل السجن ولكن لم تفتر عزيمته. برع في القرآن والسنة والفقه والمنطق. خلف كتبًا ورسائل لا تحصى ولا تعدّ. اعترف بعظم قدره في العلوم والفنون علماء العالم الإسلامي كله. من مؤلفاته "الفتاوى الكبرى" و"الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان" و"الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح" و"كتاب درء تعارض العقل والنقل". (ولولا حاجة إلى ذكر الكتب والتراجم عن سيرته فإنه شخصية أشهر من نار على علم في العالم العربي ولكني أشير إلى بعض منها نظرًا لشبه القارة فهي "ابن تيمية وجهوده في التفسير" لإبراهيم خليل و"أسماء مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية" لابن القيم)

¹ هو أبو عبد الله بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، عالم بفقه الشافعية والأصول، تركي الأصل. ولد في 1344هـ بمصر وتوفي به في 1392هـ. أخذ العلوم على الشيخ جمال الدين والشيخ سراج الدين والشيخ شهاب الدين وابن كثير وغيرهم. خلف مؤلفات عديدة في مختلف الفنون من أبرزها "الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة" و"لقطة العجلان" و"البحر المحيط" و"الدباج في توضيح المنهاج" و"البرهان في علوم القرآن". (هذه شخصية معروفة فراجع للمزيد عنها: "الدرر الكامنة"، 3/397 و"شذرات الذهب"، 6/335 و"الأعلام" للزركلي، 6/حرف الميم و"مقدمة البرهان في علوم القرآن" للأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم)

العدد الخاص.....مجلة الهند

الموضوع وإفاضة العامة، قام الشيخ أمين أحسن الإصلاحي بترجمتها إلى الأردوية ونشرها في مجلة "الإصلاح"¹ ثم قام البروفيسور عبيد الله الفراهي باختيار الكتابات الأخرى للفراهي عن الموضوع وإعدادها خير إعداد. نشرتها الدائرة الحميدية في 1993م.

25. رسالة التوحيد (بالأردوية): موضوع الرسالة واضح. هذه أيضًا مجموعة كتابات الإمام الفراهي المختارة. قام بهذا العمل الرائع، الدكتور عبيد الله الفراهي. نشرتها الدائرة الحميدية في 1993م.

26. رسالة الآخرة (بالأردوية): هذه الرسالة أيضًا شاملة كتابات الإمام الفراهي المختارة عن الآخرة. قام بهذا العمل المفيد، البروفيسور المذكور آنفًا. نشرتها الدائرة الحميدية في 1993م.

27. رسالة النبوة (بالأردوية): هذه الرسالة تتحدث عن النبوة والشؤون المتعلقة بها. قام البروفيسور عبيد الله الفراهي بإعداد هذه الرسالة مختارًا كتابات الإمام الفراهي عن الموضوع. نشرتها الدائرة الحميدية في 1993م.

28. مكاتيب فراهي (مجموعة رسائل الإمام الفراهي): هذه مجموعة رسائل الإمام الفراهي التي بعث بها الإمام إلى مختلف الشيوخ وهي تراث قيم للدراسات الإسلامية لأنها تشمل حلول القضايا المتعلقة بالقرآن والسنة والأدب العربي بجانب احتوائها على معلومات قيمة عن الإمام نفسه. جمعها ورثها الدكتور شرف الدين الإصلاحي² والدكتور حمد الله الفراهي (17/ أكتوبر 1953-30/ ديسمبر 2003م) تحتوي المجموعة على 103 صفحة. نشرتها الدائرة الحميدية في 1994م.

¹ مجلة "الإصلاح" الشهرية، 48-45/6/1

² هو الدكتور شرف الدين الإصلاحي من أهالي سنجر فور (Sanjarpur) إحدى قرى مديرية أعظم كره. نال شهادة "الفضيلة" من مدرسة الإصلاح ثم أتمّ الليسانس وماجستير والدكتوراه في اللغة الأردوية وآدابها من جامعة بنجاب. عمل كبروفيسور في جامعة جناح كما عمل في جامعة إسلام آباد الدولية. توفي في 2011م ولا ندري عنه أكثر من هذا.

العدد الخاص مجلة الهند

29. حيات حميد (ترجمة الإمام الفراهي بالأردنية): هذا الكتاب مجموعة مقالاتين تمّ تأليفهما بقلم الشيخ أمين أحسن الإصلاحي والعلامة السيد سليمان الندوي. جمعهما الشيخ عبد الرحمن ناصر الإصلاحي ونشرتها الدائرة الحميدية في 1973م. هذا الكتاب يلقي ضوءًا موجزًا على سيرة العلامة حميد الدين الفراهي ومؤلفاته القيّمة وأفكاره النيرة وما إليها.

30. علامة حميد الدين فراهي علماء ومفكرين كي نظرمين (العلامة حميد الدين الفراهي في ضوء آراء العلماء والمفكرين): هذه مجموعة الآراء والانطباعات التي أدلى بها العلماء الأفاضل والمفكرون الكبار¹ عن الشيخ حميد الدين الفراهي وطول باعه في العلوم وإخلاصه لله. جمعها الدائرة الحميدية ونشرتها. تبتدئ المجموعة بذكر ما كتبه العلامة السيد سليمان الندوي عنه. لم تذكر سنة نشره. صفحاتها 32.

31. ذكر فراهي (ترجمة الفراهي- بالأردنية): هذه ترجمة الإمام الفراهي الجامعة الحافلة بالمعلومات. قام بكتابتها الأستاذ الدكتور شرف الدين الإصلاحي باللغة الأردية والواقع أنها كانت مشروع التحقيق الذي فوّضه "إداره تحقيقات إسلامي، إسلام اباد" (معهد البحوث الإسلامية، إسلام اباد) إلى هذا المحقق المدقق فقد بذل الأستاذ الدكتور كلّ جهده وجاء بشيء دقيق حافل بالمعلومات الحديثة. هذه الترجمة تحتوي على 840 صفحة ونشرتها الدائرة الحميدية في 2004م.

وثانيًا: مساهمتها في تطور اللغة العربية وآدابها والترجمة: بجانب تقديم الخدمات الجليلة إلى مجال الدراسات الإسلامية فقد أعانت الدائرة الحميدية في تطور اللغة العربية وآدابها والترجمة منها وإليها في شبه القارة الهندية-الباكستانية. وإليك خدماتها الجليلة في هذا المجال.

¹ أمثال العلامة شبلي النعماني والسيد سليمان الندوي والسيد أبو الأعلى المودودي والشيخ تقي الدين الهلالي والشيخ عبد الحّي اللكناوي والشيخ مناظر أحسن الغيلاني والشيخ عبد الماجد الدرا بادي والشيخ عبد الحق وغيرهم.

العدد الخاص مجلة الهند

1. أسباق النحو: هذه الرسالة التي تم تأليفها باللغة الأردية تبحث عن قواعد اللغة العربية بأسلوب سهل وتدرّس الطلاب الجدد هذا الفن بمنهج ميسر للغاية. هذه أنفع الرسائل وأجزها في الموضوع. تم نشرها في حياة المؤلف ثم زادها شيئاً كما ترك البياض¹ في بعض المواضع فملأه تلميذه الرشيد اختر أحسن الإصلاحي ونشره من الدائرة الحميدية في 1937م.
2. أسباق الصرف: هذه الرسالة، كما يتضح من عنوانها، تعلّم الناشئين علم الصرف بأسلوب سهل وجيز للغاية حتى يمهر الطالب الناشئ في هذا الفن وهو لا ينفق إلا نصف سنة. إنها رسالة أردية قيمة تجدر بتقريرها في المنهاج الدراسي لكافة المدارس والمعاهد والجامعات الهندية كما هي تستحق نقلها أو على الأقل بيان مرادها وفكرتها وأسلوبها في لغات العالم لا سيما العربية والإنجليزية والفرنساوية. تم نشرها في حياة المؤلف ثم أضاف إليها تلميذه المؤقر اختر أحسن الإصلاحي بعض النماذج والأمثلة والتمرينات² ونشرها في 1937م من الدائرة الحميدية.
3. تحفة الإعراب: هذه الرسالة المنظومة بالأردية وهي موجزة ما جاء في الرسالتين الأوليين من المواد والأفكار البديعة. هي تشتمل على 128 بيت. تم تقريرها في المنهاج الدراسي لمختلف مدارس الهند، نشرت في حياة المؤلف ثم نشرها الدائرة الحميدية في 1919م.
4. أسباق النحو (جامع): هذه في الواقع ليست أي رسالة خاصة بل هي مجموع الرسائل الثلاث المذكورة أعلاه وهي: أسباق النحو وأسباق الصرف وتحفة الإعراب. قام بجمعها وإعدادها والتعليق عليها الشيخ النحوي احتشام الدين الإصلاحي تلميذ رشيد الشيخ اختر أحسن الإصلاحي المرحوم. إن تعليقاته قد سهّلت المواضع الصعبة وقدمت الرسائل ومباحثها بأسلوب سهل ميسر للغاية. تم طبعها من الدائرة الحميدية في 2000م. إنها لا تخلو من الأخطاء المطبعية.

¹ أسباق النحو، ص 1

² المصدر نفسه والصفحة ذاتها

العدد الخاص مجلة الهند

5. أمثال آصف الحكيم (ترجمة): هذه ترجمة عربية لحكايات آصف الحكيم بالإنجليزية "Aesop's Fables". قام بها الإمام الفراهي زمن دراسته.¹ حكاياتها 136 وصفحاتها 73. هذه ترجمة اختيارية سلسلة نظرًا لطلاب الدراسات الابتدائية فقد تم تقريرها في مختلف المدارس الهندية. صدرت طبعها الأولى في سنة لم تضبط ثم صدرت في 1393م من الدائرة الحميدية كما صدرت في 1405هـ والطبعة الجديدة صدرت في 2007م في 75 صفحة. إنها لا تخلو من الأخطاء المطبعية.
6. جمهرة البلاغة: هذا الكتاب وحيد من نوعه في علم البلاغة. ذكر فيه الإمام الفراهي أصول البلاغة ومستواها في ضوء القرآن والسنة وكلام العرب القح. إنه انتقد فيه أرسطو ونظريته للمحاكاة. أثنى عليه معاصروه من العلماء والنقاد² كما أعلى ذكره المتأخرون من الأدباء والنقاد.³ يجدر الكتاب بأن ينشر في العالم الإسلامي بعد شيء من التحقيق. نشرته الدائرة الحميدية في 1360هـ.
7. ديوانه العربي: هذا ديوانه العربي ويشتمل على خمس عشرة قصيدة رائعة بليغة عن التهانى وتعاليم الإسلام والحروب التي دارت بين مسلمي بلقان وطرابلس وأعدائهم الألداء. أثنى عليها العرب.⁴ قام الشيخ بدر الدين

¹ أمثال آصف الحكيم، (كلمة الجامع) ص 3

ولكن يبدو من كلام الشيخ أمين أحسن الإصلاحي أنه ليس من أعمال صغر سنه بل مما قرّره الفراهي من الإصلاح في المنهاج الدراسي الراهن فهو يقول:

"هذه (أمثال آصف الحكيم) ترجمة قصص "Aesop's Fables" المختارة التي قام بها الشيخ الفراهي- إثر مشروع الإصلاح في المنهاج الدراسي- لتدريسها للطلاب ككتاب مدرسي لطلاب الصفوف البدائية". مجلة "الإصلاح"، عدد أبريل عام 1938م، ص 198

ويؤيده الدكتور شرف الدين الإصلاحي صاحب "ذكر فراهي"، أنظر: ص 639-640

² مثل العلامة شبلي النعماني، راجع: مجموعة مقالاته، 28-13/2

³ مثل الدكتور جلال السعيد الحفناوي، راجع: مجلة "ثقافة الهند"، 56-55/2/55

⁴ مثل العلامة تقي الدين الهلالي المراكشي، راجع: ذكر فراهي، ص 33-34 والدكتور أحمد حسن فرحات، المصدر نفسه، ص 788 والدكتور جلال السعيد الحفناوي، راجع: مجلة "ثقافة الهند"، 56-55/2/55

العدد الخاص مجلة الهند

الإصلاحي بجمعها وتدوينها وتقديمها ونشرها من الدائرة الحميدية في
1387هـ. صفحاته 36.

وثالثاً: مساهماتها في اللغة الأردوية وآدابها: قدّمت الدائرة الحميدية خدمات
جليلة في تطور اللغة الأردوية وآدابها والصحافة فيها وتفصيلها فيما يلي:

1. مجلة "الإصلاح": قد مضى أنّ الدائرة الحميدية كانت تهدف إلى إصدار
مجلة شهرية تخدم القرآن والسنة والمسلمين فقد أصدرت، منذ تأسيسها،
مجلة شهرية باسم "الإصلاح"¹ نشرت فيها مقالات قيّمة عن علوم القرآن
والحديث بجانب نشر ترجمات مؤلفات الإمام الفراهي العربية. وعلاوة على
هذه المساهمات القيّمة في الدراسات الإسلامية فقد ساهمت المجلة كثيراً في
تطور اللغة العربية وآدابها واللغة الفارسية وآدابها واللغة الأردوية وآدابها
فقد نشرت قصائد رائعة في اللغة الفارسية واللغة الأردوية بجانب نشر
المقالات الفاضلة عن الأدب العربي. إنّ هذه المجلة قد خدمت في صفحاتها
القليلة ما عجز عنه المجلات الأخرى المحتوية على مئات من الصفحات. كان
لهذه المجلة مستوى علمي رفيع قلما بلغته المجلات الأردوية الأخرى في الهند
وخارجها ولكن من الأسف أنّ هذه المجلة قد توقّف إصدارها حينما غادرها
مدير تحريرها الشيخ أمين أحسن الإصلاحي لكي يعضّد العلامة أبا الأعلى
المودودي² (25/ سبتمبر 1903-22/ سبتمبر 1979م) وجماعته الإسلامية.

¹ صدر أول أعدادها في يناير 1936م واستمرت هي حتى نوفمبر 1939م. كان ينسخ هذه المجلة
المنشئ عبد الغفار بينما يطبعها غوفين (Gopin) المنبوذ من أهالي حاجي فور (Hājīpūr) إحدى
قرى مديرية أعظم كره. مجلة "علوم القرآن"، عددها الخاص عن الشيخ أمين أحسن
الإصلاحي، ص 566.

² هو أبو الأعلى بن السيد أحمد حسن ولد في مدينة أورنغ اباد في 1903م. تلقى العلوم البدائية
على والده الجليل وأما العلوم الأخرى فقد نالها بدراسته الشخصية. بدأ حياته العملية
كصحفي كما كان كوّن جبهة صحفية في 1920م لتحرير الأمة الإسلامية وكذلك أصدر مجلة
"ترجمان القرآن" عن حيدرآباد وكان شعارها "احملوا أيها المسلمون دعوة القرآن وانفضوا
وافتحوا العالم" وفي 26 من أغسطس 1941م أسّس الجماعة الإسلامية في مؤتمر اشترك فيه

العدد الخاص مجلة الهند

ولكنَّ الله سبحانه وتعالى يخلق بديلاً بكل شيء ونائباً لكل مخلوق فقد بدّله جلّ مجده برجل إسلامي فعّال وهو الشيخ أبو الليث الإصلاحي (1916-1990م) الذي ترك وظيفته وجاء مدرسته الأم مدرسة الإصلاح وتابع هذا العمل البناء بإصدار مجلة شهرية أخرى باسم "إصلاح"¹ في 1941م إلا أنّ هذه المجلة لم تواصل مسيرها بحيث توقّف إصدارها حينما التحق الشيخ أبو الليث بتلك الجماعة الجديدة، الجماعة الإسلامية فلم تصدر إلا أربعة أعداد منها. كان مستوى هذه المجلة أيضاً عالياً يضاهي بمستوى المجلات الرائعة الأخرى الصادرة عن الهند والباكستان.

وبعد ذلك لم تصدر أي مجلة من هذا المعهد العلمي وذلك لأن مدرسة الإصلاح قد أصدرت منظمة طلابها الجدد حولية² كما قامت هي بنفسها بإصدار مجلة فصلية باسم "نظام القرآن"³ فهاتان المجلتان تقومان مقامها فلا حاجة إلى إكثار المجلات فإن الهدف، نشر العلوم الإسلامية والعربية، يتم الوصول إليه عن طريق هاتين المجلتين.

2. الترجمات الأردوية لمؤلفات الإمام الفراهي: قامت الدائرة الحميدية بنشر ترجمات الإمام الفراهي الأردوية التي قام بها أصحابها أو العلماء الآخرون كما

50 رجلاً. اعتقل عدة مرات لهذه العملية الدعوية وفي 1979م تشرف بجائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام وفي 22 من شهر سبتمبر 1979م انتقل إلى رحاب ربه الكريم. كان العلامة المودودي رجلاً متحمساً للإسلام والمسلمين ويدلّ عليه معظم مؤلفاته. إنه رجل أقنع الجيل الجديد الذي كان يرتد عن الإسلام. من أبرز أعماله الكتابية "الجهاد في الإسلام" و"الحجاب" و"الأسماء الحسنى" و"تفهيم القرآن" و"الكتاب الأخير تفسير للقرآن يبرّد غليل العقول الجديدة. (راجع للمزيد عن شخصيته: "إيك شخص إيك كاروان" (رجل أصبح قافلة) و"قرآن حكيم كے اردو تراجم" (ترجمات القرآن الأردوية) و"الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة")

¹ مجلة "علوم القرآن"، عددها الخاص عن الشيخ الإصلاحي، ص 360

² صدر أول أعدادها في 1987م.

³ صدر أول أعدادها في محرم-ربيع الأول عام 1421هـ

العدد الخاص مجلة الهند

قامت بنشر الترجمات الأخرى ففي هذا الشأن نشرت ترجمات الكتب والمؤلفات التالية:

1. تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان باسم "نظام القرآن"
 2. إمعان في أقسام القرآن باسم "أقسام القرآن"
 3. الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح باسم "ذبيح كون؟"
 4. رسالة في إصلاح الناس باسم "رساله في اصلاح الناس"
- قام بترجمة تلك الكتب والرسائل إلى اللغة الأردوية تلميذه الرشيد الشيخ أمين أحسن الإصلاحي وقد مضى تفصيلها في العنوان "مساهمتها في الدراسات الإسلامية".
5. ترجمة القرآن إلى الأردوية (غير تامة): قام بها الإمام الفراهي ذاته.
 6. حكمة القرآن: قام بترجمته إلى الأردوية تلميذ الشيخ الإصلاحي الشيخ خالد مسعود الباكستاني.
- وتفصيل هاتين الرسالتين مذكور في موضعه.
3. مباحث القرآن: هذه مجموعة مقالات الشيخ أختار أحسن الإصلاحي باللغة الأردوية وهو نموذج جيد لمعالجة المواضيع العلمية باللغة الأردوية. مضى ذكرها لدى الكلام عن مساهمتها في الدراسات الإسلامية.
 4. رسائل خليل الرحمن الأعظمي: هذه مجموعة رسائل الأستاذ خليل الرحمن الأعظمي¹ التي بعثها الأستاذ الأعظمي إلى الشيخ عبد الرحمن ناصر الإصلاحي.

¹ هو خليل الرحمن الأعظمي بن الشيخ محمد شفيع ولد في 9 من أغسطس عام 1927م في سيدها سلطانفور. تعلّم حتى المتوسطة في مدرسة شبلي ثم التحق بجامعة علي كره الإسلامية من حيث أكمل الثانوية والبكالوريوس وماجستير والدكتوراه. عمل في معظم أوقات حياته في علي كره وتوفي بها في الواحد من يونيو عام 1978م. كان مجدّداً في الشعر الأردوي المعاصر والنقد الأردوي. له مؤلفات عديدة انتقد فيها الأدب القديم وجاء بشيء جديد في النقد والشعر الأردوي المعاصر. من مؤلفاته "فكر وفن" و"مقدمة كلام آتش" و"نوائ ظفر". (راجع للمزيد عن سيرته وفكره: مجلة "شاعر"، عددها الخاص بالأعظمي)

العدد الخاص.....مجلة الهند

قام بجمعها وإعدادها الشيخ ناصر ذاته. إن هذه الرسائل تحتوي على معلومات مهمة عن الأستاذ الأعظمي وعلى نماذج رائعة لأدب الرسائل الأردوي لأنها مرسله من قبل رجل معروف معتمد عليه في الأدب والشعر والنقد الأردوي. نشرتها الدائرة الحميدية في 1980م.

5. نظم قرآن، ايك تعارف (نظم القرآن، دراسة تعريفية): مضى ذكره في البحث عن مساهمتها في الدراسات الإسلامية.

6. علامة حميد الدين فراهي، حيات وأفكار (العلامة حميد الدين الفراهي، حياته وفكرته): مضى ذكر هذه المجموعة عند الكلام عن مساهمتها في الدراسات الإسلامية.

7. رسالة التوحيد:

8. ورسالة الآخرة:

9. ورسالة النبوة:

هذه الرسائل الثلاث مختارات كتابات الإمام الفراهي عن الموضوع وقد مضى ذكرها في الحديث عن مساهمتها في الدراسات الإسلامية.

10. مكاتيب فراهي (مجموع رسائل الإمام الفراهي): معظم هذه الرسائل باللغة الأردوية. مضى ذكرها في العنوان "مساهمتها في الدراسات الإسلامية".

11. حيات حميد (ترجمة الفراهي):

12. علامة حميد الدين فراهي علماء ومفكرين كي نظر مين (العلامة حميد الدين الفراهي في ضوء آراء العلماء والمفكرين):

13. ذكر فراهي (ترجمة مفصلة للفراهي):

كل هذه الكتب والرسائل مذكورة في الموضوع المناسب لها.

14. أسباق النحو:

15. وأسباق الصرف:

هاتان الرسالتان تعلّمان قواعد اللغة العربية باللغة الأردوية السهلة ومضى ذكرهما في البحث عن مساهمتها في تطور اللغة العربية وآدابها والترجمة.

العدد الخاص مجلة الهند

16. تحفة الإعراب: هذه المنظومة باللغة الأردوية وتهدي الشعراء إلى تعليم قواعد اللغة بأسلوب شعري سهل. مضى ذكرها في الحديث عن مساهمتها في تطور اللغة العربية وآدابها والترجمة.

17. في ملكوت الله: هذه الترجمة الأردوية التي قام بها الأستاذ الطاف أحمد الأعظمي بتقديم قيّم من عنده موجودة لدى أصحاب الدائرة ومنتظرة الطبع والنشر.¹

مساهمتها في اللغة الفارسية وآدابها: قد ساهمت الدائرة الحميدية في تطوير اللغة الفارسية وآدابها ولكن هذه المساهمة ضاق نطاقها وذلك لأنها لم تتجاوز طبع ونشر ديوان الإمام الفراهي الفارسي ونرجو منها المزيد في المستقبل. ديوان الإمام الفراهي الفارسي (نوائ بهلوي) الذي نشرته الدائرة الحميدية يحتوي على 113 صفحة. تم نشره في 1967م وقدم له الشيخ بدر الدين الإصلاحي. هذه المقدمة دليل حيّ على براعته في اللغة الفارسية ثم تأتي مقدمة الأستاذ نبي هادي من قسم اللغة الفارسية وآدابها بجامعة عليكرة الإسلامية وهي تدل دلالة خبير على روعة شعر الفراهي. وأما القصائد والغزليات والرباعيات التي قالها الإمام الفراهي فهي نماذج رائعة للأدب الفارسي المنظوم ومملوءة بالحكم والأمثال والمحبة الربانية الخالدة.² تجدر هذه القصائد والغزليات بأن يتناولها الباحثون والنقاد بالبحث والدراسة فهي تضاهي بما قاله الشيخ سعدي وحافظ الشيرازي. اعترف بهذا الواقع كبار علماء الفارسية.³ ننقل طرّفًا منها فيما يلي ونترك المجال للقراء في الدراسة والتمتع بها. قال الإمام الفراهي:

گویند که گمنام بدن از خامی است آوازه و نام جو که خوش فرجامی است

¹ راجع: مجموع مقالاته "مولانا حمید الدین فراہی کے بنیادی افکار"، ص 135.

² مقالات إحسان، ص 337-354

³ تفسير نظام القرآن، ص 9 ومقالات إحسان، ص 337-354

العدد الخاص مجلة الهند

در فیش فراہی ای نکو اندیشاں این جست نام بدترین بدنامی است¹

وقال أيضًا:

در جهان خواب گاه نتوان کرد خواب بر راه وچاه نتوان کرد

از مه وسال خود شمار بگیر رائجان سال و ماه نتوان کرد

کار از بهر کار باید کرد از پئی واه واه نتوان کرد²

وأيضًا:

بنگر اندر جهان بژرف نگاه تا بدانی سپید را ز سبیا

در نکویان نهفته بد باشند در بدان هم نکو بود گاه

اے بسا ماه رو ئے تیرہ درون وے بسا تیرہ رو ئے دل چون ماه

گام آہستہ دار و راه ببین تانہ پاید فتد ز راه بچاہ³

مخطوطاتها النادرة القيّمة

بجانب تلك الكتب والرسائل المطبوعة، تمتلك الدائرة الحميدية كمية هائلة⁴ من كتب ورسائل الإمام الفراهي التي لم تطبع حتى الآن وهي محفوظة لدى الدكتور عبيد الله الفراهي مدير الدائرة الحميدية حاليًا. نودّ أنّ نشير إليها بإيجاز كيلا يفوت العلماء والباحثين وجودها وأهميتها وهي:

- في الدراسات الإسلامية: فالمخطوطات التي تمتّ إلى هذا المجال بسبب هي: 1. أوصاف القرآن: هذه الرسالة توجد في مسودتين أوراقها 25 ورقة.

¹ نوائ بهلوي، ص 22

² المصدر نفسه، ص 33

³ المصدر نفسه، ص 37

⁴ راجع للمزيد عنها: "تفسير نظام القرآن"، ص 25-26 و"ذكر فراهي"، ص 644-672 و"مفردات القرآن" (طبعة محققة)، ص 35-39

العدد الخاص مجلة الهند

2. تاريخ القرآن: هذه المسودة تشتمل على 10 أوراق وموضوعها واضح.
 3. فقه القرآن: موضوع هذه الرسالة واضح وهي في ست ورقات.
 4. الأزمان والأديان: هذه الرسالة تدل على حكمة عناية الدين بشهور وأيام وساعات معينة. لهذه الرسالة ثلاث مسودات يبلغ عدد صفحاتها 22 صفحة.
 5. الإكليل في شرح الإنجيل: عنوانها واضح وهي في 9 أوراق¹.
 6. رسالة في إصلاح الناس: مضى ذكرها لدى التراث المطبوع للفراهي. هي في 5 ورقات.
 7. العقل وما فوق العقل: هي في المنطق وتوجد في 4 ورقات.
 8. المنطق الجديد: موضوعها واضح. أوراقها 18 ورقة.
 9. الحواشي على الصحاح وغيرها من الكتب: هذا تراث قيّم خلفه الإمام الفراهي. لو جمع في كتاب لكان نفعا غزيرا للقراء والعلماء كذلك.
- في اللغة العربية وآدابها:
1. الدر النضيد في النحو الجديد: بدأ تحريرها في 1315 هـ ولها مسودتان عدد أوراقها 44 ورقة.
 2. سليقة العروض: هذه الرسالة في علم العروض الذي أراد الفراهي إصلاحه ووضعه على نحو جديد. لهذه الرسالة مسودتان عدد أوراقهما 21 ورقة.
 3. فلسفة البلاغة: عنوانها واضح. لهذه الرسالة مسودتان عدد أوراقهما 6 ورقات.
 4. مسائل النحو: موضوعها واضح. عدد أوراقها 8 ورقات.

¹ للدكتور الطاف أحمد الأعظمي مقالة قيّمة في هذه الرسالة نشرت في مجموع مقالاته "مولانا حميد الدين فراهي كـ بنيادي أفكار"، راجع: المصدر نفسه، ص 135-187. قمت بترجمتها إلى العربية.

5. الحواشي على دواوين الشعراء وشروحها: كان من عادة الإمام الفراهي ضبط التعليقات والحواشي على الدواوين وشروحها لدى القراءة¹ وهي مفيدة للغاية للباحثين والنقاد والعلماء. توجد مثل هذه الحواشي على دواوين الشعراء البارزين أمثال امرئ القيس ولبيد بن ربيعة وزهير بن أبي سلمى وحسان بن ثابت الأنصاري.
6. الحواشي على لسان العرب: وكذلك ضبط الإمام الفراهي حواشيه النقدية على لسان العرب لابن منظور وهي مفيدة للغاية. لو جمعت في كتاب مطبوع لكان نفعًا غزيرًا للقراء والباحثين.

¹ يقول الشيخ أمين أحسن الإصلاحي عن عادة الفراهي هذه:

"إني لا استحي في القول بأنّ ما استشهدت به من كلام العرب في فهم القرآن يرجع فضله إلى أستاذي الإمام الفراهي الذي أشار إلى مثل هذه الشواهد لدى قراءته إياها فقد درسها جيدًا واستفدت منها في حل معضلات القرآن وفهم أساليبه وعباراته الخاصة وذوق لطائفه ومحاسن كلامه"، تفسير تدبر قرآن، 61/1

المصادر والمراجع

- وأودّ أن أذكر، فيما يلي، أهمّ المصادر وأبرز المراجع التي استفدت منها في إعداد هذا المقال المتواضع وهي:
1. احتشام الدين الإصلاحي، الشيخ الذي تلمذ على الشيخ أخترا حسن الإصلاحي ودُرّس في مدرسة الإصلاح منذ تخرّجه فيها. توفي الإصلاحي في سنة 2016م.
 2. اشفاق أحمد الإصلاحي، الشيخ، مدير مدرسة الإصلاح
 3. إقبال أحمد، الدكتور، أستاذ سابق للغة الإنجليزية وآدابها، مدرسة الإصلاح، سرائر مير، أعظم كره. توفي الدكتور في سنة 2017م
 4. أُلطاف أحمد الأعظمي، البروفيسور: مولانا حميد الدين فراهي ك بنيادي أفكار، نشرها: البلاغ بليكيشنز، نيو دلهي، 2010م
 5. أمين أحسن الإصلاحي، الشيخ: Salah, its Reality (ترجمة إنجليزية: أورك زيب الأعظمي)، آدم بليشرز، دريا غنج، دلهي القديمة، 2005م
 6. أورك زيب الأعظمي: الأيام دراسة تعريفية تحليلية نقدية، مكتبة إشاعة الإسلام، دلهي، الطبعة الأولى، 2002م
 7. جليل أحسن الندوي، الشيخ: نقوش وتأثرات، إداره علميه، جامعة الفلاح، أعظم كره، لم يذكر المطبع وسنة الطبع
 8. جمعية أبناء مدرسة الإصلاح: مدرسة الإصلاح: تاريخها ونظامها ومنهجها الدراسي، مطبعة الكوثر، سرائر مير، أعظم كره، سنة الطبع لم تذكر
 9. حبيب الرحمن الأعظمي، الشيخ: تذكرة علماء أعظم كره، اسم المطبع لم يذكر، 1376هـ
 10. خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة، 1986م
 11. شرف الدين الإصلاحي، الدكتور: ذكر فراهي (سيرة الإمام الفراهي المفصلة بالأردوية)، الدائرة الحميدية، 2004م
 12. ضياء الدين الإصلاحي، الشيخ: إيضاح القرآن، يونائيد بك كاربوريشن، كراتشي، سنة الطبع لم تذكر

العدد الخاص مجلة الهند

13. ظفر الإسلام الإصلاحي، الدكتور: كتابيات فراهي، إداره علوم القرآن، علي كره، 1991م
14. عبد الحميد الفراهي، الإمام: Qur'anic Wisdom (ترجمة إنجليزية: أوركنت زيب الأعظمي)، آدم بيليشرز، دريا غنج، دلهي القديمة، 2005م
15. عبد الحميد الفراهي، الإمام: أسباق النحو، الدائرة الحميدية، سرائي مير، أعظم كره، أوترا براديش، الطبعة الثانية، 2001م
16. عبد الحميد الفراهي، الإمام: أمثال آصف الحكيم (ترجمة)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، 1985م
17. عبد الحميد الفراهي، الإمام: إمعان في أقسام القرآن، دار القلم، دمشق، 1415هـ
18. عبد الحميد الفراهي، الإمام: مجموعه تفاسير فراهي (ترجمة أردوية: الشيخ أمين أحسن الإصلاحي)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، 1990م
19. عبد الحميد الفراهي، الإمام: مفردات القرآن (تحقيق: د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 2002م
20. عبد الحميد الفراهي، الإمام: نوائ بهلوي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، 1967م
21. عبد الرحمن ناصر الإصلاحي، الجامعي، الشيخ، أمين المال، مدرسة الإصلاح سابقاً
22. عبيد الله الفراهي، الدكتور، رئيس قسم اللغة العربية وآدابها سابقاً، جامعة لكاناؤ
23. عناية الله السبحاني، الدكتور: شيدائ قرآن (الكلف بالقرآن)، البلاغ بيليشرز، دلهي الجديدة، 2004م
24. غلام محمد: تذكرة سليمان (ترجمة العلامة السيد سليمان الندوي)، إداره مجلس إسلامي، كراتشي، 1959م
25. قرارات مجالس الدائرة المنعقدة بمختلف المناسبات (مخطوط)
26. قرارات مدرسة الإصلاح لعام 1378هـ
27. مجلة "الإصلاح" الصادرة عن الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره
28. مجلة "البعث الإسلامي" الشهرية الصادرة عن دار العلوم، ندوة العلماء، لكاناؤ

العدد الخاص مجلة الهند

29. مجلة "الحسنات" الشهرية الصادرة عن معهد الحسنات، رامفور (عدد خاص عن الشخصيات البارزة)
30. مجلة "الرشاد" الشهرية الصادرة عن جامعة الرشاد، أعظم كره
31. مجلة "تدبر" الشهرية الصادرة عن لاهور، الباكستان
32. مجلة "ثقافة الهند" الفصلية الصادرة عن المجلس الهندي للعلاقات الثقافية، آزاد بهوان، دلهي الجديدة
33. مجلة "حيات نو" الشهرية الصادرة عن جامعة الفلاح، بلريا غنج، أعظم كره
34. مجلة "رفيق منزل" الشهرية الصادرة عن منظمة الطلاب الإسلامية (SIO)، نيو دلهي
35. مجلة "علوم القرآن" نصف السنوية الصادرة عن إداره علوم القرآن، علي كره
36. مجلة "ميثاق" الشهرية الصادرة عن لاهور، الباكستان
37. مجلة "نقش" السنوية الصادرة عن منظمة طلاب مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره
38. مجيب الرحمن شامي (إعداد): إيك شخص إيك كاروان، مكتبة نشان راه، نيو دلهي، 1981م
39. محمد أرشد الأعظمي، الدكتور، أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية محمد مسعود، منغراوان، أعظم كره، الهند
40. محمد أيوب الإصلاحي، الشيخ، مدير تحرير مجلة "نظام القرآن" الفصلية الصادرة عن مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، الهند
41. معين الدين الندوي، الشاه: حياة سليمان (ترجمة العلامة السيد سليمان الندوي)، دار المصنفين، 1973م
42. ميرزا إحسان أحمد: مقالات إحسان، مطبع معارف، أعظم كره، 1968م
43. الندوة العالمية للشباب الإسلامي: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والمعاصرة، الرياض، الطبعة الثانية، 1989م
- الملاحظة: حاولنا أن نأخذ المعلومات عن الأحياء من العلماء والباحثين مباشرة وإن لم نصل إليهم فاتصلنا بمن هو أدنى منهم.

لمحات تعريفية عن كتاب "تعليقات في تفسير القرآن الكريم"

للإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله

- محمد شفاء الرحمن¹

إن كتاب "تعليقات في تفسير القرآن الكريم" للإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله من أهم مؤلفاته في السلسلة القرآنية. والكتاب مطبوع من الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح في أعظم جره سنة 2010م في مجلدين ما يقارب ألف صفحة.

وهذا المقال يستعرض لما في هذا الكتاب من محاسن وأسلوب للتفسير ومنهج للمؤلف في بيان الآيات، وما فيها من الألفاظ والمعاني والأحكام والوجوه النحوية والمسائل البلاغية والأحكام الفقهية والحكم التي تخفى على كثير من الناس. وكل ذلك بإيجاز مع بيان مثال أو مثالين لذلك من هذا الكتاب.

أول ما يجدر به الذكر في هذا الأمر أن الكتاب ليس تفسيراً كاملاً، بل هو تعليقات أو مذكرات، كما يظهر من اسمه، أعدّها المؤلف لنفسه لا لقصد النشر والتوزيع، ولكن نظراً لما فيه من المعاني والأفكار طبع الكتاب لاحقاً بعد سنين من وفاته رحمه الله.

وأهم ما في هذا الكتاب والذي يدور حوله هذا التفسير هو النظم بين أي القرآن الكريم. فهو أول ما يذكره الإمام ويعتني به في كل مكان؛ بين الآيات فيربط بعضها ببعض، وبين السور كذلك ليتبين أنّ القرآن كلام الله العزيز الحكيم، لا من كلام البشر.

ويؤثر المؤلف تفسير القرآن بالقرآن نفسه، ولا يعنى بالروايات والأقوال غير الطائفة، كما يقول في المقدمة: "نفس القرآن بآياته وجعلت نظم القرآن نوراً به أهتدي إلى حكمه وغوره"²، ويذكر سبب تأليف هذا الكتاب بقوله، "ومما حثني

¹ باحث، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملكية الإسلامية، نيو دلهي

² تعليقات في تفسير القرآن الكريم (المقدمة)، 7/1

على هذا أني رأيت فرق المسلمين مَزَقُوا كلام الله تعالى شذر مذر، فتمسكت كل طائفة بما أعجب هوى نفسها، وحق عليهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ (سورة الأنعام: 159)، ووجهوا الآيات خلاف سياقها فحق عليهم قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ (سورة النساء: 46).¹

ومن أمثلة النظم الموجود بين آيات القرآن الكريم في هذا الكتاب أن المؤلف يقول في تفسير سورة الفاتحة: [ثم انظر في حسن النظم: أول المعرفة هو العلم بالنعمة، وأول الفرائض الشكر. ومن هنا ينشأ العلم بكون الخالق رحماً ورحيماً. وتكرار الرحمة نبه على رحمة تكون على الشاكرين. فنبه على الجزاء وحث على الدعاء. وغاية التضرع التفويض والتوكل، ولكن ما أحسن التوكل بعد حسن الظن].²

كما يذكر في تفسير الآية وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ³ (سورة البقرة: 4): [من كان إيمانه بالعقل والبصيرة كما علمت في معنى الإيمان بالغيب لزمه الإيمان بما قبل وبما بعد].³ كما في الآية السابقة الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ كَوْمًا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ⁴ (سورة البقرة: 3) فذكر المؤلف ما يربط الآيتين بعضهما البعض وفسر النظم الموجود فيهما.

أما النظم بين السور فأمثل لذلك ما ذكره المؤلف في سورة الفاتحة وسورة البقرة: [فهذه سورة الشكر، والبقرة سورة الإيمان].⁴ فإن من واجب الشكر الإيمان: من شكر الله آمن به، ومن لم يشكره فقد كفر. [والشكر بناء الإيمان، كما قال تعالى: مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ⁵ (سورة النساء: 147). وهو أول الواجبات وأول المعارف، وهو إيفاء العهد الأول الذي هو الإقرار بالربوبية].⁵

¹ المصدر نفسه (المقدمة)، 7/1

² المصدر نفسه (سورة الفاتحة)، 13-12/1

³ المصدر نفسه (سورة البقرة)، 18/1

⁴ المصدر نفسه (سورة البقرة)، 18/1

⁵ المصدر نفسه (سورة البقرة)، 10/1 و20

والمثال الثاني للنظم بين السور ما ذكره المؤلف في نهاية سورة الحجر أن موضوع ومحتوى وخاتمة هذه السورة استهزاء الكفار والمشركين بالنبي صلى الله عليه وسلم والله سبحانه يعلم أن رسوله يكتئب من استهزائهم ويحزنه إصرارهم على الشرك بالله فدلّه على العلاج والدواء وهو التسبيح والسجود لله سبحانه حتى يأتي أمر الله ووعده من النصر، كما قال عز وجلّ في بداية سورة النحل آتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ (سورة النحل: 1)، أي حان واقترب، فسورة النحل تقريب الإنذار المذكور في السور السابقة.¹

والإطناب والإيجاز نوعان من أنواع البلاغة إلا أن بعض الإطناب في القرآن يتحول إلى الإيجاز بسبب النظم الموجود فيه. يقول المؤلف رحمه الله في تفسير الآيتين من سورة البقرة 55-56 وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ (سورة البقرة: 55، 56) [ننظر في هذا النظم إيجازاً عجيباً، ومن لم ينظر في التوراة يعدّه من الإطناب. وهذا قولي: أن كل إطناب في القرآن فهو إيجاز من جهة أخرى، فإنه لا يكون معناه إلا أضعافاً ما في لفظه]²

ويذكر المؤلف في بداية السور أنها مكية أو مدنية، ويذكر الخلاف إذا ورد، ويأتي مع ذلك بقوله الصريح ما يفصل بين الخلاف أو يزيل الخلاف إلى حد ما. يقول المؤلف في بداية سورة النحل: [في سورة النحل إشارات إلى أنها نزلت قبيل الهجرة. انظر الآيات: 1، 41، 106، 113، 126]³، فهذه دلائل من داخل السورة على أنها مكية.

وكذلك يسمّي المؤلف السور القرآنية بأسماء عدة نظراً لما يحتوي عليه الآيات في داخلها من الموضوعات المختلفة. يقول صاحب التفسير في سورة العنكبوت: [السورة حسب ظاهر معناها مدنية، وهكذا يعلم مما روي في شأن نزولها. هذه

¹ المصدر نفسه (سورة الحجر)، 340/1-341

² المصدر نفسه (سورة البقرة)، 35/1

³ المصدر نفسه (سورة النحل)، 341/1

سورة الجهاد 6، والهجرة 26، 56؛ والفتنة 3 و6 و10، ووعد النصر¹، فذكر سورة العنكبوت بهذه الأسماء إذ السورة تحتوي على هذه الموضوعات.

ومن ميزات هذا التفسير أن المؤلف يبين الموضوع الرئيسي في بداية كل سورة بإيجاز، كما يبين في سورة الفاتحة قائلاً: [سورة الفاتحة جامعة كالديباجة، ففهمها مفتاح لجميع ما في القرآن]²

وكذلك يبين في بعض الأحيان الملخص الجامع للسورة في النهاية ويذكر النقاط المهمة في صفحتين أو ثلاث ليتبين محتوى السورة من كل وجه ويتذكر القارئ مرة أخرى كلّ ما درسه في السورة على وجه التفصيل. وأقتبس هنا على سبيل المثال بعض النكات من سورة ص:

[1-8] بيان شقاقتهم وعزتهم، وذكر أسباب إعراضهم عن استماع القرآن إجمالاً. منها استعجالهم بكون النبي بشراً وأمره بعبادة الله الواحد القهار خلافاً لسننهم وسنة آبائهم الأولين.

ومنها حميتهم الجاهلية واستمسكهم بسنة آبائهم واتباع آثارهم ولو كانوا غير مهتدين. ومنها غرورهم بزخارف الدنيا وزعمهم أنّ الذكر لا ينزل إلا على رجل من القريتين عظيم. ... ثم ذكر قصص إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام ليتضح للنبي صلى الله عليه وسلم أنّ العاقبة للمتقين إليه والصابرين على أذى الأعداء]³

ولا يفسّر المؤلف كلّ لفظ وكلّ كلمة كما هو واضح من الكتاب. وكذلك لم يتعرض لتفسير الحروف المقطعات في بدايات بعض السور مثل الم والمص وكهيعص وغيرها، كما فسرها المفسرون الآخرون بذكر الأقوال الكثيرة والتأويلات المتكلفة.

¹ المصدر نفسه (سورة العنكبوت)، 50/2

² المصدر نفسه (سورة البقرة)، 9/1

³ المصدر نفسه (سورة ص)، 155-154/2

ومن سور القرآن ما هو مشابه بعض السور الأخرى من حيث المضمون والآيات فذكر المؤلف الفرق بينهما إيضاحاً للأمر وإثباتاً أنّ القرآن ليس فيه حشو ولا لغو كما يتفوه به المستشرقون والطاعنون في القرآن الكريم. يقول المؤلف في بداية سورة الأعراف: [هذه السورة مثل الم ذلك الكتاب في بعض الأمور. ولكن تلك داعية وهذه منذرة بالعذاب والقيامة وتنبئ عن الشرك، كما قال في (2-3)،¹ [من سورة الأعراف]. وقال أيضاً: وفي ذلك ذكر قصص الأمم المكذبة واليهود معاً² ولما تكررت قصة آدم عليه السلام مع الشيطان اللعين في سورتي البقرة والأعراف ذكر المؤلف وجهاً لذلك: [راعى جانب الإنذار في ذكر قصة آدم وأمر الخلافة في سورة البقرة].³

أما القصص المفصل من السور فهي متشابهة الموضوع والمحتوى: بعضها يترايط بالبعض إلى ثلاث أو أربع أو خمس سور. يقول الإمام الفراهي في هذا الصدد: [اعلم أنّ قران السور ربما يكون من جهة العمود، وربما يكون من جهة الخصائص أو البيان أو أسباب آخر غير ذلك كما هو مبسوط في موضعه. ذكر الإنفاق في هذه السور من جهة كونه ابتلاء وتعليمًا وكونه أصلاً عظيماً في الدين تالياً للتسبيح بل فرعاً منه].⁴

ويقول في سورة الحديد: [من الحديد إلى التحريم عشر سور في أمر المنافقين، وتحذير المؤمنين عن عاداتهم وكفهم عن مودتهم، ففي هذه السورة منع عن البخل وحبّ متاع الدنيا، وبشّرهم بالملك والنصر، وعلمهم أنّ الإنفاق هو سبيل العروج، وهذه السور في اليهود].

ثم يقول: [اعلم أنّ هذه السور العشر من الحديد إلى التحريم متشابهات وكلها مدنية. فمهن خمس ذوات التسبيح وخمس لواحق لكونها من صنفها، ومزج بينهما ليعلم أنّ كلها من قسم واحد... ونرى تقديم «سبح» على «يسبح». ولا يخفى عليك

¹ المصدر نفسه (سورة الأعراف)، 207/1

² المصدر نفسه (سورة الأعراف)، 21/1

³ المصدر نفسه (سورة الأعراف)، 209/1

⁴ المصدر نفسه (سورة التغابن)، 357/2

أَنَّ «يا أيها النبي» في معنى «يا أيها الذين آمنوا». وكذلك «يا أيها النبي» الثانية إلا أولها. وذلك يدل على التسوية بين العباد في التزام الطاعة، ويدل على كون النبي صلى الله عليه وسلم من أنفسهم. فخاطبه كزعيم قومه والحامل لأعبائهم. وفيه تسلية للمؤمنين وتنبيه النبي على ثقل ذمته.¹

ومن هذا القبيل ربط الأمور بأسبابها وذكر السبب بين الآثار والمؤثرات الذي تراه كثيراً في هذا التفسير الوجيز، كما ترى في تفسير الآية - مثلاً - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشًوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ [بيان سنة الله من فطرة الأمور وربط الآثار بالمؤثرات]. ثم قال: [وبيان هذه السنة على العموم كثير في القرآن، وهو أن الإنسان أعطاه الله الهداية أولاً، ثم هو يزيدها أو يطفئها بالشكر أو الكفر، كما قال تعالى إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ... وقال وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى. فجعل الله الإنسان مختاراً يجلب على نفسه الهداية والضلالة حسب ترتيب الآثار والمؤثرات]²

وبين حقيقة الكفر أن الكفر ينبع ويصدر من كفران النعمة كما قال تعالى: وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٧﴾ وقبله إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ، والكفران ينبع من التكبر، وهو الأصل والأساس للكفر، [بينما الصلاة هي الأصل للتقرب وهي المركز، وروحها التوحيد. ومركز الصلاة السجدة، فالسجدة تزيل الكبر الذي هو المانع عن الشكر الذي هو باب الإيمان].³

وكذلك إذا ذكر المؤلف آية أو قطعة منها ذكر معها كل ما في معناه من الآيات في نفس السياق، وبذلك يفسر القرآن بالقرآن. يقول المؤلف رحمه الله في تفسير الآية إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ (سورة البقرة: 6): ونظير هذا الكلام من أول

¹ المصدر نفسه (سورة الحديد)، 319-318/2

² المصدر نفسه (سورة البقرة)، 19/1

³ المصدر نفسه (سورة الأعراف)، 209/1

السورة إلى قوله (عظيم): قوله تعالى: يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ ﴿١١﴾ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١٢﴾ (سورة يس: 1-11)¹ وهكذا قال مرة أخرى في نفس الآية: [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا] كما قال تعالى: وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِيَ الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ ﴿١٨﴾ (سورة النحل: 107 و108). وكما قال تعالى: وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْثُورًا ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ لَا يَسْمَعُوا وَالْأَكْثَرُ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَى أَنْذَرْتَهُمْ نَفُورًا ﴿٢١﴾ (سورة الإسراء: 45 و46). وكما قال تعالى: فَلَمَّا رَأَوْهُ زَارِعًا ظَنَنُوا أَنَّهُ زَاغٌ مَعَالِيهِ فَنَزَعُوا الْأُصْبَاعَ ﴿٢٢﴾ (سورة الصافات: 5)، وكما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (سورة الزمر: 3)²

وكذلك في سورة النحل في مُحْتَلَفًا أَلْوَنُهُ (سورة النحل: 13) ذكر مع ذلك ما ورد في سورة الرعد (4-الرعد). ويقول في سورة الرعد: [وَالَّذِينَ عَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ] أي علماء أهل الكتاب، (43)، و17 من هود، و10 من الأحقاف³

ومما يجدر به الذكر أَنَّ المؤلف رحمه الله يفسر آيات القرآن الكريم أو بعض قطعه عدة مرات: يفسر قطعة من آية من ناحية ثم يعود مرة أخرى فيفسرها من ناحية أخرى كما ترى فيما يأتي حتى يتضح لك الأمر:

¹ المصدر نفسه (سورة البقرة)، 20/1

² المصدر نفسه (سورة البقرة)، 26/1

³ المصدر نفسه (سورة الرعد)، 319/1

ويقسم المؤلف الآيات في فصول ويبين موضوع كل فصل حتى يتضح الأمر للقارئ ويتيسر له فهم آيات القرآن. فصل سورة البقرة في فصلين؛ الأول من البداية حتى الآية 151 وفيه تمهيد الشرائع، والثاني في بيان الشرائع حتى نهاية السورة؛ وهي أربعون حكمًا (ذكر كل حكم واحدًا بعد آخر) إجابة لما دعا إبراهيم عليه السلام رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ¹ (سورة البقرة: 129). وكذلك يقسم السورة بين التمهيد والبداية والخاتمة كما ترى في تفسير سورة الحجر يذكر الآيات (85-95) أنها كالخاتمة تجمع ما مرّ من مطالب السورة... جاء في سور آخر بأساليب مختلفة مفيدة كما في الذاريات، وحمل السجدة².

ربما يؤجل المؤلف تفسير آية إلى آية أخرى في سورة أخرى لأجل التفصيل أو التطويل أو لأسباب أخرى، كما يقول في تفسير الآية من سورة البقرة يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا (سورة البقرة: 104): [في 46 من النساء تفسير هذه الآية]³.

ربما يحتج المؤلف في تفسير الآيات بالشعر العربي أو يورده أثناء التفسير تأييدًا لتأويله أو في المسائل النحوية. ولكن يكره هو أن يورد هذه الأشعار تكريمًا للقرآن الكريم. يقول في تفسير الآية ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ (سورة النجم: 10): في هذه الآية تعانق كما في قول عمرو بن معدى كرب:

ليس الجمال بمـئزر فاعلم وإن رديت بردا⁴

ويقول في ضمير جمع المذكر إذا استعمل للنساء استدلالًا بشعر امرئ القيس: [الضمير في أَتَعَجِبِينَ، و عَلَيَّكُمْ (من سورة هود: 73) لامرأة إبراهيم عليه السلام:

¹ المصدر نفسه (سورة البقرة)، 24/1-25

² المصدر نفسه (سورة الحجر)، 1/336

³ المصدر نفسه (سورة البقرة)، 1/41

⁴ المصدر نفسه (سورة النجم)، 2/258

وضمير جمع المذكر يستعمل للنساء كثيراً وخاصة إذا عبر عنها بأهل، كما ترى في سورة الأحزاب: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ (الآية: 33). ومن ينظر في أشعار العرب يجد كثيراً من الأمثلة: قال امرؤ القيس:

فلو كان أهل الدار فيها كعهدنا وجدت مقيلاً عندهم ومعرسا

وقال عمر بن ربيعة القرشي وقد جمع بين الخطابين كما في الآية:

فوالله ما للعيش ما لم ألا قكم وما للهوى إذ ما ترى تزارين من طعم

ألم تعلعي ما كنت آليت فيكم وأقسمت لا تخلين ذاكرة باسمي¹

ثم يقول: [ولولا كراهة ذكر الأشعار لسردت كثيراً في هذا الباب. وهكذا في قصة موسى في سورة القصص].²

كما يذكر بعض الأقوال والأمثال الفارسية تأييداً لقوله. يقول في تفسير سورة الفلق: [...] فإن الشر لم يخلق إلا تبعاً لغيره كالحزن بعد الخطيئة الداعي إلى التوبة والألم بعد الجراحة الداعي إلى المداواة. ولنعم ما قال بعض أولي الأبواب: عاشقم بر همه عالم كه همه عالم او اوست].

وبين المؤلف كذلك الحكم التي تخفى على كثير من الناس في الأحكام الإسلامية التي يطعنها الطاعنون في كل زمان. وقد قيد الإسلام تهمة الزنا بأربعة شهداء على الأقل لأن هذا الأمر عظيم، وعظم المقول يقتضي عظم الشهادة كما في سورة النور الآية: 13 لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالْشُهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١٣﴾³. كما يقول في سورة البقرة وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ (من سورة البقرة: 190، 240) من ههنا شرع في وجوب القتال، وبناء على دفع الفساد والفتنة

¹ المصدر نفسه (سورة هود)، 288/1-289

² المصدر نفسه (سورة هود)، 289/1

³ المصدر نفسه (سورة النور)، 442/1

لكي يدخلوا في السلم كافة. فالقتال لنفي القتال، وجعل الحج لذلك. وبين أن القتال إنما هو مع من قاتل وبقدر عدوانهم.¹

أما إذا نظرنا في هذا التفسير من الناحية اللفظية واللغوية وجدنا أن المؤلف رحمه الله يسلك منهجه الخاص في البحث اللغوي ولا يذكر جميع الألفاظ إلا إذا رأى نكتة أو جواباً لسؤال مقدر. يقول المؤلف في تفسير الآية إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا: [كفروا] يدل على الاستمرار والرسوخ، أي الذين ألحوا على الكفر ورسخوا فيه، وهذا الاستعمال عام في الماضي، مثلاً قوله تعالى وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا يدل على دوام كونه غفورًا رحيمًا.²

وكذلك في تفسير الآية ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (من سورة المؤمنون: 1) ذكر ثلاثة معانٍ لكلمة (أفلح)؛ فاز وعاش بالنعمة وبقي. ولم يفصل القول إلا لأن كل هذه المعاني الثلاثة يدل عليه قوله تعالى قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ حتى الآية العاشرة، ففي البداية الفلاح وفي النهاية البقاء في الفردوس في عيشة النعيم.³

ويقول في تفسير الآية وَيَمْدُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ (من سورة البقرة: 15): تفصيل وعطف بيان. وقال: لا فرق بين "مده" و"مد له". قال تعالى: قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا (سورة مريم: 75) أَيْضًا: وَنَمْدُ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ (سورة مريم: 79) فهذان بمعنى الزيادة.⁴

ويقول في سورة التغابن في تفسير الآية يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ (سورة التغابن: 14) في استعمالات أداة "إِنَّ" وجوابها بالفاء: [هذا أسلوب يستعمل كثيرًا في القرآن، وهو: "إِنَّ"..."فإن". ومعناه

¹ المصدر نفسه (سورة البقرة)، 63/1

² المصدر نفسه (سورة البقرة)، 26/1

³ المصدر نفسه (سورة المؤمنون)، 430/1

⁴ المصدر نفسه (سورة البقرة)، 28/1

جامع لكل ما يصح لأن يستدل عليه بما بعد "إن". مثلاً "إن تعفوا يرض به الرب فإنه غفور".¹

ويقول في بيان التشبيه والتمثيل في القرآن في قصة المنافقين: [والمثل في القرآن لا يكون تشبيه شيء بشيء. إنما هو ذكر شيء أو حالة يهدي إلى مطابقتين، فلا حاجة إلى التقدير كما تكلفوا].² ويعلم من هذا القول أن المؤلف يميل إلى العبرة بعموم اللفظ دون تأويله إلى بعض الناس وتعيينهم، كما هو من مناهج بعض المفسرين إيراد الأقوال السخيفة المتكلفة ليعلموا من هم المنافقون والذين نزلت فيهم الآية على وجه التعيين، وورد فيهم التشبيه بالظلمة.

ومن أساليب البلاغة حذف ما هو مفهوم من السياق، وهذا في القرآن كثير، ذكره المؤلف أثناء التفسير حيثما ورد، كما في الآية وَحَرَّمَ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ (سورة الأنبياء: 95) [أي حرام على القرية المهلكة (أن يرجعوا)، إنهم لا يرجعون. فحذف جزءاً دل عليه ما بعده].³

ومن الوجوه البلاغية التخليص والاستدلال بالظاهر والاعتبار بالباطن وقد حث القرآن على هذا الأمر كثيراً كما يذكر المؤلف ذلك في مواضع مختلفة. يقول في سورة النحل الآية: 9 وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ كما هيأ لكم ما يبلغكم إلى بلاد الدنيا فكذا هيأ لكم ما يهديكم في الدين. هذه الآية من التخليصات اللطيفة، وقد كثر في القرآن الحث على الاعتبار من الأمور الظاهرة إلى الباطن.

ويذكر المؤلف في باب النحو في تفسير الآية الكريمة رقم 162 في سورة النساء وَالْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ (سورة النساء: 162): [أخطأ (الشاه عبد القادر رحمه الله) في ترجمة (وَالْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ) وظن أن "الْمُؤْمِنِينَ" منصوب على المدح كما قال سيبويه

¹ المصدر نفسه (سورة التغابن)، 357/2

² المصدر نفسه (سورة البقرة)، 29-28/1

³ المصدر نفسه (سورة الأنبياء)، 414/1

... ونصب (وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ) بفعل سَنُوْتِيْهِمْ (من سورة النساء: 162). فإن المفعول إذا قَدَّم على فعله والفعل علق بضمير يرجع إلى المفعول جاز في المفعول المقدم وجهان: النصب والرفع على الابتداء، فهكذا هنا.¹

وكثيراً ما يرى من يدرس هذا التفسير أنَّ صاحبه رحمه الله يبيِّن الوجوه النحوية أثناء التفسير. ربما يشرح أدوات الشرط ومواضعه التي تستعمل فيها وغيرها من أدوات النفي وغيره إذا وردت هذه الأدوات في معنى آخر، كما في تفسير الآية وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ (سورة الأنبياء: 31) أوضح استعمالات كلمة "أن".²

ويقول في تفسير الآية فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ (سورة البقرة: 91): [أي لستم بمؤمنين. الشرط يستعمل على وجوه. وفيه دلالات جمّة:

.... ومنها إظهار الإنكار من القائل، مثلاً قوله تعالى: يٰٓأَيُّهَا الْمُرُكُّمُ بِهِ إِيْمَنُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ (سورة البقرة: 93) أي لستم بمؤمنين، فإن إيمانكم يأمركم بالسوء. وهذا المثال يجمع الدالّتين (أي إلزام أمر بإقرار المخاطب، وإظهار الإنكار من القائل) وتشدّ إحداهما الأخرى. وفيه إشارات جمّة]³

كما ترى المؤلف يفسّر بعض الضمائر، وهذا قليل، بذكر ما تعود إليه. ومثال ذلك ما تراه في تفسير الآية وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ (سورة البقرة: 132) فالضمير في كلمة (بها) يرجع إلى الملة أو بتلك الكلمة. وأتى بكلمة (بنيه) بعد يعقوب تبياناً للعطف؛ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب بنيه.⁴

ومن يدرس هذا التفسير يطلع على أن المفسر رحمه الله ينتقد في بعض الأحيان بعض المفسرين الآخرين لذكرهم بعض ما هو باطل من الأقوال أو الروايات أو ما

¹ المصدر نفسه (سورة النساء)، 140/1

² المصدر نفسه (سورة الأنبياء)، 412/1

³ المصدر نفسه (سورة البقرة)، 40/1

⁴ المصدر نفسه (سورة البقرة)، 47/1

لا يجدر به الذكر من الإسرائيليات. ومن هذا الأمر يتجلى لنا أنّ المؤلف لم يكن يحب ولا يعتني بذكر الروايات من غير فائدة، وإنما قصده الإيجاز في كل ما يذكر في تفسير القرآن إذا كان فيه فائدة لعامة الناس حتى لا يزلوا عما يفيد إلى ما لا فائدة فيه.

أما مصدر المؤلف ومرجعه في بيان التفسير وشرح الألفاظ فهو مفردات القرآن، والقائد إلى عيون العقائد، ودلائل النظام وهذه الكتب الثلاثة للمؤلف نفسه، وأساس البلاغة للزمخشري على الأكثر وبعض الكتب الأخرى كما ترى في الحاشية.

وفصل المؤلف الكلام في بعض الأحيان في آية ورد في تفسيرها اختلاف، وينهي الكلام بقوله كما ترى في تفسير الآية وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي (سورة الحجر: 87). ابتداءً بتفسير الآية وانتهى بقوله، وذكر القول المشهور في السبع المثاني أنها سبع آيات الفاتحة لكن من المحتمل أن يكون المراد بالسبع السور السبع دون الآيات.¹

وكذلك الأمر في تفسير كلمة (القرآن) في نفس السورة كَمَا أُنزِلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ۝ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ۝ (سورة الحجر: 90، 91). نقل عن الإمام الرازي روايتان عن ابن عباس رضي الله عنهما، ثم قال: [والقرآن يطلق على كتب الله، كما قال في سورة الرعد الآية: 31، وأي آخر]²

ربما يفصل المؤلف الكلام في تفسير آية من عند نفسه تفصيلاً حتى يتبين الأمر. يتحير الناس في اختيار الأمور بين الصلح والفساد، يغلط العقل مرة ويغلط الفؤاد أخرى، ولكنهما يتحدان في بعض الأحيان في اختيار الشر والإيقان بالباطل. ويبين المؤلف أنّ القرآن الكريم قد دلّ على هذه الأصول كلها في الآية الكريمة إِنَّ يَنْتَعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ۝ (سورة النجم: 23).

¹ المصدر نفسه (سورة الحجر)، 337/1.

² المصدر نفسه (سورة الحجر)، ص 338.

³ المصدر نفسه (سورة النجم)، 299/2.

وكما يفسر أسباب الشرك قائلًا: [أصل الشرك عمد التعقل، وأصله العكوف على الدنيا. وأصل ذلك عدك الإحساس بإحسان المنعم واعتراف المنّة، وذلك أصل الكفر والظلم والاستكبار السيئ، وإذ لا يسمعون فالإعراض عمن أعرض أنفع].¹

وكذلك يفرق بين الكلمات القريبة المعاني في القرآن الكريم، وينقل كلام العلماء فيها، ويرد عليه إذا كان الفرق مخالفًا للنصوص الشرعية. ومنها الرسول والنبي، فيبين الفرق قائلًا: "فرقوا بين النبي والرسول بأن الرسول صاحب الشريعة، والنبي يتبع شريعة من كان قبله. ولكن القرآن يبطل هذا الرأي. وأظن أن الرسول من أرسل إلى قوم وإن لم يكن نبيًا كرسل عيسى المذكورين في سورة يس.²

ومن ميزات هذا التفسير أنّ صاحبه ربما يفسر بعض الأماكن من حيث الجغرافيا استدلالًا بآيات القرآن الكريم. يقول الإمام الفراهي في سورة الحجر وَكَأَنَّهُ يُنَجِّثُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ (الآية: 82): [كانت قريش تمر بقري مهلكة لقوم لوط، وقوم شعيب ... ويعلم من هنا أنّ أرض لوط كانت قريبًا من مكة، ثم أرض شعيب، ثم أرض ثمود. وأرض بقرب يثرب، فالأغلب أن أرض لوط ليست ببعيد من مكة. ويؤيد ما قلناه قوله تعالى: وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ (سورة إبراهيم: 45)، ووقوله تعالى بعد ذكر قوم لوط وشعيب عليهما السلام: وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّن مَّسْكِنِهِمْ³ (سورة العنكبوت: 38)]³

ولم ينس الإمام الفراهي النظم في آخر القرآن فذكر بكل عناية ما يربط سورة الناس بسورة الفاتحة. يقول في تفسير سورة الناس: ابتداء القرآن بالاستعاذة وختمه بها. ثم يفصل أقسام الوسواس وينهي التفسير بقوله: هذه أبواب الشرك،

¹ المصدر نفسه (سورة النجم)، ص 301

² المصدر نفسه (سورة النساء)، 140/1

³ المصدر نفسه (سورة الحجر)، 335/1

العدد الخاص.....مجلة الهند

فدل على دلائل التوحيد من الآيات الدالة على الربوبية والملك والألوهية. وذلك يقيم الأمانة بالسوء والساهية عن الذكر. وهكذا ذكر النظم والرباط بين فاتحة القرآن وبين نهايته.

هذا هو منهج الإمام الفراهي في تعليقاته والذي بينته مع الأمثلة كل أهم ومهم على سبيل الاختصار، سواء يتعلق ذلك بالبلاغة أو النحو أو الدلالات اللفظية والاستعمالات اللغوية لأدوات النفي والشرط وغيرهما. وما قصدت الكمال في هذا العمل ولا بلغته فإن الكمال لله الواحد القهار. وأحتسب من الله العزيز أن ينفع بهذا الكتاب الأمة الإسلامية إلى يوم الدين، ويجعله في ميزان حسنات الإمام الفراهي، ويتجاوز عن زلاته القلمية وأخطائه البشرية، إنه هو الغفور الرحيم، وصلى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد.

إطالة على "رسائل في علوم القرآن" لحميد الدين الفراهي

- د. وارث المظهري¹

ترجمة من الأردوية: محمد معراج الحق البغدادي²

عبد الحميد الفراهي (1930م) من عباقرة الهند النابغين من العلماء الذين تركوا مآثر خالدة في مدارس الهند العلمية والفكرية في القرنين الماضيين، سعى الشاه ولي الله الدهلوي (1762م) نحو تأسيس مدرسة تدعو إلى قضية "العودة إلى القرآن" وقام الشيخ الفراهي بدور رثادي في ترويج هذه الفكرة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، تمتاز شخصيته حيث أنه قضى معظم حياته في مجال البحوث والدراسات التي تخص القرآن الكريم بصفة خاصة وترك آثاره الخالدة في هذا المجال التي تترفع على قمة عالية في الدراسات القرآنية. اتسمت اتجاهاته الفكرية في الدراسات القرآنية بطابع "المدرسة الفراهية" في شبه القارة الهندية، فمن سمات هذه المدرسة البارزة أنها تجعل موضوع "النظم في القرآن" في باب "تفهم القرآن" مصدرًا أساسيًا له، وقد سبقه رجال التفسير وعلوم القرآن في هذه المسألة، وعلى رأسهم برهان الدين البقاعي صاحب "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، والواقع أن البحوث والنكات العلمية البديعة التي نسجتها وشائج بنان الشيخ الفراهي في مجال الدراسات القرآنية في عصرنا هذا وعلى أساليب علمية متينة تستحق الثناء والإعجاب، وهذا أمر لم يتطرق إليه أحد سلفًا و خلفًا. وانطلاقًا من هذا المبدأ نستطيع القول: إن كتابه "تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" يتسم بطابع علمي فذ في هذا الباب.

¹ مدير تحرير "ترجمان دار العلوم ديوبند" الشهرية الصادرة عن نيو دلهي

² مدير تحرير، مجلة "المجاهد" الشهرية الصادرة عن لکناؤ

العدد الخاص مجلة الهند

وإن المآثر العلمية والدراسات القرآنية للشيخ الفراهي تأخذ طريقها للنشر إلى يومنا هذا تدريجيًا، فالكتب التي تم طبعها في الآونة الأخيرة منها كتابه "رسائل في علوم القرآن" والمجموعة الثانية من هذه الرسائل تحتوي على:

(ألف) الرائع في أصول الشرائع

(ب) أحكام الأصول بأحكام الرسول

(ج) الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ

(د) أسباب النزول

الرسالة الأولى في هذه المجموعة جاءت مفصلة بالنسبة إلى الرسائل الباقية. فهي تحتوي على 105 صفحة، أما الرسائل الباقية فهي مختصرة، الرسائلتان الأوليان تتحدثان عن موضوع الفقه وأصوله، أما الرسالة الثالثة والرابعة فهما تحتويان على موضوع النسخ وأسباب النزول.

تحدث المصنف على جوانب مختلفة من هذا الموضوع في رسالته "الرائع في أصول الشرائع"، وتطرق أحيانًا إلى ذكر نكات علمية دقيقة ولطائف غامضة في هذا الباب، فتكلم أولًا عن نكتة أساسية تنم عن مدى أهمية الأخلاق الفاضلة في الشرائع السماوية من الله، فالأخلاق نابعة عن فطرة البشر، وهي تنقسم إلى ثلاثة عناصر بارزة من العدل والإحسان والشكر، وانطلاقًا من منظور المصنف أن الأوامر والنواهي الشرعية بأسرها نابعة عن عمق الأخلاق الفاضلة دون الأخرى، ويقول في ضمن "بناء الشرائع ونهايتها":

"الشرائع مبنية على أخلاق في الفطرة كالعدل والإحسان والشكر، فما من أمر أو نهي إلا وهو تعبير عن شكل ما في نفوسنا من هذه الأخلاق الفطرية، ولذلك كل أمر أو نهي لم يكن مبنياً على ما في فطرتنا كان ظلمًا على النفس وتشويهًا لخلقتنا وفسادًا في الأرض وعثرة في سبيل الخيرات".¹

¹ أنظر: الرائع في أصول الشرائع، ص 13

والحديث النبوي الشهير أيضًا يتحدث عن هذا المفهوم حيث قال : "إني بعثت لأتمم حسن الأخلاق".¹

المقصد الأساسي للشرعية الإسلامية هو إصلاح الأخلاق للبشر، وهذا ما يتغلب عليه أحيانًا الجهل وهوى النفس²

وذكر المصنف في ضمن "المسائل المهمة" أهمية الشرائع قائلاً: إن الشرائع قاطبة تعبدية: لكون الشرائع للتزكية ولكون النبي قد بين الشرائع مع الحكمة ليس فيها ما يسمونه بمحض التعبد، أنها كلها تعبدية.³

السؤال يطرح نفسه على نقاش الطاولة هل الشريعة وأحكامها بأسرها تعبدية بمعنى الكلمة؟ فذهب العلماء في تحليل هذه المسألة مذهبين: تعبدية وغير تعبدية الأحكام الشرعية التي لا تخضع لتأويل أو توجيه عقلي يتم عليها إطلاق مصطلح "أحكام تعبدية" مثل تعداد الركعات في الصلوة، وتعداد أيام الصوم المفروضة وأوقاته وما إلى ذلك، والأحكام غير التعبدية عكس ذلك، أما الشيخ الفراهي فيرى أن الأمور والأحكام الدينية كلها تأتي في إطار "أحكام تعبدية" لا محالة، بدل التقسيم إلى تعبدية وغير تعبدية، ويذهب في توجيه رأيه قائلاً: لكونها إطاعة لله وكبحاً لإسراف النفس ونهيًا لها عن هواها.⁴

وأيضًا يقول: الحكمة الظاهرة في كل أمر ونهي هي الطاعة والعبودية والإخلاص لله.⁵ أثار الشيخ الفراهي في هذا الباب نقطة مهمة أخرى تستدعي التفاتنا نحوها، واختلف فيها الأشاعرة والمعتزلة على موضوع وجود الحكمة في الأحكام الشرعية أم تبتني على الحكم والمصالح؟ وليس هدفها إلا ابتلاء العباد فيها بغرض امتحانهم؟

¹ أنظر: المؤطا للإمام مالك

² أنظر: الرائع في أصول الشرائع، ص 16

³ النصدر نفسه، ص 16

⁴ النصدر نفسه، ص 16

⁵ المصدر نفسه، ص 17

فذهب الأشاعرة إلى أنه من باب العبث في الخوض وراء المصالح والحكم في الأوامر والأحكام الإلهية، فهي تعني الامتحان والابتلاء من الله عز وجل لعباده هل مطيعون له لا غيره. أما المعتزلة فهم يرون أن الأحكام الإلهية لا تخلو عن الحكم انطلاقاً من مبدأ "فعل الحكيم لا يخلو عن الحكمة".

ذهب الفراهي في تطبيق هاتين المسألتين قائلاً: إن طاعة الشارع فرض عين في جميع الأحوال سواء وجدت الحكمة أم لا، فليس من المعقول أبداً أن جميع العلل والحكم الموجودة في أحكام الله يستوعبها الإنسان، وإنه من الواجب على الإنسان أن يظل دؤباً في مجال البحث عن الحكم والأسرار الإلهية المودعة في الأحكام الشرعية، وعليه أن لا يغض طرفه من هذا الجانب الوضاء، بل السؤال والاستفسار عنها واجب عليه فقد قال القرآن: "وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ" (البقرة: 129)

علم النبي الحكمة، وجب تعليمها، والسؤال عنها للبصيرة والاطمئنان وزيادة الحب للشرائع لا للعصيان واللجاج... وهذا وسط بين الأشاعرة والمعتزلة.¹

حكمة الشرع الإلهي تستوحي من الوحي والعقل كليهما والذي يقوله المصنف في هذا الصدد نستطيع أن نتلمسه من خلال السطور السابقة أن الأشاعرة والمعتزلة كلهم وقعوا في هوة الإفراط والتفريط، فالمعتزلة ادعت أن العقل هو منبع الأحكام الشرعية، فالعقل هو الذي يتحكم في مسائل الحسن والقبح، وهو نفسه يتحكم في المسائل الشرعية من حيث الحسن والقبح أيضاً.

وأن الأشاعرة ترى أن الوحي هو المصدر الوحيد للشرع، واختار الشيخ الفراهي مذهب الاعتدال والوسطية في هذين الموقفين المتباينين.

فالسؤال يقول: إن من أهداف الشريعة الإصلاح الباطني للفرد و تغيير أحواله النفسية بالرغم مع ذلك جعلت الشريعة ظاهر الفرد محوراً لهذه العملية، وتلج عليه، ذكر الشيخ الفراهي خمس توجهات كبيرة لهذه المسألة وعددها قائلاً:

¹ أنظر: المصدر نفسه

- 1- حتى يتسنى تطبيق الأحكام الشرعية.
- 2- وليسهل العمل بها لعامة الناس.
- 3- ويستوي في باب العمل بها جميع الناس حتى تثبت هويتهم بها ليتمكنوا من التعاون على الخير مع بعضهم البعض.
- 4- ليكون الظاهر ديباجة للباطن.
- 5- وليتمكن الفرد من إدراك نفسه بواسطة هذا العمل الظاهري حتى يتسنى له الاطلاع على أحوال نفسه.

وهناك أمر يبعثني على التساؤل ألا هو لماذا سلك القرآن منهج الاختصار؟ أو بلفظ آخر لماذا تحدث القرآن على موضوعات كثيرة ومهمة بصيغة "الإطلاق"؟ ولماذا لم يسلك القرآن مسلك التوضيح والتفصيل لتلك الموضوعات المذكورة مجملًا؟ فذهب الشيخ الفراهي في الرد على هذه التساؤلات بأسلوب علمي قائلاً: إن القرآن يهدف بذكر تلك الأحكام بصيغة الإيجاز والإطلاق هو مواهب الإنسان وتدريب عقله على الاستنباط والاستخراج، لو لم يكن هذا لما تمكن الإنسان من إبراز الصلاحيات والمواهب المودعة من الله في ذاته.¹ الشرع يتعلق بحياة الإنسان الدنيوية، ولا علاقة له بحياته الأخروية، فالظاهرة أن القانون الإلهي هو المعيار الوحيد لحياتنا العملية في هذه الدنيا، كما أن الآخرة عبارة عن دار الجزاء، وهذا ما يعتقده الجميع في هذا المجتمع، لكن الفراهي بذل اهتمام الدارسين إلى نكتة لطيفة أخرى تعكس تمامًا عن هذا المعتقد حيث يقول: إن أصل الشريعة باق حتى في الآخرة، إلا أنه لا يكون مكلفًا به من حيث التعبد، بل يتعود عليه أهالي الجنة من عند أنفسهم، ويستلذون بالتسبيحات والعبادات (شاكرين على نعم الله عز وجل) بنوع خاص. وهكذا يماثلون الملائكة في الحمد والعبادة.²

¹ الرائع في أصول الشرائع، ص 23

² المصدر نفسه، ص 21

في الواقع أن الشريعة عبارة عن الإرادة الإلهية، ويلزم عليها حتى الملائكة ليقوموا بتلك الإرادة الربانية، فالملائكة جبلوا عليها من حيث الفطرة، والإنسان في الجنة يشبه الملائكة تمامًا حيث لا مفر له عن تطبيق الإرادة الإلهية، كأن المواظبة على الشريعة طبقًا للإرادة الإلهية تكون من طبيعة البشر الحقيقية في الجنة.

تحدث المصنف على مبادئ الشريعة وأصولها وأهميتها وضرورتها بالإضافة إلى حكم ومصالح لبعض الأحكام الدينية بنوع من الإيجاز لا يفوته الشمول واستيعاب الموضوع، مثل أوقات الصلاة، والتوجه إلى القبلة، ومسألة القصر في الصلاة وتحديد الركعات وتعدادها وغيرها، كما استطرد إلى نكت ومصالح الأحكام الخاصة بين الزوج والزوجة، مثل الميراث وغيره حيث يعطي الذكر ضعف حظ الأنثى، كتب الشيخ الفراهي عن الكعبة: أنها كانت قبلة اليهود في السابق أيضًا¹ لكنه لم يتطرق إلى ذكر تفصيل في هذا الشأن كما لم يزود رأيه بمصدر، والواقع أن هذا القول عجيب ومبتدع ولا بد من أدلة مقنعة لإثبات هذه الدعوى، من الممكن أن ذهب إليه في كتاباته لكنني لم أطلع عليه.

كما ذكرت سابقًا أن الشيخ الفراهي سعى في باب "بيان الحكم والمصالح" نحو ذكر حكم المسائل التي تأتي في إطار الأحكام التعبدية مثل تعداد الركعات في الصلوات المختلفة، حيث يقول: إن العدد يمتاز بأهمية بالغة واستراتيجية دقيقة فالأعداد في مسائل مختلفة تبنى على الحكم والمصالح، فالله يقول: وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِقَدَرٍ (الرعد: 8) وانطلاقًا من هذا المبدأ نستطيع القول: إن الحكمة في تعيين الركعتين فرضًا في صلاة الفجر هي أن المصلي يخاف طلوع الشمس وفرضت عشر ركعات بين اليوم واللييلة مع ثلاث ركعات الوتر والسبب فيها أن عدد العشرة كاملة، وتكلم الفراهي بنوع من التفصيل على مسألة العدد في الركعات، والحق أنه ليس من الممكن توجيه العدد في ركعات الصلاة على نطاق عقلي بحت، فالعقل يبقى له أن

¹ المصدر نفسه، ص 52

يثير تساؤلات على توجهات صادرة في هذه الشأن، وهذا ما دفع المتقدمين من العلماء من اتخاذ موقف صارم ينص على أن البحث عن الحكم والمصالح في مثل هذه الأحكام عقيم لا يسمن ولا يغني من الجوع.

أما الكتاب الثاني فهو "إحكام الأصول بأحكام الرسول" وهو يحتوي على 15 صفحة فقط، تحدث فيه الفراهي عن ست مسائل مهمة في أصول الفقه، ثم تطرق إلى ذكر بعض المسائل المختلفة، والهدف من وراء هذه المسائل أن كل ما شرع به رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس نابغاً ومستنبطاً إلا من القرآن الكريم، مثل قوله صلى الله عليه وسلم "لا تتحد أمتي على ضلال"، مبني على قول الله عز وجل: وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ (النساء: 115). وفي الرضاعة الكبرى جاء عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وذكره رجال التفسير الآخرون والعلماء حيث قالوا إنها كانت تعتقد أن رجلاً لو رضع من ثديي امرأة تثبت الرضاعة له بهذا العمل، فكتب الفراهي استناداً إلى المؤطا والزرقاني إن استناد هذه الرواية إلى السيدة عائشة أم المؤمنين غير صحيحة¹ كما تكلم في هذا الكتاب على بعض المسائل الأخرى من هذا النوع.

والكتاب الثالث هو "الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ" وهو يبدأ في هذه المجموعة من صفحة 141 إلى 166، تكلم في هذه الرسالة على موضوع النسخ وبعض جوانب مهمة في هذا الباب من النسخ ومحلله ونسخ الشرائع السابقة، ونسخ بعض الآيات القرآنية ببعضها الآخر والحكمة في النسخ، وغيرها من الموضوعات ونجد في هذا الكتاب مسائل حول النسخ لا نجدها في كتب أخرى حول هذا الموضوع.

والرسالة الرابعة عبارة عن "أساليب النزول" وهي تحتوي على 10 صفحات ذكر فيها مبحثاً عن أسباب النزول والقصة المتعلقة بهذا الشأن. كما تطرق على بيان

¹ إحكام الأصول في أحكام الرسول، ص 120

نكت علمية ودراسات قيمة في هذا الصدد، والنكته المهمة والتي لم يذهب إليها العلماء وهي: ليس المراد من سبب النزول ما لأجله نزل الوحي إنما هو شأن الناس وأمرهم والحالات والواقعات التي بينها وبين ما نزل...¹

ومن الجدير بالذكر أن الرسائل الأربع للفراحي جاءت في شكل ملخصات ويبدو أنها ليست إلا نتيجة عن ملاحظاته في مناسبات مختلفة جاد بها قلمه الفيض كما نجد قلمه سيالاً على بعض الموضوعات غير المهمة بجانب ذكر ملاحظات وتعليقات مختصرة للغاية على بعض الجوانب والموضوعات العلمية، والحق أنها تحتاج التفصيل والشرح والعناية بنوع خاص نظراً إلى أهمية الموضوع.

والسبب في هذا، كما يبدو لي، أن الفراحي كان أولاً يقوم بنقل ملاحظاته وتعليقاته بشكل مذكرات مختصرة، ثم يستطرد إلى الشرح والتوضيح لها حسب الحاجة في أوقات الفراغ.

على أية حال إن هذه الرسائل عبارة عن غيض من فيض، فالدراسات والمباحث العلمية التي أبدعتها وشائج بنان المصنف تفوق أهمية، في بعض الأحيان، على الكتب الكثيرة التي صنفت في هذا الشأن. إن هذه الرسائل العلمية تستحق الثناء والتقدير من الأوساط العلمية بمعنى الكلمة.

¹ الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ، ص 129

قراءة في كتاب "حكمة القرآن" للإمام الفراهي

- د. عظمت الله الندوي¹

المدخل:

هذا الكتاب "حكمة القرآن" مؤلف علمي يحتضن بطيه معارف ومعلومات علمية وفكرية عن كلمة الحكمة التي وردت في القرآن الكريم من مختلف النواحي، كما ينطق الكتاب بشتى المعاني والمفاهيم التي تنبع من هذه الكلمة، وطبعًا، يستقطب عنوان هذا الكتاب كل من له أي شغف بعلوم القرآن ودراساته علمًا وفكرًا وعملاً، بما يسعى المحبّون بالعلم دومًا، معرفة كل ما يكشف كبار العلماء والباحثون عما يحمله القرآن الحكيم من الحكمة والرسالة والعظة والنصيحة وذلك ليس للمسلمين فحسب وإنما لسائر الإنسانية جمعاء.

فأحببت أن أنقل تجاربي المتواضعة ورأيي عما يحمله هذا الكتاب القيم من المعارف والرسائل القيمة، وذلك بعد أن طالعت واستفدت منه كلّ ما قُدر لي من التوفيق، وحاولت أن أقدم مشاعري وانطباعاتي بين يدي القارئ في تعبير تبناه صاحب الكتاب ليكون هذا العمل أقرب من الأصل. لعل ذلك سيشجع كلّ من يعشق بخير الكتاب والعلم على الاستفادة من هذا الكتاب.

يحتوي هذا الكتاب على عدة مباحث ويبلغ إجمالي عدد صفحاته 120 صفحة.

المبحث الأول: الحكمة البالغة: كتب صاحب الكتاب في هذا المبحث، ما هي الحكمة البالغة في الحكمة التي يعلمها القرآن، يتقلّبها أولوا الألباب بما أنها تبلغ قلوبهم وتخاطب عقولهم، ثم حكمة القرآن تعريقًا. وتم تسمية هذا المبحث بكتاب يتناول طريق النجاة وترتيب الأعمال الزكية ومعانها وربط بعضها ببعض، والعقائد

¹ مدرّس ضيف، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليّة الإسلامية، نيودلهي

العدد الخاص مجلة الهند

وعيوبها ولاسيما التي ضلّت الأمم فيها كالتوحيد وغيره من صفات الله والجبر والقدر، ثم ينقسم هذا المبحث إلى قسمين: قسم الأعمال وقسم العلوم بسرد بعض العناوين مثل الحكمة وشرح الكلمات والنظر في نظم هذا الكلام.

يتحدث صاحب الكتاب من ضمن هذه العناوين، عن مبادئ الحكمة، مبرزاً أنّ الحكمة أعمال الفكر أي جعل الشخص أن يفكر، ثم العمل في ضوء الفكر، مما يزداد علماً وعملاً، جاء هذا التوضيح مراعاة لترتيب التربية.

ويكتب المؤلف: كان أول عمل النبي صلى الله عليه وسلم تعليم الأحكام ثم تعليم الحكمة ثم تزكيتهم، كما جاء في القرآن الكريم (ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم). بينما يشرح المؤلف نفس الكلمة في مكان آخر، بأنه من عرف قدر النعم وترتيبها من الوجود والحياة والعلم ومعرفة الخير والتميز بين الأضداد والرغبة في الخير، علم أنّ أكبرها وأجلها هي الحكمة كما قال تعالى: (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، وما يذكر أولو الألباب) حيث يبدو أنّ صاحب الكتاب يركز من خلال هذه العناوين، على أهمية العلم ثم العمل ثم التزكية أي نبذ المندسات وهي تمام السعادة.

وينتهي هذا المبحث بفقرة تالية:

"الحكمة نور وكمال الدين والحق، ولذلك واجبة في الوجود. فلا بد أن يبرزه الله تعالى ولذلك بدأ الخلق بخلق النور فقال: (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) سورة الصف: 8-9. فإن الله تعالى يعلي الحق ويبطل الباطل كما قال: (جاء الحق وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً) سورة الإسراء: 81. أي الزهوق لازم فطرته، كما أن الحق يلزم فطرته الوجود والظهور".

المبحث الثاني: هو حكمة القرآن، أورد صاحب الكتاب أقوال السلف في تعريف الحكمة مع بعض التنبيه على مرادهم، وموضوع الخشوع في الحكمة، وأسماء

الحكمة، والإيمان هو أصل الحكمة، والحكمة والعلم بها وتعليمها وتحصيلها،
والحكمة مضمون بها على غير أهلها.

تحدث المؤلف في هذا المبحث عن أقوال السلف في الحكمة، إذ يقول بعضهم إن
الحكمة هو فهم القرآن، والحكمة هي العلم والعمل به، ولا يكون الرجل حكيماً
حتى يجمعهما وما إلى ذلك من التوضيحات الأخرى، حيث يترتب على ذلك الحديث
عن أسماء الحكمة وفروعها، فيشرح صاحب الكتاب أنّ الحكمة أصل واحد ولها
وجوه وفروع يطلق عليها اسم الحكمة، ومنها الإيمان والعمل والحق والسكينة
والروح والهدى والبصيرة والنور والأمانة والحظ العظيم والخير الكثير .

بعد ذلك، تناول المؤلف الإيمان كأصل الحكمة بقدر من التفصيل، بحيث إن
الإيمان هو أصل الحكمة فكل مؤمن بالنسبة إلى غيره صاحب حكمة، فالمسعى
بالحكم هو الذي له حظ وافر من الحكمة كما أن الإنسان لا يسقى علماً إلا إذا
كان له نصيب وافر من العمل.

وفي ختام هذا المبحث، أشار المؤلف إلى أن بعض الناس قد التبس عليهم مفهوم
الحكمة، فإنهم ظنوا أنها هي علم الحديث، ظناً بأن ذلك هو المراد بقوله تعالى:
(ويعلمهم الكتاب والحكمة).

المبحث الثالث: هو حكمة القرآن من كتاب الحكمة، يشمل هذا المبحث عناوين
عديدة متضمنة نظام القرآن والحكمة، وصفة الحكمة، وكيف تعرف ما هي
الحكمة، والحكمة أوضح المعارف، وخصائص الحكمة، والحكمة ضالة المؤمن،
ونص الأمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله في أصول الفقه،
ونظرة الحكمة كيف تكون، تعليم الحكمة ولا يكون إلا بإثارة وإشارة. وعلم
الحكمة ممزوج بخلقه وعمله كما قيل: الحكمة علم وعمل. خصائص الحكمة
وأثارها ومظاهرها وأسبابها، ولا يمكن تعليم الحكمة إلا بطول الصحبة وبالتدريج
وأصول المعارف والمسائل، وكيف تعليم الحكمة والفكر، دلالة القرآن إلى عين

الحكمة، إزالة شبهة موضع التمثيل في الحكمة، ورفي الأمم بالحكمة (الجانب الخلفي)، وكتاب الحكمة العملية، والحكمة وعوالي العلوم.

بدأ الحديث في هذا المبحث، عن نظام القرآن، لأن ذلك يهدف إلى الحكمة بوجوه كثيرة، فمن تأمل نظمه لا بد أن يهتدي إلى حكم جمة، والحكمة تستلزم السعة والإحاطة بأمور شتى كما تستلزم ترتيباً واتساقاً في النظم، لما أن الحكمة تستلزم الإحكام والإتقان فينتفي الخلل عن بنائها وسوء الترتيب عن أجزائها ثم يتم توضيح الحكمة في ضوء الحكمة ضالة المؤمن.

كما تطرق المؤلف إلى سرد خصائص الحكمة، بعبارة تتمثل في أن الحكمة حياة القلب، بحيث إن القلب الحي ينبت فيه بذر العلم، فإذا صار العلم حياً نامياً فلا بد أن يكون القلب طيباً، والمراد بحياة العلم إفاضته إلى الحال والعمل الصالح.

ثم ألقى المؤلف الضوء على كيفية رقي الأمم بالحكمة أي الجانب الأخلاقي، لأن الأمة ترتقي وتنحط بأخلاقها العالية والسافلة، فلا بد من التربية على الأخلاق الحسنة في التزكية، والتزكية تأتي من الله تعالى فضلاً منه، كما هي غاية التعليم والدين، حيث قال تعالى: (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ).

ونرى أن صاحب الكتاب تناول كلمة الحكمة من مختلف النواحي علماً وعملاً وفكراً، وذلك في إطار ما يشير إليه القرآن الكريم. لم يتحدث عن أي جانب بهذا الصدد إلا وأورد له أدلة قرآنية. إن دل ذلك على شيء فإنما يدل على شغفه ولزومه بعلوم القرآن.

المبحث الرابع ذات الصلة: النظام في الديانة الإسلامية، يتضمن هذا المبحث 16 فصلاً صغيراً وكبيراً بما فيه بعض الفصول مصحوبة بعناوين مثل النظام، وغاية الحياة ونهاية السعادة، وفي أركان الديانات، وبيان نظم قوله تعالى في نعت نبيه صلى الله عليه وسلم، يتلو عليهم آياته، وموضع الاختيار، ومواقف الديانات، ونظرة الحكيم في الديانة من ثلاثة مراصد، واستدلال الحكيم في تحقيقه ونظره، وفي بيان

العدد الخاص مجلة الهند

نظام هذا الدين، وإنما الأعمال بالنيات، وترتيب العقائد والأحكام، وفي أولية الشكر والصبر، أصل الدين وفروعه، ومن كتاب نظام الديانة الإسلامية، والغاية الطريق، وأول الحكمة وآخرها، والتوفيق بين القرآن الحكيم والصراط المستقيم.

هذه هي بعض المباحث والفصول والعناوين ذات الصلة التي يضمها الكتاب، فيما ركّز صاحب الكتاب على شرح كلمة الحكمة ومعانها في ضوء القرآن والسنة وأقوال السلف، أما الهدف الرئيسي وراء هذه الكتابات فإنما يكمن في توضيح الحكم التي يحملها بطيه كتاب الله الحكيم للعالم بأسره، لينال الإنسان هدفه المنشود، فزى أن الكتاب تحدث في البداية، عن طريقة النجاة وترتيب الأعمال الزكية في الصفحة الأولى، وينتهي الكتاب بعنوان الصراط المستقيم. وذلك خير دليل على أن الكتاب لا يقصد بذلك إلا الهداية والرشد والنصح وإسلام النفس للرب.

والواضح بأن هذا المبحث لا يمت بصلة إلى موضوع الكتاب إلا أن الوصول إلى حقائق الحكمة يتطلب معرفة نظام الكون، فمن هذا المنطلق تم إدراج هذا المبحث في هذا الكتاب.

ويكتب صاحب الكتاب في هذا المبحث مع التركيز على معرفة نظام الكون- لأن الدين الإسلامي له نظام وترتيب- لتتجلى الحكمة بكل وضوح كآيات خالق الكون، وإن الدين هو الإسلام والعبادة والطاعة للرب، والعبادة لها ثلاثة أركان، الإخلاص للرب ومعرفة روحها وهو الرجوع إلى الرب، وموافقة إرادته بالرضى والتذليل له والافتقار إليه وحسن الظن به، ثم سلوك العبد في طريق رضاه وجماعه التقوى وأعمال الخير. فمن صحّ إخلاصه وصلاته وزكاته لا بد أن تصح أعماله.

وبعد ذلك جاء ذكر الإيمان والتوحيد والعدل والإحسان معنى ومفهوماً ضمن هذا المبحث، لأن الحكمة تقتضي أن يشكر العبد خالقه، وأصل الشكر محبة الله. ثم غاية الدين تزكية النفس وذلك بأمرين: العلم والإيقان والمعرفة والإيمان، إذ أنّ أول الحكمة وآخرها توفيق بين العلم والعمل، ومن الموافقة بينهما أنّ من استكبر حرم الرحمة، ومن أطاع واتبع طريقه فاز بالكرامة.

العدد الخاص.....مجلة الهند

خلاصة القول: تم جمع هذه المباحث التي كتبها المؤلف عن الحكمة القرآنية، في شكل كتاب، فيما خص صاحبه شرح كلمة الحكمة معنى ومفهوماً، حتى أصبح هذا المؤلف خزانة عمل ومعرفة من بعض الجوانب من المعاني القرآنية، وذلك نتيجة لإخلاصه وتفانيه في تعليم وتعلم علوم القرآن والتدبر فيه، بينما لم يقدم صاحب الكتاب هذه المباحث في شكل مؤلف لذا نجد في الكتاب تكرار بعض العناوين. ولو كتب صاحب الكتاب هذه المباحث بنية تأليف الكتاب لكان أفضل وأفرد كتاب في فنه ومجاله.

ونستفيد من هذا المؤلف علماً وفكراً فيما يخص فهم القرآن الكريم، فيجب على كل من يريد التدبر في القرآن الكريم والاستفادة منه، أن يطالع هذا الكتاب القيم، لأن ذلك كتاب أصول القرآن وتفسير كلمته، وذلك إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على شغف صاحب الكتاب وتضلعه وتبحره في علوم القرآن. والله ولي التوفيق.

الرأي الصحيح في من هو الذبيح

- د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي¹

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على ابن الذبيحين وخاتم النبيين، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فمن التحريفات الفظيعة التي ارتكبتها اليهود في كتابهم، ما فعلوه في قصة إبراهيم عليه السلام، ولأهميتها الكبرى كان نصيبها من التلاعب أوفر من القصص الأخرى. فلم يكن الذين يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه ليرضوا بأن يذهب إخوانهم بنو إسماعيل بطرف من شرف بله اختصاصهم ببيت الله والمنحدر والنبوة الخاتمة. فلم يألوا جهداً في لبس الحق بالباطل، وحاولوا أن يغيروا بنية القصة كلها بالحذف والتبديل والتقديم والتأخير والكذب والافتراء بغياً وظلماً وحسداً.

وإذا أنعمت النظر في جهودهم لتحريف قصة إبراهيم عليه السلام وطمس معالمها وجدتها ترمي من قريب أو بعيد إلى نقطة واحدة، وهي تمويه قصة الذبيح. فإنها مركز الإشعاع في هذه القصة وقطب رحاها بل إنسان عينها. ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره. فترى أمر الذبيح في كتابهم عجباً، فهو يستعلن من حيث يتعمدون إخفاءه. وكلما أخفوا جانباً منه انكشف جانب آخر على رغم أنوفهم.

ولما رأى أهل الكتاب أن القرآن الكريم لم ينص على الذبيح، ومن ناحية أخرى وجدوا المسلمين يؤمنون برسول الله وأنبيائه جميعاً لا يفرقون بين أحد من رسله، ولا يحملون في صدورهم حقداً وتعصباً على الملل الأخرى، ولا يتخرجون من الاستماع إلى كلام اليهود والنصارى في تاريخ الأوائل وقصص الغابرين وفيما لا يمس بعقائدهم وأصول دينهم، صادفوا فرصة سانحة لبث أكاذيبهم ودس أقاويلهم بين المسلمين. ومنهم ومن الذين أسلموا منهم تلقيت الإسرائيليات التي

¹ محقق هندي مقيم بالرياض

ملأت كتب التفسير والتاريخ، وأثارت عثراً ضلّت فيه الحقائق بعض الأحيان أو كادت. وكم من قول صار أشهر الأقوال، كأنه أحسنها، وإنما هو أضعفها وأوهنها.

والقرآن الكريم ينبّه على تحريفات أهل الكتاب وقيم الحجة عليهم، ولكنّ له طرائقه وأساليبه الحكيمة في الاحتجاج والجدال بالتي هي أحسن، فمن غفل عنها، ولم يتدبر نظام الآيات حق التدبر خفيت عليه مقاصد الكلام، ويخشى أن تجوز عليه دسائس المبطلين.

وقد حدث ذلك في تفسير القرآن الكريم وخاصة في قصص النبيين، وبوجه أخص في قصة إبراهيم عليه السلام. فمع أن أمر الذبيح لم يكن من الدقة والخفاء بمكان كبير، جنح بعض كبار المفسرين رحمهم الله إلى أنه إسحاق عليه السلام، وانتصر لقوله كالإمام ابن جرير (ت 310هـ). ومنهم من اكتفى بسرد الروايات دون نقد. ومنهم من ذكر القولين دون ترجيح إلا أنه قدّم القول بكون الذبيح إسماعيل مما يشير إلى رجحان ذلك عنده. وبعضهم قال إن ذلك هو الأظهر.

أما الذين صرحوا ببطلان هذا المذهب، ولم تغرهم الأقوال المنسوبة إلى بعض الصحابة والتابعين، فهم العلماء المحققون النقّاد الذين كانوا من أهل العلم بالقرآن، وقد اطلعوا على كتب اليهود والنصارى أيضاً، نحو شيخ الإسلام ابن تيمية (ت 728هـ) وتلميذه الإمام ابن القيم (ت 751هـ) رحمهما الله. فيقول ابن القيم في زاد المعاد:

"وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه يقول: هذا القول إنما هو متلقّى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم".¹

ونص كلام شيخ الإسلام في الفتاوى:

¹ زاد المعاد، 71/1

"--- وفي الجملة فالنزاع مشهور ولكن الذي يجب القطع به أنه إسماعيل. وهذا الذي عليه الكتاب، والسنة، والدلائل المشهورة، وهو الذي تدلّ عليه التوراة التي بأيدي أهل الكتاب".¹

ومنهم الحافظ ابن كثير (ت 774هـ) الذي يقول في تفسيره:

"وما أظن ذلك- يعني القول بأن الذبيح إسحاق- تلقي إلا عن أخبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلّمًا يعني حجة".²

وكان يجب بعد هذا القول الفصل في القضية أن ينحسم الخلاف فيها، ولا يتلجلج أحد في هذا الحق الأبلج، ولكن للروايات سلطانًا على النفوس، وتعلّقًا بالقلوب. والذين يعتمدون عليها أكثر من اعتمادهم على نظام الآيات وسياق الكلام ودلالات الألفاظ والأساليب يشقّ عليهم التخلي عنها، فألف العلامة السيوطي (ت 911هـ) بعدما اطلع على كلام الإمام ابن القيم رسالة في الذبيح سمّاها "القول الفصيح"³ ولكنه ختمها بقوله: "وكننت ملت إليه- يعني القول بأن الذبيح إسحاق- في علم التفسير. وأنا الآن متوقف في ذلك. والله سبحانه وتعالى أعلم"،⁴ فأراد السيوطي- رحمه الله- كما ترى أن يفصح فأعجم وجمجم. ولعل وقوفه على كلام ابن القيم هو الذي أدّاه إلى التوقف في هذه المسألة، ولولا ذلك لظلّ على مذهبه السابق الذي نسبته القرطبي للأكثرين.⁵

وقد تناول عدد من العلماء غير السيوطي مسألة الذبيح في رسائل مفردة نحو مكّي بن أبي طالب القيسي (ت 437هـ) في "كتاب الاختلاف في الذبيح من هو؟"⁶ والقاضي أبي بكر ابن العربي (ت 543هـ) في رسالته "تبيين الصحيح في تعيين الذبيح"⁷ وتقي

¹ مجموع فتاوى شيخ الإسلام، 321/4

² تفسير ابن كثير، 16/4

³ هذه الرسالة ضمن كتاب الحاوي للفتاوى للسيوطي، 498-492/1

⁴ الحاوي، 498/1

⁵ تفسير القرطبي، 99/15

⁶ معجم الأدباء، 170/19، إنباه الرواة للقفطي، 316/3، وذكر أنه في جزء.

⁷ ذكرها في كتابه أحكام القرآن، 1617/3، ويدلّ كلامه في الأحكام أن الذبيح عنده إسماعيل.

الدين السبكي (ت 756هـ) في رسالته "القول الصحيح في تعيين الذبيح"¹ وابن طولون (ت 953هـ) في رسالته "الميمون التصريح بمضمون الذبيح"² وعلي بن برهان الدين الحلبي (ت 1044هـ) في رسالته "القول المليح في تعيين الذبيح".³

وقد وصل إلينا بعض هذه الرسائل كرسالة السبكي. أشار في أولها إلى بعض الأدلة التي احتج بها القائلون بأن الذبيح إسماعيل، ثم قال: "وهي أمور ظاهرة لا قطعية، وتأمّلت القرآن، فوجدت فيه ما يقتضي القطع أو يقرب منه، ولم أر من سبقني إلى استنباطه. وهو أن البشارة مرتين ---". وفصّل هذا الدليل، ثم ردّ ما يمكن إيراد عليه. وهذه الرسالة في ورقة واحدة.⁴ ورسالة السيوطي التي مرّ ذكرها في ثلاث ورقات. وقد وصلت رسالتا القاضي ابن العربي وابن طولون أيضًا لكن لم نطلع عليهما.⁵

ويبدو أن الرسائل المذكورة كلها كانت لطيفة صغيرة الحجم. أما هذه الرسالة التي نقدّمها اليوم فهي كتاب حافل في هذا الباب. وقد سبق ما أشار إليه الإمام ابن القيم - رحمه الله - من أن القول بكون الذبيح إسحاق باطل بأكثر من عشرين وجهًا. ولكن لم نقف على تلك الوجوه ولا على نصفها فيما وصل إلينا من مصنفات العلماء قبله أو بعده، وإنما وجدنا مصداق كلامه في هذا الكتاب القيم، فإنه جاء حقًا بأكثر من عشرين دليلًا على أن الذبيح إسماعيل عليه السلام، ونصفها من التوراة المحرّفة التي لا يزال اليهود والنصارى متمسكين بها. وما رأينا من هذه الوجوه المستنبطة من التوراة في غير هذا الكتاب إلا وجهًا أو وجهين.

وهو كتاب فريد لإمام نابغة من جهاذة علماء الإسلام، أراد الله به خيرًا ففقهه في الدين وعلمه التأويل، وفتح عليه من علوم كتابه العزيز ما شاء، فكان في فهم

¹ كشف الظنون، 1364/2

² المرجع السابق، 1919/2، وقف عليها مؤلف الكشف فقال: "صرّح فيها بأن الذبيح إسماعيل" ونسخة منها في التيمورية.

³ المرجع السابق، 1365/2

⁴ وقد علقها السبكي سنة 751هـ، ونسخة منها ضمن مجموع مخطوط في مكتبة عارف حكمت برقم 272 مجاميع (ق 134/ب-1/135)

⁵ انظر قانون التأويل لابن العربي، مقدمة المحقق، ص 154

القرآن منقطع القرين. كان غاية بل آية في حدة الذكاء، ووفور العقل، ونفاذ البصر، وشدة الورع، وحسن العبادة، وغنى النفس، ولئن تأخر به زمانه لقد تقدّم به علمه وفضله، وهو الإمام المعلّم عبد الحميد الفراهي رحمه الله (1280-1349هـ) صاحب تفسير "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان".

وتصدّى الإمام الفراهي رحمه الله في كتابه لإبطال ما زعم اليهود من أنّ الذبيح إسحاق عليه السلام، والكشف عن تحريفاتهم لإثبات ذلك في التوراة. وقد يظن بعض الناس أن هذه المسألة مسألة فرعية جزئية من التاريخ، وسواء إسماعيل كان الذبيح أو إسحاق، فكل من أنبياء الله ورسله. فليست لذلك أهمية شرعية تستوجب اهتمامًا كبيرًا كهذا. ولكنه ظنّ لا نصيب له من الصحة. وقد شرح الإمام الفراهي- رحمه الله- في مقدمة كتابه الأسباب الداعية إلى تأليفه، وهي ثلاثة أمور:

أولها: هو مكانتها العظمى في ملتنا، وتكلم على خطر هذه المسألة في تاريخ الإسلام وأهميتها لفهم حقيقة الإسلام نفسه كلاً في غاية النفاسة. وهو باب عظيم من علم أسرار الدين. ولقد وددنا أن نلخص هذا الكلام هنا، ولكن تعذّر ذلك لما يمتاز ببيان المؤلف من شدة الإيجاز وحسن الوصف، فكل ما قاله هو الخلاصة بعينها. يقول في آخره: "فمن زعم أن هذا الابتلاء وقع على جبل أورشليم، وقرب عليه إسحاق عليه السلام كان في غطاء كثيف عن حقيقة هذه البعثة العظمى وحقيقة هذا الذبيح ومكانته في ملتنا".

والأمر الثاني: "أن في القرآن آيات كثيرة يتوقف فهم تأويلها ونظامها على معرفة هذه المسألة وما يتعلق بهذا الذبيح --- واستيفاء البيان في كتابنا "نظام القرآن" تحت كل آية تشتمل على ذلك الأمر، يفضي إلى تكرار وإطناب. فأفردت له كتابنا هذا، وجعلناه من مقدمة تفسيرنا، لكي نحول إليه عند الحاجة".

والأمر الثالث: "أن اليهود لم يبالغوا في كتمان أمر مثل مبالغتهم في ذلك. فإنهم قد ارتكبوا تحريفات وأكاذيب صريحة في أمر إسماعيل والكعبة --- وقد بيّن الله قصة

هذا الذبيح في التوراة ولكن اليهود قد دسّوا فيها أهواءهم فأصلحها القرآن --- ومع أنّ الناقدين من علماء المسلمين من أهل العلم والنظر- كما ستعلم- قد استدلوا بنصوص التوراة أنفسها على كون إسماعيل عليه السلام هو الذبيح، فإن اختلاف كلمتنا جعل هذا الأمر العظيم من الأمور التي لا يعتدّ بها، بل عدم اعتدادهم به أمكن اختلافهم فيه. فإنهم لو علموا ما لهذا الذبيح من المكانة في ملتنا لتحذروا عن الغفلة في أمره. فلهذه الأمور الثلاثة التي كلها على غاية الأهمية احتجنا إلى كشف القناع عن هذه المسألة".

وبعد هذه المقدمة يشتمل الكتاب على ثلاثة أبواب وخاتمة. الباب الأول في الاستدلال بالتوراة وبما اعترف به علماء أهل الكتاب. والباب الثاني في الاستدلال بالقرآن المجيد وحده. والباب الثالث فيما روي من الآثار وأقوال السلف وآراء المفسرين والاستدلال بأحوال العرب وأقوالهم قبل الإسلام.

وقدّم الاستدلال بالتوراة لأنه أراد إقامة الحجة على أهل الكتاب من كتابهم. وبدأ هذا الباب بفصلين تمهيداً لاستدلاله من التوراة: الفصل الأول في معارف تتعلق بشريعة القربان وبالوحي الذي يكون في الرؤيا وهي عشرة أمور. والفصل الثاني في ذكر أصول ومبادئ للنظر في صحف اليهود. ثم جاء بثلاثة عشر دليلاً من التوراة التي عند اليهود على أن الذبيح إسماعيل عليه السلام. ومعظم هذه الدلائل كما قلنا جديدة لم يسبق إليها.

وكشف المؤلف رحمه الله في هذا الباب عن كثير من تحريفات اليهود في كتابهم، وفسّر بعض نصوص التوراة مما استغلق عليهم أو تجنبوا بيانه كتماناً للحق وظناً بأنه لن يفتن أحد لوجه الاحتجاج به.

ومن أهم التحقيقات العلمية التي تضمنها هذا الباب تحقيقه لموضع الذبيح. وقد تعرّض اسمه في صحف اليهود لتحريف شديد في قراءته وتفسيره. فجاء في سفر التكوين (2/22) حسب الترجمة السبعينية "إلى الأرض العالية" وحسب النسخة العبرانية "إلى أرض موره" وفي ترجمة أقيلا "الأرض المستعنة" وترجمة سماخوس

"أرض الرؤيا". وفي السفر نفسه في مكان آخر (6:12) في السبعينية "البلوطة العالية" وفي العبرانية "ميدان مور". أما في القراءة فقرأوا "مرياه" و"مورياه" و"موره".

وقد أفاض المؤلف في ذكر هذه التحريفات، ثم أورد أقوال بعض علماءهم في الاعتراف بالتحريف في هذه الكلمة والردّ على زعم اليهود بأن هذا الموضع هو مكان هيكل سليمان في أورشليم وزعم النصارى بأنه موضع صلب المسيح حسب معتقدهم. وأشار إلى اقتراح بعضهم أن هذا الموضع على جبل جريزيم، وردّ عليه. ثم نبّه المؤلف على مداخل التوهم والتحريف في الكلمة مستدلًا بقواعد اللغة العبرانية ووجود التشابه الشديد بين الحروف في الخط العبراني مما يسهل عمل التحريف لمن يتعمده.

ثم أثبت المؤلف رحمه الله أن الصواب في اسم موضع الذبح هو "المروة" فقال: "إن ذلك الموضع هو الذي في مساكن بني إسماعيل ولم يزل مشهورًا باسم المروة. ويؤيد ذلك ما في صحفهم. فإنه قد جاء في سفر القضاة (7:1): "وكان جيش المديانيين شماليهم عند تلّ مور في الوادي، فتبيّن أن هذا تلّ مور كان معسكرًا للمديانيين. ولا شك أن المديانيين هم العرب. واسم مديان يطلق عليهم وعلى أرضهم. وقد جاء التصريح في صحفهم بأن مديان هم الإسماعيليون".

ثم أورد نصوصًا من التوراة وقال: "فبعد ذلك أي شيء يبقى من دعواهم بأنه على جبل أورشليم؟ أم أي شيء يدفع ما لم يزل الإسماعيليون يعرفونه بالمروة؟ وكانت عندهم أشهر من نار على علم، وكانوا يطوفون بها في حجههم. وحين خاطبهم القرآن في أمر الطواف لم يحتج إلى تعريفها، ولكن بيّن أنها من شعائر الله. وهناك أشار إلى تحريف أهل الكتاب في أمرها وسوء صنيعهم فيما يكتمون من آيات الله من بعدما بيّنها الله تعالى في كتابهم".

فيري المؤلف رحمه الله تعالى أن في قوله تعالى في سورة البقرة (159) "إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ

العدد الخاص مجلة الهند

يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ" بعد قوله تعالى (158) "إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾" تلميحًا إلى ما حرفت اليهود في اسم المروة ورسمها وموضعها لحسداهم إسماعيل وذريته، فردّ الله عليهم بإشارة لطيفة. وتفصيل ذلك في الفصل الثاني والثلاثين.

ولخصّ في آخر الفصل قصة الذبيح فقال: "فتطابق الأمور يدلّ على أن إبراهيم عليه السلام جاء من جهة الشرق، وترك غلاميه على جبل قريب، وذهب بابنه الوحيد إسماعيل إلى المروة ساعيًا وملبيًا لدعوة الرب. وكان مسكن إبراهيم عليه السلام إلى جانب الصفا كما جاء في سفر التكوين (12: 1-8) حيث جاء ذكر رحلته إلى أرض موره في رواية أخرى لقصة الذبح. ولكنهم أسقطوا منها ذكر هذا الذبح، واكتفوا بذكر رحلته، فلم تزل الصفا والمروة في بني إسماعيل قائمتين من لدن إبراهيم عليه السلام إلى يومنا هذا مع الاسم والرسم والمناسك الدالة على تلبية إبراهيم للرب وسعيه لإتمام أمره. وليس لليهود والنصارى شيء من هذه المناسك ---".

وقد أعان المؤلف رحمه الله على القيام بهذا التحقيق العلمي الرائع مدارسته لكتب اليهود والنصارى، ومعرفته للغة العبرانية، وإطلاعه على الدراسات الحديثة التي قامت على العهدين القديم والجديد.

أما الباب الثاني الذي هو في وجوه الاستدلال المأخوذة من القرآن الكريم وحده، فبدأه المؤلف رحمه الله كالباب السابق بذكر أصول ومبادئ للتدبر في قصص القرآن وحججه. وهي أمور مهمة لفهم منهج القرآن الكريم في إيراد القصص والاحتجاج في المعقول والمنقول. والوجوه التي استدلل بها المؤلف في هذا الباب جلّها منثور في كتب السابقين ولكنها جاءت في هذا الباب على أحسن وجه من التحري والتلخيص والتشديد.

ومن عجيب ما استدلل به المؤلف رحمه الله في هذا الباب عدم تسمية الذبيح في القرآن الكريم. فقد جعل ذلك حجة على كون إسماعيل هو الذبيح. فقال: "ليس

لقائل أن يقول: إن كان إسماعيل عليه السلام هو الذبيح فلم لم يصرح القرآن به؟ فإن هذا السؤال عائد عليه في أمر إسحاق عليه السلام على سواء، مع أنه لم يكن مانع لذكره، وأما إسماعيل عليه السلام فلعدم التصريح باسمه وجوه من الحكمة".

ثم فصل القول في هذه الوجوه، وهي أربعة أولها: "أنه من عادة القرآن الصفح والإعراض عن اللجاج الذي لا يتقصر لكيلا يشتغل الخصم به، ويترك ما يلقي إليه من الحجة الدامغة. وقد أدخلت اليهود اسم إسحاق عليه السلام في قصة الذبح، فلو صرح القرآن بخلاف ذلك لتمسكوا به في كتبهم، وجادلوا باطلهم، وأنكروا بما جاء به النبي لخلافه الصريح بما عندهم. فالقرآن يلزمهم ما كان موجوداً في صحفهم أو كان ظاهراً بيناً عند العقل لكيلا يترك لهم متمسكاً وعذراً، وقد أشار إلى ذلك في غير ما آية تارة يخاطب النبي ويأمره بالصفح عنهم، وتارة يخاطب المسلمين بترك جدالهم إلا بحسن القول، وتارة يخاطب أهل الكتاب ويدعوهم إلى مسلماتهم".

ثم أورد أمثلة على ذلك وقال: "وبالجملة فإن القرآن قد اجتنب مجادلتهم فيما تمسكوا بظاهر الكتاب، وفي ذلك حكمة بيّنة لعدم التصريح باسم الذبيح، فلو كان هو إسحاق عليه السلام لم يكن مانع من تسميته ههنا".

ومن أروع فصول هذا الباب الفصلان الأخيران اللذان استدلل فيهما المؤلف رحمه الله بما صرح به القرآن من أحوال إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وبما جاء في القرآن على سبيل إبطال ما افترت اليهود في أمر إسماعيل عليه السلام، وكلاهما من جوامع الأدلة. وسترى فيهما كلاماً بديعاً في تفسير معاني الآيات وحسن نظامها ومحكم ترتيبها وبعيد مراميها ولطيف أسلوبها.

وختم المؤلف رحمه الله هذا الباب بقوله: "ولو فصلناها- يعني الأدلة- لصارت أكثر عددًا ولكننا اخترنا الثلاثة عشر كما اخترنا في القسط الأول رعاية لسني عمر إسماعيل عليه السلام حين قدّمه الخليل عليه السلام قريباً لربه".

أما الباب الثالث عشر من هذا الباب فأورد فيه المؤلف أولاً ما روي عن الصحابة والتابعين والسلف الأقدمين في هذه المسألة، ثم ذكر ما قاله ابن جرير رحمه الله وهو

القائل بأن الذبيح إسحاق عليه السلام، وردّ على احتجاجه. ثم ذكر في فصل مستقل ما قاله الرازي (ت 606هـ) في تفسيره تبعاً للزمخشري (ت 538هـ)، ونبّه على بعض مواضع الوهم في كلامهما. ولخصّ في فصل تالٍ كلام ابن كثير من تفسيره وقال: "لا يخفى أن ابن كثير رحمه الله لآتى بأكثر الأدلة الظاهرة، ولم نجد في المتأخرين من زاد عليها، فلا حاجة إلى استقصاء أقوالهم، ولكن نذكر في الفصل التالي من أقوال المشهورين منهم ما يكفي للدلالة على مذاهبهم في هذه المسألة". فذكر أقوال البيهقي (ت 510هـ) والبيضاوي (ت 685هـ) والنسفي (ت 701هـ) والخازن (ت 741هـ) والجلال المحلي (ت 864هـ) وأشار إلى رسالة السيوطي (ت 911هـ) والظاهر أن المؤلف رحمه الله لم يقف عند تأليف كتابه على كلام ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد، مع شغفه بمصنفاته، ومصنفات شيخه الإمام ابن تيمية رحمه الله.

وللمؤلف رحمه الله كلام جميل في هذا الفصل في الدفاع عن العلماء الذين لم يتخذوا موقفاً قوياً في هذه المسألة، فاكثفوا بذكر القولين دون الجزم بأحدهما أو بمجرد الترجيح، وقد أحسن كل الإحسان إذ صيّر ذلك من مناقبهم فقال: "والسبب في ذلك- والله أعلم- أن علماءنا رحمهم الله تعالى براء من التعصب لنبي من الأنبياء. ثم إنهم لا يجترئون على القطع في تأويل القرآن ما لم يكونوا على بصيرة فيه، ثم إن المتأخرين منا على غاية مراعاة الأدب للسلف. فإذا وجد أحدهم اختلافاً من السلف في تأويل أمسك عن القطع بأحد وجوهه، واكتفى بالإشارة إلى ما هو المرجح عنده، ومع ذلك من كان على بينة من أمره جاء بقول فصل. وفي اختيار ابن جرير رحمه الله أن إسحاق عليه السلام هو الذبيح لأكثر شهادة على أن المسلمين لم ينظروا في هذه المسألة نظر المتعصب المعاند، وكذلك الشهادة في عدم القطع من بعضهم بأحد الجانبين".

وأخر فصول هذا الباب في الاستدلال بأحوال العرب قبل الإسلام وأقوالهم تكملة للقارئ التاريخية التي وردت في الباين السابقين، وتفصيلاً للإشارات التي تضمنها قوله تعالى في سورة آل عمران في أمر بيت الله "فِيهِ عَايَتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا يُرَاهِمُ ۚ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۚ --- ﴿١٧﴾ الآية.

العدد الخاص مجلة الهند

والكتاب كله من أوله إلى آخره نمط عالٍ من التحقيق والتأليف، ومثل خليف بالاحتذاء في أدب الخلاف والمجادلة الحسنة، في أسلوب علي يتميز ببراعة التحليل ودقة الاستنباط، وقوة الاستدلال، وحسن التأني للمعضلات، ونقد الآراء في تواضع جم واحترام تام لأصحابها، مع إحكام النسيج، ونهاية الإيجاز، ونصاعة البيان.

وبعد، فكان من حظ هذا الكتاب القيم أن الإمام الفراهي رحمه الله تعالى قد أنجز تأليفه خلافاً لكثير من كتبه، وسمّاه اسماً تاريخياً يشير إلى سنة 1331هـ. وقد طبع الكتاب في حياته طبعة حجرية بالخط الفارسي في مطبعة معارف بأعظم كره سنة 1338هـ (1919م) ثم ترجم باللغة الأردية سنة 1357هـ وصدرت لهذه الترجمة عدة طبعات. وقد ترجم قبل سنتين باللغة الإنجليزية أيضاً. أما الطبعة العربية فقد نفدت قبل زمن طويل، ولم يقدر لها أن تصل إلى العالم العربي لقلة الرسائل وضعف المواصلات في ذلك العهد.

ويسعدنا اليوم أن نقدم طبعة ثانية¹ نرجو أن تكون لائقة- إلى حد ما- بمكانة هذا الكتاب الذي تصل مباحثه بعدة علوم: فهو كتاب في تفسير القرآن الكريم، ودراسة العهد القديم، وعلم أسرار الدين ديناً قيماً ملة إبراهيم.

اللهم اغفر لمؤلفه الذي قضى أكثر من ثلاثين ربيعاً من عمره في تدبر كتابك الذي كان ربيع قلبه ونور عينه، فنضّر وجهه، وأكرم نزله، وأجزل مثوبته، واجعله من السابقين المقربين في جنات النعيم.

اللهم وقّقنا لفهم كتابك، واتباع سنة نبيك، والعمل بما يرضيك، واجعلنا من الذين يستمعون القول، فيتبعون أحسنه.

وصلّ اللهم على محمد وعلى آل محمد، كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

¹ صدرت من الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، الهند، عام 1414هـ.

كتاب "في ملكوت الله" من أهم مؤلفات الشيخ الفراهي رحمه الله تعالى

- البروفيسور الطاف أحمد الأعظمي¹

ترجمة: محمد شفاء الرحمن²

ألّف الشيخ حميد الدين الفراهي رحمه الله رسالة بعنوان "في ملكوت الله"، وهو في الأصل جزء من مقدمة تفسيره "نظام القرآن". هذه الرسالة تحتوي على 47 صفحة من القطع الكبير، طبعها الدائرة الحميدية بمدرسة الإصلاح بسرائي مير في أعظم كره (الهند) سنة 1391 هـ. وهي التي تم تعريفها في هذا المقال.³

هذه الرسالة كما يظهر من اسمها تتعلق بملكوت الله ووحدانيته، وفي بعض الأماكن تجد بعض النقاط التي وضعت دلالة على أن الإمام كان يريد إضافة بعض الأشياء ولكنه لم يستطع، وفيها بعض المباحث مجملة نتطرق إلى تفصيلها في هذا التعريف كي لا يبقى هناك شيء غامض دون وضوح.

لم يتعرض لهذا الموضوع قبل الإمام الفراهي رحمه الله عالمٌ من العلماء مع أنه ذو أهمية بالغة للغاية من حيث التوحيد، ولا يمكن الوصول إلى معارف القرآن بدون فهمه، يعرف الإمام الفراهي رحمه الله رسالته بهذه الكلمات:

"فهذا كتاب من مقدمة نظام القرآن، باحث عن مسألة ملكوت الله الجامعة لمعارف مهمة من علوم القرآن التي لا يطلع عليها الطالب إلا إذا قام على هذه النقطة الجامعة التي تنفجر منها أنهار علوم، كأنها نبعت من عين جموم، وإذ لم يتعرض لها أحد من علمائنا ينبغي أولاً أن نعرفها ونبين وجوهاً".⁴

¹ كاتب هندي كبير للدراسات الإسلامية وصاحب تفسير "ميزان القرآن".

² باحث، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي

³ ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الأردنية.

⁴ الشيخ عبد الحميد الفراهي رحمه الله، في ملكوت الله، الدائرة الحميدية، سرائي مير، أعظم كره، سنة 1391 هـ، ص: 3.

معنى ملكوت الله: يرى الشيخ الفراهي أن هذا علم شريف ومكانته عظيمة، والغرض الحقيقي من جماع العلوم الدينية معرفة الله الصحيحة بصفاته الكاملة،¹ ومما يلاحظ هناك أن علم الصفات يختلف عن علم الذات تمامًا، ويمكن العلم بصفات الله حسب الظروف والحاجة، ولكن العلم بذاته سبحانه وتعالى محال غير ممكن، لأن العقل الإنساني محدود قد اتفق على ذلك أرباب العقول في كل زمان، وفي العصر الراهن يرى أصحاب النظر والعلم أيضًا أن الذات المطلق لا يدركه العقل الإنساني، وذلك لأنه قاصر عنه. والحق أن الله جلّ وعلا لا يحيط به تصور ولا يدركه خيال. ومن المعلوم أن البراهين والأدلة تابعة للعقل.

لكن الكون المرئي الذي هو مرآة لصفات علمه وقدرته لا يخرج من دائرة العقل الإنساني علمًا وفهمًا، ويستطيع الإنسان مشاهدة الخالق في هذه المرآة مشاهدة معنوية، ومن الصفات التي ينبغي الاهتمام بها أكثر من غيرها ملكوته وملكه الخالص، بمعنى لا يوجد حاكم مطلق ولا متصرف محض سواه في هذا الكون، وبناء على ذلك لا يمكن أن يكون هناك معبود سواه.²

وقد ذكر القرآن الكريم مشاهدة الفطرة عند إبراهيم عليه السلام فقال ﴿وَكَذَلِكَ نُرِىْ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾³.

طبقًا لهذه الآية الكريمة قد تعرف إبراهيم عليه السلام على ملكوت الله بمشاهدة النظام الكوني، مما جعله يدرك أن هذا العالم حكمه من لا فناء له ولا يشاركه فيه أحد في أنحاء الكون في أي نوع من التصرف والحكم، وكل صغير وكبير خاضع تحت سيطرته.

علم مما سبق أن الشخص الذي لا يعرف الجانب الرئيسي للتوحيد أي وحدانية الله سبحانه وتعالى في ملكه وحكمه، فهو عاجز عن فهم الدواعي الحقيقية لعلو

¹ المرجع السابق، ص: 4.

² في ملكوت الله، ص: 4.

³ سورة الأنعام: 76.

قوم أو انحطاطه، ولا يمكن له تفسير ما يتعرض له شخص من هداية وضلالة، وذل وعز، ويربط تلك الحادثة بأسبابها الظاهرة ويعللها بما يبدو له في الظاهر فلا يخرج منها إلا بنتائج خاطئة فلا يهتدي إلى الصراط المستقيم ولا يعرف غاية الخلق ولو بعد فكر طويل.

فوائد ملكوت الله: تكلم الفراهي رحمه الله في فوائد "علم ملكوت الله" على سبيل الإجمال فنقوم هنا بتفصيلها حتى تتضح أهمية ذلك العلم وفوائده.

(1) فهم تاريخ الدنيا واطمئنان القلب، وبه يعلم الإنسان ما يحدث في الدنيا من حوادث وكوارث وأحوال عاقبتها خير وإن كان ظاهرها شراً، وهذه قضية فلسفية¹ لا شك أن الشر في هذه الدنيا موجود مع الخير، ولكنه وجود إضافي لا استقلال له، لأن الله هو الذي خلق هذا الكون ولا يمكن أن يصدر منه شر لأنه خير محض².

هنا نوضح وجود الشر ببعض الأمثلة، ومنها أن الشجاعة صفة محمودة لدى الجميع، وهي خير من جبهة. ولكن الضرر الذي يصيب العدو بسببها هو شر بالنسبة له. وكذا النار خير بذاتها ولا بد منها للحياة الإنسانية، ولكنها تتسبب أيضاً في الدمار والهلاك وحرق للمزارع والأماكن فهل نسمي هذا شراً؟ ومن يقول بأن الليل شر، وهو لباس وراحة، ولكن انظروا أن معظم الجرائم والمعاصي ترتكب فيه، فعلم من هذه الأمثلة أن الشر في الحقيقة حالة سلبية لا وجود للإيجابية فيها، وإنما الإيجابية للخير فقط.

قد يبدو لنا الشر في بعض ما يوجد في العالم وهو إضافي أيضاً ينتج بسبب تركيب مادي. ومن المعلوم أنه تم نسج كل شيء من هذا العالم بعناصر متنوعة، ولكنها مجردة عن صفات الخير والشر بنفسها، ومع ذلك نرى أنه يحدث من تركيب تلك العناصر ما يصدر منه الشر. فعلم من هذا أن الشر يتعلق بالتركيب لا بأصل التخليق وجوهره.

¹ في ملكوت الله، ص: 4.

² وهذا في وجهة النظر لابن سينا والفلاسفة المسلمون الآخرون (المؤلف).

دعنا نفكر في الشر من ناحية أخرى، مبادئ الأضداد لها وجود في خلق كل شيء، أعني أن كل موجود يشمل المثلث والمنفي. وأصغر جزء لهذا العالم المادي هو الذرة، وهذا أحسن مثال لهذه المبادئ المتضادة. ومن أجزاء تركيبه (الكهرباء، الإلكترون، البيروتين، النيوترون) يشتمل الإلكترون على الصفة السلبية، والبيروتين على الصفة الإيجابية، ولكن الذرة أساسها على هذه الصفة السلبية والإيجابية. لو تدبرنا في العالم من هذه الناحية لعلمنا أن جميع تلك الأشياء التي ظاهرها شر، هي في الحقيقة سبب لحصول الخير وحيازته، لو لا الشر فيها لما أمكن معرفة الخير كما يقال "تعرف الأشياء بأضدادها" علاوة على ذلك لو لا الشر لما رغبتنا إلى الخير وما ظهر ما في النفوس من مهارة. هذا هو الشر الذي يحفز فطرة الإنسان الخلاقة والمخترعة.

والحق أن جميع تطورات الإنسان الثقافية سببها وجود البيئة المخالفة التي هي في الأصل تصور للشر وقد ابتلي بها الإنسان من بداية خلقه. لو ما وقّر خالق العالم هذه البيئة المضادة لما أمكن إظهار ما في الإنسان من مهارة نفسية وذاتية، والغرض كيفما نفكر فيه يبدو أن الشر محرك ضروري وعامل أساسي للتطورات الإنسانية والروحانية والمادية.

دعنا نفكر في هذه القضية من ناحية أخرى، غاية خلق الإنسان وفقاً لما في القرآن الامتحان والاختبار، قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾¹، فلو لم يخلق الشر مع الخير لما كان للامتحان من معنى وفائدة، وقد أودع في الإنسان الإرادة والخيار كي يعمل بالخير بمشيئته أو يتبع الشر بإرادته، وفي تعبير آخر يمكن أن يقال أن يكون مطيعاً لله أو منساقاً لنفسه الأمارة بالسوء.

هذا الاختبار له علاقة بالأقوام والأمم كما له علاقة بالأفراد. وكل ما يحدث للإنسان من حوادث الشر إنما هي نتيجة لذلك الاختبار التي يظهرها الله تعالى من فينة لأخرى كي ينبه الأشرار ويسلي الأخيار ليعلموا بأن قانون المكافأة الإلهية حق.

¹ سورة الملك: 2.

(2) فهم تاريخ الدين الذي يتعلق بالانحطاط الأمم وتطورها، وهذه مسألة تاريخية.¹ هناك تاريخ يدور حول الأسباب المادية، وفيها أهمية كبيرة للعوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ويظن أن هذه العوامل تحدد ماهية التاريخ، ولكن هناك تاريخ ديني يعبر فيه عن التاريخ على أسس خلقية وأخلاقية. ومعناه أن الخلق السامي والرفعة في الخلق يرفع القوم إلى قمة التطور والازدهار، والانحطاط فيه قد يؤديه إلى حضيض النذل والهوان. ولا شك أن العوامل الاجتماعية والاقتصادية قد تؤثر في زوال الأمم وانحطاطها، ولكن العامل الفاصل والسبب الرئيسي في ذلك أعمال الخلق الحسن وهي أمور باطنية كلها. تدلنا على هذا الأصل آيتان من القرآن حيث قال جل ثناؤه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾²، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾³.

الأصول التي تستنبط من هاتين الآيتين هي أصول الأخلاق والقيم. وإذا أنعم الله سبحانه وتعالى على قوم بأموال طائلة وبسلطة وقوة، فإن بقاء تلك النعمة واستمرارها إنما تنحصر على أحوال القوم الباطنية وسلوكها الداخلي، وتبقى النعمة لديهم ويتمتعون بها ما دام سلوكهم الداخلي يوافق ما يقتضي منهم تلك النعمة. فإذا ساءت حالهم وتغيرت عما تقتضيه النعمة زالت أو سلبت منهم. فالواضح البين أن زوال القوم وانحطاطه وازدهاره تابع لخلقهم وأعمالهم النفسية ولا علاقة بهذا للعوامل الخارجية إلا القليل، والأحوال الخارجية إنما تنم عن أحوالهم الباطنية وتعكسها. وتعتبر الأحوال الخارجية إنما هي مرآة تظهر أمامها جميع مراحل أخلاق القوم ومنازلهم وضوحًا لا تراب فيه.

¹ في ملكوت الله، ص: 4-5.

² سورة الرعد: 11.

³ سورة الأنفال: 53.

إذا قرأنا التاريخ من هذه الناحية فإن مطالعته ستكون نافعة ومثمرة، وبالأخص تكون أنفع للمتقين والصالحين، فإنها تطلعهم على أن المتقين الصادقين هم الذين لهم رفعة وسمو في هذا العالم. فلو كان خلاف ذلك فتيقن أن المتقين غير موجودين، لأن الحكومة والسلطة لا يحصل عليها الفساق إلا حين عدم وجود المتقين، إن الدنيا لا بد أن تستمر إلى أجل معين وأمد مؤقت، ولذا يختار الله سبحانه قوماً يقوم بتدبير شؤون الخلق وظروفهم على أحسن طريقة، ولكن هذا النظام مؤقت. إن مشيئة الله سبحانه تنتظر دوماً أن يقوم قوم من أهل التقوى الصادقة (ولا يراد هنا الفرق الدينية الخالية من التقوى وخشية الله والتي تصرخ بمبادئ سياسية) وينتزعوا السلطة من غير المتقين ليتسلمها المتقون.

(3) فهم حقيقة اختلاف الشرائع. نرى أن هناك كثيراً من الاختلافات في المذاهب العلمية الكبرى وبالأخص الإسلام واليهودية والنصرانية، ولكن إذا تدبرنا فيما علمنا أن تلك الفروق والاختلافات ليست إلا فروقاً لفظية وفي الظاهر فقط، لا اختلاف في روحها وكنهها ولا يمكن ذلك، لأن أصل جميع المذاهب والأديان إنما هو الخير والتقوى.

لو بقي هذا الأصل بين أيديهم بالاستمرار لما نشأت فرق ولا نشبت بينهم حروب باسم الدين مع وجود ظواهر الاختلاف، ولكنه لم يكن كذلك، بل قد ضلل أتباع المذاهب بعضهم بعضاً نظراً لتلك الظواهر الخلافية، وقد غلت اليهود والنصارى في ذلك أكثر من غيرهم. قال الله تعالى فيهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾¹

وقال في موضع آخر: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهِ﴾²

¹ سورة البقرة: 113.

² سورة البقرة: 114.

ولا يختلف تعامل المسلمين في ذلك عن اليهود والنصارى، نظروا إلى ظاهر الشريعة دون باطنها وتقواها. فنتج عنه ما نتج من قبل. فتفرق المسلمون إلى فرق وجماعات، وتفرقت المساجد والمدارس، وكفر فريق فريقاً آخر حتى ما خلا تاريخ هذه الأمة من تدنيس حرمة المساجد وقتل المصلين فيها وللأسف هذا الأمر مستمر إلى الآن.

وحدة الإله تستلزم وحدة الشريعة وتقتضيها، إذا سلمنا أن لهذا الكون حاكماً واحداً لا شريك له فشريعته واحدة أيضاً. وهذه الآية القرآنية توضح هذه الحقيقة حيث قال الله تعالى فيها: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾¹

يتضح من خلال نظم الكلام وسياقه أن المقصود بـ"دين الله" الذي هو سواء للعالم الكوني والعالم التشريعي هو قانون الطاعة، والفرق بينهما أنه ينفذ في العالم الكوني جبراً وقهراً، وفي العالم التشريعي طوعاً. وإذا قرأت قوانين العالم الكوني فتجد أنها مختلفة الأنواع. وقوانين العالم السماوي تختلف عن قوانين العالم الأرضي حتى قوانين كل عالم منهما تختلف بعضها عن بعض أيضاً، ولكن الذي يربط تلك القوانين بسلك واحد هو قانون الطاعة أعني انقياد لخالق الكون كاملاً.

قوانين العالم التشريعي لا يختلف حالها عن غيرها، إن الروح لجميع شرائع الأنبياء والرسول التي أنزلها الله تعالى في كل عصر هي طاعة الله والانقياد لأمره طوعاً دون إكراه ما، وهذا يسعى في الاصطلاح بالتقوى. والاختلاف الذي يظهر في الشرائع إنما هو اختلاف اعتباري لا حقيقي، وروح الشرائع هي التقوى ولا خلاف فيها. وقد عبّر عنه القرآن في موضع بلفظ "الخيرات" قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾².

¹ سورة آل عمران: 83.

² سورة المائدة: 48.

وفقًا لما في الآية أعطي كل قوم شريعة مستقلة، كان الله قادرًا على أن ينزل على جميع الأمم شريعة واحدة لا فرق بينها، ولكنه لم يفعل ذلك لغرض الاختبار. وما سبب الاختبار؟ ليرى هل القوم يهتمون بظواهر الشريعة أكثر أم بروحها أي خيرها وتقواها الذي هو أصل جميع الشرائع وأساسها والذي عليه مدار الفوز والفلاح يوم القيامة؟ وجاء في سياق الأضحية في القرآن الكريم كما قال الله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾¹ وجاء في الصلاة كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَادِعُونَ ٢﴾²

فعلم من هاتين الآيتين أن الله سبحانه لا يهتم إلا روح الشريعة يعني تقواها، لأن قدّم أحد أضحيتها وضعى، ولكنه لم يرد بذلك تقوى الله فأضحيتها من حيث الظاهر قد قدّمت إلا أنها غير معتبرة عند الله سبحانه. كذلك من صلّى ولم يقصر في آدابها من الواجبات والفرائض، ولكن فاتته الخشوع فتمت صلاته في نظر الشريعة، ولكن من يستطيع أن يقول بأن صلاته ستكون سببًا لنجاته وفلاحه يوم القيامة.

وهناك أمر مهم في الآية المذكورة أن التنازع والاختلاف لظواهر ما في الشرائع أمر خاطئ. فحسب القرآن لا يمكن القضاء على الاختلافات الدينية والفصل بينها وإنما يفصل بينها يوم القيامة.³ فسابقوا إلى روح الشريعة أي إلى التقوى والأعمال الصالحة، فإن هذا هو الشيء الوحيد يضمن لكم الفلاح يوم الآخرة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾⁴

(4) علم أصول سياسة الله وحكومته، وهي أصول العدل والحكمة.⁵ ويقوم كل شيء في العالم بوظيفته الفطرية طبقًا لهذه الأصول. ومن مقتضى هذا العلم أن

¹ سورة الحج: 37.

² سورة المؤمنون: 1-2.

³ انظر سورة البقرة: 113، وسورة آل عمران: 55، وسورة المائدة: 48، وسورة الأنعام: 164، وسورة النحل: 92، وسورة الحج: 69.

⁴ سورة البقرة: 148.

⁵ في ملكوت الله، ص: 5.

يبني المجتمع الإنساني على هذا الأصل، ولا يمكن تأسيس مجتمع صالح بدونه، وخير مثال على ذلك في العهد الجديد روسيا، فالسبب الرئيسي في انهيار الاشتراكية وخسارتها هو الانحراف عن أصول الحكمة، والقوانين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي وضعها الاشتراكيون لم تكن عادلة لجميع طبقات المجتمع علاوة على ذلك كانت مخالفة للفطرة الإنسانية.

ولكن وضع القوانين المبنية على العدل والحكمة صعب. وإن المقننين لا شك أنهم من أفراد المجتمع، ولذا أي قانون يتم وضعه يراعون فيه مصالح الأغلبية أكثر من الأقلية، فإن لم تكن الحكومة ديمقراطية لكان تأسيس نظام مبني على عدل أصعب.

أسباب ما حدث في المجتمع الإنساني من المآسي هي ما سبق ذكره. ويوجد في الإنسان تطرف وعنف إضافة إلى المصالح الذاتية والاجتماعية. هو دائماً تنتقل من تطرف إلى آخر. ولا يمكن علاج ذلك التطرف إلا بربط الوعي الذي هو مشتمل على العدل والحكمة بالعقل وهذا هو قانون إلهي. ولهذا الوعي اسم آخر وهو "القرآن الحكيم". وبدلنا هذا الكتاب على أن سلطان الله قائم على أصول العدالة والحكمة والرحمة، ولا تعني الرحمة مخالفة القانون، بل هو العفو الواجب في حدود القانون، مفهومه أنه لا يمكن بناء المجتمع الإنساني المثالي إلا بهذه الأصول الثلاثة واتباعها.

(5) وبهذا العلم تظهر أهمية العقل¹ والعقلاء يسمون الله سبحانه وتعالى عقلاً مجرداً وشعوراً محضاً، وأدنى ظهوره هو الشعور الإنساني. ولذا وجب أن لا تنافي أعمالنا عقولنا، فإن إهانة العقل ورده إهانة لصفة من صفات الله والانتقاص منها.

يعلم أهل العلم أن الله سبحانه وتعالى لم ينزل في عصر من العصور قوانين مفصلة بل نزل الأصول والقوانين الكلية لكي يتمكن الإنسان بعقله الموهوب من وضع القوانين حسب الظروف والأحوال، وهذا هو النهج الذي اختاره الله سبحانه في القرآن الكريم، وأكثر قوانينه من هذه النوعية أي النوعية الكلية، وغرضها ما سبق.

¹ في ملكوت الله، ص: 5.

ولكن من العجب أن أهل المذاهب والأديان قد أهانوا العقل في كل الأدوار، ولم يستحسنوا استعمال العقل في أمور الشريعة، والمسلمون ليسوا بمستثنين من ذلك، ووصف الشيخ الرومي رحمه الله العقل بأنه شيطان، وتلميذه المعنوي العلامة إقبال رحمه الله رآه ماكراً¹ ومع أن القرآن قد ورد فيه الثناء على العقل² وطولب في كثير من مواضعه التدبر في الأنفس والآفاق³ وقد سعى القرآن من لم يتدبر بعقله ولم يستخدمه حيواناً ودابة⁴.

فما السبب الذي جرّ العلماء إلى الإساءة إلى العقل مع وضوح التعليم القرآني في ذلك كما سبق ذكره، ويمكن القول بأن هؤلاء لما رأوا من مظاهر العقل استنبطوا منها أن العقل عدو للإيمان، إضافة إلى ذلك ما يحمل الإنسان في طيه من العواطف والأهواء، فمن كان عقله ناقصاً ربما يغلب عليه العواطف فيصير خادماً بدل أن يكون مخدوماً، ولكن العقل الناضج والمحكم لا تغلبه العواطف فيحسن أداء وظيفته الأصلية أي الاستدلال والاستنباط (reasoning) على أحسن وجه، فيكون معظم قراراته صحيحاً، ويحتل الخطأ ولا يمكن القول بأنه لا يتأثر بالعاطفة، وعلاوة على ذلك العقل محدود، ولذلك فالطريقة المثلى والأمنة أن يربط العقل بالوحي ويسلم الوحي قائداً.

(6) ومن فوائد العلم بملكوت الله أنه يسهل علينا توجيه بعض الأفعال المتضادة المنسوبة إلى الله تعالى كالهداية والضلالة والرحمة والعذاب⁵ ويشكل علينا في الظاهر فهم أنّ الله هو الذي يهدي ويضل، وكذلك هو الرحمن الرحيم، ورحيم بحيث لا يمكن لما بين السماء والأرض الإحاطة برحمته، فكيف ينسب إليه

¹ (عقل عيار به سو بهيس بنالیتی به عشق بیچاره نه ملا به نه زاهد نه حکیم)، العلامة إقبال رحمه الله، بال جبریل (کلیات إقبال)، الجزء الثاني: مطبع حميدية غریا استريت، دلهي، ص: 298.

² سورة فاطر: 28.

³ سورة البقرة: 164، وسورة الروم: 24، وسورة النحل: 12، وسورة آل عمران: 191.

⁴ سورة الأنفال: 179.

⁵ في ملكوت الله، ص: 5.

العذاب. فقد حاول أن يجيب أهل العلم من علماء الدين وغيرهم عن هذا الإشكال والاعتراض في جميع العصور.

نرى أنّ جميع ما في هذا العالم المادي منقاد ومطيع لربه تعالى لا يتصور منه الانحراف ولا العصيان، ولكن الإنسان يختلف عنه، يطيع ويعصي، وبهذا يتضح تمامًا أنه يملك إرادة وخيارًا حرمت منهما الخلائق الأخرى. ويؤيد هذا التصور عدة من آيات القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾¹ ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۚ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۚ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾² وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾³ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَنَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾⁴

ولكن الإرادة الإنسانية واختياره ليسا مطلقين بل هما تابعا للمشيئة الإلهية كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾⁵

ويمكن حل قضية الهداية والضلالة بعد أن اعترفنا بأن للإنسان إرادته واختياره. فالقانون الإلهي في هذا أن العبد إذا اختار سبيل الهداية برضاه فمشيئة الله سبحانه وتعالى توافقه وهذه هي الهداية الإلهية كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾⁶ وأما الذي يختار سبيل الضلالة برضى نفسه فلا تعوقه المشيئة الإلهية. وبالتالي يسهل له السير على سبيل

¹ سورة الدهر: 3.

² سورة البلد: 8-10.

³ سورة النساء: 111.

⁴ سورة لقمان: 12.

⁵ سورة التكوثر: 29.

⁶ سورة العنكبوت: 69.

الضلالة، هذا هو تفسير إضلال الله تعالى له.¹ فقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۝ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝﴾².

يتجلى من هذه الآيات أن الإيمان والكفر من أعمال العبد الاختيارية، وهذا الخيار إنما تم منحه ليختبر فيعمل صالحاً أو سيئاً كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝﴾³.

إن عذاب الله تعالى لا ينافي رحمته بل هو من مقتضاه. أنعم الله على العبد بنعمة الإرادة والاختيار، ووهبه القدرة على التمييز بين الخير والشر، وإضافة إلى ذلك أرسل أنبيائه ورسله ليوضحوا سبل الصلاح والفساد وضوحاً تاماً، فعلى الإنسان الآن إما أن يسلك سبيل الرشd والهداية، وإما أن يختار طريق الكفر والضلال، ولكنه لا بد له أن يلقى عاقبة هذا الاختيار. وقد تتعجل بعواقب السيئات في الدنيا ليتنبه الغافلون ويتوب العصاة والمذنبون فيسلموا من العذاب الأكبر يوم القيامة، قال سبحانه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝﴾⁴. وقال في مكان آخر: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ۝﴾⁵. وقال أيضاً: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝﴾⁶.

¹ سورة البقرة: 26.

² سورة فاطر: 5-8.

³ سورة الملك: 2.

⁴ سورة الروم: 41.

⁵ سورة النازعات: 25-26.

⁶ سورة السجدة: 21.

فقوله تعالى "لعلهم يرجعون" يبين مدى رحمة الله عز وجل وشفقته في حق عباده، وأنه لا يريد أن يعاني العبد يوم القيامة من نتائج أعماله السيئة، فإنما العقوبات الدنيوية للتنبيه وليست للانتقام فإن الله عز وجل عالٍ عن ذلك.

الحكم المطلق: المفهوم الأساسي لـ"ملكوت الله" كما يظهر من اسمه هو حكمه المطلق، (أي توحيد الربوبية) الذي ظل أصلاً من الأصول المتفق عليها في جميع الأديان السماوية، على الرغم من أن أهل هذه المذاهب بمرور الزمان انحرفوا عن هذا الأصل الأساسي وتفرقوا في سبل الشرك المختلفة، وقد ذكر الله هذا الأصل المتفق عليه في القرآن الكريم بهذه الكلمات: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾¹.

وللحكم المطلق جانبان: يتعلق أحدهما بالعالم الكوني بينما الآخر بالعالم التشريعي، وقد ناقشهما الشيخ الفراهي رحمه الله، واستدل على إثباته بالأدلة النقلية والعقلية.² وقدّم التاريخ كدليل في هذا البحث لا سيما تاريخ الأديان.

حكم الله تعالى في العالم الكوني: قد اختلفت الآراء فيما يتعلق بحكم الله تعالى في العالم الكوني منذ البداية، فرأى بعض الناس المعاصي والآلام في الدنيا، ورأوا أيضاً أنّ الظالمين هم الغالبون، والصالحين مغلوبون، وقالوا: لا حاكم لهذه الدنيا ولا أمر، وإن كان هناك إله يتصف بالعلم والعدل فلماذا هذه المعاصي والمصائب؟ وهؤلاء هم الملاحدة.³

أما المجوسيون فجعلوا لأنفسهم إلهين أحدهما إله الخير (يزدان) والآخر إله الشر⁴ (أهرمن). وأما النصاري فسلكوا مسلكاً آخر قائلين بصراحة أن الشيطان

¹سورة آل عمران: 64.

²في ملكوت الله، ص: 16-17.

³في ملكوت الله، ص: 8.

⁴المرجع السابق.

هو الذي يحكم هذا العالم.¹ والمعتزلة ذهبوا إلى أن الشر يتعلق بأفعال العباد. ولكن المشكلة الكبرى في أسباب مصائب الأطفال؛ من يتجاسر على القول بأن أعمالهم سبب لآلامهم²؟ وأما المشركون فاعتقدوا عقيدة المشركين من يونان أن هناك آلهة متعددة تحكم على هذا الكون.³

قد قام الشيخ الفراهي بتحليل نقدي للآراء المختلفة في وجود الإله وحكمه، وأوضح أن عقل الإنسان وعلومه قاصرة عن الوصول إلى حقيقة كل شيء وكنهه، فلا يمكن للإنسان أن يدرك حقيقة أفعال الله تعالى على وجه تام. وقال الشيخ في هذا الصدد ناقلاً أقوال الرواقيين أن جميع الوقائع التي تقع في العالم تحمل جوانب الخير ظاهراً أو باطناً. ولا يسع لعقلنا أن يدرك كنه كل شيء إلا الإيمان بالله وحده.⁴

والذين ذهبوا إلى إنكار وجود الله سبحانه إنما كان إنكارهم جهلاً وهم فيه يخرصون. ولو تدبروا لأدركوا الحقيقة لما يحدث في العالم من الظلم والفساد. وقد خالفوا قولهم بإنكارهم وجود الإله إذ يثبتون بإنكارهم أنهم الأعلو في هذا الكون، وهذا العلو يبقى دليلاً على أنهم يؤمنون بمن منحهم العلو والتفوق. وهذا العلو للنفس دليل للإرادة والاختيار. وإذا اعترف الإنسان بالإرادة والاختيار اتضح له مفهوم الظلم ووجود الشر في النفس الإنسانية كل الوضوح أن ذلك من النتائج اللازمة للإرادة والاختيار.⁵

إنما خلق الإنسان- كما سبق ذكره- للابتلاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾⁶ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا⁶.

¹ المرجع السابق.

² المرجع السابق.

³ المرجع السابق.

⁴ أيضاً، ص 9، فصل الشيخ الفراهي رحمه الله الكلام في هذه المسألة في كتابه "حجج القرآن".

⁵ في ملكوت الله، ص: 12.

⁶ سورة الدهر: 3.

كان من اللازم لهذا الابتلاء أن يعطى الإنسان الإرادة والخيار وقد أعطي ومعهما العقل ليفرق بين الحق والباطل. ووجود هذه النعم دليل على أنه في ابتلاء دائم. فمن لم يتدبر في هذا الأمر لم يدرك السبب وراء المعاصي والمنكرات في هذا العالم.¹ إن المصائب والآلام، والفقر والإفلاس، والعزة والذلة، والتفوق والانحطاط كل ذلك لأسباب مختلفة. وأكثر المصائب والآلام هي نتيجة الاستغلال الخاطئ لحرية الاختيار. وبعضها من مقترفات العقل الإنساني لسبب تفوقه أو تربيته. وبعض المصائب من حكمة الله سبحانه. وليست هذه المصائب إلا ليتنبه الغافلون.²

وقد انحرف إلى الضلال من يعتقد بتعدد الآلهة لأن نظام العالم الكامل الانسجام ينافي وجود آلهة متعددة، فإن من أهم ميزات الحكم، التصادم. ولو تعددت الآلهة لحدث بينها خلاف وبالتالي يفسد نظام العالم فسادًا كاملاً. ولكن الأمر عكس ذلك فلا يوجد أي نوع من الفوضى أو الخلل في أي زاوية في هذا الكون، بل يوجد من النظام ما يدهش العقول. وهذا دليل قوي على أن العالم يحكمه قادر مطلق واحد وليست آلهة متعددة.

وعقيدة النصارى في غاية البطلان بل هي ظن فاسد بالله تعالى، حيث يعتقدون أن خلق هذا الكون عبث مع أن الله أجل وأعلى من أن يخلق عبثاً. وليس من المعقول أن يسيطر الشيطان على خلق الله القادر المطلق وإلا فيظهر من هذه العقيدة ضعف الله وعجزه، مع أن عقيدتنا أن الله تعالى أعظم وأقوى في هذا الكون وكل ما يوجد في العالم تابع له.

حكم الله تعالى في العالم التشريعي: إن الله تعالى له الحكم حقاً في العالم التشريعي من الأمور المدنية كما له الحكم في العالم الكوني. ويدرك من أهل العلم من يتمكنون من علم عروج الأمم وزوالها أن هذه الوقائع تقع طبق أصول معينة.

¹ في ملكوت الله، ص: 10.

² المرجع السابق.

وهذه الأصول هي الأصول الأخلاقية. إن الفضل الذي تتمتع به النفس الإنسانية على الكون المادي سببه الكمال العقلي للإنسان. أي قوم يربون أنفسهم تربية صحيحة يتمتعون بالعروج، والذين يغفلون عن ذلك يلحقهم الزوال.

إن عروج قوم وغلبتهم إعلان بأن نفوسهم أحسن تربية وهم مؤهلون أكثر للحكم من المغلوبين، وهذه كلمات الشيخ الفراهي "فإن الله لا يسلط قومًا على قوم إلا لحكمة ومصلحة وصالح الغالب للحكومة وعدم صلاح المغلوب لها".¹

ولكن الأقوام المغلوبة تصرف النظر عن ضعف نفوسها بسبب الحمية الجاهلية،² وتكون في اعتقاد خاطئ أنها أفضل وأعلى من القوم الغالب،³ وأحسن مثالاً لهذا مسلمو الهند، إلى اليوم لم يفكروا أبدًا في السبب الحقيقي في غلبة الهندوس عليهم، ومع كونهم مغلوبين يزعمون أنهم أفضل من الهندوس، وقد أظهروا هذا الفخر في عهد الحكومة الإنجليزية، وبالتالي تحملوا عواقبه الشديدة لمدة طويلة.

إن الكمال النفسي (السمو العقلي والعروج السياسي) لأي قوم له علاقة وثيقة بأخلاقهم. علاقتهما كالشجرة وثمارها، كما نعرف الشجرة بثمارها فكذلك الأخلاق، بعد النظر إليها تتبين حالة القوم النفسية ومدارج رقيتهم، وعلى ذلك نستطيع أن نحدد إن كانوا يستحقون العروج والحكم أم لا.

لا يمكن التغير في النظام الأخلاقي لعروج وزوال الأقوام وكونه غير متغير دليل على أنه ليس بنظام تحكمه الصدفة، بل هو نظام وضعه عليم وخبير وله الحكم في أمور الإنسان، وهذا النظام غير المتغير دليل ساطع على حكم الله المطلق في العالم التشريعي.

ولكن ينبغي هنا أن نلاحظ أن مفهوم حكم الله تعالى في العالم التشريعي يختلف عن سلطته العليا في العالم الكوني، ولذا قد أخطأ كثير من أهل العلم والجماعات الدينية في فهم معناه الحقيقي في جميع العصور.

¹ في ملكوت الله، ص: 20.

² المرجع السابق، ص: 18.

³ المرجع السابق.

إن السلطة العليا لله سبحانه نافذة في العالم الكوني بلا واسطة. وفي العالم التشريعي بواسطة وهي الإنسان، لأن إعطائه الإنسان الإرادة والخيار كان يقتضي أن تكون بيده الحكومة في العالم التشريعي ليظهر كماله النفسي، وهذا يسمى في اصطلاح الشريعة بالخلافة، وسيفصل فيها الكلام لاحقاً.

ولا يعني أن سلطة الإنسان وحكومته في العالم التشريعي تجعله يحكم على الأرض حكماً مطلقاً، بل الحكم المطلق إنما هو لله وحده. والحكومات في العالم التشريعي تقوم وتنتهي بإرادته ومشيتته. وهو الذي يحكم من في الأرض، وبيده متى يمنح الحكومة ومتى يسلمها. قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾^(١). وقال أيضاً: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾^(٢).

حقيقة الخلافة: إن الله تعالى أعطى الإنسان في العالم التشريعي سلطة ودولة، كما مرّ سابقاً، وبتعبير آخر جعله خليفة^٣، وكان الهدف الأول من تفويض هذه السلطة والخلافة للإنسان الاختبار كما سبق، يعني مشاهدة تعاملاته بهما قال الله تعالى: ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾^٤ والهدف الثاني هو إظهار المواهب الكامنة في النفوس الانسانية وإكمالها^٥ وكان مقتضى هذين الهدفين أن تقوم الخلافة في الأرض، وبتعبير آخر تكون للإنسان سلطة ونفوذ

^١ سورة يونس: ١٤.

^٢ سورة الأنعام: ١٣٣.

^٣ والمراد بالخليفة عند أكثر العلماء هو خليفة الله أي نائبه، لما رأى بعض الأحزاب الدينية أن الفساد والفجار بهذا التصور غالبون على الأرض وفهموا منه أنهم غاصبون، ولذا يجب على أهل الإيمان أن يجاهدوا للقضاء على غلبتهم وسيطرتهم، فلا يصحب أي وجه معنى الخليفة هذا، وللتفاصيل انظر في كتابي "إحياء أمت اور ديني جماعتين"، ص: ١٧٨-١٨٩.

^٤ سورة يونس: ١٤.

^٥ في ملكوت الله، ص: ١٠-١١.

في الأرض حتى يتمكن بهما من إعمارها وحضارتها، والحضارة تعني ظهور مواهب النفس الإنسانية وشيوعها شيئاً فشيئاً.¹

مفهوم الخلافة السياسي: بالمعنى السياسي فإن كل فرد يعتبر خليفة، ولكن لا يتكون مجتمع أعني دولة ما لم يتنازل جميع أفراد المجتمع عن حقهم الطبيعي في الحرية والخيار بالرضى والرغبة ويجعلون شخصاً حاكماً لهم أعني خليفة لهم وهذا هو مفهوم الخلافة.

من هنا يعلم بأن الخلافة هي تعاهد يكون بين الخليفة وأفراد دولته. ويتنازل الأفراد عن حقوق حريتهم بالرضى نظراً لما يحصلون عليها من الفوائد والعوائد بإقامة الخلافة واستسلامهم لطاعة الخليفة.

وبمبايعة الخليفة على السمع والطاعة تنتهي حرية الأفراد. ولكن لا تضيع بل تكون مصونة ومحفوظة، لأن الإمام الذي يُبايع على السمع والطاعة يكون عادلاً تقياً، وتصير الأمة محفوظة ومصونة من حاكم ظالم واعتداءاته.

وينحصر بقاء هذا التعاهد على صدق الجماهير وخلوصهم.² وعلى هذا المعنى يكون اختيار الخليفة ذا أهمية كبيرة، لأن الخليفة إذا لم يكن ذا خصائص

¹ في ملكوت الله، ص: 22.

² في ملكوت الله، ص: 32، أسس المفكرون الغربيون مثلاً هابس (1586-1679م) وجانلاك (1632-1704م) الحكومة على العهد (Contract) لكنهم اختاروا طريقة الإفراط والتفريط في السلطة العليا، فحاكم هابس حاكم مطلق وحاكم جانلاك لا خيار له لأنه يتصور أن الحاكم الأعلى هو البرلمان، واختار المفكر الفرنسي روسو غير طريقتهم، وقال إن الإنسان مفطور الحرية واتفقوا على العهد حفاظاً على النفس والمال، وهذا العهد ليس بين الحاكم والمحكوم، بل هو بين الأفراد بأنفسهم وهذا هو القوة الأصلية لهذا العهد، وطبقاً لهذا الرأي الشعب هم الحكام الأعلى، وعلى هذا الأساس قامت الجمهورية الغربية. للخليفة خيارات كثيرة في الإسلام، ولكنه مكلف بالمشورة وهذا حاجز للرأي الشخصي والحكم المطلق. ويجب على الخليفة أن يشاور أهل الحل والعقد في الشؤون الحكومية كما تجب طاعة الخليفة على الشعب بناء على العهد، وهذا يصدق قوله تعالى: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ سورة الشورى: 38، فعلم من ذلك أن الخليفة لا يكون حاكماً مطلقاً ولا يكون حاكماً ليس له خيار كلي، بل له خيار وسطي. (الطاف)

حميدة ينقص سمع الجماهير وطاعتهم له التي هي أساس البيعة، وتحرم الأمة من فوائد الخلافة تدريجيًا. وبالتالي يكون بقاء الخلافة في خطر، وعلى هذا يجب أن يكون اختيار الخليفة بدقة بالغة واحتياط كامل.¹

اختيار الخليفة: إن الشيخ الفراهي رحمه الله لم يتحدث عن كيفية اختيار الخليفة بل ترك فراغاً² في هذا المكان من العبارة وهذا يشير أن الشيخ كان يريد إبداء رأيه في هذا الموضوع ولكن لم يجد فرصة لذلك، وقد تكلم في هذا الموضوع من علماء المسلمين أبو الحسن الماوردي رحمه الله (974-1058م) في كتابه "الأحكام السلطانية" وذكر بأن اختيار الخليفة وتعيينه كلاهما صحيحان كما فعل أبو بكر رضي الله عنه بتعيين عمر الفاروق رضي الله عنه خليفة له.

ولكن تنحصر كيفية اختيار الخليفة وتعيينه على الأحوال والظروف المصاحبة له، وليس من الحكمة تحديد كيفية معينة له، بل قد تتنوع صور اختيار الخليفة وتعيينه حسب الأحوال والظروف المصاحبة لها، ولكن لا يصح اختياره عن طريق الجماهير مباشرة، لأنه يحمل في طياته مفسد كثيرة وعواقب وخيمة، بل يجب أن يكون اختياره عن طريق أهل الحل والعقد مهما كانت الظروف، ويمكن ببعض الشروط مشاركة الممثلين للجماهير في اختيار أهل الحل والعقد.

ولكن من هم أهل الحل والعقد؟ هذا يتعين حسب الظروف والمصالح الوطنية يبت فيه عقلاء الوطن وعلماءه. أما الغرب فيكون اختيار أهل الحل والعقد عندهم عن طريق الجماهير مباشرة، وقد تكون هذه الطريقة مناسبة لهم لارتفاع المستوى التعليمي عندهم، أما الدول الشرقية في ظروفها الخاصة حيث أن المستوى التعليمي هنا منخفض جدًا فلا تفيد هذه الطريقة بل تكون ضارة لها، ولعل لهذا السبب قال الشيخ الفراهي رحمه الله إن مثل هذه الدولة تكون مثل دولة الفوضى.³

¹ في ملكوت الله، ص: 25.

² المرجع السابق.

³ في ملكوت الله، ص: 46.

العدد الخاص مجلة الهند

أوصاف الخليفة: ذكر الشيخ أبو الحسن الماوردي رحمه الله في كتابه المذكور أن يكون (الإمام) رجلاً عاقلاً بالغاً خليقاً عادلاً شجاعاً جواداً، وأن يكون من أولي العزم، وأن يكون متشاوراً من أصحاب العقول والألباب في الأمور المهمة، ولكن يحكم هو بعقله وفهمه الصحيح، وأن يكون متصفاً بسلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض، وبالعلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام، وبصحة الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح.

أما ما قال الامام الغزالي رحمه الله (1058-1111م) في كتابه "الاقتصاد في الاعتقاد" و"إحياء العلوم" عن الإمامة وعن أوصاف الإمام فهو يبين الحالة السياسية في عصره حيث كان السلطان أقوى من الخليفة في تلك الأيام، ولأجل هذا لم يشترط الغزالي في الخليفة أن يكون صاحب جهاد ورأي سديد واجتهاد بل يمكن له الاعتماد في هذه الأمور على السلطان وعلماء ديوانه، ولكنه اشترط أن يكون الخليفة صاحب الورع والتقوى.

أما ابن تيمية رحمه الله (1263-1328) في كتابه "السياسة الشرعية" فقد اكتفى بقوله: إن كان الخليفة متبعاً للكتاب والسنة في إدارة حكومته ففيه خير كثير، وإن لم يكن حاملاً لأوصاف ومواهب أخرى.

وحسب قول ابن خلدون (1332-1406م) يجب أن تتوفر في الإمام أربعة شروط أساسية: وهو العلم (علم الاجتهاد) والكفاءة (المهارة السياسية) والشجاعة وسلامة الجوارح والحواس.

وقد تكلم شاه ولي الله رحمه الله (1703-1763م) في كتابه "حجة الله البالغة" و"إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء" و"الخير الكثير والبدور البازغة" في مواقع عديدة عن سياسة أمور الدولة، وأما ما ذكر عن أوصاف الخليفة فهي تقريباً نفس ما ذكره الماوردي وهو أن يكون عاقلاً وبالعلاً وحرّاً وشجاعاً ومصيب الرأي وعادلاً، وذا شهرة.

العدد الخاص مجلة الهند

وقال العلامة جمال الدين الأفغاني رحمه الله: (1839-1897م) الرأي السديد،
والهمة العالية، وسلامة الطبع، أوصاف أساسية لحاكم ناجح.

وقد وافق العلامة إقبال رحمه الله (1877-1838م) الماوردي في تعيين أوصاف الخليفة.

وقد ذكر الشيخ الفراهي رحمه الله أوصافاً للخليفة وهي جامعة ومناسبة للعصر
الراهن وهي كالآتي:

1- أن يكون تقيًا يخشى الله تعالى مطيعًا لأوامره.¹

2- أن يكون ذا بصيرة ثاقبة، وعارفاً للحقيقة.²

3- أن يكون متواضعًا.³

4- أن يكون ذا عزم وهمة.⁴

5- أن يكون متوكلاً على الله تعالى.⁵

6- أن لا يتردد في الحق ولا يتساهل في تأييده.⁶

7- أن يكون مستغنياً عن الجاه والشهرة ومتنفراً منها.⁷

8- أن يكون ساعياً لإقامة العدل بعد وصوله إلى عرش السلطة.⁸

وأما الشرط الأول من هذه الشروط المذكورة آنفاً فغير واضح، لأن من
الصعب معرفة المتقي والذي يخشى الله تعالى، وعلى هذا فهو شرط زائد تكمله
الشروط الأخرى.

¹ في ملكوت الله، ص: 29.

² المرجع السابق.

³ المرجع السابق.

⁴ المرجع السابق.

⁵ المرجع السابق.

⁶ المرجع السابق.

⁷ المرجع السابق.

⁸ المرجع السابق.

وقد بيّن القرآن الكريم أوصاف الخليفة بأسلوب جامع في الآية الآتية، قال الله تعالى: ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ¹﴾.

في ضوء هذه الآية الكريمة تجب أن يتوفر في حاكم ناجح شرطان أساسيان:

الأول: العلم، والثاني: الجسم، والمقصود من العلم أن يكون الحاكم عاقلًا فاهمًا للأمور على حقيقتها، وعارفًا بالمبادئ السياسية التي هي أساس لإدارة الدولة، ومع هذا يكون ملماً بالمعلومات الدينية الأساسية وقواعدها الكلية ولا يلزمه أن يكون عالماً متخرجاً من الجامعات الدينية، والجدير بالذكر أن العلماء لا يناسبون لسياسة الدولة لأنهم انفعاليون لا يدركون الأمور على حقيقتها كما قال ابن خلدون في مقدمته الشهيرة وأنا أوافقه تماماً، لأن العلماء مهمتهم إدارة الشؤون الدينية فقط.

والمقصود من الجسم في الآية الكريمة أن يكون الحاكم صاحب عزم وهمة، كما قال المفكرون الآخرون أيضاً، وأن يكون سليم البدن لا يوجد خلل يسير في خلقه، ويكون ذا هيبة، وفوق ذلك أن يكون ذاهمة عالية وشجاعاً مقداماً، لا ييأس مهما كانت الظروف بل يكون صامداً كالصخرة في مكانه ولو أدى ذلك إلى التضحية بنفسه، كل ما ذكره الشيخ الفراهي رحمه الله وغيره من المفكرين من صفات الخليفة فهي في الحقيقة شرح وتفصيل لهاتين الصفتين.

مسؤوليات الخليفة: إن الشيخ الفراهي رحمه الله لم يتعرض لذكر مسؤوليات الخليفة، ومن الممكن أنه لم يجد الفرصة لذلك، أو أنه لم يلق لها بالأ لذكرها في القرآن الكريم بألفاظ واضحة.

وخلاصة ما ذكره القرآن الكريم من مسؤوليات الخليفة كالآتي:

1- إقامة نظام الصلاة والزكاة.

¹ سورة البقرة: 247.

2- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

3- إقامة العدل.

أما المسؤولية الأولى والثانية فقد ذكرهما الله تعالى في آية واحدة قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَقِيبُ الْأُمُورِ ۝﴾¹.

وأما المسؤولية الثالثة وهي إقامة العدل. فقد ذكرها الله تعالى، فقال: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾² وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقَوْمٍ عَلَىٰ وَلَا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾³. وقال تعالى عن داود عليه السلام: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾⁴.

الخلافة والملكية: قال الشيخ الفراهي رحمه الله: "إن من أهم أسباب زوال الخلافة من قوم أعمالهم، وذلك إن أصحاب الحل والعقد إذا تركوا طريق العدل والإنصاف وتسرب هذا الفساد في المجتمع، حينئذ يترك الناس اتباع أهل الحق ويتبعون أهل الشر والفساد الذين يتبعون أهواء أنفسهم في أقوالهم وأعمالهم، وتكون عاقبة أمرهم تسلط الظلمة والجباية على مقاليد السلطة الذين يحكمون الناس بالجور والجفاء وهذه هي الملكية،⁵ والفرق الذي يميز بين الخلافة والملكية هو اختيار الأمير وإذا سلب حق الاختيار انتهت الخلافة وبدأت الملكية.⁶

¹ سورة الحج: 41.

² سورة النساء: 58.

³ سورة المائدة: 8.

⁴ سورة ص: 26.

⁵ في ملكوت الله، ص: 25.

⁶ المرجع السابق.

وقد أخطأ كثير من العلماء في الكلام عن الخلافة والملكية حيث أنهم قسموا الخلافة إلى قسمين، قسم يتم فيه اختيار الخليفة عن طريق أهل الحل والعقد، كما تم اختيار أبي بكر رضي الله عنه، وقسم يتم فيه اختيار الخليفة عن طريق الخليفة نفسه، كما اختار أبو بكر رضي الله عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه خليفة له من بعده، وهناك قسم ثالث للخلافة أيضاً هو أن يستولي القوي على عرش الخلافة بالقهر والقوة، كما جاء في رد المحتار "فقد علم أنه يصير إماماً بثلاثة، لكن الثالث في الإمام المتغلب وإن لم تكن فيه شروط الإمامة وقد يكون بالتغلب مع مبايعة وهو في الواقع سلاطين الزمان نصرهم الرحمن".¹

وعند أكثر العلماء والفقهاء تجب طاعة الإمام المستولي على عرش الخلافة بالقوة والقهر، ولا يجوز الخروج عليه ففي رد المحتار "بعد استقرار سلطته ونفوذ قهره لا يجوز الخروج عليه كما صرحوا به". وقال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم: "فيه دليل لوجوب طاعة المتولين للإمامة بالقهر من غير إجماع ولا عهد".²

ولكن الشيخ الفراهي رحمه الله يصفه بالملكية لا بالخلافة، لأنه يعتقد أن الخلافة لا يمكن إقامتها بدون اختيار، وأما ما تكون عن طريق القهر والاستيلاء فهذه هي تسمى الملكية، ولكنه يقول بوجوب طاعة الإمام المستولي على عرش الخلافة بالقهر والقوة، لأن وجود الحكومة خير من الفوضى وانعدام الحكومة، خاصة إذا كانت الأمة غير صالحة، لأنه إذا انعدمت الحكومة لساد في المجتمع الفوضى والفساد، ولأجل هذا يمكن أن تقبل الملكية في بعض الظروف الخاصة.³

¹ ابن عابدين، رد المحتار على در المختار، 6/ 414، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة خاصة، 2003م

² الإمام النووي، شرح مسلم، (كتاب الإمامة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخليفة الأول)، المكتبة الرشيدية بدلهي، 1376هـ، 12/ 234.

³ في ملكوت الله، ص: 26.

وتجب أيضًا طاعة الإمام المستولي لوجود إمكانية صالحين في أمة غير صالحة، لذا يمكن أن يتولى السلطة يومًا ما رجل صالح وتقي،¹ ومن المحتمل أن يكون ذلك الشخص ذا رأي فريد، لأن الشغب غير الصالح يفقد حق الحرية، ومن أحسن الأمثلة له حكومة سليمان عليه السلام وحكومة ذي القرنين،² حيث أنهما كانا ملكين ولم يكونا ملزمين في قضاياهم بآراء الآخرين ومشورتهم ومع ذلك كانت حكوماتهما قائمة على العدل والتقوى.

ويجب للرجوع من الملكية إلى الخلافة إصلاح أخلاق الشعب ومعاملاتهم بشدة لأن فساد أخلاقهم أساس لجميع المفساد،³ فإن الحاكم واحد من أفراد الشعب، فإن صلح القوم صلح الحاكم، وإن كان الأمر عكس ذلك فهذا دليل على أن القوم في باطنهم غير صالحين ولا يمكن إقامة الخلافة بدون إصلاحهم.

ولم يتعرض الشيخ الفراهي رحمه الله لبيان عزل الخليفة وإعفائه، وقد اختلف العلماء في هذه المسألة، فذهب أكثرهم إلى أنه لا يجوز عزل الخليفة وهو القول المختار عند أبي حنيفة والشافعي رحمهما الله، وأما الإمام أبو محمد فيجيز عزل الخليفة لفسقه، وجاء في "شرح المواقف": كما يجوز للأمة اختيار الخليفة كذلك يجوز لها عزله إذا قام الخليفة بالأعمال التي تختل بها أحوال المسلمين ومعاملاتهم، ويخشى بها في إضعاف الأمور الدينية، ولكن إذا خاف من عزله وقوع الفتنة فحينئذ الإبعاد عنه أفضل من باب اختيار أخف الضررين.

إقامة الخلافة واجبة: نظرًا لأضرار الملكية وفوائد الخلافة تجب على المسلمين إقامة الخلافة، يجعلونها من أولوياتهم ويسعون لها بكل ما يمكن ولا يترددون لو استدعى ذلك إلى التضحيات بأنفسهم أو التنازل بحرياتهم الفطرية.⁴

¹ المرجع السابق.

² المرجع السابق، 27.

³ المرجع السابق، 28.

⁴ المرجع السابق، ص: 31.

وقد فهمت منظمة دينية في الهند من إقامة الخلافة وجوب إقامة الحكومة الإلهية على المسلمين، وإن كانوا مغلوبين سياسيًا، وليس لهم منطقة حرة ولا قوة ولا سلطة، وهذا لا شك مفهوم خاطئ لإقامة الخلافة، ومضر للمسلمين.¹

وأما الخلافة التي تكلم عنها الشيخ الفراهي رحمه الله ورغب في نيلها ببذل كل غال ونفيس فهي تتعلق بأولئك المسلمين الذين لهم منطقة حرة تحت سلطتهم ولهم فيها سيادة سياسيًا، لأن الخلافة لا يمكن إقامتها بدون حرية واختيار، وأما المسلمون المغلوبون سياسيًا فإنهم محرومون من هذين الوصفين، وكذلك الدول التي يحكمها المسلمون ولهم سلطة فيها فيجب أيضًا إصلاح أحوال المسلمين وتربيتهم خلقًا قبل إقامة الخلافة فيها، وتجب دعوتهم فيها إلى الأعمال الصالحة يكون أساسها موضوع التوحيد والخلق الحسن.

يقول الشيخ الفراهي رحمه الله: "فدَلَّنَا على أصل الأمر وهو أن المؤمنين غير موفين بدمتهم حتى أن يعملوا الصالحات، ثم يساعد بعضهم بعضًا في أداء الحقوق الواجبة عليهم، والاستقامة عندما تزل أقدامهم. ولا يستتب أداء الحقوق إلا بعد إقامة الخلافة والسياسة، ولا يتم التثبت عليه إلا بعد الإذعان لها."²

ولو فرضنا أن منظمة دينية وصلت إلى مقاليد السلطة قبل إصلاح أعمال المسلمين فحكومتها لا تختلف في نتائجها عن حكومات دنيوية، لأن إدارة كل حكومة تقوم على العدل والمساواة تحتاج إلى أناس مؤهلين لذلك وهؤلاء لايتوفرون فيهم، ولأجل هذا قبل السعي إلى وصول زمام الخلافة يجب إيجاد جدول زمني طويل المدى لإصلاح المجتمع خلقًا ونفسيًا، ويتم السعي والاجتهاد لذلك، فإذا علم علمًا يقينًا وجود أناس مؤهلين لذلك فحينئذ تتم المساهمة في سياسة الحكومة، وحسب الظروف والأحوال يتم السعي لتغييرها، وهذا بخلاف

¹ انظر كتابي "إحياء ملت اور ديني جماعتیں".

² الشيخ حميد الدين الفراهي، تفسير سورة العصر (تفسير نظام القرآن)، الدائرة الحميدية، سراي مير، أعظم جراه، 1990م، ص: 344.

تلك الدول التي فيها المسلمون مغلوبون سياسيًا فتختلف خطط العمل فيها، فهؤلاء يصبرون حتى تنتهي مدة القوم الحاكم.

لا بد أن نعلم جيدًا أن الحكومة بيد الله يؤتمها من يستحقها بدون تمييز بين مسلم وكافر، وعلى هذا الأصل قد يستولي على زمام الحكومة ملحد لا يؤمن بالله تعالى أصلًا، على الرغم من أن الله تعالى لا يرضى عن الحاكم غير الصالح، فلم يكن الله تعالى راضيًا عن حكومة فرعون ونمرود ولكنهما توليا الحكومة بمشيئة الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾¹.

ولكن السؤال لماذا أتى الله تعالى نمرودًا الحكومة وقد كان كافرًا ومشرکًا؟ فالجواب واضح وبن، كان أهلاً للحكم في تلك الظروف الخاصة. وقد علم من ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يؤتي الحكومة قومًا لا قوة فيهم ذهنيًا ولا حسن فيهم خلقيًا ولو كثرت عباداتهم في الظاهر أو كثرت دعواتهم. ولا تؤثر العبادات والأدعية في هذا الأمر إلا إذا كان الشعب ذا وعي اجتماعي ويتفوق على غيرهم من الأعداء في الخلق. ولنعلم أيضًا أن الحكم لا يدوم لقوم أبدًا وفق سنة الله، بل له مدة معينة سميت "أجلًا" في القرآن الكريم. ولما جاء الأجل المعين يُغلب الحاكمون بدون أي تقديم وتأخير، قال تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾².

وبناءً على هذا من الحكمة أن نقوم بتعيين الأجل المعين للحكم غير الإسلامي، وهذا يمكن عبر الفحص الدقيق في أخلاقهم ومعاملاتهم، ثم نبدأ ببذل الجهد السياسي بطريقة منسقة، ويجب أن نوفر الموارد لذلك، بما فيهما الموارد المادية والأخلاقية كما سبق ذكرها. ثم نفوض الأمر إلى الله وهو خير الحاكمين.

الجهاد داخل البلاد: لقد أصاب العلماء في قولهم بعدم الجهاد داخل البلاد، إذ ليس بجهاد، بل هو فساد في الأرض. ولا بد من وجود المنطقة المستقلة والحرّة

¹سورة البقرة: 258.

²سورة المؤمنون: 43.

والقوة السياسية للجهاد كما أن الجهاد هدفه إقامة العدل والقسط، لذا يجب على طائفة تريد الحكم أن تقوم على العدل والقسط أولاً.

وقد ذكر الشيخ الفراهي رحمه الله: "وبعته نبياً خاتماً، ومظهرًا دينه على الدين كله، وأمره بالوعظ حتى يسمعوها كلامه، ولم يأذن له بالقتال حتى تتم الحجة وتبلغ منتهاها، وأمره إذا باستخلاص الكعبة ورد الحنيفية إيفاء لعهد إبراهيم، وأذن له بالقتال بعد الهجرة، فإن القتال قبل الهجرة ظلم وفساد وإلا أن يكون حفظاً للنفس".¹

وقد ذكر أيضًا:

"ولا يكون الجهاد لدفع الفساد من الأرض إلا بعد أن يرفع الفساد من بين المجاهدين فلا يستحق له إمام ولا تتبعوه إلا بعد أن يكونوا قائمين بالقسط، ولا يجوز القتال لأحد في داره إلا بعد الهجرة كما ترى في قصة إبراهيم وآيات الهجرة، وحالات النبي ﷺ فإن الجهاد من غير الملك المطاع بغي وعدوان وفتنة وإهانة للمعروف، ولا يؤذن للقتال إلا بعد القوة، كما ترى في قصة شعيب عليه السلام: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾،² فالجهاد واجب بشرائطه الثلاث إلى يوم القيامة، وليس الإكراه في الدين ولا الفساد ولا البغي، ولكن شهادة الحق واجبة والتبليغ والمجادلة الحسنة".³

لا يسهل لأحد بعد قراءة هذه السطور للشيخ الفراهي رحمه الله أن يقال إنه كان داعيًا إلى إقامة الحكومة الإلهية ومؤيدًا لها. وقد استخدم الشيخ الفراهي رحمه الله كلمات الحكومة الإلهية ثلاث مرات في كتابه "في ملكوت الله"، ولكن هذه الكلمات التي استخدمت في كل موضع تتعلق بحكم الله الأعلى في العالم الكوني.⁴

¹ الشيخ عبد الحميد الفراهي، مقدمة نظام القرآن، (تفسير نظام القرآن)، مطبع الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، 1357، ص: 24-25.

² سورة الأعراف: 87.

³ مقدمة نظام القرآن، (تفسير نظام القرآن)، 25.

⁴ في ملكوت الله، ص: 20-21.

والغرض من ذكرها الفهم الصحيح لقواعد الحكومة وأصول الحكومة الإلهية في العالم الكوني، وإقامة الخلافة على تلك القواعد والأصول عند تأسيس الحكومة.¹ وإن الله يحكم على العالم التشريعي- كما سبق ذكره- مثلما يحكم على العالم الكوني، لذا إن القول بإقامة الحكومة الإلهية لا معنى له.

إن الله سبحانه وتعالى لا يحتاج أن يسعى عباده في إقامة الحكومة في العالم التشريعي. وإن القوم الذين يحكمون هذا العالم اليوم، لا يحكمون إلا بأمر الله وإلى مدة معينة مثل الزمان الماضي. والسعي للحصول على الحكومة قبل تلك المدة المعينة ليس إلا سعيًا خلافاً لسنة الله في الكون، ولم يفلح قوم بهذا من قبل ولا يمكن فيما بعد. ومن أهم أسباب فشل الجماعات الدينية في مختلف البلدان عدم وقوفهم على سنة الله تعالى في العزل عن الحكومة والإقامتها. ولا يدرون الأصول التاريخية في رعاية الظروف والأحوال للفوز في الدنيا.

وذكر الشيخ الفراهي رحمه الله في أهمية اتخاذ الخطوات في الوقت المناسب:

"الفرض: هو أن تعلم الوقت وما يجب عليك به، فإن عمل الخير في غير وقته إضاعته وإضاعة ما يجب في ذلك الوقت. وإمام القوم: من هو أعلم بمصالح الوقت الحاضر فيعمل".²

وإن اتخاذ الخطوات في الوقت غير المناسب يؤدي دائماً إلى الفشل والخسران، وشهدت بذلك أحداث التاريخ، وهذه هي سنة الله.

التدابير والنصرة الإلهية: وقد علم من تفاصيل سنة الله تعالى في العالم التشريعي أن الحياة الإنسانية كلها الفردية والاجتماعية في حكم الله تعالى وتصرفه. وهو المالك الوحيد والقادر المطلق. ولا تحدث حادثة في الأرض إلا بأمر الله تعالى وإذنه. وبشكل السؤال نظراً إلى هذا الوضع هل الأسباب والتدابير الدنيوية تتدخل في فوز الإنسان وفشله؟

¹ المرجع السابق، 20.

² المرجع السابق، 29.

وتعرض الإنسان دائماً في هذا الأمر لإفراط وتفريط، ويتوكل أهل الدنيا على الأسباب ويظنونها أصلاً حاكماً في الشؤون الإنسانية، ولكن إذا فشلوا فيتحيرون ولا يستطيعون القيام بتوجيهات حقيقية. وخلاف ذلك أهل الدين وعلى وجه الخصوص أهل التصوف يستغنون عن الأسباب والتدابير، ويزعمون أن الله تعالى هو الفاعل الحقيقي، لذا لا علاقة للفوز والفشل بالأسباب والتدابير. وعند الفشل قد يفنى أساس عقيدتهم ويظنون بالله ظن السوء في وعده وعونه.

وأضرب لكم مثلاً لغزوة أحد، فمن المعلوم أن المسلمين قد انهزموا في هذه الغزوة انهزاماً لم يكونوا يتوقعونه، ولم يتصوروا أن الجيش الذي يقوده ويسوسه النبي ﷺ ينهزم أمام كفار مكة، وقد شاهدوا نصرة الله وعونه بأعينهم في غزوة بدر، ولذا دهشوا وتحيروا من الفشل غير المتوقع، حتى أن ظن ضعف الإيمان بالله غير الحق ظن الجاهلية، (آل عمران: 154). وقد بين الله تعالى أنهم هم المسؤولون بأنفسهم لهذا الفشل (آل عمران: 165). وإن الخطأ الكبير الذي صدر من المسلمين في هذه الغزوة كان خطأ في التدبير؛ وهو عدم الحفاظ على الجبل والعجلة في جمع الغنيمة قبل كسر القوة الحربية للأعداء.¹

ويجب على المسلمين أن يتذكروا دائماً أن النصر الذي وعده الله أهل الحق يرتبط بالأسباب الدنيوية، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٥٥ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ٥٦﴾.²

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ٥٧﴾.³ فهذه الآيات صريحة الدلالة أن اختيار الأسباب والتدابير واجب للفوز في الدنيا، وتركه يؤدي إلى الفشل والهزيمة.

¹ للتفاصيل انظر سورة آل عمران: 167-168.

² سورة الأنفال: 46.

³ سورة الأنفال: 60.

التدابير والتوكل: إن الخطأ الكبير في فهم العلاقة بين التدبير والتوكل لشائع، ويزعم كثير من المسلمين وأهل التصوف خاصة أن التدابير منافية للتوكل، وليس الأمر كذلك، بل أمر الله سبحانه وتعالى بالتدبير مع التوكل، ولذا يفرض الله سبحانه وتعالى على ذاته عون العبد إذا توكل عليه واستغنى بعد التدابير اللازمة عن جميع الأمور،¹ قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دَارِهِمْ أَوْفَىٰ بِمَا جَاءَتْهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ فَبِأَعْيُنِنَا ذُرِّيَّتُهُم بِمَا كَانُوا عَمِلُونَ ۝ لَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِنَّ رَبَّنَا لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾²

أسباب النصرة الإلهية: بين القرآن الكريم أن النصرة الإلهية لها سببان فقط، وهو الصبر والصلاة، قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ۝﴾³

وبتبيين من قوله تعالى "مع الصابرين" أن الصبر من المهام الرئيسية في الدين، فلم يقل سبحانه وتعالى إنه مع مقيمي الصلاة بل قال إنه مع الصابرين، وذلك أن الصبر من الأسس الرئيسية لا يمكن بدونها أي عمل حتى إقامة الصلاة، وقد ذكر الشيخ الفراهي رحمه الله بأن التقوى هو جزء من الصبر لأنه لا يمكن العمل بالأحكام والشرائع إلا بالصبر.⁴

إن الشيء الأمثل في حياة سائر الأنبياء هو الصبر والاستقامة، كما قيل لخاتم النبيين ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَّهُمْ ۚ﴾⁵ وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝﴾⁶

¹ في ملكوت الله، ص: 41-42.

² سورة آل عمران: 173-174.

³ سورة البقرة: 153.

⁴ في ملكوت الله، ص: 42.

⁵ سورة الأحقاف: 35.

⁶ سورة المزمل: 10.

ويتبين من هذه الآيات أن الصبر هو علامة العزم القوي والنفوس المهذبة، كما تظهر أهلية قوم للحياة ورقيمهم. والموعظة التي وجهت إلى النبي ﷺ في الآيات المذكورة هي دروس وعبر للمسلمين بأن لا يغفلوا عن الصبر والثبات على الدين، وبهذا يمكن الحصول على عون الله ونصرته لهم.¹

لذا أمر الله تعالى المؤمنين في زمن النوائب والفتن بأن يكثرُوا من الصلاة والصبر، وأمر موسى عليه السلام بوضوح فقال تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.² وعلم بهذا أنه يجب على الأمة المظلومة والمقهورة اللزوم بالصبر والصلاة.

كان عيسى عليه السلام آية في الصبر ومحافظة الصلوات خاصة في آخر حياته. وكانت حياة النبي ﷺ كلها مليئة بالصبر، ولكن ليس معنى الصبر، العجز أو الجبن كما يظن عامة الناس، بل معناه العزم والاستقامة. ومن ميزات المؤمن الصابر وشعاره أنه يقف في سبيل الحق كصخرة صامدة أمام المصائب والنوائب ويواجهها كلها بالاستسلام ورحابة الصدر.

النظم السياسية الراهنة: بعدما أوضح الشيخ الفراهي الخلافة والأمور التي تتعلق بها، انتقد النظم السياسية الراهنة وعلق عليها. وهذا البحث مندرج تحت عنوان "إفادات الفراهي".³

ما زالت تختلف صورة النسق والترتيب لمعاملات الإنسان الاجتماعية في كل زمان، وقد مرّ زمان طويل للتاريخ الإنساني كانت فيه الحكومة فردية وراثية، وكان الناس يعتقدون أنه لا يستحق الحكومة إلا شخص معين أو أفراد من الأسرة المعينة، وقد استخدم الملوك الدهاة عدة حيل لتحقيق هذا الهدف، مثلاً أنهم أكّدوا للشعب بأنهم يختلفون عن عامة الناس، ويجريفي شرايينهم دم الآلهة والعظماء، وأنهم من أبناء الشمس والقمر وما إلى ذلك. ومن مآثرهم بعض

¹ في ملكوت الله، ص: 45.

² سورة البقرة: 153.

³ في ملكوت الله، ص: 46-47.

العدد الخاص مجلة الهند

الكلمات التي تستخدم في الهند نحو سورج بنشي وتشندر بنشي، ورام راج وظل إلهي أيضًا من هذا القبيل.

ولم يمكن للشعب أن ينقضوا سحر هذه السيطرة، وما تنتهي حكومة ملك إلا إذا كان الملك الآخر يهجم عليه ويستولي على عرشه، وصفحات التاريخ مليئة بقصاص الملوك الدموية، وكان عامة الناس يضطرون للخضوع أمام هؤلاء الملوك لحماية أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.

قد انتهى العهد الطويل للملك المطلق في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، واحتلت مكانه النظم الجمهورية والاشتراكية. فكانت اليونان أول دولة في الزمن القديم عرفت الجمهورية، ولو أنها كانت مدنية ولم ينضم إليها جزء كبير من السكان، وفي الحقيقة قد بدأ النظام الجمهوري بعد ثورة فرنسا التي كانت مبنية على الاتفاقية العمرانية لروسو، وقد بدأ النظام الاشتراكي في بداية القرن العشرين الميلادي 1917م، وأصبحت روسيا مولده ومسكنه الأول.

نقد الشيخ الفراهي هذين النظامين للحكومة نقدًا شديدًا، وهو يرى أن أكبر مفسدة للنظام الاشتراكي هو أنه لم يراع الأهلية الفطرية للإنسان، ويثير هذا النظام العداوة والبغضاء بين الطبقات المختلفة للمجتمع الإنساني، لذلك فهو فتنة كبيرة،¹ وجعل الشيخ الفراهي النظام الجمهوري مشابهًا للفوضى² الذي كان منهجًا خاطئًا للحكومة عند العرب، وجعلوه الحكومة الحمقاء، واليوم تؤيد أكثر دول العالم خاصة الدول العربية هذا الأسلوب للحكومة ولكن هذا النظام أيضًا يعتبر فتنة وباعثًا على هلاك المجتمع الإنساني كالنظام الاشتراكي.³

أما ما رأى الشيخ الفراهي عن النظام الجمهوري ففيه نظر، يرى فيه أحوال عهده واضحًا. والنظام الجمهوري مع بعض مفسده يفوق غيره من النظم السياسية.

¹ في ملكوت الله، ص 47.

² الفوضى: هي الحكومة التي يتساوى فيها الجميع.

³ في ملكوت الله، ص: 46.

وإن كان المجتمع منقفاً فلا يكون أي نظام سياسي أفضل منه، وأما الخلافة فلم يتم قيامها بعد الخلافة الراشدة، ولم يستطع المسلمون تأسيس أي نظام من نظم الحكومة أقل درجة من الخلافة كذلك، وقد مضى عهد طويل للتاريخ الإسلامي مشتملاً على النظام الشخصي والاستبدادي، وكذلك اليوم تقوم الحكومات والملكيات المطلقة في أكثر الدول الإسلامية، ففي هذه الأوضاع لا يوجد بديل للنظام الجمهوري ولا بد من اختياره ولو عن كره، ولكن من المعروف أن المسلمين لا يصلح لهم نظام الحكومات الغربية، لذا ينبغي اختيار أمير المؤمنين عن طريق أهل الحل والعقد بدلاً عن أن ينتخبه الشعب،¹ ويجب أن يكون للأمير بسطة في العلم والجسم كما سبق البيان.

المساواة في الحكومة: قال الشيخ الفراهي رحمه الله إن تصور المساواة في الحكومة يخالف أصولها ولا تقوم به الحياة العائلية للأفراد ولا الأمور الاجتماعية بوجه صحيح، وإن تعدد الحكام للقيام بالأمور المختلفة فيجب أن يكونوا تحت سلطة الحاكم الأعلى، ويجب أن يرجع كلهم إلى الأول في تنفيذ الشؤون المتعددة.²

لم يتعرض الشيخ الفراهي رحمه الله لتصور المساواة الاجتماعية التي تعجب اليوم الدول الغربية، والتي كانت في منزلة الدين في الدول الاشتراكية، ويختلف تصور المساواة الاجتماعية في الإسلام عن تصور المساواة الغربية والاشتراكية.

ومن المعلوم أن أفراد المجتمع ليسوا سواء في قوتهم الجسمية والذهنية وأهليتهم، لذا لا تتحد نتائج جهودهم وسعيهم بل تختلف حسب أهليتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾³. ومن ثم تختلف الضرورات الاجتماعية، وتنشأ الطبقات المختلفة في المجتمع، وهذه ظاهرة طبيعية تلزم لتكميل ضروراتها الاجتماعية

¹ للتفاصيل انظر كتابي "إسلامي رياست".

² في ملكوت الله، ص 47.

³ سورة الليل: 4.

المختلفة، ولكن مع ذلك لا ننسى أن الحالة غير المتساوية تحدث نتيجة لظلم الطبقات القوية، وهذا لا تقبل ويجب إزالته، وجميع أفراد المجتمع سواء في استحقاق التكريم والرقى والتقدم ولا يجوز أي تمييز بينهم من أجل اختلاف ألوانهم وألسنتهم وأجناسهم وربوعهم، ومن أهم مقاصد الحكومة أو الخلافة الإسلامية أن تقوم الحضارة الإنسانية على أسس قوية، ولا بد أن توجد الفرص لكل أحد لتنمية مواهبه الفطرية على حد سواء، وليترك المجال لكل شخص حتى الوسع حسب أهليته الفطرية، ولا يسمح لأي فرد أو طبقة من الطبقات القوية أن يعوق أحداً عن هذا الأمر، وتعبير آخر أن كل فرد للمجتمع يستحق الحرية الكاملة للفكر والعمل في إطار القوانين الإلهية.

ويجب أن يكون نظام الحكومة على المستوى المركزي لتنفيذ تصور العدل الاجتماعي، وبمعنى آخر أن يكون عمال الحكومة تحت الحاكم الأعلى كما سبق ذكره، ويقوم الحاكم الأعلى بواجبات الحكومة بشورى أهل الحل والعقد.

لم يتقدم تصور المساواة الاجتماعية من وجهة النظر حتى الآن في الدول الغربية، وما زال تصور الرقي العنصري في أذهانهم إلى الآن، واليوم أيضاً يعتبر الأسود أدنى من الأبيض في أمريكا ولا يستحقون المساواة الاجتماعية، وكذلك في الدول الاشتراكية، وكانت تعد روسيا أكبر من حمل لواء المساواة الاجتماعية في زمن ما ولكن فشلت عملياً. وقام بعض رجال الحكومة وادعوا الحقوق الخاصة بأنفسهم ثم تسببوا في القضاء على الحكومة. وشهد العالم أن المملكة الكبرى تشتت في لمح البصر كما تنتشر حبوب السبحة بانكسار رابطتها.

اتعظ العالم من هذه الكارثة أن تصور المجتمع غير الطبقي لا مقام له إلا كما يتصوره الشعراء، ولم يكن يوجد مثل هذا المجتمع ولا يتوقع فيما بعد، وليست المشاكل وجود الطبقات في المجتمع وأنها لا بد من الضروريات الاجتماعية، بل من الأساس هو الفوارق المصنوعة بين الطبقات الاجتماعية المختلفة

العدد الخاص مجلة الهند

واستغلالها، ولا تستطيع الدول الغربية ولا الدول الاشتراكية معالجة هذه المشكلة، بل إنما يعالجه الإسلام فقط.

ولكن البلية كل البلية أن النظام الإسلامي لم ينفذ بالفعل في العالم كله، بل هو زينة الكتب وباب لامع للتاريخ الإسلامي، والعالم ينتظر أن ينفذه المسلمون من جديد لكي ينتشر الأمن والأمان على أرض الله.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. ابن عابدين، رد المحتار على در المختار، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة خاصة، 2003م.
3. العلامة إقبال، بال جبريل (كليات إقبال)، الجزء الثاني، مكتبة حميدية، غرهيا استريت، دلهي. د.ت
4. الفراهي، عبد الحميد، تفسير نظام القرآن، الدائر الحميدية، سرائي مير، أعظم كره، 1990م.
5. الفراهي، عبد الحميد، في ملكوت الله، الدائرة الحميدية، سرائي مير، أعظم كره، 1391هـ.
6. الفراهي، عبد الحميد، مقدمة نظام القرآن، الدائرة، مطبع الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، 1990م.
7. النووي، محيي الدين بن شرف، شرح صحيح مسلم، المكتبة الرشيدية، دلهي، 1376هـ.

فاتحة نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان

- العلامة سيد سليمان الندوي¹

الحمد لله الذي أنزل الكتاب، والصلاة والسلام على رسوله الذي أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب، وعلى آله وأصحابه الذين هم في الكتاب من أولي الألباب. أما بعد فهذه فاتحة تفسير نظام القرآن الذي أنعم به الله على عبده المدعو بعبد الحميد الفراهي، تغمّده الله برحمته. قضى من عمره عشرين سنة بل أكثر في جمع فوائده وقيد أوابده ففضى نحبه ولم يتيسّر له إتمام ما بدء به فتركه مبعثراً ومبثوثاً في الدفاتر غير سور أتمّ صنعها فأخرجها في صور الطبع، فقام أصحابه أختر أحسن وأمين أحسن الإصلاحيان اللذان تأدّبا بأدابه وتعلّقا بأهدابه، فلمّا شعث علمه، وجمعا ما تفرق منه في الأوراق فوضعها في صور الكتب والرسائل ومنها هذه الفاتحة التي صيغت في قالب الطبع.

أتى المصنف في ديباجة الفاتحة بما خطّ لتفسيره من الأصول فتجد من ديدنه أنه يفسّر القرآن بعضه ببعض، ولا يعرج على الإسرائيليات التي لا سند لها فإن احتاج إليها نقلها من صحف بني إسرائيل نفسها فعل الإمام البقاعي في تفسيره "نظم الدرر" ثم يستند على أشعار العرب التي هي ديوانها، فيحلّ معضلات التفسير بلغات العرب ومحاورات كلامهم ويخلص إلى ما خلاص من أحاديث النبي ﷺ وإلى ما صحّ من أقاويل السلف من التابعين رحمهم الله، والعمدة عنده فيه تفسير الإمام ابن جرير الطبري، فيوفّق بين مختلف الأقوال ويأتي بفذلكة الكلام وينتهي إلى ما صحّ عنده من التأويل فيجود خاطره في فصل الخصومات، وتمييز الطيب من الخبيث، ومحص القول من الباطل ما تعنو له الألباب وتنقاد له الأفهام.

نعم، هو مولع بإبراز الخبايا من زوايا صحف بني إسرائيل وما ذلك إلا انتشار ما في هذا العصر بين الناس واعتراض علمائهم بين المسلمين بهفواتهم ونشوء طوائف

¹ كاتب هندي كبير للدراسات الإسلامية

مبتدعة بين المسلمين، جلّ بضاعتهم تحريف الكلام، والغارة على صحف بني إسرائيل، وتأويل القول بما لا يرضى به قائله فاعتري صاحبنا بما هداه الله ليقوم للذّب عن الدين والدفع عن القرآن.

ثم هو يخرج من ذخائر الإشارات كنوز الرموز وهو كما صرح به ليس بتفسير ولا تأويل بل شيء أدّاه إليه ذوقه ووجدانه، والمجتهد قد يصيب وقد يخطئ، وشأنه فيه شأن صاحب "روح المعاني" في إشاراته في التفسير، لا شأن الباطنية والحكماء والمتصوفة الذين لا خلاق لهم.

والأمر الذي فاق به الأقران، وسبق الذين برزوا لتفسير القرآن، اعتناؤه بربط الآيات ونظام السور، وترصيف الكلام فهو السابق في هذا الزمان. سلك طريقاً غير معبّد يظنّه الجاهل غريباً وما هو إلا سنة أفاضل الصحابة وطريقة علماء التابعين فكل ما قالوه ليس من طريق النقل بل أدّى إليه اجتهادهم وتدبرهم في الآيات تدبر خاشعٍ لله ومبتغيٍّ للحق ومتبعه كما ترى الإمام الطبري في تصحيح الاقوال.

نسأل الله له السلامة، وندعو له بالكرامة ليجزل ثوابه يوم القيامة.¹

¹ طبعت هذه الفاتحة من مطبعة "إصلاح" بسرائر مير في 1357هـ.

كتاب "دلائل النظام"

- الشيخ بدر الدين الإصلاحي¹

حامدًا ومصليًا. وبعد، فإن هذا التأليف الصغير لأستاذنا الإمام الفراهي رحمه الله من خير التأليف القرآنية التي أخرجت للناس حتى الآن. وليس بمقدرة هذا القلم العاجز أن يصف ما له من الأثر العظيم في علوم القرآن وآدابه. فلا شك أنه من نعم الله التي قد أنعمها عليه بفضل القرآن وإعجازه. فقد فاق أقرانه بغزارة العلم، وقوة الاستدلال، وكمال الاجتهاد، وحسن الإبداع، فلا نبالغ إذا قلنا: إنه كتاب لم يصنف مثله من قبل.

قد أفردته لذكر دلائل النظام، وما له من المكانة في الكلام، فأثبت فيه أولاً بالدلائل الواضحة أن للترتيب بالنظام حظاً وافراً في كل مركب لاسيما في الكلام البليغ ولاسيما في هذا القرآن الحكيم. الذين يزعمون خلاف ذلك فإنهم قد أخطأوا في زعمهم ولم ينصفوا كتاب الله. ألا ترى أن أحداً منهم لا يرضى بأن يكون كلامه مختل النظام أو ضعيف الرباط، بل لو لاح له بعد زمان، شيء من الاختلال أو الضعف راجع فيه النظر وهذب به بغاية ما يمكنه. فكيف يرضون بهذا الخلل الفاحش في كلام الله الحكيم العليم؟ فلا شك أن الذين ذهبوا إلى نفي النظام في كلام الله، فقد تفوهوا بما لم ترض به نفوسهم، عفا الله عنهم.

ثم صرح بعد ذلك بأن القرآن الحكيم كلام منظم ومرتب من أوله إلى آخره على غاية حسن النظم والترتيب، وليس فيه شيء من الاقنضاب لا في آياته ولا في سوره، بل آياته مرتبة في كل سورة كالفصوص في الخواتم وسوره منظمة في سلك واحد كالدرر في القلائد، حتى لو قدم ما آخر، أو آخر ما قدم لبطل النظام وفسدت بلاغة الكلام بل ربما يعود إلى قريب من الهذيان.

¹ مدير الدائرة الحميدية الأسبق

ثم أوضح، ثانيًا، الوسائل التي تهدي إلى معرفة النظام، وأهمها عنده التدبر في القرآن، لأن الله تعالى قد جعله محلًا للتدبر والتفكير كما قال: (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) وكما قال في موضع آخر: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها). وهذا كثير جدًا. فالتدبر في آياته هو أول إقليد لفتح هذا الباب. فمن نظر في مطالب الآيات على حديثها ولم يتأمل في مناسبة أجزاء السورة فقد عميت عليه الحكمة وحسن نظامها، لأن أكثر الحكم مخبوءة تحت دلالات النظام وإنه لا يبرز إلا بالتدبر.

ولكن مع ذلك للتدبر أيضًا أساس: لا يدور قطب رحاه إلا عليه وهو الإيمان الصادق بالآخرة، كما قال تعالى: (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مستورًا، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقْرًا) فإن معاني القرآن لا تكشف إلا للمتقين الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم. فليلتمس أولًا من أراد التدبر في القرآن نفسه، هل له الإيمان الصادق بالآخرة؟ فإن وجد هناك الإيمان، فقد وجد نورًا لفهم القرآن ولا خلاف في ذلك.

فالتدبر مع الإيمان بالآخرة لهو أول مفتاح به يفتح كنوز القرآن، فالذي يكون بيده هذا المفتاح وهو كان عالمًا بصحيح علوم اللسان الذي أنزل فيه القرآن، فلا شك أنه يطلع على حسن نظامه ودقائق حكمته وإعجاز بلاغته، ويكون عند احتمال التأويلات الكثيرة على بينة من ربه فيختار ما كان أحسن منها تأويلًا، وذلك هو الفوز العظيم.

ثم مهّد السبيل، ثالثًا، إلى طريق علم النظام وأصوله. ولا شك أنه قد أدى حقه وأوفى ذمته، حتى جعله فنًا مستقلًا على أصول راسخة، مستنبطة من أساليب القرآن وقواعد اللسان، لم يهتد إليه أحد ممن سبقه وهو قد اهتدى إليه بنور القرآن وذلك من فضل الله.

فهذه ثلاثة مفاصل يتوجه إليها الكلام في هذا الكتاب، ولا شك أنه من تحقيقه هذا، قد فتح لنا بابًا عظيمًا لفهم أسرار القرآن وبلاغته وسهّل لنا الانتفاع به علمًا وعملاً. فإنه قد هيأ لنا بذلك سلمًا نبلغ به نهاية سعادتنا شوقًا ومحبة ولذة.

إن جماعة من العلماء المتقدمين، قصدوا إلى هذا العلم واعترفوا بأن علم المناسبة علم شريف وإن أكثر لطائف القرآن في حسن نظمه، كما صرح به الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير، وأيقن به الزمخشري وأدعى علمه ابن العربي، وأفرد له المخدم علي المهائمي تفسيره المسعى بـ"تبصير الرحمن وتيسير المنان". وصنف فيه الإمام برهان الدين البقاعي كتابه "نظم الدرر في تناسب الآي والسور" والإمام أبو جعفر بن الزبير شيخ أبي حيان كتابه "البرهان في مناسبة سور القرآن" وغيرهم من العلماء المحققين الذين قد صنفوا فيه وبيّنوه علمًا شريفًا واستحسنوه حتى شنعوا على المنكر به.

ولكنهم، وإن كان سعيهم مشكورًا، لم يبذلوا جهدهم إلا في الكشف عن المناسبة بين الآيات المتجاورة، أو السور اللاحقة والسابقة، ولم يمعنوا النظر في الكشف عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام من أوله إلى آخره فيصير شيئًا واحدًا ففقدوا بمجرد بيان المناسبة بينها من غير أن ينظروا إلى أمر عام شامل بكل ما يحتوي عليه الآية أو السورة. فلذلك لم يصيبوا في أكثر المواضع بل خبطوا خبط عشواء، وذلك لأن أكثر آيات وهكذا أكثر السور أيضًا ليست بمتصلة في كل موضع، بل الآية التالية أو السورة اللاحقة ربما تكون متصلة بالتي قبلها على بعد منها، فمن طلب المناسبة بينها مع عدم اتصالها فكيف يهتدي إلى نظامها؟ وكيف يفهم مرامها؟ فإن خبطوا فيها فلا عجب.

ولكن مع ذلك الفضل للمتقدم، فإنهم قد أبرزوا اعتناءهم أولاً بربط الآيات ونظام السور فلا شك أنهم قدوة لنا. ولو تمّم المتأخرون ما تركوه غير تام، وأوضحوا ما خفي عليهم لصار ذلك العلم فنًا مستقلًا. ولكن لم يتوجهوا إليه كما ينبغي، ولم يكن هذا إلا لدقته وغموضه، فبقي هذا العلم على ما كان في عصره الأول، حتى جاء أستاذنا الإمام رحمه الله وبحول الله وتوفيقه قد جعل هذا الجدول نهرًا. فإنه قد أسس أولاً لهذا العلم بنيانًا على أصول راسخة، واستخرج له فروغًا جامعة، ثم صاغه في قالب الفن المستقل، ولم يترك لنا مجالاً أن نخبط في وادي الشكوك حيرانًا.

إن علم النظام الذي قد ابتكره الأستاذ الإمام فإنه علم جامع، ليس كعلم المناسبة الذي كان مركزاً لأفكار السلف ومطمحاً لأنظارتهم. لأن التناسب إنما هو جزء من أجزائه، والنظام شيء زائد عليه بل أوسع منه، وأعمّ كما هو مبسوط في موضعه.

فعلم النظام لا يظهر التناسب وحده بل يجعل السورة كلاماً واحداً، ويعطيها وحدانيته التي بها صارت سورة كاملة مستقلة بنفسها، ذات عمود تجري إليها أجزاؤها ويربط الآيات بعضها ببعض حتى يأخذ كل آية محلها الخاص، ويتعين من التأويلات المحتملة أرجحها، فمن تدبر القرآن في ضوء النظام فلا شك أنه لا يخطئ في فهم معانيه، وذلك لأن النظام قد بيّن له سمت الكلام، وينفي عنه تشاكس المعاني، ويرد الأمور إلى الوحدة، ويسدّ أبواب الدخول فيه للأهواء حتى يجبره أن لا يأخذ إلا بصحيح التأويل ولا يعتمد إلا عليه وهو أعظم مطلوب.

إن هذه الاختلافات الشديدة التي نشأت بيننا، وقطعت حبال ألفتنا، فجعلها قد وقعت من عدم التزام رباط الآيات في تأويلاتها، فإذا اختلفنا في تأويل القرآن، اختلفت عقائدنا وصرنا مختلفين في ديننا، حتى انشقت عصانا وقامت العداوة والبغضاء فينا كما أخبر الله تعالى عن أهل الكتاب: (فنسوا حظاً مما ذكروا به، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) فأشبه حالنا بحالهم، فلو ظهر لنا النظام في آياته وأخذنا من المعاني ما أَرَادَهُ اللهُ، لاجتمعنا تحت راية واحدة وما اختلفنا في كلمة سواء بيننا فالدواء الوحيد لهذا الداء العضال أن نتدبر القرآن بقلب ساذج، ونؤمن بل نطمئن بما يظهر لنا من نظامه فلا نذهب إلا حيث يجزنا وإنما هو الذي لا تصلح أمورنا إلا به، كما قال النبي ﷺ: "لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها". لعل الله يرزقنا منه رزقاً حسناً.

وأخيراً يناسب أن أذكر كلمات في ما يتعلق بجمع هذا الكتاب وترتيبه:

(1) فاعلم أن هذا الكتاب ليس إلا مجموع من أفكار الإمام الفراهي رحمه الله، ابتكرها لكتابه هذا، دلائل النظام، ولكن لم يتيسر له أن يرتبها، ما عدا عدة فصول توجد في أوائله (1-10) فما زاد على ذلك فهو مما كان ماثوئاً في

مخطوطاته. فجمعتة أنا كما وجدته ورتبته حسب ما رأيته مناسباً فإن أصبت فيه فبتوفيق ربي وإن أخطأت فمن نفسي، والأستاذ الإمام بريء منه. (2) وإذ لم يكن أكثر هذا المجموع إلا كالأشارات التي يختزنها المصنفون لمصنفاتهم من غير تفصيل، فلا غرو إن كان فيه شيء من الإجمال والإبهام، فلذلك ينبغي لمن درس هذا الكتاب أن لا يمرّ عليه كالريح العاصف أو البرق الخاطف، بل يقف على كل سطر منه ويتفكر فيه، عسى أن يجده فصلاً مستقلاً. وكان في وسعي أن أفصل ما أجمل، وأفسّر ما أبهم، ولكنني أحببت أن أتجنبه كيلا يختلط مع أفكاره فكر آخر. فلم أزد عليه ولم أنقص منه شيئاً بل أبقيته كما وجدته في المخطوطة. فانظروا فيه وتفكروا، فإن في التفكير ترويضاً لعقولنا وتربية لها.

(3) أنا معترف بأنني لم أكن أهلاً لهذا الأمر العظيم ولكنني قد اضطررت إليه بالصيغة التي أوصاني بها شيخنا المغفور له اختر أحسن الإصلاحي الذي كان تلميذاً رشيداً للإمام الفراهي رحمه الله وأميناً لمخطوطاته النادرة. إذ قال لي يوماً في عام قد توفي فيه ما يكون لهذه الأمانات التي قد أودعناها الأستاذ الإمام رحمه الله، وأشار إلى مخطوطاته، فقلت له ماذا تريد؟ فقال أريد أن تطبع كلها من غير تأخير، فقد مضى عليها أكثر من ربع قرن ولم يطبع منها إلا نزر يسير فأجبت له لذلك ولكن قبل أن أهيء لها أسباب الطبع، حان له الرحيل وهو ارتحل إلى جوار رحمة ربه الكريم فوقفت بعد ذلك في حيص بيص، لأنني كنت رجلاً قليل البضاعة في العلم ومن كان لنا معتمداً فيه ومستنداً إليه لم يبق فينا. فخشيت هذا الأمر العظيم ورأيت مراراً أن أطويه على غره، ولكن لم تزل وصيته رحمه الله تضطرنني إليه فراحعت فضيلة الأستاذ الجليل أمين أحسن الإصلاحي مستشيراً في ذلك، وهو ثاني اثنين إذ هما يتأدبان بآداب الإمام الفراهي بمدرسة الإصلاح، وهو المرجع الوحيد بهذا العصر لأفكار الأستاذ الإمام وعلومه القرآنية، فشجعتني على الوفاء بما عهد إليّ شيخنا

العدد الخاص.....مجلة الهند

المغفور له، وهو وعدني بكل إعانة احتيج إليها فأرضيت بعد ذلك نفسي بهذا العمل العظيم مستعيناً بالله من ظلمات النفس وغوايات الجهل. فهذا أول مجموع من أفكاره النادرة القرآنية التي وفقني الله لجمعه وترتيبه وهكذا أجمع كل تأليف له وأنشره واحداً بعد واحد إن شاء الله تعالى. وبيده التوفيق.¹

¹ نشرته الدائرة الحميدية في 1388هـ

أساليب القرآن

- الشيخ بدر الدين الإصلاحي¹

حامداً ومصلحاً. وبعد، فإن هذا مجموع من الإشارات التي اختزنها أستاذنا الإمام الفراهي رحمه الله لكتابه "الأساليب"، قد أفردته لذكر وجوه الأساليب في القرآن، وبيان دلالاتها ومواقع استعمالها، ولكنه لم يتيسر له أن يؤلف هذا الكتاب الجليل، وينقل فيه هذه الإشارات إلى مواضعها. فبقيت هي، كما كانت، ماثورة في مخطوطاته ومبعثرة فيها، ولكنها إذ كانت مشتملة على مباحث مهمة وفوائد جلية، فأردت أن أجمع هذه الدرر وأنظمها في سلك، لعلها تكون نافعة لمن أراد أن ينتفع بها. فجمعتها في هذا المجموع من زيادة ولا نقصان. فالرجاء من الذين سيقروونه أن لا يعاملوه ككتاب مرتب، بل ينظروا فيه بالإمعان والتدبر، لأنه مجموع من الإشارات.

إن الأساليب لها مكانة عظيمة في كل لسان، لأثرها الخاص في تأدية الكلام وفهم معناه المراد، وهي بالحقيقة ما سمّوه بعلم المعاني. ففي هذا العلم: يبحث عن دلالة التراكيب المختلفة الوجوه، التي تدل عليها الأساليب المتنوعة، والغرض منه: أن يحيط العلم بما يدل عليه الكلام من المعاني، حتى يحفظ عما لا دلالة له عليه. وإنه بذلك: لأعظم شيء من جهة العلم باللسان، وأقرب وسيلة من جهة المعرفة ببلاغة الكلام.

إنّ الكلام لا يكون إلا حاملاً لعواطف المتكلم من الرضى والسخط والفرح والألم والرحمة والغضب والرجاء والحسرة واللين والشدة وغير ذلك من العواطف الروحية ولا يدل على هذه الأمور إلا تراكيب الكلام وتأليفاته بأساليبها الخاصة. فعلمها هو العلم الوحيد الذي يهدي إلى روح الكلام وسره.

ولكن الألسنة مختلفة في أساليبها، والعقول متفاوتة في الأقوام فلا بد أن لا يحكم في كلام قوم بمجرد الرأي والقياس على لغتهم، يحكم بما تعودوه أهل ذلك اللسان

¹ مدير الدائرة الحميدية الأسبق

العدد الخاص مجلة الهند

في كلامهم. فإنّ الحكم في كلام قوم من دون رعاية أساليبهم ودلالاتها حيف عليهم وعلى كلامهم.

إنّ علماء المعاني قد بذلوا جهدهم في هذا الفن. ولا شك أنّهم بحثوا عن كثير من طرق تراكيب الكلام وتأليفاته، حتى أنّهم شأوا فيه الأقوام وحازوا لهم قصب السبق، ولكنهم مع ذلك لم يؤدوا حقه. وذلك بأنهم لم يراعوا فيها سنن العرب في كلامهم بل مالوا إلى ما مهّد لهم المولدون المبعدون المتكلفون فجعلوا مدار الفن على رعاية الصور النحوية واستعمالات الحروف الخاصة حسب المواقع، كما صرّح به إمامهم الجرجاني رحمه الله، وبنى عليه كتابه "دلائل الإعجاز" فقصوروا النظر على صورة الكلام حسب القواعد النحوية، وزعموا أنّ إعجاز القرآن ليس إلا من هذه الجهة. لو أنّهم استقصوا كلام العرب واقتصروا آثار سننهم فيه وجعلوه ميزاناً لهم لمعرفة، ونظروا في أسلوب القرآن ونظمه المعجز، لم يذهبوا إلى ما ذهبوا فإننا نرى في القرآن كثيراً من الأساليب يخالف صريحاً قواعدهم النحوية. وهكذا نرى كثيراً منها ما يخالف مناهجهم المعهودة في الخطاب والالتفات والإيجاز والإطناب والوصل والفصل والاعتراض والحذف والتقديم والتأخير والفصل بين المتصلين والاستفهام والتلخيص وتضمن القول دليلاً وذكر الأثر لما يخفى وغير ذلك من الأساليب الكثيرة الوقوع فيه كما ستراه في الصفحات التالية.

إنّ علم المعاني الذي هو ميزان لنا لمعرفة دلالات الكلام ومحاسنها وجعلناه معياراً لأجل الكشف عن إعجاز القرآن، فلا شك أنّه ليس في وسعه أن يقيم لنا الوزن بالقسط في فهم براعة القرآن ونظمه المعجز. فلذلك يجب على المشتغلين بأداب القرآن وأساليبه أن يتعمقوا في دراساتها ويبحثوا عنها حسب ما استعملها لكشف القناع عن وجهها فإنّ المجال فيه واسع والحاجة إليه شديدة.

إنّ هذا المجموع أول خطوة لأستاذنا الإمام رحمه الله في هذا الميدان، والحق أنّه رحمه الله ما حقّق فيه من آداب القرآن وأساليبه فهو على أساس متين مأخوذ من سنن كلام العرب الخالص والقرآن الحكيم الذي لا أمت فيه ولا عوج. فإنّ نظرنا

العدد الخاص.....مجلة الهند

فيه وسلكنا سبله في دراستنا فالمرجو منه أن يكون شعورنا بجمال القرآن
وأساليبه أدقّ وألطف. ويكون لنا التطلع إلى إعجازه أسهل وأقرب. والله هو
المستعان وبيده التوفيق.¹

¹ نشرته الدائرة الحميدية في 1389هـ

إمعان في أقسام القرآن

- السيد أبو الحسن علي الحسن الندي¹

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

أما بعد، فقد كان موضوع أقسام القرآن موضوعاً يسترعي اهتمام المتدبرين في القرآن والمعنيين بتفسيره، والكشف عن معانيه وحقائقه ولطائفه ودقائقه؛ ويدعوهم إلى البحث في هذا الموضوع في بسط وتفصيل، لأن ما يتبادر إلى الذهن من الإقسام بشيء هو استشهاد المقسم به على ما يدعيه المتكلم ويريد أن يثبته ويؤكد. وما شاع واستقر في الأذهان أن القسم لتعظيم المقسم به. والله هو أجل وأعلى، وأسمى وأغنى عن أن يقسم بشيء هو من خلقه وصنعه، فيؤكد قوله تعالى؛ وينطق بقوله صدقاً وعدلاً، وصواباً وحقاً. فلم يكن من الغريب والمستبعد أن تتكون في هذا الموضوع مكتبة ذات قيمة وقامة، واتساع وضخامة، كما كان الشأن في موضوعات قرآنية أخرى.

ولكن الكاتب لم يجد، في حدود علمه وإطلاعه، كتاباً مفرداً واسعاً مفصلاً في هذا الموضوع الخطير، والمكتبة الإسلامية الدينية والعلمية أضخم وأوسع من أن يدعي مدّع أنه أحاط بها واستقصاها، إلا كتاب "التبيان في أقسام القرآن" تأليف العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية (ت 751هـ)² وهو، في حدود علم كاتب كلمة التقديم، أول كتاب مفصل علمي مؤسس على الدراسة العميقة والتدبر في القرآن، واستعراض لأنواع الأقسام والمقسم بها ومواردها في القرآن؛ يدل على عمق دراسة المؤلف وتذوقه للقرآن، وتجريه للاقتصار والاتزان. ومن سمات الكتاب الشمول والاستيعاب والإحاطة بجميع

¹ داعية هندي كبير وصاحب مؤلفات قيمة في الموضوع

² أمام الكاتب طبعة مكتبة الرياض الحديثة (الرياض)

أقسام القرآن والاستشهاد بأقوال السلف، بما فهم شيخه شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية. يتوسع فيه المؤلف أحياناً فيفسّر السورة التي وردت فيها هذه الأقسام، ويشير إلى الرباط الذي يربط آياتها بعضها ببعض. وتجيء أثناء ذلك لطائف وغوامض تفسيرية وتاريخية، ويستشهد أحياناً بأبيات ذات مناسبة بما جاء في بيان المؤلف. ويتجلى في الكتاب اختصاص المؤلف في فن الحديث والاطلاع على مصادره وما تضمنته من روايات وأسانيد، وفن الرجال، وذلك مما يرتجى من مؤلف كالحافظ ابن القيم الجوزية، واطلاع المؤلف على علوم تفيد في فهم الآيات وإثبات الإعجاز القرآني كالطب وعلم الأجسام وعلم النفس.

ولكنه كانت الحاجة ماسة ملحّة إلى تناول هذا الموضوع من جديد، في ضوء الدراسات القرآنية التي لا نهاية لها ولا تحديد، فالقرآن كما قال بعض المتبحرين والمتدبرين في القرآن "لا تبلى جدته ولا تنقضي عجائبه" وكما قيل: "كم ترك الأول للآخر"، وكذلك في ضوء الدراسات العميقة الشاملة لأدب اللغة العربية، مناهج كلام العرب الأولين، وفي ضوء الدراسات المقارنة للصحف لسماوية والديانات القديمة. وقد كان المؤلف، كما يقول أستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي، "مجمع البحرين و(بينهما برزخ لا يبغيان)، كان عالماً بالعلوم العربية والدينية، وفاضلاً في العلوم العصرية والإنكليزية، ومات وهو مكبّ على أخذ ما فات من العلماء ولفّ ما نشره ولمّ ما شئتوه، وتحقيق ما لم يحققوه"¹.

فجاءت هذه الرسالة، على قصر قامتها وكبر قيمتها، تنوب عن المكتبة القرآنية في موضوع أقسام القرآن بصفة خاصة، مع احتوائها على لطائف مفتّحة للقريحة، ومنيّة ومثيرة لإمعان الدراسة في القرآن والتدبر فيه من جديد.

ذكر المؤلف أولاً الشبهات الثلاث على أقسام القرآن. وهي شبهات رئيسية تدور في خواطر أوساط الناس والسطحيين من القراء. وقد ذكر أولاً ما أجاب به العلامة الرازي، وقد انتقده، وذكر عدم ارتياحه إلى وجاهته، وعدم إصابته الهدف. يتجلى

¹ ترجمة المؤلف للعلامة السيد سليمان الندوي

في ذلك ذكاؤه الحادّ، وقوة تحليله، وشجاعته العلمية والنقدية، واطلاعه الواسع على أساليب كلام العرب، وأثنى على طريق العلامة ابن القيم ثناء إجمالياً، وقد ناقشه مناقشة هادئة أدبية مما يدلّ على إنصافه واتزان، وشجاعته العلمية النقدية، وقد تناول هذا الموضوع "الاعتراف والنقد" بشيء من التوسع.

وقد عقد باباً مستقلاً بعنوان "طريق هذا الكتاب في الجواب على سبيل الإجمال". وقد أيد فيه أقوال بعض العلماء إن هذه الأقسام دلالات، وأعقبه بقوله: "ولكن الغمة التي لم تنجل عنهم والمضيق الذي لم يخرجوا منه، هو ظنهم بكون القسم مشتقاً على تعظيم المقسم به لا محالة، وذلك هو الظن الباطل الذي صار حجاً على فهم أقسام القرآن، ومنشأً للشبهات". وقد ذكر بعد ذلك بالإجمال "أن أقسام القرآن بال مخلوقات ليست إلا آيات دالة، وأنها نوع من القسم مباين للأقسام التعظيمية".

وقد بحث عن تاريخ القسم، وحاجة الناس إليه قديماً وحديثاً، وطرقه المتنوعة وبين معاني كلمات القسم ومفهومه الأصلي ومفاهيمه المتشعبة الثلاثة من الإكرام والتقديس والاستدلال المجزء. وعقد لذلك باباً مستقلاً بعنوان "تاريخ القسم وحاجة الناس إليه، وطرقه المختلفة، والدلالة على حقيقة معناه في أول الأمر". وهو باب يدلّ على اطلاعه الواسع على أساليب كلام العرب، وأساليب غيرهم من الشعوب والأمم، والآداب واللغات، والثقافات والديانات. ونوّه بعض الأخطاء في بعض الترجمات للصحف القديمة، مما يدلّ على دراسته المقارنة العميقة للصحف السماوية والديانات المختلفة، واطلاعه الواسع على كلام العرب الأولين، والاستشهاد بأبياتهم. واستنتج من ذلك أن القسم ليس إلا للتأكيد، ولا يحتاج إلى تقدير المقسم به في كل موضع. أما إذا ضمّ إليه المقسم به فإنما هو للإشهاد. ولا يراد منه التعظيم إلا إذا كان بالله تعالى وشعائره".

وذكر أنواع القسم، منها القسم على وجه الإكرام للمقسم به والمتكلم والمخاطب. والقسم على وجه التقديس للمقسم به. استشهاد في هذا الباب بأبيات كثيرة للشعراء الجاهليين مما يدلّ على اطلاعه الواسع على الشعر الجاهلي. ومنها القسم

العدد الخاص مجلة الهند

على وجه الاستدلال بالمقسم به، وهو الأقرب إل نوع الأقسام القرآنية، وأبعد عن الشبهات والتساؤلات. وقد استشهد في ذلك بأبيات العرب الأولين، وعرض في ذلك نماذج من كلام الأولين من بلغاء اليونان، ثم شرح دلالات القسم الاستدلالي، وذكر الأدلة المأخوذة من نفس القرآن على ما فيه من الأقسام الاستدلالية، وهي الغاية من تأليف هذا الكتاب، والمحور الذي يدور حوله. وتوسّع المؤلف في ذكر الأمثلة من القرآن، وتطبيقها على الغايات. ثم ذكر بعض أسباب خفاء الوجه الصحيح في تأويل أقسام القرآن. وذكر بعض ما في القسم من أبواب البلاغة ولطائفها.

وقد جمع هذا المؤلف بين التدبر الطويل العميق في دراسة القرآن، والتشيع بروحه، والاطلاع الواسع على أساليب البيان والبلاغة، والتعبير عن مكنونات الضمير في لغات مختلفة، والاطلاع على تعبيرات الصحف السماوية والأساليب الدينية البنيانية، مع دراسة مقارنة للديانات، واطلاع واسع وتذوق للكلام العربي والشعر الجاهلي. فجاء هذا الكتاب، على صغر حجمه، يجمع بين إزاحة بعض الحجب التي طرأت على هذا الصنف من الإعجاز القرآني، وبين مادة ثرية من الأصول الأدبية، ونكت متعلقة من فن البلاغة وأساليب البيان العربي. ولا يتأتى ذلك إلا لمن جمع بين التمييز في القرآن والاشتغال به، وبين التذوق الصحيح لفن البلاغة والمعاني والبيان في اللغة العربية، والتشيع من دراسة بعض اللغات الأجنبية والصحف السماوية القديمة، وبين سلامة الفكر ورجاحة العقل والتعمق. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وبعد، فإن كتابة كلمة تقديم، مهما كانت قصيرة وضئيلة القيمة، لكتاب يصدر من قلم عالم ضليع نابغة مثل العلامة عبد الحميد الفراهي رحمه الله، ويتحلى بمقال في ترجمة صاحب هذا الكتاب يصدر عن قلم أستاذنا محقق هذا العصر الكبير العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله شرفاً وتطاول لكتاب هذه السطور، ولكنه مع ذلك محاولة لمعرفة قيمة هذا الكتاب العلمية، وقياماً بشهادة بالفضل، وقياماً ببعض حقوق المشتغلين بعلوم القرآن. ونية المرء خير من عمله.¹

¹ إمعان في أقسام القرآن، دار القلم، دمشق، 1994م

ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي

- الشيخ بدر الدين الإصلاحي¹

هذه مجموعة من القصائد التي قرضها أستاذنا الإمام المعلم عبد الحميد الفراهي رحمه الله تعالى. قد جمعها من مخطوطاته وليس الغرض منها إلا أن تكون به مصونة عن الضياع وتبقى لقائلها ذكرى، وما توفيقي إلا بالله.

إن أستاذنا الإمام كان أديباً بليغاً وشاعراً حكيماً كما يدلّ عليه هذا المجموع، ولكنه مع ذلك لم يقرض إلا قليلاً، وذلك لأنه قد انقطع، بحول الله وتوفيقه، من بدء شبابه إلى النظر في القرآن والتدبر فيه، حتى وجد منه ما تهدء به العواطف وتطمئن به القلوب وتسكن إليه الأرواح، فيه سكنت فيه عوامل الشعر وهذأت، لكنه مع هذا إذ كان في نفسه شاعراً مطبوعاً، فإذا جاشت فيه عاطفة شديدة وهجمت عليه فهو إذن يقرض، وهو إذ كان ماهراً باللسان الذي أنزل فيه القرآن وبارعاً فيه، فيقرض على منوال الجاهليين وينشد على سبك فصحاءهم.

إن شعره كان جيد السبك، رائق الأسلوب، بديع الخيال، قوي المنطق، يمتاز بقليل الحشو، إنك تجد في شعره ما لا تجد في غيره من جزالة اللفظ ورشاقة الأسلوب.

قد جاء نظمه سهلاً خفيفاً، يطمع السامع أن يأتي بمثله لكنه إذا حاول، عجز، إنه قد أتى بقرضه للغة العربية دقة في التركيب، رقة في الأداء، جمالاً في الأسلوب، حسنًا في الخيال، رونقاً في البيان، وطلاوة في المعنى، وإن هذه كلها تدلّ على أنه كان من الشعراء المطبوعين المجيدين الذين لا يقرضون إلا بفيض قريحتهم ووحى فطرتهم.

إن كثيراً من هذا المجموع يتعلّق بالحروب التي تلظت نارها بين الطليان والتركبة وبما شبّت من سعيها على طرابلس والبلقان فلا شكّ أنها كانت داهية عظيمة.

¹ مدير الدائرة الحميدية الأسبق

العدد الخاص مجلة الهند

حلّت بالعالم الإسلامي حتى لم تبق منه أرض إلا وقد نالت من لهيبها. فجزع هو على هذه الملحمة الكبرى وجاش بها صدره حتى قذف على لسانه ما يحتاج للقول. فبكى وأبكى ورثى قتلى طرابلس بأبلغ الرثاء.

وأما قليلاً منه ما يتعلّق بالحكمة والموعظة الحسنة فقد نبّه بذلك الإنسان من غفلته وحذّره من تقلب الزمان وفتنته وأرشده إلى نور الإيمان وحكمته. وإنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

قد جمعنا في هذا المجموع ما وجدناه في مخطوطاته، ولكن أخبرنا بعض الثقات أنّ له قصائد لم تصل إلينا أيدينا، فيخطر ببالنا أنّ كان له شيء مما عداها فهو إما أنّ يكون قد تلاعبت به أيدي الأيام وأفتنته وإما أنّ يكون موجوداً عند أخلّائه أو تلامذته، فإنّ كان عندهم شيء منها فالرجاء منهم أنّ يتفضّلوا به علينا.¹

¹ نشرته الدائرة الحميدية في 1387هـ

ذكرى حميد الدين الفراهي

- الشيخ عبد الرحمن الكاشغري¹

هجم الزمان بصولة العدوان	وفرى القلوب بصرام الأحزان
وغدا لبرد العيش منا سالبًا	وحشا لنا الأحشاء بالنيران
وسقى النفوس من المصيبة خمرة	وشوى الكبود بجمرة الحرمان
يا ويح جمر كآبة بلهيبها	ذاب الحشا، وانصب من أجفاني
فبتلك صدري كان كانون اللظى	وبذاك عيني معدن المرجان
قامت عليّ قيامة قد أذهلت	قلبي عن الإخوان والأوطان
بل قد سرت تلك المصائب في الورى	لا يدعي فيها الخلاف اثنان
قد أصبحوا في حيرة منها فلم	يدروا شمائلهم عن الإيمان
بل في الجماد أظنها قد أثرت	فضلاً عن الإنسان والحيوان
أفلا ترى البيضاء كيف تغيرت	كمداً فأبدت صفرة اليرقان
لا تعجبوا إن أصبحت حبشية	لدجى سرى فيها من الأشجان
طرق النوائب لم يذر من راحة	إثراً لقاصمها ولا للذاني
والله أن قريحتي لقريحة	بمصيبة كبرائن القرحان
موت الإمام البارع المتفرد الـ	ـمتورع المتبرع المحسان

¹ كان أستاذًا للعربية وآدابها في دار العلوم التابعة لندوة العلماء وشاعرًا كبيرًا في الهند

العدد الخاص مجلة الهند

كل المصيبة، لا مصيبة دونها	هانت لديها هلكة الأكوان
قد كان من قدس وحسن خليفة	روحاً هدى في صورة الإنسان
وترى البصائر في صباح جبينه	نجم السعادة ساطع للمعان
والكوكب الدري تقتبس السنا	من برق ذاك الحسن والقمران
ويعطر الأيام من أنفاسه	عرف الهدى والعلم والعرفان
قد كان كعبة سؤدد وبفضله	للمكرمات مشيّد الأركان
ويد السماح وهامة الهمم العلى	ولسان صدق فيصلاً كيما
ومحجة الحسنى وحجة أهلها	ويمين دين الحق والإيمان
ومسيح أموات القلوب ومحياً	بطريقة النظم ¹ العظيم الشأن
هادي جميع العالمين وشيخهم	وملاذهم وخليفة الرحمن
كنّا بجانب مثل هذا المقتدى	في لجة النعماء كالحيثان
واليوم أصبحنا حيارى ظلمة	من فقد ذاك المصيح النوراني
أضحى لتلقاء المهيمن رائحاً	تلقاء عليين كالروحاني
فجزاه عنا الله أحسن ما جرى	متفضلاً عن شاكري الإحسان
وأحلّه الرحمن حلّة قريبه	وكساه فضلاً حلّة الغفران
رؤى ثراه مزن برّ إلينا	وعليه دام مواهب الرضوان ²

¹ المراد به نظم القرآن

² مجلة "الضياء"، رجب سنة 1351هـ